
الاستبشار
بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار
المسمى: اللطف الخفي في شرح رباعيات الجعفي
فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين
أبو الفتح عبد العزيز الجعفي الشاذلي
الاستبشار
أبو الفتح عبد العزيز الجعفي الشاذلي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

الاستبشار

بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار

المسمى: اللطف الخفي في شرح رباعيات الجعفي

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشر المومنين

أبو الفتح عبد العزيز الجعفي الشاذلي المغربي عفا الله عنه



الكتاب: الاستبشار بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار

الكاتب: أبو الفتح عبد العزيز الجعفي

الإيداع القانوني: **2013 MO 2358**

ردمك: **978-9954-32-511-7**

تصميم الغلاف: أسماء لقبيبي

الإخراج: الحسن سميح

بمساعدة: رشيد حميمي

الطبع: مطبعة طوب بريس **22** زنقة كلكوتا حي المحيط الرباط المغرب الهاتف: **212537733121**

الطبعة الأولى

2013ميلادي / 1434هجري

إهداء

وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

إلى ابا عبد النبي وامي اخديجة

والدي رحمهما الله

رب ارحمهما كما ربياني صغيرا

إلى والديكم ووالدي جميع الناس

إلى جميع الآباء والأمهات

بما تجلى فيهم من عطف ورحمات، وبما تفانوا في تربية البنين والبنات

لا يريدون بذلك جزاء ولا شكورا

أرفع هذه الصفحات

عرفانا للجميل

بين يدي نجواك

ولما التفتت إلي، وألفيتني متبرما ببني جنسي، متبرئا حتى من نفسي، أشرقت سبحات وجهك نورا على ظلال روعي، وسرت محبتك في قلبي وأوصالي، حتى سال لها دمعي، وخفق القلب خفقان الطير الذبيح، فرحة لم تكن في وسعي، بما همني من ألطاف التام بها فرقي على جمعي. فما عادت أكوان أراضيها تقلني، ولا سماواتها تظلني، ولا نهارات شموسها تهمني، ولا ليال أقمارها تهل لي

وإذا بالزمان تولى وانحسر، وإذا بالمكان ولى واندثر، وإذا الموت يحيى في ارتقابي، وإذا الفوت يقبل في إيابي، وإذا الآتي حاضر في غيابي، وإذا البهجة أفراح في بكائي وانتحابي

لا تسأليني من أكون، فما عدت سوى سكرة من سكرات المنون، احتضرت، فراودتني في أكفان نسجت بخيوط الحنين

لا تعجبي مني، إنني بدعة أغربت في عوالم تاهت عن كل غريب، أضحت خيالات في اعتقادي ووجودي، لا تخطئ ولا تصيب، في غيبتي وشهودي، شدني إليها ما وجدت من شمائل الحبيب

لا تلوميني على ما اقترفت في انفصامي، من هالات التبست على ذوي الأفهام، وانتكست في فطامي، وما رست سوى على همتي واهتمامي، بعد أن كرست حيراتي في انهدامي وارتطامي

أنا لما انكدرت سماء هويتي، هجرتها ولذت بأسماء حقيقتي، تضيء كوامني، وتسطع في رويتي جمالا وبهاء، في عز قبحي وبليتي

أنا في هيام هائم في دروب أحبابي، في اهتمام ساهم لست أدري ما بي، في التآم قائم على الحجاب، في انقسام دائم على أنخابي

قد عدت بما ولاني من عناية مولاي في زمرة الأحباب، وتبوأت بما وليني سيدي مقاعد كل أواه أواب، أن فتح لي الباب على مصراعيه، وكشف عني الحجاب، فلما دلفت إليه، تجلى فاندكت جبال أمنياتي، وتلاشت كالسراب

أنا بك يا الله، فرد في مواثيقي وعهودي، متى استشعرت ذاتي، أثقلتني أغلالي وحبستني قيودي

أخذتني من نفسي، فما عدت أتوق لما هويتك لهواها، وطهرتني من رجسي، فسموت عن لهوها وصباها، وحررتني من حبسي ومحوت توهمي ولبسي، فوجدت منك ما ضيعته في اثقالها وغباها

أنا بك يا وارث لست أخشى زوالا

أنا بك يا ثابت لست أبغي انحلالا

أنا بك يا ناصر لست أخاف نزاعا ولا أهاب اقتتالا

أنا بك يا رحمن في أمن من يأسي، لا أدعو ثبورا ولا أشكو وبالا
أنا بك يا غني في غنى عن غيرك، ترزقني ما يواتي حاجتي، لا إكثارا ولا إقلالا
وأنت عني في كبرياء محيط بأكوان لا يحصيها عاد، ولا يصفها واصف، تاهت حسنا وجمالا
وأنت عني في جلالك ليس كمثلك شيء، معروف بالهيبة قبل أن أكون، وبعد أن لا أكون، تعاليت في ملكك قديما أزليا قبل بدء الوجود، وبعد أن يلقى الوجود زوالا
وأنت عني في عزة وبهاء، أشرقت بنور وجهك الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، شديد قوة ومحالا
تكرمني بالقرب متى شكوت بعدي وانتابتني وحشة بين أهلي في أوطاني، وتؤنسني في حضرة لست أهلا لها، ولكن سبق لي منك الحسنى، فحضرت فيها وغبت عن وجودي، لست أبغي بها رفعة وافتخارا
تبشرني إذا ما ضمت وأفزعني ذنبي، وأسقمني خطبي، وعادني الأحباب والأصحاب وما فرجوا عني هما ولا كربا، حتى هجمت بشارات على روعي ببرد الرضا، فطفقت ألهج بحمدك، لا أفتر ليلا ولا نهارا
ترفعني من حضيض إنسيتي، وتغسلني من درن أمنيتي، وترفع لي أستارك عن عوالم قدسية، وتنعت لي أسرار الحقيقة، وتنعتني بنعوت أحبة مولهين حيارى
تبسطني وتطويني، تقصيني وتدنيني، تكتمني وتبديني، تسعدني وتشقيني، تذكرني وتنسيني، وتقبضني وتجريني
فابسط ما انطوى من إحجامي، واطو ما تجرأ من إقدامي، واقص عني توابعي، وأدن من رحماتك روائعي
اكتمني عندك بعد افتضاحي، وأبدني بعد خمولي وانسراحي، وأسعد ما هنت وما حزنت في أرزائي وأتراحي، وأشقني بالجوى إن ما سلوت في مسراتي وانشراحي
اذكرني في نفسك عند ادكاري، وأنسني نفسي وحظي وتدبيري واختياري
واقبض عني كل قابض يقبضني، وأجر التحاقي عن كل حائل يحجزني
عرفتك تحب إلحاحي، فما فتئت طارقا أبوابك، حتى آذنتها بانفتاح
عرفتك تحب مني الخفا، فخفيت عن كل خاف، فمازادني إلا ظهورا، فلما سألتك الخفا، أظهرتني، فخفيت حتى على نفسي
عرفت بأنك المولى، فالتزمت بآداب العبيد، ورأيتني أحقر الناس وأهونهم، فعززتني بعد أن تذللت، ورفعتني بعد أن تدانيت، ونصرتني بعد أن تخاذلت، فحسبي أنني عبد مولاه الله، وحسبك أنك إله غني بنفسه عما سواه
عرفتك تحب تحنثي ونجواي، فلازلت أناجيك قائما وقاعدا وراقدا، حتى خاطرتني، ولما خاطرتني بكمت أن كدرت نجواي صفو بثي وحزني إليك
عرفت أنك تحب خلقك، فلم أعد أشير إليهم إلا بخير، ونذرت نفسي لخدمتهم حتى ألقاك، ودعوت لهم بالمغفرة والرحمة والطمأنينة والسلام، وتمنيت من كل قلبي أن يكونوا خيرا مني مترلة في الدنيا والآخرة

عرفت أنك تحب رسولك ﷺ، فصليت عليه أعدادا وأعدادا، آناء الليل وأطراف النهار، فلم يكفني عد ولا حساب، فوكلت الأمر إليك وقلت: سبحانك لا أحصي صلاة على سيدنا محمد كما صليت أنت وملائكتك عليه، اللهم صل على النبي كما تشاء بما تشاء، صلاة ترضيك وترضى بها عنا يوم البعث والجزاء

من مثلك واحد، لا ند له ولا شبيه في الأسماء والصفات والأفعال؟

من مثلك رحمن رحيم حليم صبور، يغفر الذنب ويقبل التوب، يحط الأوزار ويضع الأثقال؟

من مثلك سنا بهائه ذاع في جميل خلقه وفي حسن صنعته، وأخفى وجهه الكريم عن كل من شهد بعلو شانه وعظيم حكمته في خلقه، وتجلى للمتوسمين الذين نزهوا قلوبهم عن محبة سواه، بعد أن اصطفاهم وكتبهم في ديوان أحبابه، وأفضى لهم بما لا يحتمل ولا يقال

من إلاك في السماء إله وفي الأرض إله، لا إله سواه، وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يئوده حفظهما وهو العلي العظيم، "ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال".[1]

بشوارق اللفتات في ليال معتمات، بأعين باكيات ذابلات، لفت لما أشرقت ما تشتت من أمنيات الوصال، في أحلى اللحظات، فارتاع الباكون، وشهقوا أيما شهقات، وامحوا في غمرة الرضا، لما أعارهم ربهم من الزمان أسعده، وعمر عليهم من المكان أوحشه، فطال زمانهم وعمروا في الحوار، وترامى مكانهم فانبسطوا في الجوار.

وبأفنان العناية لما تدلت على المتلهفين، جناها دان، فنونا فنونا، يبثون إليها شكوى وأنينا، ويتمسحون وقد بللت شؤونهم ما تدلى منها، فسال اعترافا وإذعانا على قلوبهم حتى روين

وبأسرار الأمداد تترى، تعاقبت على جأش أهل الصفا والوداد، بغير ميعاد، تنعش الروح وتثلج الفؤاد، يستقبلونها شاكرين، من لدن رب العباد

وكؤوس شربها يحيي النفوس بعد مواتها، يتعاطونها ندامى في التعريس، بعد أن أشرفوا على عرش بلقيس وإيوانها، وحسبوه هو بعد التدليس، ولما أزال غشاءهم رأوه كما هو، عرش كالعريش، فسألوا الله أن يهديهم إليه، فإذا ليلهم نهار بعد الغلس والتغليس، وإذا عرش الرحمن قائم لا تمويه ولا تلبيس

القاصدون الله لا يبغون سواه، طلبوه ثم قصدوه، فهداهم وقربهم

السائلون الله، دعوه وتضرعوا إليه، فاستجاب لهم وقبلهم

الراجون عفو الله، ألهوه ووحدوه، فعفا عنهم وطهرهم

هو قصدي، هو مجيبي ورجائي، وأنا القاصد، والسائل الراجي

---

[1] الرعد14

ولما تجلى من أحب تكرما وأشهدني ذاك الجمال المعظما

تعرف لي حتى تيقنت أنني أراه بعيني جهرة لا توهما

وما هو في وصلي بمتصل ولا بمنفصل عني وحاشاه منهما

وما قدر مثلي أن يحيط بقدره فأين الثرى من رفعة البدر إنما

أشاهده في صفو سري فأجتلي جمالا تعالى أن يقسما .[2]

---

[2] سلوة الأنفاس

توطئة

الحمد لله الأول، أحمده بلا عد ولا انتهاء، الواحد الأحد، لا يضاهيه أحد في الأرض ولا في السماء

الحمد لله الآخر، بلا حد ولا غاية، الواحد الفرد، في البدء والنهاية

الحمد لله الظاهر، وغيره في غيابات العبودية غابر، لما أحاط بشؤون البرية، وأجرى من أمورها كل ما هو صادر، وأمسك عنها بقدرته الخفية، ما جرت به الأقدار وانتهت إليه المصائر

الحمد لله الباطن، ظهر فيما برأ وذرأ من حوادث ومناظر، وخفي في مكنونات القلوب وكوامن الأفكار والضمائر، بما بدا من ألطاف في أصول الأطياف، واستقر من أسس في أصناف العناصر

أحمده على أنه الله، لا إله غيره، لما استوى على عرشه بما تقتضيه الإحاطة ويستلزمه التدبير، وأذن لمجريات كون الأسباب والستائر، بأن تساير وتسير، وفق ما خط قبل أن يبرأه بكثير، مذعنات طوعا وكرها، ليس فيها معاند ومكاثر، الحكيم المبدع الصانع، فاسأل به أولي الألباب والبصائر

أإله مع الله؟ وهو الذي حبا الإنسان بما أودع فيه من نسائم السلوان، روحا منه بلا تجزيء ولا انتقاص ولا نقصان، تمده في كون الشقاء والأحزان، ببشائر الرحمن، وتذكره إذا نسي، في كل وقت وأوان، بأن ربه معروف بالعفو والجود والإحسان.

أإله مع الله، بل هم قوم يعدلون.[3]

فإذا مسه القنوط اصطبر

وإذا مسه الحزن استبشر

وإذا مسه طائف من الشيطان تذكر

وإذا مسه سوء صبر

وإذا مسه خير شكر.

أإله مع الله، بل أكثرهم لا يعلمون.[4]

أإله مع الله؟ وهو الذي لا يغفل ولا ينام، ويعلم ما يكتسب الأنام وتسرح الأنعام، وما تدور به الدراري والأجرام، متى اكتسب وسرحت ودارت، بمشيئة الحكيم العلام، وفق ما قضى من مقاصد وأحكام.

أإله مع الله، قليلا ما تذكرون.[5]

---

[3] النمل62

[4] النمل63

[5] النمل64

أإله مع الله؟ وهو الذي جعل بين الإنسان والكون نسبة، كأنهما سيان، في الصفة والحسبة، متهافتان متعانقان متنازعان، خصمان في خلة وصحبة، تتوالى بينهما الأمداد، في الرواح والغدوان، مختلفات مشتبهات، بلا شك ولا ريبة، باهتات غامقات الألوان، كل له شربة، ناطقات بما استشكل على ذوي الفهم والعرفان، بما أشهد أولي الحضور والجذبة.

أإله مع الله، تعالى الله عما يشركون.[6]

أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض، أإله مع الله، قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.[7]

وأشهد أن محمدا رسول الله

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد

صلى عليك الله يا رسول الله حيث أقامك، صلاة توازي مقامك، وتعلي قدرك وتحفظ ذمامك، ما تطلع لبهائه المحبون، وما استشرف جنابه العاشقون، وما قلق لحضرته المولهون، يا علم الهدى، وفضلا على من اهتدى، حتى تستوي حيث أردت وأراد، وتتبوأ من المنازل ما وعدك رب العباد، وعد الله، لا يخلف الله الميعاد.[8]

أيها الموصول بشرف الأصول، واصل غير مفصول، الساري في أعراق شجرة زكية، من صلب إلى صلب، يرعاك رب البرية، إلى أن بعثت بها بيضاء نقية، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك

وعلى آلك وأزواجك وصحابتك، ما أشرقت شمس في ضحاها، على الأرض ورباها، وما هبت النسائم على وجوه ذوي التمائم، وما رفرفت الأطيار وسرحت البهائم، صلاة تخولنا دار المقام آمنين في النعيم المقيم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.[9]

اللهم صل وسلم على المسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، اللهم صل وسلم على راكب البراق يطوي السبع الطباق، إلى سدرة المنتهى، اللهم صل وسلم على من تقدم إلى ربه قاب قوسين أو أدنى

على ذاك الذي دلف إلى مولاه ما دلف غيره، فيما تقدم

على من قدمه جبريل للحضرة ما قدم سواه، وتأخر وتقدم

على من ناجى رب القدرة بما أرضاه، سمع وتكلم

---

[6] النمل65

[7] النمل66

[8] الزمر19

[9] الشعراء88-89

على من أوقفه ذو مرة على مولاه، صلى الله عليه وسلم

صل وسلم على هذا الرسول محمد، كما أحببت أن تصلي وتسلم، بما لم تصل على أحد، بأنه أحب الخلق إليك وأعزهم لديك، صلاة وسلاما تظهر بهما أمته على سائر الأمم

صل وسلم على هذا الرسول أحمد، كما شئت أن تصلي وتسلم عليه، بأنه أكمل بني آدم من قبل آدم، صلاة وسلاما ترفع بهما باعه، وتكثر أتباعه، وتخصه بالشفاعة، يوم تشرئب إليه الهمم

صل وسلم على هذا الرسول الخاتم، كما أتممت ببعثته الرسالة، وأكملت الدين فأوفيت كماله، وكما سأل لأمته الحسنى فلم ترد سؤاله، صلاة وسلاما تتمان علينا من آلائك وأفضالك سوابغ النعم، وتختم لنا بهما بالخير أيامنا عند لقائك

كما دعا الناس إليك وأخرجهم من الظلمات إلى النور، وكما أوقف المحبين عليك، وكشف عنهم أستار الديجور، وسأل الشفاعة لأمته يوم النشور

واشهد بأننا له شاكرون، على ما هدانا إلى سبيلك، واشهد بأننا لفضله ذاكرون، على ما أدى في سبيل نشر دينك، واشهد بأننا على هديه سائرون، فثبتنا على هديه بروحك وتأييدك

الله الله، نبي الرحمة رسول الله، غدا ألقاه، بإذن الله

الله الله، نبي الحكمة، رسول الله، متى ألقاه، قل لي بالله؟

الله الله، نبي الأمة، رسول الله، ترى ألقاه؟ إي والله

الله الله، رسول الختمة، رسول الله، لما ألقاه عند الله

رسول الله، من لي سواه، يوم الحشر والنشور، يشفع في ذنوبي؟

رسول الله، غدا ألقاه، بالبشر والسرور، أليس حبيبي؟

هنيئا يا أمة وسطا تاهت على سائر الأمم، خير أمة أخرجت للناس، في الشمائل والقيم، ما عليها من باس، رسولا ابتدأ وختم، الأنموذج الساري في أرواح السالكين طرق السداد، الداري سبل الفلاح، عرف السائرين مواقع الرشاد، فسروا خفافا للقاء المولى، ولهجت ألسنتهم بالشكر، اعترافا بنعيم لا يبلى

اللهم صل وسلم على محمد رافع اللواء، يمحق جيوش الظلام، اللهم صل وسلم على محمد رفيع المقام، اللهم صل وسلم على محمد أفضل صلاة وأزكى سلام

وعلى آله وصحبه، ما سبح مسبح وسابح سبح، وما اغترب غريب وغارب غرب، وما استتاب مستتاب، وتائب تاب، وما اعتبر معتبر وعابر عبر، وما ادكر مدكر وذاكر ذكر

وعلى آله وصحبه، ما خط القلم في اللوح مما كان ومما يكون، وما هدلت الورق على الدوح غشيها الحنين وأثارت الشجون، وما نظرت عين وبصر فؤاد ما هو ظاهر وبما هو مكنون

صلاة تجعلنا بها في الذاكرين، وتخولنا أعلى درجات التابعين، وتكتبنا في زمرة الناجين
الصلاة على محمد يا رفاق، صلوا عليه وسلموا تسليما
الصلاة على الأمين يوم التلاق، صلوا عليه وسلموا تسليما
الصلاة على الأحمدي، الراوي الساق، صلوا عليه وسلموا تسليما
ذاك بأنه رغب عن ملة الشرك، إلى ملة لا إله إلا الله
ذاك بأنه لجأ إلى الغار يتحنث للواحد القهار
ذاك بأنه نشر الإسلام وتوكل على الحي الذي لا ينام
وبأنه المختار، يوم لا اختيار إلا ما اختار الله
وبأنه المصطفى، يوم لا اصطفاء إلا ما اصطفى الله
وبأنه الشفيع، يوم لا تنفع شفاعة إلا من أذن له الله

صلى عليك الله يا حبيب الرحمن، صلاة وسلم في كل شان، صلاة لا تشبه أختها، وسلاما سيان، في كل آن وأوان، مختلفات في الفضل والإحسان، مفضيات بالرضا والرضوان، كاسيات حلل الجمال والجلال، لا حساب ولا حسبان، **تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون.**[10] صلاة وسلاما يجريان سلسبيلا، نهرا نهرا، يرويان أماني المحبين الأمين بالجزاء على الهداية والبيان، فراتا فراتا، على أنموذج الإنسان في جميع الأكوان، الأعقل في الولدان، الأثبت في العنفوان، والأحكم في الأرذلين، الكهولة والشيخوخة هما الأرذلان، يشهدان بحكمه وحكمته بين الأقران

الدياجي انجلت لما سطعت أنوار الأحمدي العدنان، على الكونين ظهرانيها والبطنان، فازدان بها البادي يمشي على محجة بيضاء نقية، واطمأن لها الساري في الفيافي والوديان

وعلى النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، كما صليت على النبي وآله وأزواجه وأصحابه

وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، كما صليت على النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، وعلى الملائكة أجمعين، جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، وحملة العرش حافين، وعلى رضوان القائم على جنتك، وعلى مالك كذلك، كما صليت على التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى الصحابة من جن نصيبين، وعلى صالحيهم إلى يوم الدين

وسلم اللهم عليهم مثل ذلك، واجعل صلاتي وسلامي رحمة للمومنين، وهداية للكافرين والمشركين والضالين

---

[10] الرعد4

وآمن بما صليت وسلمت روعنا وروع هذه الأمة، واكفها ما جرت فيه من ضنك وغمة، وتجاوز اللهم عن المسيئين، وارفع درجات المحسنين، واجعل كتابهم في عليين، وانصر الموحدين على أعداء الدين، حتى ينقلبوا خائبين، إنك ولي النصر والتمكين

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغني: أبو الفتح عبد العزيز الجعفي المغربي موطنا، الأشعري عقيدة، المالكي مذهبا والشاذلي مسلكا، غفر الله ذنوبه وستر عيوبه وفرج كروبه: هذا كتاب في شرح رباعية في قواعد السلوك إلى مالك الملوك، بلهجة العامية المغربية، وضعناها يوم وضعناها للأميين الذين لا يفقهون لغة الضاد، حتى يسهل عليهم فهمها ولو بالسماع

لكنها، بتوفيق من الله تعالى، لقيت قبولا في أوساط الأميين والقارئين على حد سواء

وقد ضمناها آداب الطريق، راجعين في كل ما قلنا إلى الكتاب والسنة، وما قرأناه واستفدناه مما صنفه أعلام الشرع والسلوك

فجاءت ملخصة مختصرة، سهلة ميسرة، جامعة غير مقتصرة، على غرار ما عليه قصيدة ابن البنا السرقسطي في السلوك، وتائية البوزيدي وغيرهما، رحمهم الله تعالى، إلا أنها بلسان دارجي، وقد جمعت ما أغفله غيرها من أصول الطريق ومبادئها، ومن تعريفات بمقاماتها ومسالكها وأحوالها

فارتأينا أن نشرحها بعون الله تعالى، ونستدل لها من الآثار الصحيحة والأخبار والرقائق، حتى يزيد قارئها وسامعها بذاك لها فهما، ويحوز به فقها

وقد كتبناها في بضعة أيام، عجبنا كيف جاءت كما جاءت في هذا الوقت الوجيز

كتبتها وأنا في حالة من الذوق والوجد، ألهمتني ما عجز عنه العقل من المعاني، وهذا لا يعني أنني كنت غير حاضر وأنا أكتبها، وإنما كنت في حكم المتلقي في أغلب ما كتبت، أخط ما يملي علي إلهامي

ولما أتممتها، لم أعرها اهتماما، ولم ألق لها بالا، حتى انتشرت بين الناس، فرأوا فيها ما لم أره، وأحسوا ما لم أحس، وشهدوا بأنها تقربهم إلى المولى عز وجل

وأسميتها: زنار

وقد تسألني مستغربا أو مستنكرا: كيف اخترت لرباعيتك هذا العنوان الغريب؟

فأقول: وأنا مثلك أتساءل عن ذلك، وإنما وضعته في حالة ذوق وإشراق، فلم أفكر في وضعه، ليخرج من مخرجها، ويعبر عنها أحسن تعبير

أما الزنار، فهو ما يلبسه الذمي يشده على وسطه

وإن شئت: هو حزام الراهب

فربما في ذلك إشارة إلى التحنث لله تعالى

وربما في ذلك كناية عن التشمير لعبادته سبحانه

أو ربما كما رأى، أخي وصديقي الأستاذ الحسن سميح: أنه ما دامت الرباعية تدعو إلى الوسطية في الدين، والزنار يوضع في الوسط، فذلك وجه التشابه بينهما، ولذلك سميت به

وكيفما كان الحال، تبقى هذه تأويلات لا ندري أيها صحيح

وقد يأخذ علينا العاتب تسمية الرباعية باسم الزنار، وهو يخص رهبان النصارى

فنقول: لا ضير في ذلك

فقد وصف الصحابة الكرام، رضي الله عنهم، بأنهم رهبان بالليل فرسان بالنهار

وقال الحاكم في مستدركه: أويس راهب هذه الأمة

وسمى رسول الله ﷺ الزبير بن العوام حواريه

ودعي ابن عباس بحبر الأمة

وقد عملنا جاهدين، على ألا نسوق في هذا الكتاب إلا ما صح من أحاديث رسول الله ﷺ، مثبتين رواتها، وحرصنا دائبين على أن نشير في الهوامش إلى مراجع الاستشهادات التي أتينا بها، مع تحقيق بعض ما يلزم تحقيقه، بالإضافة إلى ما أثبتناه من أصله من تراجم بعض الأعلام

ملاحظة: وقد نستشهد من أحد المراجع، ونسوق منه بعض الفقرات، وفي نهاية كل فقرة نكتب كلمة: انتهى، دون ذكر المرجع، وفي نهاية الفقرة الأخيرة نكتب: انتهى من مرجع كذا وكذا، قاصدين بذلك، أن ما سبق من فقرات مأخوذة ابتداء من المرجع نفسه

موضوع الكتاب

هذا الكتاب لا ينتصر للباطنية والصوفية، ولا للظاهرية والسلفية، بل ينتصر للإسلام
فهو موجه لكل من يقول لا إله إلا الله، كيفما كان مذهبه، وكيفما كان مشربه.. موجه للأمة
وموضوعه: حفظ ميزان الاعتدال، الذي أقام الحق سبحانه وتعالى عليه شريعة الإسلام
"والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان".[11]
هذا الميزان الذي مال به المتطرفون إلى التشدد والغلو والمغالاة، ومال به المتساهلون إلى الدعة والخمول واللامبالاة

نحن في كتابنا هذا، نحاول ما استطعنا، أن نرد الأمور إلى نصابها، بالحجة والدليل والبرهان
نحاول أن نوحد كلمة المسلمين ونجمع شتاتهم، نبشرهم حيث أنذرهم غيرنا، وننهاهم عن الشقاق والتكفير والتقتيل فيما بينهم

كتاب الاستبشار..بشرى للمسلمين كافة، تنشرح له القلوب المغمومة، وتفرح له النفوس المهزومة، وتطمئن بمعرفة مولاها الحنان المنان.

نحاول في هذا الكتاب، ألا نكون مجرد ناقلين لما كتبه غيرنا ممن سلف من العلماء والأخيار
فهذه كتبهم، رحمهم الله تعالى، لا زالت قائمة بين ظهرانينا، تزخر بها خزاناتنا ومكتباتنا، فلا داعي لتحصيل الحاصل، وما كتبوه يغني عن نقله
كما حاولنا ألا يأتي هذا الكتاب عبارة عن كلام الكاتب وحده، وآرائه ومواقفه الخاصة
فبذلك تكون هذه الآراء والمواقف، مجرد وجهات نظر واختيارات شخصية، لا دليل عليها ولا برهان، فلا تؤخذ بعين الاعتبار. إننا نورد الأقوال والاستشهادات من مراجعها، ونقابل فيما بينها ونحققها، ونختار ما هو صحيح على حسب اجتهادنا، ونؤيده بما تيسر من آيات وأحاديث
نساجل الفقهاء والمحدثين، كفقهاء ومحدثين، ونحاجج الزهاد والصوفية، كزهاد وصوفية، ونجادل المفكرين والمنظرين، كمفكرين ومنظرين
ولا نقتصر في كتابنا على استعمال أسلوب واحد، فمرة نتحدث بأسلوب الفقهاء والمحدثين، ومرة بأسلوب الصوفية ومواجيدهم، ومرة بأسلوب الأدباء وبلاغتهم، ومرة نكون شعراء، ومرة ننطق بكلام المجاذيب، وأخرى نردد مع المغنين أهازيجهم ومواويلهم

---

[11] الرحمن5-7

كما يتسم الكتاب فيما يسرده بالواقعية، فهو يعبر عن زمانه، بمختلف أساليب المخاطبات، ويحكي أحداثا ووقائع حاضرة، ويذكر أناسا من هذا الزمان

ولا يسير على نهج كثير من الكتب، التي تعارف أصحابها على أن كل من تحدث عن الأولياء، يجب ألا يذكر منهم، إلا ما ذكر في الرسالة القشيرية وقوت القلوب، وكأن الولاية انقطعت من على وجه الأرض، بعد ذلك الزمان، بل لا زلنا نظن الخير في أمة رسول الله ﷺ حتى تقوم الساعة

عن المغيرة بن شعبة عن النبي ﷺ قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين، حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون". رواه الشيخان

ونشهد أن لكل زمان أولياؤه، ولزماننا أولياؤه، وقد لقينا منهم عددا غير يسير، وتداولنا معهم أمور الطريق، وأفادونا بعلوم التحقيق، فكيف لا نذكرهم في هذا الكتاب، ولولاهم لما كان هذا الكتاب؟

فإذا كانت المعاصرة حجاب، فلا تكون حجابا لأولي البصائر والألباب

وإذا كانت مغنية الحي لا تطرب، فقد يطرب لغنائها أصحاب الذوق وعذوبة المشرب

الاستبشار، كتاب يصحح كثيرا من المفاهيم الخاطئة لدى كثير من الناس في الدين، فقهاء وصوفية، على حد سواء

هذا التصحيح، يكون بالرجوع إلى الكتاب العزيز، واقتفاء هدي رسول الله ﷺ وسنته

دستور يرجع إليه من اختلطت عليه أحكام الدين، وتاه بين المفتين، والتبست عليه شريعة المسلمين، بين الأدعياء والمدعين، في ركام من الأقاويل والاختلافات بين المتقدمين والمتأخرين

فصل المقال فيما يقال، في النوازل والأقضية والأحوال

معين صاف للواردين، الذين شربوا بأجاج الموارد فما زادهم إلا عطشا

وستجد أن ما نخرج به مما نختاره، بين هذه الاختلافات، يستجيب للفطرة الإنسانية، ويطمئن إليه القلب الصادق

ولعل استفتاء القلب يمكن عده أصل أصول التشريع، وروح طرق الاجتهاد

كما قال رسول الله ﷺ لوابصة الأسدي: "جئت تسألني عن البر والإثم؟" فقال: نعم، فجمع أنامله، فجعل ينكت بهن في صدري ويقول: "يا وابصة، استفت قلبك واستفت نفسك (ثلاث مرات)، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". رواه أحمد في مسنده

مرادنا بحول الله تعالى، هو أن تنتشر أفكار هذا الكتاب، بين أفراد الجماعات ومريدي الزوايا، كي تنير لهم تصوراتهم لأمور الدين وقضاياه

تصورات أخطأت في غالبها وجه الصواب، لأن أصحابها، استقوها من غير مصدرها، وانتصروا لصحتها بما قال فلان وفلان، في حين أن كل واحد يؤخذ من كلامه ويرد، إلا رسول الله ﷺ

أما أبو الفتح الجعفي، فما هو بشيخ ولا فقيه، ولا له جماعة وزاوية، ولا هو تابع جماعة وزاوية، إنما هو عبد من عباد الله، أكرمه الله تعالى بنصيب من العلم، فأراد أن ينفع به الناس قدر الإمكان والاستطاعة

ونعتبر نسبتنا إلى الشاذلية، نسبة إلى نهج الشاذلي رحمه الله تعالى، الذي يوافق سنة رسول الله ﷺ ولا يخرج عنها في شيء، فطريقته طريقة التزام وتنقيح، وتقريب وتصحيح

ولا يدل هذا، على أننا من أتباع زاوية من الزوايا الشاذلية، سواء في المغرب أو خارجه

لا ندعو أحدا إلى ترك ما هو فيه واتباعنا، فلسنا من المتبوعين في شيء، بل كلنا تبع لسيد الملة وإمام الأمة سيدنا محمد رسول الله ﷺ، ولسنا بجماعة، بل نحن من جماعة المسلمين

أفكارنا بالنسبة لما ترسخ في العقول والأفهام، من تصورات ومفاهيم، والتباسات وإشكالات، بمثابة منطق العلوم، فهو ميزان العلوم، وأفكارنا قواعد يعتمد عليها في فهم مقاصد الشرع ومرامي الأحكام

هي كالماء يجري في عروق الشجر، في جذوعها وأغصانها، يغذيها فتنبت الورق وتزهر بالنور

ويتميز هذا المؤلف بأن من نظم الرباعية هو الذي يشرحها بنفسه، وقد وضعنا هذا الشرح بطريقة الخلف، ممن شرحوا المتون والأراجيز، ولو أننا لسنا هنالك، وإنما تشبهنا بالعلماء الأبرار، والمصنفين الأخيار، فيما تعارفوا عليه من الأوضاع في كتبهم ومصنفاتهم، محبة وتيمنا، عسى الله تعالى أن يتقبله منا قبولا حسنا، و يحشرنا وإياكم في زمرتهم

فمتى قرأت: قال الشيخ، أو: قلت، أو: قلنا، فالمراد به أبو الفتح الجعفي، وهو الشارح والمشروح له في آن واحد

ولسنا ندعي العصمة فيما حررناه، بل قد نخطئ ونصيب، فمن شد علينا خطأ فليراسلنا بتصويبه، حتى نتداركه في طبعة أخرى، إن شاء الله تعالى

ولا ندعي الكمال، وإنما ابتدأنا راجين أن يأتي غيرنا ويتمم ما ابتدأنا، مأجورا

"وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب".[12]

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

كتبه أبو الفتح الجعفي، عفا الله عنه، في 013/09/25

[12] هود88

تمهيد

نشأة التصوف:

يرجع كثير من الباحثين، نشأة التصوف إلى ما قبل القرن الثاني الهجري

يقول الشيخ أبو القاسم القشيري رحمه الله تعالى: اعلموا رحمكم الله تعالى، أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ، لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم، سوى صحبة رسول الله ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة. ولما أدركهم أهل العصر الثاني، سمي من صحب الصحابة: التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين. ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد. ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهدا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفاسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر، قبل المائتين من الهجرة. انتهى[13]

ويرى السراج الطوسي رحمه الله تعالى، أن اسم الصوفي ظهر قبل ذلك بكثير، إذ يقول: وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه الله، كان يعرف هذا الاسم،[14] وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم، وقد روي عنه أنه قال: رأيت صوفيا في الطواف، فأعطيته شيئا، فلم يأخذه، وقال: معي أربعة دوانيق، يكفيني ما معي

وروي عن سفيان الثوري رحمه الله[15] أنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي، ما عرفت دقيق الرياء. وقد ذكر الكتاب الذي جمع فيه أخبار مكة عن محمد بن إسحاق بن يسار، وعن غيره، يذكر فيه حديثا: أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي، فيطوف بالبيت وينصرف. فإن صح ذلك، فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح، والله أعلم. انتهى[16]

---

[13] الرسالة القشيرية

[14] ولد الحسن البصري سنة 13هجرية، وتوفي سنة: 121هجرية

[15] ولد سفيان الثوري سنة: 97هجرية، وتوفي سنة: 161هجرية

[16] اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي

تعريف التصوف:

التصوف في مفهومه المتعارف عليه عند أهله: منهج متكامل يتبعه السالكون، لتهذيب النفس وتصفية القلب، من أجل الوصول إلى معرفة الله تعالى ونيل رضاه

قال الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: التصوف تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية. انتهى[17]

وقال الإمام أحمد ابن عجيبة: التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل؛ وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة. انتهى[18]

كما يعرف الشيخ أحمد زروق الفاسي التصوف بأنه: علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها لله عما سواه. انتهى[19]

إن التصوف بهذا المفهوم هو من صميم الإسلام، بل هو من تعاليمه ومبادئه، وذلك ما تدل عليه أحاديث رسول الله ﷺ وسيرته

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج يوما، فاستقبله شاب من الأنصار يقال له: حارثة بن النعمان، فقال له: " كيف أصبحت يا حارثة؟" قال: أصبحت مؤمنا حقا، قال: فقال رسول الله ﷺ : "انظر ما تقول، فإن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟" قال: فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها، فقال: فقال له النبي ﷺ: "أبصرت فالزم (مرتين)، عبد نور الله الإيمان في قلبه". رواه البيهقي في شعب الإيمان

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع". رواه البخاري

عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: "إن أغبط أوليائي عندي، لمؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر، وكان غامضا في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافا، فصبر على ذلك"، ثم نفض بيده فقال: "عجلت منيته، قلت بواكيه، قل تراثه". رواه الترمذي

عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر خرج إلى المسجد يوما، فوجد معاذ بن جبل عند قبر رسول الله ﷺ يبكي،

---

[17] نور التحقيق في صحة أعمال الطريق

[18] معراج التشوف لحقائق التصوف

[19] قواعد التصوف

فقال: ما يبكيك يا معاذ؟ قال: يبكيني حديث سمعته من رسول الله ﷺ يقول: "اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة؛ إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة". رواه الحاكم في المستدرك

وانظر إلى أويس بن عامر القرني سيد التابعين، كما أسماه رسول الله ﷺ، ألا يعتبر صوفيا بمفهوم الصوفي حسب ما يعتقده القوم؟

قال الحاكم في مستدركه: ذكر مناقب أويس بن عامر القرني رضي الله تعالى عنه

أويس راهب هذه الأمة، و لم يصحب رسول الله ﷺ، إنما ذكره رسول الله ﷺ ودل على فضله، فذكرته في جملة من استشهد بصفين بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لما كان يوم صفين، نادى مناد من أصحاب معاوية أصحاب علي: أفيكم أويس القرني؟ قالوا: نعم، فضرب دابته حتى دخل معهم؛ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خير التابعين أويس القرني". رواه الحاكم في المستدرك

وقد ثبت مما روي وصح، أن أويسا كان منقطعا إلى الله، عازفا عن الدنيا وأهلها

وبعد أويس القرني نذكر الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه

فقد تميز بخصوصية زهده عن باقي الأصحاب رضي الله عنهم أجمعين، ويعتبر أول زاهد ثائر على تبدل أحوال المجتمع الإسلامي من شظف العيش إلى ترفه

وهل فاق صوفي الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري في زهده وانقطاعه عن الدنيا واعتزال أهلها؟

روى الترمذي في جامعه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء، من ذي لهجة أصدق ولا أوفى من أبي ذر، شبه عيسى بن مريم عليه السلام"، فقال عمر بن الخطاب كالحاسد: يا رسول الله، أفنعرف ذلك له؟ قال: "نعم فاعرفوه له". رواه الترمذي

وقد أنكر أبو ذر على المترفين بعد وفاة رسول الله ﷺ ما هم فيه من رغد العيش، ورأى في ذلك خروجا عن سنة رسول الله ﷺ، حتى لم يطقه أحد، ورفعوا أمره إلى عثمان بن عفان، فطلب منه التنحي، فاختار الربذة وهي بين مكة والمدينة، وبقي بها حتى لحق بربه

روى الحاكم النيسابوري في مستدركه عن عبد الله بن مسعود قال: فقال رسول الله ﷺ، "رحم الله أبا ذر، يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده". فضرب الدهر من ضربته، وسير أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت، أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني، ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم، فقولوا: هذا أبو ذر. فلما مات فعلوا به كذلك، فاطلع ركب، فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقالوا: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر؛ فاستهل ابن

مسعود رضي الله تعالى عنه يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: "يرحم الله أبا ذر، يمشي وحـــده ويمـــوت وحده ويبعث وحده". فنزل فوليه بنفسه حتى أجنه. فلما قدموا المدينة، ذكر لعثمان قول عبد الله وما ولي منه. انتهى

أليس ما تحمله هذه الأحاديث الشريفة من تفان في العبادة، وعزوف عن الدنيا، دليلا على أن الصوفيين لم يزيدوا شيئا على الإسلام، سوى ما لم يزده رسول الله ﷺ؟

ونتساءل ونقول: ما فائدة استقلال المتصوفة بهذا الاسم، إن كانوا لا يدعون سوى إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ؟

أليس في هذه التسمية، شهادة على أنهم يسيرون على نهج غير نهج المسلمين؟

دعونا من التسميات والتحزب أيها المسلمون، فالرب واحد والدين واحد، وأسوتنا واحدة في رسول الله ﷺ

فالإسلام إذا شئتم: علم الحديث، وعلم الفقه، وعلم السلوك

فإذا كان المحدث رواية ودراية يعتمد على علوم الحديث لتصحيحه، قصد الذب عن سنة رسول الله ﷺ، وإذا كان الفقيه يعتمد الأصول لاستخراج الأحكام، والاجتهاد في النوازل

فإن الصوفي يقر بعلم الفقه والحديث، ويرجع في دينه إلى ما جاء به المحدث والفقيه، وينذر نفسه لخدمة ما أغفلاه، فيختص بعلم السلوك ووضع مبادئه، بالكلام في المعاملات والرقائق، معتمدا على القرآن والسنة، لكي يدل الناس على الطرق الموصلة إلى الله، وبذلك يتميز عنهما، بنهج سنة رسول الله تعالى في عبادته وأمور دينه، والتخلق بفضائل الأخلاق

يقول السراج الطوسي رحمه الله تعالى: وليس التفقه في أحكام هذه الأحوال ومعاني المقامات التي تقدم ذكرها بأقل فائدة من التفقه في أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود؛ لأن تلك أحكام ربما لا تقع في العمر حادثة تحتاج إلى علم ذلك، فإذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قلد في ذلك، وأخذ بقول بعض الفقهاء، فقد سقط عنه فرض ذلك إلى أن تقع به حادثة أخرى؛ وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التي يتفقه فيها الصوفية ويتكلمون في حقائقها، فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك، ومعرفة ذلك واجبة عليهم، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك، ليس له وقت معلوم، بل يجب على العبد في كل لحظة وخطرة أن يعلم إيش قصده وإرادته وخاطره؛ فإن كان حقا من الحقوق فواجب عليه أن يلزمه، وإن كان حظا من الحظوظ فواجب عليه مجانبته؛ قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد ﷺ: "ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا".[20] فمن ترك حالا من

---

[20] الكهف28

هذه الأحوال، ما تركها إلا من غلبة الغفلة على قلبه. واعلم أن مستنبطات الصوفية في معاني هذه العلوم ومعرفة دقائقها وحقائقها، ينبغي أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء في معاني أحكام الظاهر. انتهى[21]

فلا تقولوا: هذا ظاهري وهذا باطني، فالإسلام ظاهر وباطن، ولا تفريق بينهما، بل الله تعالى ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن

"وأن هذه أمتكم أمة واحدة، وأنا ربكم فاتقون، فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون، فذرهم في غمرتهم حتى حين". [22]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا، كأهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني". رواه البخاري

يقول السراج الطوسي: إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيي الرواية والدراية، فإذا جمعتها، فهو علم الشريعة الداعية للأعمال الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن، لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري ويظهر على اللسان، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنا نقول أن العلم ظاهر وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة. انتهى[23]

وقد بدأ التصوف فطريا بسيطا، كأي علم من العلوم، ومع مرور الزمن تحددت مبادئه وخضعت للدراسة والتفصيل، وألفت فيه الكتب

ومن أوائل من كتب في الموضوع:

أبو عبد الله، الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري، توفي سنة: 243هجرية. ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة المسترشدين، والتوهم

أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادي الخراز، توفى سنة: 277هجرية. ومن كتبه: الطريق إلى الله، ورسائل الخراز

أبو عبد الله، محمد بن علي بن الحسين الترمذي، الملقب بالحكيم الترمذي، توفي سنة: 320هجرية. ومن كتبه: ختم الأولياء، وتذكرة الأولياء، والرياضة وأدب النفس

أبو نصر، عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة: 378هجرية، وله كتاب: اللمع في التصوف

---

[21] اللمع في تاريخ التصوف

[22] المؤمنون53-55

[23] اللمع في تاريخ التصوف

أبو بكر الكلاباذي، المتوفي سنة: 380هجرية، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف
أبو طالب المكي، المتوفى سنة: 386هجرية، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب
أبو قاسم القشيري، المتوفى سنة: 465هجرية، وله كتاب: الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف
أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة 505هجرية، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها كثير. ويعد كتاب إحياء علوم الدين، من أشهر، إن لم يكن أشهر كتب التصوف وأجمعها

وأصبح التصوف أحوالا ومقامات ومواجيد، بل اتخذ لنفسه طقوسا تختلف حسب تعدد مذاهبه وتنوع مشاربه، ومنها خلع الخرقة ولبس المرقعة والجذب والخلوة، وما إلى ذلك مما أنكره كثير من العلماء، وقبله آخرون

وقد ازدهر التصوف في العصر العباسي على الخصوص، لأن هذا العصر شهد توسع الإمبراطورية الإسلامية، وتطبع أهله على الترف، وساد فيه المجون، فالتجأ كثير من المسلمين إلى الأخذ بالزهد في الدنيا، خوفا على أنفسهم ودينهم من الضلال والفسوق

يقول ابن خلدون رحمه الله تعالى: هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله، أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عاما في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية. انتهى[24]

إنها ظاهرة مغالية في التفرغ إلى الباري عز وجل بالكلية، مضادة لظاهرة الإعراض عن الله تعالى بالكلية
ويمكن أن نعتبرها حدثا حتميا، انبثق من تغير ظروف المسلمين واختلاف أمرهم بين ثابت ومتحول، فإن من حكمة الله تعالى في خلقه، أن جعل من كل شيء زوجين، خيرا وشرا، موجبا وسالبا، فقد خلق الليل والنهار والظلمة والنور، والماء والنار، والملك والشيطان، والرجل والمرأة
كما خلق الهداية والضلال، والتشدد والتسيب، فاقتضت حكمته سبحانه، ألا يعلو شيء على شيء، فما طغى أمر إلا جعل له ما يقابله من نقيضه، كي يحافظ على الميزان الذي من أجله خلق السماوات والأرضين
"والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان".[25]

---

[24] مقدمة ابن خلدون

[25] الرحمن5-7

فظهر في هذا العصر، أي العباسي، أساطين التصوف وأهرامه، وألفوا من الكتب ما اشتهر ذكره مما سقناه آنفا ويمكن أن نعتبر التصوف، مر عبر مرحلتين:

المرحلة الفطرية: حيث اتسمت مفاهيمه بالوضوح والتلقائية، فتحدد في الانزواء عن الدنيا ومجاهدة النفس والعكوف على ذكر الله تعالى

ومن أعلام هذه المرحلة: أم الخير، رابعة بنت إسماعيل العدوية، توفيت سنة: 180هجرية، وأبو نصر، بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزي، المعروف ببشر الحافي، توفي سنة: 227هجرية، وأبو الفيض، ذو النون بن إبراهيم الأخميمي، المعروف بذي النون المصري، توفي سنة: 245هجرية، وأبو يزيد، طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي، توفي سنة: 261هجرية، وأبو محمد، سهل بن عبد الله بن يونس التستري، توفي سنة: 283هجرية، وأبو القاسم، الجنيد بن محمد الخراز القواريري، توفي سنة: 297هجرية.

المرحلة العلمية: وهي تطور للمرحلة الأولى، نتيجة التطور الذي حصل في علم العقائد والأصول والفقه والتفسير، وهي مرحلة التحليل والاجتهاد

ومن هنا بدأ اختلاف المناهج والآراء، ولا نعد هذا الاختلاف إلا ظاهرة صحية ولدها الاجتهاد، كما لا يخلو منه علم من العلوم

إن هذا التناول العلمي لموضوع التصوف، أثمر فصله عن باقي العلوم، ووهبه استقلاليته عن غيره

فتعددت الطرق، كل طريق تسمى باسم منشئها

وتسمية الطرق بأسماء أصحابها، أمر طبيعي متعارف عليه لدى الفقهاء أنفسهم، فكما أن هناك، الجيلانية والرفاعية والشاذلية والتجانية، فهناك المالكية والشافعية، والحنبلية والحنفية

ولا تعني هذه النسبة، أنهم من ابتدعوا مبادئ هذه الطرائق، ولكن تعني عند الصوفية، منهجية كل واحد منهم، وكيفية تعامله مع نصوص التشريع فيما ينهج

وتعني عند الفقهاء، ما اعتمده العالم من أصول في استخراج الأحكام الشرعية، ومجموع فتاواه التي استنبطها اعتمادا على هذه الأصول من أدلتها التفصيلية

وقد تعرض كثير من المتصوفة إلى عدة انتقادات من طرف العلماء خاصة، فيما قالوه أو كتبوه، مما يخالف ظاهره عقيدة التوحيد، ومنهم: أبو عبد الله حسين بن منصور الحلاج توفي سنة: 309هجرية، وابن الفارض أبو حفص شرف الدين عمر بن علي بن مرشد الحموي، توفي سنة: 632هجرية، ومحي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، توفي سنة: 632هجرية

كيف وقد وقعوا في الاتحاد والحلول، ونطقوا بما لم يعهده أحد في السلف الصالح؟

نطقوا، وكأنهم أنبياء يوحى إليهم من دون الناس، وتحدثوا عن غيبيات لم يخبر بها القرآن الكريم ولا السنة النبوية المطهرة

فتحدثوا عن السماوات والأرضين، ووصفوا العرش والكرسي وسدرة المنتهى، بل ادعوا أنهم بلغوا ذلك وكلموا الله تعالى كفاحا وكلمهم

ومنهم من ادعى أنه لقي رسول الله ﷺ حيا يرزق، والتقى بعبد الله الخضر عليه السلام

فلا عتاب على من عارضهم وانتقد أقوالهم لكي يصون ظاهر الشرع، وحتى لوكانوا صادقين في بعض ما يقولون، فقد كان الأولى لهم أن يخفوه ولا يخبروا به أحدا، ما داموا يريدون وجه الله وحده

فإن ما ادعوا، يفتح الباب على مصراعيه أمام كل من هب ودب، ليقول ما شاء في الدين، خاصة في أمور تخص العقيدة السمحة، وإذا سألته عن دليله من الكتاب والسنة، قال: عرفت ذلك عن طريق الكشف، وأطلعني علام الغيوب على ما لم يطلع عليه أحدا من العالمين

وقد قرأنا في كتبهم، وما أكثرها، وحكمنا عليها بالإطناب، وتعمد الإبهام، ووجدناها لا تنفع الإسلام والمسلمين في شيء

رغم أن الناس لحسن نيتهم، تناقلوها وتوارثوها جيلا بعد جيل إلى يومنا هذا

إن كل ما يكتب أو يفعل، مما لم يقله أو يفعله سيد الأمة، من شأنه أن يخرب الدين ويبلبل عقيدة المسلمين، ولذلك وجب رده عليهم في الحال

وقد ذهب عقلاء العلماء، إلى الحكم على ظاهر كلام من نطق بما لا يليق بالربوبية من اتحاد وحلول، بالكفر وترك سرائره إلى الله تعالى، هو بها أعلم

قال المقري: فقد روينا عن شيخ الإسلام صلاح الدين العلائي عن جماعة من المشايخ، كلهم عن خادم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، أنه قال: كنا في مجلس الدرس بين يدي الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فجاء في باب الردة ذكر لفظة الزنديق، فقال بعضهم: هل هي عربية أو عجمية؟ فقال بعض الفضلاء: إنما هي فارسية معربة، أصلها زن دين أي على دين المرأة، وهو الذي يضمر الكفر ويظهر الإيمان. فقال بعضهم: مثل من؟ فقال آخر إلى جانب الشيخ: مثل ابن عربي بدمشق. فلم ينطق الشيخ، ولم يرد عليه. قال الخادم: وكنت صائما ذلك اليوم، فاتفق أن الشيخ دعاني للإفطار معه، فحضرت ووجدت منه إقبالا ولطفا، فقلت له: يا سيدي، هل تعرف القطب الغوث الفرد في زماننا؟ فقال: مالك ولهذا كل؟ فعرفت أنه يعرفه، فتركت الأكل، وقلت له: لوجه الله تعالى، عرفني به من هو، فتبسم رحمه الله تعالى وقال لي: الشيخ محيي الدين بن عربي،

فأطرقت ساكتا متحيرا، فقال: مالك؟ فقلت: يا سيدي، قد حرت، قال: لم؟ قلت: أليس اليوم قال ذلك الرجل إلى جانبك ما قال في ابن عربي، وأنت ساكت؟ فقال: اسكت، ذلك مجلس الفقهاء. انتهى[26]

ولا ننسى أنه ضمن أعلام المرحلة العلمية، متصوفة معتدلون، لم يخرجوا في سلوكهم ومنهجهم عن سنة رسول الله ﷺ

ففي مطلع القرن السابع الهجري، جاء الإمام أبو الحسن، المعروف بالشاذلي رحمه الله تعالى، ليرد الأمر إلى أصله، وينقي هذه المناهج من الأخلاط، ويصوب عوجها، مجددا بذلك دين الإسلام

فقد اتسم منهجه بسلامة الاعتقاد، وتحري السنة المشرفة في الأقوال والأفعال، فجمع بين التفقه في الدين، إذ العارف لا يكون سلوكه بغير تفقه في الدين، لكي يفرق بين الحلال والحرام، ويأخذ بالتجرد باعتدال دون تفريط ولا إفراط

وتفرعت عنه عدة طرق، فكان منهجه مدرسة خرجت من المشايخ والأولياء، ما ضن الزمان به في كثير من الأوطان والأحيان

كما أن بعض العلماء، قد غالوا في انتقادهم للصوفية، وبدعوا من أقوالهم وأعمالهم ما له أصل في الدين، وكفروا من لم يرتكب جريرة الكفر

وعلى رأس هؤلاء المتشددين في ذلك: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الحراني رحمه الله تعالى

حاجتنا إلى التكامل من أجل تحقيق التوازن

إذا نظرنا إلى الفريقين بعين الصواب وبنية الوصول إلى الحق، دون تعصب وعنجهية، سنجد أن الظاهرية والباطنية، هما شقان لثمرة واحدة

ويستلزم معنى الشق قيام النقص، فإن الظاهرية تمسكوا بظاهر النصوص، وحرصوا على ظاهر العبادات، غير أنهم غفلوا عن مقاصد الشرع من الأحكام، ولم يؤولوها، حسب روح الشرع، وحسب انسجامها مع تغير الإنسان وظروفه، وتنوع حياته الاجتماعية من زمان إلى زمان

بل إنهم قد بدعوا، وربما كفروا، كل من فهم من هذه النصوص ما لم يفهموه، وتعامل مع أحكام الشرع بطريقة غير التي تعاملوا بها

فطفقوا يحللون ويحرمون وفق مبدئهم العقيم، فعسروا من الدين ما يسر، وأنذروا في موضع التبشير، وسدوا على الناس كثيرا من أبواب الخير، بحكم أنها بدعة في الدين

---

[26] نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

وزرعوا الشقاق بين الناس، وشاع التراع والتقتيل، فأضحى الولد يكفر أباه لأنه لا يصلي، ولا يأكل وإياه في إناء واحد

وأضحت المرأة ترفض الزواج من الرجل لأنه غير ملتح.

بل فصلوا الناس عن أئمتهم المقتدى بهم، ونهوهم عن اتباع مذاهبهم، وقالوا لهم: لا تأخذوا سوى عن رسول الله ﷺ، فهو الأحق بالاقتداء والإتباع، وحرموا عليهم تقليد العالم المجتهد، وهم القاصرون عن استخراج الأحكام، لقلة علمهم، فأصبحوا لهم متبعين، وعن أئمة المسلمين خارجين، واتخذوهم أئمة لهم، فأوقعوهم في أفدح مما نهوهم عنه، بأن ساروا على مذهبهم، وطرحوا من هم خير منهم علما وتقى

ويا ليت هؤلاء الداعين كانوا علماء مجتهدين، ويااليتهم أنشأوا مذهبا فقهيا متكاملا حتى يتبعهم الناس، بل تتبعناهم وقرأنا ما يكتبون، فلم نجد لهم من العلم نصيبا، ولا من الاجتهاد خلاقا

ومتى أفتوا الناس لم يأتوهم بدليل فتواهم، وإنما قالوا: هذا حرام، وهذا حرام، فيصدق العامة قولهم، وكأنهم أنبياء يترل عليهم الوحي من السماء، وكأن الدين دينهم ورثوه عن آبائهم وأجدادهم، ولا حق لغيرهم فيه

"ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون".[27]

واستغلوا جهل أتباعهم، فأخفوا عنهم من الحديث ما لا يناسبهم، وأولوا ما يؤيدهم، وإن غلبهم حديث في الإخفاء ضعفوه بغير حق، وإن وجدوا في الضعيف والموضوع ما يوافقهم صححوه

ناسين أو متناسين، أن من كذب على رسول الله ﷺ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما، اتخذ الناس رؤوسا جهالا، فسئلوا، فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا". رواه البخاري

ولست أتهم جمع الظاهرية كله بهذه الأفعال الدنيئة، بل منهم المخلصون الصادقون، وقليل ما هم

فشاع الكبرياء بين علمائها، وفشا فيهم الغرور، وأصبحوا لا يحدثون الناس عن الله تعالى إلا قليلا، بل أصبح ديدنهم في أحاديثهم لمز الناس، ورميهم بالبدعة والكفر، فضلوا وأضلوا، هداهم الله للصواب، وأخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه

---

[27] النحل116

أما الباطنية، فقد أخطأ معظمهم في نهي مريديهم عن التفقه في الدين، ودعوتهم إلى الاقتصار على الضروري منه، بدعوى أن التفقه في الدين من شأنه أن يبعدهم عن الله تعالى، غير معتبرين قول رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين".[28]

فارتكبوا في العبادات زيادات خلت منها سنة رسول الله ﷺ، وحرموا النفس ما أحل الله لها من الطيبات

بل إن كثيرا من مشايخهم ادعوا العصمة، وادعوا بأنهم أعظم الناس درجة عند الله تعالى، دون جميع أولياء الله الصالحين: فهذا يدعي أنه خاتم الأولياء ولا ولي بعده، وهذا يدعي أنه صاحب الوقت، وذاك يدعي أنه واضع قدميه على رقاب جميع الأولياء، وهذا .. وهذا

ونصبوا أنفسهم لمريديهم، يمدحونهم بقصائد يقدسونهم فيها تقديسا، ودعوهم إلى الاستمداد منهم في أذكارهم، وبهذا يكونون قد دلوهم على أنفسهم وصرفوهم عن الله تعالى

فليحذر هؤلاء من أن يبوئوا بإثمهم وإثم أولئك يوم القيامة، فلا ينصبوا أنفسهم أوثانا تعبد من دون الله، من حيث قصدوا الدعوة إلى توحيده والكفر بسواه

يقول الله تعالى: "ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون".[29]

فهذا حال الأنبياء والمرسلين، فكيف يكون حال المذنبين أمثالي وأمثالهم؟

عن ابن عباس: سمع عمر رضي الله عنه يقول على المنبر: سمعت النبي ﷺ يقول: "لا تطروني، كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله". رواه البخاري

عن أبي مجلز قال: خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه، فقال: اجلسا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار". رواه الترمذي

وشح كلام الذوق والإشارات، وقلت مجالس المواعظ والرقائق في الزوايا، فلا تجد المريدين يتحدثون سوى عن شيخهم وكراماته، وأفضليته على سائر المشايخ، وسوى عن فرقتهم، بأنها الفرقة الناجية وغيرها في النار

وحتى أن من تكلم أو كتب منهم، أطنب حيث لا يحق له الإطناب، وأوجز حيث لا يستحب الإيجاز

فتلاعبوا باللفظ وموهوا العبارة، ولغزوا المعنى، فصار كلامهم لا يفهم، بل ذكروا من المغيبات، على حسب قولهم، ما لا يعلمه إلا علام الغيوب

---

[28] عن حميد بن عبد الرحمن: أنه سمع معاوية قال: قال رسول الله ﷺ: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، والله المعطي وأنا القاسم، ولا تزال هذه الأمة ظاهرين على من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون". رواه البخاري

[29] آل عمران78-79

ويا ليت شعري، أليس الدين في غنى عن كل هذا الركام والتركيب؟
أليس تركنا رسول الله ﷺ، على محجة بيضاء واضحة لا لبس فيها ولا غبش؟
ألم يقل عليه الصلاة والسلام: "قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ".[30]
عن أبي هريرة أن أعرابيا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: "تعبد الله لا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان". قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئا أبدا، ولا أنقص منه. فلما ولى، قال النبي ﷺ: "من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا". رواه مسلم
هكذا تكون طاعة الله عز وجل، هكذا الطريق إلى الجنة، معبد واضح مستقيم، غير متشعب، فما بالكم صورتموه للناس متاهة موحشة؟
دعوا الخلق للخالق، ولا تقفوا بينهم وبين الله، لا تصدوهم عن ربهم، لا تقفوا حجابا على بابه، وتحدثوهم عنه بما لا يليق به، اربؤوا على أنفسكم حتى لا تكونوا من الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد.[31]
إلا أن أتباعهم، تجد فيهم سمتا من الأخلاق والتواضع، وتجدهم لا يذكرون أحدا بسوء، بل يلتمسون للناس المعاذير، ويدعون لهم بالرحمة والهداية
لقد غالى الظاهرية في التمسك بظاهر الدين، وغالى الباطنية في التمسك بباطنه
وإنما الدين ظاهر وباطن، فلو تكامل الطائفتان، لحققوا ميزان الوسط، وانتهوا إلى الحق والعدل
ولما عاد ظاهريون وباطنيون، وإنما صار الجميع مسلمين حنفاء
وبين هؤلاء وأولئك، يحار المسلم، أي طريق ينهج، وأي فريق يتبع، وكأن لكل دينه، وكما قيل: إذا كثر الشعراء، ضاعت القصيدة

---

[30] عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة، ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذا لموعظة مودع، فإذا تعهد إلينا؟ قال: "قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي، وعليكم بالطاعة وإن كان عبدا حبشيا، عضوا عليها بالنواجذ". رواه الحاكم في المستدرك
[31] إبراهيم4

ماذا عن المغرب الأقصى؟

ومن خواص المغرب وفضائله، أخذ أهله بعقيدة أهل السنة والجماعة، هذه العقيدة السليمة التي تستجيب لها الفطرة ويقبلها العقل ويطمئن لها القلب، وذلك لأنها تنزه الله تعالى عن غيره، ولا تفصله عن أوصافه، كما أنها لاتكفر مرتكب الكبيرة وتحرمه من التوبة، بعد أن أعلم الشرع السمح بأن الله تعالى لايغفر لمن أشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

ومن خواصه وفضائله: إجماع أمرائه وعلمائه على اتباع المذهب المالكي، وتوحد شعبه عليه، بخلاف كثير من البلاد التي تعددت فيها المذاهب وتضاربت المشارب؛ ولا يخفى على أحد ما يميز المذهب المالكي من مرونة في استنباط الأحكام، بالاعتماد على أصول التشريع، بما في ذلك الاستحسان والاستصحاب والمصالح المرسلة وسد الذرائع، وغيرها مما ليس في غيره

دون أن ننسى فضل مالك على أقرانه، وإمامته في العلم والمعرفة

ومن خواص المغرب وفضائله، ثبوت حديث الرسول ﷺ بأن أهله لا يزالون ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة، وهذا نص الحديث: روى الإمام مسلم بن الحجاج عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة".

وقد روى هذا الحديث بلفظ المغرب من الكبار عدد ليس بالهين، كما سنرى إن شاء الله تعالى

والذي استرعى انتباهي، وأصابني بالعجب هو أن بعض العلماء، حاولوا جاهدين تأويل لفظ المغرب الوارد في هذه الأحاديث بغير معناه، فنسبوه لبعض البقاع في الشرق، و لم يذكر ضمنها المغرب الذي لا يدل اللفظ على إطلاقه سوى عليه، وكأنهم استعظموا على المغرب هذا الفضل و لم يرضوه له، أو ظنوا أن أهله دون ذلك، مع أن الحديث تعددت رواياته، وصح سنده، فمن ذلك:

قال شيخ الإسلام: وأول الغرب ما يسامت البيرة ونحوها، فإن النبي ﷺ تكلم بهذا الكلام وهو بالمدينة النبوية، فما يغرب عنها فهو غرب، كالشام ومصر، وما شرق عنها فهو شرق، كالجزيرة والعراق، وكان السلف يسمون أهل الشام أهل المغرب. انتهى[32]

ونرد على ذلك من ثلاثة أوجه:

الأول: دلالة اللفظ بإطلاقه على المغرب دون سواه، حسب ما تقتضيه لغة الضاد

الثاني: أغلب الروايات وأصحها، ورد فيها لفظ المغرب وليس لفظ الغرب

---

[32] مجموع فتاوى ابن تيمية

عن نافع بن عتبة قال: كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة، قال: فأتى النبي ﷺ قوم من قبل المغـــرب، علـــيهم ثياب الصوف، فوافقوه عند أكمة؛ فإنهم لقيام ورسول الله ﷺ قاعد، قال: فقالت لي نفسي: ائتهم فقم بينهم وبينه، لا يغتالونه؛ قال: ثم قلت: لعله نجي معهم، فأتيتهم فقمت بينهم وبينه، قال: فحفظت منه أربع كلمات، أعدهن في يدي؛ قال: "تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال، فيفتحه الله".

قال: فقال نافع: يا جابر، لا نرى الدجال يخرج حتى تفتح الروم. رواه مسلم

عن جابر بن سمرة قال: سألت نافع بن عتبة بن أبي وقاص، قلت: حدثني هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر الدجال؟ قال: فقال: أتيت رسول الله ﷺ، وعنده ناس من أهل المغرب، أتوه ليسلموا، عليه وعليهم الصوف، فلما دنوت منه، سمعته يقول: "تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله عليكم، ثم تغزون فارس فيفتحها الله عليكم، ثم تغزون الروم فيفتحها الله عليكم، ثم تغزون الدجال فيفتحه الله عليكم". رواه ابن حبان في صحيحه

وقد أخرجه أيضا، أبو عوانة في مستخرجه على صحيح مسلم، وأبو نعيم في الحلية، و أبو عمرو الداني في الفتن، وأبو العرب في طبقات علماء إفريقية، وبقي بن مخلد في مسنده، وعبد بن حميد من طريق شعبة وهشيم وعمر بن حبيب وعبد الوهاب بن الصلت عن داود بن أبي هند عن أبي عثمان النهدي عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة".

ورواية أبي نعيم : "لا يزال أهل المغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة".

وأخرجه كذلك، أبو العرب في طبقات علماء إفريقية قال: حدثنا عبد الله بن أبي زكرياء الحفري ويحيى بن عون الخزاعي، قال: وحدثنا أبو زكرياء الحفري عن عباد بن عبد الصمد عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله، ﷺ يقول: "لا يزال عصابة من أمتي بالمغرب يقاتلون على الحق، لا يضرهم من خالفهم".

الثالث: لم يثبت على النبي ﷺ، انه نعت مصر أو الشام، في جميع أحاديثه بالمغرب

الرابع: تسمية المغرب منذ غابر الزمان بهذا الإسم، قبل زمان ذكر النبي ﷺ له، إلى يومنا الحالي

يقول ياقوت الحموي: وسميت إفريقية بإفريقيس بن أبرهة بن الرائش، وقال أبو المنذر هشام بن محمد: هو إفريقيس بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو الذي اختطها، وذكروا أنه لما غزا المغرب انتهى إلى موضع واسع رحيب كثير الماء، فأمر أن تبنى هناك مدينة، فبنيت وسماها إفريقية، اشتق اسمها من اسمه، ثم نقل إليها الناس، ثم نسبت تلك الولاية بأسرها إلى هذه المدينة، ثم انصرف إلى اليمن، فقال بعض أصحابه:

سرنا إلى المغرب، في جحفل بكل قرم أريحي همام
نسري مع افريقيس، ذاك الذي ساد بعز الملك أولاد سام
نخوض، بالفرسان، في مأقط يكثر فيه ضرب أيد وهام
فأضحت البربر في مقعص نحوسهم بالمشرفي الحسام
في موقف، يبقى لنا ذكره ما غردت، في الأيك، ورق الحمام.[33]

وقال أبو الريحان البيروتي: إن أهل مصر، يسمون ما عن أيماهم إذا استقبلوا الجنوب، بلاد المغرب، ولذلك سميت بلاد إفريقية وما وراءها بلاد المغرب، يعني أنها فرقت بين مصر والمغرب، فسميت إفريقية، لا أنها مسماة باسم عامرها، وحد إفريقية: من طرابلس الغرب من جهة برقة والإسكندرية إلى بجاية، وقيل: إلى مليانة، فتكون مسافة طولها نحو شهرين ونصف، وقال أبو عبيد البكري الأندلسي: حد إفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة الخضراء غربا، وعرضها من البحر إلى الرمال التي في أول بلاد السودان، وهي جبال ورمال عظيمة من الشرق إلى الغرب، وفيه يصاد الفنك الجيد. انتهى[34]

يقول العلامة أحمد بن محمد البرنسي الفاسي، المعروف بزروق، في شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني: يكفي في راجحية مذهب مالك، كونه إمام دار الهجرة في خير القرون، ومتبوع أهل المغرب الذين لا يزالون ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة، كما صح في الحديث، وإن اختلفت رواياته، وعصم الله مذهبه من أن يكون فيه ذو هوى موسوما بالإمامة، وجعله مقدما عند الكافة، حتى أن كل ذي مذهب إنما يختاره مذهبه بعد مذهبه، وجعل رؤساء مذهبه حجة بعده في الحديث كالفقه، قد خرج لهم البخاري، وما ملأ كتابه إلا بهم، فهم الحجة الثقات والأئمة الأثبات، الذين برزوا و لم يثبت ذلك لغيرهم، وإن كان صالحا أمينا، ومن طالع مناقب الأئمة الأربعة، عرف علو مراتبهم ووجوب تقديمهم على غيرهم، ولزوم الاقتداء بهم، وترجح عنده أحدهم على ما يتعرف من مراتبهم. انتهى

لقد أشرقت شمس العلم والمعرفة على مغربنا الحبيب، ابتداء من لجوء المولى إدريس إليه، فارا من موقعة فخ قرب مكة المكرمة

وتمسك المغاربة بالإسلام عن طواعية، واتسموا بمحبة رسول الله ﷺ، وآل بيته الطاهرين وصحابته الغر الميامين، محبة لا تضاهى

ووجدوا أنفسهم في التجرد لله تعالى دون مغالاة

---

[33] معجم البلدان

[34] المرجع نفسه

وأنبتت أرض المغرب أولياء لا نظير لهم، لا زال ذكرهم يملأ الآفاق حتى اليوم، ولا زالت أخبارهم ظاهرة في الكتب والنوادي

وكثرت الزوايا، إذ كان للزاوية أدوار:

فهي رباط للجهاد، وملجأ للفقير والمحتاج، وموطن لمن أراد أن يتوب من ذنوبه ويتعرف إلى ربه

فانتشر التوحيد، الذي لا لبس فيه، إذ اعتنق المغاربة العقيدة الأشعرية التي يقبلها العقل وترتضيها الفطرة، وأجمعوا على اعتناقها، وشاعت أخلاق الفضيلة، من جود وكرم وعفة وورع

ولا زال أثر هذه الزوايا وما ربت من مؤمنين قائما في قلوب المغاربة وبيوتاتهم

وقد لعبت الزوايا المغربية عدة أدوار، وقامت بعدة مهام، دينية واجتماعية، وقد عرض الأستاذ أحمد التوفيق لبعض هذه الأدوار،[35] نذكر منها:

نشر الإسلام، في البلاد وما دونها من دول إفريقيا الجنوبية

إنشاء المواسم، وتنظيمها

تنظيم الجهاد لرد الغزو الأجنبي

الحرص على حفظ القرآن الكريم، وتعلم علوم الشريعة

بناء المدارس العلمية، وإنشاء خزانات الكتب

إيواء أبناء السبيل وإطعام الفقراء

رد جور الحكام والعمال على المظلومين

حث الناس على الحفاظ على البيعة وما تستلزمه من طاعة

قلت: ويعتبر المغرب ملتقى للحضارات، ورابطا بين قارتين، ومجمع بحرين، تميز أهله بالتنوع، فلا تكاد تبحث عن جنس أو لون بشري في الأرض، إلا وجدت له مثيلا في المغرب،كما يحقق هذا البلد السعيد، تنوعا طبيعيا، تتجلى فيه مختلف مظاهر الطبيعة، من بحار وجبال، وخصب وجدب، وصحار وجنات، وجليد

أما مناخه فيتميز بالاعتدال

فلا عجب أن يأتي دينه معتدلا، وتكون ولايته سنية تسير على النهج القويم

لقد أشرقت شمس هذا البلد العظيم على الشرق بأنوار الولاية، ألا ترى أن كثيرا من أولياء الشرق، مغاربة أو من أصل مغربي أو تتلمذوا على مغاربة؟

[35] معالم من تاريخ التصوف بالمغرب

وحسبنا، مثالا، إمامنا الشاذلي رحمه الله تعالى، دفين صحراء عيذاب بأرض الكنانة، واشتهار مدرسته وأتباعه في مصر وفي العالم بأسره

خاصية التصوف المغربي

تميز التصوف المغربي منذ إرهاصاته الأولى التي نذكر من أقطابها: أبا الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد السلام بن حرزهم المتوفى سنة: 559هجرية. وأبا شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي، الملقب بالسارية، المتوفى سنة: 561هجرية. وأبا يعزى بلنور الهزميري المتوفى سنة: 572هجرية. وأبا مدين شعيب بن حسين الأنصاري، المتوفى سنة: 594هجرية

تميز التصوف المغربي في بداياته هذه، ببساطته ووضوحه، وبعده عن الخوض فيما لا يفهم

ويبرر الأستاذ أحمد التوفيق، كون التصوف المغربي تصوف أخلاق وليس تصوف حقائق وإشراق، كما كان سائدا في الشرق العربي، بسببين: ثقافي وجغرافي:

يقول: أما السبب الثقافي، فهو غلبة العجمة على المغاربة في أوائل تاريخهم وأواسطه، في مستوى لا تمكن مقارنته بعجمة الفرس، من حيث تقليد الكتابة ومستوى اللغة الحامل للمعاني، فارتبط هنالك التعبير عن الحقائق بالعربية، وهي قليلة الانتشار بين الشيوخ والمريدين المتلقين على حد سواء. انتهى[36]

ويقول: أما السبب الجغرافي، لتركيز المغاربة على السلوك دون الحقائق، فيتمثل في حالة الاستثناء التي عاش فيها المغرب لعدة قرون، وهو يواجه المد العسكري المسيحي في الأندلس. وقد تولت كبر هذه المواجهة ثلاث أمبراطوريات عظمى، اتخذت من التعبئة برنامجا ساعد عليه الصوفية والفقهاء على السواء، برنامجا استدعته حالة الثغر، الذي لا يناسبه التشغيب على العقيدة، لكنه بحاجة إلى عواطف جياشة، لا يمكن أن تتغذى إلا من فيض مواردها الروحية. انتهى[37]

قلت: ولكننا نبرر خلو تصوفنا من كلام الأذواق والإشراق في بدايته، بما يلي:

طبيعة المغاربة في النظر إلى الأمور دون تعقيد، فلا ننسى أن المغاربة في الأصل أمازيغ، والظاهر من حياة الأمازيغ وأشعارهم، غياب الاستغراق في الخيال، كما عليه الحال في الأشعار العربية

غلبة الفقه والعلوم الدينية، فيما يدرس ويقرأ آنذاك، على الأدب والشعر، وعلم الكلام والفلسفة

ودليل ذلك، غلبة المصطلحات الفقهية على أشعارهم

ناهيك عن أمية بعض الأولياء الأوائل، وعلى رأسهم أبو يعزى نفسه

---

[36] المرجع نفسه

[37] المرجع نفسه

وقد ذكى روح التصوف في المغرب وحببه إلى النفوس، ما ألفه الأمازيغ من عيش التقشف في لباسهم وحياتهم، ورضاهم بما بسط من اللباس والمسكن، وتحملهم المشاق، لطبيعة مواضع سكنهم الجبلية على العموم
فيسر لهم ذلك تحمل وحشة الخلوات، بما كانت تتضمن من صيام وكثرة الذكر والعبادة، والاكتفاء بالزيت والشعير في المأكل

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

ابديت لبسم الله مولايا الرحمن الرحيم فى ابدايا

الصلا والسلام فى الثانى على نبينا العدنانى

لال والاصحاب الابرار مهاجرين ؤ لا أنصار

يقول: بدأت ببسم الله مولائي، الرحمن الرحيم في ابتدائي، والصلاة والسلام في الثاني، على نبينا العدناني، ثم على الآل والأصحاب الأبرار، المهاجرين منهم والأنصار

والمعنى: **فصل في فضل الاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم**

استفتح الشيخ رباعيته ببسم الله تعالى، جريا على ما دأب عليه أولوا النهى في خطبهم ومخاطباتهم، وفي كتبهم ومكاتباتهم؛ كيف وما من سورة في القرآن الكريم، إلا واستفتحت ببسم الله الرحمن الرحيم؟ فإن قيل: فما خطب سورة التوبة لم تستفتح بها؟ قلت: قال الحافظ إسماعيل ابن كثير رحمه الله تعالى: هذه السورة الكريمة من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ، كما قال البخاري: حدثنا أبو الوليد، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق قال: سمعت البراء يقول: آخر آية نزلت: "**يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة**"،[38] وآخر سورة نزلت: براءة، وإنما لم يبسمل في أولها، لأن الصحابة لم يكتبوا البسملة في أولها في المصحف الإمام، بل اقتدوا في ذلك بأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، كما قال الترمذي: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد ومحمد بن أبي جعفر وابن عدي وسهيل بن يوسف قالوا: حدثنا عوف بن أبي جميلة، أخبرني يزيد الفارسي، أخبرني ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المئين، وقرنتم بينهما و لم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبعة الطول؟ ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان: كان رسول الله ﷺ، كان مما يأتي عليه الزمان وهو يترل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء، دعا بعض من كان يكتب، فيقول: "ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا"، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها شبيهة بقصتها، وخشيت أنها منها؛ وقبض رسول الله ﷺ و لم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما، و لم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتها في السبع الطول.

[38] النساء175

وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه من طرق أخرى عن عوف الأعرابي به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، و لم يخرجاه. انتهى[39]

وإذا كان عدد سور القرآن الكريم مائة وأربعة عشرة سورة، فإن البسملة جاءت بالعدد نفسه في القرآن، وقد وردت المتممة العدد في سورة النمل، في قوله تعالى: "إنه من سليمن وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا علي واتوني مسلمين". [40]

قلت: وفيها استفتاح نبي الله سليمان عليه السلام ببسم الله الرحمن الرحيم في كتابه إلى بلقيس.

وقد تظاهرت الآثار وتواترت الأخبار ببيان فضلها وإعلاء شأنها: يقول أحمد بن عجيبة رحمه الله تعالى، في شرح المباحث الأصلية: فإن الصحابة أجمعت على افتتاح المصحف ببسم الله الرحمن الرحيم، على اختلاف بينهم في كونها آية أو غير آية؛ فذهب بعض الصحابة إلى أنها آية، وبه أخذ الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه، حتى أفتى ببطلان صلاة من تركها، وذهب آخرون إلى أنها غير آية، وبه أخذ مالك ومن تبعه، واحتج الصحابة من شدة تحفظهم وتحريهم لا يدخلون في المصحف إلا ما هو منه، واحتج مالك، بقول كثير من الصحابة ممن صلى مع النبي ﷺ، قال: فكان يفتتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين. و لم يقل بسم الله الرحمن الرحيم، والخلاف مذكور في كتب الفقه.

وكان الإمام المازري يقرؤها سرا، خروجا من الخلاف، وفي الحديث: "كل أمر ذي بال لا يبتدئ ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع"، وفي رواية: "فهو أبتر"، وفي رواية: "فهو أجذم". [41] انتهى[42]

كما استفتح بها رسول الله ﷺ في عهوده ومواثيقه وكتبه إلى الملوك، ومن ذلك: ما رواه البخاري ضمن حديث طويل، من نص كتابه ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وهو كالتالي:

"بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، "يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون". [43]

وقد حرص الشيخ على إيراد صيغة البسملة بأتمها في صدر رباعيته، حتى لا يفوته شيء من فضلها، فأرفق بسم الله باسميه: الرحمن الرحيم، بعد أن أقر بعبوديته لمولاه عز وجل فأجاد.

---

[39] تفسير القرآن العظيم لابن كثير

[40] النمل30

[41] رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين

[42] الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية

[43] آل عمران63

معنى اسميه تعالى: الرحمن الرحيم

قد روى الإمام الطبري عن العرزمي أنه قال: "الرحمن الرحيم"، قال: الرحن، بجميع الخلق؛ الرحيم، قال: بالمؤمنين.

وروى الطبري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: "إن عيسى ابن مريم قال: الرحمن، رحمن الآخرة والدنيا، والرحيم، رحيم الآخرة.

ثم قال رحمه الله تعالى، أي الطبري: فهذان الخبران قد أنبآ عن فرق ما بين تسمية الله جل ثناؤه باسمه الذي هو رحمن، وتسميته باسمه الذي هو رحيم، واختلاف معنى الكلمتين، وإن اختلفا في معنى ذلك الفرق، فدل أحدهما على أن ذلك في الدنيا، ودل الآخر على أنه في الآخرة.

فإن قال: فأي هذين التأويلين أولى عندك بالصحة؟

قيل: لجميعهما عندنا في الصحة مخرج، فلا وجه لقول قائل: أيهما أولى بالصحة؟ وذلك أن المعنى الذي في تسمية الله بالرحمن، دون الذي في تسميته بالرحيم: هو أنه بالتسمية بالرحمن، موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه، وأنه بالتسمية بالرحيم، موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه، إما في كل الأحوال، وإما في بعض الأحوال؛ فلا شك إذا كان ذلك كذلك، أن ذلك الخصوص الذي في وصفه بالرحيم، لا يستحيل عن معناه، في الدنيا كان ذلك أو في الآخرة، أو فيهما جميعا.

وإن قال لنا قائل: و لم قدم اسم الله الذي هو الله، على اسمه الذي هو الرحمن، واسمه الذي هو الرحمن، على اسمه الذي هو الرحيم؟

قيل: لأن من شأن العرب، إذا أرادوا الخبر عن مخبر عنه، أن يقدموا اسمه، ثم يتبعوه صفاته ونعوته، وهذا هو الواجب في الحكم: أن يكون الاسم مقدما قبل نعته وصفته، ليعلم السامع الخبر، عمن الخبر؛ فإذا كان ذلك كذلك، وكان لله جل ذكره أسماء قد حرم على خلقه أن يتسموا بها، خص بها نفسه دونهم، وذلك مثل الله والرحمن والخالق؛ وأسماء أباح لهم أن يسمي بعضهم بعضا بها، وذلك: كالرحيم والسميع والبصير والكريم، وما أشبه ذلك من الأسماء، كان الواجب أن تقدم أسماؤه التي هي له خاصة دون جميع خلقه، ليعرف السامع ذلك من توجه إليه الحمد والتمجيد، ثم يتبع ذلك بأسمائه التي قد تسمى بها غيره، بعد علم المخاطب أو السامع من توجه إليه ما يتلو ذلك من المعاني؛ فبدأ الله جل ذكره باسمه الذي هو "الله"، لأن الألوهية ليست لغيره جل ثناؤه، من وجه من الوجوه، لا من جهة التسمي به، ولا من جهة المعنى، وذلك، أنا قد بينا أن معنى "الله" تعالى ذكره: المعبود، ولا معبود غيره جل جلاله، وأن التسمي به، قد حرمه الله جل ثناؤه، وإن قصد المتسمي به ما يقصد المتسمي بسعيد وهو شقي، وبحسن وهو قبيح.

أولاترى أن الله جل جلاله، قال في غير آية من كتابه: "أإله مع الله"،[44] فاستكبر ذلك من المقر به، وقال تعالى في خصوصية نفسه بالله وبالرحمن: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى".[45] ثم ثنى باسمه، الذي هو الرحمن، إذ كان قد منع أيضا خلقه التسمي به، وإن كان من خلقه من قد يستحق تسميته ببعض معانيه. وذلك أنه قد يجوز وصف كثير ممن هو دون الله من خلقه، ببعض صفات الرحمة. وغير جائز أن يستحق بعض الألوهية أحد دونه. فلذلك جاء الرحمن ثانيا لاسمه الذي هو الله.

وأما اسمه الذي هو الرحيم، فقد ذكرنا أنه مما هو جائز وصف غيره به، والرحمة من صفاته جل ذكره، فكان، إذ كان الأمر على ما وصفنا، واقعا مواقع نعوت الأسماء اللواتي هن توابعها، بعد تقدم الأسماء عليها؛ فهذا وجه تقديم اسم الله الذي هو الله، على اسمه الذي هو الرحمن، واسمه الذي هو الرحمن، على اسمه الذي هو الرحيم.

وقد كان الحسن البصري يقول في الرحمن مثل ما قلنا، أنه من أسماء الله التي منع التسمي بها العباد.

حدثنا محمد بن بشار قال: حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال: الرحمن، اسم ممنوع.

مع أن في إجماع الأمة من منع التسمي به جميع الناس، ما يغني عن الاستشهاد على صحة ما قلنا في ذلك، بقول الحسن وغيره. انتهى[46]

قلت: والإسمان من أسماء الله الحسنى، مشتقان من الرحمة.

وقد رأيت فيهما غير ما رأى غيري، والله تعالى أعلم، قال الباري عز وجل: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى".[47]

و لم يذكر الله تعالى اسم الرحمن بعد اسم الجلالة عبثا، فإذا كان اسم الجلالة هو الاسم الوحيد الذي ورد في كتاب الله تعالى بلغة العرب، إذ باقي الأسماء كلها صفات، وماسميت أسماء إلا مجازا، فإن اسم الرحمن أقرب إلى اسم الذات عن غيره من وجوه:

الأول: نزه الله تعالى اسم الرحمن من أن يتسمى به أو يدعيه غيره، وكذلك اسم الذات

الثاني: لم تتصرف العربية في الإسمين معا بالتثنية والجمع ولا بالتأنيث.

الثالث: رافق اسم الرحمن اسم الذات في كثير من الآيات، مثاله:

قوله تعالى: "هو الله الذي لا إله إلا هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم".[48]

---

[44] النمل62

[45] الإسراء109

[46] جامع البيان عن تأويل آي القرآن

[47] الإسراء109

الرابع: قوله تعالى: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن، أيا ما تدعوا فله الاسماء الحسنى". [49]

وفيه اختيار الله تعالى، اسم الرحمن، بعد أداة التخيير للموازنة، لأنه أقرب اسم إلى اسم الذات

الخامس: كما ناب اسم الرحمن عن اسم الله تعالى في مواضع لا تختص سوى به، ومن ذلك:

قوله تعالى: "وإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو، الرحمن الرحيم". [50]

قول الباري عز وجل على لسان مريم البتول: "قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا". [51]

قوله تعالى: "يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصيا". [52]

قوله تعالى: "وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا". [53]

قوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا". [54]

قوله تعالى: "الرحمن على العرش استوى". [55]

قوله تعالى: "وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري". [56]

قوله تعالى: "الملك يومئذ الحق للرحمن". [57]

قوله تعالى: "الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش، الرحمن، فاسأل به خبيرا، وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن، أنسجد لما تامرنا وزادهم نفورا". [58]

لذلك أقول في الرحمن الرحيم: الله تعالى رحمن في ذاته، رحيم بعباده.

فإن ذكرت: الرحمن، يتصور في ذهنك من الألوهية أكثر مما يتصور من معنى الرحمة، وتشعر بأن اسم: الرحمن، يومئ إليك بأنه تعالى رحمن في ذاته، رحمن وحده، قائم بالرحمة لا تزول عنه، ولا يحيد عنها، ولا يفهم معنى ذاته بغيرها.

---

[48] الحشر22

[49] الإسراء109

[50] البقرة162

[51] مريم17

[52] مريم44

[53] مريم58

[54] مريم89

[55] طه4

[56] طه89

[57] الفرقان26

[58] الفرقان59-60

وفي هذا الجمع بين الصفتين، بشارة للمومنين، تدعوهم إلى أن يرجوا عفوه وغفرانه للزلات، وتجاوزه عن العثرات، وتفويته لكثير من الموبقات، إذا عرفوا أن الرحمة، لا يحتاج ربهم إلى أن يتحلى بها كي يرحمهم، وإنما هي قائمة به، معبرة عن ذاته، يجمع تعبيرها بين صمدية الذات، وقيوميته تعالى بنفسه، لا يحتاج إلى غيره، وبين وصفه بالرحمانية، التي هي من صفات ذاته، وهو سبحانه، موجود بها، وهي موجودة به، معه ومعها، لا تفريق بينه وبينها، وإن كان هذا الوصف يشمل جميع الصفات، إلا أن صفة الرحمانية، صفة ذاتية عمودية متجردة، لازمة غير متعدية، قائمة به حتى بعد فناء الخلق، لا تزول بزوالهم، إذ كانت قبل وجودهم، فهي به، قديمة قدمه باقية بقاءه، ورجاء المومنين في الرحمة لا ينقطع، ولا يتبعه يأس، لأن الحي القيوم، حي لا يموت، ولله الحمد والمنة

أما صفة الرحيم، فهي صفة أفقية، متعدية، تعبر عن رحمته تعالى بالخلق، وهي تسمية لفعل الرحمن، حين يرحم خلقه، في حين أن صفة الرحمانية، تسمية للرحمن المعروف بالرحمة، رغم كون الصفتين خرجتا من مخرج واحد، وهو معنى يتعلق بالرحموت، رحمة ورحمانية من الله الرحمن الواحد الأحد، ومن الله الرحيم العفو الغفور.

فهو رحمن لا تستدعي رحمانيته السؤال: بمن؟ وهو تعالى رحيم: بمن تاب وأناب، ولجأ إلى ربه بعد أن ضاق بذنبه

قال الشيخ في الجعفية الكبرى:

ببسم الله أفتتح المقالا ... برحمن رحيم كم أقالا

به منه إليه ثم فيه ... عليه قد توكلت اتكالا

فصل في فضل الصلاة على النبي ﷺ

قال تعالى: "إن الله وملايكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما".[59]

قلت: ولا يخفى ما في الصلاة على رسول الله ﷺ من فضل يأتي ذكره في محله، فكيف لا نصلي عليه ﷺ، وقد أمر الله عز وجل بالصلاة عليه، بل صلى عليه وملائكته، فما صلاة الموالي وقد صلى المولى؟ لعمري لا تزيد المصلى عليه شرفا، وقد صلى عليه خالق الإنسان ومدبر الأكوان، وإنما لحصول الشرف بها لدى المصلين، ونزول الرحمة عليهم، فالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وآله وأزواجه الطاهرين، وصحابته الغر المحجلين، الأنصار منهم والمهاجرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

---

[59] الأحزاب33

نسب النبي ﷺ

ذكر سرد النسب الزكي من محمد ﷺ إلى آدم عليه السلام

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام النحوي، رحمه الله تعالى: هذا كتاب سيرة رسول الله ﷺ: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (واسم عبد المطلب شيبة) بن هاشم (واسم هاشم عمرو) بن عبد مناف (واسم عبد مناف المغيرة) بن قصي (واسم قصي زيد) بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة (واسم مدركة عامر) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد ويقال: (أدد) بن مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن، بن تارح (وهو آزر) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عبير بن شالخ بن إرفخشد بن سام بن نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ (وهو إدريس النبي ﷺ فيما يزعمون، والله أعلم، وكان أول بني آدم أعطي النبوة وخط بالقلم) بن يرد بن مهليل بن قينن بن يانش بن شيث بن آدم ﷺ. انتهى[60]

قلت: قد صح في الأثر انتسابه ﷺ إلى عدنان لم يتجاوزه، حتى أنه روي عن ابن عباس أنه لما بلغ عدنان قال: "كذب النسابون"، مرتين أو ثلاثا.

وقد كره مالك وجماعة من العلماء أن يرفع الرجل نسبه إلى آدم، وقد اختلف في الأسماء المذكورة بعد عدنان اختلافا كثيرا.

صفة الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام

يقول العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي، رحمه الله تعالى: فاعلم نور الله قلبي وقلبك، وضاعف في هذا النبي الكريم حبي وحبك، أنك إذا نظرت إلى خصال الكمال التي هي غير مكتسبة، وفي جبلة الخلقة، وجدته ﷺ حائزا لجميعها، محيطا بشتات محاسنها دون خلاف بين نقلة الأخبار لذلك، بل قد بلغ بعضها مبلغ القطع.

أما الصورة وجمالها وتناسب أعضائه في حسنها، فقد جاءت الآثار الصحيحة والمشهورة الكثيرة بذلك، من حديث علي وأنس بن مالك، وأبي هريرة والبراء بن عازب، وعائشة أم المؤمنين وابن أبي هالة، وأبي جحيفة، وجابر بن سمرة وأم معبد وابن عباس ومعرض بن معيقيب وأبي الطفيل، والعداء بن خالد وخريم بن فاتك

---

[60] سيرة ابن هشام

وحكيم بن حزام وغيرهم رضي الله عنهم، من أنه ﷺ: كان أزهر اللون[61] أدعج[62] أنجل[63] أشكل[64] أهدب الأشفار،[65] أبلج[66] أزج[67] أقنى[68] أفلج،[69] مدور الوجه واسع الجبين، كث اللحية تملأ صدره سواء البطن[70] والصدر، واسع الصدر عظيم المنكبين ضخم العظام، عبل العضدين[71] والذراعين والأسافل،[72] رحب الكفين[73] والقدمين، سائل الأطراف،[74] أنور المتجرد[75] دقيق المسربة،[76] ربعة القد، ليس بالطويل البائن ولا بالقصير المتردد، ومع ذلك، فلم يكن يماشيه أحد ينسب إلى الطول إلا طاوله ﷺ؛ رجل الشعر،[77] إذا افتر ضاحكا[78]

---

[61] قوله: (أزهر اللون)، قيل: نيره، وقيل: حسنه. ومنه: "**زهرة الحياة الدنيا**"، وهو زينتها. وهذا، كما جاء في الحديث الآخر: "ليس بالأبيض الأمهق ولا بالآدم"، والأمهق: الناصع البياض، والآدم: الأسمر

[62] قوله: (أدعج)، الدعج: شدة سواد الحدقة

[63] قوله: (أنجل)، بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الجيم، أي ذو نجل، بفتحتين، وهو سعة شق العين

[64] قوله: (أشكل)، بفتح الهمزة وسكون المعجمة، من الشكلة، بضم المعجمة وسكون الكاف، وهي حمرة في بياض العين، كالشهلة في سوادها

[65] قوله: (أهدب الأشفار)، في الصحاح، الأهدب: الرجل الكبير أشفار العين، وهي حروف الأجفان التي ينبت عليها الشعر، وهو الهدب

[66] قوله: (أبلج)، بالهمزة المفتوحة والموحدة الساكنة واللام المفتوحة والجيم، أي مشرق. وفي الصحاح، عن أبي عبيدة في حديث أم سعيد: أبلج الوجه، أي مشرقه، و لم ترد بلج الحاجب، لأنها وصفته بالقرن

[67] قوله: (أزج)، أي مقوس الحاجب مع طول وامتداد

[68] قوله: (أقنى)، أي محدودب الأنف

[69] قوله: (أفلج)، من الفلج، بفتحتين، وهو تباعد ما بين الثنايا

[70] قوله: (سواء البطن)، السواء، بفتح المهملة والمد: المستوي

[71] قوله: (عبل العضدين)، العبل، بفتح المهملة، وسكون الموحدة: الضخم

[72] قوله: (والأسافل)، أي الفخذين والساقين

[73] قوله: (رحب الكفين)، بفتح الراء، وسكون المهملة، أي واسعها

[74] قوله: (سائل الأطراف)، أي طويل الأصابع

[75] قوله: (أنور المتجرد)، بالجيم والراء المشددة المفتوحتين، أي ما تجرد عند الثياب من البدن

[76] قوله: (المسربة)، بفتح الميم وسكون المهملة وضم الراء وفتح الموحدة، خيط الشعر الذي بين الصدر والسرة

[77] قوله: (رجل الشعر)، بفتح الراء وكسر الجيم وفتحها، في الصحاح: شعر رجل، إذا لم يكن شديد الجعودة ولا سبطا

[78] قوله: (إذا افتر ضاحكا)، أي إذا بدا أسنانه، حالة أنه ضاحك

افتر عن مثل سنا البرق، وعن مثل حب الغمام،[79] وإذا تكلم رئي كالنور يخرج من ثناياه؛ أحسن الناس عنقا، ليس بمطهم[80] ولا مكلثم،[81] متماسك البدن[82] ضرب اللحم.[83]

قال البراء: ما رأيت من ذي لمة[84] في حلة حمراء[85] أحسن من رسول الله ﷺ

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ،كأن الشمس تجري في وجهه، وإذا ضحك يتلألأ في الجدر.[86]

وقال جابر بن سمرة، وقال له رجل: كان وجهه ﷺ مثل السيف؟ فقال: لا، بل مثل الشمس والقمر، وكان مستديرا.

وقالت أم معبد في بعض ما وصفته به: أجمل الناس من بعيد وأحلاهم وأحسنهم من قريب.

وفي حديث ابن أبي هالة: يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر.

وقال علي رضي الله عنه في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ.

والأحاديث في بسط صفته مشهورة كثيرة، فلا نطول بسردها، وقد اختصرنا في وصفه نكت ما جاء فيها، وجملة مما فيه كفاية في القصد إلى المطلوب. انتهى[87]

فضل الإحسان إلى آله ﷺ

وأما آل محمد ﷺ: فقد قال الله تعالى في حقهم: "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى".[88]

---

[79] قوله: (حب الغمام)، هو البرد

[80] قوله: (ليس بمطهم)، هو بضم الميم وبالطاء المهملة والهاء المشددة المفتوحتين: المنتفخ الوجه، وقيل: الفاحش السمن

[81] قوله: (ولا بمكلثم)، هو بالمثلثة المفتوحة: القصير الحنك، الداني الجبهة، المستدير الوجه، أراد أنه كان أسيل الوجه، ولم يكن مستديره؛ قاله ابن الأثير

[82] قوله: (متماسك البدن)، أي يمسك بعضه بعضا

[83] قوله: (ضرب اللحم)، بفتح الضاد المعجمة وسكون الراء، قال الخليل: الضرب من الرجال: القليل اللحم

[84] قوله: (من ذي لمة)، اللمة، بكسر اللام: هي شعر الرأس دون الجمة، وسميت به لأنها تلم بالمنكبين

[85] قوله: (في حلة حمراء)، الحلة: ثوبان غير لفيفين، إزار ورداء

[86] قوله: (في الجدر)، بضم الجيم والدال: جمع جدار، وهو الحائط. انتهى شرح الألفاظ من حاشية الشفا المسماة: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء للعلامة أحمد بن محمد بن محمد الشمني المتوفى سنة: 872هجرية

[87] الشفاء بتعريف حقوق سيدنا المصطفى

[88] الشورى21

ولعل الصلاة على آله ومعاملة الأشراف بالحسنى، من باب الشكر لرسول الله ﷺ عما بلغنا من نور عم النفوس، وأزاح الظلمة وكشف الغمة عن أمته؛ اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

قال تعالى: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا".[89]

عن أم سلمة تذكر أن النبي ﷺ كان في بيتها، فأتته فاطمة ببرمة فيها خزيرة، فدخلت عليه فقال لها: "ادعي زوجك وابنيك". قالت: فجاء علي والحسين والحسن فدخلوا عليه، فجلسوا يأكلون من تلك الخزيرة وهو على منامة على دكان تحته كساء له خيبري، قالت: وأنا أصلي في الحجرة، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا". قالت: فأخذ فضل الكساء فغشاهم به، ثم أخرج يده فألوى بها إلى السماء، ثم قال: "اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، اللهم هؤلاء أهل بيتي وخاصتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا". قالت: فأدخلت رأسي البيت، فقلت: وأنا معكم يا رسول الله، قال: "إنك إلى جيرانك إلى خير". رواه أحمد في مسنده

عن يزيد بن حيان قال زيد بن أرقم: قام رسول الله ﷺ يوما فينا خطيبا بماء يدعى: خما، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر. ثم قال: "أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به". فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: "وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي". فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: وهم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس. قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم. رواه مسلم

وكان الشافعي ينشد:

يا أهل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم الفضل أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة

عن أبي إسحاق عن حنش الكناني قال: سمعت أبا ذر يقول، وهو آخذ بباب الكعبة: أيها الناس من عرفني فأنا من عرفتم، ومن أنكرني فأنا أبو ذر، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق". رواه الحاكم

[89] الأحزاب33

يقول الأستاذ عبد المحسن بن حمد العباد البدر: تبين مما تقدم، أن عقيدة أهل السنة والجماعة في آل بيت النبي ﷺ، وسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء، وأنهم يحبونهم جميعا، ويتولونهم، ولا يجفون أحدا منهم، ولا يغلون في أحد، كما أنهم يحبون الصحابة جميعا ويتولونهم، فيجمعون بين محبة الصحابة والقرابة. وهذا بخلاف غيرهم من أهل الأهواء، الذين يغلون في بعض أهل البيت، ويجفون في الكثير منهم، وفي الصحابة رضي الله عنهم.

ومن أمثلة غلوهم في الأئمة الإثني عشر من أهل البيت، وهم: علي والحسن والحسين رضي الله عنهم، وتسعة من أولاد الحسين، ما اشتمل عليه كتاب: الأصول من الكافي، للكليني، من أبواب منها:

باب: أن الأئمة عليهم السلام، خلفاء الله عز وجل في أرضه، وأبوابه التي منها يؤتى.

باب: أن الأئمة عليهم السلام، هم العلامات التي ذكرها عز وجل في كتابه:

وفي هذا الباب ثلاثة أحاديث من أحاديثهم، تشتمل على تفسير قوله تعالى: "وعلامات، وبالنجم هم يهتدون"،[90] بأن النجم: رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن العلامات الأئمة.

باب: أن الأئمة عليهم السلام، نور الله عز وجل.

ويشتمل على أحاديث من أحاديثهم، منها حديث ينتهي إلى أبي عبد الله (وهو جعفر الصادق)، في تفسير قول الله عز وجل: "الله نور السموات والارض". قال، كما زعموا: "مثل نوره كمشكاة": فاطمة عليها السلام، "فيها مصباح": الحسن، "المصباح في زجاجة": الحسين، "الزجاجة كأنها كوكب دري": فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا، "توقد من شجرة مباركة": إبراهيم عليه السلام، "زيتونة لا شرقية ولا غربية": لا يهودية ولا نصرانية، "يكاد زيتها يضيء": يكاد العلم ينفجر بها، "ولو لم تمسسه نار نور على نور": إمام منها بعد إمام، "يهدي الله لنوره من يشاء":[91] يهدي الله للأئمة من يشاء ...

باب: أن الآيات التي ذكرها الله عز وجل في كتابه، هم الأئمة.

وفي هذا الباب، تفسير قول الله عز وجل: "وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يومنون"،[92] بأن الآيات: الأئمة

وفيه تفسير قوله تعالى: "كذبوا بآياتنا كلها"،[93] بأن الآيات: الأوصياء كلهم

ومعنى ذلك: أن العقاب الذي حل بآل فرعون، سببه تكذيبهم بالأوصياء، الذين هم الأئمة

---

[90] النحل16

[91] النور35

[92] يونس101

[93] القمر42

باب: أن أهل الذكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم، هم الأئمة عليهم السلام.

باب: أن القرآن يهدي للإمام.

وفي هذا الباب تفسير قول الله عز وجل: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم"،[94] بأنه يهدي إلى الإمام

وفيه تفسير قول الله عز وجل: "والذين عقدت أيمانكم"،[95] بأنه، إنما عنى بذلك الأئمة عليهم السلام، بهم عقد الله عز وجل أيمانكم

باب: أن النعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه: الأئمة عليهم السلام.

وفيه تفسير قول الله عز وجل: "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا"،[96] بالزعم بأن عليا رضي الله عنه قال: نحن النعمة التي أنعم الله بها على عباده، وبنا يفوز من فاز يوم القيامة

وفيه تفسير قول الله عز وجل في سورة الرحمن: "فبأي آلاء ربكما تكذبان"،[97] قال: أبالنبي أم بالوصي تكذبان؟

باب: عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة عليهم السلام.

باب: أن الأئمة عليهم السلام، عندهم جميع الكتب التي نزلت من عند الله عز وجل، وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها.

باب: أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة عليهم السلام، وأنهم يعلمون علمه كله.

باب: أن الأئمة عليهم السلام، يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام

باب: أن الأئمة عليهم السلام، يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيار منهم.

باب: أن الأئمة عليهم السلام، يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء، صلوات الله عليهم.

باب: أن الله عز وجل، لم يعلم نبيه علما إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين عليه السلام، وأنه كان شريكه في العلم.

باب: أنه ليس شيء من الحق في يد الناس، إلا ما خرج من عند الأئمة عليهم السلام، وأن كل شيء لم يخرج من عندهم فهو باطل.

---

[94] الإسراء9

[95] النساء33

[96] إبراهيم30

[97] الرحمن14

وهذه الأبواب تشتمل على أحاديث من أحاديثهم، وهي منقولة من طبعة الكتاب، نشر مكتبة الصدوق بطهران، سنة (1381هجرية).

ويعتبر الكتاب من أجل كتبهم، إن لم يكن أجلها، وفي مقدمة الكتاب، ثناء عظيم على الكتاب وعلى مؤلفه، وكانت وفاته سنة: 329هجرية. وهذا الذي نقلته منه، نماذج من غلو المتقدمين في الأئمة، أما غلو المتأخرين فيهم، فيتضح من قول أحد كبرائهم المعاصرين، الخميني في كتابه: "الحكومة الإسلامية". صفحة52 من منشورات المكتبة الإسلامية الكبرى طهران: وثبوت الولاية والحاكمية للإمام (ع)، لا تعني تجرده عن مترلته التي هي له عند الله، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام؛ فإن للإمام مقاما محمودا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا: أن لأئمتنا مقاما لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم (ص) والأئمة (ع)، كانوا قبل هذا العالم أنوارا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المترلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله، وقد قال جبرائيل كما ورد في روايات المعراج: لو دنوت أنملة لاحترقت. وقد ورد عنهم (ع): إن لنا مع الله حالات، لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل. انتهى[98]

ولا يملك المرء، وهو يرى أو يسمع مثل هذا الكلام، إلا أن يقول: "ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب".[99]

وكل من له أدنى بصيرة، يجزم أن ما تقدم نقله عنهم وما يشبهه، كذب وافتراء على الأئمة، وأنهم برآء من الغلاة فيهم وغلوهم. انتهى[100]

الكلام على صحابته ﷺ

وأما صحابته ﷺ، فيكفيهم رفعة وجلالا قول الله تعالى: "محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم الآية".[101]

---

[98] فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة

[99] آل عمران8

[100] فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة

[101] الفتح29

قلت: وأجمع الجمهور على أن الصحابة رضوان الله عنهم عدول، لا يماري في عدالتهم سوى من لا حظ له في دين الإسلام، إلا أنهم غير معصومين من الخطأ، إذ العصمة لا تكون إلا للرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

فلتحترز أيها الأخ الصادق من الوقوع فيهم بما لا يرضي الله عز وجل، وهو القائل سبحانه: "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم".[102]

عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته". قال إبراهيم: وكانوا يضربوننا على الشهادة والعهد. رواه البخاري

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه". رواه البخاري

ولا يخفى عليك دسائس المتحينين الفرص، ومتتبعي ترهات القصاصين، وغلاة الشيعة، ممن لا يراعون فيهم إلا ولا ذمة.

فرية التحكيم

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: وقد تحكم الناس في التحكيم، فقالوا فيه ما لا يرضاه الله، وإذا لحظتموه بعين المروءة دون الديانة، رأيتم أنها سخافة حمل على سطرها في الكتب في الأكثر، عدم الدين، وفي الأقل، جهل متين.

والذي يصح من ذلك ما روى الأئمة، كخليفة بن خياط والدارقطني: أنه لما خرج الطائفة العراقية مائة ألف، والشامية في سبعين أو تسعين ألفا، ونزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا في أول يوم، وهو الثلاثاء، على الماء، فغلب أهل العراق عليه.

ثم التقوا يوم الأربعاء، لسبع خلون من صفر، سنة سبع وثلاثين، ويوم الخميس، ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق، فكان من جهة علي أبو موسى، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلا تقيا ثقفا فقيها عالما، حسبما بيناه في (سراج المريدين)، أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم؛ وزعمت الطائفة التاريخية الركيكية أنه كان أبله ضعيف الرأي

---

[102] التوبة1

مخدوعا في القول، وأن العاص كان ذا دهاء وأرب، حتى ضربت الأمثال بدهائه، تأكيدا لما أرادت من الفساد. اتبع في ذلك بعض الجهال بعضا، وصنفوا فيه حكايات، وغيره من الصحابة كان أحذق منه وأدهى، وإنما بنوا ذلك على أن عمرا لما غدر أبا موسى في قصة التحكيم، صار له الذكر في الدهاء والمكر.

وقالو: أنهما، لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل، وتفاوضا، اتفقا على أن يخلعا الرجلين. فقال عمرو لأبي موسى: اسبق بالقول، فتقدم فقال: إني نظرت فخلعت عليا عن الأمر، وينظر المسلمون لأنفسهم، كما خلعت سيفي هذا من عنقي، أو من عاتقي، وأخرجه من عنقه فوضعه في الأرض؛ وقام عمرو، فوضع سيفه في الأرض وقال: إني نظرت فأثبت معاوية في الأمر، كما أثبت سيفي هذا في عاتقي، وتقلده، فأنكر أبو موسى، فقال عمرو: كذلك اتفقنا، وتفرق الجمع على ذلك من الاختلاف.

الرد على فرية التحكيم

قال القاضي أبو بكر رضي الله عنه: هذا كله كذب صراح، ماجرى منه حرف قط، وإنما هو شيء أخبر عنه المبتدعة، ووضعته التاريخية للملوك، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله والبدع، وإنما الذي روى الأئمة الثقات الأثبات، أنهما لما اجتمعا للنظر في الأمر، في عصبة كريمة من الناس، منهم ابن عمر ونحوه، عزل عمرو معاوية.

ذكر الدارقطني بسنده إلى حضين بن المنذر: لما عزل عمرو معاوية، جاء (أي حضين بن المنذر)، فضرب فسطاطا قريبا من فسطاط معاوية، فبلغ نبأه معاوية، فأرسل إليه فقال: إنه بلغني عن هذا (أي عن عمرو) كذا وكذا، فاذهب فانظر ما هذا الذي بلغني عنه، فأتيت فقلت: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى، كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما، قال: فكانت هي التي فتل معاوية منها نفسه، فأتيته فأخبرته (أي فأتى حضين معاوية فأخبره) أن الذي بلغه عنه كما بلغه، فأرسل إلى أبي الأعور الذكواني فبعثه في خيله، فخرج يركض فرسه ويقول: أين عدو الله، أين هذا الفاسق؟

قال أبو يوسف: أظنه قال: "إنما يريد حوباء نفسه"، فخرج (عمرو) إلى فرس تحت فسطاطه، فجال في ظهره عريانا، فخرج يركضه نحو فسطاط معاوية وهو يقول: "إن الضجور قد تحتلب العلبة، يا معاوية، إن الضجور قد تحتلب العلبة"، فقال معاوية: "أجل، وتربذ الحالب فتدق أنفه، وتكفأ إناءه".[103]

قال الدارقطني، وذكر سندا عدلا: ربعي عن أبي موسى أن عمرو بن العاص قال: "والله لئن كان أبو بكر وعمر تركا هذا المال وهو يحل لهما منه شيء لما غبنا ونقص رأينا، وأيم الله ما كانوا مغبونين ولا ناقصي الرأي، ولئن كانا امرأين يحرم عليهما هذا المال الذي أصبناه بعدهما لقد هلكنا".

فهذا كان بدأ الحديث ومنتهاه، فأعرضوا عن الغاوين وازجروا العاوين، وعرجوا على سبيل الناكثين، إلى سنن المهتدين، وأمسكوا الألسنة عن السابقين إلى الدين، وإياكم أن تكونوا يوم القيامة من الهالكين بخصومة أصحاب رسول الله ﷺ، فقد هلك من كان أصحاب النبي ﷺ خصمه؛ ودعوا ما مضى، فقد قضى الله فيه ما قضى، وخذوا لأنفسكم الجد فيما يلزمكم اعتقادا وعملا، ولا تسترسلوا بألسنتكم فيما يعنيكم مع كل ناعق اتخذ الدين هملا، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، ورحم الله الربيع بن خيثم، فإنه لما قيل له: قتل الحسين، قال: أقتلوه؟ قالوا: نعم، فقال: "اللهم فاطر السماوات والارض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون".[104]

و لم يزد على هذا أبدا، فهذا العقل والدين، والكف عن أحوال المسلمين، والتسليم لرب العالمين. انتهى[105]

يا الغاصد ما احنا بيه ابهم الغصيد ؤ فوابيه
كلامي رموز لمواليه بيما يجوز نوابيه

يقول: أيها القاصد ما نحن فيه، افهم القصيد وقوافيه، كلامي رموز لأهله، فيما يجوز لي أن أقوله وأوافيكم به والمعنى: أيها القاصد ما نحن فيه وعليه من رعاية وروعة، فأما الرعاية فرعاية الراعي عز وجل، وأجمل بها رعاية؛ وأما الروعة، فروعة الجلوس بين يدي الله والتملي في طلعته، ومناجاته في غفلة عن العيون والرقاب، فما أبهاها من روعة.

---

[103] ابن سيده: وناقة ضجور: ترغو عند الحلب. وفي المثل: قد تحلب الضجور العلبة، أي قد تصيب اللين من السيء الخلق. قال أبو عبيد: من أمثالهم في البخيل يستخرج منه المال على بخله: إن الضجور قد تحلب. أي إن هذا، وإن كان منوعا، فقد ينال منه الشيء بعد الشيء، كما أن الناقة الضجور قد ينال من لبنها. انتهى من لسان العرب

[104] الزمر46

[105] العواصم من القواصم

أيها القاصد ما نحن فيه، تريد فك القيود عن معصميك، وكشف الحجاب عن عينيك، وتبتغي الثأر لنفسك التي بين جنبيك، لا عليك.

أيها الأسير في سراحه، أيها الحسير في انشراحه، أيها الحزين في أفراحه، أيها الأعشى في صباحه، أيها الذليل في عزه وكبريائه، أيها الباهت في بهائه، تراك جئتنا تريد الله تعالى أم تريد ما عند الله؟ إن كنت تريد المولى، فنحن أهله وأنت أهل لمعرفته، وإن كنت تريد ماعنده فقد ضللت السبيل وخاب مسعاك، فاقصد أهل المكافأة والإشراف، ودع أهل المكاشفة والإنصاف، وخذ ما شئت من الجزاء، ولا تسأل عن وجهه يوم اللقاء، فما عبدته لوجهه، ولكن اسأل عن الخيرات والهبات، حتى إذا وفاك أجرك فاقبع في النعيم المقيم، ولا تفرح بالزيادة، فإنها من نصيب السادة، الذين لا يطلبون جزاء على العبادة، إذ ذاك من البلادة؛ فإن كان عملك من عندك، فاطلب الجزاء، وإن كان بتوفيق منه، فما جزاؤك سوى أن يوفقك مولاك للشكر والرضا.

يقول الشيخ: افهم القصيد وقوافيه، فإن كلامي رموز يفهمها أهلها، إذ بالإشارة يفهم اللبيب.

قلت: والفهم أشد من العلم، قال تعالى: "**ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما**".[106]

ويقول الشيخ، أنه سيخبر بما يجوز له الإخبار به

عن أبي هريرة قال: حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. رواه البخاري

عن عبد الله بن مسعود قال: ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة. رواه مسلم في صحيحه

يقول الشيخ أبو المحاسن رحمه الله تعالى: إن العبد إذا صدق وأخلص لربه؛ فني عن نفسه وبقي بربه، وذهبت بشريته واضمحلت أنانيته، فتتجلى له أوصاف معروفة كرؤية العين، ويكون بسره مع الله بلا أين، فينازل حضرة قدسه وموارد أنسه، فيكون الله سبحانه جليسه وحديثه أنيسه، فإن تكلم فبالله، وإن صمت فمع الله. فشبحه يتدلى، وروحه في الملأ الأعلى.

(ففي هذه الحالة: تجري عليه علوم سنية وحقائق سمية لم تكن له ببال، ولم تنسج له على منوال. فيختلج في سره، وينطق عن وجده، فيلهج بها اللسان وتسطرها البنان، من غير قصد واختيار أو رجوع لرسم واعتبار، فمن صدرت منه حقائق على الوجه المذكور والوصف المسطور؛ فلا يتعدها من لم يفهمها، أو يبحث في لفظها من لم يعلمها، لأنها بالعناية محفوظة وبالرعاية ملحوظة. فصاحبها مأخوذ عن العالم الأدنى، مترق إلى العالم الأسنى، مقتبسا من قوله تعالى: "**فكان قاب قوسين أوادنى**".[107] منسما بروحه: "**فأوحى إلى عبده ما**

---

[106] الأنبياء78

[107] النجم9

أوحى".[108] فلا ينطق عن الهوى، فيمنح حينئذ وحي إلهام لا وحي إنشاء وإعلام. فمن وصفها بأنها صدرت عن فهم أو أسندت إلى علم؛ فقد استنقص صاحبها، وجهل قدره". انتهى[109]

الشريعة ما هي مرامي مجمع الاحكام احكامي
وثاق الدين الدامي شلا رسوم وارقام

يقول: الشريعة ليست قصدي ومرامي، فهي مجمع الأحكام الشرعية التي تحكم قبضتها علي، وهي توثق الدين بأغلالها حتى يسيل دمه، وما أكثر رسومها وخطوطها ورقومها في الصحائف والكتب والأسفار

والمعنى: ليست الشريعة مبتغاي ومرامي، ولا يريد الشيخ بقوله هذا، نبذ الشريعة أو الإقلال من شأنها، وإنما يقصد البقاء مع الشريعة والسكون إليها.

قال في المباحث:

هل ظاهر الشرع مع الحقيقة إلا كأصل الفرع في الحديقة؟
والشرع جار وصحيح العقل كحذوك النعل معا بالنعل
ما مثل المعقول والمنقول إلا كدر زاخر مجهول
حتى إذا أخرجه الغواص لم يكن للدر إذن خلاص
وإنما خلاصه في الكشف عن الغطاء حيث لا يستخفي
فالصدف الظاهر ثم الدر معقوله والجهل ذاك البحر
وإنما المعقول في شكل الحروف كما يكون الدر في جوف الصدوف
هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن؟[110]

الدين عقيدة وشريعة ومعاملات، والعقيدة تصورات عقائدية غيبية على رأسها التوحيد، والشريعة أحكام فقهية وأصول يستعان بها على استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، والمعاملات عقود وأخلاق.

ويمكن أن نقول: العقيدة منها علم التوحيد: ويختص بالأسماء والصفات، ومنها علم الوحدة: ويختص بشهود الواحد الأحد.

---

[108] النجم10

[109] مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن

[110] المباحث الأصلية

والشريعة: منها علم الأحكام، ويخص الحكم الشرعي بأقسامه الخمس، من واجب ومحظور ومستحب ومكروه وجائز. ومنها علم الأفهام، ويخص سبل الترقي إلى حضرة الحكيم العلام.

أما المعاملات، فتخص تعامل العبد مع العبد، وتعامل العبد مع المولى.

لذلك نقول: توحيدنا وحدة، وشريعتنا حقيقة، ومعاملاتنا تأدب مع الباري عز وجل.

يقول صاحب الصلاة المشيشية رحمه الله تعالى، في صلاته: "وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في بحر عين الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس، إلا بها".[111]

وقد وصف الشيخ الشريعة بأنها مجمع الأحكام في قوله: "مجمع الاحكام احكامي"

أي الشريعة التي ما هي سوى مجمع للأحكام، هي إحكامي، حكمتني وقيدتني في أفقها الضيق، فلم أستطع حراكا، وقد وثقت الدين حتى أدمته، بكثرة رسومها وأرقامها.

[111] وهذا نص صلاة سيدي عبد السلام بن بشيش رحمه الله تعالى: اللهم صل على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنـــزلت علوم آدم فأعجز الخلائق، وله تضاءلت الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق، فرياض الملكوت بزهر جماله مونقة، وحياض الجبروت بفيض أنواره متدفقة، ولا شيء إلا وهو به منوط، إذ لولا الواسطة لذهب (كما قيل) الموسوط، صلاة تليق بك منك إليه كما هو أهله. اللهم إنه سرك الجامع الدال عليك، وحجابك الأعظم القائم لك بين يديك، اللهم ألحقني بنسبه، وحققني بحسبه، وعرفني إياه معرفة أسلم بها من موارد الجهل، وأكرع بها من موارد الفضل، واحملني على سبيله إلى حضرتك حملا محفوفا بنصرتك، واقذف بي على الباطل فأدمغه، وزج بي في بحار الأحدية، وانشلني من أوحال التوحيد، وأغرقني في عين بحر الوحدة، حتى لا أرى ولا أسمع ولا أجد ولا أحس إلا بها. واجعل الحجاب الأعظم حياة روحي، وروحه سر حقيقتي، وحقيقته جامع عوالمي بتحقيق الحق الأول، يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن، اسمع ندائي بما سمعت به نداء عبدك زكريا، وانصرني بك لك، وأيدني بك لك، واجمع بيني وبينك، وحل بيني وبين غيرك، الله الله الله

"إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد". القصص85

"ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا". الكهف10

"إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما". الأحزاب56

آ الخايض فى الظاهر   آ الغادي فى المخاطر
شرع الفقيه فى المعاضر   شرع الله فى الخواطر

يقول: أيها الخائض في ظاهر الدين، أيها الغادي في طريق المخاطر، ألا تعلم أن شرع الفقيه في طلبته بالأمر والنهي والتعزير، أما شرع الله تعالى، فقد جبلت عليه الخواطر، فلا يحتاج إلى شيء من ذلك؟

والمعنى: قلت: الإنسان روح وجسد، والكون سماوات وأرضون، والزمان ليل ونهار، والوجود حياة وموت، والمرض عضوي ونفسي، والمرء بين يقظة ونوم، وبين علم وفهم، والكلام عبارة وإشارة، ومبنى ومعنى، والحال منظر ومخبر، والأمر لا هوت وناسوت، فكيف لا يكون الدين ظاهرا وباطنا؟

وإذا كانت الشريعة ظاهرة والمشرعون أهلها، فإن الحقيقة باطنة والمحققون أهلها.

وإذا اكتفيت أيها الطالب في أداء صلاتك بما قاله الفقهاء، فأحسنت التكبير وجهرت به، ووضعت اليمنى على اليسرى في قنوتك، ووفيت ركوعك وسجودك، وقرأت بما قرأ به رسول الله ﷺ من قرآن، ودعوت بما دعا به، فهل أديت صلاتك بما يرضي الله عز وجل؟ أم أنك أتقنت هيأة الجسد ونسيت التوجه إلى الواحد الأحد؟ أأردت بصلاتك وجه الله؟ أم أردت وجه الناس؟ استحضرت في صلاتك هيبة المعبود، أم بقيت مع الركوع والسجود؟ نسيت الدنيا بما فيها، وأنت في حضرة الرب، أم أسكنت ليلى في القلب وادعيت حب الرب؟

فأما البدن، فدعه للفقهاء فهم أدرى بتقويمه، وأما النفس، فول السالكين أمرها، فهم أدرى بما يصلحها، حتى لا ترى مع المولى الموالي، فتكون قد أصبت السنة في صلاتك، وجمعت بين ظاهرها وباطنها، فكان أجرك أجرين.

سرح الروح يا ابنادم وياك تروح بندايم

الورد يفوح بنسايم والشوك دامي فى البهايم

يقول: أطلق لروحك سراحها يا ابن آدم، وإياك أن تروح بالندامة، فإن الورد يفوح بالنسائم العليلة، أما الشوك، فمتى داسته البهائم أدماها.

والمعنى: **فصل في ذم التّشدد في الدين**

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، ولا تبغض إلى نفسك عبادة ربك، فإن المنبث لا سفرا قطع ولا ظهرا أبقى، فاعمل عمل امرئ تظن أن لن يموت أبدا، واحذر حذرا تخشى أن تموت غدا". أخرجه الإمام البيهقي في شعب الإيمان

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ غداة العقبة، وهو على ناقته: "القط لي حصى"، فلقطت له سبع حصيات، هن حصى الخذف. فجعل ينفضهن في كفه ويقول: "أمثال هؤلاء فارموا"، ثم قال: "يا أيها الناس، إياكم والغلو في الدين، فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين". أخرجه ابن ماجة في سننه

عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء، ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاما، فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل، فلما كان الليل، ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن؛ فصليا، فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا، فأعط كل ذي حق حقه. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: "صدق سلمان". أخرجه الإمام البخاري في صحيحه

جندوك بالشرع والتنزيل حربوك بالكفر والتفتيل

تكفر الناس بلا تاويل تفضح العيوب آ الويل

يقول: جندوك بالشرع والتزيل، وسلحوك بالكفر والتقتيل، تكفر الناس بغير هوادة، وتفضح عيوبهم أيها الإمعة

والمعنى: أيها الضال من حيث يظن أنه على حق، لقد أخذت الدين من أدعيائه الذين شددوه وغالوا فيه، فجندوك بما أوهموك أنه شرع الله تعالى، وبما أولوه لك من كتاب الله تعالى، على خلاف ما أراد الله تعالى به، وسلحوك بالتكفير والتقتيل في عباد الله تعالى، فكفرت الناس وهم مؤمنون، بدون سلطان ولا حجة، وفضحت عيوبهم ونسيت عيبك، إذ الكمال لله تعالى، أليس كذلك أيها الإمعة؟

حكم الفتوى وشروط المفتي

قلت: وقد تصدى في زماننا هذا للخطابة والوعظ من ليس أهلا لذلك، وادعى الفقه المتفيقهون، وأوهموا الناس بأنهم فقهاء، فصدقوا أنهم كذلك، فليت شعري من هو الفقيه؟

وتمادى الجهل بالعامة، حتى سموا كل من يحدث في بيت الله تعالى محدثا، ولو علمت العامة من هو المحدث في الاصطلاح، لنبذوا محدثيهم و لم يبقوا منهم إلا القليل.

وصار كل من هب ودب يفتي في الدين بما يعلم وبما لا يعلم، بل أكثر من ذلك، ادعى قوم الاجتهاد في الدين، وهم لا يدرون شروط المجتهد.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: اعلموا وفقنا الله تعالى وإياكم، أن حكم المتعبد بأوامر الله تعالى ونواهيه، المتشرع بشريعة نبيه عليه السلام، طلب معرفة ذلك وما يتعبد به، وما يأتيه ويذره، ويجب عليه ويحرم ويباح له ويرغب فيه، من كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه السلام، فهما الأصلان اللذان لا تعرف الشريعة إلا من قبلهما، ولا يعبد الله تعالى إلا بعلمهما؛ ثم إجماع المسلمين مرتب عليهما ومسند إليهما، فلا يصح أن يوجد وينعقد إلا عنهما، إما من نص عرفوه ثم تركوا نقله، أومن اجتهاد مبني عليهما على القول بصحة الإجماع من طريق الاجتهاد.

وهذا كله لا يتم إلا بعد تحقيق العلم بذلك الطريق والآلات الموصلة إليه، من نقل ونظر وطلب قبله، وجمع وحفظ وعلم، وما صح من السنن واشتهر، ومعرفة كيف يتفهم، وما به يتفهم من علم ظواهر الألفاظ، وهو علم العربية واللغة وعلم معانيها، وعلم موارد الشرع ومقاصده، ونص الكلام وظاهره وفحواه وسائر نواحيه، وهو المعبر عنه بعلم أصول الفقه، وأكثره يتعلق بعلم العربية ومقاصد الكلام والخطاب، ثم يأخذ قياس ما لم ينص عليه على ما نص، بالتنبيه على علته أو شبيها له، وهذا كله يحتاج إلى مهلة، والتعبد لازم لحينه.

ثم الواصل إلى هذا الطريق، وهو طريق الاجتهاد والحكم به في الشرع قليل، وأقل من القليل بعد الصدر الأول والسلف الصالح والقرون المحمودة الثلاثة.

وإذا كان هذا، فلا بد لمن لم يبلغ هذه المترلة من المكلفين أن يتلقى ما تعبد به وكلف به من وظائف شريعته ممن ينقله له، ويعرفه به، ويثبته عليه في نقله وعلمه وحكمه، وهذا هو التقليد ودرجة عوام الناس، بل أكبرهم. انتهى[112]

قال ابن أبي أويس: سمعت مالكا يقول: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى المسجد، فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو أؤتمن على بيت مال لكان أمينا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن. انتهى[113]

وقال الهيثم بن جبيل: شهدت مالكا سئل عن ثمان وأربعين مسألة، فقال في اثنين وثلاثين: لا أدري. انتهى[114]

وقال مالك: سمعت ابن هرمز يقول: يجب أن يورث العالم جلساءه قول: "لا أدري"، حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون إليه، فإذا سئل أحدهم عما لا يروي قال: لا أدري. انتهى[115]

قال ابن أبي أويس: ما كان يتهيأ لأحد بالمدينة أن يقول: قال رسول الله ﷺ إلا حبسه مالك، فإذا سئل فيه قال: يصحح ما قال ثم يخرج. انتهى[116]

جواز التقليد لمن قصر عن الاجتهاد

قال أبو الفتح الجعفي: وقالوا غاوين: لا نأخذ سوى من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهي كلمة حق أريد بها باطل، فاستخرجوا الأحكام على قلة علمهم بأصولها ومظانها وطرق استنباطها، و لم يحفلوا لأقوال العلماء، رغم أنهم يعيشون بين أظهرهم، ونبذوا المذهبية الفقهية، فتعددت المذاهب، واختلفت المشارب، لكل مذهبه، وما منهم إلا وله مشربه، فضلوا وأضلوا، وأخشى ما أخشى عليهم سوء العاقبة، والعياذ بالله.[117]

---

[112] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك

[113] المرجع نفسه

[114] المرجع نفسه

[115] المرجع نفسه

[116] المرجع نفسه

[117] يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: **ماذا يحدث لو انساب الناس جميعا في بيداء اللامذهبية؟**

وبعد كل ما أوضحناه وسردناه من الأدلة القاطعة نتسائل: ماذا لو أعرضنا عن كل هذه الأدلة؟ ودعونا الناس (اجتهادا منا) إلى الانطلاق من قيد المذاهب واتباعها، والانسياح في رحب الاجتهاد؟

وأقول لك في الجواب: ماذا يحدث لو دعونا الناس كلهم إلى الانطلاق في مشاريعهم العمرانية، عن اتباع المهندسين والاستعانة بهم والاعتماد عليهم، وفي قضاياهم وعلاجاتهم الصحية عن اتباع الأطباء والاعتماد عليهم والأخذ بأقوالهم، وفي صناعاتهم وأسباب معايشهم، عن اتباع أرباب الاختصاص في تلك الصناعات، ونبذ الاستفادة من معلوماتهم ومهاراتهم، ماذا يحدث لو

وأنشؤوا طوائف شقت عصا الطاعة، كل طائفة تكفر أختها، كل طائفة تدعي أنها الفرقة الناجية المقصودة في حديث النبي ﷺ

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى: وإذا كان هذا، فالواجب تقليد العالم الموثوق به في ذلك، فإذا كثر العلماء فالأعلم، وهذا حظ المقلد من الاجتهاد لدينه، ولا يترك المقلد الأعلم ويعدل إلى غيره، وإن كان مشتغلا بالعلم فيسأل حينئذ عما لا يعلم حتى يعلمه، كما قال تعالى: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".[118] انتهى[119]

ثم اختلفت الآراء والهمم في تعيين المقلد منهم، بحسب ما اعتقدوه فيه أنه هو الأعلم والأولى بالإتباع، إما من اعتقاد اعتقدوه أو انتشار ذكر وثناء سمعوه، أو من اتباع له اعتمدوه، أو من تقليد لآبائهم أو أهل بلادهم نشأوا عليه وألفوه، فكان المقلدون المقتدى بمذاهبهم، أصحاب الأتباع في سائر الأقطار والبقاع قبل كثرة: مالك بن أنس بالمدينة وأبو حنيفة والثوري بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة على ما تقدم منه، والأوزاعي بالشام، والشافعي بمصر، وأحمد بن حنبل بعده ببغداد، وكان لأبي ثور هناك أيضا أتباع. ثم نشأ ببغداد أبو جعفر الطبري وداود الأصبهاني، فألفا الكتب واختارا في المذاهب على آراء أهل الحديث، واطرح داود منها القياس، وكان لكل واحد منهما أتباع، وسرت جميع هذه المذاهب في الآفاق، فغلب مذهب مالك على الحجاز والبصرة ومصر وما والاها، من بلاد أفريقية والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من

دعونا الناس كلهم إلى الخروج عن اتباع هؤلاء المختصين، والاستعاضة عن ذلك بالاجتهاد في كل ذلك، واعتماد القناعة الذاتية التي تأتي بعد البحث والاجتهاد، ثم صدقنا الناس في هذه الدعوة وفعلوا ذلك؟

إن الذي سيحدث وراء ذلك بلا شك، هو الفوضى المهلكة للعمران والحرث والنسل: يعمد الناس إلى تخريب بيوتهم عن طريق التعمير، ويسرعون إلى إزهاق أرواحهم باسم التطبب، ويجرون على أنفسهم الفقر والضياع، من وراء العمل والتصنيع، ذلك لأنهم وضعوا الاجتهاد في غير مكانه، وطبقوه بدون شرطه، وتجاهلوا سنة الله في الكون، من ارتباط فئات الناس بعضهم ببعض، في مجال التعاون والتناصر والتعلم والاسترشاد. انتهى من اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية

[118] النحل43

[119] فجاء التابعون، فنظروا في اختلافهم (أي في اختلاف الصحابة رضي الله عنهم) وبنوا على أصولهم، ثم جاء من بعدهم العلماء من أتباع التابعين، والوقائع قد كثرت والنوازل قد حدثت، والفتاوى في ذلك قد تشعبت، فجمعوا أقاويل الجميع، وحفظوا فقههم، وبحثوا عن اختلافهم واتفاقهم، وحذروا انتشار الأمر، وخروج الخلاف عن الضبط، فاجتهدوا في جمع السنن وضبط الأصول، وسئلوا فأجابوا، وبنوا القواعد ومهدوا الأصول وفرعوا عليها النوازل، ووضعوا في ذلك للناس التصانيف وبوبوها، وعمل كل واحد منهم بحسب ما فتح عليه ووفق له. فانتهى إليهم علم الأصول والفروع والاختلاف والاتفاق، وقاسوا على ما بلغهم ما يدل عليه ويشبه، رضي الله عنهم جميعهم ووفاهم أجر اجتهادهم. فالمتعين على المقلد العامي وطالب العلم المبتدئ، أن يرجع في التقليد لهؤلاء، لنصوص نوازله، والرجوع فيما أشكل من ذلك إليهم، ولاستغراق علم الشريعة ودورها عليهم وإحكامهم النظر في مذاهب من تقدمهم، وكفايتهم ذلك لمن جاء بعدهم. انتهى من ترتيب المدارك

السودان إلى وقتنا هذا، وظهر ببغداد ظهورا كثيرا، وضعف بها بعد أربعمائة سنة، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة، وغلب من بلاد خراسان على قزوين وأبهر، وظهر بنيسابور، وكان بها وبغيرها أئمة ومدرسون، سنذكر منهم بعد في طبقاتهم، من ألهم الله تعالى إليه، وكان ببلاد فارس، وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام، وغلب مذهب أبي حنيفة على الكوفة. انتهى [120]

وصار الناس اليوم في أقطار الدنيا إلى خمسة مذاهب: مالكية وشافعية وحنفية وحنبلية وداودية، وهم المعروفون بالظاهرية

فحق على طالب العلم ومريد تعرف الصواب والحق، أن يعرف أولاهم بالتقليد، ليعمل على مذهبه ويسلك في التفقه سبيله، وها نحن نبين أن مالكا رحمه الله تعالى، هو ذلك، لجمعه أدوات الإمامة وتحصيله درجة الاجتهاد، وكونه أعلم القوم بأهل زمانه، وإطباق أهل وقته على شهادتهم له بذلك وتقديمه، وهو القدوة والناس إذ ذاك ناس والزمان زمان. ثم للأثر الوارد في عالم المدينة التي هي داره وانطلاق هذا الوصف، ولإضافة على ألسنة الجماهير، وموافقة أحواله الحال التي أخبر في الحديث عنه، وتأويل السلف الصالح أنه المراد به، وتفصيل الكلام في ذلك وبسطه في فصلين:

أولهما: ما اعتمد النقل والأثر، وفي ذلك ترجيحان

والثاني: مسلكه الاعتبار والنظر، وفيه ثلاث ترجيحات، فانتهينا في ترجيح مذهبه وعظيم قدره في العلم، وعلو منصبه إلى خمس حجج؛ كلها أتينا فيها بمبلغ الوسع بما يقطع العذر، ويكاد ينتهي بعضها إلى مدارك القطع. انتهى [121]

---

[120] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك

[121] المرجع نفسه

ترجيح مذهب مالك على غيره من المذاهب

في ترجيحه من طريق النقل

اعلموا وفقكم الله تعالى، أن ترجيح مذهب مالك على غيره، وأنافة منزلته في العلم وسمو قدره، من طريق النقل والأثر، لا ينكره إلا معاند أو قاصر، لم يبلغه ذلك، مع اشتهاره في كتب المخالف والمساعد، وها نحن نقرر الكلام في ذلك في حجتين:

أولاهما: بالتقديم، وهو الأثر المشهور الصحيح المروي في ذلك من رسول الله عليه السلام، من حديث الثقات، منهم سفيان بن عيينة عن أبي جريج عن أبي الزبير عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم". وفي رواية: "يلتمسون العلم، فلا يجدون عالما أعلم"، وفي رواية: "من عالم المدينة"، وفي بعضها: "أباط الإبل" مكان: "أكباد الإبل"، وقد رواه غير سفيان، عن ابن جريج بمثل حديث سفيان، منهم المحاربي، موقوفا على أبي هريرة ومحمد بن عبد الله الأنصاري في سند، وهو ثقة مأمون.

وهذا الطريق أشهر طرقه، ورجال هذا الطريق رجال مشاهير ثقات، خرج عن جميعهم البخاري ومسلم وأهل الصحيح، ورواه أيضا المقبري عن أبي هريرة بلفظ آخر، حدث به القاضي أبو البختري وهب بن منتبه عن عبد الأعلى بن عبد الله عن المقبري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لا تنقضي الساعة حتى يضرب الناس أكباد الإبل من كل ناحية، إلى عالم المدينة يطلبون علمه"، إلا أن أبا البختري ضعيف عندهم، وقد رواه النسائي أيضا وخرجه في مصنفه، عن علي بن محمد بن كثير عن سفيان عن أبي الزناد عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تضربون أكباد الإبل وتطلبون العلم، فلا تجدون عالما أعلم من عالم المدينة"؛ قال النسائي: هذا خطأ، والصواب أبو الزبير عن أبي صالح.

ورواه أيضا أبو موسى الأشعري عن النبي عليه السلام بلفظ آخر، حدث به معن بن عيسى عن أبي المنذر التميمي زهير قال: قال رسول الله ﷺ: "يخرج ناس من المشرق والمغرب في طلب العلم، فلا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة".

وذكر ابن حبيب حديثا يسنده عن أبي صالح عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تنقطع الدنيا حتى يكون عالما بالمدينة، تضرب إليه أكباد الإبل، ليس على ظهر الدنيا أعلم منه".

قال سفيان بن عيينة من غير طريق واحد: نرى أن المراد بهذا الحديث مالك بن أنس، وفي رواية: هو مالك بن أنس. ومثله عن ابن جريج وعبد الرزاق. وروي عن سفيان أنه قال: كنت أقول: هو ابن المسيب، حتى قلت: كان في زمن ابن المسيب سليمان وسالم وغيرهما، ثم أصبحت اليوم أقول أنه مالك. وذلك أنه عاش حتى لم يبق

له نظير بالمدينة. وهذا هو الصحيح عن سفيان، رواه عنه الثقات والأئمة: ابن مهدي ويحيى بن معين وعلي بن المديني والزبير بن بكار وإسحاق بن أبي إسرائيل وذويب بن غمامة السهمي وغيرهم، كلهم سمع سفيان يقول في تفسير الحديث إذا حدثهم به: هو مالك، أو أظنه أو أحسبه أو أراه، وكانوا يرونه. قال ابن مهدي، يعني سفيان بقوله: كانوا يرونه: التابعين.

قال القاضي أبو عبد الله التستري: هو إخبار عن غيره من نظرائه، أو ممن هو فوقه، وأن مترلته كانت في نفوسهم، هذه المترلة، لما شاهدوه من حاله التي تشبه ما أخبر به في الحديث، قال: وقد جاءت هذه الأحاديث بلفظين، أحدهما: "لا يجدون عالما أعلم من عالم المدينة"، والآخر: "من عالم بالمدينة"، ولكل واحد منهما معنى صحيح.

فأما قوله: "من عالم بالمدينة"، فإشارة إلى رجل بعينه يكون بها لا بغيرها، ولا نعلم أحدا انتهى إليه علم أهل المدينة، وأقام بها ولم يخرج عنها، ولا استوطن سواها في زمن مالك مجمعا عليه، إلا مالكا؛ ولا أفتى بالمدينة وحدث نيفا وستين سنة أحد من علمائها، يأخذ عنه أهل المشرق والمغرب ويضربون إليه أكباد الإبل، غيره.

وأما رواية عالم المدينة، أو أهل المدينة، فقد ذكر محمد بن إسحاق المخزومي، أبو المغيرة، أن تأويل ذلك: ما دام المسلمون يطلبون العلم فلا يجدون أعلم من عالم المدينة، كان بها أو بغيرها.

فيكون على هذا، سعيد بن المسيب، لأنه النهاية في وقته، ثم بعده غيره ممن هو مثله من شيوخ مالك، ثم بعدهم مالك، ثم بعده من قام بعلمه وصار أعلم أصحابه بمذهبه، ثم هكذا، ما دام للعلم طالب ولمذهب أهل المدينة إمام.

ويجوز على هذا أن يقال: هو ابن شهاب في وقته، والعمري في وقته، ومالك في وقته؛ ثم إذا أجمعت اللفظتان، اختص مالك بقوله: "من عالم بالمدينة"، ودخل في جملة علماء المدينة باللفظ الآخر. وقال بعض المالكية: إذا اعتبرت كثرة من روى عن مالك من العلماء، ممن تقدمه وعاصره أو تأخر عنه، على اختلاف طبقاتهم وأقطارهم، وكثرة الرحلة إليه والاعتماد في وقته عليه، دل بغير مرية أنه المراد بالحديث، إذ لم نجد لغيره من علماء المدينة ممن تقدمه أو جاء بعده، من الرواة والآخذين إلا بعض من وجدناه. وقد جمع الرواة عنه غير واحد، وبلغ بهم بعضهم في تسمية من علم بالرواية عنه، سوى من لم يعلم، ألف راو، واجتمع من مجموعهم زائدا على الألف وثلاثمائة، ويدل كثرة قصدهم له، كونه أعلم أهل وقته، وهو الحال والصفة التي أنذر بها عليه السلام، لم يسترب السلف أنه هو المراد بالحديث، وعد هذا الخبر من معجزاته وآياته عليه السلام، مما أخبر به من الكائنات، فوقعت كما أخبر به عليه الصلاة والسلام.

وقال القاضي أبو محمد عبد الوهاب: أما أنه لا ينازعنا في هذا الحديث أحد من أرباب المذاهب، إذ ليس منهم من له إمام من أهل المدينة، فيقول: المراد به إمامي.

ونحن ندعي أنه صاحبنا بشهادة السلف، وبأنه إذا أطلق بين أهل العلم عالم المدينة وإمام دار الهجرة، فالمراد به مالك عندهم، دون غيره من علمائها.

كما إذا قيل: قال الكوفي، فالمراد به أبو حنيفة دون سائر فقهاء الكوفة.

قال القاضي أبو الفضل رضي الله تعالى عنه: فوجه احتجاجنا بهذا الحديث، من أنه مالك، من ثلاثة أوجه، **أحدها:** تقليد السلف بأن المراد بالحديث هو، حسبما نقلنا عنهم، وما كانوا ليقولوا ذلك إلا عن تحقيق، ولا ليذيعوه بهوى، وهم المبرؤون من ذلك، مع تنافس الأقران وما جبلت عليه القلوب من قلة الإنصاف للأمثال، فكيف فضل هذا؟

الوجه الثاني: أنك إذا اعتبرت ما أوردناه من شهادة السلف الصالح، بأنه أعلم من على ظهر الأرض، وأعلم من بقي وأعلم الناس وإمام الناس، وعالم المدينة وإمام دار الهجرة، وأمير المؤمنين في الحديث، وأعلم علماء المدينة، وتعويلهم عليه واقتداؤهم به وإجماعهم على تقديمه، وطالعت ذلك فيما نورده من أخباره، ظهر وبان أنه المراد بالحديث، إذ لم تحصل هذه الأوصاف لغيره، ولا أطبقوا على هذه الشهادة لسواه.

الوجه الثالث: هو ما نبه عليه بعض الشيوخ من أن طلبة العلم لم يضربوا أكباد الإبل من شرق الأرض وغيرها، ولا رحلوا إليه من الآفاق رحلتهم إلى مالك، لما اعتقدوا فيه من تقديمه على سائر علماء وقته، ولو اعتقدوا ذلك في غيره لما ولوا إليه، فالناس أكيس من أن يحمدوا رجلا من غير أن يجدوا آثار إحسان.

الترجيح الثاني في هذا الفصل من طريق النقل: والمعتمد فيه، مجرد تقليد السلف وأئمة المسلمين وعلمائهم في المسألة، وبالاعتراف لمالك رحمه الله تعالى، بأنه أعلم وقته وإمامه، وأعلم الناس وأعلم علماء المدينة، وأشباه هذا، من شهادتهم له بذلك واعترافهم به وتقليدهم إياه واقتدائهم به، على رسوخ كثير منهم في العلم وترجيحهم مذهبه على مذهب غيره، مما سنورد في بابي ثنائهم عليه واقتدائهم به، بعد هذا عند ذكرنا شمائله ومناقبه، وهما بابان متسعان.

وسنورد هنا لمعا من ذلك تومي إلى ما وراءها إن شاء الله تعالى.

من ذلك، قال ابن هرمز شيخه فيه، أنه عالم الناس. وقال سفيان بن عيينة لما بلغه وفاته: ما ترك على الأرض مثله، وقال: مالك إمام، ومالك عالم أهل الحجاز، ومالك حجة في زمانه، ومالك سراج الأمة، وما نحن ومالك؟ إنما كنا نتبع آثار مالك. وقال الشافعي: مالك أستاذي وعنه أخذنا العلم، وما أحد أمن علي من مالك، وجعلت مالكا حجة بيني وبين الله تعالى، وإذا ذكر العلماء، فمالك النجم الثاقب، ولم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم، لحفظه وإتقانه وصيانته؛ وقال: العلم يدور على ثلاثة: مالك والليث وسفيان بن عيينة؛ وحكي عن الأوزاعي أنه كان إذا ذكره قال: قال عالم العلماء وعالم أهل المدينة ومفتي الحرمين؛ وقال بقية بن الوليد: ما بقي على وجه الأرض أعلم بسنة ماضية ولا باقية، منك يا مالك. وقال أبو يوسف: ما رأيت أعلم من

ثلاثة، فذكر مالكا وأبا حنيفة وابن أبي ليلى. وقال ابن مهدي، وسئل عن مالك وأبي حنيفة: مالك أعلم من أستاذي أبي حنيفة. وقدمه ابن حنبل على الأوزاعي والثوري والليث وحماد والحكم، في العلم، وقال: هو إمام في الحديث والفقه. وسئل عمن يريد أن يكتب الحديث وينظر في الفقه، حديث من يكتب؟ وفي رأي من ينظر؟ فقال: حديث مالك ورأي مالك. وقال يحي بن سعيد القطان: مالك إمام يقتدى به. وقال ابن معين: مالك من حجج الله ما خلقه، إمام من أئمة المسلمين مجمع على فضله. وقال أيوب بن سويد: مالك إمام دار الهجرة. وقال أبو جعفر المنصور، أنه أعلم أهل الأرض.

وقال سعيد بن الحداد: كان مالك من الراسخين في الإسلام، أرسخ في العلم من الجبال الراسيات. وقال حميد ابن الأسود: كان إمام الناس عندنا بعد عمر، زيد بن ثابت، وبعده عبد الله بن عمر. قال علي بن المديني: وأخذ من زيد ممن كان يتبع رأيه، واحد وعشرون رجلا.

ثم صار علم هؤلاء إلى ثلاث: ابن شهاب وبكير بن عبد الله وأبي الزناد، وصار علم هؤلاء كلهم إلى مالك ابن أنس. وقال أسد بن الفرات: إن أردت الله والدار الآخرة، فعليك بمالك بن أنس، قال حماد بن زيد: دخلت المدينة ومناديا ينادي: لا يفتي الناس في مسجد رسول الله ﷺ ويحدث، إلا مالك بن أنس.

وقد استوعبنا هذه الشهادات والاعتراف بعد هذا، وقد اعترف له بالعلم والإمامة يحيى بن سعيد شيخه، والأوزاعي والليث، وابن المبارك وجماعة من هذا النمط ومن بعدهم، كالبخاري ومحمد بن عبد الحكم وأبو زرعة الرازي ومن لا ينعد كثرة.

وكذلك ذكرنا في الباب الآخر، اقتداء السلف وأهل العصر من العلماء، وسائر الناس به؛ ونحن نذكر هنا شيئا من ذلك، قال سعيد بن منصور: رأيت مالكا يطوف وخلفه سفيان الثوري، كلما فعل مالك شيئا فعله يقتدي به، قال ابن أبي أويس: كان الناس كلهم يصدون عن رأي مالك، وكان للأمير عنده رجل يسأله، وكذلك القاضي والمحتسب، وسأل رجل ابن عيينة عن الضحية بالليل، فقال له سفيان: لا بأس بذلك، فقال له ابن وهب: فإن مالكا قال لا يضحى بليل، وقرأ: "**في أيام معلومات**"،[122] فنادى سفيان بالرجل وقال: إن هذا أخبرني عن مالك أنه لا يضحى بليل، وقال حميد: أهل المدينة بعد زيد بن ثابت كما تقلدوا قول مالك، وقال عتيق بن يعقوب: ما اجتمع أحد بالمدينة إلا أجمع عليه.[123]

---

[122] البقرة201

[123] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك

قال أبو الفتح الجعفي: **فصل في من ذم التقليد**

يقول محمد بن أبي مدين بن الشيخ أحمد بن سليمان الشنجيطي ما نصه: قال العلماء: التقليد لغة: جعل القلادة في العنق، ومنه تقليد الولاة الأعمال والبدن ما تعرف به.

وشرعا: أخذ مذهب من ليس قوله إحدى الحجج الأربع الشرعية، بدون واحدة منها؛ فالرجوع إلى الكتاب أو السنة أو إجماع الأمة أو القياس الجلي، ليس تقليدا بل هو اتباع، وإن شئت قلت: هو قبول مذهب الغير من دون مطالبة بحجة. انتهى وله حدود أخر، لكن لا يسلم أكثرها من إشكال واعتراضات. انتهى

قال الحافظ السيوطي في كتابه "الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض"، ما نصه: اعلم أنه ما زال السلف والخلف يأمرون بالاجتهاد ويحضون عليه، وينهون عن التقليد ويذمونه ويكرهونه، وقد صنف جماعة لا يحصون في ذمه، فممن صنف في ذلك: المزني صاحب الإمام الشافعي، ألف كتاب "فساد التقليد"، نقل عنه ابن عبد البر في كتاب "العلم"، والزركشي في "البحر"، ولم أقف عليه، وألف ابن حزم ثلاثة كتب في إبطاله، وقفت عليها، وألف ابن عبد البر كتاب "العلم" في ذلك، وقفت عليه، وألف أبو شامة في ذلك كتابه المسمى: "خطبة الكتاب المؤمل في الرد إلى الأمر الأول"، وقفت عليه، وألف ابن دقيق العيد كتابه: "التسديد في ذم التقليد"، لم أقف عليه، وألف ابن القيم كتابا في ذم التقليد، وقفت على كراستين منه، وألف صاحب "القاموس"، كتاب "الإصعاد إلى رتبة الاجتهاد"، لم أقف عليه. انتهى كلام السيوطي بلفظه.

قلت: وممن صنف في ذلك بعد السيوطي: الشوكاني، ألف كتابه: "القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد"، وقد وقفت عليه، وألف السنوسي كتابه: "إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن"، وقد وقفت عليه، وألف الصنعاني صاحب "سبل السلام"، كتابه: "إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد"، وقد وقفت عليه. انتهى[124]

وقال الإمام الغزالي في الجزء الثاني من كتابه المستصفى ما نصه: التقليد هو قبول قول بلا حجة، وليس ذلك طريقا إلى العلم، لا في الأصول ولا في الفروع. انتهى كلامه بلفظه. انتهى[125]

---

[124] الصوارم والأسنة في الذب عن السنة

[125] المرجع نفسه

ما قاله ابن القيم في ذمه للتقليد عامة

قال أبو الفتح: قال ابن القيم في إعلام الموقعين: قال المقلد: نحن معاشر المقلدين، ممتثلون قول الله تعالى: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"،[126] فأمر الله سبحانه، من لا علم له أن يسأل من هو أعلم منه، وهذا نص قولنا، وقد أرشد النبي ﷺ من لا يعلم إلى سؤال من يعلم، فقال في حديث صاحب الشجة: "ألا سألوا إذا لم يعلموا، إنما شفاء العي السؤال"، وقال أبو العسيف الذي زنى بامرأة مستأجره: وإني سألت أهل العلم، فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم.

فلم ينكر عليه تقليد من أعلم منه، وهذا عالم الأرض عمر، قد قلد أبا بكر، فروى شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي، أن أبا بكر قال في الكلالة: أقضي فيها، فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء، هو ما دون الولد والوالد، فقال عمر بن الخطاب: إني لأستحي من الله، أن أخالف أبا بكر، وصح عنه أنه قال له: رأينا لرأيك تبع. وصح عن ابن مسعود أنه كان يأخذ بقول عمر. انتهى[127]

وأيضا، فنقول لكل من قلد واحدا من الناس دون غيره، ما الذي خص صاحبك أن يكون أولى بالتقليد من غيره؟ فإن قال: لأنه أعلم أهل عصره، وربما فضله على من قبله، مع جزمه الباطل أنه لم يجئ بعده أعلم منه، قيل له: وما يدريك، ولست من أهل العلم بشهادتك على نفسك أنه أعلم الأمة في وقته؟ فإن هذا، إنما يعرفه من عرف المذاهب وأدلتها وراجحها من مرجوحها، فما الأعمى ونقد الدراهم؟ وهذا أيضا باب آخر من القول على الله بلا علم.

ويقال له ثانيا: فأبو بكر وعمر بن الخطاب وعثمان وعلي وابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل وعائشة وابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، أعلم من صاحبك بلا شك، فهلا قلدهم وتركته؟ بل سعيد بن المسيب والشعبي وعطاء وطاوس وأمثالهم أعلم وأفضل بلا شك، فلم تركت تقليد الأعلم الأفضل الأجمع لأدوات الخير والعلم والدين، ورغبت عن أقواله ومذاهبه إلى من هو دونه؟ فإن قال: لأن صاحبي ومن قلدته أعلم به، فتقليدي له أوجب علي مخالفة قوله لقول من قلدته، لأن وفور علمه ودينه يمنعه من مخالفة من هو فوقه وأعلم منه، إلا لدليل صار إليه، هو أولى من قول كل واحد من هؤلاء. قيل له: ومن أين علمت أن الدليل الذي صار إليه صاحبك الذي زعمت أنت أنه صاحبك، أولى من الدليل الذي صار إليه من هو أعلم منه وخير منه، أو هو نظيره؟ وقولان معا متناقضان لا يكونان صوابا، بل أحدهما هو الصواب، ومعلوم أن ظفر الأعلم الأفضل

---

[126] النحل43

[127] إعلام الموقعين عن رب العالمين

بالصواب أقرب من ظفر من هو دونه، فإن قلت علمت ذلك بالدليل، فههنا، إذا انتقلت عن منصب التقليد إلى منصب الاستدلال وأبطلت التقليد. انتهى[128]

القول الفصل: في جواز التقليد وأحكامه

نبدأ بحول الله تعالى بتقسيم المقلدين إلى قسمين:

القسم الأول: مقلد على دراية بعلوم الشرع وطرق استنباط الأحكام من أصولها المتعارف عليها عند ذوي الشأن، وهو من حيث أخذه بالتقليد صنفان:

الأول: من قلد إمامه في جميع فتاويه، و لم يسأله عن أصول استنباطها، بل ترك تقليد الأولى منه، ولو كانت حجة الأولى أبلغ من حجة إمامه.

وهذا لا يعتبر مقلدا حتى لإمامه الذي يدعي تقليده، إذ ثبت عن الأئمة أصحاب المذاهب، الدعوة إلى ترك فتاويهم، ما ظهر بطلانها بحديث صحيح أو فعل صحابي أو قياس سليم.

قال في الصوارم: وقال محب الدين محمد بن محمد بن محمد، المعروف بابن الشحنة، الحلبي الحنفي، المتوفى سنة تسعين وثمانمائة، في كتابه: "نهاية النهاية" ما نصه: إذا صح الحديث وكان على خلاف المذهب، عمل بالحديث، ويكون ذلك مذهبه، ولا يخرج عن كونه حنفيا، فقد صح عن أبي حنيفة أنه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي. انتهى كلام ابن الشحنة بلفظه. انتهى[129]

وقال: وروى إبراهيم بن يوسف أنه قال: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه، وروي هذا عن زفر بن هذيل وأبي يوسف وعافية بن يزيد وآخرين. ومعنى: علمه من أين، قالوا: علم حجته ودليله. انتهى[130]

وعن القعنبي قال: دخلت على مالك فوجدته باكيا، فقلت له: يا أبا عبد الله، ما الذي يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب، إنا لله على ما فرط مني، ليتني جلدت بكل كلمة تكلمت بها في هذا الأمر بسوط، و لم يكن فرط مني ما فرط من هذا الرأي وهذه المسائل. فقلنا له: ارجع عن ذلك، فقال: كيف لي بذلك وقد سارت به الركبان، وأنا على ما ترون؟ فلم نخرج من عنده حتى أغمضناه. وقال مشيرا إلى الحجرة الشريفة: كل كلام منه مقبول ومردود، إلا كلام صاحب هذا القبر. انتهى[131]

---

[128] المرجع نفسه

[129] المرجع نفسه

[130] المرجع نفسه

[131] المرجع نفسه

وقد جمع ابن دقيق العيد المسائل التي خالف كل واحد من الأئمة الأربعة فيها الحديث الصحيح، انفرادا أو اجتماعا في مجلد ضخم، وذكر في أوله أن نسبة هذه المسائل إليهم حرام، وأنه يجب على الفقهاء المقلدين لهم معرفتها، ليلا يعزوها إليهم فيكذبوا عليهم. انتهى كلام السنوسي بلفظه. انتهى[132]

وروي عن مالك رحمه الله، أنه كان يقول: "إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين".[133] انتهى[134]

وفي "توالي التاسيس بمعالي ابن إدريس"، للحافظ ابن حجر ما نصه: وعن البويطي: سمعت الشافعي يقول: لقد ألفت هذه الكتب و لم آل فيها، ولا بد أن يوجد فيها الخطأ، لأن الله تعالى يقول: "ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا".[135] فما وجدتم في كتبي هذه مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه. انتهى[136]

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حرملة قال: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن رسول الله ﷺ خلاف قولي مما يصح، فحديث رسول الله ﷺ أولى. انتهى[137]

وفي "الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض" للسيوطي، ما نصه: قال ابن حزم: ويكفي في إبطال التقليد، أن القائلين به مقرون على أنفسهم بالباطل، لأن كل طائفة من الحنفية والمالكية والشافعية مقرة بأن التقليد لا يحل؛ وأئمتهم الثلاثة قد نهوا عن تقليدهم، ثم مع ذلك خالفوهم وقلدوهم، وهذا عجب ما مثله عجب، حيث أقروا ببطلان التقليد ثم دانوا الله به. انتهى المراد منه بلفظه. قال جامعه عفا الله تعالى عنه: وأما إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنه، فأمره في اتباع السنة مشهور، حتى أنه لم ينسب لنفسه كلاما قط، إلا في بعض مسائل في الصلاة، وكان يقول: أو لأحد كلام مع كتاب الله وسنة رسوله؟ وكان يقول: من قلة فقه المرء تقليده دينه الرجال، وكان شديد الكراهة لتصنيف الرأي، ويحب تجريد الحديث، ويكره أن يكتب كلامه، ويشتد عليه جدا، ويقول: لا يكاد أحد ينظر في كتب الرأي إلا وفي قلبه دغل. قال ابن القيم: ولأجل هذا، لم يؤلف الإمام أحمد كتابا في الفقه، وإنما دون أصحابه مذهبه من أقواله وأفعاله وأجوبته. انتهى[138]

---

132 المرجع نفسه

133 الجاثية31

134 إعلام الموقعين عن رب العالمين

135 النساء81

136 إعلام الموقعين عن رب العالمين

137 المرجع نفسه

138 المرجع نفسه

قال أبو الفتح: قلت: فالذي قلد إمامه حتى فيما تبين أنه خلاف لما جاء به الله تعالى ونبيه ﷺ، هو خارج عن إمامه، لاعتبار ما أوردناه من دلالات.

وهذا هو المقلد الأعمى رغم بصره، إذ عماه التعنت، وبصره العلم الذي هو على نصيب منه، يكفيه ما هو فيه من اتباع دون سلطان.

وليس هذا موضوع كلامنا، إذ لا يختلف اثنان من أهل الملة في ضلالته.

الثاني: من قلد إمامه فيما استشكل وأعياه طلاب الحق فيه، فلم يصل إلى ما يطمئن له، ومنه ما اختلف فيه الأئمة الأعلام أنفسهم، فاكتفى بما ذهب إليه إمامه.

كما قلد إمامه في الرجوع إلى الحق متى تبين الخطأ في المذهب المتبع.

فإن قيل: فما دام الأئمة الأعلام قد اختلفوا في النازلة، فما باله لم يختر لنفسه رأيا على حسب علمه؟

قلت: لا تخفى أسباب اختلاف الأئمة، إذ ليس هذا موضع ذكرها، وإلا فطالع كتاب "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، لشيخ الاسلام ابن تيمية، مع العلم أنه من دعاة ترك التقليد، رحمه الله تعالى.

والجواب: إذا كان هؤلاء الأئمة قد بلغوا درجة الاجتهاد، ومع ذلك اختلفوا، فليس كل مقلد هناك، حتى يجتهد كما اجتهدوا، خصوصا في ما وقع فيه الاختلاف.

وإن الأخذ بالمذهب الواحد فيما اختلف فيه، وعز فيه الوصول إلى الصواب، لتوحيد للأمة وجمع لشملها.

وإذا كان المقلد الشافعي، لا يصلي الجهرية خلف المقلد المالكي، لأنه لا يجهر بالبسملة قبل فاتحة الكتاب، والمالكي لا يصلي خلف الشافعي لأنه يجهر بها، مع العلم أن اختيار الصواب أمر لا يدرك، كما هو معروف، فإن الإجماع على اتباع مذهب واحد، من شأنه أن يجعل هذا يصلي وراء ذاك، لوحدة مذهب كل منهما.

الصنف الثاني: مقلد ليس بقارئ، ولا يعلم من الدين ما يعرف به الحق من الباطل، قلد إماما من أصحاب المذاهب: فلا جناح عليه في رأينا، ومن قال غير ذلك، فقد أخطأ وجه الحق، من حيث يدري أو لا يدري

إن كنت ما تدري فتلك مصيبة   أو كنت تدري فالمصيبة أعظم.[139]

وقد أجاب ابن القيم على نفسه في هذا، فقال: ثم يقال للمانعين من التقليد: أنتم منعتموه خشية وقوع المقلد في الخطأ، بأن يكون من قلده مخطئا في فتواه، ثم أوجبتم عليه النظر والاستدلال في طلب الحق، ولا ريب أن صوابه في تقليده للعالم أقرب من صوابه في اجتهاده هو لنفسه، وهذا كمن أراد شراء سلعة لا خبرة له بها، فإنه إذا قلد عالما بتلك السلعة، خبيرا بها أمينا ناصحا، كان صوابه وحصول غرضه أقرب من اجتهاده لنفسه، وهذا متفق عليه بين العقلاء. انتهى[140]

---

[139] صفي الدين الحلي الأندلسي

[140] إعلام الموقعين عن رب العالمين

فليت شعري لو حرمت العامة من التقليد، وقلت: خذوا أحكامكم بأنفسكم، لكأنما تجعلهم مجتهدين عالمين بعلوم اللغة والقرآن والحديث، واصلين في علم الأصول والفقه، وما إلى ذلك، وهذا عين المحال.[141]

قال ابن القيم: وأيضا، فإنا نعلم بالضرورة أنه لم يكن في عصر الصحابة رجل واحد اتخذ رجلا منهم يقلده في جميع أقواله، فلم يسقط منها شيئا، وأسقط أقوال غيره فلم يأخذ منها شيئا. انتهى[142]

كيف يقلد صحابي صحابيا في جميع أموره ورسول الله ﷺ بين أظهرهم؟ وحتى بعد موته ﷺ، فلا زالت أقواله وأحاديثه شائعة بين الناس، فمن ذا الذي يتقدم عليه، ويفتي بغير فتواه؟

ثم قال ابن القيم: ونعلم بالضرورة، أن هذا، لم يكن في عصر التابعين ولا تابعي التابعين، فليكذبنا المقلدون برجل واحد سلك سبيلهم الوخيمة في القرون الفضيلة على لسان رسول الله ﷺ. انتهى[143]

قلت: ماذا تقصد بالتابعين وتابعي التابعين، فإن كان قصدك العلماء منهم فذاك، وإن قصدت من عاصرهم من العامة، فقد أخطأت، فإنا نعلم بالضرورة أن العامة في عصر التابعين وتابعيهم قد ائتموا بأئمتهم، فكانوا لهم سرجا تضيء في ظلمات جهلهم وأميتهم

ثم قال: وإنما حدثت هذه البدعة في القرن الرابع المذموم، على لسان رسول الله ﷺ، فالمقلدون لمتبوعهم في جميع ما قالوه يبيحون به الفروج والدماء والأموال، ويحرمونها، ولا يدرون أذاك صواب أم خطأ، على خطر عظيم، ولهم بين يدي الله موقف شديد، يعلم فيه من قال على الله ما لا يعلم أنه لم يكن على شيء. انتهى[144]

قلت: رمى ابن القيم التقليد بالبدعة، و لم يفرق بين مقلد ومقلد، وذكر القرن الرابع، حيث ظهرت المستجدات والنوازل التي لم يكن للمسلمين عهد بها، ولا عرفها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فممن يأخذ قضاء الشرع فيها العامة، إذا لم يتبعوا علماءهم؟

---

[141] يقول الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: فإذا ما كلفت كل مسلم بالاجتهاد والنظر في الأدلة، وأقصيته عن هذه الكتب التي كان بوسعه أن يحفظ منها أحكام الحلال والحرام مقلدا أحد الأئمة، فمعنى ذلك، أنك قد قلت له بكل صراحة ووضوح: ليس حكم الله فيما يعترضك من مشكلات، إلا ما تهديك إليه قناعتك الذاتية.

وانتظر بعد ذلك، أن تجد الشريعة الإسلامية كلها اسما لا مسمى تحته، وعنوانا لا موضوع له، وبناء كمقبرة جحا: جدار أثبت فيه باب موصد بالأغلال، ومن ورائه أرض سائبة ترتع فيها السباع والذئاب.

أما إن انطلقت به بعد إقصائك إياه عن تلك الكتب وأئمتها، إلى كتب أخرى ألفها واجتهد فيها أناس آخرون، فألزمته بهم، وحملته على تقليدهم، فأنت لم تفعل بذلك شيئا أكثر من أنك أوجبت عليه أن يتحول من تقليد الشافعي وأبي حنيفة ومالك وأحمد، إلى تقليد فلان أو فلان من المعاصرين. انتهى من اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية

[142] إعلام الموقعين عن رب العالمين

[143] المرجع نفسه

[144] المرجع نفسه

ويزيد ابن القيم: هذا لا ينفعك شيئا البتة فيما اختلف فيه، فإن من قلدته ومن قلده غيرك قد اختلفا، وصار من قلده غيرك إلى موافقة أبي بكر وعمر، أو علي وابن عباس، أو عائشة وغيرهم دون من قلدته، فهلا نصحت نفسك وهديت لرشدك وقلت: هذان عالمان كبيران، ومع أحدهما من ذكر الصحابة فهو أولى بتقليدي إياه؟ انتهى[145]

فنقول: فما قوله فيما ظهر من حوادث ووقائع لم تحدث، ولم تقع على عهد أبي بكر وعمر وعلي وابن عباس أو عائشة وغيرهم، ولا عرفوها رضي الله عنهم أجمعين؟

لا أدري ما أصاب ابن القيم، وهو العالم النحرير والمحقق القدير، حتى زجر المقلد دون تفريق مرة أخرى بين مقلد ومقلد، بقوله: فكيف تحلل وتحرم وتوجب وتريق الدماء، وتبيح الدماء وتبيح الفروج، وتنقل الأموال وتضرب الأبشار، بقول من أنت مقر بجواز كونه مخطئا؟ انتهى[146] مع العلم أن كثيرا من المقلدين كما سبق ذكره، لا يقلدون إلا فيما وقع فيه الخلاف، وعز الوصول فيه إلى الصواب، وليس المقلد، هو من يقوم بكل هذه الكبائر التي سردها عالمنا الجليل، ولكن لكل عالم زلة، ولكل جواد كبوة، فما على العالم إن زل، وما على الجواد ما كبا

كما استدل ابن القيم للذين يدعون إلى التقليد، بقول الباري عز وجل: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون". [147]

ولعله نسي أو تناسى أن يستدل بغير هذه الآية الكريمة، مما هو أبلغ وأنسب في الاستدلال في هذا المقام، وهو قوله تعالى: "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا". [148]

وقد اقتضى بيان هذه القضية، أن نورد من كلام ابن القيم نفسه، مثالا مما اختلف فيه، حتى يطلع القارئ ويعرف دواعي استحالة القطع فيه؛ مما يجعل الحكم عليه في عداد ما لا يطلب، فلا يسعه سوى تقليد أحد الأئمة المجتهدين، من أجل توحيد الكلمة ودفع الشقاق

فلنأت بمثال على اختلاف الفقهاء في جزئيات فقهية، يصعب المخرج منها على العالم النحرير برأي قويم، وما دمنا نساجل إمامنا ابن القيم رحمه الله تعالى، في حكم التقليد والمقلدين، فقد ارتأينا أن نورد ما ذهب إليه رحمه الله تعالى في قضية: بم يبدأ المصلي في نزوله للسجود، يديه أو ركبتيه؟ من "زاد المعاد" له

---

[145] المرجع نفسه

[146] المرجع نفسه

[147] النحل43

[148] النساء82

وقد سبق أن أعددت ردا على ما ذهب إليه، لكن، وأنا أتوسع في الموضوع، عثرت على ما ذهب إليه الشيخ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري رحمه الله تعالى، في كتابه: "تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي"، وذلك من تعزيز ما رأيناه في المسألة، من أن الأولى تقديم اليدين، على خلاف رأي ابن القيم، بل ألفيته يرد عليه هو الآخر ويفند أدلته وحججه، وقد اقتضب رحمه الله تعالى وما فرط من شيء، فأعجبني منه ذلك، فاخترت أن أسرد كلامه من أصله، وما أضفت سوى زيادات طفيفة على هامشه، قصد الإيضاح، فجزاه الله عنا وعن أمة المسلمين كل خير

ما يقدم في السجود المتضمن لما رآه ابن القيم والرد عليه

قال ابن القيم في كتاب زاد المعاد ما نصه: وكان ﷺ يضع ركبتيه قبل يديه، ثم يديه بعدهما، ثم جبهته وأنفه. هذا هو الصحيح الذي رواه شريك عن عاصم بن كليب عن أبيه عن وائل بن حجر: رأيت رسول الله ﷺ إذا سجد وضع ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه، و لم يرو في فعله ما يخالف ذلك.[149]

وأما حديث أبي هريرة يرفعه: "إذا سجد أحدكم، فلا يبرك كما يبرك البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه"، فالحديث، والله أعلم، قد وقع فيه وهم من بعض الرواة،[150] فإن أوله يخالف آخره، فإنه إذا وضع يديه قبل ركبتيه، فقد برك كما يبرك البعير، فإن البعير إنما يضع يديه أولا، ولما علم أصحاب هذا القول ذلك، قالوا: ركبتا البعير في يديه، لا في رجليه، فهو إذا برك، وضع ركبتيه أولا، فهذا هو المنهي عنه، وهو فاسد لوجوه:

أحدها: أن البعير إذا برك، فإنه يضع يديه أولا، وتبقى رجلاه قائمتين، فإذا نهض، فإنه ينهض برجليه أولا، وتبقى يداه على الأرض، وهذا هو الذي نهى عنه ﷺ، وفعل خلافه. وكان أول ما يقع منه على الأرض الأقرب منها فالأقرب، وأول ما يرتفع عن الأرض منها الأعلى فالأعلى.

وكان يضع ركبتيه أولا، ثم يديه، ثم جبهته. وإذا رفع، رفع رأسه أولا، ثم يديه، ثم ركبتيه. وهذا عكس فعل البعير، وهو ﷺ نهى في الصلاة عن التشبه بالحيوانات، فنهى عن بروك كبروك البعير، والتفات كالتفات الثعلب، وافتراش كافتراش السبع، وإقعاء كإقعاء الكلب، ونقر كنقر الغراب، ورفع الأيدي وقت السلام كأذناب الخيل الشمس، فهدي المصلي مخالف لهدي الحيوانات.

---

[149] بل روي ما يخالفه: ومنه ما رواه الحاكم في مستدركه، قال: حدثنا أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بطة الأصبهاني، ثنا عبد الله ابن محمد بن زكريا الأصبهاني، ثنا محرز بن سلمة، ثنا الدراوردي عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، أنه كان يضع يديه قبل ركبتيه وقال: كان النبي ﷺ يفعل هذا. حديث صحيح على شرط مسلم

[150] قوله: فالحديث والله أعلم، قد وقع فيه وهم من بعض الرواة. انتهى لا تقبل هذه الصيغة في عرف المحققين، إذ لا يقوم ظن وقوع الوهم في الحديث على دليل، وإلا رددنا كل ما لا يوافق آراءنا من أحاديث رسول الله ﷺ، اعتمادا على الظن.

الثاني: أن قولهم: ركبتا البعير في يديه، كلام لا يعقل، ولا يعرفه أهل اللغة،[151] وإنما الركبة في الرجلين، وإن أطلق على اللتين في يديه اسم الركبة، فعلى سبيل التغليب.

الثالث: أنه لو كان كما قالوه، لقال: فليبرك كما يبرك البعير، وإن أول ما يمس الأرض من البعير يداه. وسر المسألة، أن من تأمل بروك البعير،[152] وعلم أن النبي ﷺ نهى عن بروك كبروك البعير، علم أن حديث وائل بن حجر هو الصواب، والله أعلم.

وكان يقع لي، أن حديث أبي هريرة، كما ذكرنا، مما انقلب على بعض الرواة متنه وأصله، ولعله: "وليضع ركبتيه قبل يديه"، كما انقلب على بعضهم حديث ابن عمر: "إن بلالا يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم"؛ فقال: "ابن أم مكتوم يؤذن بليل، فكلوا واشربوا حتى يؤذن بلال". وكما انقلب على بعضهم حديث: "لا يزال يلقى في النار، فتقول: هل من مزيد"، إلى أن قال: "وأما الجنة، فينشئ الله لها خلقا يسكنهم إياها"، فقال: "وأما النار، فينشئ الله لها خلقا يسكنهم إياها"، حتى رأيت أبا بكر بن أبي شيبة قد رواه كذلك، فقال ابن أبي شيبة: حدثنا محمد بن فضيل عن عبد الله بن سعيد عن جده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا سجد أحدكم، فليبدأ بركبتيه قبل يديه، ولا يبرك كبروك الفحل". ورواه الأثرم في سننه أيضا عن أبي بكر كذلك. وقد روي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ما يصدق ذلك، ويوافق حديث وائل بن حجر. قال ابن أبي داود: حدثنا يوسف بن عدي، حدثنا ابن فضيل، هو محمد، عن عبد الله بن سعيد عن جده عن أبي هريرة أن النبي ﷺ، كان إذا سجد بدأ بركبتيه قبل يديه.

وقد روى ابن خزيمة في "صحيحه"، من حديث مصعب بن سعد عن أبيه قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا بالركبتين قبل اليدين، وعلى هذا، فإن كان حديث أبي هريرة محفوظا، فإنه منسوخ، وهذه طريقة صاحب "المغني" وغيره، ولكن للحديث علتان:

إحداهما: أنه من رواية يحيى بن سلمة بن كهيل، وليس ممن يحتج به. قال النسائي: متروك. وقال ابن حبان: منكر الحديث جدا، لا يحتج به. وقال ابن معين: ليس بشيء.

---

[151] ومتى عرف أهل اللغة أن للبعير يدين؟ إنما هي أرجل وقوائم بركب

[152] المراد منه: كيفية بروك البعير، التي لا علاقة لها بتقديم اليدين أو الركبتين، إذ ليس للبعير يدان، بل هي كيفية الجثي والإناخة؛ وما أشبه الواقع على ركبتيه في صلاته بوقوع الجمل. مع العلم أن وضع اليدين قبل الركبتين في الصلاة، فيه من الخنوع والخضوع لله تعالى، أكثر من وضع الركبتين قبل اليدين. ثم إن الذي يخر ساجدا، قد تسبق ركبتاه يديه، ولو أنه قصد وضع اليدين قبل الركبتين، فتدبره تر ما رأينا، والله أعلم

الثانية: أن المحفوظ من رواية مصعب بن سعد عن أبيه هذا، إنما هو قصة التطبيق، وقول سعد: كنا نصنع هذا، فأمرنا أن نضع أيدينا على الركب.

وأما قول صاحب "المغني" عن أبي سعيد قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا أن نضع الركبتين قبل اليدين، فهذا، والله أعلم، وهم في الإسم، وإنما هو عن سعد. وهو أيضا وهم في المتن كما تقدم، وإنما هو في قصة التطبيق، والله أعلم.

وأما حديث أبي هريرة المتقدم، فقد علله البخاري والترمذي والدارقطني. قال البخاري: محمد بن عبد الله بن حسن، لا يتابع عليه. وقال: لا أدري أسمع من أبي الزناد، أم لا.

وقال الترمذي: غريب لا نعرفه من حديث أبي الزناد إلا من هذا الوجه.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد العزيز الدراوردي عن محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي عن أبي الزناد. وقد ذكر النسائي عن قتيبة: حدثنا عبد الله بن نافع عن محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: "يعمد أحدكم في صلاته، فيبرك كما يبرك الجمل"، ولم يزد. قال أبو بكر بن أبي داود: وهذه سنة تفرد بها أهل المدينة، ولهم فيها إسنادان: هذا أحدهما، والآخر عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

قلت: أراد الحديث الذي رواه أصبغ بن الفرج عن الدراوردي عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر، أنه كان يضع يديه قبل ركبتيه ويقول: كان النبي ﷺ يفعل ذلك. رواه الحاكم في المستدرك من طريق محرز بن سلمة عن الدراوردي وقال: على شرط مسلم. وقد رواه الحاكم من حديث حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ انحط بالتكبير حتى سبقت ركبتاه يديه.[153] قال الحاكم: على شرطهما، ولا أعلم له علة.

قلت: قال عبد الرحمن بن أبي حاتم: سألت أبي عن هذا الحديث فقال: هذا الحديث منكر. انتهى. وإنما أنكره، والله أعلم، لأنه من رواية العلاء بن إسماعيل العطار عن حفص بن غياث، والعلاء هذا مجهول لا ذكر له في الكتب الستة. فهذه الأحاديث المرفوعة من الجانبين كما ترى.

وأما الآثار المحفوظة عن الصحابة: فالمحفوظ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كان يضع ركبتيه قبل يديه، ذكره عنه عبد الرزاق وابن المنذر، وغيرهما، وهو المروي عن ابن مسعود رضي الله عنه، ذكره الطحاوي عن فهد عن عمر بن حفص عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم عن أصحاب عبد الله، علقمة والأسود قالا:

---

[153] قول أنس بن مالك رضي الله عنه: رأيت رسول الله ﷺ انحط بالتكبير، حتى سبقت ركبتاه يديه. دليل على أن الذي عهده في رسول الله ﷺ، تقديم يديه قبل ركبتيه، فقوله: حتى سبقت ركبتاه يديه. يوحي بجلاء بأنه ﷺ، لم يكن يفعل ذلك كل مرة، وإنما هديه عكسه، وإلا لما عبر أنس بلفظة: حتى

حفظنا عن عمر في صلاته، أنه خر بعد ركوعه على ركبتيه كما يخر البعير،[154] ووضع ركبتيه قبل يديه. ثم ساق من طريق الحجاج بن أرطأة قال: قال إبراهيم النخعي: حفظ عن عبد الله بن مسعود، أن ركبتيه كانتا تقعان على الأرض قبل يديه، وذكر عن أبي مرزوق عن وهب عن شعبة عن مغيرة قال: سألت إبراهيم عن الرجل يبدأ بيديه قبل ركبتيه إذا سجد؟ قال: أو يصنع ذلك إلا أحمق أو مجنون؟

قال ابن المنذر: وقد اختلف أهل العلم في هذا الباب، فممن رأى أن يضع ركبتيه قبل يديه، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبه قال النخعي ومسلم بن يسار والثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة وأصحابه وأهل الكوفة.

وقالت طائفة: يضع يديه قبل ركبتيه، أدركنا الناس يضعون أيديهم قبل ركبهم. قال ابن أبي داود: وهو قول أصحاب الحديث.

قلت: وقد روي حديث أبي هريرة بلفظ آخر، ذكره البيهقي، وهو: "إذا سجد أحدكم، فلا يبرك كما يبرك البعير، وليضع يديه على ركبتيه". قال البيهقي: فإن كان محفوظا، كان دليلا على أنه يضع يديه قبل ركبتيه عند الإهواء إلى السجود.

وحديث وائل بن حجر أولى لوجوه.

أحدها: أنه أثبت من حديث أبي هريرة، قاله الخطابي وغيره.

الثاني: أن حديث أبي هريرة مضطرب المتن كما تقدم، فمنهم من يقول فيه: "وليضع يديه قبل ركبتيه، ومنهم من يقول بالعكس، ومنهم من يقول: "وليضع يديه على ركبتيه"،[155] ومنهم من يحذف هذه الجملة رأسا.

الثالث: ما تقدم من تعليل البخاري والدارقطني وغيرهما.

الرابع: أنه على تقدير ثبوته، قد ادعى فيه جماعة من أهل العلم النسخ، قال ابن المنذر: وقد زعم بعض أصحابنا أن وضع اليدين قبل الركبتين منسوخ، وقد تقدم ذلك.

الخامس: أنه الموافق لنهي النبي ﷺ عن بروك كبروك الجمل في الصلاة، بخلاف حديث أبي هريرة.

---

[154] فانظر رعاك الله، إلى ابن القيم كيف ساق ما روي عن عمر، يؤيد به ما ذهب إليه، في حين أن ما روي عن عمر يخالف ما ذهب إليه، فهذه الرواية تصف عمر رضي الله عنه، بأنه خر على ركبتيه في الصلاة كما يخر البعير، فتبين مراده ﷺ، من قوله: "إذا سجد أحدكم، فلا يبرك كما يبرك البعير "، وفيه النهي عن تقديم الركبتين قبل اليدين عند السجود في الصلاة، فتدبر رحمك الله فيما قلناه

[155] لا نجد روايات للحديث تشهد على انقلابه حتى نحكم عليه بذلك، فكان الأحرى بابن القيم أن يستشهد بها، إن كانت موجودة فعلا كما يدعي

السادس: أنه الموافق للمنقول عن الصحابة، كعمر بن الخطاب وابنه، وعبد الله بن مسعود؛ و لم ينقل عن أحد منهم ما يوافق حديث أبي هريرة، إلا عن عمر رضي الله عنه، على اختلاف عنه.

السابع: أن له شواهد من حديث ابن عمر وأنس كما تقدم، وليس لحديث أبي هريرة شاهد، فلو تقاوما، لقدم حديث وائل بن حجر من أجل شواهده، فكيف، وحديث وائل أقوى كما تقدم؟

الثامن: أن أكثر الناس عليه، والقول الآخر، إنما يحفظ عن الأوزاعي ومالك، وأما قول ابن أبي داود: إنه قول أهل الحديث، فإنما أراد به بعضهم، وإلا فأحمد والشافعي وإسحاق على خلافه.

التاسع: أنه حديث فيه قصة محكية، سيقت لحكاية فعله ﷺ، فهو أولى أن يكون محفوظا، لأن الحديث إذا كان فيه قصة محكية، دل على أنه حفظ.

العاشر: أن الأفعال المحكية فيه كلها ثابتة صحيحة من رواية غيره، فهي أفعال معروفة صحيحة، وهذا واحد منها، فله حكمها، ومعارضه ليس مقاوما له، فيتعين ترجيحه، والله أعلم. انتهى[156]

رد صاحب تحفة الأحوذي ما ذهب إليه ابن القيم

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري:

(باب ما جاء في وضع الركبتين قبل اليدين في السجود)، وفي بعض النسخ: باب ما جاء في وضع الركبتين قبل اليدين، وهذا هو يطابقه حديث الباب.

حدثنا سلمة بن شبيب وأحمد بن إبراهيم الدورقي والحسن بن علي الحلواني وعبد الله بن منير وغير واحد، قالوا: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا شريك عن عاصم بن كليب عن أبيه عن وائل بن حجر قال: "رأيت رسول الله ﷺ إذا سجد، يضع ركبتيه قبل يديه، وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه".

(قال) زاد الحسن بن علي في حديثه: قال يزيد بن هارون: و لم يرو شريك عن عاصم بن كليب إلا هذا الحديث. انتهى[157]

قال (أبو عيسى): هذا حديث حسن غريب، لا نعرف أحدا رواه مثل هذا عن شريك. والعمل عليه عند أكثر أهل العلم: يرون أن يضع الرجل ركبتيه قبل يديه. وإذا نهض رفع يديه قبل ركبتيه. وروى همام عن عاصم هذا مرسلا، و لم يذكر فيه وائل بن حجر.

---

[156] زاد المعاد في هدي خير العباد

[157] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي

قال المباركفوري: قوله: (إذا سجد يضع ركبتيه قبل يديه)، استدل به من قال بوضع الركبتين قبل اليدين، لكن الحديث ضعيف كما ستعرف.

قوله: (هذا حديث غريب حسن، لا نعرف أحدا رواه غير شريك)، في كون هذا الحديث حسنا نظر، فإنه قد تفرد به شريك، وهو ابن عبد الله النخعي الكوفي، صدوق يخطئ كثيرا، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة.[158] وقال الدارقطني في سننه، بعد رواية هذا الحديث: تفرد به يزيد عن شريك، ولم يحدث به عن عاصم بن كليب غير شريك، وشريك ليس بالقوي فيما ينفرد به. انتهى

وقال المنذري في تلخيص السنن: قال أبو بكر البيهقي: هذا حديث يعد في أفراد شريك القاضي، وإنما تابعه همام مرسلا. هكذا ذكره البخاري وغيره من الحفاظ المتقدمين، هذا آخر كلامه. وشريك هذا: هو ابن عبد الله النخعي القاضي، وفيه مقال، وقد أخرج له مسلم متابعة. انتهى كلام المنذري. وقال الحافظ الحازمي في كتاب الاعتبار، بعد رواية هذا الحديث من طريق شريك عن عاصم بن كليب عن أبيه عن وائل، ما لفظه: ورواه همام بن يحيى عن محمد بن جحادة عن عبد الجبار بن وائل عن أبيه عن النبي ﷺ. قال همام: وثنا شقيق، يعني أبا الليث، عن عاصم بن كليب عن أبيه عن النبي ﷺ مرسلا، وهو المحفوظ. انتهى كلام الحازمي

---

[158] قلت: هو شريك بن عبد الله أبو عبد الله النخعي الكوفي القاضي.

عن يحيى بن معين قال: شريك بن عبد الله هو صدوق ثقة، إلا أنه إذا خولف، فغيره أحب إلينا منه. قال أبو عبيد الله: وسمعت من أحمد شبيها بذلك. انتهى من تاريخ بغداد

حدثنا أبو بكر المروذي قال: قلت، يعني لأحمد بن حنبل: يحيى القطان، أيش كان يقول في شريك؟ قال: كان لا يرضاه، وما ذكر عنه إلا شيئا على المذاكرة، حديثين. انتهى من تاريخ بغداد

حدثنا علي بن عبد الله المديني قال: قال يحيى بن سعيد: قدم شريك مكة، فقيل لي: لو أتيته؟ فقلت: لو كان بين يدي، ما سألته عن شيء؛ وضعف حديثه جدا. قال يحيى: أتيته بالكوفة، فإذا هو لا يدري. انتهى من تاريخ بغداد

حدثنا أبو عبيد محمد بن علي الآجري قال: سمعت أبا داود يقول: شريك ثقة يخطئ على الأعمش، زهير وإسرائيل فوقه. انتهى من تاريخ بغداد

حدثنا محمد بن يحيى قال: سمعت أبا الوليد يقول: كان شريك يحدث بشيء يسبق إلى نفسه، لا يرجع إلى كتاب. انتهى من تاريخ بغداد

حدثنا عباس بن محمد قال: سمعت يحيى بن معين يقول: قال أبو عبيد الله وزير المهدى لشريك القاضي: أردت أن أسمع منك أحاديث، فقال: قد اختلطت علي أحاديثي، وما أدري كيف هي؛ فألح عليه أبو عبيد الله، فقال: حدثنا بما تحفظ ودع ما لا تحفظ، فقال: أخاف أن تخرج أحاديثي ويضرب بها وجهي. انتهى من تاريخ بغداد

وقال أبو إسحاق الجوزجاني: كان شريك سيئ الحفظ. انتهى من تذكرة الحفاظ

قال في التقريب: صدوق يخطئ كثيرا، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة. انتهى

قلت: طريق همام بن يحيى عن محمد بن جحادة منقطع، فإن عبد الجبار لم يسمع عن أبيه، وطريق همام عن شقيق أيضا ضعيف، فإن شقيقا أبا الليث مجهول. قال في التقريب: شقيق أبو الليث عن عاصم بن كليب مجهول. انتهى، وقال في الميزان: شقيق عن عاصم بن كليب، وعنه همام، لا يعرف. انتهى

قوله: (والعمل عليه عند أكثر أهل العلم، يرون أن يضع الرجل ركبتيه قبل يديه ألخ)، قال الحازمي في كتاب الاعتبار: قال ابن المنذر: وقد اختلف أهل العلم في هذا الباب، فممن رأى أن يضع ركبتيه قبل يديه، عمر بن الخطاب، وبه قال النخعي ومسلم بن يسار وسفيان الثوري والشافعي وأحمد وإسحاق وأبو حنيفة وأصحابه، وأهل الكوفة. وقالت طائفة: يضع يديه إلى الأرض إذا سجد، قبل ركبتيه، كذلك قال مالك. وقال الأوزاعي: أدركت الناس يضعون أيديهم قبل ركبهم. انتهى وقال البخاري في صحيحه: قال نافع: كان ابن عمر يضع يديه قبل ركبتيه. انتهى وقال الشوكاني في النيل: وذهبت العترة والأوزاعي ومالك وابن حزم، إلى استحباب وضع اليدين قبل الركبتين، وهي رواية عن أحمد، وروى الحازمي عن الأوزاعي أنه قال: أدركت الناس يضعون أيديهم قبل ركبهم. قال ابن أبي داود: وهو قول أصحاب الحديث. انتهى

قوله: (وروى همام عن عاصم هذا مرسلا، و لم يذكر فيه وائل بن حجر): قال الحافظ في التلخيص، بعد نقل قول الترمذي هذا ما لفظه: وقد تعقب قول الترمذي أن هماما إنما رواه عن شقيق عن عاصم عن أبيه مرسلا. انتهى

قلت: الأمر كما قال الحافظ، كما عرفت فيما تقدم في كلام الحازمي

باب آخر منه: حدثنا قتيبة: حدثنا عبد الله بن نافع عن محمد بن عبد الله بن حسن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: "يعمد أحدكم فيبرك في صلاته برك الجمل".

قال أبو عيسى: حديث أبي هريرة حديث غريب، لا نعرفه من حديث أبي الزناد إلا من هذا الوجه.

وقد روي هذا الحديث عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

وعبد الله بن سعيد المقبري ضعفه يحيى بن سعيد القطان وغيره.

قوله: "يعمد أحدكم فيبرك في صلاته برك الجمل": بتقدير همزة الاستفهام الإنكاري، أي: أيعمد أحدكم فيضع ركبتيه قبل يديه في الصلاة، كما يضع البعير ركبتيه قبل يديه؛ أي: لا يفعل هكذا، بل يضع يديه قبل ركبتيه. وفي رواية أحمد وأبي داود والنسائي: "إذا سجد أحدكم فلا يبرك كما يبرك البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه". انتهى

قال القاري في شرح المشكاة، في شرح هذا الحديث: "إذا سجد أحدكم فلا يبرك"، نهي، وقيل: نفي، "كما يبرك البعير"، أي: لا يضع ركبتيه قبل يديه، كما يبرك البعير، شبه ذلك ببروك البعير، مع أنه يضع يديه قبل رجليه، لأن ركبة الإنسان في الرجل، وركبة الدواب في اليد، إذا وضع ركبتيه أولا فقد شابه الإبل في البروك؛

"وليضع"، بسكون اللام وتكسر، "يديه قبل ركبتيه"، قال التوربشتي: كيف نهى عن بروك البعير، ثم أمر بوضع اليدين قبل الركبتين، والبعير يضع اليدين قبل الرجلين؟ والجواب: أن الركبة من الإنسان في الرجلين، ومن ذوات الأربع في اليدين. انتهى كلام القاري. والحديث، استدل به من قال باستحباب وضع اليدين قبل الركبتين، وهو قول مالك، وهو قول أصحاب الحديث. وقال الأوزاعي: أدركت الناس يضعون أيديهم قبل ركبهم، وهي رواية عن أحمد، كما عرفت هذا كله في الباب المتقدم. قال الحافظ في الفتح: قال مالك: هذه الصفة أحسن في خشوع الصلاة، وبه قال: وعن مالك وأحمد رواية بالتخيير. انتهى

قوله: (حديث أبي هريرة حديث غريب، لا نعرفه من حديث أبي الزناد إلا من هذا الوجه)، حديث أبي هريرة هذا، أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي، وسكت عنه أبو داود. قال الحازمي في كتاب الاعتبار، بعد روايته: وهو على شرط أبي داود والترمذي والنسائي، أخرجوه في كتبهم. انتهى وقال القاري في المرقاة: قال ابن حجر: سنده جيد. انتهى قلت: حديث أبي هريرة هذا، صحيح أو حسن لذاته، رجاله كلهم ثقات. فأما قتيبة، فهو ابن سعيد بن جميل الثقفي، أبو رجاء البغلاني، ثقة ثبت؛ كذا في التقريب، وأما عبد الله بن نافع، فهو الصائغ، أبو محمد المدني، وثقه ابن معين والنسائي. كذا في الخلاصة، وأما محمد بن عبد الله بن الحسن، فوثقه النسائي، قاله الخزرجي.[159] وقال الحافظ: يلقب بالنفس الزكية، ثقة من السابعة. وأما أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة، فقال البخاري: أصح الأسانيد: أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة. قاله الخزرجي.

فإن قلت: قال الحافظ في التقريب، في ترجمة عبد الله بن نافع الصائغ: ثقة صحيح الكتاب، في حفظه لين. انتهى فإذا كان في حفظه لين، فكيف يكون حديثه صحيحا؟

قلت: قد عرفت أنه قد وثقه إمام الجرح والتعديل يحيى بن معين، ووثقه أيضا النسائي، ثم هو ليس متفردا برواية هذا الحديث، بل تابعه عبد العزيز بن محمد الدراوردي عند الدارقطني: قال في سننه: حدثنا أبو بكر بن أبي داود، ثنا محمود بن خالد، ثنا مروان بن محمد، حدثنا عبد العزيز بن محمد، ثنا محمد بن عبد الله بن الحسن عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا سجد أحدكم فليضع يديه قبل رجليه، ولا يبرك بروك البعير". حدثنا أبو سهل بن زياد، ثنا إسماعيل بن إسحاق، ثنا أبو ثابت محمد بن عبد الله، ثنا عبد العزيز بن محمد عن محمد بن عبد الله، بإسناده عن النبي ﷺ: "إذا سجد أحدكم فليضع يديه قبل ركبتيه، ولا يبرك بروك الجمل". انتهى وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام: وهو أقوى من حديث وائل بن حجر، فإن للأول شاهدا من حديث ابن عمر، صححه ابن خزيمة، وذكره البخاري معلقا موقوفا. انتهى كلام

---

[159] محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يكنى أبا عبد الله، قتل سنة خمس وأربعين بالمدينة، وهو ابن خمس وأربعين، وكان قد لقي نافعا وغيره، وحدث عنهم، روى عنه الدراوردى وغيره؛ سمعت أبي يقول ذلك. انتهى من الجرح والتعديل للإمام أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التيمي الحنظلي

الحافظ. وقال الحافظ ابن سيد الناس: أحاديث وضع اليدين قبل الركبتين أرجح. وقال: ينبغي أن يكون حديث أبي هريرة داخلا في الحسن على رسم الترمذي، لسلامة رواته عن الجرح. انتهى وقال ابن التركماني في الجوهر النقي: والحديث المذكور أولا، يعني: "وليضع يديه ثم ركبتيه"، دلالة قولية، وقد تأيد بحديث ابن عمر، فيمكن ترجيحه على حديث وائل، لأن دلالته فعلية على ما هو الأرجح عند الأصوليين. انتهى ورجح القاضي أبو بكر ابن العربي في عارضة الأحوذي، حديث أبي هريرة على حديث وائل من وجه آخر، فقال: الهيئة التي رأى مالك، (وهي الهيئة التي هي مروية في حديث أبي هريرة) منقولة في صلاة أهل المدينة، فترجحت بذلك على غيره. انتهى

قوله: (وقد روي هذا الحديث عن عبد الله بن سعيد المقبري عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ)، رواه ابن أبي شيبة في مصنفه،[160] والطحاوي في شرح الآثار، بلفظ: "إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه، ولا يبرك كبروك الفحل". و(عبد الله بن سعيد المقبري، ضعفه يحيى بن سعيد القطان وغيره)،[161] قال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة: ليس بثقة، وقال الفلاس: منكر الحديث متروك، وقال يحيى بن سعيد: استبان كذبه في مجلس. وقال الدارقطني: متروك ذاهب. وقال أحمد مرة: ليس بذاك، ومرة قال: متروك. وقال فيه البخاري: تركوه، كذا في الميزان.

اعلم أن الحنفية والشافعية وغيرهم، الذين ذهبوا إلى استحباب وضع الركبتين قبل اليدين، أجابوا عن حديث أبي هريرة المذكور في الباب بوجوه عديدة، كلها مخدوشة.

الأول: أن حديث أبي هريرة هذا منسوخ، بما رواه ابن خزيمة عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا أن نضع الركبتين قبل اليدين؛ وفيه أن دعوى النسخ بحديث سعد بن أبي وقاص باطلة، فإن هذا الحديث ضعيف: قال الحازمي في كتاب الاعتبار: أما حديث سعد، ففي إسناده مقال، ولو كان محفوظا لدل على النسخ، غير أن المحفوظ عن مصعب عن أبيه، حديث نسخ التطبيق. انتهى قلت: وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل، وهو يرويه عن أبيه، وقد تفرد به عنه، وهما ضعيفان لا

---

[160] حدثنا أبو بكر قال: نا ابن فضيل عن عبد الله بن سعيد عن جده عن أبي هريرة يرفعه، أنه قال: إذا سجد أحدكم، فليبتدئ بركبتيه قبل يديه ولا يبرك بروك الفحل. مصنف ابن أبي شيبة

[161] عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري، مديني يكنى أبا عباد.

ثنا عثمان بن سعيد: قلت ليحيى: فعبد الله بن سعيد المقبري؟ قال: ليس بشيء. انتهى من الكامل في ضعفاء الرجال للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني

ثنا أحمد بن سعد بن أبي مريم، سمعت يحيى بن معين يقول: عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري ليس بشيء، لا يكتب حديثه. انتهى من الكامل في ضعفاء الرجال للإمام الحافظ أبي أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني

ثنا أبو طالب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: عبد الله بن سعيد المقبري، أبو عباد، منكر الحديث. انتهى من الكامل في ضعفاء الرجال

يصلحان للاحتجاج. قال في الخلاصة، في ترجمة إبراهيم بن إسماعيل: اتهمه أبو زرعة.[162] وقال في التقريب، في ترجمة إسماعيل والد إبراهيم: متروك.[163]

الثاني: أن في حديث أبي هريرة قلبا من الراوي، وكان أصله: "وليضع ركبتيه قبل يديه"، ويدل عليه أول حديث، وهو قوله: "فلا يبرك كما يبرك البعير"، فإن المعروف من بروك البعير، هو تقديم اليدين على الرجلين. قاله ابن القيم في زاد المعاد، وقال: ولما علم أصحاب هذا القول ذلك، قالوا: ركبتا البعير في يديه لا في رجليه، فهو إذا برك وضع ركبتيه، أو فهذا هو المنهي عنه. قال: وهو فاسد، وحاصلها: أن البعير إذا برك يضع يديه، ورجلاه قائمتان. وهذا هو المنهي عنه، وأن القول بأن ركبتي البعير في يديه لا يعرفه أهل اللغة، وأنه لو كان الأمر كما قالوا، لقال النبي ﷺ: فليبرك كما يبرك البعير، لأن أول ما يمس الأرض من البعير يداه. انتهى

وفيه أن قوله: في حديث أبي هريرة قلب من الراوي، فيه نظر، إذ لو فتح هذا الباب لم يبق اعتماد على رواية راو مع صحته. وأما قوله: كون ركبتي البعير في يديه، لا يعرفه أهل اللغة، ففيه أنه قد وقع في حديث هجرة النبي ﷺ قول سراقة: ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغنا الركبتين، رواه البخاري في صحيحه، فهذا دليل واضح على أن ركبتي البعير تكونان في يديه. وأما قوله: لو كان الأمر كما قالوا، لقال النبي ﷺ: فليبرك كما يبرك البعير. ففيه أنه لما ثبت أن ركبتي البعير تكونان في يديه، ومعلوم أن ركبتي الإنسان تكونان في رجليه، وقد قال ﷺ في آخر هذا الحديث: "وليضع يديه قبل ركبتيه"، فكيف يقول في أوله: فليبرك كما يبرك البعير؟ أي فليضع ركبتيه قبل يديه.

والثالث: أن حديث أبي هريرة ضعيف، فإن الدارقطني قال: تفرد به الدراوردي عن محمد بن عبد الله بن حسن. انتهى والدراوردي، وإن وثقه يحيى بن معين وعلي بن المديني وغيرهما، لكن قال أحمد بن حنبل: إذا حدث من حفظه يهم؛ وقال أبو زرعة: سيء الحفظ، فتفرد الدراوردي عن محمد بن عبد الله مورث للضعف. وقال البخاري: محمد بن عبد الله بن الحسن، لا يتابع عليه، وقال: لا أدري أسمع من أبي الزناد أم لا. انتهى

وفيه: أن حديث أبي هريرة صحيح صالح للاحتجاج، كما عرفت. وأما قول الدارقطني: تفرد به الدراوردي عن محمد بن عبد الله بن الحسن. فليس بصحيح، بل قد تابعه عبد الله بن نافع عند أبي داود والنسائي. قال المنذري: وفي ما قال الدارقطني نظر، فقد روى نحوه عبد الله بن نافع عن محمد بن عبد الله، وأخرجه أبو داود والنسائي من حديثه، ثم تفرد الدراوردي ليس مورثا للضعف، لأنه قد احتج به مسلم وأصحاب السنن، ووثقه إمام هذا الشأن يحيى بن معين، وعلي بن المديني وغيرهما. وأما قول البخاري: محمد بن عبد الله بن الحسن، لا

---

[162] إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي، أبو إسحاق الكوفي، ضعيف من الحادية عشرة، مات سنة ثمان وخمسين. انتهى من التقريب

[163] إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي الكوفي، متروك، من العاشرة. انتهى من التقريب

يتابع عليه، فليس بمضر، فإنه ثقة، ولحديثه شاهد من حديث ابن عمر، وصححه ابن خزيمة. قال ابن التركماني في الجوهر النقي: محمد بن عبد الله، وثقه النسائي. وقول البخاري: لا يتابع على حديثه؛ ليس بصريح في الجرح، فلا يعارض توثيق النسائي. انتهى، وكذا لا يضر قوله: لا أدري أسمع من أبي الزناد أم لا؟ فإن محمد بن عبد الله ليس بمدلس، وسماعه من أبي الزناد ممكن، فإنه قتل سنة: 145 (خمس وأربعين ومائة)، وهو ابن خمس وأربعين، وأبو الزناد مات سنة: 130 (ثلاثين ومائة)، فيحمل عنعنته على السماع عند جمهور المحدثين.

والرابع: أن حديث أبي هريرة مضطرب، فإنه رواه ابن أبي شيبة في مصنفه، والطحاوي في شرح الآثار، عن عبد الله بن سعيد عن جده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: "إذا سجد أحدكم فليبدأ بركبتيه قبل يديه، ولا يبرك كبروك الفحل"، فهذه الرواية تخالف الرواية التي رواها الترمذي وغيره، بحيث لا يمكن الجمع بينهما، والاضطراب مورث للضعف.

وفيه، أن رواية ابن أبي شيبة والطحاوي هذه ضعيفة جدا، فإن مدارها على عبد الله بن سعيد، وقد عرفت حاله في هذا الباب، فلا اضطراب في حديث أبي هريرة، فإن من شرط الاضطراب استواء وجوه الاختلاف، ولا تعل الرواية الصحيحة بالرواية الضعيفة الواهية، كما تقرر في مقره.

والخامس: أن حديث وائل بن حجر أقوى وأثبت من حديث أبي هريرة: قال ابن تيمية في المنتقى: قال الخطابي: حديث وائل بن حجر أثبت من هذا. انتهى فحديث وائل، هو الأولى بالعمل: وفيه، أن في كون حديث وائل أثبت من حديث أبي هريرة نظرا، فإن حديث وائل ضعيف كما عرفت، ولو سلم أنه حسن، كما قال الترمذي، فلا يكون هو حسنا لذاته، بل لغيره، لتعدد طرقه الضعاف. وأما حديث أبي هريرة، فهو صحيح أو حسن لذاته، ومع هذا، فله شاهد من حديث ابن عمر، صححه ابن خزيمة،[164] وقد عرفت قول الحافظ ابن حجر وابن سيد الناس وابن التركماني، والقاضي أبي بكر ابن العربي، في ترجيح حديث أبي هريرة على حديث وائل بن حجر، فالقول الراجح، أن حديث أبي هريرة أثبت وأقوى من حديث وائل.

فإن قيل: إن كان لحديث أبي هريرة شاهد، فلحديث وائل شاهدان:

أحدهما: ما رواه الدارقطني والحاكم والبيهقي، عن عاصم الأحول عن أنس قال: رأيت رسول الله ﷺ انحط بالتكبير فسبقت ركبتاه يديه، قال الحاكم: هو على شرطهما ولا أعلم له علة

وثانيهما: ما أخرجه ابن خزيمة في صحيحه، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: كنا نضع اليدين قبل الركبتين، فأمرنا أن نضع الركبتين قبل اليدين.

---

[164] أخبرنا محمد بن عمرو بن تمام المصري، حدثنا أصبغ بن الفرج، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، أنه كان يضع يديه قبل ركبتيه، وقال: كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك. رواه ابن خزيمة في صحيحه

يقال: هذان الحديثان لا يصلحان أن يكونا شاهدين لحديث وائل، أما حديث أنس، فلأنه قد تفرد به العلاء ابن إسماعيل العطار،[165] وهو مجهول. قاله البيهقي، وقال الدارقطني: تفرد به العلاء بن إسماعيل عن حفص بن غياث، وهو مجهول. انتهى، وحفص بن غياث، ساء حفظه في الآخر.[166] صرح به الحافظ في مقدمة الفتح. وقال الذهبي في الميزان: قال أبو زرعة: ساء حفظه بعدما استقضى، فمن كتب عنه من كتابه فهو صالح. انتهى وأما حديث سعد بن أبي وقاص، فقد عرفت فيما سبق، أنه قد تفرد به إبراهيم بن إسماعيل، وإبراهيم هذا، اتهمه أبو زرعة، وأبوه إسماعيل متروك. وأن المحفوظ عن مصعب عن أبيه، نسخ التطبيق.
فالحاصل: أن حديث أبي هريرة صحيح أو حسن لذاته، وهو أقوى وأثبت وأرجح من حديث وائل هذا عندي. والله تعالى أعلم. انتهى[167]
قال أبو الفتح: وقد نقلنا سجال طودين عظيمين من علمائنا الأبرار، حتى نزيد الأمر بيانا فيما اختلف فيه من فقهيات، مما يحار في فهمه العالم، فما بالك بالعامي. وذلك يؤيد ما وصلنا إليه من وجوب التقليد فيما اختلف فيه على من لا علم له، وفي هذا كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد، والسلام
وخلاصة ما عندنا:
إن التقليد واجب على الأمي الذي لا علم له، واجب على العالم الذي لم يبلغ درجة الاجتهاد فيما اختلف فيه، ولم يخرج فيه بشيء، وهو مندوب للذي بلغ درجة الاجتهاد، لدرء الخلاف وتجنب النزاع، والسلام
ونختم بما قاله الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه القيم: اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية، قال رحمه الله تعالى: عندنا اليوم فقه متكامل يتعلق بجميع أحوال الناس، أفرادا وجماعات، استخرجه ودونه الأئمة المجتهدون وأصحابهم العلماء، فهو اليوم متجسد ماثل أمامنا، يقول لسان حاله لنا: ليس بينكم وبين أن تطبقوا هذا الفقه في قضاياكم المدنيه والجنائية وغيرها، إلا أن تصوغوه بطريقتكم المفضلة.

---

[165] العلاء بن إسماعيل العطار: أخرج له الحاكم في "المستدرك"، وسكت عنه الذهبي في "تلخيصه"، وقال ابن القيم: مجهول. وسئل أبو حاتم عن الحديث الذي رواه، فقال: منكر، وهو من رواية العباس الدوري عن العلاء المذكور عن حفص بن غياث عن عاصم الأحول عن أنس: رأيت رسول الله ﷺ انحط بالتكبير، حتى سبقت ركبتاه يديه. وقد أخرجه الدارقطني وقال: تفرد به العلاء. قلت: وخالفه عمر بن حفص بن غياث، وهو من أثبت الناس في أبيه، فرواه عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة، وغيره عن عمر موقوفا عليه، وهذا هو المحفوظ والله أعلم. انتهى من لسان الميزان

[166] حفص بن غياث، بمعجمة مكسورة وياء ومثلثة، ابن طلق بن معاوية النخعي، أبو عمر الكوفي القاضي، ثقة فقيه، تغير حفظه قليلا في الآخر، من الثامنة، مات سنة أربع، أو خمس، وتسعين، وقد قارب الثمانين. انتهى من التقريب

[167] تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي

فإذا عرضنا هذه الثروة الفقهية لرياح عاتية من الاجتهاد العام لكل المسلمين، كان مصير هذا الفقه مصير الهشيم الذي تذروه الرياح الهائجة. وننظر، فإذا بنا من بنياننا الفقهي العتيد، أمام أطلال ونثار من الأحجار والأنقاض المبعثرة هنا وهناك، وإنها لنتيجة لا يماري فيها إلا مكابر من طراز غريب.

وأمام المسلم اليوم سبل سائغة لفهم أحكام صلاته وصيامه وزكاته، وسائر ما تتعرض له حياته الخاصة من القضايا الدينية، عن طريق دراسة كتاب صغير في مذهب من المذاهب الأربعة، يحوي خلاصة الأحكام الشرعية، ولا عليه أن لا يفهم أو يقف على أدلتها، ما دام غير مجتهد كما كان عليه حال كثير ممن يستفتون كبار الصحابة والتابعين. انتهى

صلاة الخمس فى اوقاتها　　صوم النوافل ؤ صلاتها

ما ينفع قومان احصاتها　　من حر النار ؤ صلاتها

يقول: أداء الصلوات الخمس في أوقاتها، وصوم النوافل وصلاتها، لا ينفع أقواما أدوها، من حر نار جهنم واصطلائها

والمعنى: أداء الصلوات المكتوبة في أوقاتها، وصوم النوافل من اثنين وخميس وأيام بيض، وصلاة رواتب اليوم والليلة وغيرها، كل ذلك مهما قام به أقوام وأحصوه، ولم يدعوا منه شيئا، لم يرد عنهم حر نار جهنم إذا صلوها

وقد عنى الشيخ قوما يتظاهرون بالعبادات ويراؤون بها، وهم لا يراعون في الله إلا ولا ذمة

يقول الله تعالى: "وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية".[168]

قال ابن كثير: وقوله تعالى: "وجوه يومئذ خاشعة"، أي ذليلة. قاله قتادة، وقال ابن عباس: تخشع ولا ينفعها عملها. وقوله تعالى: "عاملة ناصبة"، أي قد عملت عملا كثيرا ونصبت فيه، وصليت يوم القيامة نارا حامية. قال الحافظ أبو بكر البرقاني: حدثنا إبراهيم بن محمد المزكى، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيار، حدثنا جعفر، قال: سمعت أبا عمران الجوني يقول: مر عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، بدير راهب؛ قال: فناداه: يا راهب، فأشرف؛ قال: فجعل عمر ينظر إليه ويبكي، فقيل

[168] الغاشية2-5

له: يا أمير المؤمنين، ما يبكيك من هذا؟ قال: ذكرت قول الله عز وجل في كتابه: "عاملة ناصبة تصلى نارا حامية"، فذاك الذي أبكاني. انتهى[169]

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون ما المفلس؟" قالوا: المفلس فينا، من لا درهم له ولا متاع؛ فقال: "إن المفلس من أمتي، يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا. فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته، قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار". رواه مسلم

اخرج من الشريعة عبدي ندلك على ما عندي
ولا ابقى فيها تعدي نجازيك بالباكور الهندي

يقول: اخرج من الشريعة يا عبدي، أدلك على ما عندي، وإلا فابق فيها، وتابع عملك، أجازيك بالتين الهندي والمعنى: لا تبق مع ظاهر الشريعة أيها العبد، وانفذ إلى باطنها، خذها بقلبك وليس بعقلك، فإنك إن فعلت ذلك، عرفتني حق المعرفة، لأنني أعرف بالقلب، ومتى عرفتني دللتك على ما تصلح به دنياك ودينك من حكم ولطائف

أما إذا اخترت البقاء مع ظاهر الشريعة، آمنت بالعقل وأحبطت روحانيتك، وتعاملت معي معاملة التجار، فعبدتني ليس شكرا على ما أنعمت به عليك، وليس حبا وشوقا لوجهي، فلن أضيعك، بل سأجازيك بالباكور الهندي، والباكور الهندي في لهجة المغاربة، هو التين الهندي،[170] ويطلق في المغرب على فاكهة مكسوة بالشوك، ويستعمله المغاربة للتحقير، فيقولون: "سأعطيك الباكور الهندي!"، أي: لن أعطيك شيئا

وقد استعمله الشيخ للتحقير من الجزاء الذي ما عبد صاحبه الله تعالى إلا طمعا في المكافأة

---

[169] تفسير ابن كثير

[170] ويسمى التين الشوكي، أو الصبار الكمثري، أو الصبار البري. ونسميه نحن المغاربة بالعامية: الهندي أو الهندية

ولى خفتي من ناري وشرار مثل العبيد والدراري

لما تروح لداري نخطك تحت اشجاري

يقول: وإذا خفت من ناري وشرري، كما يخاف العبيد والعيال، عندما ترجع لداري، أضعك تحت أشجاري

والمعنى: أما إذا عبدتني أيها العبد خوفا من نار ذات شرر، كما يخاف العبيد من سياط مواليهم، وكما يخاف الصبيان من معزريهم، فعندما أبعثك في الدار الآخرة، فلن أخيبك، ولكنني سأضعك تحت أشجاري الوارفة الظلال. وقد عبر الشيخ بفعل: "نحطك"، بمعنى أضعك، وهو لا يستعمل في الغالب إلا لوضع شيء لا قيمة له، حتى ينتقص من قدر الذين يعبدون الله خوفا من ناره، لا تقربا إلى وجهه الكريم

الشريعه مكتوبه فى وريفه ضيفة من لا لو ضيفه

الشريعه سياج الحقيقه الحقيقه فى الرقايق رقيقه

يقول: الشريعة مكتوبة في ورقة صغيرة، وهي ضيقة من ليس له ضيقة،[171] والشريعة سياج الحقيقة، والحقيقة رقيقة في الرقائق

والمعنى: ثم يعود الشيخ إلى الإقلال من قيمة الشريعة أمام الحقيقة، فيقول: إن أحكام الشريعة مكتوبة في الأوراق، يضيق بها من لا ضيقة له، لكن الشريعة تحمي الحقيقة، حتى لا يصلها إلا أهلها، فكم من الواقفين مع الشريعة حكموا على أناس بالكفر، وهم أعلى منزلة منهم عند الله تعالى، فأذنبوا بما فعلوا، وحرموا اتباع الأولياء والدخول في سلكهم، فكانت الشريعة مانعا من التلقي عن الأولياء، واتباعهم، وبذلك أصبحت سياجا تمنع الكثيرين عن طريق الأبرار، وتحبس عن قلوبهم كثيرا من الأنوار؛ أما الحقيقة، فهي حكيمة مرنة، تتقبلها القلوب وتتلقاها بالقبول، فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي إن قابلتها بالرقائق واللطائف، كانت أشد رقة منها ولطفا

[171] يقول الإمام القرطبي في الجامع لأحكام القرآن: ضيق جمع ضيقة ؛ قال الشاعر: كشف الضيقة عنا وفسح

أواه أواه آ الموساوي داك ما هو مداوي
دواك عند الهداوي والهداوي خضراوي

يقول: ما أبعدك أيها الموسوي، داؤك لا يداويه أحد، دواؤك عند الهداوي، والهداوي خضراوي
والمعنى: أواه أواه، ومعناها بالعربية: ما أبعدك أيها الموسوي، نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام، كما سيأتي إن شاء الله تعالى، وما أشد داءك أيها الموساوي، داؤك أعيى الأطباء مداواته، ودواؤك عند الهداوي، والهداوي عند المغاربة هو المجذوب، ثم إن هذا الهداوي خضراوي، أي على مذهب الحقيقة، والخضراوي نسبة إلى سيدنا عبد الله الخضر عليه السلام، أي خضري

بيان العبرة فيما ساقه الباري عز وجل من قصة عبد الله الخضر مع موسى عليهما السلام

قال الله تعالى: "وإذ قال موسى لفتاه لآ أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حقبا، فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سربا، فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غدآءنا لقد لقينا من سفرنا هــذا نصبا، قال أرايت إذ آوينآ إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، ومآ أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر، عجبا قال ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبدا من عبادنآ آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما".[172]

وقد وردت القصة في الحديث المرفوع، نسوقه من الصحيح إن شاء الله تعالى:
عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالي يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بني إسرائيل، فقال ابن عباس: كذب عدو الله. حدثني أبي بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن موسى قام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا؛ فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى الله إليه: إن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يارب، فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم. فأخذ حوتا فجعله في مكتل، ثم انطلق، وانطلق معه بفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر، فاتخذ سبيله في البحر سربا، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: "ءاتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا المكان الذي أمر الله به، فقال له فتاه: "أرآيت إذ آوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن

[172] الكهف64

أذكره، واتخذ سبيله في البحر، عجبا"، قال: فكان للحوت سربا، ولموسى ولفتاه عجبا، فقال موسى: "ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا"، قال: رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى ثوبا، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا، قال: "إنك لن تستطيع معي صبرا"[173] يا موسى، إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه، فقال موسى: "ستجدني إن شاء الله صابرا، ولا أعصي لك أمرا"،[174] فقال له الخضر: "فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا".[175] فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا في السفينة، لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، "لقد جيت شيئا إمرا، قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا، قال: لا تواخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا"،[176] قال: وقال رسول الله ﷺ: "وكانت الأولى من موسى نسيانا". قال: "وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينا هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى: "أقتلت نفسا زاكية بغير نفس؟ لقد جيت شيئا نكرا، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا"،[177] قال: وهذا أشد من الأولى، قال: "إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض"،[178] قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، لو شئت لا تخذت عليه أجرا، قال: "هذا فراق بيني وبينك"،[179] إلى قوله: "ذلك تاويل ما لم تسطع عليه صبرا".[180] فقال رسول الله ﷺ: "وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما".

---

[173] الكهف66

[174] الكهف68

[175] الكهف69

[176] الكهف70-72

[177] الكهف73-74

[178] الكهف75-76

[179] الكهف64

[180] الكهف64

قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا. وكان يقرأ: وأما الغلام فكان كافرا، وكان أبواه مؤمنين. رواه البخاري

قال أبو الفتح الجعفي: تواجه بحران: بحر الشريعة وبحر الحقيقة، اجتمعا في مجمع البحرين، فتلاطما وتدافعا، وغلب بحر الحقيقة؛ وأصبح موسى عليه السلام، نبي الله وكليمه، ذو القوة والبأس، وقد أوتي علم كل شيء: قال الله تعالى: "وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء".[181]

أصبح عليه السلام، مريدا للخضر العبد الصالح، الذي ما زاد الله على أن قال: "فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما". مريدا خانه آداب المريد المتعلم، فأقلع الخضر عليه السلام عن صحبته، إذ لم يصبر على ما رأى، وأكثر السؤال، وأمعن في الاعتراض، رغم أنه تعهد بتركه.

ولا يخفى أن الخضر عليه السلام، علم أن موسى عليه السلام، لن يصبر على صحبته، فأعلمه من قبل، وعلل حكمه عليه بذلك، بعدم إحاطة موسى بعلم ما يود الصبر على تعلمه

فليعتبر أولوا الألباب بما ساق الباري عز وجل من قصة هذا وذاك، فلا شك أنه تعالى، شاء أن يظهر عبدا من عباده، إذ ليس من الضروري أن يكون وحده، وإنما هو من أظهره الله تعالى

هذا العبد الصالح، لم يقم دليل من قرآن ولا حديث على أنه نبي، ولكن علمه فاق علم نبي من أولي العزم. هذا العبد الصالح، يمثل نهج الحقيقة في القرآن الكريم، وهو دليل على وجود أولياء الله الصالحين، ودعوة إلى التسليم لهم وترك الاعتراض، بل وحجة على تعارض الشريعة مع الحقيقة.

عباد الله قد سكنوا شغافي خفيت بهم وأبديت اعترافي

نجوم الحق في ليل الحيارى متى ضل السراة لدى الفيافي. 182

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته". رواه البخاري

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: "وكم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

وقد اختلف الناس في مجمع البحرين أين هو

---

[181] الأعراف145

[182] من نظم المؤلف

قال ابن كثير: "حتى أبلغ مجمع البحرين"، أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين. قال الفرزدق:

فما برحوا حتى تهادت نساؤهم ببطحاء ذي قارعبات اللطائم

قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق، وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني: في أقصى بلاد المغرب، فالله أعلم. انتهى[183]

قال أبو الفتح: أرى، والله أعلم بغيبه، أن الأرجح أن ما وقع بينهما كان في أرض غير الأرض، وذلك لقراين منها:

الأولى: لما بعث الله تعالى موسى عليه السلام إلى عبده الخضر، دله عليه بغير ما اعتاد عليه الناس في هذه الأرض من دلالة؛ فقد أرسله إلى مجمع البحرين، ورهن لقاءه به بضياع الحوت؛ وفي ذلك ما لم يعهده الناس في هذه الأرض

الثانية: قوله تعالى في الحوت: "واتخذ سبيله في البحر".

فقد حيي الحوت، وذهب في البحر. وهذا الأمر يخرج عن قوانين البشر، وقد كان إيذانا بموعد ظهور الخضر عليه السلام، وهو موعد دخوله مع موسى عالما ليس كعالم البشر، ويمكن أن يعتبر معجزة من معجزات سيدنا موسى عليه السلام.

ولو أن الله تعالى لم يذكره له ضمن معجزاته في كتابه العزيز

الثالثة: منذ اللقاء الأول بين موسى والخضر عليهما السلام، لم يذكر فتى موسى يوشع بن نون، الذي سافر معه ورافقه، ولم يكن موسى عليه السلام ليتخلى عنه، وهو رفيقه في السفر، وخادمه، إلا إذا أمره الخضر عليه السلام بالتخلي عنه. وهذا ما لم يذكره الله تعالى في سورة الكهف، اللهم إلا إذا ولج موسى والخضر عليهما السلام أرضا لا طاقة ليوشع بن نون بولوجها

قال ابن كثير: فإن قيل: فما بال فتى موسى ذكر في أول القصة ثم لم يذكر بعد ذلك؟ فالجواب أن المقصود بالسياق، إنما هو قصة موسى مع الخضر وذكر ما كان بينهما، وفتى موسى معه تبع، وقد صرح في الأحاديث المتقدمة في الصحاح وغيرها، أنه يوشع بن نون، وهو الذي كان يلي بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، هذا يدل على ضعف ما أورده ابن جرير في تفسيره، حيث قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة،حدثني ابن إسحاق عن الحسن بن عمارة عن أبيه عن عكرمة قال: قيل لابن عباس: لم نسمع لفتى موسى بذكر من حديث، وقد كان معه؟ قال ابن عباس فيما يذكر من حديث الفتى، قال: شرب الفتى من الماء فخلد، فأخذه العالم فطابق به

---

[183] تفسير ابن كثير

سفينة، ثم أرسله في البحر، فإنها لتموج به إلى يوم القيامة؛ وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب. إسناده ضعيف، والحسن متروك، وأبوه غير معروف. انتهى[184]

الرابعة: ذكر الله تعالى في السورة نفسها، وهي سورة الكهف، ذكر ما وقع لذي القرنين مع ياجوج وماجوج، وكيف أقام عليهم السد، ولا يخفى أن خروجهم علامة من علامات الساعة الكبرى؛ وغالب الظن أن أمرهم كان في أرض أخرى، وإلا فلو كانوا بشرا أمثالنا، ما بقوا إلى آخر الزمان تحت الردم، فتأمل. والله أعلم

عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: "لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر ما اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا"، وحلق بإصبعه وبالتي تليها، فقالت زينب: فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم، إذا كثر الخبث". رواه البخاري

لطيفة: قيل: إذا كان عبد الله الخضر عليه السلام، قد خرق السفينة مما قد يؤدي إلى إغراق أهلها، فكذلك أغرق الله تعالى قوم فرعون

وإذا قتل الغلام، فموسى قتيله القبطي

وإذا كان قد أقام الجدار بغير أجر، فإن موسى عليه السلام، سقى لابنتي شعيب عليه السلام بغير أجر. انتهى

الخامسة: قوله تعالى في ذي القرنين، في السورة نفسها: "**إنا مكنا له في الارض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا**"،[185]

الظاهر أن هذا السبب الذي اتبعه ذو القرنين، ليس هو السبب الذي فسره أهل اللغة بأنه كل شيء يتوصل به إلى غيره، فحسب، بل إنه سبب أوصله إلى أرض خفية غير أرضنا، فما بلغ فيها وما لقي من قوم لا تنطبق عليه ولا عليهم صفات أرضنا وحال معمريها من البشر

وقوله تعالى على لسان فرعون: "**وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الاسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا**"،[186]

ينسب فيه فرعون الأسباب إلى السماء، وقد قال ابن منظور: أسباب السماء: مراقيها، قال زهير:

ومن هاب أسباب المنية يلقها ولو رام أسباب السماء بسلم

والواحد سبب؛ وقيل: أسباب السماء نواحيها؛ قال الأعشى:

---

[184] المرجع نفسه

[185] الكهف83-84

[186] غافر37

لئن كنت في جب ثمانين قامة ورقيت أسباب السماء بسلم

ليستدرجنك الأمر حتى تهره وتعلم أني لست عنك بمحرم

والـــمحرم: الذي لا يستبيح الدماء، وتهره: تكرهه. انتهى كلام ابن منظور

وقال سبحانه في هذا المعنى: "أم لهم ملك السماوات والارض وما بينهما، فليرتقوا في الأسباب".[187]

وقال: "من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ".[188]

كما أن قوله تعالى في ذي القرنين: "كذلك، وقد أحطنا بما لديه خبرا"،[189] فكلمة: خبر، استعملها الباري عز وجل في التتريل مرتين لا أكثر، والمرتان في سورة واحدة فقط، وهي سورة الكهف

الأولى جاءت على لسان عبد الله الخضر عليه السلام، في قوله تعالى: "وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا"، الكهف67

والثانية في حق ذي القرنين كما أسلفنا

فقد سمى الله تعالى ما لدى ذي القرنين خبرا، وسمى الخضر ما لديه مما لم يحط به موسى عليه السلام خبرا، وكلاهما أي ذو القرنين والخضر عليه السلام، تصرفا في عوالم ليست من الأرض في شيء

فعدة الأرضين كما هو وارد في الكتاب والحديث سبع، وقد اختلف العارفون في التعريف بكل أرض على حدة، ولعل هذه الأرض التي شهدت مجريات هذه الوقائع، هي أرض الوجود الأول، ومن أوصافها، أن ما يتجلى فيها من مناظر ومخلوقات في تبدل دائم وتغير، ولا يستقر على حال من الأحوال، كما أنها لا تخضع لعامل الزمان، بل تتداخل فيها الأزمنة الثلاث: الحاضر والماضي والمستقبل، تعمرها أنفس جميع الأحياء بغير أجساد، وهي أصل الأرض التي نحن فيها، وما يطرأ عليها أو فيها ينعكس على أرضنا

ولا شك أن أغلب الناس يرونها في منامهم، أو يرون أنفسهم فيها، ولكنهم لا يستطيعون تمييزها عن غيرها، وقد يرى أحدهم أنه تعرض فيها لأذى، فينعكس ذلك عليه وهو مستيقظ، وينقلب ذلك الأذى عليه، بمثله أو بما يشاهه من مرض أو رزيئة أو ظلم، والعياذ بالله، وإن رأى خيرا كان خيرا، قلت في تائيتي:

---

[187] ص9

[188] الحج15

[189] الكهف88

فأنت بأرض في وجودك أول وأنت بأرض في اصطناع وكلفة
ولا تنس أرض الجن فيها معاشهم وللأوليا أرض إذا ما ترقت
وأرض بدت بيضاء كانت لمحشر وبرزخ أموات بأرض قريبة
وأرض خليل الله هبها لصبية رعاهم خليل الله فيها برأفة
أراض طواها فهي واحدة ولا يحيط بها إلا حكيم بقبضة

ونقول ما قلناه، فيما ورد في حديث الجساسة، حيث التقى تميم الداري رضي الله عنه ومن معه، بالدابة والدجال، ورأوهما قبل أوان خروجهما.[190]

---

[190] روى الإمام مسلم في صحيحه عن عامر بن شراحيل الشعبي، عن فاطمة بنت قيس قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: "ليلزم كل إنسان مصلاه"، ثم قال: "أتدرون لما جمعتكم؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "إني، والله، ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم، لأن تميما الداري، كان رجلا نصرانيا، فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثا وافق الذي كنت أحدثكم عن مسيح الدجال، حدثني أنه ركب في سفينة بحرية، مع ثلاثين رجلا من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرا في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك، ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قالوا: وما الجساسة؟ قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، قال: لما سمت لنا رجلا فرقنا منها أن تكون شيطانة، قال: فانطلقنا سراعا، حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقا، وأشده وثاقا، مجموعة يداه إلى عنقه، ما بين ركبتيه إلى كعبيه، بالحديد، قلنا: ويلك، ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهرا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا: ويلك، ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا وما الجساسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعا، وفزعنا منها، ولم نأمن أن تكون شيطانة، فقال: أخبروني عن نخل بيسان، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها، هل يثمر؟ قلنا له: نعم، قال: أما إنه يوشك أن لا تثمر، قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية، قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء، قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب، قال: أخبروني عن عين زغر، قالوا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل في العين ماء؟ وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها، قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب، قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم، قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه، قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم، قال: أما إن ذلك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني، إني أنا المسيح، وإني أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة، فهما محرمتان علي، كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة، أو واحدا منهما، استقبلني ملك بيده السيف صلتا، يصدني عنها، وإن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها"، قالت: قال رسول الله ﷺ، وطعن بمخصرته في المنبر: "هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة"، يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟" فقال الناس: نعم، "فإنه أعجبني حديث تميم، أنه وافق الذي كنت

وإذا كانت قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، حجة أهل الحقيقة على الحقيقة من القرآن الكريم، بل ومن السنة النبوية أيضا، فلأهل الحقيقة حجة غيرها من السنة النبوية، فيما ذكر عن أويس بن عامر القرني، خير التابعين، كما سماه رسول الله ﷺ

فإذا قال القائل: ما ذكر من أمر موسى مع الخضر في سورة الكهف على عهد موسى عليهما السلام، لم يكن في زمان الرسول ﷺ، وليس من شرعه، فكيف نستدل به في شرعنا؟

والجواب: نستدل به ما لم ينسخ، كما أشارت إليه قواعد الأصول،[191] وما دام حدث به رسول الله ﷺ وأقره، فقد صار لنا شرعا

كما أن ما ساقه رسول الله ﷺ من ذكر لأويس بن عامر القرني، وما كان من شأن عمر رضي الله عنه معه وغير عمر، هو أمر أخبر به ﷺ ودل عليه، وبذلك يصبح من صميم شريعة الإسلام

قال الحاكم في مستدركه: ذكر مناقب أويس بن عامر القرني رضي الله تعالى عنه

أويس راهب هذه الأمة، و لم يصحب رسول الله ﷺ، إنما ذكره رسول الله ﷺ ودل على فضله، فذكرته في جملة من استشهد بصفين بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه

سمعت أبا العباس محمد بن يعقوب يقول: سمعت العباس بن محمد الدوري يقول: سمعت يحيى بن معين يقول: قتل أويس القرني بين يدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يوم صفين

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: لما كان يوم صفين، نادى مناد من أصحاب معاوية أصحاب علي: أفيكم أويس القرني؟ قالوا: نعم، فضرب دابته حتى دخل معهم؛ ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "خير التابعين أويس القرني". رواه الحاكم في المستدرك

عن أسير بن جابر قال: كان عمر بن الخطاب، إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن، سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس؛ فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والدة؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره؛ فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل". فاستغفر لي،

أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق، ما هومن قبل المشرق، ما هو من قبل المشرق، ما هو"وأومأ بيده إلى المشرق، قالت: فحفظت هذا من رسول الله ﷺ. انتهى الحديث

[191] تقول القاعد الأصولية التي أجمع عليه الفقهاء: شرع الذين من قبلنا شرع لنا ما لم ينسخ على عهد نبينا ﷺ

فاستغفر له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي. قال: فلما كان من العام المقبل، حج رجل من أشرافهم، فوافق عمر، فسأله عن أويس، قال: تركته رث البيت قليل المتاع؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرأ منه، إلا موضع درهم، له والدة هو بها بر، لو أقسم على الله لأبره؛ فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل". فأتى أويسا فقال: استغفر لي، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي، قال: استغفر لي، قال: أنت أحدث عهدا بسفر صالح، فاستغفر لي، قال: لقيت عمر؟ قال: نعم، فاستغفر له؛ ففطن له الناس، فانطلق على وجهه. قال أسير: وكسوته بردة، فكان كلما رآه إنسان قال: من أين لأويس هذه البردة؟ رواه مسلم

عن هرم بن حيان العبدي قال: قدمت الكوفة فلم يكن لي بها هم إلا أويس القرني أطلبه وأسأل عنه، حتى سقطت عليه جالسا وحده على شاطئ الفرات نصف النهار، يتوضأ ويغسل ثوبه، فعرفته بالنعت، فإذا رجل لحم آدم شديد الأدمة، أشعر محلوق الرأس، يعني ليس له جمة، كث اللحية، عليه إزار من صوف ورداء من صوف، بغير حذاء، كبير الوجه، مهيب المنظر جدا. فسلمت عليه، فرد علي ونظر إلي فقال: حياك الله من رجل، فمددت يدي إليه لأصافحه، فأبى أن يصافحني وقال: وأنت فحياك الله، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك، كيف أنت رحمك الله؟ ثم خنقتني الغيرة من حبي إياه ورقتي له، لما رأيت من حاله ما رأيت، حتى بكيت وبكى، ثم قال: وأنت فرحمك الله يا هرم بن حيان، كيف أنت يا أخي، من دلك علي؟ قلت: الله، قال: لا إله إلا الله، "سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا".[192] حين سماني، والله ما كنت رأيته قط، ولا رآني، ثم قلت: من أين عرفتني وعرفت اسمي واسم أبي؟ فوالله ما كنت رأيتك قط قبل هذا اليوم؛ قال: "نبأني العليم الخبير"،[193] عرفت روحي روحك حيث كلمت نفسي نفسك، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأحياء، إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضا ويتحدثون بروح الله، وإن لم يلتقوا، وإن لم يتكلموا ويتعارفوا، وإن نأت بهم الديار وتفرقت بهم المنازل. قال: قلت: حدثني عن رسول الله ﷺ بحديث أحفظه عنك، قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ، ولم تكن لي معه صحبة، ولقد رأيت رجالا قد رأوه، وقد بلغني من حديثه كما بلغكم، ولست أحب أن أفتح هذا الباب على نفسي، أن أكون محدثا أو قاضيا ومفتيا، في النفس شغل يا هرم بن حيان؛ قال: فقلت: يا أخي، إقرأ علي آيات من كتاب الله أسمعهن منك، فإني أحبك في الله حبا شديدا، وادع بدعوات، وأوص بوصية أحفظها عنك؛ قال: فأخذ بيدي على شاطئ الفرات وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، قال: فشهق شهقة، ثم بكى مكانه ثم قال: قال ربي تعالى ذكره،

---

[192] الإسراء107

[193] التحريم03

وأحق القول قوله، وأصدق الحديث حديثه، وأحسن الكلام كلامه: "وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق" حتى بلغ إلى: "من رحم الله، إنه هو العزيز الرحيم".[194] ثم شهق شهقة، ثم سكت، فنظرت إليه وأنا أحسبه قد غشي عليه، ثم قال: يا هرم بن حيان، مات أبوك، وأوشك أن تموت، ومات أبو حيان، فإما إلى الجنة وإما إلى النار، ومات آدم، وماتت حواء. يا ابن حيان، ومات نوح وإبراهيم خليل الرحمن، يا ابن حيان، ومات موسى نجي الرحمن، يا ابن حيان، ومات داود خليفة الرحمن، يا ابن حيان، ومات محمد رسول الرحمن، ومات أبو بكر خليفة المسلمين، يا ابن حيان، ومات أخي وصفيي وصديقي عمر بن الخطاب. ثم قال: واعمراه! رحم الله عمر، وعمر يومئذ حي، وذلك في آخر خلافته، قال: فقلت له: رحمك الله، إن عمر بن الخطاب بعد حي، قال: بلى، إن تفهم فقد علمت ما قلت، أنا وأنت في الموتى، وكان قد كان، ثم صلى على النبي ﷺ، ودعا بدعوات خفاف، ثم قال: هذه وصيتي إليك يا هرم بن حيان: كتاب الله واللقاء بالصالحين من المسلمين، والصلاة والسلام على النبي ﷺ؛ ولقد نعيت على نفسي ونعيتك، فعليك بذكر الموت فلا يفارقن عليك طرفة، وأنذر قومك إذا رجعت إليهم، وانصح أهل ملتك جميعا؛ واكدح لنفسك، وإياك إياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تعلم، فتدخل النار يوم القيامة. قال: ثم قال: اللهم إن هذا يزعم أنه يحبني فيك، وزارني من أجلك، اللهم عرفني وجهه في الجنة، وأدخله علي زائرا في دارك دار السلام، واحفظه ما دام في الدنيا، حيث ما كان، وضم عليه ضيعته، ورضه من الدنيا باليسير، وما أعطيته من الدنيا فيسره له، واجعله لما تعطيه من نعمتك من الشاكرين؛ واجزه خير الجزاء، استودعتك الله يا هرم بن حيان، والسلام عليك ورحمة الله. ثم قال لي: لا أراك بعد اليوم رحمك الله، فإني أكره الشهرة، والوحدة أحب إلي، لأني شديد الغم كثير الهم، ما دمت مع هؤلاء الناس حيا في الدنيا، ولا تسأل عني، ولا تطلبني. واعلم أنك مني على بال، و لم أرك و لم ترني، فاذكرني وادع لي، فإني سأذكرك وأدعو لك، إن شاء الله تعالى، انطلق ها هنا، حتى آخذ ها هنا. قال: فحرصت على أن أسير معه ساعة فأبى علي، ففارقته يبكي وأبكي. قال: فجعلت أنظر في قفاه حتى دخل في بعض السكك، فكم طلبته بعد ذلك وسألت عنه فما وجدت أحدا يخبرني عنه بشيء، فرحمه الله وغفر له. وما أتت علي جمعة إلا وأنا أراه في منامي مرة أو مرتين. أو كما قال. رواه الحاكم في المستدرك

[194] قال تعالى: "وما خلقنا السموات والارض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق، ولكن أكثرهم لا يعلمون، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا ولا هم ينصرون إلا من رحم الله، إنه هو العزيز الرحيم". الدخان36-40

هجرتم من أحبكم عهودا   فلم يقبل حبيبكم القعودا
أنا سار بليل كي أراكم   وإن كان اللقاء بكم بعيدا
سأفني ما تبقى من حياتي   ظعينا في طلابكم شريدا
فإن حال الردى دون التلاقي   فحسبي موتتي فيكم شهيدا.[195]

قال أبو الفتح: وقد بسطت الكلام على أويس القرني من أصله، وأنا أعلم أن من الناس من لا معرفة له به، ولا اطلاع على ما ذكر النبي ﷺ من فضله؛ بل إن كثيرا من العلماء لا يقفون على أحاديثه، ويجانبون الحديث عنه؛ وفي ذلك كتم للحق لا يرضاه الله عز وجل. عفا الله عنهم وهداهم إلى الحق بإذنه، إنه ولي التوفيق

خمس احكام اوثانك الحرام ؤ الحلال ديدانك
اشركت بالله فى إيمانك ابدعت البدعة فى ازمانك

يقول: خمسة أحكام أوثانك، الحرام والحلال ديدنك، أشركت بالله في إيمانك، وأبدعت البدعة في زمانك

والمعنى: أصبحت لا تتكلم سوى بالأحكام الخمسة، على رأسها الحرام والحلال، حتى نصبت نفسك حكما على الناس، نسيت الله وبقيت مع هذه الأحكام، وكأنها أوثان تعبدها، وبذلك أشركت مع الله رغم إيمانك به، ورميت أفعال الناس بالبدعة، وخلطت في ذلك بين كثير من المحدثات التي اجتهد فيها الفقهاء وكان فيها خير للناس في دينهم ودنياهم، وبين ما أحدث من ضلالات، وبذلك تكون قد أحدثت وابتدعت بدعة جديدة، وهي الحكم على الحق بالبدعة

وفي القول المفيد للشوكاني ما نصه: وذكر ابن وهب أنه سمع مالكا يقول: لم يكن من أمر الناس، ولا أدركت أحدا أقتدي به يقول في شيء: هذا حرام وهذا حلال، ما كانوا يجترؤون على ذلك، إنما يقولون: نكره هذا، ونرى هذا حسنا، وينبغي هذا، ولا نرى هذا، أما سمعت قول الله عز وجل: "قل أرايتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آالله أذن لكم أم على الله تفترون"،[196] الحلال ما أحل الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله. انتهى منه بلفظه. انتهى[197]

---

[195] من نظم المؤلف

[196] يونس59

[197] الصوارم والأسنة في الذب عن السنة

تعريف البدعة لغة واصطلاحا

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى في تعريف البدع وبيان معناها وما اشتق منه لفظا: وأصل مادة بدع: للاختراع على غير مثال سابق، ومنه قول الله تعالى: "بديع السموات والارض"،[198] أي مخترعهما من غير مثال سابق متقدم، وقوله تعالى: "قل ما كنت بدعا من الرسل"،[199] أي ما كنت أول من جاء بالرسالة من الله إلى العباد، بل تقدمني كثير من الرسل، ويقال: ابتدع فلان بدعة، يعني: ابتدأ طريقة لم يسبقه إليها سابق. وهذا أمر بديع، يقال في الشيء المستحسن الذي لا مثال له في الحسن، فكأنه لم يتقدمه ما هو مثله ولا ما يشبهه.

ومن هذا المعنى، سميت البدعة بدعة، فاستخراجها للسلوك عليها هو الابتداع، وهيئتها هي البدعة، وقد يسمى العمل المعمول على ذلك الوجه بدعة، فمن هذا المعنى سمي العمل الذي لا دليل عليه في الشرع بدعة، وهو إطلاق أخص منه في اللغة، حسبما يذكر بحول الله. انتهى[200]

البدعة حقيقية وإضافية

يقول: ولا بد قبل النظر في ذلك من تفسير البدعة الحقيقية والإضافية، فنقول وبالله التوفيق : إن البدعة الحقيقية هي التي لم يدل عليها دليل شرعي، لا من كتاب ولا سنة ولا إجماع، ولا استدلال معتبر عند أهل العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل، ولذلك سميت بدعة، كما تقدم ذكره، لأنها شيء مخترع على غير مثال سابق، وإن كان المبتدع يأتي أن ينسب إليه الخروج عن الشرع، إذ هو مدع أنه داخل بما استنبط تحت مقتضى الأدلة، لكن تلك الدعوى غير صحيحة، لا في نفس الأمر ولا بحسب الظاهر؛ أما بحسب نفس الأمر فبالعرض، وأما بحسب الظاهر، فإن أدلته شبه ليست بأدلة، إن تثبت أنه استدل، وإلا فالأمر واضح

وأما البدعة الإضافية فهي التي لها شائبتان: إحداهما لها من الأدلة متعلق، فلا تكون من تلك الجهة بدعة، والأخرى ليس لها متعلق إلا مثل ما للبدعة الحقيقية، فلما كان العمل الذي له شائبتان لم يتخلص لأحد الطرفين، وضعنا له هذه التسمية، وهي البدعة الإضافية، أي أنها بالنسبة إلى إحدى الجهتين سنة، لأنها مستندة إلى دليل، وبالنسبة إلى الجهة الأخرى بدعة، لأنها مستندة إلى شبهة لا إلى دليل، أو غير مستندة إلى شيء

---

[198] البقرة116

[199] الأحقاف08

[200] الاعتصام

والفرق بينهما من جهة المعنى، أن الدليل عليها من جهة الأصل قائم، ومن جهة الكيفيات أو الأحوال أو التفاصيل لم يقم عليها، مع أنها محتاجة إليه، لأن الغالب وقوعها في التعبديات لا في العاديات المحضة، كما سنذكره إن شاء الله. انتهى[201]

ويقول رحمه الله تعالى في المصالح المرسلة: هذا الباب يضطر إلى الكلام فيه عند النظر فيما هو بدعة وما ليس ببدعة، فإن كثيرا من الناس عدوا أكثر المصالح المرسلة بدعا، ونسبوها إلى الصحابة والتابعين، وجعلوها حجة فيما ذهبوا إليه من اختراع العبادات؛ وقوم جعلوا البدع تنقسم بأقسام أحكام الشريعة، فقالوا: إن منها ما هو واجب ومندوب، وعدوا من الواجب كتب المصحف وغيره، ومن المندوب الاجتماع في قيام رمضان على قارئ واحد.

موقع المصالح المرسلة والاستحسان من البدعة

قال الشاطبي: وأيضا فإن المصالح المرسلة، يرجع معناها إلى اعتبار المناسب الذي لا يشهد له أصل معين، فليس له على هذا شاهد شرعي على الخصوص، ولا كونه قياسا، بحيث إذا عرض على العقول تلقته بالقبول. وهذا بعينه موجود في البدع المستحسنة، فإنها راجعة إلى أمور في الدين مصلحية، في زعم واضعيها، في الشرع على الخصوص

وإذا ثبت هذا، فإن كان اعتبار المصالح المرسلة حقا، فاعتبار البدع المستحسنة حق، لأنهم يجريان من واد واحد، وإن لم يكن اعتبار البدع حقا، لم يصح اعتبار المصالح المرسلة. انتهى[202]

قال أبو الفتح: وقد سرد الشاطبي عشرة أمثلة، توضح الوجه العلمي في المصالح المرسلة، نذكر منها أربعة قصد الاختصار:

المثال الأول: أن أصحاب رسول الله ﷺ اتفقوا على جمع المصحف، وليس ثم نص على جمعه وكتبه أيضا، بل قد قال بعضهم: كيف نفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟[203] انتهى[204]

---

[201] المرجع نفسه

[202] المرجع نفسه

[203] هكذا رواه البخاري في صحيحه: عن ابن السباق، أن زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وكان ممن يكتب الوحي، قال: أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن، فيذهب كثير من القرآن، إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير، فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري، ورأيت الذي رأى عمر، قال زيد بن ثابت: وعمر عنده جالس لا يتكلم، فقال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك، كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي

قال الشاطبي: و لم يرد نص عن النبي ﷺ بما صنعوا من ذلك، ولكنهم رأوه مصلحة تناسب تصرفات الشرع قطعا، فإن ذلك راجع إلى حفظ الشريعة، والأمر بحفظها معلوم، وإلى منع الذريعة للاختلاف في أصلها الذي هو القرآن، وقد علم النهي عن الاختلاف في ذلك بما لا مزيد عليه، وإذا استقام هذا الأصل، فاحمل عليه كتب العلم من السنن وغيرها، إذا خيف عليها الاندراس، زيادة على ما جاء في الأحاديث من الأمر بكتب العلم. انتهى[205]

المثال الثاني: اتفاق أصحاب رسول الله ﷺ على حد شارب الخمر ثمانين، وإنما مستندهم فيه الرجوع إلى المصالح والتمسك بالاستدلال المرسل، قال العلماء: لم يكن فيه في زمان رسول الله ﷺ حد مقدر، وإنما جرى الزجر فيه مجرى التعزيز، ولما انتهى الأمر إلى أبي بكر رضي الله عنه، قرره على طريق النظر بأربعين؛ ثم انتهى الأمر إلى عثمان رضي الله عنه، فتتابع الناس، فجمع الصحابة رضي الله عنهم فاستشارهم، فقال علي رضي الله عنه: من سكر هذى، ومن هذى افترى، فأرى عليه حد المفتري

المثال الثالث: إن العلماء اختلفوا في الضرب بالتهم

وذهب مالك إلى جواز السجن في التهم، وإن كان السجن نوعا من العذاب، ونص أصحابه على جواز الضرب، وهو عند الشيوخ من قبيل تضمين الصناع، فإنه لو لم يكن الضرب والسجن بالتهم، لتعذر استخلاص الأموال من أيدي السراق والغصاب، إذ قد يتعذر إقامة البينة، فكانت المصلحة في التعذيب وسيلة إلى التحصيل بالتعيين والإقرار

المثال الرابع: أنه يجوز قتل الجماعة بالواحد

والمستند فيه المصلحة المرسلة، إذ لا نص على عين المسألة، ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مذهب مالك والشافعي؛ ووجه المصلحة: أن القتيل معصوم وقد قتل عمدا، فإهداره داع إلى خرم أصل القصاص، واتخاذ الاستعانة والاشتراك ذريعة إلى السعي بالقتل، إذا علم أنه لا قصاص فيه، وليس أصله قتل المنفرد، فإنه قاتل تحقيقا، والمشترك ليس بقاتل تحقيقا، فإن قيل: هذا أمر بديع في الشرع، وهو قتل غير القاتل.

مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال أبو بكر: هو والله خير، فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب، وصدور الرجال، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم إلى آخرهما". التوبة129

وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر..

[204] الاعتصام

[205] المرجع نفسه

قلنا: ليس كذلك، بل لم يقتل إلا القاتل، وهم الجماعة من حيث الاجتماع عند مالك والشافعي، فهو مضاف إليهم تحقيقا، إضافته إلى الشخص الواحد، وإنما التعيين في تنزل الأشخاص منزلة الشخص الواحد؛ وقد دعت إليه المصلحة، فلم يكن مبتدعا، مع ما فيه من حفظ مقاصد الشرع في حقن الدماء. وعليه يجري عند مالك قطع الأيدي باليد الواحدة، وقطع الأيدي في النصاب الواجب. انتهى[206]

قلت: ثم سرد رحمه الله تعالى، عشرة أمثلة تبين الوجه العلمي في الاستحسان، نقتصر منها على خمسة:

أحدها: أن يعدل بالمسألة عن نظائرها بدليل الكتاب، كقوله تعالى: "**خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها**"،[207] فظاهر اللفظ العموم في جميع ما يتمول به، وهو مخصوص في الشرع بالأموال الزكوية خاصة، فلو قال قائل: مالي صدقة، فظاهر لفظه يعم كل مال، ولكنا نحمله على مال الزكاة، لكونه ثبت الحمل عليه في الكتاب

قال العلماء: وكأن هذا يرجع إلى تخصيص العموم بعادة فهم خطاب القرآن

وهذا المثال أورده الكرخي تمثيلا لما قاله في الاستحسان

والثاني: أن يقول الحنفي: سؤر سباع الطير نجس، قياسا على سباع البهائم

وهذا ظاهر الأثر، ولكنه ظاهر استحسانا، لأن السبع ليس بنجس العين، ولكن لضرورة تحريم لحمه، فثبتت نجاسته بمجاورة رطوبات لعابه، وإذا كان كذلك، فارقه الطير، لأنه يشرب بمنقاره، وهو طاهر بنفسه، فوجب الحكم بطهارة سؤره، لأن هذا أثر قوي وإن خفي، فترجح على الأول، وإن كان أمره جليا، والأخذ بأقوى القياسين متفق عليه

والثالث: أن أبا حنيفة قال: إذا شهد أربعة على رجل بالزنا، ولكن عين كل واحد غير الجهة التي عينها الآخر، فالقياس أن لا يحد، ولكن استحسن حده ووجه ذلك، أنه لا يحد إلا من شهد عليه أربعة، فإذا عين كل واحد دارا، فلم يأت على كل مرتبة بأربعة، لامتناع اجتماعهم على رتبة واحدة، فإذا عين كل واحد زاوية، فالظاهر تعدد الفعل، ويمكن التزاحف

والرابع: أن مالك بن أنس، من مذهبه أن يترك الدليل للعرف، فإنه رد الأيمان إلى العرف، مع أن اللغة تقتضي في ألفاظها غير ما يقتضيه العرف؛ كقوله: والله لا دخلت مع فلان بيتا؛ فهو يحنث بدخول كل موضع يسمى بيتا في اللغة، والمسجد يسمى بيتا، فيحنث على ذلك، إلا إن عرف الناس أن لا يطلقوا هذا اللفظ عليه، فخرج بالعرف على مقتضى اللفظ، فلا يحنث

---

[206] المرجع نفسه

[207] التوبة104

والخامس: ما تقدم أولا، من أن الأمة استحسنت دخول الحمام من غير تقدير أجرة، ولا تقدير مدة اللبث ولا تقدير الماء المستعمل، والأصل في هذا المنع، إلا أهم أجازوا، لا كما قال المحتجون على البدع، بل لأمر آخر هو من هذا القبيل الذي ليس بخارج عن الأدلة، فأما تقدير العوض، فالعرف هو الذي قدره، فلا حاجة إلى التقدير، وأما مدة اللبث وقدر الماء المستعمل، فإن لم يكن ذلك مقدرا بالعرف أيضا، فإنه يسقط للضرورة إليه. انتهى[208]

جواز البدعة المستحسنة في الدين

قلت: إذا كان الإمام الشاطبي رحمه الله تعالى، قد قسم البدعة إلى حقيقية وإضافية، فقد قسمها غيره إلى غير ذلك:

فالبدعة عند الشافعي رحمه الله تعالى: محمودة ومذمومة

وعند ابن الأثير: بدعة هدى وبدعة ضلالة

وعند غيرهما: عادية وتعبدية، حسنة وسيئة، فعلية وتركية، اعتقادية وقولية وفعلية، كلية وجزئية، وبسيطة ومركبة

ومن الناس من اعتقد أن لا بدعة حسنة في الدين، وأن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.[209]

وقد احتج القائلون بجواز البدعة المستحسنة في الدين بأمرين:

أحدهما: حديث عبد الرحمن بن عبد القاري، وقول عمر رضي الله عنه: "نعم البدعة هذه"

وهذا نص الحديث بتمامه: عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط، فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل؛ ثم عزم فجمعهم على أبي ابن كعب، ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم، قال عمر: نعم البدعة هذه، والتي ينامون عنها أفضل من التي يقومون، يريد آخر الليل، وكان الناس يقومون أوله. رواه البخاري في صحيحه

---

[208] الاعتصام

[209] نشير إلى ما رواه النسائي قال: عن جابر قال: كان رسول الله ﷺ يقول في خطبته يحمد الله ويثني عليه بما هو له أهل ثم يقول: "من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له؛ إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار الحديث". رواه النسائي

وقالوا بأن النبي ﷺ صلى بالناس صلاة التراويح ثلاث ليال ثم أمسك، حتى كان ما فعله عمر رضي الله عنه من جمع الناس على قارئ واحد، وقوله: نعم البدعة هذه

ثم ما زاده الصحابة رضوان الله عنهم مما لم يفعله رسول الله ﷺ

وقد كفانا الإمام الشاطبي مؤنة جمع أمثلته وعدها، كما سبق في كلامه

ثانيهما: قوله تعالى: **"ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون"**.[210]

ورأوا أن الحواريين ابتدعوا بدعة الرهبانية، وقبلها منهم الباري عز وجل، وجازى الذين رعوها منهم حق رعايتها خير الجزاء

وأنكر الرادون للبدع جملة وتفصيلا، على هؤلاء أن يستندوا إلى ما استندوا إليه، لإثبات رأيهم في جواز البدعة المستحسنة

وقالوا بأن ما فعله عمر رضي الله عنه، من جمع الناس على قارئ واحد في صلاة التراويح ليس ببدعة، لأن النبي ﷺ فعله في حياته ثلاث ليال ثم أمسك عنه، فبذلك يكون له أصل في سنة النبي ﷺ

بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك، فاستدلوا بما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم، قال رحمه الله تعالى: وأما قول عمر رضي الله عنه: "نعمت البدعة هذه"، فأكثر المحتجين بهذا، لو أردنا أن نثبت حكما بقول عمر الذي لم يخالف فيه، لقالوا: "قول الصاحب ليس بحجة"، فكيف يكون حجة لهم في خلاف قول رسول الله ﷺ. انتهى[211]

وادعوا أن تسمية عمر رضي الله عنه لما فعله بالبدعة، أراد بذلك تسمية لغوية لا تسمية شرعية

قال أبو الفتح الجعفي: لو لم يثبت عن الصحابة سوى ماثبت عن عمر رضي الله عنه، حين جمع الناس على قارئ واحد، وسمى ما فعله بدعة، لكان كافيا في جواز البدعة المستحسنة

مع العلم أن كل البدع المستحسنة لها أصل في الدين، وإلا لكانت منكرة، فكيف يقول هؤلاء أنها ليست بدعة لأن لها أصلا في الدين؟ فهي وإن كانت كذلك، فإن النبي ﷺ امتنع عنها في الليلة الرابعة، امتناعا يشق الخروج عنه، ومع ذلك فعله عمر رضي الله عنه، لما رأى فيه من استحسان

عن عروة أن عائشة رضي الله عنها، أخبرته أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل، فصلى في المسجد، وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر

---

[210] الحديد26

[211] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم

أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلى، فصلوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة، عجز المسجد عن أهله، حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس، فتشهد، ثم قال: "أما بعد، فإنه لم يخف علي مكانكم، ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها". فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك. رواه البخاري في صحيحه

فماذا نقول في جمع القرآن وكتابة الحديث وجمعه؟ وفي حد الشارب وما إلى ذلك مما تقتضيه المصالح المرسلة؟

إن المنكرين للبدعة المستحسنة يحبطون العقل، ويقفلون باب الاجتهاد في الدين

وفي هذا القدر كفاية على أن ما فعله عمر رضي الله عنه، وقال: "نعم البدعة هذه"، هو من قبيل البدع المستحسنة

كما حاول المنكرون، أن يؤولوا ما استدل به من سورة الحديد على غير وجهه، وقالوا ليس في هذه الآية دليل على استحسان البدع

قال الله تعالى: "ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم، وكثير منهم فاسقون". [212]

قال الحافظ ابن كثير: "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه"، وهم الحواريون، "رأفة"، أي رقة، وهي الخشية، "ورحمة" بالخلق. وقوله: "ورهبانية ابتدعوها"، أي ابتدعها أمة النصارى، "ما كتبناها عليهم"، أي ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

وقوله تعالى: "إلا ابتغاء رضوان الله"، فيه قولان: (أحدهما) أنهم قصدوا بذلك رضوان الله، قاله سعيد بن جبير وقتادة؛ (والآخر) ما كتبنا عليهم ذلك إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله. وقوله تعالى: "فما رعوها حق رعايتها"، أي فما قاموا بما التزموا حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله؛ والثاني: في عدم قيامهم بما التزموا مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل. انتهى[213]

قال أبو الفتح: قلت: قوله تعالى: "إلا ابتغاء رضوان الله"، المراد به: ابتدعوها ابتغاء رضوان الله

أما من ادعى أن المراد به: ما كتبناها عليهم، إنما كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فهو مردود عليه من وجوه:

الوجه الأول: قوله تعالى: "وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية"، كل ذلك أشار الباري عز وجل إلى أنه هو الذي جعله في قلوبهم، ولم تكن الرأفة والرحمة والرهبانية من عند أنفسهم، والذي جعله الله تعالى لا يعقل عده من قبيل البدعة المذمومة

---

[212] الحديد26

[213] تفسير ابن كثير

الوجه الثاني: قوله تعالى: "**ما كتبناها عليهم**"، ليس المقصود منه بالضرورة: حرمناها عليهم، فقد تكون من قبيل المباح والمندوب، إذ الأصل في الأشياء الإباحة

الوجه الثالث: قوله تعالى: "**فما رعوها حق رعايتها**"، اعتراف من الباري عز وجل بأن ما ابتدعوه مما جعل في قلوبهم، يستوجب الرعاية، ولو لم يكن حقا لما استوجب الرعاية

الوجه الرابع: قوله تعالى: "**ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله**"، يفهم من سياق الآية الكريمة، أن الله كتب عليهم ما ابتدعوه من رأفة ورحمة ورهبانية، ما داموا قد ابتغوا به رضوان الله

الوجه الخامس: قوله تعالى: "**فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون**"، رغم ابتداعهم ما جعل الله في قلوبهم، لم يخرجهم الله تعالى عن زمرة الذين آمنوا، بل آتاهم أجرهم، ولو كان ما ابتدعوه مستنكرا لما حسبهم الله تعالى من المؤمنين، أما الذين لم يرعوا ما ابتدعوه، وهم الأكثرون، فهم الفاسقون

ويؤيد ما ذهبنا إليه ما يلي:

قال ابن أبي حاتم: قوله تعالى: "**قلوب الذين اتبعوه**"

من طرق عن ابن مسعود قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبد الله"، قلت: لبيك يا رسول الله، ثلاث مرات، قال: "هل تدري أي عرا الإيمان أوثق؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "أوثق عرا الإيمان، الولاية في الله بالحب فيه والبغض فيه"، قال: "هل تدري أي الناس أفضل؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "أفضل الناس، أفضلهم عملا إذا تفقهوا في الدين. يا عبد الله، هل تدري أي الناس أعلم؟" قلت: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن أعلم الناس، أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصرا بالعمل، وإن كان يزحف على إسته، واختلف من كان قبلنا على اثنتين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاث، وهلك سائرها، فرقة وزت الملوك وقاتلتهم على دين الله وعيسى بن مريم حتى قتلوا، وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام معهم، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها، وهم الذين قال الله: "**ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم**"، الذين آمنوا بي وصدقوني،"**وكثير منهم فاسقون**"، الذين كفروا بي وجحدوني". انتهى[214]

قلت: ولعل هذا النص، أصل في أن ما ابتدعه المرء في دينه مما له أصل في الدين، كالزيادة في النوافل مما زاد عن السنة ووافق الشرع، مما لم يكتبه الله عليه، غير مردود عليه، بل يستحق عليه الجزاء ما رعاه حق رعايته. والله أعلم

[214] تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين

كما لا تدخل هذه الزيادة في البدعة الحقيقية، وإنما سميت بدعة لمعناها اللغوي فحسب؛ ومن رد البدعة الحسنة، فقد عطل الاجتهاد في الدين وطرقه، من استحسان ومصالح مرسلة، وسد ذرائع وغيرها

أليس ما سرد الشاطبي من أمثلة في الاستحسان والمصالح المرسلة، يعتبر مما زاده علماء الأمة وابتدعوه مما له أصل في الدين؟

أما البدعة المنكرة، فلا أصل لها في الدين، والأولى تسميتها بالكفر، لأنها تزيد في الدين ما ليس منه أو تنقص. والله تعالى أعلم

من أمرك تحكم على عبادو حتى كفرت قومان بادوا؟

العبد الي جرا على سيادو كيتو من سوط جلادو

يقول: من أمرك أن تحكم على عباده، حتى كفرت أقواما ماتوا من زمان بعيد، ألا تعرف أن العبد إذا تجرأ على أسياده فويل له من سوط جلاده؟

والمعنى: إذا لم تأمر الشريعة السمحة أحدا من المسلمين بالحكم على الناس بالكفر بما لا يعلم، فلماذا حكمت أيها المتنطع على كثير من المسلمين، حتى الأموات منهم بالكفر، قال تعالى: "تلك أمة قد خلت، لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم، ولا تسألون عما كانوا يعملون".[215]

"قال فما بال القرون الأولى، قال علمها عند ربي في كتاب، لا يضل ربي ولا ينسى".[216]

ألا تخشى أن يعاقبك الباري عز وجل على ما حكمت بغير حق وبغير علم، ويعذبك بما جنيت؟

ما دعاك إلى النيل من عباد الله تعالى ما لم ينزل به سلطانا؟ تراك شققت على قلوبهم، أم اطلعت على الغيب، أم أذن لك ربك بهذا؟ ما جوابك يوم ياتي حسابك؟

عن جندب، أن رسول الله ﷺ حدث: "أن رجلا قال: والله، لا يغفر الله لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألى علي أن أغفر لفلان؟ فإني قد غفرت لفلان وأحبطت عملك". أو كما قال. رواه البخاري

---

[215] البقرة133

[216] طه50-51

يبعث الباري عز وجل من يجدد للأمة دينها على رأس كل مائة سنة

تعهد الباري عز وجل عباده بالتذكير متى نسوا ما بلغوا، فبعث الرسل والأنبياء تترى، يردون الناس إلى دينهم بعد الفترة، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل والأنبياء، إلى أن كمل الدين على يد خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ

وما تتالى الرسل والأنبياء على هذه الأمة، سوى لمعرفته تعالى بطبيعة خلقه، هؤلاء الخلق الذين لا يثبتون على حال، فسرعان ما تغلب عليهم أهواؤهم، وتثاقل بهم أنفسهم، فيرضون بالغفلة والضلال

فهاهم قوم موسى، بعد ما شهدوا من معجزات باهرة، يبدلون دينهم، ولا زال موسى حيا يرزق، يناجي ربه في الطور على مقربة منهم، ولا زال أخوه هارون بين ظهرانيهم، لم يراعوا نصحه، بل أطاعوا السامري وعبدوا العجل

عن أبي واقد الليثي أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى خيبر، مر بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي ﷺ: "سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: "اجعل لنا إلها كما لهم آلهة"،[217] والذي نفسي بيده، لتركبن سنة من كان قبلكم". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

فماذا بعد ختم الرسالة وانقطاع الوحي؟ من يذكر الناس إذا نسوا؟ من يهديهم إذا ضلوا؟ أليس ذلك من طبعهم؟ قال تعالى: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما".[218]

هل سينساهم الذي لا يغفل ولا ينام؟ هل سيقول سبحانه: قد نفدت سلسلة الرسل والأنبياء، فليس لهم علينا من حجة، وقد أبلغوا قرآنا بينته السنة، تكفلنا بحفظه، ولا يزال بينهم، محجة بيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، "فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون".[219]

لم يبعث الله تعالى رسلا وأنبياء بعد خاتم المرسلين وإمام المتقين ﷺ، ولكنه بعث من يجدد للأمة دينها ويحفظ شرعها

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، ولا أعلمه إلا عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبعث إلى هذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". رواه الحاكم في المستدرك

---

[217] الأعراف138

[218] طه112

[219] الطور43

قد يكون هذا المبعوث فردا، وقد يكون أفرادا، ممن يحمل الهم للدين، ويشفق على أمة المسلمين، يلتمس لها المعاذير، ويردها إلى دينها بالحكمة والموعظة الحسنة، ليس بالتكفير والحكم على المجتمعات القائمة بالجاهلية..
ليس بقتل المسلمين وتقتيلهم يتجدد هذا الدين!

أولئك الثابتون، لا تميل بهم رياح الفتن، الأوتاد، الذين يشدون سرادقا عموده لا إله إلا الله، حتى لا يتهاوى ما بناه رسول الله ﷺ ومن معه، بالصبر والحلم، بالحكمة والتروي، بالرحمة والمحبة والصدق والإخلاص

عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين"، قال: وقال رسول الله ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين، لا يضرهم من يخذلهم، حتى يأتي أمر الله". رواه الترمذي وقال: وهذا حديث حسن صحيح

حكم سيد قطب على المجتمعات الحالية بالجاهلية

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله تعالى، في تعريفه للجاهلية:

إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم، وإذا أردنا التحديد الموضوعي، قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية.

وبهذا التعريف الموضوعي، تدخل في إطار "المجتمع الجاهلي" جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا. انتهى[220]

قال أبو الفتح: إن الحكم على المجتمعات الإسلامية الحالية كلها بأنها مجتمعات جاهلية، أمر لا نقبله ولا نستسيغه من وجهين:

الأول: ما يقوم لدينا من فوارق بين ما عليه هذه المجتمعات وما كانت عليه الجاهلية الأولى، هذه الأخيرة التي كانت تشرك مع الله غيره، وتحارب كل من أقر بالتوحيد، بل وتسعى بكل ما أوتيت من قوة إلى إطفاء نور الله تعالى

أما مجتمعاتنا الحالية، فهي مجتمعات يقر أفرادها بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، ويقيمون الدين ما استطاعوا؛ وإذا كان الحكم بجاهليتها يقتضي أن أفرادها كلهم كفار، فكيف نحكم على رجل بالكفر وهو يوحد الله تعالى؟ وكيف لنا أن نحكم بالجاهلية على مجتمعات يرتفع فيها صوت الأذان عاليا خمس مرات في اليوم، ويصوم أهلها شهر رمضان ويحجون بيت الله الحرام؟

---

[220] معالم في الطريق

الثاني: لا نجد للحكم على مجتمعاتنا بالجاهلية دليلا من أصول الشرع المعتمدة، وإنما هو نعت تلفظ به أفراد، نتيجة قياس خاطئ، لا تتمثل فيه شروط القياس، كما أسلفنا، وهو فتوى جانحة، لا تراعي ما يعتبر في قانون الإفتاء وتخالف شروطه، بل ربما ينم عن قلة اضطلاع بحديث رسول الله ﷺ الذي يعتبر الأصل الثاني في التشريع

وقد يقول القائل: كيف لنا أن ننعت المجتمعات الحالية أو الزمان الحالي بما نعته به رسول الله ﷺ، وقد التحق ﷺ بالرفيق الأعلى قبل أن يتبدل الزمان وتحول أموره؟

والذي يتساءل هكذا، لا يدري أنه عليه الصلاة والسلام، تنبأ بمجريات هذا الزمان ونعته بالفتن، ولم ينعته بالجاهلية ألبتة

لا أدري كيف تسرع بعض المفكرين المسلمين في الحكم على أوضاعنا بالجاهلية؟ ولا تكاد تخلوا مصنفات الحديث من كتب الفتن التي تخبر بهذا الزمان، بل تشرع كيفية التعامل مع أهله: أمراء وشعوبا، فكيف يجوز لنا أن نجتهد بعد ما أمر به ﷺ؟ ألسنا بذلك نخالف السنة ونعتمد على آرائنا وأهوائنا في موضوع لا مجال فيه للاجتهاد؟

وقد آن الأوان أن نستدل على صحة ما قلناه من الكتاب والسنة

إخباره ﷺ بالفتن التي تكون في آخر الزمان

يقول الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه:

باب: ما جاء في قول الله تعالى: "واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة".[221] وما كان النبي ﷺ يحذر من الفتن.

عن ابن أبي مليكة قال: قالت أسماء عن النبي ﷺ قال: "أنا على حوضي أنتظر من يرد علي، فيؤخذ بناس من دوني، فأقول: أمتي، فيقول: لا تدري، مشوا على القهقرى". قال ابن أبي مليكة: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن. رواه البخاري

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة، فقال: "هل ترون ما أرى؟" قالوا: لا، قال: "فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر". رواه البخاري

باب: ظهور الفتن

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "يتقارب الزمان، وينقص العلم، ويلقى الشح، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج"، قالوا: يا رسول الله، أيما هو؟ قال: "القتل القتل". رواه البخاري

عن شقيق قال: كنت مع عبد الله وأبي موسى فقالا: قال النبي ﷺ: "إن بين يدي الساعة لأياما يترل فيها الجهل، ويرفع فيها العلم، ويكثر فيها الهرج". والهرج القتل. رواه البخاري

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن". رواه البخاري

وفي جامع الترمذي: عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك، فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم ﷺ. رواه البخاري

عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: "خير أمتي القرن الذي بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم"، قال: ولا أعلم، ذكر الثالث أم لا، "ثم ينشأ أقوام يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، ويفشو فيهم السمن". رواه الترمذي وقال: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

---

[221] الأنفال25

كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟

يقول شهيد الإسلام سيد قطب رحمه الله تعالى: ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية مجردة، ولكن تتمثل في تجمع حركي على هذا النحو، فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية، ورد الناس إلى الله مرة أخرى، لا يجوز ولا يجدي شيئا أن تتمثل في نظرية مجردة، فإنها حينئذ، لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا، والمتمثلة في تجمع حركي عضوي، فضلا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب في حالة إلغاء وجود قائم بالفعل، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية في طبيعته وفي منهجه وفي كلياته وجزئياته؛ بل لابد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل في تجمع عضوي حركي، أقوى في قواعده النظرية والتنظيمية، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهلي القائم فعلا. انتهى[222]

وبذلك يشرع سيد قطب محاربة المسلمين بالسيف، ويفتي بجهادهم، فيكون مخالفا لما أمر به ﷺ، وينأى بذلك عن سنته، إذ ما تدل عليه الأحاديث الصحيحة الصريحة، يحرم جهاد المسلمين ومقاتلتهم

يقول الإمام البخاري في كتاب الفتن من صحيحه: باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة:

عن حذيفة بن اليمان يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: "نعم"، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: "نعم، وفيه دخن"، قلت: وما دخنه؟ قال: "قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر". قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: "نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها"، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا، قال: "هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا"، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: "تلزم جماعة المسلمين وإمامهم"، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: "فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك". رواه البخاري

عن عثمان الشحام قال: انطلقت أنا وفرقد السبخي إلى مسلم بن أبي بكرة، وهو في أرضه؛ فدخلنا عليه فقلنا: هل سمعت أباك يحدث في الفتن حديثا؟ قال: نعم، سمعت أبا بكرة يحدث قال: قال رسول الله ﷺ: "إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة، القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها، ألا، فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه"، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: "يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت"؛

---

[222] معالم في الطريق

قال: فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: "يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار". رواه مسلم

عن بسر بن سعيد، أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان بن عفان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: "إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي"، قال: فرأيت إن دخل علي بيتي وبسط يده إلي ليقتلني؟ قال: "كن كابن آدم". رواه الترمذي

عن طارق بن شهاب قال: أول من قدم الخطبة قبل الصلاة مروان، فقام رجل فقال لمروان: خالفت السنة، فقال: يا فلان ترك ما هنالك، فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكرا فلينكره بيده، ومن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "كيف أنتم وأئمة من بعدي يستأثرون بهذا الفيء؟" قلت: إذن والذي بعثك بالحق أضع سيفي على عاتقي، ثم أضرب به حتى ألقاك أو ألحقك؟ قال: "أولا أدلك على خير من ذلك؟ تصبر حتى تلقاني". رواه أبو داود في سننه

وقبل أن نسرد ما بينه رسول الله ﷺ من مواقف تتخذ من الأمراء والحكام في زمان الفتن وغيره، لا بد من سوق أحاديث تذكر هؤلاء بما لهم وما عليهم تجاه شعوبهم ورعاياهم

ما يجب على الراعي تجاه الرعية

يقول الإمام البخاري في صحيحه: باب: من استرعي رعية فلم ينصح

عن الحسن، أن عبيد الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه الذي مات فيه، فقال له معقل: إني محدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت النبي ﷺ يقول: "ما من عبد يسترعيه الله رعية، فلم يحطها بنصحه، إلا لم يجد رائحة الجنة". رواه البخاري

عن الحسن قال: أتينا معقل بن يسار نعوده، فدخل علينا عبيد الله، فقال له معقل: أحدثك حديثا سمعته من رسول الله ﷺ، فقال: "ما من وال يلي رعية من المسلمين، فيموت وهو غاش لهم، إلا حرم الله عليه الجنة". رواه البخاري

عن عبد الله بن عمر: قال النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول، فالإمام راع وهو مسؤول، والرجل راع على أهله وهو مسؤول، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسؤولة، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول". رواه البخاري

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالى". رواه البخاري

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله، من أفضل القربات. وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس، لابتغاء الرياسة أو المال بها. وقد روى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: "ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه". قال الترمذي: حديث حسن صحيح. فأخبر أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه، مثل أو أكثر من إفساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم. انتهى[223]

الأمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكره

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: قال ابن بطال: في الحديث (يقصد حديث: "من فارق الجماعة شبرا، فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه".) حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء. وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك، إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها. انتهى[224]

عن عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: "إنكم سترون بعدي أثرة وأمورا تنكرونها". قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: "أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم". رواه البخاري

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة". رواه البخاري

عن ابن عباس يرويه قال: قال النبي ﷺ: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت، إلا مات ميتة جاهلية". رواه البخاري

---

[223] السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية

[224] فتح الباري

عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة". رواه البخاري

باب: من شاق شق الله عليه

عن طريف أبي تميمة قال: شهدت صفوان وجندبا وأصحابه وهو يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئا؟ قال: سمعته يقول: "من سمع سمع الله به يوم القيامة"، قال: "ومن شاق شق الله عليه يوم القيامة الحديث". رواه البخاري

عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: "من كره من أميره شيئا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرا مات ميتة جاهلية". رواه البخاري

عن جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حدث بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، "إلا أن تروا كفرا بواحا، عندكم من الله فيه برهان". رواه البخاري

عن علقمة بن وائل بن حجر عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ، ورجل سأله فقال: أرأيت إن كان علينا أمراء يمنعونا حقنا ويسألونا حقهم؟ فقال رسول الله ﷺ: "اسمعوا وأطيعوا، فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: "إنه سيكون عليكم أئمة تعرفون وتنكرون، فمن أنكر فقد برئ، ومن كره فقد سلم، ولكن من رضي وتابع"، فقيل: يا رسول الله، أفلا نقاتلهم؟ قال: "لا، ما صلوا". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

ولا يخفى على أحد مخططات الصهيونية، التي أصبح حفيفها يصدع آذان الواعين بحيلها وخداعها، في كل ما نشاهده ونشهده من اضمحلال قيم أمتنا، وتشتت وحدها وتناقض كلمتها

إن وقائع الفوضى في الأمة، إذا رجعت إلى أسبابها، وجدت أن هذه الأسباب، بدأت بذورا صغيرة، وسقيت بالشعارات الزائفة والكلمات الرنانة، التي تصنعها الصهيونية وتبثها في الشعوب، بعد أن سيطرت على وسائل الإعلام كافة، لتغري شبابنا بالحرية والمساواة والديموقراطية، وما إلى ذلك

ألسنا في غنى عن كل هذه الشعارات، وتلك الإيديولوجيات المسمومة، بتعاليم ديننا التي تقر العدل والسلام، ما لا يقره غيرها؟

إن مبدأ الديموقراطية، بمفهومه الحديث، ليس هو مبدأ الشورى في الإسلام، كما يتوهمه البعض، فإن الديموقراطية كما نفهمها، تتيح درجا للصهيونية وغيرها، كي تصعد وتتسور أنظمتنا ومرافقنا الحيوية، وتعيث بكل ذلك كما تشاء

أليست الصهيونية، بعد أن استولت على رأس المال العالمي، بسيطرتها على الذهب، أليست قادرة على تمويل أي حزب عميل، تحت أي اسم، لكي يفوز في الانتخابات، ويلج البرلمانات ومجالس الشعب بأغلبية ساحقة؟ ثم يترشح للرئاسة، ولا يمنعه شيء من الفوز، خاصة وأن شعوبنا، ينقصها الوعي السياسي، وتعاني في الغالب، من قلة اليد وشظف العيش، ومن السهل إقناعها بما نريد، إذا وعدناها بأن ما نريد، سيحقق لها الكرامة ويكفل لقمة العيش

أما مبدأ الشورى في الإسلام، فلا مجال فيه للتسور والتسلل، لأن الأمر كله يكون بيد الحاكم، حاكم تتميز دولته بأحادية الحكم والتسيير

ولا يملك المجلس الاستشاري، إلا أن يزيده توضيحا لنتائج القرارات والإجراءات والمواقف التي يعتزم اتخاذها، أو يحذره من عواقب ما يضر به أو بشعبه من قرارات غير صائبة، وللحاكم بعدها أن يفعل ما شاء.

وقد فطن الصهاينة، منذ القديم إلى ذلك، فعملوا، جاهدين على تقويض أسس الملكيات والإمبراطوريات أحادية الحكم، حتى يفسحوا المجال لثعابينهم وهوامهم المترصدة، كي تزحف وتتسلل إلى عمق كيان الدول الإسلامية وغير الإسلامية

ومن هنا تتجلى الحكمة من نهي رسول الله ﷺ، عن مقاتلة الحكام والأمراء، ومن أمره ﷺ بإطاعتهم والتوحد تحت لوائهم، مهما كانوا مستبدين، ما داموا يقرون بعقيدة التوحيد.

ولعل من غير اللائق، أن لا نعرف من يجهل، وألا نذكر من يعلم، ببعض مخططات بني صهيون، هذه المخططات، التي شاء الباري عز وجل، أن تفتضح ويطلع عليها العالم أجمع؛ ذلك، حتى يلمس القارئ الكريم صدق رسول الله ﷺ في أمره بعدم الخروج عن الجماعة، وشق عصا الطاعة

لقد ترجم كتاب: "بروتوكولات حكماء صهيون"، إلى أغلب اللغات؛ هذا الكتاب، الذي خرج من بين أيدي منظري الصهيونية، أول ما خرج سنة: 1901ميلادية، ووقع في يد نيلوس، وطبع منه نسخا قليلة، لأول مرة بالروسية سنة: 1902ميلادية، وبذلك فضح نيات الصهاينة الإجرامية

وهكذا يتبين لك، أن الصهيونية، تعمل بجد وبنظام دقيق، وفق بنود مدروسة منذ القديم؛ وتخطط لقرون، وليس لسنوات معدودة

هذه البنود، لا يغلب عليها الارتجال، لا في وضعها ولا في تنفيذها، بل الظاهر، أنها وضعت على أساس قرون من التجربة والسجال في محاربة الأمم وخلخلة كياناتها، وبلبلة استقرارها، عبر تسميم أفكار شبابها

وقد آن الأوان، لكي نورد لك أيها القارئ، مقتطفات من هذه البروتوكولات الهدامة، تقرؤها بتمعن وإمعان، وتقابلها، بأوضاع الأمة ومشكلاتها، كي تعي ما نقصد إليه:

من البروتوكول الأول: إن الحرية السياسية ليست حقيقة، بل فكرة؛ ويجب أن يعرف الإنسان كيف يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية، فيتخذها طعما لجذب العامة إلى صفه، إذا كان قد قرر أن ينتزع السلطة منافس له. وتكون المشكلة يسيرة، إذا كان هذا المنافس موبوءا بأفكار الحرية، Freedom التي تسمى: التحررية Liberalism ومن أجل هذه الفكرة يتخلى عن بعض سلطته.

وبهذا سيصير انتصار فكرتنا واضحا، فإن أزمة الحكومة المتروكة، خضوعا لقانون الحياة، ستقبض عليها يد جديدة. وما على الحكومة الجديدة إلا أن تحل محل القديمة التي أضعفتها التحررية، لأن قوة الجمهور العمياء، لا تستطيع البقاء يوما واحدا بلا قائد. انتهى[225]

أما عن شعار: حكم الشعب نفسه بنفسه، فيقولون في البروتوكول الأول كذلك: إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا، ونحن نضع خططنا، ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي، بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد.

إن بين أيدينا خطة، عليها خط استراتيجي Strategic موضح؛ وما كنا لننحرف عن هذا الخط إلا كنا ماضين في تحطيم عمل قرون.

إن من يريد إنفاذ خطة عمل تناسبه، يجب أن يستحضر في ذهنه حقارة الجمهور وتقلبه، وحاجته إلى الاستقرار، وعجزه عن أن يفهم ويقدر ظروف عيشته وسعادته. وعليه أن يفهم أن قوة الجمهور عمياء خالية

[225] بروتوكولات حكماء صهيون

من العقل المميز، وأنه يعير سمعه ذات اليمين وذات الشمال. إذا قاد الأعمى أعمى مثله، فيسقطان معا في الهاوية؛ وأفراد الجمهور الذين امتازوا من بين الهيئات، ولو كانوا عباقر، لا يستطيعون أن يقودوا هيئاتهم كزعماء، دون أن يحطموا الأمة.

ما من أحد يستطيع أن يقرأ الكلمات المركبة من الحروف السياسية، إلا نشأ تنشئة للملك الأوتقراطي Autocratic، إن الشعب المتروك لنفسه، أي للممتازين من الهيئات، لتحطمه الخلافات الحزبية، التي تنشأ من التهالك على القوة والأمجاد، وتخلق الهزاهز والفتن والاضطراب.

أفي وسع الجمهور أن يميز بهدوء ودون ما تحاسد، كي يدبر أمور الدولة التي يجب أن لا تقحم معها الأهواء الشخصية؟ وهل يستطيع أن يكون وقاية ضد عدو أجنبي؟ هذا محال. إن خطة مجزأة أجزاء كثيرة، بعدد ما في أفراد الجمهور من عقول، خطة ضائعة القيمة، فهي لذلك غير معقولة، ولا قابلة للتنفيذ، إن الأتقراطي Autoctrat وحده، هو الذي يستطيع أن يرسم خططا واسعة، وأن يعهد بجزء معين لكل عضو في بنية الجهاز الحكومي. ومن هنا نستنبط أن ما يحقق سعادة البلاد، هو أن تكون حكومتها في قبضة شخص واحد مسؤول. وبغير الاستبداد المطلق لا يمكن أن تقوم حضارة، لأن الحضارة لا يمكن أن تروج وتزدهر إلا تحت رعاية الحاكم، كائنا من كان، لا بين أيدي الجماهير.

إن الجمهور بربري، وتصرفاته في كل مناسبة على هذا النحو، فما إن يضمن الرعاع الحرية، حتى يمسخوها سريعا فوضى، والفوضى في ذاتها قمة البربرية. انتهى[226]

وفيما يخص إقناع الجماهير بأن تتولى مقاليد نفسها، قصد إزاحة الحكم الأحادي، الذي يسد على الصهيونية منافذ التسلل إليه، يقولون في البروتوكول نفسه: إن الناس حينما كانوا ينظرون إلى ملوكهم نظرهم إلى إرادة الله، كانوا يخضعون في هدوء لاستبداد ملوكهم. ولكن منذ اليوم الذي أوحينا فيه إلى العامة بفكرة حقوقهم الذاتية، أخذوا ينظرون إلى الملوك نظرهم إلى أبناء الفناء العاديين. ولقد سقطت المسحة المقدسة عن رؤوس الملوك في نظر الرعاع. وحينما انتزعنا منهم عقيدتهم هذه، انتقلت القوة إلى الشوارع فصارت كالملك المشاع، فاختطفناها. ثم إن من بين مواهبنا الإدارية التي نعدها لنا، موهبة حكم الجماهير والأفراد بالنظريات المؤلفة بدهاء، وبالعبارات الطنانة، وبسنن الحياة وكل أنواع الخديعة الأخرى. انتهى[227]

وأما ما تؤمن به الصهيونية، وتعتبره صحيحا، وتهدف، بل وتحلم أن تبني عليه قواعد إمبراطوريتها المأمولة، فيقولون في البروتوكول الثالث والعشرين: إن الأمم، لا يخضعون خضوعا أعمى، إلا للسلطة الجبارة المستقلة

---

[226] المرجع نفسه

[227] المرجع نفسه

عنهم استقلالا مطلقا، القادرة على أن تريهم، أن سيفا في يدها يعمل كسلاح دفاع ضد الثورات الاجتماعية. لماذا يريدون بعد ذلك أن يكون لمليكهم روح ملاك؟ إنهم، يجب أن يروا فيه القوة والمقدرة متجسدتين.

يجب أن يظهر الملك الذي سيحل محل الحكومات القائمة، التي ظلت تعيش على جمهور، قد تمكنا نحن أنفسنا من إفساد أخلاقه خلال نيران الفوضى. وإن هذا الملك، يجب أن يبدأ بإطفاء هذه النيران، التي تندلع اندلاعا مطردا من كل الجهات.

ولكي يصل الملك إلى هذه النتيجة، يجب أن يدمر كل الهيئات التي قد تكون أصل هذه النيران، ولو اقتضاه ذلك، إلى أن يسفك دمه هو ذاته؛ ويجب عليه أن يكون جيشا منظما تنظيما حسنا، يحارب بحرص وحزم عدوى أي فوضى قد تسمم جسم الحكومة.

إن ملكنا، سيكون مختارا من عند الله، ومعينا من أعلى، كي يدمر كل الأفكار التي تغرى بها الغريزة لا العقل، والمبادئ البهيمية لا الإنسانية. إن هذه المبادئ تنتشر الآن انتشارا ناجحا في اختلاساتهم وطغيانهم، تحت لواء الحق والحرية.

إن هذه الأفكار قد دمرت كل النظم الاجتماعية، مؤدية بذلك، إلى حكم ملك إسرائيل King of Israel ولكن عملها، سيكون قد انتهى حين يبدأ حكم ملكنا؛ وحينئذ، يجب علينا أن نكنسها بعيدا، حتى لا يبقى أي قذر في طريق ملكنا.

وحينئذ، سنكون قادرين على أن نصرخ في الأمم: "صلوا لله، واركعوا أمام ذلك (الملك)، الذي يحمل آية التقدير الأزلي للعالم، والذي يقود الله ذاته نجمه، فلن يكون أحد آخر إلا هو نفسه Himself قادرا على تخليص الإنسانية من كل خطيئة. انتهى[228]

ولاتكم أعمالكم

لا تكن أخي، بعد كل هذا، ألعوبة في يد هذه التخطيطات الغاشمة والمؤامرات الوضيعة، آن لك، أخي، أن تراجع نفسك، وتصحح أفكارك، وترجع إلى التمسك بما أقره رسولك الكريم ﷺ، من قواعد وتعليمات تخص علاقة الراعي بالرعية، حتى تحصن نفسك وأمتك من هؤلاء المغرضين

يقول ابن قيم الجوزية، رحمه الله تعالى: وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد، إذا جار قويهم على ضعيفهم، و لم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء؛ وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا، إلى أن تطوى الأرض ويعيدها كما بدأها؛ وتأمل حكمته تعالى

[228] المرجع نفسه

في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها، منعت ملوكهم وولاهم ما لهم عندهم من الحق، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف؛ وكلما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية، أن يولي على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم. ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها، كانت ولاهم كذلك، فلما شابوا شابت لهم الولاة؛ فحكمة الله، تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها، ومن له فطنة، إذا سافر بفكره في هذا الباب، رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر، ظاهرة وباطنة فيه، كما في الخلق والأمر سواء. انتهى[229]

---

[229] مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة

كلمة الشيخ محمد متولي شعراوي إلى الرئيس المصري السابق

وبين يدي نموذج للعلماء المسلمين الواعين بما تلزمه مبادئ الدين، وهو الشيخ محمد متولي شعراوي،[230] رحمه الله تعالى، فعلى إثر محاولة اغتيال الرئيس المصري السابق: محمد حسني مبارك، في أديس أبابا، سافر إليه الشيخ

---

[230] الشيخ **محمد متولي الشعراوي**

مولده ونشأته

ولد **محمد متولي الشعراوي** في: 5 أبريل عام 1911ميلادي، بقرية "دقادوس"، مركز "ميت غمر"، بمحافظة "الدقهلية" بمصر، وهو من أسرة يمتد نسبها إلى الإمام علي زين العابدين بن الحسين. وحفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره. انتهى

دراسته

التحق الشعراوي بكلية اللغة العربية سنة 1937ميلادية، وانشغل بالحركة الوطنية والحركة الأزهرية؛ فثورة سنة 1919ميلادي اندلعت من الأزهر الشريف، ومن الأزهر خرجت المنشورات التي تعبر عن سخط المصريين ضد الإنجليز المحتلين. ولم يكن معهد الزقازيق بعيدا عن قلعة الأزهر في القاهرة، فكان يتوجه وزملاءه إلى ساحات الأزهر وأروقته، ويلقي بالخطب، مما عرضه للاعتقال أكثر من مرة، وكان وقتها رئيسا لاتحاد الطلبة سنة 1934ميلادي

تخرج عام 1940ميلادية، وحصل على العالمية مع إجازة التدريس، عام 1943ميلادي. بعد تخرجه، عين الشعراوي في المعهد الديني بطنطا، ثم انتقل بعد ذلك إلى المعهد الديني بالزقازيق، ثم المعهد الديني بالإسكندرية؛ وبعد فترة خبرة طويلة، انتقل الشيخ الشعراوي إلى العمل في السعودية، عام 1950ميلادي، أستاذا للشريعة في جامعة أم القرى. انتهى

مكانته

وفي نوفمبر 1976ميلادي اختار السيد ممدوح سالم، رئيس الوزراء آنذاك، أعضاء وزارته، وأسند إلى الشيخ الشعراوي وزارة الأوقاف وشؤون الأزهر. فظل الشعراوي في الوزارة حتى أكتوبر عام 1978ميلادي.

وفي سنة 1987ميلادية، اختير عضوا بمجمع اللغة العربية (مجمع الخالدين). انتهى

من مؤلفاته

- الإسلام والفكر المعاصر
- الإسلام والمرأة، عقيدة ومنهج
- الشورى والتشريع في الإسلام
- القضاء والقدر
- هذا هو الإسلام
- المنتخب في تفسير القرآن الكريم

وفاته

وفي صباح الأربعاء 22 صفر 1419هجرية، الموافق: 6/17 / 1998ميلادية، توفي الشيخ رحمه الله، وفقدت الأمة الإسلامية بموته علما بارزا من أعلام الدعوة الإسلامية. انتهى من ويكيبيديا الموسوعة الحرة بتصرف

مع زمرة من العلماء الأجلاء، ليهنئه على سلامته، وهناك وجه الشيخ إلى الرئيس كلمة في الملإ، لا زالت هذه الكلمة، محتفظا بها في الذاكرة الإعلامية بالصوت والصورة، وقد كان ذلك قبيل موت الشيخ شعراوي بقليل، ولعله آخر ظهور له في الملإ؛ وكان، رحمه الله تعالى، وهو يخاطب الرئيس، يظهر عليه الوهن، إذ كان يعاني من مرضه الذي مات منه

قال رحمه الله تعالى: وإني يا سيادة الرئيس، أقف على عتبة دنياي لأستقبل أجل الله، فلن أختم حياتي بنفاق، ولن أبرز عنتريتي باجتراء، ولكني أقول كلمة موجزة للأمة كلها، حكومة وحزبا، ومعارضة ورجالا وشعبا، آسف أن يقول: سلبي؛ أريد منهم أن يعلموا أن الملك كله بيد الله يوتيه من يشاء، فلا تآمر لأخذه، ولا كيد للوصول إليه؛ فإن الحق سبحانه وتعالى، حينما حكى حوار إبرهيم للنمرود، ماذا قال له؟ "ألم تر إلى الذي حاج إبرهيم" في إيه؟ "في ربه"، هو كافر، قال: "أن آتاه الله الملك".[231]

فالملك، حين يتزله الله، قال: "توتي الملك من تشاء"،[232] فلا تآمر على الله لملك، ولا كيد على الله لحكم، لأنه لن يحكم أحد في ملك الله، إلا بمراد الله

فإن كان عادلا، فقد نفع بعدله، وإن كان جائرا ظالما، بشع الظلم وقبحه في نفوس كل الناس، فيكرهون كل ظالم، ولو لم يكن حاكما

ولذلك، أقول للقوم جميعا: إننا، والحمد لله، قد تأكد لنا صدق الله في كلامه، بما جاء من الأحداث، فكيف كنا نفسر قول الله: "ويمكرون ويمكر الله؟"[233] وكيف كنا نفسر: "إنهم يكيدون كيدا ونكيد كيدا؟"[234]

الله يريد أن يثبت قيوميته على خلقه

فأنا أنصح كل من يدور برأسه أن يكون حاكما، أنصحه بألا تطلبها، بل يجب أن تطلب له، فإن رسول الله قال: "من طلب إلى شيء أعين عليه، ومن طلب شيئا وكل إليه".

يا سيادة الرئيس، آخر ما أحب أن أقوله لك، ولعل هذا يكون آخر لقائي أنا بك: إذا كنت قدرنا، فليوفقك الله، وإذا كنا قدرك، فليعنك الله على أن تتحمل. انتهى

ولا ننسى أن نذكر بأن هناك دعاة مصلحين عرفهم العصر الحديث، دعوا إلى الله تعالى دون تشدد، وألفوا من الكتب ما يخدمون به دينه تعالى، جزاهم الله عنا وعن أمة رسول الله ﷺ كل خير، ومنهم أبو الأعلى المودودي المتوفى سنة 1979ميلادية، وهو مؤسس الجماعة الإسلامية بلاهور، وقد ألف ما يقرب من ستين

---

[231] البقرة257

[232] آل عمران26

[233] الأنفال30

[234] الطارق15-16

كتابا، منها: نحن والحضارة الإسلامية، والحضارة الإسلامية أسسها ومبادؤها، والإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة

ومنهم كذلك: أبو الحسن الندوى المتوفى سنة 1999ميلادية، وهو مؤسس حركة رسالة الإنسانية، والمجمع الإسلامي العلمي، وقد ألف أزيد من مائة كتاب، منها: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ والصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية

ومنهم حجة الله في أرضه على النصارى، وظاهرة هذا الزمان في ما تخصص فيه من ذود عن كتاب الله تعالى، وتفنيد لما كتبه رهبان النصارى من أباطيل، الشيخ أحمد حسين ديدات المتوفى سنة 1986ميلادية، رحمه الله تعالى، وقد خلف تسجيلات صوتية لمناظرات مع أباطرة المبشرين في العالم، ومن كتبه: الإسلام والديانات الأخرى، والمسيح في الإسلام، وماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ؟ وغيرها كثير

ولا ننسى رجلا لم يقدر كثير من الدعاة المتطرفين قدره، أن لم يتزي بأزيائهم، ولم يرسل لحيته، وهو الأستاذ الشهيد مصطفى العقاد، الذي قتل مع ابنته سنة 2005ميلادية، في انفجار حصل في أحد الفنادق بعمان، وهو الذي أخرج شريط الرسالة وأنتجه، هذا الشريط الذي بلغ من النفوس ما لم يبلغه أي كتاب، وكان سببا في إسلام كثير من النصارى في العالم أجمع، تغمده الله برحمته وجزاه عنا وعن أمة رسول الله ﷺ خير الجزاء

ونحن نسود صفحات هذا الكتاب، تلقينا نبأ مقتل الشيخ سعيد رمضان البوطي في 21 من شهر مارس 2013ميلادية، وقد رزئ المسلمون في هذا الداعية الحكيم، الذي طالعتنا كتبه منذ يفاعتنا، ككتاب: كبرى اليقينيات الكونية وفقه السيرة وغيرها، واتسم بالاعتدال في أقواله وفتاويه، ولعل الله تعالى تلقاه وهو راض عنه، وجازاه عما بذل لتكون كلمة الله هي العليا

ومن هؤلاء الأساطين، الداعين إلى الله على بصيرة بحكمة وروية ويقين، رجل ينتمي لهذا البلد الأمين، التزم بسنة خير المرسلين ﷺ في الهيئة والسلوك بين العالمين، وألزم بها أهله وذويه المقربين، وهو الشيخ محمد الحمداوي رحمه الله تعالى،[235] الذي قضى حياته في السياحة والتجوال، لا يكاد يترك بلدا إلا شد إليه الرحال،

[235] الشيخ محمد الحمداوي مرشد جماعة التبليغ والدعوة إلى الله بالمغرب

تخرج رحمه الله تعالى، من جامع القرويين بفاس، واشتغل في سلك التعليم

أسس هذه الجماعة بعد لقائه في المغرب بالشيخ يوسف الكندهلوي صاحب حياة الصحابة، وهي فرع لجماعة هذا الأخير بالهند، وتعتبر أقدم حركة إسلامية بالمغرب، إذ كان تأسيسها حوالي سنة 1964ميلادية، شهدت الجماعة انتشارا كبيرا في المغرب وخارجه في عهده، وتميز مذهبها بالابتعاد عن السياسيات والخلافيات الفقهية، ورغم ذلك، فقد عانت الجماعة من عدة مضايقات من السلطة، خاصة في سنة 1979ميلادية، بعد تجمعها العالمي، بمعرض البيضاء، وفي سنة 1983، حيث أخليت من

ولا قطرا إلا نزله يدعو للواحد المتعال، حتى أنه كان لا يجد وقتا لأهله وأبنائه وأحبابه، فلا يفرحون بوصوله حتى يغادر بعد إيابه، خارجا في سبيل الله تعالى، يدل الناس عليه، ولا يفتأ عن الدعوة والإرشاد إليه

صبوح الوجه مهيب المنظر، هادئ التقاسيم، ثاقب النظر، سمعنا منه ما اطمأن به القلب واستنار، وصلينا خلفه ونحن صغار، فأشجتنا قراءته مليا، فقد أوتي صوتا حازما شجيا، سالت لقراءته أعين الأحبة، وكان يقرأ كثيرا قوله تعالى من سورة التوبة: "أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله، لا يستوون عند الله، والله لا يهدي القوم الظالمين".[236] فإذا قرأ تمنيت ألا يسكت، وإذا جهر تمنيت ألا يخفت، وإذا ركع أو سجد تمنيت ألا يرفع أو يقنت

قرانا في بيته، فأحسن قرانا، وعاشرنا أبناءه زمانا، خاصة حامل سره ووارث سمته، ابنه الأبر الأستاذ رشيد، فقد أوتي نصيبا من العلم، إلا أنه من الذين لا يستحبون الظهور، وقد وهبه الباري عز وجل، هو الآخر، صوتا مليحا، كنا نسمع ترتيله مرة بعض أخرى، فترتاح له نفوسنا وتطمئن أفئدتنا، ولا تكاد تفرق إذا سمعته بينه وبين الشيخ المقرئ محمد صديق المنشاوي

وخالطنا أفراد الجماعة، فلم نجد فيهم تشددا ولا مغالاة، بل كانوا يحقرون أنفسهم ويعظمون الناس، وقد اهتدى بفضل هذه الجماعة خلق كثير، فقد كانت أغلب مواعظهم من كتابي حياة الصحابة[237] ورياض الصالحين،[238] ولم تسلم هي الأخرى من مضايقات السلطة وإجحافها

ولم يكن الشيخ محمد الحمداوي يتلق منحة من أي جهة من الجهات، فقد كان يسكن في حي شعبي، وكان رزقه كفافا، ومات رحمه الله تعالى ولم يترك من متاع الدنيا شيئا

وكنا نحضر معه بعد المغرب إلى ما بعد صلاة العشاء بمسجد النور بالرباط، ونسمع منه ومن أفراد جماعته، فكان المسجد يمتلأ نورا، وتنزل على الحاضرين السكينة وتغشاهم الرحمة

لقد كان للشيخ رحمه الله تعالى، فضل علينا، بأن شربنا أولى جرعات الإيمان على يديه، وخشعنا خشوع أهل الإحسان حواليه

فليتغمده الله تعالى برحمته، وليجازه عنا خير الجزاء

مراكز تجمعها التي كانت عبارة عن مساجد تسمى بمساجد النور، لكي تضم لوزارة الأوقاف، ولم يفل ذلك من عزمها، بل تابعت نهجها وحرصت على تفانيها في الدعوة إلى الله الواحد الأحد

توفي الشيخ الحمداوي رحمه الله تعالى بالرباط سنة 1987ميلادية، وشهد جنازته جمع غفير من محبيه

[236] التوبة19

[237] حياة الصحابة من تأليف الشيخ محمد يوسف بن محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (1335-1384هجرية)

[238] رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين لأبي زكرياء يحيى بن شرف النووي توفي سنة: 676هجرية

وجوب النصح للراعي

ولا يظن القارئ، بعد ما سقناه من جملة أحاديث رسول الله ﷺ، وما ضاق عنه المجال مما لم نسقه من مختلف تصانيف الحديث

لا يظن القارئ أن الإسلام يدعو إلى الذلة والمسكنة، والسكوت عن الحق، بل الواجب على الرعية النصح للراعي بشتى أنواع النصح، حتى يرجع عن غيه، ما غوى: قال الإمام مسلم رحمه الله تعالى:

باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان

عن عبد الله بن مسعود، أن رسول الله ﷺ قال: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره؛ ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن؛ وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". انتهى من صحيح مسلم

عن جابر رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: "سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله". رواه الحاكم في المستدرك

وفي رواية أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: "ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته، ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة، ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه، ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر".

عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ قال: "خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه يمنعكم الفقر والحاجة. ألا إن رحى بني مرح قد دارت، وقد قتل بنو مرح، ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون أمراء يقضون لكم، فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم، قال: يا رسول الله، فكيف نصنع؟ قال: "كما صنع أصحاب عيسى بن مريم، نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية الله عز وجل". رواه الطبراني في الصغير

فإما أن يواجه الحاكم بالنصيحة، سواء من الفرد أو الجماعة، وإما بما هو من قبيلها، من احتجاج وتظاهر سلمي ومرابطة وغيرها، مما يجري مجراها، ولا يخفى على أحد، أن كثيرا من الأمم والشعوب، احتجت على حكام تقاعسوا عن حقوق رعاياهم، وجاوزوا ميزان العدل في الحكم، فرجعوا وأقاموا الحق، وقعدوا عنده

ولكن الإسلام، لا يدعو إلى مقاتلة الحاكم ما لم يبح بكفر، وفي أحاديث ما أقام الصلاة

لأن مقاتلة الحكام، من شأنها إثارة الفتنة في الشعوب، مما يفسح المجال للمتربصين بها، من أعداء الإسلام، للنيل منها وتقويض صرح عزها، وكسر شموخها

بل إن الساكت عن الحق، يحاسبه الله تعالى بسكوته، ما قدر على ما هو أفضل من السكوت:

عن أبي بكر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، ومن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". رواه مسلم

تحريم قتال المسلم للمسلم

عن ابن عمر أنه سمع النبي ﷺ يقول: "لا ترجعوا بعدي كفارا، يضرب بعضكم رقاب بعض". رواه البخاري

جاء في صحيح مسلم: عن الأحنف بن قيس قال: خرجت وأنا أريد هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة، فقال: أين تريد يا أحنف؟ قال: قلت: أريد نصر ابن عم رسول الله ﷺ، يعني عليا، قال: فقال لي: يا أحنف، ارجع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا تواجه المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار"، قال: فقلت، أو قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: "إنه قد أراد قتل صاحبه". رواه مسلم

عن أبي بكرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار". رواه مسلم

عن أبي بكرة، عن النبي ﷺ قال: "إذا المسلمان حمل أحدهما على أخيه السلاح، فهما على جرف جهنم، فإذا قتل أحدهما صاحبه دخلاها جميعا". رواه مسلم

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يحل دم امرئ مسلم، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح

خروج سيد قطب عن الكتاب والسنة بحكمه على المجتمعات الحالية بالجاهلية

يقول سيد قطب: والأصول المقررة للاجتهاد والاستنباط، مقررة ومعروفة وليست غامضة ولا مائعة. فليس لأحد أن يقول لشرع لم يشرعه الله: هذا شرع الله، إلا أن تكون الحاكمية لله معلنة، وأن يكون مصدر السلطات هو الله سبحانه، لا "الشعب"، ولا "الحزب"، ولا أي من البشر، وأن يرجع إلى كتاب الله وسنة رسوله لمعرفة ما يريده الله، ولا يكون هذا لكل من يريد أن يدعي سلطانا باسم الله. كذلك الذي عرفته أوربا ذات يوم باسم "الثيوقراطية"، أو"الحكم المقدس"، فليس شيء من هذا في الإسلام، وما يملك أحد أن ينطق باسم الله إلا رسوله ﷺ، وإنما هناك نصوص معينة هي التي تحدد ما شرع الله. انتهى[239]

ولعل سيد قطب في كلامه هذا، يقر بإرجاع الحاكمية والتشريع لله تعالى ولرسوله ﷺ، إلا أنه رحمه الله تعالى، خرج عن هذا الإقرار بعد ما أفتى به من حكم على البلاد الإسلامية بالجاهلية، وجواز قتال أهلها؛ وقد كان فيما أوردنا من أحاديث كفاية على أن هذه الفتوى لا أصل لها في أصول الشرع، بل الثابت خلافها، فتمعن في الأمر تجده كما قلنا، والله الموفق للصواب

ثم يقول رحمه الله تعالى: إن الذي يكتب هذا الكلام إنسان عاش يقرأ أربعين سنة كاملة؛ كان عمله الأول فيها هو القراءة والاطلاع في معظم حقول المعرفة الإنسانية.. ما هو من تخصصه وما هو من هواياته.. ثم عاد إلى مصادر عقيدته وتصوره، فإذا هو يجد كل ما قرأه ضئيلا ضئيلا إلى جانب ذلك الرصيد الضخم، وما كان يمكن أن يكون إلا كذلك، وما هو بنادم على ما قضى فيه أربعين سنة من عمره، فإنما عرف الجاهلية على حقيقتها، وعلى انحرافها، وعلى ضآلتها وعلى قزامتها... وعلى جعجعتها وانتفاشها، وعلى غرورها وأدائها كذلك؛ وعلم علم اليقين، أنه لا يمكن أن يجمع المسلم بين هذين المصدرين في التلقي.

ومع ذلك، فليس الذي سبق في هذه الفقرة رأيا لي أبديه.. إن الأمر أكبر من أن يفتى فيه بالرأي.. إنه أثقل في ميزان الله من أن يعتمد المسلم فيه على رأيه، إنما هو قول الله سبحانه، وقول نبيه ﷺ، نحكمه في هذا الشأن، ونرجع فيه إلى الله والرسول، كما يرجع الذين آمنوا إلى الله والرسول فيما يختلفون فيه. انتهى[240]

قلت: لا ننازع في مكانة سيد قطب في قلوب المسلمين، ولا ننكر عبقريته، وما أسداه للإسلام والمسلمين بما بلغ وجاهد وألف، بل نحسبه مفكرا إسلاميا فذا، وداعية عظيما، نادرا ما يجود الزمان بمثله؛ فجزاه الله عن أمة الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء، وكتبه في الشهداء الأبرار، وأسكنه منزلة علية مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين.

---

[239] معالم في الطريق

[240] المرجع نفسه

إلا أن سيد قطب، وهو يضع قواعد منهج الدعوة إلى الله تعالى في كتبه، قد اجتهد، فأصاب وأخطأ كأي مجتهد غيره

فربما شح زاده رحمه الله تعالى، في علم الفقه والحديث والأصول، و لم يتسن له الوقت للاغتراف من مظان العلوم الغزيرة التي يشترط في المفتي أن يضطلع بها

ثم إن سيد قطب، قد خرج مثل كثير غيره عن منهج الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين، التي ينتسب إليها سيد قطب نفسه، ذلك المنهج الذي لا يدعو إلى ما دعا إليه

والذي يجهله كثير من الدعاة، منهم من ينتمي لهذه الجماعة نفسها، أن طريق حسن البنا رحمه الله تعالى، لم تكن تأمر بقتال المسلمين، بل قاتلت الصهاينة كما هو معروف

إن الرجل كان على هدى من الله تعالى، عالما ذاكرا حكيما مخلصا، ومجاهدا لا يخشى في الله لومة لائم، وقد اقتضت المناسبة أن نبقى، ولو قليلا، مع هذه الشخصية الفريدة الذي أعتبره مجدد قرنه بغير منازع

علاقته رحمه الله تعالى بالإخوان الحصافية

يقول رحمه الله تعالى في كتابه: مذكرات الدعوة والداعية: وفي المسجد الصغير، رأيت "الإخوان الحصافية" يذكرون الله تعالى عقب صلاة العشاء من كل ليلة، وكنت مواظبا على حضور درس الشيخ زهران رحمه الله بين المغرب والعشاء، فاجتذبني حلقة الذكر بأصواتها المنسقة ونشيدها الجميل وروحانيتها الفياضة، وسماحة هؤلاء الذاكرين من شيوخ فضلاء وشباب صالحين، وتواضعهم لهؤلاء الصبية الصغار الذين اقتحموا عليهم مجلسهم ليشاركوهم ذكر الله تبارك وتعالى، فواظبت عليها هي الأخرى؛ وتوطدت الصلات بيني وبين شباب هؤلاء الإخوان الحصافية. انتهى[241]

قال: أخذ اسم الشيخ الحصافي يتردد على الأذن، فيكون له أجل وقع في أعماق القلب، وأخذ الشوق والحنين إلى رؤية الشيخ والجلوس إليه، والأخذ عنه يتجدد حينا بعد حين، وأخذت أواظب على الوظيفة الروحية صباحا ومساء، وزادني بها إعجابا، أن الوالد قد وضع عليها تعليقا لطيفا، جاء فيه بأدلة صيغها جميعا تقريبا من الأحاديث الصحيحة، وسمى هذه الرسالة: "تنوير الأفئدة الزكية بأدلة أذكار الرزوقية"، و لم تكن هذه الوظيفة أكثر من آيات من الكتاب الكريم، وأحاديث من أدعية الصباح والمساء التي وردت في كتب السنة تقريبا، ليس فيها شيء من الألفاظ الأعجمية أو التراكيب الفلسفية، أو العبارات التي هي إلى الشطحات أقرب منها إلى الدعوات. انتهى[242]

لقاؤه رحمه الله تعالى بشيخ الطريقة الحصافية

يقول رحمه الله تعالى: وظللت معلق القلب بالشيخ رحمه الله، حتى التحقت بمدرسة المعلمين الأولية بدمنهور، وفيها مدفن الشيخ وضريحه وقواعد مسجده الذي لم يكن ثم حينذاك، وثم بعد ذلك، فكنت مواظبا على الحضرة في مسجد التوبة في كل ليلة، وسألت عن مقدم الإخوان، فعرفت أنه الرجل الصالح التقي الشيخ بسيوني، العبد التاجر، فرجوته أن يأذن لي بأخذ العهد عليه ففعل، ووعدني بأنه سيقدمني للسيد عبد الوهاب عند حضوره، و لم أكن إلى هذا الوقت قد بايعت أحدا في الطريق بيعة رسمية، وإنما كنت محبا وفق اصطلاحهم. وحضر السيد عبد الوهاب نفع الله به إلى دمنهور، وأخطرني الإخوان بذلك، فكنت شديد الفرح بهذا النبأ، وذهبت إلى الوالد الشيخ بسيوني، ورجوته أن يقدمني للشيخ ففعل، وكان ذلك عقب صلاة العصر من يوم: 4

[241] مذكرات الدعوة والداعية

[242] المرجع نفسه

رمضان، سنة: 1341 الهجرية، وإذا لم تخني الذاكرة، فقد كان يوافق يوم الأحد، حيث تلقيت الحصافية الشاذلية عنه، وأدبني بأدوارها ووظائفها. انتهى[243]

قال رحمه الله تعالى: واستمرت صلتنا على أحسن حال بشيخنا السيد عبد الوهاب، حتى أنشئت جمعيات الإخوان المسلمين وانتشرت، وكان له فيها رأي ولنا فيها رأي، وانحاز كل إلى رأيه، ولا زلنا نحفظ للسيد جزاه الله عنا خيرا، أجل ما يحفظ مريد محب مخلص لشيخ عالم عامل تقي، نصح فأخلص النصيحة، وأرشد فأحسن الإرشاد. انتهى[244]

نزلت دمنهور مشبعا بالفكرة الحصافية، ودمنهور، مقر ضريح الشيخ السيد حسنين الحصافي، شيخ الطريقة الأول، وفيها نخبة صالحة من الأتباع الكبار للشيخ، فكان طبيعيا أن أندمج في هذا الوسط، وأن أستغرق في هذا الاتجاه. انتهى[245]

قال: فقد كانت الصداقة بيني وبين الأخ أحمد أفندي السكري، قد توثقت أواصرها، إلى درجة أن أحدنا ما كان يصبر أن يغيب عن الآخر هذه الفترة أسبوعا كاملا دون لقاء، يضاف إلى ذلك، أن ليلة الجمعة في مترل الشيخ "شلبي الرجال" بعد الحضرة، يتدارس فيها كتب التصوف من "الإحياء"، وسماع أحوال الأولياء، والياقوت والجواهر وغيرها، ونذكر الله إلى الصباح، كانت من أقدس مناهج حياتنا، وكنت قد تقدمت في صناعة الساعات وفي صناعة التجليد أيضا، أقضي فترة النهار في الدكان صانعا، وفترة الليل مع الإخوان الحصافية ذاكرا، ولهذه المآرب جميعا، لم أكن أستطيع أن أتخلف عن الحضور يوم الخميس، إلا لضرورة قاهرة، وكنت أنزل من قطار الدلتا إلى الدكان مباشرة، فأزاول عملي في الساعات إلى قبيل المغرب، حيث أذهب إلى المترل لأفطر، إذ كان من عاداتنا صوم الخميس والإثنين، ثم إلى المسجد الصغير بعد ذلك للدرس والحضرة، ثم إلى مترل الشيخ "شلبي الرجال"، أو مترل أحمد أفندي السكري للمدارسة والذكر، ثم إلى المسجد لصلاة الفجر، وبعد ذلك، استراحة يعقبها الذهاب إلى الدكان وصلاة الجمعة والغذاء، والدكان إلى المغرب، فالمسجد، فالمترل، وفي الصباح إلى المدرسة؛ وهكذا دواليك في ترتيب، لا أذكر أنه تخلف أسبوعا إلا لضرورة طارئة. انتهى[246]

---

[243] المرجع نفسه

[244] المرجع نفسه

[245] المرجع نفسه

[246] المرجع نفسه

قلت وحسبنا شاهدا على صوفية الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى، كتابه المأثورات، الذي رتب فيه أوراد الصباح والمساء فيما أسماه بالوظيفة، والتزم به أفراد جماعة الإخوان المسلمون، وردا يوميا يتعاهدونه بالتلاوة ويحافظون عليه

تصويب الفهم الخاطئ لبعض مصطلحات الدين ومفاهيمه

قال أبو الفتح الجعفي غفر الله تعالى له: وإذا كانت أفكار سيد قطب وغيره ممن شرعوا تكفير المسلمين، وأوجبوا قتالهم، إذا كان ذلك يشكل سببا رئيسيا في تأجيج أوار الفتنة والتكفير والتقتيل إلى يومنا هذا، فإن هناك أسبابا أخر، تتعلق بالفهم الخاطئ لبعض مصطلحات الدين ومفاهيمه، مما يأوله كثير من الأدعياء حسب هواهم دون علم، حتى يستدلوا لمناهجهم الخاطئة من الدين، ويقنعوا كثيرا من شبابنا بما ذهبوا إليه من تيه وضلال

ومن هذه المصطلحات:

الأول: عدم التمييز بين معنى لفظ الكفر العقائدي ومعناه العملي

وقد فطن المفسرون العارفون بالوجوه والنظائر في كتاب الله تعالى، وكذا علماء الحديث، إلى الألفاظ المشتركة في اللغة، والألفاظ المتواطئة، وميزوا بعضها عن بعض، لأن سوء فهم هذه الألفاظ، يترتب عنه أحكام ومواقف خاطئة، قد تؤدي إلى إيذاء النفس، بل إلى إيذاء الناس ونعتهم بما ليسوا عليه، من تكفير واستحقاق التقتيل؛ بل إن ذلك يؤدي إلى زرع بذور الشقاق والفتنة بين المسلمين جميعا

فبينوا، رحمهم الله تعالى، أن لفظ الكفر، جاء في القرآن الكريم والسنة المشرفة بمعان شتى

والكفر منه اعتقادي يخرج عن الملة، ومنه عملي لا يخرج عن الملة

ومنهم من قسمه إلى: كفر ناقل عن الملة وكفر دون كفر، وكفر النعمة وكفر الجحود

ولعل تكفير الناس، رغم توحيدهم، ورغم صلواتهم وصيامهم، ابتدأ بقوة مع الخوارج، الذين كفروا مرتكب الكبيرة وخلدوه في النار، وخالفوا بذلك النصوص القرآنية مخالفة فاضحة

إيماننا يزيد بالطاعات ونقصه يكون بالزلات
وأهله فيه على تفاضل هل أنت كالأملاك أو كالرسل
والفاسق الملي ذو العصيان لم ينف عنه مطلق الإيمان
لكن بقدر الفسق والمعاصي إيمانه ما زال في انتقاص
ولا نقول إنه في النار مخلد بل أمره للباري
تحت مشيئة الإله النافذه إن شا عفا عنه وإن شا آخذه
بقدر ذنبه وإلى الجنان إن مات على الإيمان
والعرض تيسير الحساب في النبا ومن يناقش الحساب عذبا
ولا نكفر بالمعاصي مؤمنا إلا مع استحلاله لما جنى
وتقبل التوبة قبل الغرغره كما أتي في الشرعة المطهره
أما متى تغلق عن طالبها فبطلوع الشمس من مغربها. انتهى[247]

يقول الله تعالى: "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعا، إنه هو الغفور الرحيم".[248]

وقال أيضا: "إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء".[249]

وقد نهى القرآن الكريم والسنة النبوية عن تكفير المسلمين بغير حق:

قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مومنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم، فتبينوا، إن الله كان بما تعملون خبيرا".[250]

"والذين يوذون المومنين والمومنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا".[251]

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر". رواه البخاري

عن أبي ذر رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقول: "لا يرمي رجل رجلا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك". رواه البخاري في صحيحه

---

[247] معارج القبول بشرح سلم الوصول

[248] الزمر50

[249] النساء115

[250] النساء93

[251] الأحزاب58

عن أبي قلابة أن ثابت بن الضحاك، وكان من أصحاب الشجرة، حدثه أن رسول الله ﷺ قال: "من حلف على ملة غير الإسلام فهو كما قال، وليس على ابن آدم نذر فيما لا يملك، ومن قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة، ومن لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقتله". رواه البخاري في صحيحه

بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم يا كافر

حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: "أيما رجل قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما".

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل. انتهى من اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي

وفي صحيح مسلم: باب بيان حال إيمان من رغب عن أبيه وهو يعلم

عن أبي ذر؛ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ليس من رجل ادعي لغير أبيه وهو يعلمه، إلا كفر؛ ومن ادعى ما ليس له فليس منا، وليتبوأ مقعده من النار؛ ومن دعا رجلا بالكفر، أو قال: عدو الله، وليس كذلك، إلا حار عليه". رواه مسلم

موقف أهل السنة من غلو الخوارج

يقول الشيخ محمد حامد الناصري: إن القول بتخليد أهل الكبائر في النار، لم يوافق أهل السنة قائليه من الخوارج والمعتزلة، لأن هذا القول من بدعهم المشهورة، وقد اتفق الصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين، على أنه لا يخلد في النار أحد ممن في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتفقوا أيضا، على أن نبينا محمدا ﷺ، يشفع فيمن يأذن الله له بالشفاعة فيه من أهل الكبائر من أمته.[252]

فالخوارج، هم أول من كفر المسلمين بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم، ويستحلون دمه وماله، وهذه حال أكثر أهل البدع، يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم فيها.

وأهل السنة يتبعون الكتاب والسنة، ويطيعون الله ورسوله، فيتبعون الحق ويرحمون الخلق.[253]

وجاء في شرح الطحاوية: ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، ولا نشهد عليهم (أهل القبلة) بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله.[254] [255]

---

(252) الإيمان لابن تيمية. كستران

(253) الفتاوى لابن تيمية. كستران

(254) شرح الطحاوية. كستران

[255] بدع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات الإسلامية

الثاني: حمل مفهوم الجماعة على تجمعات ها هنا وهناك في البلاد الإسلامية، في حين أن الجماعة تعني بلاد المسلمين التي لها إمام:

عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه". رواه أبو داود في السنن

وقد اصطلح أهل العلم على إطلاق لفظ الجماعة بمفهومه العام، على الخليفة أو السلطان ومن معه من أهل الحل والعقد، وهو الأغلب عندهم. وأما الجماعة بمفهومها الخاص، فقد أطلقوه على جمهور الصحابة، وعلى أهل العلم وأئمة الهدى والرشاد، وأطلقوا مفهوم الجماعة على كل متمسك بالحق حريص على اقتفاء هدي رسول الله ﷺ

الثالث: عدم إدراك شمولية معنى لفظ الأمة في القرآن الكريم، ولا في حديث سيد المرسلين ﷺ.

وقد ورد لفظ الأمة في القرآن الكريم بمعان مختلفة

والمراد بأمة رسول الله ﷺ كافة العالمين، لقوله تعالى: "وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا".[256]

وفي حديث الشفاعة، يطوف الناس على الأنبياء يوم القيامة ليشفعوا لهم عند ربهم، وينتهون إلى رسول الله ﷺ، فيقبل الله تعالى شفاعته فيهم.[257]

---

[256] سبإ28

[257] عن أنس بن مالك؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك، (وقال ابن عبيد: فيلهمون لذلك)، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا؟ قال: فيأتون آدم ﷺ، فيقولون: أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك؛ اشفع لنا عند ربك، حتى يريحنا من مكاننا هذا. فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها؛ ولكن ائتوا نوحا، أول رسول بعثه الله. قال: فيأتون نوحا ﷺ، فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها؛ ولكن ائتوا إبراهيم ﷺ، الذي اتخذه الله خليلا؛ فيأتون إبراهيم ﷺ، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا موسى ﷺ، الذي كلمه الله وأعطاه التوراة؛ قال: فيأتون موسى عليه السلام، فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحي ربه منها، ولكن ائتوا عيسى، روح الله وكلمته؛ فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدا ﷺ، عبدا قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر". قال: قال رسول الله ﷺ: "فيأتوني، فأستأذن على ربي فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدا، فيدعني ما شاء الله. فيقال: يا محمد، ارفع رأسك، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه ربي، ثم أشفع؛ فيحد لي حدا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة؛ ثم أعود فأقع ساجدا، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع؛ فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمنيه، ثم أشفع، فيحد لي حدا فأخرجهم

قال تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا، لتكونوا شهداء على الناس".[258] والوسط هو العدل والأخير والأفضل.

قال تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر".[259]

"ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر".[260]

وقد تنبأ عليه الصلاة والسلام بافتراق أمته إلى ملل:

عن معاوية بن أبي سفيان أنه قام فينا فقال: ألا إن رسول الله ﷺ قام فينا فقال: "ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين: ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة". زاد ابن يحي وعمرو في حديثهما: "وإنه سيخرج من أمتي أقوام تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب لصاحبه"، وقال عمرو: "الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله". رواه أبو داود في السنن[261]

وقد جهدت الجماعات الإسلامية في أن تجعل كل جماعة نفسها الناجية، وباقي الجماعات في النار، وهو جهل فاحش، وفهم شنيع لمعنى الحديث، تمخض عنه صراع وعداء بين المسلمين، إذ فهموا من لفظ الأمة، أنه يعني المسلمين دون غيرهم، فحكموا على إخوانهم بالكفر وسوء المصير؛ في حين، أن افتراق الأمة إلى ملل، يقتضي جعل المسلمين كافة ملة واحدا، وباقي الملل هي تلك التي لا توحد الله تعالى وتشرك به جهارا

قال تعالى: "فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا، كل حزب بما لديهم فرحون".[262]

وقال سبحانه: "أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون".[263]

من النار، وأدخلهم الجنة. (قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال:) "فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود". (قال ابن عبيد في روايته: قال قتادة: أي وجب عليه الخلود). انتهى من صحيح البخاري

[258] البقرة142

[259] آل عمران110

[260] آل عمران104

[261] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين، أو اثنتين وسبعين فرقة؛ والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح

[262] المومنون54

[263] المجادلة21

وإن شئت: فكل جماعات الموحدين، تعتبر جماعة واحدة، وهي الفرقة الناجية، وهي جماعة المسلمين كافة؛ في حين أن الجماعات التي ابتغت غير الإسلام دينا، واتخذت منهجا لا يدين بوحدانية الواحد الأحد، هي الفرق الكافرة التي في النار

وأخوف ما أخاف على أمة المسلمين، أن يكون ما هم فيه من تفرق في الدين، وتحزبهم شيعا يذيق بعضهم بأس بعض، ويقاتل بعضهم بعضا، أخوف ما أخاف، أن يكون ذلك عقابا من الباري عز وجل وسخطا، والعياذ بالله

ألم يقل سبحانه: "قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض، انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون".[264]

مع العلم، أن رسول الله ﷺ، سأل ربه سبحانه أن لا يسلط على أمته مثل ما سلط على باقي الأمم، فاستجاب له، ولما سأله ألا يذيق بعضها بأس بعض، أبى

عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض؛ وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم؛ وإن ربي قال: يا محمد! إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها"، أو قال: "من بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا". رواه مسلم

زاد أبو داود عن ثوبان عن رسول الله ﷺ: "وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان؛ وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق". قال ابن عيسى: "ظاهرين" ثم اتفقا "لايضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى". رواه أبو داود

عن سعد بن أبي وقاص قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ، حتى مررنا على مسجد بني معاوية، فدخل فصلى ركعتين وصلينا معه، وناجى ربه عز وجل طويلا؛ قال: "سألت ربي عز وجل ثلاثا: سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالسنة، فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها". رواه أحمد

---

[264] الأنعام66

فتدبروا يا أمة رسول الله، هذا نبيكم الكريم قد ضمن لكم ألا يفنيكم غيركم، مهما اجتمعوا لكم، ومهما كان عتادهم وعدهم، وإنما الخوف عليكم من أنفسكم، فقوا أنفسكم من أنفسكم، وكفوا أنفسكم عن أنفسكم "ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، واصبروا، إن الله مع الصابرين". [265]

أيها المسلمون، كلكم على هدى من الله تعالى، كلكم ملة واحدة، فتآخوا يرحمكم الله، وتوادوا، فلا داعي لأن تفرقوا أنفسكم وقد جمعكم الله في ملة واحدة، يا ملة الإسلام.. يا حزب الله

وقد نال هذا البلد الأمين، وأعني مغربنا الحبيب، ما نال غيره من عمليات الإرهاب الشنيعة، هذا الإرهاب الذي كان أساسه التطرف الديني القائم على الفهم الخاطئ لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ففي ليلة السادس عشر من شهر مايو سنة ألفين وثلاثة ميلادية، شهدت الدار البيضاء العاصمة الاقتصادية للمغرب، تفجيرات انتحارية، طالت بعض المرافق الاجتماعية، منها فندق ومقهى ومطعم، بالإضافة إلى مقر الرابطة اليهودية؛ وقد جند الإرهابيون من الأحياء المهمشة، واستغل من جندهم جهلهم ومعاناهم من شظف العيش

ومن هنا ننبه بعض المفتين في الناس بالتكفير والقتل، وندعوهم إلى أن يتقوا الله ربهم فيما يفتون، فإن هؤلاء المتشددين، ما هم إلا صنعاء رؤوس جهال أفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، وسيحملون أوزارهم يوم القيامة

أدت هذه العمليات الانتحارية إلى موت ضحايا من رجال الأمن والمواطنين الأبرياء. وقد هالنا هذا الأمر ورثينا لهؤلاء المتشددين، الذين جنى عليهم من أفتاهم بأن تقتيل المسلمين يعتبر جهادا في سبيل الله تعالى، ورثينا في الوقت ذاته للضحايا الأبرياء، من الناس والإرهابيين، على حد سواء، وجادت قريحتنا بشعر نروح به عن لوعتنا، ونعبر عن مكنوناتنا، وهو كالتالي:

[265] الأنفال47

رعب في البيضاء

ليلة سوداء عتا فيها القدر!

على طفلة هيفاء

تطاير على خدها الشرر!

اسمها البيضاء

أحلى طفلاتي...

تحب الحمام وأغصان الزيتون

مسودة الخصلات

ترقد في سكون

لما فجروا في روعها ما فجروا

أولئك الغرباء!

عن بغضهم عبروا

ضحايا الغباء!

كيف فجروا؟!

نظروا وما أبصروا

غير الحراب

غير الخراب

غير الشهاب

غير الشرر؟!

يا قومي ما الخبر؟

أي جرم جنته صبيه؟!

أبهى من القمر

حتى تلقى البليه

هزة صماء قويه

أفزعت كل البشر!

دعوني ومن قتلوا الأبرياء
يتموا أطفالا وأطفالا
أبكوا ثكالى النساء
أقول: لا لا
لستم شهداء!

هذه أشلاء قومي في شتات
هنا وهناك
آنفا فتاتي
أجهشت في البكاء

تبكي الصبية أباها الحنون
حرقوه في اللهب
تسأل في جنون
يا ترى ما السبب!

يقطع أكبادي القتل في أولادي
يخنقني عويل الأيتام
يشجي سربا للحمام
بكى ثم انسحب!

ألا أيها العادي ما دهاك؟!
أي ذنب جنته بلادي
حتى تلقى أذاك؟
أي جرم
جناه أولادي
كي يقتلوا هناك؟!

ألأنها آوتك وأنت جنين؟!

أرضعتك

أطعمتك

رعتك

منذ سنين!

ألأنهم يبحثون كالرجال

عن جرعة ماء؟!

تحت هذي السماء

عن كسرة

عن كسوة

للعيال

من كسب حلال؟!

كفكفي يا بيضاء من الدموع..!

بكاؤك حبيبتي

أذكى لهيبا

في الضلوع!

طواني طي كتاب

تحت التراب

أسعدني وأشقاني

أضحكني وأبكاني

لما اكتويت

لما اشتكيت

لما أوقدوا في مهدك

الحطب..[266]

[266] ديوان: لأويس هذه المزامير للمؤلف

غمض عينيك يا الناظر النظر عمى فى البصاير
اتبع خبير بالسراير لا تسال على مصاير

يقول: أغمض عينيك أيها الناظر، فالنظر بالنسبة للبصر هو مجرد عمى، اتبع شيخا خبيرا بالسرائر وما يصلحها، ومتى اتبعته لا تكثر من فضول السؤال، ولا تسأل عن عواقب الأمور ومصائرها

والمعنى: قال الله عز وجل: "وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون".[267]

وقال كذلك: "فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون".[268]

قال في الحكم: النور له الكشف، و البصيرة لها الحكم، و القلب له الإقبال والإدبار. انتهى[269]

قال أبو الفتح الجعفي: النظر غير البصر، والبصر غير البصيرة

فقد صور الباري عز وجل العين وزودها بخاصية النظر، لتنظر ما يظهر لها من مشاهد وحوادث؛ والنظر لا يخلو من عاقل من الثقلين، بل حتى من السباع والطيور والهوام والبهائم والأنعام

ثم خص الله تعالى المومنين الذين أزال عنهم غشاوة الشقاوة بالبصر، فهم يبصرون الأمور على حقائقها، لا يغشاها لبس ولا تمويه

ثم ياتي أهل البصائر، وهم أصحاب الفراسة والكشف على هدى من الله تعالى

يبصرون ما لا يبصره غيرهم، سواء من مغيبات الملكوت، أو من صواب الرأي وحسن التدبير، ومن رقائق الحكمة ولطائفها

وقد يفهمون من القرآن ما لا يفهم بالنظر إلى معنى لفظه ووضع إعرابه، ما لا يفهمه غيرهم، ويدركون مقاصد الشرع من أحكامه، ما لا يدركه جهابذة العلماء والفقهاء المجتهدون

كما أن العمى ألوان: فلا يراد بالعمى: عجز الناظر عن رؤية ما يرى، وإنما العمى عمى القلوب، قال تعالى: "فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور".[270]

فيا من يعتمد على النظر، سواء في رؤية المشاهد، أو في استنباط الرأي، اعلم رحمك الله تعالى، أن هذا الأمر لا يدرك إلا بالبصيرة، ولا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله تعالى

---

[267] الأعراف198

[268] الواقعة86-88

[269] الحكم العطائية

[270] الحج44

فإذا كنت تبحث عن الحقيقة باستعمال العقل، فاعلم أن الحقيقة غائبة، وإنما الحق الله.

إن مفاهيم الأمور، أيها الحي الفاني، تشابهت بأضدادها: فهذا الماء نعمة جعل منه الله تعالى كل شيء حي، ولكنه نقمة، قد تكون طوفانا أو سيولا تجر العاقل والبكماء

وهذه النار، تنفع الناس بحرارتها، ولكنها تحرق الأخضر واليابس

أما المال، فقد يحسن صاحبه بإنفاقه في وجوه الخير، فيدخل الجنة، وقد يكون سبب غروره وبطره وفسوقه، فيدخل النار

ألا ترى إلى حضارة الناس، رغم بلوغها ما لم تبلغه من قبل، ألا ترى ما جرت عليهم من متاهات وآفات؟

واعلم أخي، أن ليس في الدنيا ما لا يمل منه المرء، غير ذكر الله تعالى، والعلم والتعلم

عن أبي هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب

إلى تبغي تفهم احكامي   بالجهل ما شي بالفهامي

علمك زاد فى خصامي   انساه واحفظ كلامي

يقول: إذا تبعتني، وأردت فهم حكمي وأحكامي، فانس ما تعلمته وحصلته من قبل، واعتبر نفسك جاهلا، فإن علمك الذي تعلمته زاد في خصامي معك، بسبب شدة اعتراضك وكثرة جدالك ومرائك، فانس هذا العلم، واحفظ ما أقول من كلام

والمعنى: يقول العارف بالله تعالى، الشيخ ابن البنا السرقسطي:

فالعلم ما يلفى إليه حد   بل ظاهر يخفى، وخاف يبدو

والعلم لو كانت له نهاية   يوقف عند حدها أو غاية

من كان أذكى مرسل وأسمى   قيل له: قل رب زدني علما

فعش بما لديك ما حييت   وجنب التعنيف والتعنيت

والكل قد يعجبه الكلام   فالزم هدي نفسك والسلام.[271]

وقال أبو مدين التلمساني، في أبيات أتبعها محيي الدين بن عربي الحاتمي بتخميس مناسب:

اسلك طريقهموا إن كنت تابعهم   واترك دعاويك واحذر أن تراجعهم

[271] المباحث الأصلية

فيما يريدونه واقصد منافعهم واستغنم الوقت واحضر دائما معهم

واعلم بأن الرضا يختص من حضرا

وأتبعه الحاتمي بقوله:

كن راضيا همموا تسم بهم وتصل إن أثبتوك أقم أو إن محوك فزل

وإن أجاعوك جع وإن أطعموك فكل ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل:

لا علم عندي، وكن بالجهل مستترا[272]

قال أبو الفتح: وقد أردفته بتخميس آخر يناسب ما نحن فيه:

لا تستخف وافهم بالجهل قولهمو واهجر علوما واطلب فهم ما علمو

فالعلم قد يقصي فاجهل بقربهمو والفهم يدني فافهم مثلما فهمو

لا تعترض أبدا في مجلس الأمرا

وقد تبع علماء أجلاء، مشايخ أميين وسلموا لهم، ولم يعترضوا على شيء مما قالوه أو فعلوه، بل لم يروا لأنفسهم على مشايخهم فضلا أن علموا من الظاهر أحكامه، ودرسوا أموره وأقضيته، بل كانوا يعرفون أن العلم معرفة الباري عز وجل، وكانوا يدركون أن مشايخهم قد سلكوا قبلهم، ومن شأنهم أن يدلوهم على الله تعالى. ومنهم أبو مدين التلمساني[273] العالم النحرير، مع شيخه أبي يعزى، الذي لا يقرأ ولا يكتب:

---

[272] عنوان التوفيق في آداب الطريق

[273] ومنهم أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري

أصله من حصن قطنيانة من عمل إشبيلية، ثم نزل ببجاية، وأقام بها إلى أن أمر بإشخاصه إلى حضرة مراكش، فمات وهو متوجه إليها، بموضع يسر، عام أربعة وتسعين وخمسمائة، وقيل: عام ثمانية وثمانين، ودفن بالعباد خارج تلمسان. وذكره الشيخ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري فقال: كان زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، قد خاض من الأحوال بحارا، ونال من المعارف أسرارا، وخصوصا مقام التوكل، لا يشق فيه غباره، ولا تجهل آثاره؛ وكان مبسوطا بالعلم مقبوضا بالمراقبة، كثير الالتفات بقلبه إلى الله تعالى، حتى ختم الله له بذلك. ولقد أخبرني من أثق به ممن شهد وفاته، أنه قال: رأيته عند آخر الزمن يقول: الله الحق

حدثني محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري قال: سمعت أبا مدين يحدث ببدء أمره ويقول: كنت بالأندلس يتيما، فجعلني إخوتي راعيا لهم لمواشيهم، فإذا رأيت من يصلي أو من يقرأ، أعجبني ودنوت منه، وأجد في نفسي غما لأنني لا أحفظ شيئا من القرآن، ولا أعرف كيف أصلي؛ فقويت عزيمتي على الفرار لأتعلم القراءة والصلاة، ففررت فلحقني أخي وبيده حربة، فقال لي: والله لئن لم ترجع لأقتلنك، فرجعت وأقمت قليلا، ثم قويت عزيمتي على الفرار ليلا، فأسريت ليلة وأخذت في طريق آخر، فأدركني أخي بعد طلوع الفجر، فسل سيفه علي وقال لي: والله لأقتلنك وأستريح منك، فعلاني بسيفه ليضربني، فتلقيته بعود كان بيدي، فانكسر سيفه وتطاير قطعا، فلما رأى ذلك قال لي: يا أخي، اذهب حيث شئت. فذهبت إلى البحر وعبرت إلى طنجة، ثم ذهبت إلى سبتة، فكنت أجيرا للصيادين؛ ثم ذهبت إلى مراكش، فدخلتها وأدخلني الأندلس معهم في جملة الأجناد، فكانوا يأكلون

حدثني محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري، قال: سمعت أبا مدين يحدث ببدء أمره ويقول: ... ثم سمعت الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزى، فذهبت إليه في جماعة، توجهت لزيارته؛ فلما وصلنا جبل إيروجان ودخلنا على أبي يعزى، أقبل على القوم دوني، فلما أحضر الطعام، منعني من الأكل، فقعدت في ركن الدار، فكلما أحضر الطعام وقمت إليه، انتهرني؛ فأقمت على تلك الحالة ثلاثة أيام، وقد أجهدني الجوع ونالني الذل؛ فلما انقضت ثلاثة أيام، قام أبو يعزى من مكانه، فأتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهي فيه، فلما رفعت رأسي نظرت، فلم أر شيئا، وصرت أعمى، فبقيت أبكي طول ليلتي

قليل لمثلي زفرة ونحيب وليس له إلا الحبيب طبيب

وأمثل ما يلقى المحب خضوعه إذا كان من يدعوه ليس يجيب.[274]

فلما أصبحت استدعاني وقال لي: اقرب يا أندلسي، فدنوت منه، فمسح بيده عل عيني، فأبصرت، ثم مسح بيده على صدري وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم، أو قال كلاما هذا معناه؛ فأذن لي في الإنصراف. انتهى[275]

عطائي ولا يعطونني منه إلا اليسير، فقيل لي: إن رأيت أن تتفرغ لدينك، فعليك بمدينة فاس، فتوجهت إليها ولزمت جامعها وتعلمت الوضوء والصلاة، وكنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمذكرين، فلا أثبت على شيء من كلامهم، إلى أن جلست إلى شيخ ثبت كلامه في قلبي، فسألت من هو، فقيل لي: أبو الحسن بن حرزهم، فأخبرته أني لا أحفظ إلا ما سمعته منه خاصة، فقال لي: هؤلاء يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان، وقصدت الله بكلامي، فيخرج من القلب ويدخل القلب. ثم سمعت الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزى، فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته. انتهى

حدثني محمد بن خالص قال: حدثني أبو الربيع المديوني قال: وصل رجل من أهل المكاشفة إلى تلامذة أبي مدين، فأنكر عليهم بعض أمورهم، فأعلموا أبا مدين، فقال لهم: سيسلب ما وهب، فسلب المكاشفة بتغيير قلب الشيخ، فكان كأحد العامة

قف بالديار فهذه آثارهم تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بربعها مستخبرا عن أهلها أو سائلا أو مشفقا

فأجابني داعي الهوى لي مسرعا فارقت من تهوى فعز الملتقى.[273]

حدثني محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري قال: حدثني عبد الله بن ماكسن الصنهاجي قال: جاء رجل إلى الشيخ أبي مدين ليعترض عليه، فأراد القارئ أن يقرأ عليه الكتاب، فسكته أبو مدين وقال له: اسكت، ثم التفت إلى الرجل، وقال: لم جئت؟ فقال له الرجل: جئت لأقتبس من أنوارك. فقال له: ما الذي في كمك؟ فقال له: مصحف، فقال له أبو مدين: أخرجه، فأخرجه من كمه، فقال له: اقرأ أول سطر، ففتحه وقرأ أول سطر منه، فإذا فيه: "**الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين**". الأعراف91، فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا. انتهى من التشوف إلى رجال التصوف

[274] من الطويل

[275] التشوف إلى رجال التصوف

ومن الذين اعتزوا بعلمهم وحقروا ما عليه العارفون، حتى تبين لهم الحق: العارف بالله ابن عطاء الله السكندري، رحمه الله تعالى، قال: كنت لأمره (أي لأمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، ولكن، جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه، فقلت فيهم قولا عظيما، ثم قلت فى نفسى: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه، فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به وقربهم منه، فقال: الأول: إسلام، وهو درجة الانقياد والطاعة، والقيام بمراسيم الشريعة. وثانيها: الإيمان، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية. وثالثهما: الإحسان، وهو مقام شهود الحق تعالى فى القلب

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة

وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثانى: حقيقة، والثالث: تحقق

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلي وسلب لبي؛ فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي.

ثم أتيت تلك الليلة إلى المترل، فلم أجد في شيئا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتي، ووجدت معنى غريبا لا أدري ما هو، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل؛ فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائما، وتلقاني ببشاشة وإقبال، حتى دهشت خجلا، واستصغرت نفسي أن أكون أهلا لذلك. فكان أول ماقلت له: أيا سيدي، أنا والله أحبك. فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية والطاعة والمعصية، فإن كنت فى النعمة، فمقتضى الحق منك الشكر؛ وإن كنت في البلية، فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت فى المعصية، فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، وإن كنت في الطاعة، فمقتضى الحق منك شهود مننه عليك فيها.

فقمت من عنده، وكأنما كانت الهموم ثوبا نزعته، ثم سألني بعد ذلك بمدة: كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهم فلا أجده، فقال:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري

والناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا في المذهبين في علوم الظاهر، وحقائق الباطن. انتهى[276]

[276] لطائف المنن

وهذا عبد الوهاب الشعراني[277] العالم الكبير، يذعن لشيخه الأمي علي الخواص،[278] الذي يأمره بأن يبيع كل كتبه ويتصدق بثمنها، وأن يترك طلب العلم بالمرة لمدة سنة كاملة، ثم يحضر إليه. فيفعل ذلك، ويأخذ عنه الورد، ويأخذ عليه العهد

وهذا سيدي أحمد بن عجيبة رغم إمامته وعلمه يتبع شيخه الأمي أحمد البوزيدي[279]

---

[277] أبو المواهب شرف الدين، سيدنا ومولانا عبد الوهاب بن سيدنا أحمد بن سيدنا شهاب الدين، علي الشعراني الأنصاري الشافعي، المحمدي ذاتا وصفاتا، الشاذلي طريقة وحقيقة، المجاهد الغازي، قطب الطريقة الشعرانية الشاذلية، وعين أعيان أهل الدوائر العلية. انتهى

ولم يزل معظما في صدور الصدور، مبجلا في عيون الأعيان، حتى نقله الله تعالى إلى دار كرامته، عام تسع مئة وثلاثة وسبعين، ودفن بزاويته بين الصورين، وحضر جنازته جمع حافل من العلماء والفقهاء والأمراء والفقراء، وكان يوما مشهودا في مصر، وصلي عليه بالأزهر الشريف. انتهى من طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية

[278] ومنهم شيخي وأستاذي: سيدي علي الخواص البرلسي رضي الله تعالى عنه ورحمه

كان رضي الله عنه أميا لا يكتب ولا يقرأ، وكان رضي الله عنه يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاما نفيسا تحير فيه العلماء، وكان محل كشفه اللوح المحفوظ عن المحو والإثبات، فكان إذا قال قولا، لا بد أن يقع على الصفة التي قال، وكنت أرسل له الناس يشاورونه عن أحوالهم، فما كان قط يحوجهم إلى كلام، بل كان يخبر الشخص بواقعته التي أتى لأجلها قبل أن يتكلم. انتهى

وكانت مدة صحبتي له عشر سنين، فكأنها كانت ساعة، وله كلام نفيس رقمنا غالبه في كتابنا المسمى بالجواهر والدرر، كل جواب منه يعجز عنه فحول العلماء، حتى تعجب من كتب عليه من العلماء، كسيدي الشيخ شهاب الدين الفتوحي الحنبلي رضي الله عنه، وسيدي الشيخ شهاب الدين بن الشلبي الحنفي رضي الله عنه، وسيدي الشيخ ناصر الدين اللقاني المالكي رضي الله عنه، والشيخ شهاب الدين الرملي الشافعي رضي الله عنه، وغيرهم، وقال الشيخ شهاب الدين الفتوحي رضي الله عنه: لي سبعون سنة أخدم العلم، فما أظن قط أنه خطر على بالي، لا السؤال ولا الجواب من هذا الكتاب. يعني الجواهر والدرر. انتهى من الطبقات للشعراني

[279] سيدي محمد بن أحمد البوزيدي، الشريف الحسني السلماني الغماري

ولد بقبيلة بني سلمان الغمارية، وبها نشأ وشب، ولما قرأ القرآن الكريم وأتقنه وجوده، انقطع لعبادة الله تعالى والسياحة سنين طوالا، واستقر مدة بشاطئ بحر سيدي قاسم بن مولانا إدريس، بضواحي طنجة يعبد الله تعالى، ولا تزال خلوته وأثر بنائها بتلك الناحية حتى يومنا هذا، وبها جاءه بعض الصالحين وبقي معه مدة، ثم قال له يوما: إن حاجتك بفاس عند مولاي العربي الدرقاوي؛ فشد الرحلة إليه، فاتصل به وأخذ عنه الطريقة وسلم نفسه إليه ولازم خدمته، وبقي تحت تربيته نحو ستة عشر عاما، ما بين فاس وبني زروال، قائما بمجاهدة نفسه ورياضتها والدؤوب على الاستقامة الكاملة والسلوك التام، إلى أن فتح الله عليه الفتح الأكبر؛ ثم أذن له شيخه في الإرشاد والتربية والرجوع إلى قبيلة بني سلمان، فلبى أمره وانصرف فنزل بقرية بوسلامة، فتصدى للدعوة إلى الله تعالى وتلقين الأوراد للواردين والأخذ بيدهم، فانتفع به وتاب على يده خلق كبير. انتهى

يقول أحمد بن عجيبة[280] في مقدمة شرحه لتائية شيخه: وهي من بحر الطويل غير أنها مكسورة ملحونة، لأن ناظمها أمي في صناعة العربية والميزان، لم يعرف مبتدأ ولا خبرا، ولا فاعلا ولا مفعولا، قال: ماجلست قط مجلس علم، فما عندي إلا علم لدني. انتهى[281]

توفي و دفن ببني سلمان، وكان ذلك في حياة شيخه مولاي العربي، وتأسف عليه، لكنه استخلف بدله شيخا آخر كبيرا عالما متضلعا، ذلك هو سيدي محمد الحراق الآتي. انتهى من المطرب

[280] سيدي أحمد بن عجيبة: هو العلامة الإمام الصوفي العارف المفسر، صاحب الصيت والشهرة في المشارق والمغرب، ذو التآليف الكثيرة والمآثر العديدة، سيدي أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الشريف الحسني. انتهى

فقد ولد بقرية أعجيبش من قبيلة حوز تطوان، وذلك سنة 1160هجرية، أو 1161هجرية، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، وعندما جوده وأتقنه وحفظ عدة متون علمية، التحق لطلب العلم بالقصر الكبير، بعد أن كان قرأ بعض المبادئ أيام قراءته للقرآن العظيم، وبقي بالقصر مدة من سنتين، ثم رحل لتطوان، فتابع دراسته على كبار علمائها، كالعلامة أحمد الرشتي والشيخ عبد الكريم بن قريش والفقيه محمد بن علي الورزازي والعلامة محمد بن الحسن الجنوي العمراني وغيرهم. واجتهد وكشف عن ساق الجد وانقطع للدراسة انقطاعا كليا، حتى حصل ما لم يحصله غيره من العلوم والفنون، من نحو وصرف وبيان ومنطق وكلام وفقه وتفسير وحديث وتصوف وأصول وتنجيم وغيرها؛ ثم رحل لفاس، عاصمة المغرب في العلوم الإسلامية في ذلك الإبان، فتابع دراسته العليا بها، وتبرك برجالها وصلحائها، فحضر على الشيخ التاودي بن سودة، والشيخ محمد بنيس، والشيخ الطيب بن كيران وغيرهم. انتهى

فأمره شيخه برياضة نفسه ومجاهدتها من جديد، وتخريب الظاهر وإسقاط المترلة بين الأقران والمعارف، وإذلال النفس وتهذيبها وقتلها، والقضاء على ما بقي من بقايا أوصافها، ليتسنى له التأهل لمعرفة الله عز وجل والدخول لحضرته

فأمره أولا بلبس المرقعة والزهد في الدنيا، وإخراج كل ما فضل عن قوت يوم أو يومين لأهله، والتصدق به على مستحقيه، فخرج عن ماله وباع كل ما كان يملكه، حتى خزانة كتبه، فلقد باعها وأنفقها على شيخه، وأمره بخدمة الفقراء وإطعامهم من عنده مع غسل ثيابهم، ثم أمره بكنس السوق وحمل الأزبال على أكتافه ورميها خارج المدينة، وأمره بلبس جراب في عنقه، وربما علق في عنقه سبع جرابات، وكان أيام الحفلات والمواسم العامة والاجتماعات، يأخذ قربة ماء ويدور بها على الناس فيسقيهم ويطلب منهم أجرة ذلك، تظاهرا منه لهم بالرغبة في الدنيا، ثم يدفع ما يجمعه لصاحب القربة أو غيره، وأمره بالسؤال، فكان يجلس بأبواب المساجد مع الفقراء والعميان والنسوان، ويمد يده للناس مع الإلحاح، ومعارفه وتلامذته يغطون وجوههم وينفرون حياء منه، وأمره بركوب الحمار والتجول عليه في السوق والشوارع، فكان يقصد ويتعمد المرور على خصوم الفقراء وأهل الانتقاد ومن يعظمه من أقاربه وتلامذته، ليستخرج منهم ما يقتل به نفسه، ولما طال هذا الأمر عليه، استأذن شيخه في العزلة والصمت، فأمره بلزوم السوق يوما بيوم، فكان يظل به طول نهاره، مرة قاعدا وتارة نائما. انتهى

ولسيدنا ابن عجيبة مؤلفات وآثار كثيرة لا تخلو من فوائد رائقة وتحقيقات فائقة:

فله شرح على الهمزية والبردة، وشرح الوظيفة الزروقية والحزب الكبير للشاذلي، وشرح أسماء الله الحسنى، وشرح المنفرجة، وشرح تائية الجعيدي، وتأليف في الأذكار النبوية، وتأليف في القراءات وطبقات الأعيان، وشرح حصن الحصين، وشرح الحكم العطائية، وشرح المباحث الأصلية، وشرح الصلاة المشيشية، وشرح تائية شيخه ورائيته، وشرح الفاتحة والبحر المديد في التفسير

لا تقول: قال فلان كلها يخطا غير العدنان
قل: قال الرحمن فلان كيفما إنسان

يقول: لا تحتج بأقوال الناس، وتقول: قال فلان، فالكل يخطئ، إلا النبي العدنان، ولكن قل: قال الرحمن؛ أما فلان، فهو بشر مثلك

والمعنى: لا تجعل جاه الناس وغناهم، وقوتهم وبأسهم، وعلمهم ومعرفتهم، دليلا على صدقهم وإصابتهم وجه الحق، فإن الحق لا يعرف بالرجال؛ بل أطلب الدليل من كل من أفتى وحكم أو ادعى، ومن كل من زعم واتهم، فإن البشر، مامنهم إلا من يخطئ ويصيب، ويفلح ويخيب

قال علي كرم الله وجهه: إن الحق لا يعرف بالرجال، فاعرف الحق تعرف أهله.[282]

وقال أبو حامد الغزالي، رحمه الله تعالى، في المنقذ من الضلال: فإني إذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا، بل الثلاثة أكثر من العشرة، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانا، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه، فأما الشك فيما علمت، فلا. انتهى[283]

بالإشارة مع عبارات أهل الظاهر، وشرح نونية الششتري وحقائق التصوف، وشرح الأجرمية بالإشارة، وله قصائد وتوشيحات، ضمنها فهرسته. انتهى

توفي رضي الله تعالى عنه بقرية بوسلامة من قبيلة بني سلمان الغمارية بقرب دار شيخه البوزيدي، وذلك يوم الأربعاء سابع شوال سنة 1224هجرية، في حياة شيخه البوزيدي وشيخ شيخه مولاي العربي، وبهذه القرية دفن، ثم نقل بأمر من شيخه لقبيلة أنجرة لقرية الزميج بعد مدة. انتهى من المطرب

[281] الخمرة الأزلية

[282] وقال أشهب بن رميلة، يوم صفين: إلى أين يا بني تميم قد ذهب الناس؟ أتفرون وتعذرون؟

قال: ونهض الحرث بن حوط الليثي إلى علي بن أبي طالب، كرم الله تعالى وجهه، وهو على المنبر فقال: أتظن أنا نظن أن طلحة والزبير كانا على ضلال؟ قال: يا حار، إنه ملبوس عليك، إن الحق لا يعرف بالرجال، فاعرف الحق تعرف أهله. انتهى من البيان والتبيين

[283] المنقذ من الضلال

ما تفول: أنا هو أنا في الشرع هوه

تهوي باصحاب العتوه ؤ هي فى اللسان حلوه

يقول: لا تظهر بنفسك في شيء، وتفتخر وتقول: أنا هو الذي فعل وفعل، فإن لفظة: أنا في الشريعة هوة، أي حفرة، يهوي فيها الرجال الأقوياء من أصحاب الفتوة، ولو أن لها حلاوة في اللسان إذا نبست بها

والمعنى: يقول الله تعالى: "والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون".[284]

فاعرف رعاك الله، أنك لا تملك شيئا مما تتصرف فيه من مال، وإنما استخلفك فيه المولى، فناظر ماذا تفعل، واعلم أنك لا تكسب شيئا غير ما قسمه لك، ولا تنقص شيئا من مالك أو من مال غيرك أراد سبحانه تمامه.

وقد ورد في بعض الأخبار اللطيفة، ما دار بين سليمان عليه السلام والنملة، ارتأيت أن أسوقه، لما فيه من عبر فيما نتكلم فيه

لما تبسم نبي الله سليمان عليه السلام، ضاحكا من قول النملة، وأعجبه أدبها وحرصها على سلامة بني جنسها، وحكمتها في قولها: "يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون".[285]

إذ نعتته وجنوده بالرحمة، لقولها: "وهم لا يشعرون"، مما يدل بإشارته، على أن سليمان رغم ملكه، لا يكون له ولجنوده أن يدوسوا النمل ويحطموه، إذا شعروا به، بل يجتنبونه، إذا كان ذلك. قلت: لما أعجبه ذلك منها، أراد أن يكافئها على حسن أدبها، فقال: اطلبي ما شئت أمكنك منه، قالت: إنك لا تقدر لي على شيء، قال: كيف، وأنا النبي الملك، سخر الله لي الجن والشياطين والريح؟ قالت: إذا كان ولا بد، فهل تستطيع أن تمكنني من لقمة لم يكتبها لي مولاي؟ قال: لا، قالت: ألم أقل لك إنك لا تستطيع لي شيئا ولا تنفعني في شيء؟ قال: اطلبي غيرها، قالت: فهل تستطيع أن تزيد في عمري يوما واحدا لم يكتبه الله لي؟ قال: لا، قالت: فاذهب راشدا في حال سبيلك، وأهدته هدية حبة حمص، فضحك عليه السلام من صغر هديتها، فقالت: ما أحسنت بضحكك على صغر هديتي، ألم تعلم أن صغر الهدية وكبرها إنما يكون بالنظر إلى قدرها عند مهديها، وليس عند من أهديت إليه؟ فودعها عليه السلام، وقد أعجب بحسن منطقها، وهاله بلاغة حكمتها

---

[284] النحل78

[285] النمل18

وقد كان سليمان عليه السلام مراقبا لله تعالى فيما أعطاه من ملك وحكمة، فكان لا يفتأ يرجع الفضل إلى الله تعالى، إذ قال بعد أن تبسم ضاحكا من قول النملة: "رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين". [286]

شكون انت حتى تكون غير ذرة تايهة فى الكون؟

هو اللي يقول: كن للشي حتى يكون

يقول: من أنت حتى تحسب نفسك شيئا؟ ما أنت إلا ذرة تائهة في هذا الكون، هو الذي يقول: كن، للشيء كي يكون

والمعنى: يقول الباري عز وجل: "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن، فيكون". [287]

من تحسب نفسك، أيها الفاني؟ ما أنت إلا ذرة تائهة في هذا الكون الشاسع الفسيح، فإن المدبر الله، هو الذي يتصرف في كونه بكل ما يريد مما قدر وقضى، بقوله للشيء: كن، فيكون

دخل أبو العتاهية على الرشيد حين بنى قصره، وزخرف مجلسه واجتمع إليه خواصه، فقال له: صف لنا ما نحن فيه من الدنيا فقال:

عش ما بدا لك آمنا في ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت، ثم ماذا؟ فقال:

يسعى إليك بما اشتهيـ ـت لدى الرواح وفي البكور

فقال: حسن، ثم ماذا؟ فقال:

فإذا النفوس تقعقعت في ضيق حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا ما كنت إلا في غرور

فبكى الرشيد بكاء شديدا حتى رحم، فقال له الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فأحزنته، فقال له الرشيد: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى. انتهى[288]

---

[286] النمل19

[287] النحل40

[288] المحاضرات في الأدب واللغة

أنا وانت يا القاري غرايب في هاذ الداري
الدار دار الباري شرعو عليها ساري

يقول: ما أنا ولا أنت أيها المعجب بقراءته وعلمه، سوى غريبين في دار الدنيا، وإنما الدار لصاحبها سبحانه، تمشي وفق إرادته، ويسري عليها شرعه

والمعنى: عن أنس قال: كانت ناقة لرسول الله ﷺ تسمى العضباء، وكانت لا تسبق، فجاء أعرابي على قعود له فسبقها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سبقت العضباء، فقال رسول الله ﷺ: "إن حقا على الله، أن لا يرفع شيئا من الدنيا إلا وضعه". رواه البخاري في صحيحه

واش ما زدت عريان من كساك خرقة الاكفان؟
الرحمن علم الإنسان مالك والو في الحسبان

يقول: ألم تزدد عريانا، من كساك خرقة الأكفان؟ إنه الرحمن الذي علم الإنسان، حاسب نفسك تعلم أنه ما لك من شيء

والمعنى: يقول الله تعالى: "قال إنما أوتيته على علم عندي، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون".[289]

لا حول لك ولا قوة؟ من كساك الخرقة التي تستر عورتك؟ كساكها الرحمن الذي علم الإنسان ما لم يعلم، راجع حساباتك، تجد أنك لا تملك شيئا، وأن ليس لك من الأمر شيء، وإنما الأمر كله لله

وقد رمى الشيخ بقوله: من كساك خرقة الأكفان، إلى تذكير القارئ بالموت، لأن من عرف الناس لف الوليد عند ازدياده في خرقة بيضاء، تشبه خرقة الكفن الذي سيلف به عند موته، قبل أن يدفن تحت التراب

---

[289] القصص78

ما زلت تعارض المجاذب صادقهم لا تكون عاتب
كلامهم بضمير الغايب ولا واحد فيهم كاذب

يقول: مازلت تعارض المجاذيب، صادقهم، لا تكن عليهم عاتبا، فهم يتكلمون بالمعاني الخفية، ولا أحد منهم كاذب في كلامه

والمعنى: لازلت أيها االمختال تعارض المجاذيب، ولا تعذرهم في حالهم، لم لا تصادقهم وتسلم لهم؟ لم لا تمسك عنهم عتابك ولومك؟ إن كلامهم ملغوز، لا يكفيك لفهمه إدراك عبارته، بل لفظه حاضر ومعناه غائب. فالأول حاضر حضور الجسد، والثاني غائب غياب الروح؛ إياك أن تنعتهم بالكذب والخروج عن الشريعة، لمجرد أنك لا تفهم أحوالهم، أو لا تعي أقوالهم، بل هم الصادقون الذين لا يد لهم فيما يقولون أو يفعلون، إذ لا ياتون شيئا من ذلك، إلا بإرادة الله تعالى وقدرته.

تعريف الجذب وذكر أحوال بعض المجاذيب

يقول صاحب الإبريز: المجذوب هو الذي يتأثر ظاهره بما يرى، ويسره ما يشاهده، فيجعل يحاكيه بظاهره، ويتبعه بحركاته وسكناته، والشخص إذا رحمه الله تعالى، وفتح بصيرته، لا يزال يشاهد من عجائب الملأ الأعلى ما لا يكيف ولا يطاق، فإن كان مجذوبا، فإنه يتبع بظاهره ما يراه ببصيرته، وما يراه ببصيرته لا ينحصر، فلذا لا ينضبط له حال. فإذا رأيت من المجاذيب من يتمايل طربا، فإنه غائب في مشاهدة الحور العين، فإن ذلك هو هيئة حركاته، فظاهره مشتغل بمحاكاة ما يشاهد من أمره. انتهى[290]

ويقول في إيقاظ الهمم: ومعنى الجذب هو اختطاف الروح من شهود الكون إلى شهود المكون. انتهى[291]

وفي الإبريز: كان بعض الشيوخ المجاذيب يظهر مخالفة ليفر عنه الناس، حتى أنه أراق على ثوبه ذات يوم خمرا، فجعل الناس يشمون منه رائحة الخمر ويفرون منه، ولم يبق معه إلا وارث سره، فقال: فعلت هذا عمدا ليفر عني هؤلاء النمل، يشير إلى كثرة الناس الذين كانوا يتبعونه، فإنه لا حاجة لي فيهم، والحاجة إنما هي بك وحدك. والله الموفق. انتهى[292]

---

[290] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ

[291] إيقاظ الهمم في شرح الحكم

[292] الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ

وفي الإبريز كذلك: ثم حكى حكاية سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه في الثور الذي قبضه أصحابه، فأمرهم سيدي عبد الرحمن بذبحه وأكله، وامتنع سيدي يوسف الفاسي وارثه من أكله، حتى جاء ربه فأخبرهم أنه صدقة لسيدي عبد الرحمن وأصحابه

قلت: وهي حكاية مشهورة، وكذلك سيدي أبو يعزى السابق لو أمكنه أن يعطي بلغة من لحمه لسيدي منصور لفعل، أعاذنا الله من سوء الإنتقاد على الكمل من العباد، فهذا ما أردنا أن نذكره في هذا الباب، نفع الله به آمين. انتهى[293]

قال أبو الفتح الجعفي: سياتي الكلام على الجذب والسلوك في محله إن شاء الله تعالى، وإنما وجب هنا، تنبيه الإخوة من الوقوع باللسان أو بالجنان في هؤلاء المجاذيب، فقد ثبت من كلامهم، وتبين من سمتهم، أنهم عارفون بمولاهم الحق، دارون بمفاوز الطريق ومهامهها، دالون على أساليب العبور إلى العزيز الشكور

سيدي عبد الرحمن المجذوب

ولا نفوت هذا المقام، دون أن نذكر مثالا لهؤلاء الصفوة ونعرف به، فأقول: ومنهم الولي الصالح الشيخ عبد الرحمن المجذوب، رحمه الله تعالى:

يقول في السلوة: الولي الكامل، العارف الواصل، عالي المقامات، وصاحب الكرامات، ذو الخصائص والمآثر العديدة، والمناقب الفاخرة الحميدة، والإشارة السنية والهمة العلية؛ قطب زمانه في الأحوال، وممد فحول الرجال، شيخ عصره وأعجوبة دهره؛ أحد الأوتاد الأربعة: أبو العزم، سيدي عبد الرحمن بن عباد بن يعقوب ابن سلامة الصنهاجي الأصل، ثم الفرجي الدكالي؛ الشهير بالمجذوب؛ واعتمد عليه وانتسب في الطريق إليه. قال في ابتهاج القلوب: ويقال: إنه إنما لقيه الشيخ المجذوب مرة واحدة فقط، عند مسجد القرويين من فاس. انتهى[294]

وفي السلوة: وكان الشيخ المجذوب هذا، عظيم الحال، باهر الخوارق، كثير الكرامات، بحيث عزت عن الحصر، وملأت الوجود؛ غزير المكاشفات، وكانت له الإغاثة في البر والبحر، ويمشي بالخطوة، حتى كان يقف في كل سنة بعرفات، وكان يجري في كلامه الإخبار عن اللوح المحفوظ ورؤية ما به

وكان يرث المشايخ في وقته، وأول من ورث: شيخه سيدي علي الصنهاجي، وآخر من ورث: سيدي عمر اللواح السريفي. وكان صاحب ملامة، كما كان شيخه سيدي علي الصنهاجي وشيخ شيخه سيدي إبراهيم

---

[293] المرجع نفسه

[294] سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس

آفحام، فكانت تجري على ظاهره أمور توحش الخلق، فيتنافرون عنه، وينكرون عنه بسببها، وهي في حقيقتها صواب، وصادرة من عين الجمع

وكان يوصي بعدم الاقتداء به فيما يخرج به عما يعرفونه من ظاهر الشريعة، مما يجبره عليه وارد الحقيقة، وكان مردودا عليه الشريعة، مترسما برسمها، مقيما لوظائفها، سؤولا عنها، متبعا للسنة، عاملا بها. ومناقبه كثيرة، وفضائله وأحواله وأخباره لا تنحصر، حتى إنها أفردت بالتأليف

توفي، رحمه الله، وسط ليلة الجمعة، وكانت ليلة عيد الأضحى، بمجسر من مجاسر بلاد عوف، فساروا به إلى مكناسة الزيتون، ودفنوه بها خارج باب عيسى منها، بجوار قبر سيدي عمران بن موسى، ضحوة يوم الأحد الثاني عشر من ذي الحجة الحرام، عام ستة وسبعين وتسعمائة، وبنى عليه تلميذه ووارثه الشيخ أبو المحاسن سيدي الفاسي قبة. انتهى[295]

قلت: ومن كلامه رحمه الله تعالى:

شافوني اكحل مغلف	يحسبوا ما في ذخيرة
وانا كالكتاب المؤلف	فيه منافع كثيرة
كسبت فى الدهر معزة	وجبت كلام رباعي
مدى من اعطاه ربي	ويقول: اعطاني ذراعي
لا تخمم لا تدبر	لا ترفد الهم ديمه
الفلك ما هو مسمر	ولا الدنيا مقيمه

سيدي علي بن أحمد الدوار الصنهاجي (شيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب)

ومنهم: شيخه المجذوب العارف سيدي علي بن أحمد الدوار الصنهاجي، توفي سنة:947هجرية

له كرامات عديدة: قال في السلوة: ومنها أنه كان يوما جالسا بباب مسجد القرويين والناس يصلون، وهو يأكل الخيار، فاجتاز به رجل داخلا للمسجد يصلي، فقال في نفسه: الناس يصلون، وسيدي علي يأكل الخيار لا يصلي معهم؟ ثم دخل، فكان يصلي وخاطره يتحدث بشراء حمار، احتاج إليه من سوق الخميس، وكان ذلك اليوم يوم الخميس، والصلاة صلاة الصبح، فلما خرج ناداه سيدي علي: يا فلان، أكل الخيار خير من صلاة الحمار. انتهى[296]

---

[295] المرجع نفسه

[296] المرجع نفسه

وقال: وله أيضا أبيات تنسب إليه، وهي:

الموت أفنى من مضى والموت يفني من بقي

والموت يجمع في الثرى بين المنعم والشقي

يا من أسا فيما مضى كن محسنا فيما بقي.[297]

وكان صاحب وقته، له اليد العليا على أهل الغيب، حسبما تقتضيه حكايته المعلومة مع سيدي عبد الرحمن المجذوب، فإنه لما لقيه صاحب الترجمة بباب القرويين النافذة إلى الشماعين، أقبل عليه، وأمسك به وحركه، ثم دفعه؛ فإذا به بالبرج الجديد بوادي فاس، فمكنه من الخطوة وطي الأرض؛ فرأى الشيخ المجذوب في تلك الحال أن الشيخ سيدي عليا، صاحب الترجمة، رفعه من سرته على أصبعه، وأهل الله مجتمعون، وهو يقول لهم: من أحبني، فليعط هذا. انتهى[298]

قال أبو الفتح: سافرت مع صديق لي، إلى "أولاد تايمة"، في قضاء أمر وزيارة بعض المشايخ نتبادل معهم العلم، فلم ييسر الله قضاء حاجتنا، فجلسنا قبل الرجوع نشرب شيئا في أحد المحلات، فوقف علينا أحد المجاذيب، يظهر من منظره وسمته أن له حالا مع الله تعالى، فأعطيناه ما قسم له الله، فدعا لنا بخير، ثم قال لصاحبي: أرأيت ذلك الحمص الذي في خزانة دارك، ارمه، فلن ينفعك في شيء.

وذكرني بخير، فقلت له: قد جئنا في أمر، وتعذر علينا قضاؤه، فادع الله تعالى أن يقضيه

فقال: ما جئتم من أجله رجعتم به، قالها ثم انصرف، فلم أفهم قصده. ثم قال صاحبي وقد أخذته الدهشة: صدق الرجل، سبق لي أن زرت ضريح مولاي إبراهيم المغاري، فلما خرجت من القبة، وجدت حفنة حمص ملقاة على الثرى، فجمعتها، ثم وضعتها في خزانتي بالدار من أجل التبرك، فقلت له: ارمها عنك واعمل بما قال.

فلما رجعنا رماها عنه، ثم بت ليلة، فرأيت فيما يرى النائم ولي الله، العارف سيدي الحاج الحبيب،[299] دفين "تنالت" بأيت باها، رحمه الله تعالى، وأنا مجتمع به في زاويته، فقضى ما ذهبت من أجله، وبذاك فهمت ما قصد المجذوب بقوله: ما جئتم من أجله رجعتم به. ولله الحمد والمنة

---

[297] المرجع نفسه

[298] المرجع نفسه

[299] هو الحاج محمد الحبيب بن الحاج إبراهيم بن الحاج عبد الله بن الحاج محمد بن أحمد البوشواري الميلكي، وينتهي نسبه إلى محمد بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وينتمي إلى آل تاغربوت من الأسرة البوشوارية الوزانية الأصل.

ولد بدوار أيت الطالب إبراهيم، بقبيلة أيت ميلك الهشتوكية، نحو 1285هجرية، ووالده إبراهيم، هو الذي انتقل إلى هذه القرية، بعد أن انتقل جده عبد الله من قرية تاغرابوت بقبيلة أيت فلاس الودريمية إلى مدشر قرب بيوگرة بهشتوكة.

تركه والده صغيرا، فنشأ يتيما في كفالة والدته، وذاق مرارة اليتم وشدة الفقر، وضنك العيش، ما يذوقه عادة أمثاله من الأيتام، ولكن الله تعالى كلأه بعينه التي لا تنام وكلأه في كنفه الذي لا يضام.

سلكت به والدته مسلك أسرته البوشوارية العالمة الفاضلة، فوجهته إلى الدراسة، ليرث نصيبه من مجد هذه الأسرة العلمي والديني، فأصبح من ألمع شخصيات هذه الأسرة، وأكثرها إشراقا وإشعاعا، وتحتضن مرحلة دراسته مرحلة حفظ القرآن، ومرحلة تلقي العلوم اللغوية والشرعية والصوفية

أصبح في عصره شيخ الجماعة الأكبر بدون منازع في الديار السوسية، وأصبحت مدرسة تنالت التي طالت إقامته بها، أشبه ما تكون بالأزهر الشريف، يقصدها نجباء الطلبة من كل حدب وصوب لاستكمال دراستهم، والأخذ عنه.

واجه الاستعمار الفرنسي، عندما اكفهر الجو السياسي بالمغرب في أوائل القرن العشرين الميلادي، ولما وقعت وثيقة الحماية، شعر الحاج الحبيب كما شعر غالب علماء سوس، بأن الواجب الديني والوطني يفرض عليه أن يكون في طليعة المجاهدين، دفاعا عن الوطن والمواطنين، وحماية لدار الإسلام والمسلمين، فانضم إلى الشيخ أحمد الهيبة، عندما تزعم الحركة الجهادية في تزنيت سنة 1912ميلادية، وكان صاحب سره ومن أخلص مستشاريه، ورافقه إلى مراكش، وكان يتردد عليه وعلى خلفه في كردوس، إلى أن دهم الاحتلال الفرنسي جبال جزولة كلها سنة 1352هجرية، فتعرض لمضايقات ومناوشات عديدة من الفرنسيين، لدرجة أنهم أمطروا مدرسة تنالت بوابل من القنابل بواسطة الطائرة، وهذا ما جعله رحمه الله يلتحق بمنطقة أيت باعمران مستخفيا، و لم يرجع إلى مدرسة تنالت إلا بعد أن واتته الظروف.

نشأ المترجم نشأة صوفية، لأن والده كان صوفيا كبيرا على الطريقة الدرقاوية، ولأن أهم شيوخه وأكثرهم تأثيرا في نفسه، كانوا متشبعين بالأفكار الصوفية، وعندما اتصل بأسرة الشيخ ماء العينين وارتمى في أحضانها، ولازم علماءها وصلحاءها، ازداد ارتباطا بالتصوف وحبا له، وإعجابا بالمتصوفة، وكثيرا ما يقول إذا ذكر له آل ماء العينين: من هناك شربنا الماء البارد الزلال، العذب الصافي الذي شربناه. وبسبب حبه الراسخ للمتصوفة الأحياء والأموات، كان لا يمنع أحدا من طلبته، إذا استشاره، من زيارة ثلاثة أضرحة: ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن موسى الجزولي التزروالتي، وضريح الولية الصالحة فاضمة بنت محمد الهلالية، المعروفة بتعلالت، وضريح الشيخ ماء العينين بتزنيت.

أقبل على نفسه يجاهدها ويزكيها ويطهرها من الرذائل ويحليها بالفضائل، كما هو حال أكابر الزهاد الورعين، الذين طلقوا الدنيا ومفاتنها، وأقبلوا على الله بالعبادة والاستقامة، فقد كان كثير العبادة، كثير الأذكار، وكان أيام قوته البدنية، يختم القرآن الكريم في ركعتين ليلة القدر. وسيرا على نهج الشيخ ماء العينين، كان المترجم ينظر إلى الطرق الصوفية نظرة تقدير وإجلال واحترام، وكان يكره التعصب الطائفي، ويرى أن الطرق الصوفية كلها سبل موصلة إلى الله، وإذا كانت الطريقة الدرقاوية، هي الطريقة التي نشأ عليها تبعا لوالده، فإنه تعامل مع الطرق الأربع التي كتب لها الذيوع والانتشار في سوس وسائر المغرب، أكثر من غيرها، تعاملا إيجابيا، ملؤه المحبة والتقدير والاعتناق، فقد كان رحمه الله يقرأ أذكار هذه الطرق الأربع، وهي الدرقاوية والناصرية والقادرية والتجانية، وكان يلقن أورادها كلها للمريدين.

وقد أقبلت عليه الدنيا فأعرض عنها، وكان يجود بما ناله منها على المحتاجين، وأقبل على نفسه يهذبها، وابتعد عن الأضواء وعاش في خمول مقصود وانعزال محمود، وكان مضرب مثل في ذلك.

ومن المجاذيب الذين لا قيتهم، الشيخ سيدي قاسم، كان من عادته التي ألزم بها نفسه، أن يخص لكل حي من أحياء الرباط يوما، يطوف فيه به، ويذكر أهله ويعظهم جهارا. ومن كلامه: أيها المختبؤون خلف الحيطان، وقد لعب بكم الشيطان

وهذا الرجل، لا يسأل شيئا، ومن أعطاه دعا له بخير؛ إلا أنه لا يقبل العطية من عامة الناس، فقد رأيناه رد على البعض وقال: فلوسك غير طيبة، وقال لآخر: خذ فلوسك، فأنت أحوج بها مني؛ وكان الأمر كذلك

وقد جربنا دعواته فوجدناها مستجابة

اشتهر بنصح الناس وإرشادهم وتوجيههم إلى الخير، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وعرف بذلك لدى الخاص والعام، فكانت مدرسة تنالت في عهده، محط أنظار الراغبين في اغتنام زيارته واستمطار دعواته المباركة، واستشارته في شؤونهم الخاصة والعامة، وكان الناس يحبونه ويرتاحون إليه، ويطمئنون إلى كل ما يشير به عليهم، ويجدون بركة ذلك.

كما كان مقصودا من القبائل السوسية لأهداف مختلفة، منها ما يتصل بإصلاح ذات البين، وفض النزاعات التي تنشأ بين الأفراد والجماعات، ومنها ما يتصل بالاستشفاء، والتماس الأدوية النافعة، ومنها ما يتصل بطلب الأئمة والخطباء والفقهاء، لعمارة المساجد والمدارس، وكان ذلك بسبب ما عرف به لدى الداني والقاصي، من حب الناس وإرادة الخير لهم، والسعي في نفعهم وإسعادهم وتحقيق مصالحهم، وجمع كلمتهم، وإحكام صلتهم بربهم.

كان كثير الشوق إلى البقاع المقدسة، ولذلك حج ثلاث مرات

وكان أديبا شاعرا، وقد جمع شعره ونشره الفقيه الفاضل الحاج عبد الله الفاسي في كتاب: الرتائم الجميلة في ذكريات الحبيب الجليلة

ومن شعره رحمه الله تعالى:

إليك رسول الله أشكو مطالبي رجوناك أن تقضي وكل المآرب
فأعظمها عندي زيارتك التي تنجي ذويها من هوان المعاطب
وسكنى جوار في كمال تأدب بطيبتك الغرا أعز المناصب
وأرزاق في عفـــاف وعفـــــة ورغد معاش مـــن أجــل المواهـــب
وتدريس علم الشرع مع نشـــره إلى ذوي الإخلاص أنقى المكاسب

انتقل إلى جوار ربه تعالى يوم الإثنين 26 محرم الحرام 1397هجرية، موافق 1977ميلادية، ودفن بجوار مدرسة تنالت. واتخذ تلاميذه وأحباؤه يوم وفاته موسما سنويا يجتمعون فيه بتنالت، لزيارة ضريحه ومدرسته والترحم عليه، والعمل من أجل استمرار رسالته التعليمية والتربوية. انتهى عن مدونة الأستاذ الدكتور اليزيد الراضي

.

ومما وقع لي معه، أنني كنت في هم وغم، بسبب مهمة أصابتني، لم أستطع ردها بالأسباب، فلما لقيته، سألته أن يدعو الله لي حتى تنفك، فقال: إذا لقيتني في المرة القادمة، وتقابل وجهك مع وجهي، ولم يكن ما أنت فيه قد رفعه الله تعالى عنك، فاثفل على وجهي، فقلت: حاشا لله، فقال: أيقن بالفرج

فلما رأيته في المرة القادمة، لم يتقابل وجهي مع وجهه، إذ كان ينظر إلى الجهة المقابلة، ويرفع صوته بالوعظ والإرشاد كعادته، وإنما كنت أنظر إلى قفاه، فوقفت حتى يستدير نحوي، لأرى صحة كلامه، فلم يلتفت، وإنما كان يمشي ويرجع عرضا، دون أن يلتفت، مع أنني كنت بعيدا عنه، ولم يرني واقفا أنتظر التفاته

فوقفت ما شاء الله، ثم انصرفت، وهو على حاله

ولما لقيته في المرة التي بعدها، وقابل وجهي وجهه، باشرني قائلا: هل فرج الله تعالى عنك؟ فقلت: نعم يا سيدي، وكان الأمر الذي شكوته له قد قضاه الله، وأذهب عني الهم والحزن

ولا زال هذا المجذوب بين ظهرانينا، يغدو ويروح، ولا يراه إلا من أراد الله له أن ينتفع برؤيته ودعواته أبقاه الله تعالى، وأمثاله رحمة للمومنين، ونفعنا وإياكم ببركة عباد الله الصالحين.

لما تحكم الاصول ؤ الفرايض اعبد الله بلا غرايض
اخرج من مراجي ركايض لبحر بالمحبة فايض

يقول: عندما تحكم أصول الدين وفرائض الشريعة، اعبد الله تعالى بلا طمع في غرض من الأغراض، واخرج من برك راكدة، إلى بحر فائض بالمحبة

والمعنى: إياك أيها الطالب أن تظن أن سبيل الحقيقة، يقطع بالدعة والخمول، أو تطمع في الانتساب إلى أهلها بالادعاء والفضول؟ بل لا بد لك قبل ذلك أن تاتي بالأصول، فقد قالوا: من ضيع الأصول حرم الوصول. لا تفرط فيما افترضه الله تعالى عليك:

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته". رواه البخاري في صحيحه

فإذا وفقت لذلك، فلا تفرح به، ولا ترجو عنه عوضا، بل اعبد الله تعالى لله، فأنت به ومنه وإليه، حتى تخلص في عبادتك، ثم نزه نفسك عن الركون إلى أعراض الدنيا والاشتغال بأكدارها، واخرج من برك راكدة أسنة إلى بحر لجي عباب، فائض بمحبة الله تعالى الكريم الوهاب

قال ابن عطاء الله: من عبده لشيء يرجوه منه، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحق أوصافه. متى أعطاك أشهدك بره، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك، ومقبل بوجود لطفه عليك؛ إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه. انتهى[300]

وقال كذلك: كيف تطلب العوض عن عمل هو متصدق به عليك؟ أم كيف تطلب الجزاء عن صدق هو مهديه إليك؟ انتهى[301]

نقب على شيخ واصل بلا شيخ ما تكون مواصل
الشيخ قنديل شاعل في ظلام مالو أصل

يقول: نقب على شيخ واصل إلى الله تعالى، فبدون شيخ لا يكون الوصول إلى الله، فالشيخ قنديل ساطع في ظلام مدلهم لا أصل له

والمعنى: إذا وحدت ربك واعترفت بعبوديتك، وصدقت في الرغبة إلى أن يتعرف إليك فتعرفه، وتتقرب إليه فيقربك، فاجهد رعاك الله، في البحث عن شيخ يدلك على مولاك، ولا تعول على بحثك، بل عليك بمجمع البحرين، واحترس أن يضيع حوتك، فحيث ضاع، فلا يضيع إلا بتوفيق من الله تعالى، فثم مرادك؛ فلا تتهاون في أن تدعو الله مبتهلا، وتسأله مبتتلا أن يدلك على الدال عليه، فعسى أن تكون من المفلحين.

[300] الحكم العطائية

[301] المرجع نفسه

الكلام على الشيخ

قال ابن البنا السرقسطي في المباحث:

وإنما القوم مسافرون	لحضرة الحق وظاعنون
فافتقروا فيه إلى دليل	ذي بصر بالسير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد	ليخبر القوم بما استفاد
وجاب منها الوهد والآكاما	وراض منها الرمل والرغاما
وجال فيها رائحا وغاديا	وسار كل فدفد وواديا
وعلم المخوف والمأمونا	وعرف الأنهار والعيونا
قد قطع البيداء والمفاوز	وارتاد كل حابس وحاجز
وحل في منازل المناهل	وكل شرب كان فيه ناهل
فعندما قام بهذا الخطب	قالوا جميعا: أنت شيخ الركب
وأحدقوا من حوله يمشون	وكلهم إليه يوزعون
فرتب القوم على مراتب	ما بين ماش: راجل وراكب
وحيث كلت نجب الأبدان	قال أحدهما: يا حادي الأظعان
فمن هنا يلقب القوال	حاد لأجل حدوه الرجال
والسفر المذكور بالقلوب	والشيخ في مترلة الطبيب.[302]

قلت: وقد نقبنا عن الشيخ العارف ذي الأحوال والمعارف، حتى يعرفنا بالطريق، ويخفف عنا أحمالنا، ويرشدنا إلى أسلم سبيل إلى الله تعالى، فما عثرنا له على أثر

وكم شددنا الرحال إلى بعض الزوايا، فوجدنا فيها مشايخ يتبرك منهم الناس، ولما بينا لهم قصدنا من المجيء، لم نجد لهم لسانا، وإنما كانوا يعيدون على أسماع الناس، ما قرؤوا وسمعوا، فاكتفينا بالتبرك منهم، فربما يكون الخير في أسلافهم، وهم من ذرياقم، فمعاذ الله أن نعدم الخير فيهم، وكنا نتأدب معهم ونسألهم خير دعائهم، ونتركهم على ما هم فيه

لقد ندر كلام الذوق والإشارات، في الزوايا والرباطات، وصارت المشيخة وراثة، كل طائفة تسير على نهج شيخها الأول، فتراهم يحافظون على الأوراد ويلتزمون بالاجتماع للوظائف، ولكنهم لا يتعدونه إلى تحصيل علم الشريعة، أما علم السلوك فقد انقطع وقل أصحابه

---

[302] المباحث الأصلية

ولكن الله تعالى، علم صدق قصدنا في طلاب الشيخ، فسخر لنا من يعلمنا، وعرفنا سبحانه بما يصلحنا، فهو العليم بقلوب عباده، الرقيب عليهم

وحاشا أن ينسى الله من ذكره، أو أن يعرض عمن قصده، بل إذا عز الشيخ، فاسأل الله تعالى أن يسخر لك من يعرفك بالله تعالى، وافعل ما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام:

قال تعالى: "فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما افل قال لين لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين". [303]

قلت في تائيتي:

فإن لم تجد شيخا فناد مهيمنا وقل: يا إلهي، من سواك لحاجتي؟

إلهي لئن لم تهدني قد أضل في طلاب محال في زمان القطيعة

تقطعت الأسباب فاهد ضلالتي ومن لي سوى الله حسبي وغنيتي؟

وكن صادقا فيما دعوت ولا تهن يسخر لك الله دليلا بسرعة

الشيخ كيف تكشفو سوى إلى لحك بطرفو؟

الشيوخ في زمانا ماخرفوا لكن خفاوا ؤ ما تعرفوا

الشيوخ عافوا العمايم كشفوا على روس الحكايم

لبسوا لباس النعايم عادوا كيف الحمايم

يقول: كيف لك أن تعرف الشيخ؟ اللهم إلا إذا لحك هو بطرف عينه، فعرفك، فالمشايخ في زماننا لم ينقرضوا بعد، لكنهم خفوا عن الناس، فلم يعد يعرفهم أحد

لقد ترك المشايخ العمائم، وكشفوا عن رؤوسهم، التي هي رؤوس الحكمة، ولبسوا لباس النعم، فعادوا مثل الحمام بهاء ورونقا

[303] الأنعام78

ليس من السهل معرفة العارف

والمعنى: ليس من السهل معرفة الشيوخ، لأن الناس لا ينظرون إلا بمعارفهم؛ وما يعرفون، به يوقنون؛ ولذلك لا يستقيم لهم أن يكون الشيخ مثل سائر الناس؛ تلك سنة الله في عباده، كما كانوا لا يتصورون أن يكون الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، بشرا مثلهم، ياكلون الطعام ويمشون في الأسواق

قال ابن عطاء الله: وسمعته (أي شيخه أبا العباس المرسي) رضي الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجماله، ومتى حتى تعرف مخلوقا مثلك؟ يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب. انتهى[304]

وقال رحمه الله تعالى: وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استتار الرجال في كل أرض — تحت سوء الظنون قدر جليل

ما يضر الهلال في حندس الليــ — ـــل اسوداد السحاب وهو جميل

وأشد حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، وقال سبحانه وتعالى حاكيا عنهم: "ما هذا إلا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون".[305]

وقال سبحانه حاكيا عنهم: "أبشرا منا واحدا نتبعه".[306] وقال: "وقالوا مال هذا الرسول ياكل الطعام ويمشي في الأسواق".[307]

وإذا أراد الله أن يعرفك بولي من أوليائه، طوى عنك شهود بشريته، وأشهدك وجود خصوصيته. انتهى[308]

قلت: وقد زاد خفاء المشايخ في هذا الزمان، أشد مما كان في الأزمان الماضية، فقد كان الصوفية عامة، يعرفون بتقشفهم وخشونة ملبسهم، وانعزالهم عن الناس، وكانت العمائم من عرف العلماء والمشايخ وغيرهم

فلا شك أن هيأة العالم أو الشيخ، كانت تخبر عنه، وحتى إذا لم يتزي الشيح بذلك، لبس الأسمال والمراقع، فتبين حاله.

أما في هذا الزمان، فقد اختلط الحابل بالنابل، ورمي الكثير من أصحاب العمائم بما لا يأتيه العامة، فلم تعد تفرق بين الصادق والفاسق، وأصبح أولو الأحوال يخشون انفضاح أحوالهم، كما لم يكن عليه الحال من قبل،

---

[304] لطائف المنن

[305] المومنون33

[306] القمر25

[307] الفرقان07

[308] لطائف المنن

فقد كانوا، متى ظهر أمرهم في قبيلة أو قرية، ظعنوا إلى غيرها، فانطمست بذاك أخبارهم؛ أما اليوم، فإن الدنيا أصبحت كما يقال: قرية صغيرة، فلا مفر من الانكشاف والاشتهار، إلا بالاختفاء والاستتار

وقد علمت أخي الكريم، أنهم يوثرون الخفاء، ولذلك تمثلوا بغير أوصافهم، وتقمصوا ما ليس من أحوالهم، وأمسكوا ألسنتهم، فسكتوا في المجامع، و لم يعترضوا على كل قوال كذاب مخادع، فعز بذاك طلابهم، بعد أن هجروا أحبابهم، وغابوا وطال غيابهم، فلم يفلح من تتبعهم في العثور عليهم، حتى أنه من شد ما بحث، حكم بانعدام وجودهم، ولو صدق في نيته، وعرف أنهم ليسوا كما يظن، لبصر بهم في الظلمات مبلجين، وفي الدهماء مبجلين، لا تزيدهم الفتن إلا ثباتا، ولا تنقص المحن من صبرهم ولو فتاتا، وبذاك يكون الله تعالى قد أكرمه، بأن دله على الياقوت الأحمر، ومكنه من المسك الأذفر، كما صبر على طلابه ما لا يصبر عليه الراسخون واصطبر

قال ابن عطاء الله: ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فلما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بملبسه وقال: يا سيدي، ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك

فأمسك الشيخ ملبسه فوجد فيه خشونة فقال: ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول أنا فقير إليكم فاعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس[309] وشيخه أبي الحسن رضي الله عنهما، وطريقة أصحابهما، الإعراض عن لبس زي ينادي على سر اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزي فقد ادعى. انتهى[310]

يقول السهروردي: حكي أن جماعة من أصحاب المرقعات دخلوا على بشر بن الحارث فقال لهم: يا قوم، اتقوا الله ولا تظهروا هذا الزي فإنكم تعرفون به، وتكرمون له، فسكتوا كلهم، فقال له غلام منهم: الحمد لله الذي جعلنا ممن يعرف به ويكرم له، والله ليظهرن هذا الزي حتى يكون الدين كله لله، فقال له بشر: أحسنت يا غلام، مثلك من يلبس المرقعة، فكان أحدهم يبقى زمانه لا يطوى له ثوب ولا يملك غير ثوبه الذي عليه. انتهى[311]

قال أبو الفتح: لا يقاس الشيخ بالعمامة، كما لا يعرف الغيث بغمامة، ولكن يعرف بقلبه وليس بقالبه، فانفذ رعاك الله إلى البواطن، تظفر بالكنوز والخبايا والدفائن، ويغنيك الله من فضله الكريم

---

[309] الشيخ أبو العباس المرسي: أحمد بن عمر الأنصاري العارف الشهير، قطب زمانه ورأس أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي، ذكر الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله عنه، أنه قال يوما: والله لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي مع المسلمين. مات بالإسكندرية سنة ست وثمانين وستمائة. انتهى من حسن المحاضرة

[310] لطائف المنن

[311] عوارف المعارف

وها قد بينت لك في رباعيتي من بعض علامات المشايخ كي تعرفهم، وشرحت لك ما به تدركهم، فأحسن القصد، يا زيد، والزم الجد تحظ بالعهد

اعلم، أخي الكريم أن الأولياء بربهم عارفون، ومن عرف الله رزقه نور الحكمة وحسن التدبير، فما منهم بليد ولا أبله، حتى لا يعرف كيف يتوارى عن بني جنسه، بل هم بالخفاء دانوا، فألهموا أساليب الاختفاء، وحفروا قبورهم وهم أحياء، من أجل الاختباء والثواء

أولئك الظاهرون بالأسباب، الأخفياء برب الأرباب، الحاضرون بالأجساد الغائبون في شهود رب العباد

من رآهم ظنهم حجرا، ومن سمعهم ظنهم بشرا، وما هم بحجر أن جمدوا وهم هائمون في الملكوت، وما هم ببشر أن خلدوا، وقد خلدوا للحي الذي لا يموت

ولكن لكل حادث علامة، ولكل ولي كرامة، كيف وقد أخبر المزن عن المطر والركب عن السفر؟ أما الحسن فيكفيك مخبرا عنه الحور

فها مخبراتهم، أكرمك منها بالساطعات، وأنبئك باللامعات، وأعرفك بالباقيات، لا تخفى مهما أخفوها، بل شاء الباري عز وجل، أن يجعلها دليلا على أحبائه لمن شاء من عباده، فافهم ما ألوح به من إشارات، واحفظ ما أصرح به من عبارات، إن كنت ذا فهم أيها اللبيب:

اجتمعت الطيور على الغدير، وهو الساري في سكون، وتركت الهدير، ولو أن ماءه كثير، لا تشرب فيه، وإنما تحط وتطير

ما أحذق هدهد سليمان، إلا أنه يسافر وحده، لاترافقه الطيور

سل حمام الحمى، عند الحمى فيم اجتمع، ما باله لما أذن للصلاة راح، حتى إذا سلموا رجع

ما لك والكعبة؟ لو كنت مكانك جاورت، تقبل وتدبر، ولا تقيم في المشعر، أشعرت بما أشعر؟ أم بحت بما أنكر، وأنكرت ما بحت به و لم أصبر؟

تريد مني، أيها الطالب أن أدلك على الدر من الحجر؟ أتراك لا تفرق بين الدر والحجر؟ فالأول براق، والثاني منطفئ في الأحداق

أتريد مني أيها الطالب، أن أنعت لك الشمس من القمر؟ الأولى تعرفها بالشروق، والثاني لا يعرف الإشراق، بيد أنه يروق، سراجه رقيق

أتريد أن أدلك على شجرة الخلد وملك لا يفنى، لن أدلك أيها الطالب، على ما أنت فيه راغب، لتكون من الخالدين، كي لا أكون أحد الشياطين

إذا هبت ريح طيبة وجدها، فكيف لا تجد الطيبين؟ عرفتها وما أبصرها، فكيف لا تعرف سوى ما تبصر؟

عجبا كيف يخفى عنك الحرير من الشعر؟ فلا تميز بين ملمس هذا وذاك، أم كيف لا تميز بين الذهب والخشب؟ وأنت تعرف التبر من الشجر؟

إذا عرفت لون الماء عرفتهم، ما له من لون، صفا وصفوا، بذاك تميزهم في الحين والأين

وسئل الجنيد عن العارف فقال: لون الماء لون إنائه، يعني: أنه بحكم وقته. انتهى[312]

وسمعته (أي محمد بن الحسين) يقول: سمعت علي بن بندار الصيرفي يقول: سمعت الجريري يقول: سئل أبو تراب عن صفة العارف، فقال: الذي لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء. انتهى[313]

هم الهينون اللينون، ألفاء مألوفون، أمراء مدينون للناس بالعين، أشركو الفقراء في العقال في أموالهم، حتى فيما هو دين، رفقاء الشجون، كل ما حولهم تذرف منه العين، لا يتقدمون في النوادي، ويتصدرون العوادي

صم متى تكلم المتشدقون لا ينبسون، وإذا تبجحوا يحجمون، تحسبهم أيقاظ وهم رقود، يجالسون العبيد بالأجساد، ونفوسهم مشدودة إلى القوي العتيد، لا إله إلا هو رب العباد

ما للأمير يستجدي الرعية؟ وما للأسود مع الظأن ما فتئت راعية؟ وما للنسور في سماء الخطاف صافات لا كما هي؟

رأيتهم بلباس النعمة، فحسبتهم من أهل الدنيا، ثم رأيتهم في الدير ساجدين، فقلت: دنياهم فانية، ولم أرهم ولم أحسبهم، فتبدوا مرتين كما هم لي، عجبت في الأولى وسلمت في الثانية: الأولى انبلاج، والثانية ابتهاج

وإن شئت قلت: الأولى ظهور والثانية صدور

وإن شئت قلت: الأولى تجلي والثانية تملي

وإن شئت قلت: الأولى انفتاح والثانية انشراح

وإن شئت قلت: الأولى بوارق والثانية خوارق

وإن شئت قلت: الأولى: إقدام والثانية اقتحام

وإن شئت قلت: الأولى حتى لا تبتئس والثانية حتى لا تستيئس

لا يبالي القاصدون إليهم بما عبروا من أميال، ولا يعيى من حديثهم الرجال والنساء والعيال، ولا يقوى على فراقهم من صحبهم بحال من الأحوال؛ إذا كنت في حضرتهم غبت عن نفسك، وحضرت بهم مع ربك

إن كنت مهموما فرحت، وإن كنت مكلوما برئت، أو تعبان استرحت، أو عطشان ارتويت، أوجوعان شبعت.

---

[312] الرسالة القشيرية

[313] المرجع نفسه

الوقت معهم غير الوقت، والموضع ما هو كما عهدته، والدنيا صغرت حتى اختفت، والنفس هانت وانتفت، والهوى إليه لا تلتفت، والشيطان فر وانفلت

متى تكلموا لم يعجلوا، يسكتون الحين بعد الحين: يتكلمون حتى تقول: لن يسكتوا، ويسكتون حتى تقول: لن يتكلموا

هم بالله عن خلقه، لا يصحبونهم إلا إذا هددوا بالسلب إذا لم يفعلوا

قال ابن عطاء الله: وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هددت بالسلب؛ وقيل لي: لئن لم تجلس للناس لنسلبنك ما وهبناك. انتهى[314]

تعرفهم بلوائهم، لواؤهم البشر والبشائر، يحبهم كل من رآهم، ولو لم يكن له بهم عهد، ولا يبغضهم إلا شقي.

مبدأ أبي الفتح وكيف هداه مولاه إلى الحق بمنه وكرمه

قال أبو الفتح نور الله بصيرته: وهذا مبتداي في طريق القوم، وكيف هداني الله تعالى إليه، بعد أن كنت من المسرفين وعلى أوليائه من المعترضين

كنت أتوضأ في المسجد الجامع في اليوسفية برباط الفتح، في بداية الثمانينات من العام الميلادي، وإذا بشاب لم أعرفه من قبل، يقف علي وينحني إلى أذني ويكلمني دون أن يبدأني بالسلام، حتى مست شفتاه أذني، وكأنه يعرفني، ويقول: إذا صليت وخرجت من المسجد، فلا تذهب، وانتظرني حتى أخرج، فإن لي حاجة بك. ثم انطلق لوضوئه، وكانت الصلاة صلاة الظهر؛ فلما خرجت انتظرته كما قال، فخرج، وكان دقيق الهيكل قليل اللحم، ذا لحية خفيفة، تظهر عليه أمارات السفر، ويحمل جلبابا رقيقا أبيض في غالبه، يبدو الجلباب ملتفا على شيء مثل العصا، وكان يحمل مزودا صغيرا، فلم يبدأني بالسلام مرة أخرى، وقال: حدثوا الناس عن الله وعرفوهم بمولاهم، واتركوا حديثكم عن غيره

وكنت آنذاك على صغر سني أحدث في المسجد الجامع، وفي غيره من المساجد، إلا أني لا أقعد على منبر أبدا. فقلت في نفسي: هذا شاب غريب، لا عهد لي به، فكيف عرف أنني أحدث الناس؟

ثم تابع كلامه قائلا: أتيت من مدينة كذا وكذا، وأنا أتبع أحد المشايخ، ونحن على طريقته، ولسنا من أصحاب البدع؛ وقد جئت بغير زاد، زادي العسل، كلما جعت لعقت منه، وما أكثر وجوه النفاق في مسجدكم هذا، وإني لأستعجل الرجوع من حيث جئت

[314] لطائف المنن

ثم حل الجلباب، وأخرج عصا على شكل غصن شجرة لم ييبس بعد، ومكنني منها وقال: أريد منك أن تبلغ هذه الأمانة إلى صاحبها، فقد بعثها معي قطبي إلى قطب آخر عندكم هنا، اسمه أبو رقراق، هل تعرفه؟ فقلت: لا أعرف سوى هذا الواد القريب، المسمى واد أبي رقراق

ثم استرد مني العصا وقال: وا أسفا، لو كنت تعرفه لبعثت معك إليه بهذه الأمانة

فلما رأيته على ذلك الحال دعوته للغذاء، وكانت معنا في الدار عمتي وأبناؤها، فقد ذبحوا خروفا فكان الغذاء دسما، فقال: اسمع، كل ذلك الجمع الذي في داركم لا حاجة لي به

فقلت: ادع الله معي، فقال: أسأل الله أن ينجيك من خوف الخلق ومن خوف ضياع الرزق.

وقد عرفت منه، أنه كان يريد أن يشتري كتابين، فقيدت عنوان الكتابين، وقيدت عنوانه كما أفتاه علي، فأعطاني قميصا أزرق باليا قد حال لونه، وقال: البسه، فستلقى صاحبه في يوم من الأيام؛ وانطلق إلى حيث لا أدري

ولما رجعت إلى المترل، بادرت إلى لبس القميص، فلما لبسته، نظرت في المرآة وأنا به، فتبدل حالي وأحسست بحرارة تسري في جسمي، وفاضت عيناي بالدموع، وأشرق قلبي بمحبة الله تعالى ورسوله ﷺ، و لم أستطع أن أمد يدي إلى طعام من شدة الحال، واشتريت الكتابين وبعثتهما إلى الشاب كما وعدته، والحمد لله رب العالمين.

ومن ذلك اليوم وأنا غير أنا، فقد تغيرت جل أموري، ووجدت في نفسي دافعا لأشتري أشياء، فاشتريت عمامتين: بيضاء وصفراء، ونعلا تقليديا، وأحسست بالوحشة من الناس، وكرهت إلقاء الدروس في المساجد، ونأيت بنفسي عن المسجد الجامع، وكنت أصلي المكتوبة في المساجد الصغيرة المتناثرة هنا وهناك في أزقة دوار الدوم. وكان يلح علي بعض الإخوة في أن ألقي درسا في عقيقة أو نحوها، فأستحيي أن أرد طلبه، فأذهب بجلبابي متعمما على غير عادتي، وقد احتملت معي شمعة، فآمره بإطفاء الأنوار، وأوقد الشمعة وأحدث الحاضرين حديثا لم يعهدوه مني من قبل، وكنت بنفسي أستغرب مما يخرج مني من كلام

وكان لحديثي وقع في القلوب أشد من أحاديثي السابقة.[315]

---

[315] ومما لازلت أذكره من ذاك الحديث: أيها الواقف في الطابور الطويل، تريد أن تسقي الماء من العين، وكلما التحق بالطابور أحد، أخذ مكانك ودفع بك إلى الخلف، حتى صرت في مؤخرة الطابور، لا عليك، الزم مكانك ولا تستبق، سيتفجر الماء من الصخرة التي وراءك، فتستدير إليها، ويستدير الواقفون أمامك في الطابور، فتصبح أولهم بعدما كنت آخرهم، أما هم، فيصبح أولهم أخيرا، وآخرهم أولا

ومرت بضعة سنين، وصادف أن اشتريت مع أخي في الله أبي سهل[316] أبقاه الله، كتاب: المفاخر العلية،[317] وكنا لا نعرفه آنذاك. وبمجرد ما قرأنا فيه، قلت لصاحبي: أعجبتني طريقة هذا الشيخ، فقال: وأنا مثلك. وانضم إلينا رفيق ثالث، وصرنا نبحث عن كتاب: لطائف المنن،[318] حتى تزيد معرفتنا بطريق الشيخ أبي الحسن الشاذلي،[319] فلم نجده، حتى عثر أخي أبو سهل على ثلاثة نسخ، لم يبق غيرها في إحدى المكاتب، فاشتراها بثمن زهيد، فلما مكنني من نسختي قرأتها وأتممتها في اليوم نفسه من شدة ما أعجبني ما فيها، وكان ذلك قبل مغرب يوم الثلاثاء لسبع خلون من الشهر السادس من العام الميلادي: أربع وتسعين بعد الألف ولله الحمد والمنة.

ثم طفقنا نبحث عن كتاب درة الأسرار،[320] فلم نجده، ومرت أيام، فوجدته واشتريت منه نسختين، حتى أمكن صديقي من واحدة.

فلما طرق بابي أبو سهل، أخذت نسخته وخبأتها وراء ظهري، فلما خرجت له، أردت أن أفاجأه، فمددت له النسخة من وراء ظهري، فمد لي نسخة من وراء ظهره هو الآخر، فكان حاملا كتاب درة الأسرار، وكنا واقفين ويمد هذا لذاك الكتاب نفسه. فعجبنا كيف تقابل الدرتان في الآن نفسه، وحمدنا الله على ذلك.

قلت في كتاب: سوانح الخواطر، ما نصه: يا أبا سهل، ألق الحبل على الغارب، ولا تخش العواقب، دعوها فإنها مأمورة، ذلول ميسورة، فما ثم مصاعب. انتهى[321]

أتيت بالمفاخر من غور العرفان، وحزت المفاخر، دون أن تفاخر وتكاثر

---

[316] وهو أخي وصديقي الحميم، الأستاذ الأديب عبد اللطيف أونابي، أبقاه الله تعالى

[317] كتاب المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، لأحمد بن محمد بن عياد الشافعي

[318] كتاب لطائف المنن لتاج الدين، أبي الفضل أحمد بن عطاء الله السكندري

[319] الشيخ أبو الحسن الشاذلي: شيخ الطائفة الشاذلية. هو الشريف تقي الدين، علي بن عبد الله بن عبد الجبار؛ قال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد: ما رأيت أعرف بالله من الشاذلي. وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: منشؤه بالغرب الأقصى، ومبدأ ظهوره بشاذلة، وله السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة، والعلوم الكثيرة، لم يدخل في طريق الله حتى كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة، وعلوم جمة، جاء في هذا الطريق بالعجب العجاب، وشرح من علم الحقيقة الأطناب، ووسع للسالكين الركاب. وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يحضر مجلسه، ويسمع كلامه. قال الشيخ تاج الدين: أخبرني والدي قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي، فسمعته يقول: والله لقد يسألونني عن المسألة لا يكون لها عندي جواب، فأرى الجواب مسطرا في الدواة والحصير والحائط. مات في ذي القعدة سنة ست وخمسين وستمائة بصحراء عيذاب متوجها إلى مكة. انتهى من حسن المحاضرة

[320] كتاب درة الأسرار وتحفة الأبرار، جمعه الشيخ الحميري، المعروف بابن الصباغ

[321] سوانح الخواطر في كوامن السرائر

وقارنت درتك درتي، فما أبهاها من درر عظيمة الخطر، تاه عنها البشر، بسطت يداك فأوتيت هداك ممن هداك. انتهى[322]

ثم مر ما يقرب من الحول، فانتابني حال غير الأول، وكان يهجم علي بالليل أينما كنت، فأحس بالوحشة من الخلق، ويرق قلبي وتفيض عيناي، وتغلبني الرغبة في الخروج عن العمار في الحين والساعة؛ فألتحق بالبيت، وأغتسل على طهارتي، وأخرج لا أحمل معي مالا، حتى يصح توكلي، فإذا فاتني الحال، رجعت

ولما شاء الله تعالى هدايتي إلى نهج عباده الصالحين، بعد أن رزقني محبتهم، رأيت فيما يرى النائم أني واقف على باب قبة مولاي إبراهيم الأمغاري،[323] طير الجبال، وكان ذلك سنة أربعة وتسعين، و لم يسبق لي أن قصدته أو زرته من قبل، بل كنت لا أبيح زيارة الأولياء، وأنهى الناس عن زيارتهم

---

[322] المرجع نفسه

[323] ومنهم الشيخ الفياض الرباني، أبو إسحاق، سيدي إبراهيم بن أحمد بن الولي الصالح سيدي عبد الله بن حسين، كان هذا الرجل آية من آيات الله تعالى في الواردات الإلهية والأحوال الصادقة، (مع حسن سمت ومتابعة للسنة في أقواله وأفعاله).

أخذ عن جده المذكور، وعليه كان معوله، ويقال أنه استمد من جده المذكور مع الشيخ الشهير أبي العباس سيدي أحمد بن موسى السملالي، وكان أبو العباس قدم تامصلوحت برسم ملاقاة سيدي عبد الله بن حسين، في بعض قدماته على السلطان الغالب بالله بمراكش، فوجد صاحب الترجمة، وهو صبي يدرج بين يدي جده، فقال الجد لأبي العباس: ادع له؟ فدعا له، وكانت بقرب الشيخين دجاجة تقرقر، فقال أبو العباس: إن هذه الدجاجة تقول في قرقرتها: "كيك كيك"، وهو حكاية صوت الدجاجة عند القرقرة، فهل عندكم موضع اسمه كيك؟ فقال له: نعم، فقال أبو العباس: إن هذه الدجاجة تقول: إن هذا الصبي لا يظهر أمره، (ولا يلمع سره)، إلا بذلك الموضع، فكان الأمر كذلك. فإن صاحب الترجمة، لما توسم فيه الناس الخير، ولاحت عليه مخائله، اجتمعت عليه شرذمة من الفقراء، وتلمذوا له، وذلك بداخل مراكش، فأنكر ذلك سلطان الوقت زيدان بن أحمد، وأمر بالقبض على صاحب الترجمة، فخرج من المدينة خائفا يترقب. فاستقر به الرحل بموضع يقال له: "كيك" من عمالة مراكش قبيلة سجنانة، و لم يزل به إلى أن توفي، وهنالك شاع ذكره وفاح على المريدين سره، فقصده الناس من الآفاق البعيدة، وشدوا له الرحال من النواحي الشاسعة، وازدحم على بابه ما لا يحصى، حتى أنه اجتمع عنده في بعض الأيام ثلاثون ألفا من الرجال، وتسع ألاف من النساء، وكانت له بركة ظاهرة في الطعام، فتجد طعامه قليلا، وهو مع ذلك يكفي الآلاف العديدة، وكان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، حتى أنه أعطى لبعض الناس ثلاثة آلاف أوقية، وأعطى لآخر اثنا عشر مائة أوقية، وذلك دأبه وسيرته على الدوام؛ وكان تعتريه أحوال يغيب فيها عن حسه، ويتكلم بالمغيبات، فتظهركما أخبرني به. ويحكى شائعا، أنه خرج يوما على الناس وهم جلوس، فقال: "هز القلوب هز يا من بيده العزة"، فتواجد جميع من حضر، فبقوا حيارى أياما، ثم خرج عليهم فقال: هز القلوب تبرا يا من بيده القدرة. فرجع الناس إلى إحساسهم، وفارقتهم أحوالهم وكان يقول: لا ياتينا إلا من أمنه الله، مقامنا هذا مقام إبراهيم الخليل: "ومن دخله كان آمنا"، آل عمران97 وكان يقول: من عرفنا وعرف غيرنا، لم يجدنا و لم يجد غيرنا، ومن عرفنا وقام بمعرفتنا، وجدنا ووجد غيرنا. وكان يقول: دارنا دار سر، لا دار علم. وكان إذا دخل شهر المحرم، ترك حلق الشعر والزينة، فإذا أليم على ذلك، قال: ما فعلنا هذا، إلا امتعاضا لقتل الحسين رضي الله عنه، وا أسفا على ما وقع فيه بين

رأيت فيما يرى النائم، أنني واقف على باب ضريح مولاي إبراهيم، أنتظر قوما وقفوا في الصف قبلي، يدخلون واحدا تلو الآخر، حتى يحين دوري وأدخل مثلهم

فلما دخلت، رأيت الدربوز حيث قبره تحته، فقال لي رجل عنده، وكأنه المقدم، وكان قريبا من الدربوز، قال: ضع اثنين وتسعين ريالا في الصندوق، يقصد بذلك الزيارة؛ فقلت مستهزئا: ولم لا تكملها وتقول: مائة؟ فقال: ثمانية ريالات تتمة المائة، ثمن الشمعة

فلما انتبهت من نومي، قلت: لن أذهب لزيارته، فزيارته لا تجوز، ولعل ما رأيت، من صنع الشيطان لعنه الله تعالى

ثم بعد ذلك، كان أن خرجت مع صديق لي اسمه علال ليلا، نتجاذب أطراف الحديث، تحت جبل سيدي قاسم الناظوري بولجة الرباط، وعدنا، فلم أدخل البيت إلا والأهل قد ناموا، فنمت، ولما كان الصباح استيقظت زوجتي شاذلا حفظها الله، وقالت: رأيت فيما يرى النائم، أني أصعد جبلا وأمشي في طريق ملتو، وأنا حافية القدمين أشعر بالعطش والعياء، فلما بلغت أعلى الجبل، رأيت شيخا كبيرا بجلباب ولحية، يمسك إبريقا وقدحا من نحاس، فقال: أتريدين أن تشربي يا ابنتي؟ قالت: فقلت: نعم يا سيدي، قالت: فملأ القدح من الإبريق وسقاني، فشربت وارتويت وغادرني العياء، ثم قال الشيخ: أتعرفين من أنا يا ابنتي؟ قالت: قلت: لا يا سيدي، فقال: أنا سيدي قاسم الناظوري

فلما سمعت ما قالت شاذلا، أصابني الدهش، وقلت في نفسي: كيف وقد كنت عند قبره البارحة وصديقي، وقت أن كانت نائمة بالليل؟ ولم يكن عندها خبر بذلك، ولا أخبرتها به قبل أن تحكي ما رأت، فكيف علمت وكيف وصفت الطريق الملتوية إلى قبته من أسفل الجبل إلى أعلاه، ولم يسبق أن وصلت هناك، وإنما كانت تسمع باسمه مني ومن الناس؟

وبعدها رأيت في منامي مروحية لها أظلاف خشبية، تدور مقابل وجهي بقوة، فإذا هي تتوقف عن الدوران فجأة، فنظرت فيها، فإذا مكتوب على أحد أظلافها من نور اسم: إبراهيم

فقمت فزعا، وخفت على نفسي مما رأيت، وقلت: لئن لم أزر مولاي إبراهيم، فلربما أصبت بأذى.

الصحابة رضي الله عنهم. وكان يعمل السماع ويجتمع أصحابه على الحضرة على الكيفية المعهودة، وربما تواجد ودخلها معهم، وأحواله رضي الله عنه ومناقبه أكثر من أن تحصى. وكانت له مشاركة في العلوم، أخذ عن الشيخ المنجور، وعبد الله بن طاهر الحسني، وأبي مهدي السجتاني وغيرهم. وتوفي رحمه الله سنة اثنين وسبعين وألف، عن سن عالية، يقال: إنه أناف على المائة، ودفن بإزاء زاويته، بأعلى قبيلة سجتانة، وبنيت عليه قبة حافلة، وقبره إلى الآن مزارة عظيمة. انتهى من صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر

فلحقت بصديقي علال، وكان يملك سيارة، فحكيت له عن الأمر، وأبديت له رغبتي في الزيارة، فقال: أذهب معك إن شاء الله تعالى

ونحن نستعد للذهاب، أعطاني، قضى الله حاجته، بعض المال، وقال: أتركه لأهلك حتى تعود، ففعلت. ثم عدنا إلى البيت فقالت زوجتي: لقد جاء خالك من سفره ليراك، فلم يجدك وترك لك بعض المال والهدايا، ثم ذهب لزيارة أختك، وأوصاني أن تلحق به متى جئت هناك

وكان هذا الخال قد سافر خارج المغرب وانقطعت أخباره زهاء ثلاثين عاما، ولم نكن نعرف أحي هو أم ميت، فقلت في نفسي: لعل هذا مانع لما أنا مقبل عليه من سفر وزيارة، ولن أحجم عن سفري هذا لأبقى مع خالي، مهما تغيب. فرددت النقود التي أعطانيها صديقي علال، وقلت له: لقد ترك الخال لي بعض المال فلا حاجة لي بهذه. فلم يقبل، وردها علي فتركتها مع الأهل زيادة

فقلت في نفسي: ما أيسر هذه الزيارة، فقد سخر الله لي رفقة وركبا، ورزقني ما أترك للأهل من مصاريف.

ثم انطلقنا، ومر علال على صهره وصديقه بالبيضاء، فأخذناهما معنا إلى مولاي إبراهيم، وكانا من خيرة خلق الله تعالى.

فوصلنا إلى قبة مولاي إبراهيم عند الفجر، فلما صلينا توجهنا إلى القبة، فإذا الباب هو الباب، وإذا وجهته هي الوجهة، كما رأيت في منامي

ولما دخلت القبة ورأيت الدربوز زاد عجبي، فذلك نفسه ما رأيت في منامي

فوضعت اثنين وتسعين ريالا في صندوق الزيارة كما رأيت، وسألت رجلا يقعد إلى جانب الدربوز يفرق ملحا على الزائرين: هل عندك شمعة؟ قال: لا، ولكن سأعطيك شمعة لي، فاستخرجها من خزانة صغيرة فوق رأسه، فقلت: وكم ثمنها؟ قال: عشرة ريالات، فقلت: بل أعطيك ثمانية، ولا تحسبه بخلا مني، ولكن هذا ما رأيت في منامي، فأردت أن يكون كما رأيت، فأخذتها منه ووضعتها على الدربوز

ثم صعدنا جبل الخلوة، حتى أدركناها بعد لأي ومشقة بحول الله تعالى وقوته، وفي الخلوة نزل علي ما نزل من منن الرحمن عز وجل، تلقيته في روعي من خزائن رحمته، أتبعه سكينة في القلب وبرد في الخاطر، فأصبحت لتوي محبا لأوليائه الصالحين، رحيما بأمة سيد المرسلين، ومحا الله تعالى ما في قلبي من شك و ضغينة؛ وما زلت على ذلك إلى يومنا هذا والحمد لله رب العالمين

ومن شدة حلاوة ما وجدته في رحلة زيارة مولاي إبراهيم، وما شعرت به، نظمت في ذلك قصيدة أوردها في كتابي هذا، عرفانا لمنة الرحمن الرحيم، واعترافا بقدر أولياء الله الصالحين، نفعنا الله ببركتهم آمين

قصيدة في زيارة أبي الفتح لضريح مولاي إبراهيم الأمغاري

اشرب خمور الوجد تعرف سكرتي ... واسبح في بحري واغترف من غرفتي

واهجر طلولا دارسات بالبلى ... واقصد بناء شامخا في جدة

ما موقف الأحباب يشكون الجوى ... من هجر ليلى أو تنائي عزة؟

إن الجوى في القلب ذنب للهوى ... كم من ذنوب للهوى في مهجتي

أواه من قلب دهته فتنة ... دقت به أوتادها كالخيمة

ليل بها داج وما فيه سنا ... إلا ظلال لم تزح من ظلمة

اعتل مني ناحل في صبوة ... والفكر أضحى هائما في حيرة

مولاي إبراهيم كن لي عبرة ... هل لي في زماني بعدكم من عبرة؟

لله قل لي يا دفينا في العرا ... ما هجرك الدنيا ورغد العيشة؟

فيم اعتزال الناس في هذي الذرى ... حتى أتوا في جمعهم للذروة؟

ناديتني في ظلمة لا تنجلي ... تدعو كفيفا في الدجى للقبة

أخرجتني من غفلتي في غفوة ... أصبحت منها نادما في صحوتي

يا خائفا مما جنى لا تترعج ... ربي غفور فاجتهد في التوبة

لا تبتئس إن المنايا طبعنا ... لا تبتهج عمر المنى كالشمعة

مالي غريب بين أهلي لم أزل ... مالي كئيب والورى في فرحة؟

لولا الردى ماكان مني ما ترى ... فاخلد إذا خفت الردى في الحفرة

باتت سمائي في ضياء تزدهي ... تشجي ضجيعا ما بها من غيمة

والأوليا هم أنجم في عرضها ... يهدون ركبا تاه تحت الدجلة

لولاكم ماكنت أدري ما الهوى ... أو خفقة القلب الشديد الخفقة

أخلصت للاحباب حبي الأولي ... والأول الله البديع الصنعة

أولى الأحبا بالهوى يا سائلي ... يخفي محياه ويبدي لوعتي

وحدت ربا في الهوى من بعد ما ... أشركت بالله دلال النسوة

مولاي إبراهيم أشعلت الحشا ... نارا تعالى أنسها في جذوتي

أمغار داوى سقم نفسي فاستوت	تبغي الهدى ما تبتغي من لذة
داع إلى الله يداري سره	يخشى ظهورا في سماء الرفعة
يقري ضيوفا قد أتوا في رغبة	يدري أمورا من علوم الحكمة
دان إلى من شاء منه منة	عال على أولي الغنى والسطوة
قطب إذا الأقطاب تاهوا ردهم	فضل ونحرير قوي الحجة
شيخ جواد ليس يخشى فاقة	لم يفتقر شيخ كثير الوصلة
لا فقر إلا للذي في عرشه	أغنى البرايا قانع في ملتي
لا أنس إلا أنس رب عندنا	لا خوف إلا من إله الخلقة
ويحي قهرت الجن في أغواره	ما كنت أخشى من وعيد الجنة
ذابوا بناري كالفراشات التي	طافت بمصباح قوي الوهجة
ما خفت فقرا في حياتي أو ردى	ما خفت إنسيا شديد البطشة
والمال عندي مثل حبات الثرى	والكبر في ديني عديم النسبة
والداء إن يطرق فصبري مصله	صبري عقارات أزالت علتي
إبليس كم أخنسته من لفظة	كل الشياطين اشتكت من لفظتي
سل عن علومي كل سفر جامع	سل عن فنوني ثم سل عن شهرتي
سل عن وقوفي عند رسم دارس	سل عن نسيبي كم سبى من مرأة
لكن نفسي في شموخ أزبدت	أمارة بالسوء تبغي هفوتي
يا نفس هل لي عنك من ركن لكي	آوي إليه من سياط الشهوة؟
يا نفس كفي عن أذائي وارجعي	إن الأماني عند باب الرجعة
إن تعشقي حسنا فما من عاشق	أمسى قريرا تحت تلك الصخرة
أو تطلبي مالا فما من طالب	مالا أتى بالمال رأس العزة
لولا مقام منك في جنبي لم	أعرف هوانا في ربوع النعمة
موتي لأحيى إن روحي حية	غوري لأمشي في سبيل الصفوة
مولاي إبراهيم هل همنا فلم	نعرف طريقا في طلاب الخلوة
تهفو بنا الأشواق في هذي الفلا	حيث الهوى يشجي ويطفي ظمأتي

خارت قوانا ياتبيع المصطفى   والصحب أضحوا كلهم في ورطة

بشرى لنا هذا البناء المرتجى   أحجاره تبدو وتسبي نظرتي

هبوا فهذا ما أردتم قد بدا   زوروا مقاما وارتعوا في الروعة

مولاي إبراهيم هذا حصنكم   يهوي إليه خلدنا في خفية

هذا مكان يا ولي الأوليا   واليت فيه خالقا في عزلة

أبشر فقد نلت الذي من أجله   خضت الجبال الشم ثبت الخطوة

كن لي وليا يا إلهي إنني   أهوى وليا زارني في هجعتي

مالي سوى حب بأحشائي لمن   كانوا سراجا في دياجي الوحشة

أهواهم فيما هووا من قربة   علي بهم أحظى بتلك القربة

ما حدت عن دين الهوى يوما فما   خلت الهوى يثنيه لوم الإخوة

ارحم إلهي عبدك الجاني فقد   أعياه ذنب واشتكى من جنحة

فح يا نسيم البشر في الطور الذي   طارت إليه الروح واكشف غمتي

طوبى لنا قد همنا ريح الصبا   في قمة فاحت بعطر الجنة

في هذه الخلوات حلت رغبتي   كم من ولي هاهنا في حضرتي

كم من صلاة قد أقيمت هاهنا   كم من لسان ذاكر بالسبحة

كم من كرامات من الله أتت   كم من رياضات وكم من دعوة

دعني أصلي في مقام خاشعا   في ركعتي أو ضارعا في سجدتي

إن همني حالي فأدعو ربنا   إني عميد في ربوع الغربة

اغفر لإخواني ذنوبا في الخفا   واجعلهم من أهل تلك الجذبة

أقبل عليهم يا إلهي إنهم   قد أقبلوا يشكون شؤم الوحدة

صل وسلم يا إله المصطفى   على نبي مجتبى للختمة

والآل والأصحاب وارفع شأنهم   أنصارهم أو من مشى في الهجرة

فصل في الكلام على لبس الصوف وهديه ﷺ في الكسوة واللباس

وقد عرف المتصوفة بلبس الصوف، حتى قيل أن ذلك من أسباب تسميتهم بالصوفية، فلبسوا المراقع والأسمال دون اضطرار لذلك، ومن المشايخ من جعل لبسها من أسس الطريق ومن أدوات التربية، مما يدخل في مجاهدة النفس والتضييق عليها

و لم يثبت عن إمام المتقين ورسول رب العالمين ذلك، فما لبس محمد ﷺ البلى وعنده الجديد، بل كان لا يلبسه إلا اضطرارا، ولا أمر بلبس ما خلق واهترأ مع وجود ما جد وحسن

وقد ظن بعض المتصوفة، أن إصلاح النفس يدخل فيه حتى حرمانها مما أحل الله لها، وفي ذلك خروج واضح عن هدي رسول الله ﷺ

عن حماد بن زيد، نا جليس لأيوب قال: دخل الصلت بن راشد على محمد بن سيرين، وعليه جبة صوف وإزار صوف وعمامة صوف، فاشمأز منه محمد وقال: أظن أن أقواما يلبسون الصوف، يقولون قد لبسه عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد حدثني من لا أتهم: أن رسول الله ﷺ قد لبس الكتان والقطن واليمنة، وسنة نبينا ﷺ أحق أن تتبع. رواه الأصبهاني في أخلاق النبي ﷺ

فأصبح للمتصوفة زي تميزوا به عن المسلمين، وأصبح هذا الزي علامة على التصوف، وكل من يلبس الصوف متصوفا، في حين أن مجاهدة النفس تكون بحرمانها مما ليس لها فيه حق، مما حرم الباري عز وجل

والحرام من اللباس ما أريد به البطر والخيلاء

وقال الإمام أحمد: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ قال: "كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا، في غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده". انتهى[324]

أما سوى ذلك، فقد لبسه رسول الله ﷺ، وسنه للمسلمين، فلا نرى في مذهبنا أن لبس الصوف والمراقع والأسمال من شأنه أن يقهر النفس، ولا نرى أن لبس أحسن الثياب يطغيها

بل نعتبر الأول تميز عن المسلمين وخروج عن سنة سيد المرسلين، ولا ننصح به، وهو اعتراف بالفاقة وقلة اليد، وهو إعلام للناس بالتجرد، في حين أن أولياء الله الصالحين، يكتمون أحوالهم، ويحفظون قلوبهم عن الناس

أما الثاني، وبه ننصح، ففيه اعتراف بنعمة الله تعالى على العبد، وفيه ستر للحال لمن كان له حال مع الله

ولكن المطلوب، أن تخلع طبائع النفس، وأن تلبس لباس التقوى

فكم من لا بس صوف ليس له على النواهي وقوف، وكم من لا بس حلة واقف عل شرائع الدين والملة، وكم من لابس أسمال ليس له مع الله حال

---

[324] تفسير ابن كثير

يقول الله تعالى: "يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا، ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون، قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون". [325]

يقول الحافظ ابن كثير: وقال البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت، والبس ما شئت، ما أخطأتك خصلتان: سرف ومخيلة. انتهى[326]

يقول تعالى ردا على من حرم شيئا من المآكل أو المشارب والملابس من تلقاء نفسه، من غير شرع من الله: "قل" يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يحرمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم: "من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة الآية"، أي: هي مخلوقة لمن آمن بالله وعبده في الحياة الدنيا، وإن شركهم فيها الكفار حسا في الدنيا، فهي لهم خاصة يوم القيامة، لا يشركهم فيها أحد من الكفار، فإن الجنة محرمة على الكافرين. انتهى[327]

عن أنس رضي الله عنه قال: لما ولدت أم سليم، قالت لي: يا أنس، انظر هذا الغلام، فلا يصيبن شيئا حتى تغدو به إلى النبي ﷺ يحنكه، فغدوت به، فإذا هو في حائط وعليه خميصة حريثية، وهو يسم الظهر الذي قدم عليه في الفتح. رواه البخاري

عن قتادة عن أنس قال: قلت له: أي الثياب كان أحب إلى النبي ﷺ أن يلبسها؟ قال: الحبرة.[328] رواه البخاري

عن أبي إسحق: سمع البراء رضي الله عنه يقول: كان النبي ﷺ مربوعا، وقد رأيته في حلة حمراء، ما رأيت شيئا أحسن منه. رواه البخاري

عن عبيد بن جريج: أنه قال لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: رأيتك تصنع أربعا لم أر أحدا من أصحابك يصنعها، قال: ما هي يا ابن جريج؟ قال: رأيتك لا تمس من الأركان إلا اليمانيين، ورأيتك تلبس النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة، أهل الناس إذا رأوا الهلال، و لم تهل أنت حتى كان يوم التروية. فقال له عبد الله بن عمر: أما الأركان: فإني لم أر رسول الله ﷺ يمس إلا اليمانيين، وأما النعال السبتية: فإني رأيت رسول الله ﷺ يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما

---

[325] الأعراف29-31

[326] تفسير ابن كثير

[327] المرجع نفسه

[328] والحبرة، والحبرة: ضرب من برود اليمن منمر، والجمع حبر وحبرات. انتهى من لسان العرب

الصفرة، فإني رأيت رسول الله ﷺ يصبغ بها، فأنا أحب أن أصبغ بها، وأما الإهلال، فإني لم أر رسول الله ﷺ يهل حتى تنبعث به راحلته. رواه البخاري

قال أبو الفتح: وقد لبس النبي ﷺ الخميصة والحلة والجبة والرداء والبردة والثوب والعمامة والقلنسوة والنعل والخفين، ولبس القطن والصوف، وكان أحب اللباس إليه القميص والحبرة

وقد أخذنا لك أيها القارئ الكريم من كتاب: أخلاق النبي ﷺ وآدابه، للحافظ أبي محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، المعروف بأبي الشيخ، توفي سنة: 369هجرية، رحمه الله تعالى، بعض ماروواه في لباس النبي ﷺ، وإلا فالمقام يضيق بسرد غيره في هذا الكتاب:

عن سهل ابن سعد، قال: خيطت لرسول الله ﷺ جبة من صوف أنمار، فلبسها، فما أعجب بثوب ما أعجب به، فجعل يمسه بيده هكذا ويقول: انظروا ما أحسنها، وفي القوم أعرابي، فقال: يا رسول الله، هبها لي، فخلعها، فدفعها في يده، قال: ثم أمر بمثله أن يحاك، وتوفي رسول الله ﷺ وهو في المحاكة.

عن أم سلمة قالت: كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ القميص.

عن أسماء بنت أبي بكر أن النبي ﷺ كانت له جبة من طيالسة مكفوفة بالديباج، يلقى فيها العدو.

عن دحية الكلبي أنه أهدى إلى النبي ﷺ جبة من الشام وخفين، فلبسهما النبي ﷺ حتى تخرقا، فلم يتبين أو لم يعلم أذكيان أو ميتة، حتى تخرقا.

نا ابن لهيعة عن محمد بن عبد الرحمن بن نوفل، أنه حدثه عن عروة: أن ثوب رسول الله ﷺ الذي كان يخرج فيه إلى الوفد، رداء وثوب أخضر، طوله أربعة أذرع، وعرضه ذرعان وشبر، وهو عند الخلفاء اليوم، قد كان خلق فطووه بثوب، يلبسونه يوم الفطر والأضحى.

عن البراء قال: ما رأيت من ذي لمة في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ.

عن جعفر بن عمرو بن حريث عن أبيه قال:رأيت النبي ﷺ يخطب، وعليه عمامة سوداء....عن أبي الزبير عن جابر قال: دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وعليه عمامة سوداء.

عن ابن عباس قال: كان لرسول الله ﷺ ثلاث قلانس: قلنسوة بيضاء مضربة، وقلنسوة برد حبرة، وقلنسوة ذات آذان، يلبسها في السفر، وربما وضعها بين يديه إذا صلى.

عن عائشة رضي الله عنها: أنها قالت: صنعت لرسول الله ﷺ بردة سوداء من صوف، فلبسها، فأعجبته فلما عرق فيها فوجد ريح الصوف قذفها.

الشيخ وفت ما نظرتيه ذكرت الله وعرفتيه
وياك إلى لقيتيه عنو فى يوم تيه

يقول: الشيخ هو الذي إذا رأيته ونظرت إليه عرفت به الله وذكرته، إياك إذا لقيته أن تتيه عنه في يوم من الأيام
والمعنى: إن من علامات الشيخ أنك متى نظرت إليه ذكرك بالله حاله

قال الألوسي: فقد أخرج ابن المبارك والترمذي في: نوادر الأصول، وأبو الشيخ وابن مردويه وآخرون عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل: يا رسول الله، من أولياء الله؟ قال: "الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى"، أي لحسن سمتهم وإخباتهم. انتهى[329]

عن أسماء بنت يزيد، أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ألا أنبئكم بخياركم؟" قالوا: بلى يا رسول الله، قال: "خياركم الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل". رواه ابن ماجه

رحلة أبي الحسن الشاذلي في طلب القطب

قال رحمه الله: لما دخلت العراق، اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي،[330] فما رأيت بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثيرة، وكنت أطلب (القطب)، فقال لي الشيخ أبو الفتح: تطلب القطب بالعراق، وهو في بلادك؟ ارجع إلى بلادك تجده.

فرجعت إلى بلاد المغرب، إلى أن اجتمعت بأستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث، أبي محمد عبد السلام بن بشيش، الشريف الحسني. فلما قدمت عليه، وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل، اغتسلت

---

[329] روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني

[330] ومنهم الشيخ أبو الفتح الواسطي رضي الله عنه: شيخ مشايخ بلاد الغربية بأرض مصر المحروسة، وكان من أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي، فأشار إليه بالسفر إلى مدينة الإسكندرية، فسافر إليها، وأخذ عنه خلائق لا يحصون، منهم الشيخ عبد السلام القليبي، والشيخ عبد الله البلتاجي، والشيخ بهرام الدميري، والشيخ جامع الفضلين الدنوشري، والشيخ علي المليجي، والشيخ جمال الدين البخاري، والشيخ عبد الوهاب، والشيخ عبد العزيز الدريني، وأضرابهم. وكان مبتلى بالإنكار عليه، وعقدوا له المجالس بالإسكندرية، وهو يقطعهم بالحجة.

وكان خطيب جامع العطارين من أشدهم عليه، فبينما هو يوما فوق المنبر والأذان بين يديه، تذكر أنه جنب، فمد له الشيخ أبو الفتح كمه فوجده زقاقا فدخله، فرأى فيه ماء ومطهرة، فاغتسل وخرج، فجلس على المنبر. فلما ستره الشيخ هذه السترة، اعتقده وصار من أجل أصحابه رضي الله عنه. مات في نحو الثمانين والخمسمائة، ودفن بالإسكندرية، وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنه. انتهى من الطبقات الكبرى للشعراني

في عين أسفل الجبل، وخرجت من علمي وعملي، وطلعت إليه فقيرا، وإذا به هابط علي، فلما رآني قال: مرحبا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار، وذكر لي نسبي إلى رسول الله ﷺ

ثم قال لي: يا علي، طلعت إلينا فقيرا عن علمك وعملك، فأخذت منا غنى الدنيا والآخرة.

فأخذني منه الدهش، وأقمت عنده أياما، إلى أن فتح الله على بصيرتي، ورأيت له خرق عادات.

فمنها: أني كنت يوما جالسا بين يديه، وفي حجره ابن له صغير، فخطر ببالي أن أسأله عن اسم الله الأعظم، قال: فقام إلي الولد، ورمى بيده في طوقي، وهزني وقال: يا أبا الحسن، أنت أردت أن تسأل الشيخ عن اسم الله الأعظم، إنما الشأن أن تكون أنت اسم الله الأعظم، يعني أن سر الله مودع في قلبه

قال: فتبسم الشيخ وقال: جاوبك فلان عني؛ وكان إذ ذاك قطب الزمان، ثم قال: يا علي، ارتحل إلى إفريقيا، واسكن بها بلدا تسمى شاذلة، فإن الله عز وجل يسميك الشاذلي

وبعد ذلك تنتقل إلى مدينة تونس، ويؤتى عليك بها من قبل السلطنة، وبعد ذلك تنتقل إلى الديار المصرية، وبها ترث القطبانية. انتهى[331]

[331] درة الأسرار وتحفة الأبرار

علامات الشيخ الواصل

ما يفضل نفسو على غاشي ما يتبختر ؤ هو ماشي
ما يحب الزواق ؤ التواشي حايز نفسو للحواشي

يقول: الشيخ هو الذي لا يفضل نفسه على أحد، ولا يتبختر في مشيته، ولا يحب التصنع والمجاملات، وهو الذي يكتفي بملازمة الحواشي حتى لا يكون إلا في غبراء الناس ولا يتميز عنهم بشيء

والمعنى: من المحال أن يرى الشيخ لنفسه درجة على الناس، أليس من سماته التواضع واحتقار النفس؟ أليس لو كان يفضل نفسه على الناس لم يكن له من المعرفة نصيب؟

ومن المحال كذلك، أن يتبختر الشيخ في مشيه، بل مشيه أبعد ما يكون من ذلك

قال الله تعالى: "وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما".[332]

روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أنه قال يصف مشي النبي ﷺ: "إذا مشى تكفأ تكافؤا كأنما انحط من صبب".[333]

والشيخ يكره التزين والتزلف والمجاملات، بما ليس فيه، ما حاجته لكل ذلك؟ أليس من يفعل ذلك يبتغي به شكر الناس؟ فكيف والشيخ يدعو الله تعالى أن يواريه عنهم؟

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت في سياحتي في مبدأ أمري حصل لي تردد: هل ألزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ فوصف لي ولي هنالك، وكان برأس جبل، فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلا، فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت؛ فسمعته يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي، حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، قال: فالتفت إلى نفسي وقلت: يا نفس انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت، دخلت إليه فأرعبت من هيبته، فقلت له: يا سيدي كيف حالك؟

---

[332] الفرقان63

[333] عن علي قال: لم يكن رسول الله ﷺ بالطويل ولا بالقصير، شثن الكفين والقدمين، ضخم الرأس ضخم الكراديس، طويل المسربة، إذا مشى تكفأ تكافؤا كأنما انحط من صبب، لم أر قبله ولا بعده مثله. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم، كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار

فقلت: يا سيدي، أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟

فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله

قلت: يا سيدي، سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك. اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق علي، حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، فتبسم ثم قال: يا بني، عوض ما تقول: سخر لي خلقك، قل: يا رب كن لي، أترى إذا كان لك، أيفوتك شيء؟ فما هذه الجناية؟ انتهى[334]

يقول الأستاذ نبيل معين عساف في مقدمته على قواعد التصوف: وبذلك صدقت عبارة الشيخ (يعني به أحمد زروق الفاسي) حين سأله خادمه أحمد عبد الرحيم يوما بعد استقراره في مصراتة: "ألا نبني هنا زاوية ونتخذ لها أوقافا؟" وكان جواب الشيخ بالنفي القاطع وهو يقول: "يا أحمد، نحن لا تفوح رائحة مسكنا إلا بعد ما نتسوس تحت التراب"؛ وبعد وفاة الشيخ بعشرين عاما كاملة، كثر خلالها عدد الزائرين لضريحه، وذاع صيته في الآفاق، بنى أحمد عبد الرحيم جامعا بجانب الضريح وعاش فيه، وصار هذا الجامع بمرور الزمن "زاوية سيدي أحمد زروق". انتهى[335]

بل إن الشيخ يتحاشى مواضع الظهور والشهرة، ويكتفي بملازمة الحواشي والأطراف، حتى لا يعيره أحد أي اهتمام

وقيل لأبي يزيد: متى يكون الرجل متواضعا؟ فقال: إذا لم ير لنفسه مقاما ولا حالا، ولا يرى أن في الخلق من هو شر منه. انتهى[336]

وقال شعيب بن حرب: بينا أنا في الطواف، إذ لكزني إنسان بمرفقه، فالتفت إليه، فإذا هو الفضيل بن عياض، فقال: يا أبا صالح، إن كنت تظن أنه شهد الموسم شرا مني ومنك، فبئسما ظننت. انتهى[337]

---

[334] لطائف المنن

[335] قواعد التصوف

[336] الرسالة القشيرية

[337] المرجع نفسه

الشيخ بحر لطمطام خاضوه الناس بالعرام
منهم خواص وعوام ما نجا غير العوام

يقول: الشيخ بحر لجي، متلاطم الأمواج، خاضه كثير من الخلق، منهم الخواص والعوام، فلم ينج منهم غير السباح الماهر

والمعنى: احذر أيها الطالب من صحبة المشايخ، فإن صحبتهم ليست كما تظن ويتهيأ لك، إنك أخي، إن صحبتهم، فإما أن تراعي حرماتهم، وتتأدب في مجالسهم وتسلم لأقوالهم وأفعالهم في حضورهم وغيابهم، فتفوز بالوصلة وترجع إلى أهلك مسرورا؛ وإما أن تستهين بهم، فتحصد المذلة وتدعو ثبورا

الشيخ بحر عالي الأمواج، عميق القعر، فما أكثر من خاضه من خواص الناس وعوامهم، لكنهم غرقوا، و لم ينج منهم إلا من يتقن السباحة والعوم

ونقول في المغرب في أمثلتنا الشعبية: يقول البحر: الذين يجيدون السباحة ضمنت أنهم جميعا في بطني، والذين لا يجيدون ضمنت نصف عددهم. انتهى

فإذا لم تكن أخي أهلا لصحبتهم، فاطلب السلامة لنفسك، حتى لا تلق الملامة، وابق في الساحل، إن قصرت عن تلك المراحل

وإذا كنت لها، فاخلع كسوة الفخر والتعزز، والبس قميص الفقر، وتذلل للأسياد حتى تبلغ المراد

إذا صحبت العالم وأسأت معه أدبك، فقد تتوب وتسلم، أما صحبة هؤلاء، فمتى أسأت الأدب معهم وخرجت، أتبعوك ما يردك إلى الصراط، فإن شاء الله لك الهداية اهتديت، وإلا هلكت

والتسليم لهم أدب قل من تأدب به، مهما ظن المريد أنه على قدم فيه

واعلم أن الشيخ يراعي خواطر أتباعه، يلتمس لهم المعاذير بما حباه الله تعالى من رحمة وصبر على عباده، فقد لايلومك على سوء تصرفك وتزيد في غيك، ظنا منك أنه بسكوته عنك لا يضره ذلك، حتى إذا بقيت على حالك و لم تتعظ كان الله حسيبك

فلتراع الله تعالى في معاملة شيخك، ولتعلم أن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا، فاعرف قدر من أخطأت في حقه

ومن حسن الأدب مع الشيخ، خدمته في كل شيء، ولو أن المشايخ يغلب عليهم الحياء، ولا يكثرون الطلب، وإنما الخادم من لا ينتظر الطلب، كما أن غاية الجود، أن تعطي قبل السؤال

يقول أحمد ابن عجيبة في شرح تائية شيخه البوزيدي: فمن طمع بالأخذ عنهم من غير طول الصحبة، لا يطمع في الولاية الكبرى، إذ لا يخرجه من طبعه، ولا يسلخه من علمه وعمله إلا طول الصحبة، وما دام المريد

لم يخرج عن طبعه، و لم ينسلخ عن علمه وعمله، لا يطمع في مقام الأذواق والوجدان، وما طال الفتح على بعض المريدين إلا من قلة صحبتهم لأشياخهم؛ وما تخلف الفتح عن بعض العلماء مع أخذهم من مشايخ التربية، إلا لعدم خروجهم عن طبعهم، وعدم انسلاخهم عن علمهم، فكانوا يصحبون المشايخ على رأي أنفسهم، لا على رأي أشياخهم، فبقوا في دائرة الأكوان مسجونين، وفي يد أنفسهم مأسورين، ثم قال الشيخ رضي الله عنه: قد كنا نقوم بالبعض من الخدمة، و لم نقم بالكل، فنلنا والحمد لله اقترابا ووصلة، قال ذلك هضما لنفسه، وإلا فقد كان قائما بأمر شيخه[338] أشد القيام.

يقوم بشأن داره في كل ما تحتاج إليه ما دام في صحبته، وحين فارقه كان مترددا إليه، قائما بجل مهماته، فعلى يديه بني مسجده وقبة (ضريحه في حياته) ضريح جده سيدي أحمد بن يوسف الدرقاوي رضي الله عنهم جميعا؛ وجل مصالح الزاوية كانت على يديه رضي الله عنه وأرضاه. ثم استقال وجود العارفين الذين يستحقون الخدمة فقال: وأين هم في الوجود؟ قل وجودهم، فهم أغرب من عنقاء مغرب لمن أبعدته السابقة، وأقرب من كل قريب لمن قربته العناية. كن طالبا تجد مرشدا، فقد كثرت الدعاوي، فأكثر أهل الوقت أرباب الدعوى، وأما التحقيق بالعرفان على طريق العيان فقليل، إلا ما ظهر من هذه الطائفة الميمونة الدرقاوية، ففيها كثير ممن تحقق بمعرفة العيان، فالله يحفظها ويرعاها، وينصرها على من نواها، آمين. وقد ضاع آداب المريد في وقتنا هذا، فقل من يقوم به على الوفاء، ومن وصل لسر الحقيقة، فإنما وصل بمحض الكرامة والفضل مع كرم أربابها، وقد ألف الشيخ رضي الله عنه في آداب المريد كتابا جليلا لم يؤلف مثله في الإسلام، تتبع الآداب من أولها إلى آخرها،

---

[338] وشيخه هذا، مولاي العربي الدرقاوي: أبو عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد، الدرقاوي الزروالي الشريف الحسني، ينتمي لجده العارف سيدي محمد بن يوسف، دفين تامسنة، من قبيلة الشاوية، الملقب بأبي درقة، من ذرية أبي العباس سيدي أحمد بن المولى إدريس الأنور بن مولانا إدريس الأكبر. انتهى

ولد مولاي العربي أوائل النصف الثاني من القرن الثاني عشر، بقرية بني عبد الله، من قبيلة بني زروال، وبها نشأ وتعلم القراءة وحفظ القرآن الكريم، وعندما صححه وأتقنه بالروايات السبع، اشتغل بطلب العلم، فرحل لمدينة فاس وأقام بها مدة، قرأ خلالها على أكابر علمائها وقته، ما قدر الله له من العلوم. انتهى

وقد عد من شيوخه الذين تبرك بهم: القطب مولاي الطيب الوزاني، والعارف البركة الشريف سيدي محمد بن علي بن ريسون العلمي، كان يزوره من فاس وبني زروال، والمجذوب الكبير سيدي العربي البقالي، والعارف الكبير سيدي علي الجمل العمراني، وهو عمدته وعليه عول. انتهى

تأخر مولاي العربي حتى خلافة مولاي سليمان بن سيدي محمد، فقد وافاه أجله المحتوم سنة 1239، بعد ما عاش نحوا من 80 سنة، وذلك بزاوية حيط ليلة أو كدية ليلة، ونقل لزاويته القديمة ببوبريح، وبها دفن رضي الله تعالى عنه. انتهى من المطرب

فجزاه الله عن المسلمين خيرا، فلولا أن رجال الحقيقة في زماننا هذا كرام يمدون بوصفها من طلبها، ما نال أحد منها شيئا، لعدم القيام بتمام الآداب، والله تعالى أعلم. انتهى[339]

آداب المريد مع شيخه

سلم ليه يا الطالب لا تروح عنو سالب
اخدمو وكن ليه صاحب لا تسال حتى يجاوب

يقول: سلم لشيخك أيها الطالب، فإذا لم تفعل، فقد تفارقه بمحض إرادتك وأنت مسلوب، اخدمه وكن له صاحبا، ولا تسأله عن شيء حتى يجيبك عنه

والمعنى: إذا أكرمك الله بصحبة بشيخ فاضل، فسلم له أمرك، ولا تكثر من الاعتراض حتى لا تحرم صحبته، واخدمه وصاحبه بصدق ومعروف، ولا تكثر عنده من الكلام، ولا تسأله في الصغيرة والكبيرة، واعلم أنه أعلم بك من علمك بنفسك، فانتظر حتى يجيبك، متى شاء، وبذلك تبلغ غاية الأدب مع الشيخ.

قال القشيري: ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم فيحسن بهم الظن، ويراعي مع الله تعالى حده فيما يتوجه عليه من الأمر، والعلم كافيه في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول. انتهى[340]

سمعت يحيي بن معاذ يقول: أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار. انتهى[341]

وحدثني أبو عمران موسى بن وركون الهسكوري قال: حدثني برباط شاكر، أبو علي مالك بن تماجورت قال: تزوج صاحب من أصحاب أبي يعزى،[342] فطلبت منه زوجته مملوكة ولم تكن عنده، فقال له أبو يعزى: أنا

---

[339] الخمرة الأزلية

[340] الرسالة القشيرية

[341] المرجع نفسه

[342] منهم الشيخ أبو يعزى بلنور بن ميمون

قال قوم: إنه من هزميرة إيروجان، وقيل: من بني صبيح من هسكورة؛ مات وقد أناف على مائة سنة بنحو الثلاثين سنة، ودفن بجبل إيروجان، في أول شهر شوال عام اثنين وسبعين وخمسمائة، وكان قطب عصره وأعجوبة دهره

أنوب مناب المملوكة، وكان أسود لا شعر بوجهه، فتزيى بزي المملوكة، وأقام يخدمه وزوجه عاما كاملا، فيطحن ويعجن ويخبز ويسقي الماء بالليل، ويتفرغ بالنهار للعبادة في المسجد، فلما كمل العام، قالت الزوجة لزوجها: ما رأيت كهذه المملوكة، تعمل بالليل جميع ما يعمل بالنهار ولا تظهر بالنهار، فأعرض عنها وتغافل عن جوابها؛ فما زالت تسأله إلى أن قال لها: ما خدمك إلا "ونلكوط"، وليس مملوكة، فعلمت أنه أبو يعزى، فقالت: والله لا خدمني بعد هذا أبدا، ولأخدمن نفسي، فجعلت تخدم نفسها من حينئذ.

وحدثني غير واحد، أن ذلك الصاحب الذي خدمه أبو يعزى على أنه مملوكة، هو الشيخ أبو شعيب أيوب السارية[343]، وأنه لما أخبر زوجته بخدمة أبي يعزى لها، دخل المسجد على أبي يعزى وهو يتبسم، فقال له أبو

سمعت أبا علي الصواف يقول: سمعت أبا مدين يقول: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا هذا، فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى، وقال: ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الإحياء للغزالي. انتهى

وذكروا أنه كان في ابتداء أمره راعيا، وكان يصنع له كل واحد من أرباب المواشي التي يرعاها رغيفتين كل يوم، فكان يأكل رغيفا واحدا، ويؤثر بالرغيف الثاني رجلا منقطعا في المسجد لقراءة القرآن، ثم انقطع في المسجد رجل آخر يقرأ القرآن، فآثره على نفسه بالرغيف الثاني، وجعل يأكل من نبات الأرض. فلما رأى أنه يكفيه النبات عن الطعام، قال: ما أصنع بالطعام ونبات الأرض يغنيني عنه؟ انتهى

حدثني يوسف بن سليمان قال: حدثني إبراهيم بن وجلوط قال: حدثني ميمون بن وايور الباروطي قال: زرت الشيخ أبا يعزى، فأقمت عنده، فجاءت إليه جماعة من المنكرين عليه من أهل فاس، فخرج مع جماعة إلى لقائهم بالغابة، فلما رأوه نزلوا عن دوابهم ليسلموا عليه، فخرج من الشعراء أسد، فوثب على دابة أحدهم، فصاح عليه أبو يعزى ودنا منه، إلى أن أخذه بأذنيه ونحن ننظر إليه، فقال لأصحابه: اركبوه، فهابوا ركوبه، قال ميمون: فوثبت على ظهره وأجريته مرات، والواصلون للإنكار على أبي يعزى ينظرون إلي على ظهره، وكنت أحس وبره ينفذ من ثوبي إلى جلدي، فأقمت ساعة كذلك، ثم نزلت عنه فذهب.

وحدثني أبو عمران موسى بن وركون الخطابي قال: حدثنا عبد العزيز بن مسري الهسكوري، تلميذ أبي يعزى قال: سمعته يقول: أقمت عشرين سنة في الجبال المشرفة على "تنمل"، وليس لي بها اسم إلا "أبو وجرتيل"، ومعناه بالعربية: صاحب الحصير، ثم انحدرت إلى السواحل، فأقمت بها ثمانية عشر عاما لا اسم لي إلا "أبو ونلكوط"، وهو نبات معروف كان يأكله، فمررت في سياحتي بالسواحل بجارية، وهي تستغيث من وجع عينيها، فمددت يدي إلى عينيها فمسحتهما وذهبت، فسمعتها تقول: من مسح على عيني؟ فقد استراحتا. وأنا أجد في السير حتى انقطع عني سماع كلامها. انتهى

وحدثني غير واحد، أن الناس كانوا يأتون إلى أبي يعزى من كل بلد، فيطعمهم من عنده ويعلف دوابهم، وأن الفتوح كانت تأتيه من إخوانه في الله، فينفقها على زائريه، وأن أهل القرى القريبة منه، كانوا يضيفون الواصلين لزيارته ويتبركون بهم، فلما مات أبو يعزى، رئي في المنام وهو يطير في الهواء، فقيل له: بما نلت ما نلت؟ فقال: بإطعام الطعام. وأخبار أبي يعزى كثيرة عجيبة، اختصرت منها هذا القدر الذي أوردته في هذا الكتاب. انتهى من التشوف

[343] ومنهم أبو شعيب، أيوب بن سعيد الصنهاجي

يعزى: ما لك تتبسم؟ فأخبره بما كان بينه وبين زوجته، فقال له أبو يعزى: و لم أخبرتها؟ فهلا تركتني أخدمكما كما كنت؟ انتهى[344]

يقول أحمد بن عجيبة في فهرسته: اعلم أن خدمة المشايخ وصحبتهم هي سبب الظفر بالسر الأكبر، وما نال أحد مرتبة من مراتب الولاية إلا بالصحبة والخدمة، إلا من سبقت له مجاهدة كبيرة مثل ملاقاة الشيخ، كالشيخ الشاذلي وأمثاله، فتكفيه الملاقاة وبعض الصحبة، وقليل ما هم، مع أن الشاذلي، ما تكمل إلا بالمشرف على يد رجلين وامرأة؛ كما قال الطرطوشي: ولا يكمل الرجل كمال الرجال إلا بخدمة الرجال. انتهى[345]

إلى أن قال: وانظر قضية التباع والغزواني وسيدي عبد الله الوزاني، وغيرهم من الأولياء والصالحين، ما نالوا مرتبة الولاية وكمال الصلاح، إلا بخدمة مشايخهم

وكذلك حال شيخنا رضي الله عنه، بقي خادما على باب شيخه ستة عشر عاما أو نحوها.

من أهل بلد أزمور، ومن أشياخ أبي يعزى، ويقال إنه من الأبدال. قدم مراكش بعد عام أحد وأربعين وخمسمائة، ومات بأزمور يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الثاني، عام أحد وستين وخمسمائة

وكان في ابتداء أمره معلما للقرآن بقرية "يليسكاون" من بلد دكالة، فكان يتوكأ على عصاه واقفا لا يقعد إلى وقت انصراف الصبيان من المكتب، ثم تصدق بجميع ما اكتسب في وقت التعليم، خوفا أن لا يكون وفى بما عليه من الحقوق. انتهى

وحدثني إسماعيل بن عبد العزيز بن ياسين عن محرز بن عبد الخالق بن ياسين قال: رأيت أبا شعيب بمسجد أغمات، يأتيه المؤذن إذا أقيمت الصلاة يصيح في أذنه: قد حضرت الصلاة، وكان ذلك المؤذن خاصا به، لئلا يصلي الناس عنه وهو لا يشعر بهم، لغيبته في صلاته عن الإحساس بالناس، وكان إذا وقف في صلاته يطيل القيام، فلذلك سمي: أيوب السارية. انتهى

وحدثني عبد الرحمن بن يوسف بن أبي حفص عن أبيه، أن أبا حفص ذهب مع أبي شعيب في حاجة لأبي عبد الله أمغار، فوصلا إلى عدوة وادي أزمور، ثم رجعا، فقال أبو حفص لأبي شعيب: أرانا لم نعبر الوادي في ذهابنا ولا في إيابنا؟ فقال له أبو شعيب: ما دعاك إلى السؤال عن هذا؟ إذا انتهى أحد إلى حاجته فلا فائدة في السؤال

قال أبو حفص: خرجت ليلة لأتوضأ في الوادي، وكان البرد شديدا، فسمعت كلاما على بعد، فأممته، فإذا رجل يتهدد ويوبخ نفسه، فدنوت منه، فإذا أنا بأبي شعيب قد رمى بنفسه في الوادي، وكان يعاتب نفسه إذ نازعته في استعمال الماء البارد، فحملته إلى منزلي وأوقدت له النار، فلما زال عنه ألم البرد، سألته عن فعله، فقال لي: دعني فإنها نفس خبيثة

أقلل ما بي فيك وهو كثير   وأزجر دمعي فيك وهو غزير
وعندي دموع لو بكيت ببعضها   لفاضت بحور بعدهن بحور
قبور الورى تحت التراب وللهوى   رجال لهم تحت الثياب قبور.

انتهى من التشوف

[344] التشوف إلى رجال التصوف

[345] الفهرسة

وكذلك شيخه، قال رضي الله عنه: بقيت في صحبة شيخي سيدي علي رضي الله عنه بفاس سبع سنين. ورحلت إلى بني زروال، فبقيت نتردد إلى زيارته سبع سنين، كان يقدم عليه مرتين في السنة، فيقدم عليه في الزيارة ببقرتين للخليع وحملين من الزبيب وحمل من البلوط

وأما أنا، عبد الله، فلم تمكن لي الإقامة معه للقيام بالعيال وسياسة الفقراء، فكنت نتردد إليه في الزيارة لبني زروال، فنقيم معه ما شاء الله، ثم يرسلنا، فكان يقول لنا: ترددكم إلينا في الزيارة متعطشين، أنفع لكم من الإقامة معنا

ولما رحل لزاويته بغمارة، جعلت أتردد إليه في الزيارة هناك وأقيم معه أياما، نتفنن في العلوم اللدنية والأسرار الربانية. فأنا الذي بنيت غرفته التي يسكن فيها والكتينه والحمام، وذلك لما زرت معه مولاي عبد السلام رضي الله عنه مع جماعة من الفقراء، ونظر إلي وقال: نحبك أنت والحاج أحمد البسيري، تبنون لي الدار بغمارة. فلما قدمنا من الزيارة، قال الحاج أحمد: أنا لا نقدر على شيء، فذهبت أنا بأربعة من المعلمين: اثنين يبنيان واثنين يصنعان القرمود. فأسسنا الدار وبنينا المدخل والأروى، وفوقهما الغرفة التي يسكنها الشيخ

ثم بنينا بيت النار والحمام، فبقي الصناع هناك نحو الشهر؛ فناب البنائين من الأجرة ست وثلاثون مثقالا، والأخيرين أربع وعشرون مثقالا. وكنت دفعت في قطع الخشب تسع مثاقيل، فناب الجميع تسع وستون مثقالا، فبعت بعض الكتب وتسلفت الباقي، فخلص الله الجميع

فبنى الله لي في مقابلة ذلك ثلاثة ديار: دارا ببني سعيد، ودارا بقبيلة أنجرة، ودارا بفحص طنجة، غير أن التي بالفحص، لم يوافق الشيخ على سكناها، فخربت. وهذه عادته تعالى فيمن خدم أولياءه، أن يعطيهم أكثر مما يعطوا. انتهى[346]

واعلم أن أولياء الله تعالى، قد خصوا لما صقلوا مرايا قلوبهم، بالاطلاع على كثير من السرائر، فلا تجشم نفسك مشقة سؤال شيخك عن كل ما يهمك لتستعجل جوابه، بل دعه فهو أدرى بما يهمك، وهو أدرى متى يجيبك، ولا تاتيه إلا تائبا مسلما؛ ولا تظن أنك تخفي عنه ما تعلم من نفسك، أوتتظاهر له بما ليس فيك، فإنه من السهل عليه أن يكشفك ويلومك على فعلك.

قال القشيري: وقيل: كان بين زكريا الشختني وبين امرأة سبب قبل توبته، فكان يوما واقفا على رأس أبي عثمان الحيري، بعد ما صار من خواص تلامذته، فتفكر في شأنها، فرفع أبو عثمان رأسه إليه وقال: أما تستحي؟

[346] المرجع نفسه

قال الأستاذ الإمام رحمه الله، كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي رضى الله عنه، عقد لي المجلس في مسجد المطرز، فاستأذنته وقتا للخروج إلى نسا، فأذن لي، فكنت أمشي معه يوما في طريق مجلسه، فخطر ببالي: ليته ينوب عني في مجالسي أيام غيبتي؛ فالتفت إلي وقال: أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس. فمشيت قليلا، فخطر ببالي أنه عليل يشق عليه أن ينوب عني في الأسبوع يومين، فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع؛ فالتفت إلي وقال: إن لم يمكني في الأسبوع يومان، أنوب عنك في الأسبوع مرة واحدة. فمشيت معه قليلا، فخطر ببالي شيء ثالث، فالتفت إلي وصرح بالإخبار عنه على القطع. انتهى[347]

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها من حيث لا تحسون. انتهى[348]

وقال أبو العباس بن مسروق: دخلت على شيخ من أصحابنا أدعوه، فوجدته على حال رثة، فقلت في نفسي: من أين يرتزق هذا الشيخ؟ فقال: يا أبا العباس، دع عنك هذه الخواطر الدنيئة، فإن لله ألطافا خفية. انتهى[349]

ويروى عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: دخلت على عثمان رضي الله عنه، وكنت رأيت في الطريق امرأة تأملت محاسنها، فقال عثمان رضى الله عنه: يدخل علي أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينه؛ فقلت: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة. انتهى[350]

وقال أبو عبيد الخراز: دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيرا عليه خرقتان يسأل شيئا، فقلت في نفسي: مثل هذا كل على الناس، فنظر إلي وقال: "واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه". [351]

قال: فاستغفرت في سري، فناداني وقال: "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده".[352] انتهى[353]

ويحكى عن الجنيد أنه كان يقول له السري: تكلم على الناس، فقال الجنيد: وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ليلة النبي ﷺ في المنام، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت، وأتيت باب السري قبل أن أصبح؛ فدققت عليه الباب فقال: لم تصدقنا حتى قيل لك، فقعدت في غد للناس بالجامع، وانتشر في الناس أني قعدت أتكلم، فوقف عليه غلام نصراني

---

[347] الرسالة القشيرية

[348] المرجع نفسه

[349] المرجع نفسه

[350] المرجع نفسه

[351] البقرة233

[352] الشورى23

[353] الرسالة القشيرية

متنكرا وقال له: أيها الشيخ، ما معنى قول رسول الله ﷺ: "اتقوا فراسة المؤمن، فإن المؤمن ينظر بنور الله تعالى؟" فأطرق الجنيد، ثم رفع رأسه وقال: أسلم، فقد حان وقت إسلامك؛ فأسلم الغلام. انتهى[354]

اسكت	عند	كلامو	وياك	تمشي	فدامو
اربض	عند	سلهامو	وافعز	عند	فيامو

يقول: إذا تكلم فاستمع، ولا تتقدم عليه في شيء، والتقدم في المشي هنا مثال لا غير، وإذا قعد فلا تبق قائما عليه، وإذا قام فلا تبق قاعدا

وقوله: "اربض عند سلهامو"، فإن فعل: "ربض"، يستعمل لربوض الأسود على فرائسها، أي بروكها، والمراد: اقعد مستعدا لخدمة الشيخ والدفاع عنه، وكأنك أسد

وقوله: "اقفز عند قيامو"، أي متى قام فقم في الحال تبجيلا واحتراما

والمعنى: قال الله تعالى: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد".[355]

عن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: "لقد سألتني عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت". ثم قال: "ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل". قال: ثم تلا: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع" حتى بلغ: "يعملون"،[356] ثم قال: "ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟" قلت: بلى يا رسول الله، قال: "رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد". ثم قال: "ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟" قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه، قال: "كف عليك هذا". فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو على مناخرهم، إلا حصائد ألسنتهم؟" رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

---

[354] المرجع نفسه

[355] ق18

[356] الآية بأتمها: "تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون". السجدة16-17

وفي الرعاية: قال بعض الحكماء: تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوعي في أن يفهموا عنه فيعلموا له بما يفهمون عنه

حدثنا الغلابي قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول: أول العلم حسن الاستماع، ثم الفهم ثم الحفظ ثم العمل ثم النشر. انتهى[357]

يقول السهروردي: وهكذا أدب المريد في مجلس الشيخ: ينبغي أن يلزم السكوت ولا يقول شيئا بحضرته من كلام حسن، إلا إذا استأمر الشيخ ووجد من الشيخ فسحة في ذلك، وشأن المريد في حضرة الشيخ، كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه، فتطلعه إلى الاستماع وما يرزق من طريق كلام الشيخ، يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله، وتطلعه إلى القول، يرده عن مقام الطلب والاستزادة إلى إثبات شيء لنفسه وذلك جناية المريد

وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ، على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ، بل يبادئه بما يريد. لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق، وهو عند حضور الصادقين يرفع قلبه إلى الله ويستمطر ويستسقي لهم، فيكون لسانه وقلبه في القول والنطق، مأخوذين إلى مهم الوقت من أحوال الطالبين المحتاجين إلى ما يفتح به عليه. انتهى[358]

فأحسن أدب المريد من الشيخ السكوت والخمود والجمود، حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولا وفعلا. انتهى[359]

وفي هذا، تأدب للمريد في الدخول على الشيخ والإقدام عليه، وتركه الاستعجال، وصبره إلى أن يخرج الشيخ من موضع خلوته.

سمعت أن الشيخ عبد القادر رحمه الله، كان إذا جاء إليه فقير زائر، يخبر بالفقير فيخرج، ويفتح جانب الباب ويصافح الفقير ويسلم عليه، ولا يجلس معه ويرجع إلى خلوته، وإذا جاء أحد ممن ليس من زمرة الفقراء، يخرج ويجلس معه، فخطر لبعض الفقراء نوع إنكار لتركه الخروج إلى الفقير وخروجه لغير الفقير، فانتهى ما خطر للفقير إلى الشيخ، فقال: الفقير رابطتنا معه رابطة قلبية، وهو أهل وليس عنده أجنبية، فنكتفي معه بموافقة القلوب، ونقنع بها عن ملاقاة الظاهر بهذا القدر، وأما من هو من غير جنس الفقراء، فهو واقف مع العادات

---

[357] الرعاية لحقوق الله

[358] عوارف المعارف

[359] المرجع نفسه

والظاهر، فمتى لم يوف حقه من الظاهر استوحش، فحق المريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ. انتهى[360]

ومن الأدب مع الشيخ: أن المريد إذا كان له كلام مع الشيخ في شيء من أمر دينه أو أمر دنياه، لا يستعجل بالإقدام على مكالمة الشيخ والهجوم عليه، حتى يتبين له من حال الشيخ، أنه مستعد له ولسماع كلامه. انتهى[361]

لا ترفع صوتك فى حضورو وقف عند سطورو

لا تضحك فى اكدورو ولا تحزن فى سرورو

يقول: لا ترفع صوتك في حضور شيخك، وقف عند ما ينصح به، واعمل به؛ لا تضحك في أكداره ولا تحزن إذا كان مسرورا

والمعنى: مما تستوجبه مراعاة حرمات الشيخ، أن تتأدب بحضرته، فتغض من صوتك، وتتقيد بما أقامك فيه، وتراقب أحواله، فلا تتصرف بضدها، فلا تنبسط وقد رأيته منقبضا، ولا تنقبض وقد رأيته منبسطا

ومما عد من آداب المتعلم مع معلمه، نذكر ما يلي من كتاب: آداب العلماء والمتعلمين، لصاحبه الحسين بن المنصور بالله اليمني، رحمه الله تعالى: أن يصبر على جفوة تصدر من شيخه، أو سوء خلق، ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته، ويتأول أفعاله التي يظهر أن الصواب خلافها على أحسن تأويل، ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالاعتذار، والتوبة مما وقع والاستغفار، وينسب الموجب إليه، ويجعل العتب فيه إليه، فإن ذلك أبقى لمودة شيخه وأحفظ لقلبه، وأنفع للطالب في دنياه وآخرته. انتهى

أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، كما يجلس الصبي بين يدي المقرئ، أو متربعا بتواضع وخضوع وسكون وخشوع، ويصغي إلى الشيخ ناظرا إليه، ويقبل بكليته عليه، متعقلا لقوله، بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية. انتهى

أن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه، أو من غيره، ولا يساوقه فيه، ولا يظهر معرفته به، أو إدراكه قبل الشيخ، وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه أي كلام كان، ولا يسابقه فيه ولا يساوقه، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ من كلامه، ثم يتكلم، ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه، أو مع جماعة المجلس. انتهى

---

[360] المرجع نفسه

[361] المرجع نفسه

إذا مشى مع الشيخ فليكن أمامه بالليل ووراءه بالنهار، إلا أن يقتضي الحال خلاف ذلك، ويتقدم عليه في المواطن المجهولة الحال، لوحل أو نحوه، ويعرف الشيخ بمن قرب منه أو قصده من الأعيان، إن لم يعلم الشيخ به، وإذا صادف الشيخ بدأه بالسلام، ويقصده إن كان بعيدا ولا يناديه، ولا يسلم عليه من بعيد ولا من ورائه، بل يقرب ويتقدم ثم يسلم عليه، ولا يقول لما رآه الشيخ وكان خطأ، هذا خطأ ولا هذا ليس برأي، بل يحسن خطاه في الرد إلى الصواب، كقوله: يظهر أن المصلحة في كذا، ولا يقول: الرأي عندي كذا، وشبه ذلك. انتهى[362]

لا تذكر دون شوارو شعال من ذاكر خلا دارو

لو شاور شيخو في الذكارو لو عرف مقدارو

يقول: لا تلتزم بأي ورد وبأي عدد من الأعداد، حتى تعرضه عليه، وتأخذ إذنه فيه، فكم من الذاكرين تسببوا في خراب بيوتهم بذلك، ولو كانوا شاوروا شيوخهم فيما يذكرون وما لا يذكرون، لعرفوا المقدار الذي يصلح لهم

والمعنى: قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا، هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمومنين رحيما".[363]

وقال سبحانه: "فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون".[364]

اعلم أيها المريد الصادق، أن ذكر الله عليه مناط هذا الأمر، فمتى ذكر العبد مولاه، كان اعترافا منه له بالألوهية، وإقرارا بفضله عليه، ومتى ذكر الله العبد، كان رضاء وقربى

---

[362] آداب العلماء والمتعلمين

[363] الاحزاب41-43

[364] البقرة151

فضل الذكر والذاكرين

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت". رواه البخاري

عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له جمدان، فقال: "سيروا، هذا جمدان، سبق المفردون". قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: "الذاكرون الله كثيرا، والذاكرات". رواه مسلم

عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم؟" قال مكي: "وأزكاها"، "عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟" قالوا: وذلك ما هو يا رسول الله؟ قال: "ذكر الله عز وجل". رواه أحمد في مسنده

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ هم خير منهم؛ وإن تقرب مني شبرا، تقربت إليه ذراعا، وإن تقرب إلي ذراعا، تقربت منه باعا؛ وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة". رواه مسلم

قلت: وإن الله تعالى، ليباهي بالذاكرين ملائكة الحضرة ويقول: هؤلاء عبادي الذين قلتم في حقهم: "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"،[365] هاهم يذكرونني، وما ذكروني إلا لأنهم أحبوني، ألم أقل لكم: "إني أعلم ما لا تعلمون"،[366] أشهدكم أني غفرت لهم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوما يذكرون الله تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم منهم: ما يقول عبادي؟ قال: تقول: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة، وأشد لك تمجيدا وأكثر لك تسبيحا، قال: يقول: فما يسألوني؟ قال: يسألونك الجنة، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصا، وأشد لها طلبا، وأعظم فيها رغبة؛ قال: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار، قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا رب ما رأوها، قال: يقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون:

---

[365] البقرة29

[366] البقرة29

لو رأوها كانوا أشد منها فرارا، وأشد لها مخافة، قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم". رواه البخاري

واعلم أن الله تعالى في كتابه العزيز، قد رغب في الذكر الكثير، فكلما ذكرت كلما اقتربت: "واسجد واقترب"،[367] وكلما اتقيت كلما علمت، "واتقوا الله، ويعلمكم الله".[368]

وإذا أكرمك الله تعالى بشيخ عارف، فخذ منه وردك، واسأله عما تذكر وعدد ما تذكر، فإن التدرج في مداواة النفس ومعرفة المولى، عن طريق الذكر تعرفه المشايخ، فخذ منهم ما يصلحك، ولا تلتزم بورد حتى تشاورهم فيه

فكم من الذاكرين، ألزموا أنفسهم بما لا يطيقون فكان عليهم وبالا

فالشيخ كالطبيب والورد كالدواء، والمريد سقيم، والدواء مقادير، فلا تسرف في الدواء بدون مشورة الطبيب؛ فخذ وردك بالمقدار الذي يصلحك، فإن الشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده

اخبار الشوق يا العاشق محال تروق فى الحلايق
والشيخ لو ما كان ذايق ما يذوق ساير الخلايق

يقول: كلام الإشارات وأخبار الشوق أيها العاشق، الذي يقرب السامع إلى الله تعالى، وتحلو به حلائق الذكر، ليس من السهل أن يروق للناس، ومتى راقهم وذاقوا سره وأدركوا كنهه، فذلك دليل على أن الشيخ ذاق من نبع المحبة الفياض، وإلا، ففاقد الشيء لا يعطيه

و المعنى: يقول ابن عطاء الله السكندري: سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: يكون الولي مشحونا بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهود، حتى إذا اعطي العبارة، كان كالإذن له من الله في الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير، بهيت في مسامع الخلق عباراته، وحليت لديهم إشاراته. انتهى[369]

---

[367] العلق20

[368] البقرة281

[369] لطائف المنن

وفي خبر وهب بن منبه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: أنك تكثر مسألتي ولا تسألني أن أهب لك الشوق، قال: يا رب، وما الشوق؟ قال: إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، وأتممتها بنور وجهي، فجعلت أسرارهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طرقا ينظرون به إلى عجائب قدرتي، فيزدادون في كل يوم شوقا إلي، ثم أدعو نجباء ملائكتي، فإذا أتوني خروا لي سجدا، فأقول: إني لم أدعكم لعبادتي، ارفعوا رؤوسكم أركم قلوب المشتاقين إلي، فوعزتي وجلالي، إن سمواتي لتضيء من نور قلوبهم، كما تضيء الشمس لأهل الدنيا. انتهى[370]

قال أبو عثمان: الشوق ثمرة المحبة، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه. وقال أيضا في قوله تعالى: "فإن أجل الله لآت"،[371] وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء للقائه والنظر إليه.[372]

وقال أبو يزيد: لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته، لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار.

سئل بعضهم: هل الشوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبة؛ لأن الشوق يتولد منها، فلا مشتاق إلا من غلبه الحب، فالحب أصل والشوق فرع. انتهى[373]

قال الواسطي: لا يصل إلى محل الأنس من لم يستوحش من الأكوان كلها.[374]

قالت رابعة:[375] كل مطيع مستأنس. وأنشدت:

---

[370] قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

[371] العنكبوت04

[372] عوارف المعارف

[373] المرجع نفسه

[374] المرجع نفسه

[375] رابعة العدوية: أم الخير رابعة ابنة إسماعيل، العدوية البصرية مولاة آل عتيك، الصالحة المشهورة. كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصلاح والعبادة مشهورة، وذكر أبو القاسم القشيري في الرسالة أنها كانت تقول في مناجاتها: إلهي، تحرق بالنار قلبا يحبك؟ فهتف بها مرة هاتف: ما كنا نفعل هذا، فلا تظني بنا ظنا، وقال يوما عندها سفيان الثوري: واحزناه، فقالت: لا تكذب، بل قل: واقلة حزناه، لو كنت محزونا لم يتهيأ لك أن تتنفس. وقال بعضهم: كنت أدعو لرابعة العدوية، فرأيتها في المنام تقول: هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل من نور. وكانت تقول: ما ظهر من أعمالي فلا أعده شيئا. ومن وصاياها: اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم. وقالت لأبيها: يا أبة لست أجعلك في حل من حرام تطعمنيه، فقال لها: أرأيت إن لم أجد إلا حراما؟ قالت: نصبر في الدنيا على الجوع، خير من أن نصبر في الآخرة على النار.

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي.[376]

وأنشد في معناه:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت إذ رأتك النفس أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودنيائي[377]

وقال سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري[378] في لطائف المنن: وأخبرني الشيخ العارف مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام،[379]

قال ابن خلكان: وكانت وفاتها في سنة خمس وثلاثين ومائة. ذكره ابن الجوزي في شذور العقود. وقال غيره: سنة خمس وثمانين ومائة رحمها الله تعالى، وقبرها يزار، وهو بظاهر القدس من شرقيه على رأس جبل يسمى الطور. انتهى من وفيات الأعيان وأنباء الزمان

[376] عوارف المعارف

[377] المرجع نفسه

[378] عبد الكريم بن عطاء الله، أبو محمد الإسكندراني. كان إماما في الفقه والأصول والعربية، تفقه على أبي الحسن الإبياري، رفيقا لابن الحاجب. وله تصانيف منها: شرح التهذيب، ومختصر التهذيب، ومختصر المفصل. توفي في شهر رمضان سنة اثنتي عشرة وستمائة. انتهى من حسن المحاضرة

وقال الكمال جعفر: سمع من الأبرقوهي، وقرأ النحو على الماروني، وشارك في الفقه والأدب، وصحب المرسي، وتكلم على الناس وكثر أتباعه؛ وقال ابن الأهدل: الشيخ العارف بالله، شيخ الطريقين وإمام الفريقين، كان فقيها عالما ينكر على الصوفية، ثم جذبته العناية، فصحب شيخ الشيوخ المرسي، وفتح عليه على يديه، والذي جرى له معه مذكور في كتابه لطائف المنن، وله عدة تصانيف، منها: الحكم، وكلها مشتملة على أسرار ومعارف وحكم ولطائف نثرا ونظما، وما أحسن قوله في شيخه في بعض قصائده: (كم من قلوب قد أميتت بالهوى أحيا بها من بعد ما أحياها). وكان شيخه يستعيد منه هذا البيت، ومن طالع كتبه عرف فضله، توفي رحمه الله تعالى بمصر في نصف جمادى الآخرة، ودفن بالقرافة، وقبره مشهور يزار. انتهى من شذرات الذهب لابن العماد

[379] الشيخ عز الدين بن عبد السلام بن عبد العزيز بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب، السلمي أبو محمد. شيخ الإسلام، سلطان العلماء، ولد سنة سبع، أو ثمان، وسبعين وخمسمائة، وتفقه على الفخر بن عساكر، وأخذ الأصول عن السيف الأبذي، وسمع الحديث من عمر بن طبرزد وغيره، وبرع في الفقه والأصول العربية. قال الذهبي في العبر: انتهت إليه معرفة المذهب، مع الزهد والورع، وبلغ رتبة الاجتهاد. وقدم مصر، فأقام بها أكثر من عشرين سنة؛ ناشرا العلم، آمرا بالمعروف، ناهيا للمنكر، يغلظ على الملوك فمن دونهم. ولما دخل مصر بالغ الشيخ زكي الدين المنذري في الأدب معه، وامتنع من الإفتاء لأجله، وقال: كنا نفتي قبل حضوره، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه. وألقى التفسير بمصر دروسا. وهو أول من فعل ذلك.

والشيخ مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس، والشيخ محيي الدين بن سراقة، والشيخ مجد الدين الأخميمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنهم، ورسالة القشيري تقرأ عليهم، وهم يتكلمون والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا: يا سيدي، نريد أن نسمع منك. فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم. فقالوا: لابد أن نسمع منك. قال: فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة. فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة، وفارق موضعه وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله. انتهى[380]

قال رضي الله عنه حاكيا عن أستاذه رحمه الله:[381] الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت، لا تشرك بالله شيئا، ومن دنس حب الدنيا، كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت، وعليك بمحبة الله تعالى على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت أو تيقظت شربت، حتى يكون سكرك وصحوك به، حتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرف والكأس، بما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله. انتهى[382]

وله من المصنفات: تفسير القرآن، ومجاز القرآن، والفتاوي الموصلية، ومختصر النهاية، وشجرة المعارف، والقواعد الكبرى والصغرى، وبيان أحوال الناس يوم القيامة.

وله كرامات كثيرة، ولبس خرقة التصوف من الشهاب السهروردي. وكان يحضر عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي ويسمع كلامه في الحقيقة ويعظمه. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: قيل لي: يا علي، ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وما على وجه الأرض مجلس في الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم، وما على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال ابن كثير في تاريخه: انتهت إليه رياسة المذهب، وقصد بالفتاوي من الآفاق، ثم كان في آخر عمره لا يتقيد بالمذهب، بل اتسع نطاقه، وأفتى بما أدى إليه اجتهاده. وقال تلميذه ابن دقيق العيد: كان ابن عبد السلام أحد سلاطين العلماء. وقال الشيخ جمال الدين بن الحاجب: ابن عبد السلام أفقه من الغزالي. وحكى القاضي عز الدين البكاري، أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام أفتى مرة بشيء، ثم ظهر له أنه أخطأ، فنادى في مصر والقاهرة على نفسه: من أفتى له ابن عبد السلام بكذا، فلا يعمل به، فإنه خطأ. قال القطب اليونيني: وكان مع شدته وصلابته حسن المحاضرة بالنوادر والأشعار، يحضر السماع ويرقص فيه.

وقال ابن كثير: كان لطيفا يستشهد بالأشعار، توفي بمصر، عاشر جمادى الأولى سنة ستين وستمائة. انتهى من حسن المحاضرة

[380] لطائف المنن

[381] يعني الإمام أبا الحسن الشاذلي، عن أستاذه الشيخ العارف عبد السلام بن بشيش، رحمهما الله تعالى

[382] درة الأسرار وتحفة الأبرار

ومن نظم أبي الفتح في فن الملحوم:

لا تامرني بالسلوان يااللايم مهما تلوم ماتزيدني غير صبابه، لو كنت مثلي فكعان، مايهمك لايم، ولا يصدك غاشي على عيون ناعسه جذابه.[383]

الاحباب إلى كافوني بالهجران، مازلت بهم هايم، يوم على يوم، نترجى الوصال مانحظى باجابه، عاشق الغزلان، ماتردعو سمايم، ولا ريح سموم، مايخلي عليهم غابه، فى جنح الليل سهران، ماهو نايم، يعد نجوم ظاهره واخرى عزابه.

الزمان مايدوم يااللايم والدنيا غلابه. [384]

دور ياساقي واملا الاقداح، لهبت اشواقي ؤ دمعي ساح، جرى فى ماقي هيج الجراح، لاترت يا ساقي على شاقي، مادام الليل باقي ومادام، الفجر نورو مالاح.

حلا سكري وخلعت عذاري[385]

نديمي شاهد باحوال نديمو، والليل هامد يداري على سقيمو، العميد ساهد العذول خصيمو، يحرم ويزيد فى تحريمو، ولا الخليل يابه لكل من هو قاصد، يقصيه باللومه، ويحرمو من ريمو.

نديمي يعذرني ويعرف اسراري [386]

سرو سرى وجرى في اوصالي، ماعدت نرى حال خير من حالي، الهمني بكل ماجرى وجعلني والي، وفتح علي مول القدره وارتاح بالي.

رفع اصراري وما بقى من اوزاري[387]

---

[383] والمعنى: لا تأمرني بأن أسلو وأنسى أيها اللائم، فمهما لمتني لا تزيدني إلا حبا وصبابة، لو كنت مثلي متفجعا ما يهمك من لامك، ولا يصدك أي إنسان عن حب عيون ناعسات جذابة بحسنها

[384] والمعنى: مهما كافأني الأحباب بالهجران، فما فتئت هائما بهم يوما بعد يوم، أرجو وصالهم ولا أحظى بإجابة، ألا تعلم أن عاشق الغزلان لا تردعه سمائم؟ وهي التي يشتد فيها الحر، ولا ترده ريح سموم؟ يبحث عن الغزلان في كل الغابات، ولا يترك غابة لا يبحث فيها. يبيت الليل سهران في جنح الليل لا ينام، يعد نجوما ظاهرة وأخرى تهم بالأفول. إن الزمان لا يدوم أيها اللائم على حال، والدنيا تغلب أولي الجأش بتقلبها

[385] والمعنى: در علينا أيها الساقي واملئ الأقداح، فقد التهبت أشواقي وساح دمعي حتى جرى في مآقي وهيج علي جراحي، لا تقصر من جهدك شيئا أيها الساقي ولا تحاول على شقي مثلي، ما دام الليل باقيا بظلامه، وما دام نور الفجر لم يلح بعد. لقد حلا سكري ونزعت عني رداء الحشمة والتكلف

[386] والمعنى: نديمي شاهد عن أحوالي، أنا الذي أنادمه وأسهر معه، والليل هامد، وكأنه يستر أحوال السقيم، وأنا العميد الساهد بالليل، وعاذلي في الهوى هو خصمي، لأنه يحرم علي وصال الحبيب ويلح في التحريم، ألا يعرف هذا العاذل اللائم أن الحبيب لا يأبه لأي من قصد إلى أن يقصيه باللوم ويحرمه من غزاله. أما نديمي، فهو يعرفني ويعذرني لأنه أدرى بأسراري

سكن قلبي الحبيب وسكنت اعضايا، على عيني ما يغيب، حبيبي أنايا، حكمه قايمه بلا تتريب، جوهري وجوايا، ماهو غير واحد، ولاحد غيرو معايا.

محال يغيب على انظاري[388]

حكمه لو تتمعن وتشوف بالابصار، يا المختار، اجمع الافكار، وسال اهل الصوف تعرف الاخبار، دقت الدفوف على هامات اسيادي، دوك العارفين، اهل المحبة الاخيار.

من يجاورهم مايرضى بجوار[389]

واصلني مولايا وشهد حضوري، بعد ما قرا سطوري وسمع رجايا، مزق حجابي وهدم سوري، خاطبني بلا بدايه ولا نهايه، بعد ماجبرتو جبرني، وزاد في سروري.

ما نا صديق ولا نا حواري[390]

سبحان من أذن للعالمين بالارزاق، ماحاق منهم غافلين ولا اهل نفاق، رزق الصالحين ؤ غير الصالحين، نعم الرزاق، لو يحافينا نكونوا فانيين، قبل يوم المساق، لما تبلغ التراق، كل الناس شاهدين، ولامداوي فيهم يرد الباس، ولا راق.

ولاحد في العالمين بالروح داري[391]

سبحان من جا بالتكوين، ابدع سماوات وارضين، نار ؤ هوا ما وطين، عجنهم كاملين، دواير بالاحكام دايره، حزام فاطم الزهرا، ملون ؤ زين، راق فى التلوين، نجوم ضاوية فى ظلامة، دراري سابحين، من رفع السما بلا عماد، طيور صافين، سبح لو الجماد فى كل بلاد، سبحان من ارسل بالرحمه، سيدنا محمد خاتم المرسلين.

رسول الله نورو ساري[392]

---

[387] والمعنى: سرى سر ربي حتى جرى في أوصالي، فما عدت أرى حالا أفضل من حالي، وألهمني ربي بكل ما جرى وجعلني وليا، وفتح علي صاحب القدرة فتحا مبينا، فارتاح بالي. حين رفع عني الإصرار وغفر ما تبقى من أوزاري وذنوبي

[388] والمعنى: سكن الحبيب قلبي، فسكنت أعضائي، لا يغيب عن عيني أبدا، حكمة قائمة بغير شك، في جوهري وفي ظاهري، فما الله إلا واحد لا أحد غيره معي وبرفقتي. من المحال أن يغيب عن ناظري

[389] والمعنى: هي حكمة بالغة لو تمعنت ونظرت ببصرك، أيها المختار، اجمع أفكارك، وسل المتصوفة ينبؤوك كي تعرف الخبر، دقت الدفوف على رؤوس أسيادي، العارفين من أهل المحبة الأخيار. من جرب جوارهم لا يرضى بجوار غيرهم

[390] والمعنى: وصلني مولاي وشهد حضوري، بعدما قرأ سطوري وسمع رجائي، مزق الحجاب الذي بيني وبينه، وهدم السور الذي يحجزني عنه، وخاطبني بلا بداية ولا نهاية، بعدما وجدته جبر انكساري، وزادني سرورا. وما أنا بصديق ولا حواري

[391] والمعنى: سبحان من أذن للعالمين بأرزاقهم، لم يؤاخذ منهم الغافلين ولا أهل النفاق، رزق الصالحين وغير الصالحين، نعم الرزاق، لو يحاسبنا نكون من الفانين قبل يوم الفناء، يوم تبلغ الروح التراقي، وكل الناس يشهدونه، ولكن لا يرد الموت مداو بدوائه ولا راق برقيته، لا أحد يعلم بالروح من العالمين إلا الله تعالى

سبحان من تاه فى جمالو وبهاه، جل جلالو، هو الله، لا إله إلا هو، فى السما إله، ؤ فى الارض إله، من يكون بحالو؟ نورو ساطع فى اكوانو، بحورو وجبالو، ترابو ورمالو، خفى بوجهو الباهي وظهر بافعالو، خليقتو شاهده ببهاه، إلى كنتو عليه تسالو، سيادنا قالوا، من وعاوا مقالو: من يحب يعرف مولاه، يتقي شر اعمالو، ويجانب الرذايل، مايبصر الباري سوى من شهد غيرو بهبالو.

المولى يرحمني ويكشف استاري[393]

ركبوني فى مراكب لا ليها شراع ولا صاري، ولاحد غيري راكب، مايكودها ربان، ولا تهديها نجوم ولادراري، بحور لاطمه وهديره، لا سواحل ولا دزيره، فايضه وكبيره، ماليها حد ولا برزخ تبلغو اسفاري، وانا وحيد مثل صبي في المهد، به يراري، تاره طالع تاره نازل، ليلي ونهاري، تاره يقوم تاره يقعد، والفلك جاري.

سفينة نوح تجري باقداري[394]

القاوني فى بير غامقه ورهيبه، وانا لازلت صغير، مالي عقل ولا تدبير، الوحده صعيبه، هزوني من الاعماق بلا ماندري، لاحوني في الآفاق، قالوا: زيد سري، ناديت الواحد الخلاق، بلا ما ندري، عاد جناحي خفاق، يطوي السبع الطباق، ادركت ما خفى من سري، عرفوني مشتاق، حاروا في أمري، سلمت ردت الاملاك سلامي، سلامها افناني، وزاد هيامي، والعرش مني داني، وانا في الحضره ابصرت الهشامي، نبي الله ريتو بعياني، نظر في بعين الرحمه، داوى سقامى، قاب قوسين ولا ادنى، ما عدت نعاني.

غشاتني الانوار وعمات ابصاري[395]

---

[392] والمعنى: سبحان من جاء بالتكوين، أبدع سماوات وأرضين، نار وهواء وماء وطين، عجن كل هذه المواد، دوائر تدور بحكمة وإحكام، حزام فاطمة الزهراء، وهو قوس قزح، ملون وجميل، راق بألوانه، نجوم منيرة في الظلام، درار تسبح في السماء، من رفع السماء بلا عمد، طيورها صافات، سبح له الجماد في كل بلاد. سبحان من أرسل بالرحمة سيدنا محمد صاحب النور الساري

[393] والمعنى: سبحان من تاه جمالا وبهاء، جل جلاله، هو الله، لا إله إلا هو، في السماء إله وفي الأرض إله، من يكون مثله؟ سطع نوره في أكوانه، بحوره وجباله، ترابه ورماله، خفي بوجهه البهي وظهر بأفعاله، ما خلق شاهد ببهائه، إذا كنتم تسألون عنه، فقد قال أسيادنا، من الذين وعوا مقاله: من أحب أن يعرف مولاه، عليه أن يتقي شر أعماله ويجتنب الرذايل، ولن يشهد الباري عز وجل سوى من شهد الناس بجنونه. حسبي أن المولى يرحمني ويكشف أستاري

[394] والمعنى: حملوني في مراكب ليس لها شراع وما لها من صار، وليس فيها أحد غيري، لا يقودها ربان ولا تدلها نجوم ولا درار، في بحور هديرة متلاطمة بالأمواج، لا ساحل تراه فيها ولا جزيرة، إلا هذه الأمواج الفائضة والعظيمة، وهذه البحار المتلاطمة الأمواج، لا حد لها تبلغه أسفاري مهما سافرت، وأنا وحدي في ذلك المركب، كصبي في المهد، والمركب تلعب به الأمواج كمهد الصبي تحركه أمه حتى ينام، فمرة أحس بنفسي صاعدا مع صعود الأمواج وعلوها، ومرة نازلا، وذلك طول ليلي ونهاري، ومرة أقوم ومرة أقعد، ولكن المركب لايكف عن الجريان. وكأنه سفينة نوح عليه السلام، لا تجري سوى بقدر وقدرة الله تعالى

جيتك ياالمولى عاصي، تغفر زلاتي، لا تخليني قاصي، سكن روعاتي، واسكن في ذاتي يا المولى فى حياتي، ؤ يوم تاخد بالنواصي، لاتحرق رفاتي، العفو منك يواتي، ماضرك مني المعاصي، ومايفيدك يا الغني تجعل، فى النار صلاتي، لما تبت قبل توباتي، فيم فات ؤ فيم هو آت، ولو نجيك بذنوب ماليها حاصي، رحمتك يارحمن رجاتي، حاطت بذنوب العالمين، فرعون ؤ قارون، كل من هو عاتي، كيف تفوتني يا سيدي وأنا عبدك الحسير، وتزيد حسراتي؟ ماظنيت مولايا الكريم، سوى يقبلني ويحسن ملقاتي.

رحمتو سابقه في الآثار[396]

جيتك يا المولى، نترجاك وحيد، لا لي من الاعمال حموله، ولاصلا مقبوله، تنفع وتفيد، نطمع تكافي وتزيد، رفيع الدرجات القوي المجيد، لو توزن اعمالي في الميزان، ذنبي حديد، يرجح بالكفه لولا، ترحم العبيد، جهنم محلوله، والجنه مأموله، حبك فى القلب عتيد، عليه ما نحيد، ولا تحاسبني لأيني فى احبابك عاشق عميد، المحبه تطفي نارك المشعوله، الاحباب صالوا صوله، المحبه ماهي مجهوله، قومان مغلوله، ولا فى معاصم الاحباب قيد، في ظلال العرش تنظر من بعيد، فى البها والجلال مشغوله، ماتلفحها شمس يوم الوعيد، كيف يشقاوا يا الراحم، رحمه مشموله؟

من يحب الرحمن مايواخذو بجراري[397]

---

[395] والمعنى: ألقوني في بئر عميقة ورهيبة، وأنا لا زلت صغير السن، لا عقل لي ولا تدبير، فما أصعب الوحدة، ثم رفعوني من أعماق البئر دون أن أدري، وألقوني في الآفاق وقالوا: هي اسر، فناديت الواحد الخلاق دون أن أشعر، فعاد جناحي خفاقا يطوي السبع الطباق، حتى أدركت ما خفي من سري، فلما عرفوني مشتاقا حيرهم أمري؛ ولما سلمت ردت الأملاك سلامي، سلامها أفناني وزاد في هيامي، كل ذلك والعرش دان مني، وأنا في حضرة الرحمن بصرت بالنبي الهاشمي ﷺ، رسول الله رأيته بعيني، فنظر إلي بعين الرحمة وداوى أسقامي، قاب قوسين أو أدنى، فما عدت أعاني. غشتني الأنوار حتى عميت أبصاري

[396] والمعنى: أتيتك يا مولاي عاصيا فاغفر زلاتي، لا تدعني قاصيا واسكن في ذاتي يا مولاي، في حياتي ويوم تأخذ بالنواصي، لا تحرق رفاتي، فإن العفو منك يواتي جميل فعلك وسعة رحمتك، ما يضرك ما جنيت من ذنوب؟ وما يفيدك يا غني أن تصليني في النار؟ لما تبت اقبل توبتي مما فات ومما هو آت، فلو جئتك بذنوب كثيرة لا تحصى، تبقى رحمتك يا رحمن رجائي في غفرانها جميعا، فقد أحاطت رحمتك بذنوب العالمين، فرعون وقارون وكل عات جبار، كيف تفوتني يا سيدي وأنا عبدك الحسير وتزيد في حسراتي؟ لا أظن مولاي الكريم إلا سيقبلني ويحسن لقائي. فرحمته سبقت غضبه، كما جاء في الآثار

[397] والمعنى: جئتك يا مولاي أترجاك وحيدا، ليس لي من الأعمال شيء، ولو حتى صلاة مقبولة تنفعني وتفيدني، جئت أطمع أن تكافئني وتزيد، رفيع الدرجات القوي المجيد، لو تزن ذنبي فهو ثقيل مثل الحديد، يرجح بكفة الميزان، لا تحاسبني، لأنني من أحبابك عاشق عميد، فالمحبة تطفئ نارك المشتعلة، فقد صال الأحباب صولة بفضل محبتهم، وهل المحبة مجهولة؟ فيومئذ تغل أقوام بالسلاسل، وأما معاصم الأحباب فهي خالية من كل قيد، هم تحت ظلال عرش الرحمن ينظرون من بعيد، في بهاء الله تعالى وجلاله مشغولون بالنظر، لا تلفحهم شمس يوم الوعيد، كيف يشقون يا راحم العباد ويا من شملت رحمته كل خلقه؟ من يحب الرحمن لا يؤاخذه بالذنوب

ختمت قصيدي على سيدي خالق الاكوان، منظومه على ما يواتي من اوزان، عقد من عقود الجمان، مرصع بالعقيان، فصيحه تزخر بالبلاغه والبيان، من تلاها يحظ بالغفران، مايخيبو مولاه، يشفع فيه العدنان، أبو الفتح من جا بها، ماليها مثيل في هاد الزمان، يترجى مولاه، يغفر ذنوبو ويستر عيوبو، مايكافيه بالخذلان، من تلاها يدعو لنا بالعفو والقبول، يوم الكدر والاحزان، والصلا والسلام فى التالي، على سيدنا محمد درة الاكوان، والو واصحابو، اهل الوفا والاحسان، والله وكيل من جا بالزور والبهتان.

المولى رقيب حكمو جاري.[398]

نظره فى الشيخ تبري مريض القلب من بكري
ولي باقي دري يرشد بلا ما يدري

يقول: نظرة واحدة في الشيخ تبرئ مريض القلب من زمن بعيد، وإذا كان الناظر لازال غير عارف بمولاه، يصبح عارفا دون أن يدري

والمعنى: قال الله تعالى: "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها".[399]

يقول الشيخ أحمد سعد العقاد: وقد اتفق العلم الحديث والقديم، على أن نظرات الناس، تختلف باختلاف الانفعالات، وباختلاف شحنتها من القوى والطاقات الباطنية في الإنسان. وهذا أمر محسوس، فلكل نظرة معنى، ولكل نظرة تأويل، ولكل نظرة حديث روحي تفهمه العقول، وتتأثر به القلوب والعواطف، والشاعر يقول:

عيناك قد دلتا عيني منك على أشياء، لولاهما قد كنت تخفيها
والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها

---

[398] والمعنى: ختمت قصيدتي التي نظمتها في سيدي خالق الأكوان سبحانه، منظومة على ما يواتي من أوزان، وكأنها عقد من عقود الجمان، مرصع بالعقيان، فصيحة تزخر باالبلاغة والبيان، من تلاها يحظ بالغفران، ومن المحال أن يرده الرحمن، بل يشفع فيه النبي العدنان ﷺ. أبو الفتح من جاء بها، ليس لها مثيل في هذا الزمان، يرجو من مولاه أن يغفر ذنوبه ويستر عيوبه، وألا يكافئه على سوء أعماله بالخذلان، نسأل من تلاها أن يدعو الله لنا بالعفو والقبول يوم الكدر والأحزان، والصلاة والسلام في التالي، على سيدنا محمد درة الأكوان ﷺ، وآله وأصحابه أهل الوفاء والإحسان، والله وكيل من جاء بالزور والبهتان، فالمولى سبحانه وتعالى رقيب، حكمه جار على جميع خلقه

[399] الأنعام123

ثم يقول: فالنظرة إذا نوع من الإمداد الغيبي، ترسل به عين البصر أو البصيرة، وفي إشعاعاتها سيالات قوية وتيارات نفاذة مؤثرة؛ وأنت واجد تجربة ذلك مكررة في اختلاف نظراتك اليومية إلى أولادك ومرؤوسيك، والناس كلهم ممن تتعامل معهم أو لا تتعامل معهم، في حالتي الرضا والبسط، أو الغضب أوالانقباض؛ ألا ترى نظرة المنوم المغناطيسي الصادق؟ ألا ترى نظرات قواد الجيوش والحركات الثورية؟ ألا ترى إلى نظرات الخطباء والمحاضرين والممثلين؟ ألا ترى إلى نظرات المجرمين؟ ألا ترى إلى نظرات المحبين؟ ألا ترى إلى نظرات السعداء والمحزونين والخائفين والواثقين؟

ثم يقول: يقول سيدي القطب أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه وأرضاه، وعنا به، ما معناه: نحن كالسلحفاة نربي أبناءنا بالنظرة. ويقول: لا والله ما بيني وبين المريد الصادق إلا أن أنظر إليه وقد كفيته. (انتهى) نظرة القوة الخارقة، والروحانية النفاذة، التي تنفعل لها الأشياء. انتهى[400]

ما اتبعو حتى توب بدل ثوب غير الثوب
ثوب الحي والذيوب فسخو مع الذنوب

يقول: لا تتبع الشيخ حتى تتوب، افسخ عنك ثوب الحيات والذئاب، وتخلص من جميع ذنوبك

والمعنى: إذا أردت أن تنتفع من شيخك، فلا تتبعه حتى تتوب إلى الله تعالى توبة نصوحا، لا تتبعه حتى تتطهر من جنابات غفلاتك، وتتبرأ من حولك وقوتك

بدل ثوبا بثوب، اخلع ثوب المعصية والبس ثوب الطاعة، اخلع ثوب الكذب والزور والبهتان والبس ثوب الصدق والفضيلة، ثوب الكبر والحسد والبس ثوب الخير والإحسان، افسخ جلد الحيات والذئاب، وابق في جلد إنسان، فمن غير ذلك، فوالله لن يصلك من شيخك إلا القطيعة، ولو لازمته الدهر كله

ولا تكون التوبة بلبس زي الصالحين من عمامة وجلباب بالنسبة للرجل، وخمار وحجاب بالنسبة للمرأة، وإنما تكون بأن يتزيى القلب بالطهارة ويتهيأ القصد بصدق المطلب في الرجوع إلى الواحد الأحد

قال رسول الله : "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم". رواه مسلم عن أبي هريرة

وكما يقول المثل الفرنسي: اللباس لا يشهد على الراهب

[400] الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية

ولى ما فبلك الوالي جدد توبتك على التوالي
فبل تراب النعال إلى طمحت للمعالي

يقول: وإذا لم يقبلك الوالي، وهو الشيخ، فجدد توبتك، لأنك لم تصدق في توبتك، وتذلل لشيخك، وقبل تراب نعليه، إذا طمحت للمعالي

والمعنى: ومتى جئته وردك، وتوددت إليه وصدك، فاعلم أن توبتك ناقصة، فجدد توبتك وتنصل من سيئاتك، مرة بعد أخرى، والزم بابه واخدمه حتى يقبلك

قال أبو عثمان: صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث، فطردني وقال: لا تجلس عندي، فلم أجعل مكافأتي له على كلامه أن أولي ظهري إليه، فانصرفت أمشي إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت عنه، واعتقدت أن أحفر لنفسي بئرا على بابه وأنزل وأقعد فيه، ولا أخرج منه إلا بإذنه؛ فلما رأى ذلك مني قربني وقبلني وصيرني من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله.[401]

وقد قال الشيخ: "قبل تراب النعال إلى طمحت للمعالي"، كناية على التوقير والتسليم للأكابر، وإلا فإنه في مذهبنا لا يقبل شيخ أن يقبل المريد تراب نعليه، لأنه يعلم أن هذا المريد قد يكون أعلى درجة عند الله منه. فالله تعالى، هو أعلم بخلقه وأدرى، ومن أهان عبيده أذله الله.

وقبول الشيخ للمريد، منه قبول الاتباع، وقبول الرضا عن سلوك الأتباع

وقد حاز قوم كثير قبول الاتباع من الشيخ، و لم يحظوا بقبول رضا الشيخ عن إخلاصهم في سلوكهم

ومن عادات كثير من المشايخ، أن يخلعو خرقة على المريد، اعترافا منهم بالرضا عن سلوكه. وقد ارتأيت الوقوف عند الكلام على الخرقة، حتى يعرفها من يجهلها، ويتبين حكم الشرع فيها

---

[401] عوارف المعارف

حكم لبس الخرقة

من عرف أغلب المتصوفة لبس الخرقة من شيوخهم وأساتذتهم، ومتى خلع الشيخ الخرقة على المريد، فذلك إيحاء له، بأنه رضي عنه، وأجازه في طريق القوم

يقول السهروردي: وقد رأينا من المشايخ من لا يلبس الخرقة، ويسلك بأقوام من غير لبس الخرقة، ويؤخذ منه العلوم والآداب، وقد كان طبقة، من السلف الصالحين لا يعرفون الخرقة ولا يلبسونها المريدين، فمن يلبسها فله مقصد صحيح وأصل من السنة وشاهد من الشرع، ومن لا يلبسها فله رأيه وله في ذلك مقصد صحيح، وكل تصاريف المشايخ محمولة على السداد والصواب، ولا تخلو عن نية صالحة فيه، والله تعالى ينفع بهم وبآثارهم إن شاء الله تعالى. انتهى[402]

أصل لبس الخرقة

عن أم خالد بنت خالد: أتي النبي ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: "من ترون أن نكسو هذه؟" فسكت القوم، فقال: "ائتوني بأم خالد"، فأتي بها تحمل، فأخذ الخميصة بيده فألبسها، وقال: "أبلي وأخلقي". وكان فيها علم أخضر أو أصفر، فقال: "يا أم خالد، هذا سناه". وسناه بالحبشية حسن. رواه البخاري

قال السيوطي: وقد استنبطت للخرقة أصلا أوضح من هذا الحديث، وهو ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من طريق عطاء الخراساني، أن رجلا أتى ابن عمر فسأله عن إرخاء طرف العمامة، فقال له عبد الله: إن رسول الله ﷺ، بعث سرية وأمر عليها عبد الرحمن بن عوف، وعقد لواء، وعلى عبد الرحمن بن عوف عمامة من كرابيس، مصبوغة بسواد، فدعاه رسول الله ﷺ، فحل عمامته، فعممه بيده، وأفضل من عمامته موضع أربعة أصابع أو نحوه، فقال: هكذا فاعتم، فهو أحسن وأجمل. فهذا أوضح في كونه أصلا للبس الخرقة من وجهين:

الأول: أن الصوفية إنما يلبسون طاقية على رأس، لا ثوبا عاما لكل بدنه.

الثاني: أن حديث أم عطية في اللباس غطاء وقسمة وكسوة، وهذا بالرأس تشريف، وهو السبب للبس الخرقة.

ووجه ثالث: أن لبس الخرقة نوع من المبايعة، كما أشار له السهروردي؛ وأم خالد، كانت صغيرة لا تصلح للمبايعة، بخلاف حديث عبد الرحمن بن عوف. انتهى كلام السيوطي

قال المنذري: وأخرجه البخاري. انتهى[403]

---

[402] المرجع نفسه

[403] المرجع نفسه

الخرقة خرقتان

واعلم أن الخرقة خرقتان: خرقة الإرادة، وخرقة التبرك. والأصل الذي قصده المشايخ للمريدين: خرقة الإرادة. وخرقة التبرك، تشبه بخرقة الإرادة، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه، ومن تشبه بقوم فهو منهم، وسر لبس الخرقة أن الطالب الصادق، إذا دخل في صحبة الشيخ، وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى، بصدق الافتقار وحسن الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن. انتهى[404]

حقوق لبس الخرقة

سمعت شيخنا يقول: جاء بعض أبناء الدنيا إلى الشيخ أحمد الغزالي ونحن بأصبهان، يريد منه الخرقة، فقال له الشيخ: اذهب إلى فلان يشير إلي، حتى يكلمك في معنى الخرقة، ثم احضر حتى ألبسك الخرقة، قال: فجاء إلي فذكرت له حقوق الخرقة وما يجب من رعاية حقها وآداب من يلبسها ومن يؤهل للبسها، فاستعظم الرجل حقوق الخرقة وجبن أن يلبسها، فأخبر الشيخ بما تجدد عند الطالب من قولي له، فاستحضرني وعاتبني على قولي له ذلك، وقال: بعثته إليك حتى تكلمه بما يزيد رغبته في الخرقة، فكلمته بما فترت عزيمته، ثم الذي ذكرته كله صحيح، وهو الذي يجب من حقوق الخرقة، ولكن إذا ألزمنا المبتدئ بذلك نفر وعجز عن القيام به، فنحن نلبسه الخرقة حتى يتشبه بالقوم ويتزيى بزيهم، فيقربه ذلك من مجالسهم ومحافلهم، وببركة مخالطته معهم ونظره إلى أحوال القوم وسيرهم، يحب أن يسلك مسلكهم ويصل بذلك إلى شيء من أحوالهم. انتهى[405]

قال أبو الفتح: وقد خاض في الخرقة أناس وسودوا الصحف في تحريمها وتبديعها، وهي لا تمت إلى التحريم والتحليل بصلة

فالرجل متى مات أبوه، أو جده، احتفظ بسبحته أو ببعض لباسه، حبا له وتبركا به

فما تقول اليوم في فتياننا وفتياتنا حين يتجمعون على مغن أجنبي، حتى إذا ما أتم غناءه، ألقى إليهم بشيء من ثيابه يتقاطعونه بينهم، وقد علا صراخهم، وكأنما ألقي إليهم بكتاب من السماء؟

وكل من حاز قطعة، صانها وحافظ عليها، وافتخر بها بين أقرانه

فكيف لا نفرح بالخرقة من يد ولي صالح؟

وقال الإمام السهروردي قدس الله روحه في عوارف المعارف: لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ وبين المريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، والتحكيم شائع في الشرع بمصالح دنيوية، فماذا ينكر المنكر لبس الخرقة

---

[404] المرجع نفسه

[405] المرجع نفسه

على طالب صادق في طلبه، ويقصد شيخا بحسن ظن وعقيدة، يحكمه في نفسه لمصالح دينية، ليرشده ويهديه ويعرفه طرق المواجيد، ويبصره بآفات النفس وفساد الأعمال ومداخل الله، ويسلم نفسه إليه، ويستسلم لرأيه واستصوابه في جميع تصاريفه، فيلبسه الخرقة إظهارا للتصرف فيه؟ فيكون لبس الخرقة، علامة للتفويض والتعليم، ودخوله في الشيخ دخوله في حكم الله وحكم رسوله، وإحياء سنة المبايعة مع رسول الله ﷺ. انتهى[406]

قلت: وقد أجزنا الخرقة ولبسناها، وألبسناها ولله الحمد والمنة

إلى دعا معاك بالغفران محال يخيبو الرحمن
يغسلك بالما والريحان يغطيك بشقايق النعمان

يقول: إذا دعا معك بالمغفرة والغفران، فمن المحال أن يرد الله تعالى دعوته، فإنه يغسلك من درنك بالماء والريحان، ويغطيك بعد ذلك بزهر شقائق النعمان

والمعنى: وحتى إذا بقي من نفسك بقية، ودعا معك الشيخ بالغفران، فمن المحال أن يخيبه الرحمن ولا يغفر لك، فإن وظيفة المشايخ تحبيب الله إلى الناس، وتحبيب الناس إلى الله، يدعوهم إليه في نهارهم، ويدعونه لهم ليلهم. كذلك وظيفة الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: "**ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين**"،[407] ومن كان هذا دأبه، فلا شك أنه إذا أقسم على الله أبره الله

فإذا دعا معك بالغفران، غسلك من درن سيآتك بدعوته، وأما ما خبث من طباعك، فهو أدرى بما يصلحه، فلا تعص له أمرا فيما يأمرك به، فإن مراده متى أمرك بما تكره نفسك، تطهيرك وتشريفك لتكون أهلا لمناجاة الباري عز وجل في الحضرات، وإن قصده، لا قصد غيره، هو أن يقف عليك حتى تلقى الله وهو عنك راض.

وقد قال الشيخ: "يغسلك بالماء والريحان"، مشيرا إلى غسل الميت، كما هو في العرف، ونقصد بذلك، أن الشيخ سيقتل فيك نفسك، وبذاك تموت الميتة الأولى، أي موتة الحياة. قال تعالى: "**فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم**"،[408] وإن شئت: يحييك الحياة الأولى، قال سبحانه: "**أومن كان ميتا فأحييناه**".[409]

---

[406] المرجع نفسه

[407] فصلت32

[408] البقرة53

[409] الأنعام123

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل صالحا، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة؛ وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان الحديث". رواه ابن ماجه في سننه

عن أبي تميمة الهجيمي أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى: "أن اغسل دانيال بالسدر وماء الريحان". الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف لابن المنذر

وبعدها يسجيك بزهر شقائق النعمان، وما أبهاه من زهر، تتوق لرؤيته الأنفس، ويزكو برائحته في الأنوف، وهو ينبت في أحسن الفصول، كما أنه زهر متوحش، لا يحتاج إلى من يتعهده لكي ينبت، تراه هنا وهناك، بين السنابل وفي الحقول في الأراضي الطيبة

وذلك كناية على أن الشيخ إذا غسلك من ذنوبك، وطهرك من خبث طباعك، فزت بإنسانيتك ورجعت إلى بشريتك، وحظيت بحلاوة الباطن وسعادة الظاهر

اعلم يا طالب علم الحقيقة بأنجع طريقة، أيها المتتبع لأحوال ذوي الحقائق، المحب لأرباب الإشارات والرقائق، اعلم، أيدك الله بالفتح المبين، وأعزك بالنصر المكين، أن كلام أولياء الله تعالى قد تضارب وائتلف، وتشابه واختلف؛ وقد تتساءل عن كثير مما لم يقبله عقلك، ولم تستسغه جبلتك، ومع ذلك لا تنال منهم بقول بلسانك، ولا تظن بهم إلا خيرا بفؤادك، فدعني أوضح لك ما استشكل عليك وشغل بالك بإذن الله تعالى علمنا وعلمت أن كشوفات العارفين تختلف من عارف إلى آخر

فقد اختلفوا في العرش والكرسي، وفي الأفلاك والأرضين، وفي هيئة الأولياء وما يتعلق بها من تعداد عناصرها، ووصفهم وزمان اجتماعهم وموضعه، وعلى ما يجتمعون ومتى يتفرقون

واختلفوا في القطب، وفي خاتم الولاية

ثم إن كثيرا منهم ادعى القطبية، بل ادعى الختمة، وكثير رأوا لأنفسهم مقاما لا يعلوه مقام ولي آخر، إلى آخر الزمان

فما هو المخرج من كل ماذكرت؟

وقد وضع البعض علامات للولي والقطب حتى يعرف بها، بل إن شيخ الأولياء، أبا عبد الله الحكيم الترمذي، قد طرح أسئلة لا يستحق الولاية في نظره إلا من أجاب عنها، وقد أجاب القليل بعده، منهم محيي الدين بن عربي الحاتمي رحمه الله تعالى، في كتابه: الفتوحات المكية، سنعرض لبعضه فيما ياتي من كلام إن شاء الله تعالى.

علامات القطب عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي

وهذه علامات القطب حسب ما رآه شيخنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، فقد حكى عنه ابن عطاء الله أنه قال: للقطب خمس عشرة كرامة، فمن ادعاها أو شيئا منها، فليبرز بمدد الرحمة والعصمة، والخلافة والنيابة، ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه؛ وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء، وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم، بدءا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار، والمحيطة بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله، أبو عبد الله الترمذي الحكيم،[410] في كتاب: ختم الأولياء، له: إن من ادعى الولاية، فيقال له: صف لنا منازل الأولياء؟ فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية. انتهى[411]

ما اخترناه من أسئلة الحكيم الترمذي وما رد به ابن عربي، ثم تعليقنا عليه

وقد آن الأوان وواتى الزمان، لكي نعرض لبعض ما اخترناه من إجابات ابن عربي على أسئلة الحكيم مع التعقيب:

يقول محيي الدين بن عربي:[412] السؤال الثامن والعشرون: ما العدل؟

---

[410] الحكيم الترمذي: توفي سنة: 320هجرية

من كتبه: ختم الأولياء، وتذكرة الأولياء، والرياضة وأدب النفس

قال السلمي في طبقات الصوفية: ومنهم محمد بن علي الترمذي، وهو محمد بن علي بن الحسن، وكنيته أبو عبد الله، لقي أبا تراب النخشبي، وصحب يحيى الجلاء وأحمد بن خضرويه، وهو من كبار مشايخ خراسان، وله التصانيف المشهورة، كتب الحديث ورواه. انتهى

[411] لطائف المنن

[412] أبو بكر محيي الدين، محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، العارف الكبير، ابن عربي، ويقال ابن العربي. انتهى

ولد بمرسية، سنة ستين وخمسمائة، ونشأ بها، وانتقل إلى أشبيلية سنة ثمان وسبعين، ثم ارتحل وطاف البلدان: فطرق بلاد الشام والروم والمشرق، ودخل بغداد وحدث بها بشيء من مصنفاته، وأخذ عنه بعض الحفاظ. كذا ذكره ابن النجار في الذيل، وقال الشيخ عبد الرؤوف المناوي في طبقات الأولياء له: وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان: وهو ممن كان يحط عليه ويسيء الاعتقاد فيه، كان عارفا بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم، أخذ الحديث عن جمع؛ وكان يكتب الإنشاء لبعض ملوك المغرب؛ ثم تزهد وساح ودخل الحرمين والشام؛ وله في كل بلد دخلها مآثر. انتهى

قال المناوي: وقد تفرق الناس في شأنه شيعا، وسلكوا في أمره طرائق قددا: فذهبت طائفة إلى أنه زنديق لا صديق، وقال قوم أنه واسطة عقد الأولياء ورئيس الأصفياء؛ وصار آخرون إلى اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه، أقول: منهم الشيخ جلال الدين السيوطي، قال في مصنفه: تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي، والقول الفيصل في ابن العربي: اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه: فقد نقل عنه هو أنه قال: نحن قوم يحرم النظر في كتبنا. قال السيوطي: وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها، وأرادوا بها معانيا غير المعاني المتعارفة منها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر. نص على ذلك الغزالي في بعض كتبه، وقال أنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة، من حمله على ظاهره كفر. انتهى

ومن شعره الرائق قوله:

الجواب: العدل هو الحق المخلوق به السموات والأرض، فسهل بن عبد الله وغيره يسميه العدل، وأبو الحكم عبد السلام بن برجان يسميه الحق المخلوق به، لأنه سمع الله يقول: "ما خلقناهما إلا بالحق"،[413] "وما خلقنا السموات والارض وما بينهما إلا بالحق"،[414] "وبالحق أنزلناه"،[415] أي، بما يجب لذلك المخلوق مما تقتضيه حالة خاصة، بقوله تعالى: "ثم هدى"،[416] أي بين أنه أعطى كل شئ خلقه، أي ما خلقه إلا بالحق، وهو ما يجب له، فالعالم على الحقيقة هو الله الذي علم ما تستحقه الأعيان في حال عدمها، وميز بعضها عن بعض بهذه النسبة الإحاطية، ولولا ذلك، لكانت نسبة الممكنات في قضية العقل فيما يجب لها من الوجود نسبة واحدة، وليس الأمر كذلك، ولا وقع كذلك، بل علم سبحانه ما يتقيد من الممكنات في وجوده بأمس، لا يمكن عنده أن يوجده اليوم، ولا في غد، فإنه من تمام خلقه: تعيين زمانه، وهو القدر، وهي الأقدار، أي مواقيت الإيجاد، فهو سبحانه يخلق من غير حكم قدر عليه في خلقه، والمخلوقات تطلب الأقدار بذاتها؛ فأعطى

حقيقتي همت بها	وما رآها بصري
ولو رآها لغدا	قتيل ذاك الحور
فعندما أبصرتها	صرت بحكم النظر
فبت مسحورا بها	أهيم حتى السحر
يا حذري من حذري	لو كان يغني حذري
والله ما هيمني	جمال ذاك الخفر
يا حسنها من ظبية	ترعى بذات الخمر
إذا رنت أو عطفت	تسبي عقول البشر
كأنما أنفاسها	أعراف مسك عطر
كأنها شمس الضحى	في النور أو كالقمر
إن سفرت أبرزها	نور صباح مسفر
أو سدلت غيبها	ظلام ذاك الشعر
يا قمرا تحت دجى	خذي فؤادي أو ذري
عسى لكي أبصركم	إذ كان حظي نظري

توفي رحمه الله ورضي عنه، في الثاني والعشرين من ربيع الآخر بدمشق، في دار القاضي محيي الدين بن الزكي، وحمل إلى قاسيون، فدفن في تربته المعلومة الشريفة، التي هي قطعة من رياض الجنة، والله تعالى أعلم. انتهى من شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي

[413] الدخان37

[414] الحجر85

[415] الإسراء105

[416] قال تعالى: "قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى". طه49

كل شيء خلقه من زمانه، فيمن يتقيد وجوده بالزمان، ومن حاله، فيمن يتقيد وجوده بالحال، ومن صفته، فيمن يتقيد وجوده بالصفة؛ فإن قلت فيه: مختار، صدقت؛ وإن قلت: حكيم، صدقت؛ وإن قلت: لم يوجد هذه الأمور على هذا الترتيب إلا بحسب ما أعطاه العلم، صدقت؛ وإن قلت: ذاته اقتضت أن يكون خلق كل شيء على ما هو عليه ذلك الشيء، في ذاته ولوازمه وأعراضه لا تتبدل ولا تتحول، ولا في الإمكان أن يكون ذلك اللازم أو العارض لغير ذلك الممكن، صدقت. فبعد أن أعلمتك صورة الأمر على ما هو عليه، فقل ما تشاء، فإن قولك من جملة من أعطى خلقه في ظهوره منك، فهو من جملة الأعراض في حقك، وله صفة ذاتية ولازمة وعرضية، من حيث نفسه، فاعلم ذلك؛ وأما تحقيق هذا الإسم لهذه النسبة، فاعلم أن العدل هو الميل، يقال: عدل عن الطريق، إذا مال عنه، وعدل إليه إذا مال إليه، وسمي الميل إلى الحق عدلا، كما سمي الميل عن الحق جورا، بمعنى، أن الله خلق الخلق بالعدل، أي أن الذات لها استحقاق من حيث هويتها، ولها استحقاق من حيث مرتبتها، وهي الألوهية، فلما كان الميل مما تستحقه الذات لما تستحقه الألوهية التي تطلب المظاهر لذاتها، سمى ذلك عدلا، أي ميلا من استحقاق ذاتي إلى استحقاق إلهي لطلب المألوه، ذلك الذي يستحقه، ومن أعطى المستحق ما يستحقه، سمي عادلا وعطاؤه عدلا، وهو الحق؛ فما خلق الله الخلق إلا بالحق، وهو إعطاؤه خلقه ما يستحقونه، وليس وراء هذا البيان وبسط العبارة ما يزيد عليها في الوضوح. انتهى[417]

قال أبو الفتح: قلت: فأما العدل بالنظر إلى هذا الإسم من حيث اللغة والفرق بينه وبين العادل، فالعادل هو الذي يعدل. وأما العدل فهو الذي لا يظلم أبدا، وهو المعروف بالعدل

وأما بالنظر إلى كون العدل من صفات الباري عز وجل، فليس المراد به، ما نفهمه من: مجازاة العامل وعقاب الخامل، وإنما هو أبعد من ذلك وأرق

فقد يظهر لنا من أفعال الله تعالى في خلقه ما لا يناسب هذا المعنى، وما ظهر لنا مخالفا، إلا لوهمنا في فهم معنى العدل

والعدل: فعل الأنسب في الملك والملكوت، من انفعال الخلق والخليقة بمشيئة الحي الذي لا يموت

وقولنا: الأنسب، رد على النفوس التي تقيس أفعال المولى بما يجب أن تكون عليه أفعال الموالي، فتحكم بعدم مناسبته، وكأنها بذلك تشبه أفعال الله تعالى بأفعال العباد، مع أن هذه النفوس تؤمن بأنه سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله

ومن عرف الله، أدرك عدله، حتى فيما يتبين لغير العارف أنه ظلم، قال تعالى: "**إن الله لا يظلم مثقال ذرة**". [418]

---

[417] الفتوحات المكية

[418] النساء40

وفي المخاطبات: وقيل لي: نظرت في ملكي فرأيت الكريم مهانا، ورأيت اللئيم مهابا، ورأيت الفاجر غنيا، ورأيت المومن فقيرا، فلم تفهم وسلمت لي تسليما

لو عرفت معنى المهانة والكرامة، والغنى والفقر، لرأيت كل شيء في محله، ولكنك ما فهمت سوى بمعاني الحوادث؛ فاحذر أن تفهم في الملكوت ما فهمت به في الملك، فتهوي في مكان سحيق. انتهى[419]

يقول ابن عربي: السؤال التاسع والثلاثون ومائة: والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه، فأين هذه الأسماء؟ وإنما هي ثمانية وعشرون حرفا، فأين هذه الحروف؟

الجواب: لأنه يفتح الحرف الواحد من الأسماء الإلهية أسماء كثيرة لا يحصرها عدد، وذلك لأنه إنما يفتح أسماء الأسماء التي تتركب من الحروف بحكم الاصطلاح، وقد ثبت أن الحق متكلم، فقد سمى نفسه من كونه متكلما بالكلام الذي نسب إليه ويليق به، وهذه الأسماء التي تظهر عن الحروف، أسماء تلك الأسماء؛ فلو أن الحرف الواحد يفتح اسما واحدا، لكان كما قلت من التعجب، ألا ترى في الأسماء المحفوظة في العموم، كالملك والمصور والمان والمنان، والمقتدر، والمحيي والمميت، والمقيت، والمالك والمليك، والمقدم والمؤخر، والمؤمن والمهيمن والمتكبر والمغني والمعز والمذل؛ فهذا حرف واحد افتتحنا به كذا كذا اسما إلهيا، مع أنا لم نستوف، ثم لتعلم أن كل اسم في العالم هو اسمه لا اسم غيره، فإنه اسم الظاهر في المظهر، وليس في وسع المخلوقين حصرها ولا إحصاؤها، وجميعها مفاتيحها هذه الحروف على قلتها؛ ولك في اختلاف اللغات أعظم شاهد، وأسد دليل إن فهمت مقصود القوم؛ وأما قوله: فأين هذه الحروف؟ فقل له: في عوارض الأنفاس، تعرض للنفس الرحماني ما يحدث عين الحرف، ويعرض للحروف ما يحدث الأسماء، فأبنية الأسماء في الحروف، وأبنية الحروف الأنفاس، وأبنية الأنفاس الأرواح، وأبنية الأرواح القلوب، وأبنية القلوب عندية مقلبها؛ وأسماء الحق لا تتعدد ولا تتكثر إلا في المظاهر؛ وأما بالنسبة إليه فلا يحكم عليها العدد، ولا أصله الذي هو الواحد، فأسماؤه من حيث هو، لا تتصف بالوحدة ولا بالكثرة؛ فسؤال الإمام: إنما هو عن الأسماء التي يقع بها التلفظ في عالم الحروف اللفظية، ويقع بها الرقم في عالم الكتابة، فتارة يراعى الرقم، وتارة يراعى اللفظ، وأما غيره، فيجعل حروفا ثوالث، وهي الحروف الفكرية، وهى ما يضبطه الخيال من سماع المتلفظ بها، أو إبصار الكاتب إياها. انتهى[420]

قال أبو الفتح: قول الحكيم الترمذي: والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه. انتهى

ننظر إليه بحول الله تعالى، من جهة دين الإسلام، ومن جهة لغة القرآن، وإلا فالكلام يطول إذا نظرنا إليه من جهة جميع اللغات والأديان، وحتى إذا فعلنا، فلن نوفيه حقه، إذ نكون بذلك بثتنا في الأمر، بما يخص عالم الخلق والبعث والمكلف والمكلفين، والكسب والحساب

---

419 مخاطبات الجعفي

420 الفتوحات المكية

فلله تعالى عوالم غيره، لا نعرفها ولا نعرف على ما أقيمت من أسس، حتى نتكلم فيها

قلت: لا نجاري الحكيم فيما ذهب إليه، في قوله أن الحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه

فإن لله تعالى اسما واحدا في لغة الضاد، وهو اسم: الله، افتتحه سبحانه بألف ثابت، ليدل على قيوميته منذ بدء الخليقة، وقد وضع الله تعالى الألف موضع الإبتداء، لأن الإبتداء مترلته وداره، لم يتزحزح عنها، ولذلك أسكنه فيها. ألف ثابت يدل به على أوليته وظهوره، ثم مد اللام الثانية في اسمه بألف محذوفة، يدل بها على بقائه وخفائه، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن

أما باقي الأسماء، فما هي بأسماء، كما هو معلوم عند أصحاب العقائد، وإنما هي صفات، لا تكاد تعد وتحصى، وما يحدها سوى محدودية معاني العربية عامة، لأن العربية محدثة للحوادث، فلا يكون لها الاستمرار والامتداد إلى ما لا نهاية.

وقد تكون هذه الصفات، مبتدئة بكل حرف من حروف المعجم، وليس فقط بالحروف المقطعة

وإنما الألف ابتدأ به اسم الله الواحد الأحد في الأسماء، وابتدأت به الحروف المقطعة في التتريل، استفتاحا لسورة البقرة: "ألم، ذلك الكتاب لا ريب، فيه هدى للمتقين".[421]

ويتكون اسم الذات، أي: الله، من ثلاثة حروف، إذا حذفنا مكرره؛ وهذه الثلاثة، هي: الألف واللام والهاء، وهي ملوك الحروف عندنا، وهي أشد الحروف المقطعة نورانية، كيف وهي تكون اسم النور الأعظم، قال سبحانه وتعالى: "الله نور السماوات والارض".[422]

وهذه الثلاثة حروف ذاتها، تكونت منها كلمة التوحيد: لا إله إلا الله

وكأن الله تعالى، في لا إله إلا الله، جعل المعنى يوحد الواحد الأحد الذي لا إله غيره، وجعل المبنى يشهد بوحدته كذلك، إذ لا نشهد بهذه الوحدانية سوى باستعمال الثلاثة حروف التي تكون اسم الواحد الأحد، وهو الله

وفي ذلك حكمة بالغة من شهود العبارة والإشارة، والمبنى والمعنى على وحدته تعالى، وفي ذلك إعجاز لا نظير له في التعبير بالنفي والإثبات، في جملة تامة بثلاثة أحرف فقط

واسم الله تعالى، بقي كما هو في وضعه، منذ نزول القرآن الكريم، فحروفه غير منقوطة، فلم يتغير بعد وضع التنقيط على الحروف، إذ الأصل في كتابة العربية أن تكتب حروفها بغير نقط، وإنما ابتدعت النقط بعد أن اضمحل نطق الناس بها لما ضعفت سليقتهم، فاختلط عليهم حرف بحرف والتبس لفظ بلفظ.[423]

---

[421] البقرة01

[422] النور35

يقول ابن عربي: السؤال الأربعون ومائة: كيف صار الألف مبتدأ الحروف؟

الجواب: لأن له الحركة المستقيمة، وعن القيومية يقوم كل شيء، فإن قلت: إنما يقع التكوين بالحركة الأفقية، فإنه لا يقع إلا بمرض، والمرض ميل، ألا ترى إلى القائلين بحكم العقل، كيف جعلوا موجد العالم علة العلل، والعلة تناقض القيومية؛ فلنقل: إنما وقع الوجود بقيومية العلة، فإنه لكل أمر قيومية، فافهم، فقيومية الألوهية تطلب المألوه بلا شك، "أفمن هو قايم على كل نفس بما كسبت"،[424] وما ثم ما يناسب الألف إلا الحرف المركب، وهو اللام، فإنه مركب من ألف ونون، فلما تركب حدث اللام الرقمي، لا اللفظي، فلام اللفظ صورته في الرقم مركب من حرفين، فيفعل بالتلفظ فعل الواحد، وهو عينه، ويفعل بالنقش فعل الألف والنون؛ وهكذا كل حرف مركب، ويفعل فعل الراء والزاي ببعد، كما يفعله النون بقرب، لأن النون حرف مركب من زاي وراء، وأريد حروف الرقم، فابتدؤوا بالألف في الرقم، لما ذكرناه، وانفتحت فيه أشكال الحروف كلها، لأن أصل الأشكال الخط، كما أن أصل الخط النقطة، والخط هو الألف، فالحروف منه تتركب وإليه تنحل، فهو أصلها، وأما الحروف اللفظية، فالألف يحدثها بلا شك، كما يظهر الألف عن الحرف، إذا أشبعته الفتح، فإنه يدل على الألف، كما أنك إذا أشبعت الحرف الضم دل على ألف الميل، وهو واو العلة، وإنما ظهر عن الرفع المشبع، لأن العلة أرفع من المعلول، فما ظهر عن الحرف إلا بصفة الرفع البالغ، ليعلم أنه، وإن مال، فإنه ما مال إلا عن رفعة رحمة بك، ليوجدك مظهرا لخالقك، ألا تراه في حرف الإيجاد، كيف جاء برفع الكاف المشبع، فقال: "إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن".[425] فجاء بالكاف مشبعة الضم، لتدل

---

[423] قال أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني: قال العتبي: كتب معاوية رضي الله عنه إلى زياد يطلب عبيد الله ابنه، فلما قدم عليه كلمه فوجده يلحن، فرده إلى زياد، وكتب إليه كتابا يلومه فيه ويقول: أمثل عبيد الله يضيع؟ فبعث زياد إلى أبي الأسود، فقال: يا أبا الأسود، إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئا يصلح به الناس كلامهم، ويعربون به كتاب الله تعالى، فأبى ذلك أبو الأسود وكره إجابة زياد إلى ما سأل؛ فوجه زياد رجلا فقال له: اقعد في طريق أبي الأسود، فإذا مر بك فاقرأ شيئا من القرآن وتعمد اللحن فيه، ففعل ذلك، فلما مر به أبو الأسود رفع الرجل صوته فقال: "أن الله بريء من المشركين ورسوله"، التوبة3 فاستعظم ذلك أبو الأسود وقال: عز وجه الله أن يبرأ من رسوله. ثم رجع من فوره إلى زياد، فقال: يا هذا، قد أجبتك إلى ما سألت، ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن، إلي ثلاثين رجلا، فأحضرهم زياد فاختار منهم أبو الأسود عشرة، ثم لم يزل يختار منهم حتى اختار رجلا من عبد القيس، فقال: خذ المصحف وصبغا يخالف لون المداد، فإذا فتحت شفتي فانقط واحدة فوق الحرف، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن اتبعت شيئا من هذه الحركات غنة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف، حتى أتى على آخره، ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك. انتهى من المحكم في نقط المصاحف

[424] الرعد34

[425] النحل40

على الواو، فإن قلت: وأين الواو؟ قلنا: غيب في السكون الذي هو الثبوت، فإن الحق يستحيل عليه الحركــة، فلما التقى سكون الواو من كون، وسكون النون، اتصفت الواو بالغيب فلم تظهر ولزمت الهوية، ولهذا هــو الهو، غيب وضمير عن غائب، وبقيت النون ساكنة، تدل على سكون الواو، وظهرت النون على صورة الــواو في السكون، وهو الثبوت، كقوله: "خلق آدم على صورته"، فأثبت الأسماء بوجود النون في كن، أي، مــا ثم كائن حادث إلا عند سبب، فلا يرفع الأسباب إلا جاهل بالوضع الإلهي، ولا يثبت الأسباب إلا عــالم كــبير أديب في العلم الإلهي؛ فعن الحروف اللفظية يوجد عالم الأرواح، وعن الحروف الرقمية يوجد عــالم الحــس، وعن الحروف الفكرية يوجد عالم العقل في الخيال، ومن كل صنف من هذه الحروف تتركب أسماء الأسمــاء. انتهى[426]

قال أبو الفتح: قلت: صار الألف مبتدأ الحروف، لأسباب منها:

الأول: لأنه الحرف الوحيد الذي إذا كان في مفصل عن الحروف، وعن كل ما يقرأ ويكتب، بقي على ما هو عليه، و لم يدل على نطقه إلا مرتبطا بالحروف

الثاني: لاستقامته وانتصابه ودلالته على نطقه، من غير أن يحتاج إلى ميل أو اعوجاج، وما من حرف سواه يدل على نطقه بغير التواء واعوجاج

الثالث: لأنه متى وضعت الحروف، فأصلها خط تتشكل منه، وهو الألف أصلها جميعا

الرابع: الألف يمتد عموديا إلى الأعلى، ولا يحصره شيء، ويمتد عموديا إلى الأسفل ولا يحصره شيء، فهو يعبر عن الله تعالى الأزلي الباقي

الخامس: انضواؤه في الحروف التي لا يمثلها غيرها، بخلاف الباقية، فالباء قد تقرأ ياء والفاء قافا، مع مراعاة أن حروف العربية التي نزل بها القرآن لا تعرف التنقيط

السادس: أن الألف يستر الساكن في التقديم، فيكون مبتدأ، ويمد الناصب، وهذا لا يفعله غيره

قلت في زنار: كان مول القدرة كان ؤ لازال كاين ويكون، لا احد غيرو كاين في هاذ الكون، الالف فى كان قايمة بلا تقويم، تستر ساكن فى البديا والتقديم، تمد حروف ناصبه ؤ تقيم، محذوفة أو ثابته حاضره فى التكليم، فى الجلالة مفتاح، دلالتها على المولى. انتهى

السابع: أن الألف يحافظ على وضعه الأول حتى في الأعداد، فهو أول حروف عدد: "أحد"، الذي هو بداية الأعداد، وهو أول حروف مرتبة "أول"، فاتحة المراتب

[426] الفتوحات المكية

الثامن: أن الألف في اسم الله، مع اللام ليسا بأداة تعريف، لأن الله تعالى معروف لا يعرف، فالألف أصل في اسم الذات

وما جاء الألف مع اللام في أول أي اسم غير اسم الله تعال سوى للتعريف، فافهم

التاسع: ولا يقرأ الواو والياء بهمز سوى إن ركبتهما الهمزة، أما الألف، إذا ركبته الهمزة قرأ بالنصب والرفع والكسر، ويقرأ همزا بالنصب والرفع والكسر دون همز

والألف لا يقرأ إلا همزا أبدا، سواء همز أو نصب أورفع وكسر، أما الواو والياء فتقرآن بوضعهما كما في قولك: "ولد"، وفي قولك: "يافع"، وتقرأ همزا، كما في قولك: "كؤود"، وفي قولك: "فائدة".

والألف نطقه الهمز، لا ينطق إلا به، فهو فيه أصل، إذ هو لسانه لا يعرف غيره، أما الواو والياء، فليس الهمز لهما نطقا في الأصل، وإنما يستعيرانه

ومتى شكل الألف انقلب في نطقه إلى همز بخلاف باقي الحروف

يقول ابن عربي: السؤال الثاني والأربعون ومائة: من أي حساب صار عددها ثمانية وعشرين حرفا؟

الجواب: لأنها إنما ظهرت أعيان الحروف في العالم العنصري، وفى عنصر الهواء سلطانها، كما أن التراب والماء للأجسام الحيوانية، كما أن عنصر النار للجان؛ والعالم العنصري إنما نسب الى العناصر لأنها السبب الأقرب، والعناصر إنما حدثت عن حركات الأفلاك، وحركات الأفلاك إنما قطعت ثمانيا وعشرين منزلة في الفلك الذي قطعت فيه، والعالم إنما صدر من نفس الرحمن، لأنه نفس به عن الأسماء، لما كانت تجده من عدم تأثيرها، والنفس مناسب لعنصر الهواء، فتشكلت المنازل الفلكية في الهواء العنصري، لما ظهرت العناصر، فلما جاء حكمه فيما تولد عن العناصر من المولدات، ظهرت في أكمل نشأة المولدات، وهو الإنسان، صور الحروف ثمانية وعشرين حرفا، عن ثمان وعشرين منزلة، والحق فيها لام الألف، خطا لينبه على القاطع في هذه المنازل، وهى الكواكب السيارة؛ فكما عمت المنازل بقوتها وتقطع فيها إيجاد الكائنات والحوادث كذلك، أوجدت هذه الحروف جميع الكلمات التى لا نهاية لها، دنيا وآخرة؛ فقد بان لك على التقريب، لم كانت ثمانية وعشرين حرفا، فمن تمكن له أن يضع قلما على شكل المنازل في طالع مخصوص، وتكون الدراري في عقدة الرأس، فإنه يكون عن ذلك القلم متى كتب به عجائب في سرعة ظهور ما يكتب له، في أي شيء كان، حتى لو كتب به كاتب دعاء، أجيب ذلك الدعاء و لم يتوقف. انتهى[427]

قال أبو الفتح: إنما عدد الحروف عندنا، ثمانية وعشرون في النطق، وليس في الوضع، والوضع أولى من النطق، لأن الأول أصل والثاني تابع، والتابع يأتي بعد الأصل، كما يأتي النطق بعد الوضع

---

[427] الفتوحات المكية

وإذا قلت: وكم عددها في الوضع؟ قلت: هو عندنا: ستة عشر، لا يزيد ولا ينقص، وهي كالتـــالي: الألـــف والياء المثناة من تحت، واللام والهاء والنون والكاف والدال المهملة والحاء المهملة والصاد المهملة والقاف المثناة والطاء المهملة والعين المهملة والسين المهملة والراء المهملة والواو والميم

وقد نابت الياء التحتية المثناة والنون عن الباء التحتية الموحدة والتاء الفوقية المثناة والثاء المثلثة

ونابت الهاء عن التاء الفوقية المثناة المربوطة في آخر اللفظ

ونابت الدال المهملة عن الذال المعجمة

ونابت الحاء المهملة عن الجيم الموحدة من تحت والخاء الموحدة من فوق

ونابت الصاد المهملة عن الضاد الموحدة

ونابت القاف المثناة عن الفاء الموحدة

ونابت الطاء المهملة عن الظاء الموحدة

ونابت العين المهملة عن الغين الموحدة

ونابت الراء المهملة عن الزاي الموحدة

وقد نطقت الحروف المقطعة في القرآن الكريم، بعدد الوضع وحروفه، دون زيادة ولا نقصان

أي متى تلوت الحروف المقطعة ونطقت بها، فأنت لا تخرج عن الستة عشر ولا تزيد

فإذا قلت: كيف ذلك؟

قلت: يجب النظر إلى الحروف دون تنقيط

فاعلم أن المفسرين جمعوا الحروف المقطعة بعدما حذفوا ما تكرر منها في أربعة عشر حرفا: يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر

فاكتب فواتح السور منطوقة، هكذا: نون، صاد، حا، كاف، يا، ميم، قاف، ألف، طا، عين، لام، ها، ســين، را

ثم احذف مكررها، فما بقي احذف نقطه، وما تبقى منه احذف كل حرف ينوب عنه غــيره في وضــعه أو أوضاعه، تبق لك ستة عشر حرفا لا غير، وهي أصل نطق سور القرآن وآياته جميعا، وأساس نطق سائر ألفاظ العربية، وقد سقناها آنفا كما ترى.

واعلم أن الحروف أمة، والمقطعة منها هيئة أولياء الله الصالحين

فالقطب حرف الألف، وهو في اسم الجلالة ثابت ومحذوف، وفي اسم الرحمن محذوف

وإماماه: اللام والهاء، لا ينوب عنهما غيرهما، وبهما يكون الألف اسم الجلالة وكلمة التوحيد، وهي: لا إله إلا الله

فأما اللام فبه يعرف الألف ما تنكر، كقولك في رجل: الرجل

وأما الهاء، فيكون ضميرا متصلا أو منفصلا، في محل ما أضيف إليه، ويكون ضميرا متصلا أو منفصلا في محل مفعول به

والأوتاد: الكاف والميم ثم الياء المثناة من تحت، التي تأتي في مؤخر الكلمة والنون التي تاتي مثلها في آخر الكلم، كل حرف منها قائم بنفسه، لا ينوب عنه غيره

والأبدال: الحاء المهملة، والراء المهملة، والسين المهملة، والصاد المهملة، والطاء المهملة، والعين المهملة، والقاف المثناة

وما غاب عما ذكرناه من الحروف الستة عشر الآنفة الذكر، فقد ناب عنه غيره مما ذكرنا في وضعه، اللهم إلا حرفي الدال المهملة والواو، فلم ينب عنهما في الوضع حرف من المقطعة التي تكون الهيئة، فانظره تجده كما قلنا، وبالله التوفيق

وبالنظر إلى ما سقط من حرفي الدال المهملة والواو، واللتين تكونان كلمة: ود، نجد أن القرآن العظيم قد ذكرها مرتين

أما الأولى ففي سورة البقرة، وهي قوله تعالى: "ود كثير من أهل الكتاب، لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق". [428]

وأما الثانية، ففي سورة النساء، وهي قوله تعالى: "ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة". [429]

وقد وردت الكلمة على شكل فعل ود، منسوب لأهل الكفر والشرك، ولعله سبب استثنائها مما ذكرناه، والله تعالى أعلم

يقول ابن عربي: السؤال الثالث والأربعون ومائة: ما قوله: "خلق آدم على صورته؟"[430]

الجواب: اعلم أنه كل ما يتصوره المتصور، فهو عينه لا غيره، فإنه ليس بخارج عنه، ولابد للعالم أن يكون متصورا للحق على ما يظهر عينه، والإنسان الذي هو آدم، عبارة عن مجموع العالم، فإنه الإنسان الصغير، وهو

---

[428] آية108

[429] آية101

[430] روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال: اذهب فسلم على أولئك، نفر من الملائكة جلوس، فاستمع ما يحيونك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن".

المختصر من العالم الكبير، والعالم ما في قوة إنسان حصره في الإدراك لكبره وعظمه، والإنسان صغير الحجم يحيط به الإدراك من حيث صورته وتشريحه، وبما يحمله من القوى الروحانية، فرتب الله فيه جميع ما خرج عنه، مما سوى الله، فارتبطت بكل جزء منه حقيقة الاسم الإلهي التي أبرزته وظهر عنها، فارتبطت به الأسماء الإلهية كلها، لم يشذ عنه منها شيء، فخرج آدم على صورة الاسم الله، إذ كان هذا الإسم يتضمن جميع الأسماء الإلهية، كذلك الإنسان، وإن صغر جرمه، فإنه يتضمن جميع المعاني، ولو كان أصغر مما هو، فإنه لا يزول عنه اسم الإنسان، كما جوزوا دخول الجمل في سم الخياط، وإن ذلك ليس من قبيل المحال، لأن الصغر والكبر العارضين في الشخص لا يبطلان حقيقته، ولا يخرجانه عنها، والقدرة صالحة أن تخلق جملا يكون من الصغر، بحيث لا يضيق عنه سم الخياط، فكان في ذلك رجاء لهم أن يدخلوا جنة النعيم، كذلك الإنسان، وإن صغر جرمه عن جرم العالم، فإنه يجمع جميع حقائق العالم الكبير، ولهذا يسمي العقلاء العالم إنسانا كبيرا، ولم يبق في الإمكان معنى، إلا وقد ظهر في العالم، فقد ظهر في مختصره، والعلم تصور المعلوم، والعلم من صفات العالم الذاتية، فعلمه صورته وعليها خلق آدم، فآدم خلقه الله على صورته، وهذا المعنى لا يبطل لو عاد الضمير على آدم، وتكون الصورة صورة آدم علما، والصورة الآدمية حسا مطابقة للصورة، ولا يقدر يتصور هذا إلا بضرب من الخيال يحدثه التخيل، وأما نحن وأمثالنا، فنعلمه من غير تصور، ولكن، لما جاء في الحديث ذكر الصورة، علمنا أن الله، إنما أراد خلقه على الصورة، من حيث أنه يتصور، لا من حيث ما يعلمه من غير تصور؛ فاعتبر الله تعالى في هذه العبارة التخيل، وإذا أدخل سبحانه نفسه في التخيل، فما ظنك بمن سوى الحق من العالم؛ صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لجبريل: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"، فهذا تنزيل خيالي من أجل كاف التشبيه، وانظر من كان السائل ومن كان المسؤل ومرتبتهما من العلم بالله، ولم يكن بأيدينا إلا الأخبار الواردة بالنزول والمعية واليدين واليد والعين والأعين والرجل والضحك، وغير ذلك مما ينسب الحق إلى نفسه؛ وهذه صورة آدم، قد فصلها في الأخبار، وجمعها في قوله: "خلق الله آدم على صورته"، فالإنسان الكامل ينظر بعين الله، وهو قوله: "كنت بصره الذي يبصر به الحديث"، كذلك يتبشبش بتبشبش الله، ويضحك بضحك الله، ويفرح بفرح الله، ويغضب بغضب الله، وينسى بنسيان الله، قال تعالى: "**نسوا الله فنسيهم**"،[431] وينسب جميع ما ذكرناه إلى كل ذات بحسب ما تقتضيه، مع علمنا بحقيقة كل صفة، فإن كانت الذات المنسوب إليها معلومة علم صورة نسبة هذا المنسوب، وإن جهلت الذات المنسوب إليها، كنت بنسبة هذا المنسوب أجهل؛ فهذا الوجه الذي يليق بجواب سؤال هذا السيد، فلو سأل مثل هذا السؤال فيلسوف إسلامي، أجبناه بأن الضمير يعود على آدم، أي، أنه لم ينتقل في أطوار الخلقة انتقال النطفة من ماء إلى إنسان،

---

[431] التوبة67

خلقا بعد خلق، بل خلقه الله كما ظهر، و لم ينتقل أيضا من طفولة إلى صبى إلى شباب إلى كهولة، ولا انتقل من صغر جرم إلى كبره كما ينتقل الصغير من الذرية. بهذا يجاب مثل هذا السائل، فلكل سائل جواب يليق به. انتهى[432]

قال أبو الفتح: "خلق الله تعالى آدم على صورته"، ولكن لم يخلقه إله، فإن كونه خلقه، إشارة إلى الخالق والمخلوق، والسيد والمسود

فهو على صورة الرحمن: من حيث أن له ذاتا وصفات وأفعالا؛ وله منطق وسمع وبصر

وقد تقول لي: هي نعوت وصفات يشترك فيها جميع المخلوقات مع الإنسان

فأقول: ولكن آدم على صورة الله تعالى، أن ميزه الله تعالى بما ليس عند غيره، بأن نفخ فيه الروح

فليس مخلوق في السماوات أو في الأرضين نفخ الله تعالى فيه من روحه غير آدم

وقد كانت هذه الصورة واضحة، في بداية خلق آدم، فإنه لم يستحق سجود الملائكة، حتى نفخ فيه الله تعالى من روحه، و لم يكن قد أذنب بعد ولا كلف بشيء

قال تعالى: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين".[433]

فهو على صورته تعالى، في تشريفه بالخلافة، وفي ما تضفيه عليه الروح، التي هي من الله، من صفات الباري عز وجل

إلا أن هذه الصفات، منها ما هو محرم عليه التشبه به، ولو أنه فيه، ومن هنا تظهر مشقة التكليف، ويتميز المؤمنون الذين يخالفون طباعهم في مرضاة الله تعالى

ومن الصفات التي هي فيه ومحرمة عليه: الكبر والكبرياء، ألا ترى أن الإنسان من شدة الكبر والكبرياء قد ادعى الألوهية؟

ومنها صفة الملك، ألا ترى أن الناس جميعا، ما منهم إلا مشغوف بالملك مجبول عليه؟

وإذا قلت في العربية: صنعت كذا على صورة كذا، فلا يعنى ذلك بالضرورة أن المصنوع الثاني مثل الأول تماما، ولكن فيه من بعض خصائص الأول، فافهم والله الموفق

---

[432] الفتوحات المكية

[433] الحجر29

الكلام على الهيئة وما يتعلق بها

اعلم أيها الأخ الصادق، أن الحق سبحانه، أنزل الشريعة وسخر لها في كل زمان من يخدمها ويحافظ على ثباتها، علماء صادقين، منهم فقهاء ومفسرون وأصوليون ومحدثون، ووعاظ ومجتهدون، فلا يخلو زمان من هذه الزمرة من الأتقياء العاملين، فهم أئمة الناس وعلماء الدين، يصلحون ما فسد، ويذكرون من نسي، ويشرحون ما أشكل؛ يغارون على دين الإسلام، وهم للأمة من الناصحين

وقد أظهرهم الله لعباده، حتى يفيدوا ويستفيدوا، فلو أنهم كانوا أخفياء ما انتفع بهم أحد، ولذلك هم ظاهرون يشدون ظاهر الدين، منهم صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم وأرضاهم؛ وبعدهم من تتابع من العلماء والفقهاء إلى أن ياتي الله بأمره، قال تعالى: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون".[434]

وقال سبحانه: "وما كان للمومنين لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طايفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون".[435]

وأما الحقيقة، فهي روح الشريعة، وما نزلت الشريعة إلا والحقيقة تسري في جسدها سريان المعنى في المبنى وسريان الماء في الغصن النضير

يقول القشيري: الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول؛ فالشريعة جاءت بتكليف الخلق، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر. انتهى[436]

فسخر الله تعالى للحقيقة، هي الأخرى، من العارفين من يرعاها حتى تساير الشريعة السمحة ولا تخرج عنها، فتكون على هدى من الله تعالى

أولئك علماء السلوك، من سعد بصحبتهم دلوه على حقيقة التوحيد، بعد أن تشرع في توحيده، فيجمع بذلك بين الحسنيين، واشترطوا عليه أداء الفرائض واجتناب الموبقات، ولكن علموه كيف يخلص عبوديته لمولاه، وكيف يتخلص من المشاغل، ويتبرأ من الأعراض التي تكدر عليه توجهه إلى مولاه

---

[434] النحل43

[435] التوبة123

[436] الرسالة القشيرية

وكما تميز علماء شرعيون بالسبق في العلوم عند الناس، وأقروا بسبقهم، حتى سموهم بما يدل على تميزهم وتفردهم: فكان مالك إمام دار الهجرة، والعز بن عبد السلام سلطان العلماء، وأبو حامد الغزالي حجة الإسلام، وابن تيمية شيخ الإسلام

بل هناك من أعطى لبعض الأئمة أعدادا مخصوصة، كما هو الحال عند أعضاء عناصر هيئة الأولياء، ومن ذلك سمي أبو بكر وعمر وهما اثنان، بالإمامين

والخلفاء الراشدون أربعة، والعبادلة الأربعة[437] وأصحاب المذاهب الفقهية أربعة،[438] وفقهاء المدينة سبعة، [439]

فلدى العارفين المحققين ما يسمى بالهيئة، التي ما هي إلا أفراد تفردوا برعاية الحقيقة على مر الزمان، واصطلح الأولياء على تسميتهم بأسماء مخصوصة، وأجمعوا على عددهم ومهامهم، ويكون القطب على رأسهم. وهناك من يسميه الغوث، وهناك من يرى أن القطب ياتي بعد الغوث، وفي مذهبنا: لا أحد في العالمين أحق بتسمية الغوث من رسول الله ﷺ

قلت: وقد تسألني أيها القارئ اللبيب: هل لذكر هيئة الأولياء أصل في حديث رسول الله ﷺ؟

---

[437] أسماء العبادلة الأربعة:

عبد الله بن الزبير رضى الله عنه

عبد الله بن عباس رضى الله عنه

عبد الله بن عمر رضى الله عنه

عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه

[438] أسماء أصحاب المذاهب الأربعة:

مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، أبو عبد الله

أبو عبد الله، محمد بن إدريس الشافعي المطلبي المكي

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطا التميمي مولاهم، الكوفي

أحمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله

[439] وهذه أسماء فقهاء المدينة السبعة:

عروة بن الزبير

سعيد بن المسيب

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

خارجة بن زيد، وهو ابن الصحابي زيد بن ثابت

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة

سليمان بن يسار، مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث

فأقول والله المستعان على كل عسير: ثبتت أحاديث بذكر القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، نورد لك بعض ما اخترناه منها، من باب الاقتضاب لضيق مجال سردها جميعا، فإليك ما يفي بالغرض:

يقول جلال الدين السيوطي في كتاب أسماه: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، الحمد لله الذي فاوت بين خلقه في المراتب، وجعل في كل قرن سابقين، بهم يحيي ويميت ويترل الغمام الساكب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد البدر المنير، وعلى آله وأصحابه الهداة الكواكب.

وبعد، فقد بلغني عن بعض من لا علم عنده، إنكار ما اشتهر عن السادة الأولياء من أن منهم أبدالا ونقباء ونجباء وأوتادا وأقطابا؛ وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك، فجمعتها في هذا الجزء، لتستفاد ولا يعول على إنكار أهل العناد، وسميته: الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال، والله الموفق

فأقول: ورد في ذلك مرفوعا وموقوفا، من حديث عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وأنس وحذيفة بن اليمان وعبادة بن الصامت، وابن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود وعوف بن مالك، ومعاذ بن جبل وواثلة بن الأسقع وأبي سعيد الخدري، وأبي هريرة وأبي الدرداء وأم سلمة رضي الله تعالى عنهم. ومن مرسل الحسن وعطاء وبكر بن خنيس. ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم ما لا يحصى. انتهى[440]

(حديث ابن مسعود): قال أبو نعيم: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: "إن لله عز وجل في الخلق ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم عليه السلام، ولله في الخلق أربعون، قلوبهم على قلب موسى عليه السلام، ولله في الخلق سبعة، قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام، ولله في الخلق خمسة، قلوبهم على قلب جبريل عليه السلام، ولله في الخلق ثلاثة، قلوبهم على قلب ميكائيل عليه السلام، ولله في الخلق واحد قلبه على قلب إسرافيل عليه السلام؛ فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة؛ فبهم يحيي ويميت ويمطر وينبت ويدفع البلاء". قيل لعبد الله بن مسعود: وكيف بهم يحيي ويميت؟ قال: لأنهم يسألون الله إكثار الأمم فيكثرون، ويدعون على الجبابرة فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فتنبت لهم الأرض، ويدعون فيدفع بهم أنواع البلاء. أخرجه ابن عساكر. انتهى[441]

(مرسل الحسن) قال ابن أبي الدنيا في كتاب السخاء: عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال: "إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بكثرة صلاتهم ولا صيامهم، ولكن دخلوها بسلامة الصدور وسخاوة أنفسهم". وأخرجه البيهقي في

---

440 الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال

441 المرجع نفسه

شعب الإيمان عن أبي عبد الله الحافظ عن أبي حامد أحمد بن محمد بن الحسين عن داود بن الحسين عن يحيى بن يحيى عن صالح المزي به. وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول: عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: "إن بدلاء أمتي، لم يدخلوا الجنة بكثرة صوم ولا صلاة، ولكن دخلوها برحمة الله وسلامة الصدور، وسخاوة الأنفس والرحمة بجميع المسلمين". انتهى[442]

قلت: واختلف العارفون المحققون في أمور الهيئة، وتناقضت أقوالهم، وتباينت كشوفاتهم، كل يراها ويعرف بها على حسب ضيق أفقه واتساعه، فلم يتهيأ لنا تصور ثابت لهذه الهيأة بحال من الأحوال

وممن تحدث في الأمر أكثر من غيره: سيدي محيي الدين بن عربي، وسيدي عبد العزيز الدباغ، وقد ارتأيت أن أورد بعض ما قالا من أصله، وأعلق عليه بعده بحول الله تعالى

ولولا أن طالبي وجه الله من المسلمين انتابتهم حيرة في أمر هذه الهيئة، والتبس عليهم نعتها، من شدة ما وصفها به الواصفون واختلفوا في وصفها، قلت: لولا ذلك، ما خضت في أمر أخفاه الله تعالى

وإنما فعلت ذلك، حتى أفصل في هذا الشأن للإخوان، وأرفع عنهم الحيرة والالتباس، فيكونون على بينة من الأمر، فالله أسأل لي ولهم الهداية والغفران.

منزلة القطب عند ابن عربي

يقول محيي الدين بن عربي، رحمه الله تعالى: الباب السبعون ومائتان في معرفة مترل القطب والإمامين من المناجاة المحمدية:

منزلة القطب والإمامه منزلة ما لها علامة
يملكها واحد تعالى عن صفة السير والإقامه
يعلوه في لونه اصفرار في أيمن الخد منه شامه
خفية ما لها نتو أيده الله بالسلامه
توجه لله بالمعالي في عالم الأمر في القيامه

اعلم أيدك الله بروح منه، أن ممن تحقق بهذا المترل من الأنبياء صلوات الله عليهم، أربعة: محمد وإبراهيم وإسمعيل وإسحق عليهم السلام. ومن الأولياء اثنان، وهما: الحسن والحسين، سبطا رسول الله ﷺ، وإن كان لمن عدا هؤلاء المذكورين منه شرب معلوم، على قدر مرتبته من الإمامة؛ فاعلم أن الأقطاب والصالحين، إذا سموا بأسماء معلومة، لا يدعون هناك إلا بالعبودية إلى الإسم الذي يتولاهم، قال تعالى: "وإنه لما قام عبد الله

[442] المرجع نفسه

يدعوه"،[443] فسماه: عبد الله، وإن كان أبوه قد سماه محمدا وأحمد، فالقطب أبدا مختص بهذا الاسم الجامع، فهو عبد الله هناك، ثم إنهم يفضل بعضهم بعضا مع اجتماعهم في هذا الاسم الذي يطلبه المقام، فيختص بعضهم باسم ما غير هذا الاسم من باقى الأسماء الإلهية، فيضاف إليه وينادى في غير مقام القطبية، كموسى ﷺ، اسمه عبد الشكور، وداود عليه السلام اسمه الخاص به عبد الملك، ومحمد ﷺ اسمه عبد الجامع؛ وما من قطب إلا وله اسم يخصه زائد على الاسم العام الذي له، الذي هو عبد الله، سواء كان القطب نبيا في زمان النبوة المقطوع بها، أو وليا في زمان شريعة محمد ﷺ، وكذلك الإمامان، لكل واحد منهما اسم يخصه ينادى به، كل إمام في وقته هناك: فالإمام الأيسر عبد الملك، والإمام الأيمن عبد ربه، وهما للقطب الوزيران، فكان أبو بكر رضي الله عنه عبد الملك، وكان عمر رضي الله عنه عبد ربه في زمان رسول الله ﷺ إلى أن مات ﷺ، فسمي أبو بكر عبد الله، وسمي عمر عبد الملك، وسمي الإمام الذي ورث مقام عمر عبد ربه، ولا يزال الأمر على ذلك إلى يوم القيامة، وكان الحسن والحسين رضى الله عنهما أمكن الناس في هذا المقام من غيرهما، ممن اتصف به؛ وجرت السنة الإلهية في القطب، إذا ولي المقام أن يقوم في مجلس من مجالس القربة والتمكين، وينصب له فيه تخت عظيم، لو نظر إلى بهائه الخلق لطاشت عقولهم، فيقعد عليه، ويقف بين يديه الإمامان اللذان قد جعلهما الله له، ويمد يده للمبايعة الإلهية والاستخلاف، وتؤمر الأرواح الملكية والجن والبشر الروحاني بمبايعته واحدا بعد واحد، فإنه جل جناب الحق، أن يكون مصدرا لكل وارد، وأن يرد عليه إلا واحد بعد واحد، فكل روح يبايعه في ذلك المقام، يسأله، أعني، يسأل الروح القطب، عن مسألة من المسائل، فيجيبه أمام الحاضرين، ليعرفوا منزلته من العلم، فيعرفون في ذلك الوقت أي اسم إلهي يختص به، وقد أفردنا لهذه المبايعة كتابا كبيرا سميناه: مبايعة القطب في حضرة القرب، وذكرنا فيه معيني مسائل كثيرة، مما سئل عنها فأجاب؛ ولا تبايعه إلا الأرواح المطهرة المقربة، ولا يسأله من الأرواح المبايعة من الملائكة والجن والبشر، إلا أرواح الأقطاب الذين درجوا خاصة، فذكرنا في ذلك الكتاب سؤالاتهم وجوابه عليها موفى، وهكذا هي حالة كل قطب، يبايع في زمانه؛ فلنذكر في هذا الباب من بعض أحواله العامة، لكل قطب دون الأحوال الخاصة به، ليعلم الواقف على كتابي هذا، صاحب الذوق المشاهد إياه، أنا ما عدلنا في كتابنا هذا عن الطريقة التي لا يجهلها كل عارف من أهل هذا الشأن، فلو ذكرنا الحال الخاص به، ربما كان يقول: هذه دعوى، فلنبدأ أولا بحال الإمام الأقصى، ثم الإمام الأدنى، ثم القطب؛ فأما الإمام الأقصى، وهو عبد ربه، فإن حاله البكاء شفقة على العالم، لما يراهم عليه من المخالفات، وينظر إلى توجه الأسماء الإلهية التي تقتضي العقاب والأخذ، ولا يتجلى له من الأسماء الإلهية، ما تقتضيه المخالفات من العفو والتجاوز، فلهذا يكثر بكاؤه، فلا يزال داعيا لعباد

---

[443] الجن19

الله، رحيما بهم، سائلا الله سبحانه أن يسلك بهم طريق الموافقات؛ ولقد عاينت في بعض سياحاتي هذا الإمام، فما رأيت ممن رأيت من الصالحين أشد خوفا منه على عباد الله، ولا أعظم رحمة، فقلت له: لم لا تأخذك الغيرة لله؟ فقال: إني لا أريد أن يغار لله من أجلي، ولكن أريد أن يسأل الله من أجلي، ليرحمني ويتجاوز، فلا أحب لعباد الله إلا ما أحبه لنفسي، ولا ينبغي للصادق مع الله أن يتصور في صورة حال لا يعطيه مقامه؛ ولهذا الإمام قوة سلطان على الشياطين الملازمين أهل الخير والصلاح، ليصرفوهم عن طريقهم؛ فإذا وقع نظر الشيطان على هذا الإمام، وهو عند بعض الصالحين، يحتال كيف يصرفه عن طريقته، يذوب كما يذوب الرصاص في النار، فيناديه الإمام باسمه، عسى يسلم، فيدبر هاربا، فلا يزال ذلك الصالح محفوظا من إلقاء هذا الصنف من الشياطين إليه ما يخرجه عن صلاحه، ما دام هذا الإمام حاضرا ناظرا إليه، وإن كان ذلك الصالح لا يعرفه، ولا يعرف ما جرى، وقد عاينا هذه الطائفة، فيدفع الله عن عباده بهذا الإمام الشرور التي تختص بالصالحين من عباده خاصة، عناية منه بهم، ومن خاصية هذا الإمام: التصديق بكل خبر مخبر به عن الله، سواء كان ذلك المخبر صادقا في أخباره، أو مفتريا، فإن هذا الإمام يصدقه لكونه ناظرا إلى الاسم الإلهي الذي يتولى هذا المخبر في أخباره، فإن كان صادقا، فأخباره عن كشف محقق، فيستوي هو والإمام في ذلك، وإن لم يكن له كشف وأخبر عما وقع عنده وهو لا يدري من أوقعه، ويقصد الكذب، فإن هذا الإمام يصدقه في أخباره، والمخبر معاقب من الله، محروم بقصده الكذب، وهو في نفس الأمر ليس كذلك، فوبال قصده عاد عليه، فعذب أن آخذه الله بذلك. ومن أحوال هذا الإمام، أن يسأل دائما الانتقال الى مقام المشاهدة من الأحوال، ومقام الصلاح من المقامات، وله اطلاع دائم إلى الجنان، وإنما خصه الله بهذا الاطلاع، إبقاء عليه، فيقابل ما هو عليه من البكاء والحزن المؤدي إلى القنوط، بما يراه ويطلعه الله عليه من سرور الجنان ونعيم أهله فيه، ويعاين اشتياق أهله إليه وانتظارهم لقدومه، فيكون ذلك سببا لاعتداله؛ ومقام هذا الإمام الإحسان الأول، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله عليه الصلاة والسلام: "ما الإحسان؟" وجوابه ﷺ: "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه"، والذي بعده، ليس لهذا الإمام وبيد هذا الإمام مصالح العالم، وما ينتفعون به، وهو يربي الأفراد ويغذيهم بالمعارف الإلهية، ويقسم المعارف على أهلها بميزان محقق على قدر ما يرى فيه صلاح ذلك العارف، لتحيى بتلك المعرفة نفسه، وله السيادة على الثقلين، والحكم والتصرف فيهما، بما تعطيه المصلحة لهم، ومن خصائص هذا الإمام الإقامة على كل ما يحصل له من الأحوال والمقامات، وليس ذلك لكل أحد، فما يتصف بحال فينتقل عنه، ولا بمقام، وغير هذا الإمام إذا انتقل إلى مقام أو حال، حكم عليه سلطان ذلك المقام والحال وغيبه عما انتقل عنه، وهذا الإمام ليس كذلك، فإن المقام الذي انتقل عنه محفوظ عليه لا يغيب عنه، قوة إلهية خصه الله بها، ولروحه من الأجنحة مائتا جناح وأربعة أجنحة، أي جناح نشر منها طار به حيث شاء، وله قدم في المرتبة الثالثة والأولى، ويدعى في بعض الأحايين بالبر الرحيم، وكانت بدايته من المرتبة الثالثة، ونهايته إلى المرتبة

الأولى، فكان طريقته من غايته إلى بدايته، بخلاف السلوك المعروف، فرجع القهقرى بقطع المقامات والدرجات والمنازل، فمن نهايته إلى بدايته تسعة عشر مترلا، فيها مترل البداية والنهاية، فتم مترل درجاته مائة واثنتان وعشرة وتسعون وعشرون وثلاثة وأربعة وثلاثون وخمسة وأربعون وستة وخمسون، وسبعة وستون وثمانية. انتهى[444]

صفات القطب عند ابن عربي

ثم قال رحمه الله تعالى: فأما القطب، وهو عبد الله، وهو عبد الجامع، فهو المنعوت بجميع الأسماء، تخلقا وتحققا؛ وهو مرآة الحق، ومجلي النعوت المقدسة، ومجلي المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت، وعين الزمان، وسر القدر؛ وله علم دهر الدهور؛ الغالب عليه الخفاء؛ محفوظ في خزائن الغيرة، ملتحف بأردية الصون، لا تعتريه شبهة، ولا يخطر له خاطر، يناقض مقامه، كثير النكاح راغب فيه محب للنساء، يوفي الطبيعة حقها على الحد المشروع له، ويوفي الروحانية حقها على الحد الإلهي، يضع الموازين ويتصرف على المقدار المعين؛ الوقت له ما هو للوقت، هو لله لا لغيره؛ حاله العبودية والافتقار، يقبح القبيح ويحسن الحسن، يحب الجمال المقيد في الزينة والأشخاص؛ تأتيه الأرواح في أحسن الصور، يذوب عشقا، يغار لله ويغضب لله؛ لا تتقيد له المظاهر الإلهية بالتدبير، بل له الإطلاق فيها، فتظهر له في تدبير المدبر روحانيته من البشر المحسوس، من خلف حجاب الشهادة والغيب، لا يرى من الأشياء إلا وجه الحق فيها، يضع الأسباب ويقيمها ويدل عليها، ويجري بحكمها، يترل إليها حتى تحكم عليه وتؤثر فيه؛ لا يكون فيه ربانية بوجه من الوجوه، مصاحب لهذا الحال دائما، إن كان صاحب دنيا وثروة، تصرف فيها تصرف عبد في مال سيد كريم، وإن لم يكن له دنيا وكان على ما يفتح له، لم تستشرف له نفس، بل يقصد بنفسه عند الحاجة إلى بعض ما تحتاج إليه طبيعته، بيت صديق ممن يعرفه، يعرض عليه ما تحتاج إليه طبيعته، كالشفيع لها عنده، فيتناول لها منه قدر ما تحتاج إليه، وينصرف لا يجلس عن حاجته إلا من ضرورة، فإذا لم يجد لجأ الى الله في حاجة طبيعته، لأنه مسؤول عنها، لكونه واليا عليها، ثم ينتظر الإجابة من الله فيما سأله، فإن شاء أعطاه ما سأل عاجلا أو آجلا؛ فمرتبته الإلحاح في السؤال والشفاعة في حق طبيعته، بخلاف أصحاب الأحوال، فإن الأشياء تتكون عن همتهم وطرحهم الأسباب عن نفوسهم، فهم ربانيون، والقطب متره عن الحال ثابت في العلم، مشهود فيه، فيتصرف به، فإن أطلعه الحق على ما يكون أخبر بذلك على جهة الإفتقار والمنة لله، لا على جهة الإفتخار؛ لا تطوى له أرض، ولا يمشي في هواء، ولا على ماء، ولا يأكل من غير سبب، ولا يطرأ عليه شيء مما ذكرناه من خرق العوائد، وما تعطيه الأحوال إلا نادرا لأمر يراه الحق، فيفعله، لا يكون ذلك مطلوبا للقطب، يجوع اضطرارا لا اختيارا، ويصبر عن النكاح كذلك

[444] الفتوحات المكية

لعدم الطول، يعلم من تجلي النكاح ما يحرضه على طلبه والتعشق به، فإنه لا يتحقق له ولا لغيره من العـــارفين عبوديته أكثر مما يتحقق له في النكاح، لا في أكل ولا في شرب، ولا في لباس لـــدفع مـــضرة، ولا يرغـــب في النكاح للنسل، بل لمجرد الشهوة واحضار التناسل في نفسه لأمر مشروع، والتناسل في ذلك للأمـــر الطبيعـــي لحفظ بقاء النوع في هذه الدار، فإن نكاح صاحب هذا المقام، كنكاح أهل الجنة لمجرد الشهوة، إذ هو التجلـــي الأعظم الذي خفي عن الثقلين، إلا من اختصه الله به من عباده، وعلى هذا، يجري نكاح البهائم لمجرد الشهوة، لكن غاب عن هذه الحقيقة كثير من العارفين، فإنه من الأسرار التي لا يقف عليها، إلا القليل من أهل العنايـــة، ولو لم يكن فيه من الشرف التام الدال على ما تستحقه العبودية من الضعف، إلا ما يجد فيه من قهـــر اللـــذة المفنية له عن قوته ودعواه، فهو قهر لذيذ، إذ القهر مناف للالتذاذ به في حق المقهور، لأن اللذة في القهر مـــن خصائص القاهر، لا من خصائص المقهور، إلا في هذا الفعل خاصة، وقد غاب الناس عـــن هـــذا الـــشرف، وجعلوه شهوة حيوانية، نزهوا نفوسهم عنها، مع كونهم سموها بأشرف الأسماء، وهو قولهم: حيوانية، أي هـــي من خصائص الحيوان، وأي شرف أعظم من الحياة؛ فما اعتقدوه قبحا في حقهم، هو عين المدح عند العـــارف المكمل، هذا مضى بسبيله؛ وأما حب القطب الجمال المقيد المندرج في الجمال المطلق، فذلك لقربه في المناســـبة إلى الجمال، فلا يحتاج فيه الى غور بعيد، وقوة يشق بها حجاب قبح الطبع إلى إدراك الجمال الإلهي المـــودع في ذلك القبح، فالجمال المقيد يعطيه بأول وهلة مقصوده، حتى يتفرغ إلى أمر آخر آكد عليه من مقاومـــة القـــبح الطبيعى، لإدراك الجمال المطلق، إذ الأنفاس عزيزة في دار التكليف، ويريد أن لا يكون له نفس إلا وقد تلقـــاه بأحسن أدب، وصرفه بأحسن خلعة وزينة، وقد غاب عن هذا القدر من المعرفة جماعة من العارفين، وأنفـــت نفوسهم من ذلك، لمشاركة أهل الأغراض من العامة فيه، وما علموا أن هذا الرجل له مشاهدة الجمال المطلـــق في الجمال المقيد وفي غيره، بخلاف العامة. واعلم أن القطب هو الرجل الكامل الذي قد حصل الأربعة الدنانير الذي كل دينار منها خمسة وعشرون قيراطا، وبها توزن الرجال، فمنهم ربع رجل ونـــصف وثمـــن وســـدس ونصف سدس وثلاثة أرباع، ورجل كامل، فالدينار الواحد للمؤمن الكامل، والدينار الثاني للـــولي الخـــاص، والدينار الثالث للنبوتين، والدينار الرابع للرسالتين، أعنى الأصلية بحكم الأبوة والوراثة بحكم البنوة، فمن حصل الثانى كان له الأول، ومن حصل الثالث كان له الثاني والأول، ومن حصل الرابع حصل الكل؛ والقطب مـــن الرجال الكمل، وإنما قلنا من الرجال الكمل، من أجل الأفراد، فإنهم مكملون، ومن أحوال القطـــب تقريـــر العادات والجري عليها، ولا يظهر عليه خرق عادة دائما، كما يظهر على صاحب الحال، ولا يكـــون خـــرق العادة مقصودا له، بل تظهر منه ولا تظهر عنه، إذ لا اختيار له في ذلك، كما قال العارف أبو الـــسعود بـــن الشبل في الرجل يتكلم على الخاطر وما هو مع الخاطر، فيكون في حقه بحكم الاتفاق الوجودي، وفى حق الله بحكم الإرادة والقصد، فقد بينا بحمد الله، الضروري الخاص من أحوال القطب، وبينا رتبته لمن جهلـــها، وأن

الرجولية ليست فيما يتخيله الجهال من عامة الطريق بطريق الله، فينحجبون بالحال عما يقتضيه العلم والمقـــام. انتهى[445]

التعليق على كلام ابن عربي

كل متكلم عن الهيئة، لا يمكنه ذلك، سوى إن كان في أفرادها، وإلا فكيف له أن يأتي بأخبارها، وقد أخفاها الله تعالى خفاء ما بعده خفاء، ولا يتكلم فيها أحد، حتى ولو كان فيها، سوى بإذن من الله تعالى. وقد لمسنا عند ابن عربي جرأة في إفشاء الغيب أكثر من غيره، ولكني أرى أنه رحمه الله تعالى، في كثير مما قاله، وقع تحت تأثير أفقه ككثيرين غيره، ولذلك تعذر على زمرة من المسلمين الصادقين فهم أغلب كلامه

إننا نجد في أسلوبه سمات علوم أخرى، ازدهرت في عصره، ونهل منها ما تيسر له، ومنها الفلسفة وعلم الكلام، وعلم الفلك والنجوم، وعلم الأسماء والحروف، وغيرها

إلا أنني أرى أن كلامه في القطبانية على الخصوص، تميز ببعض التجرد عما قلناه، ولو أنه لم يخل منه، ولنا عليه ملاحظات نوردها إن شاء الله تعالى كالتالي:

لا نحسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما إمامين في الهيئة، ولا نسمي رسول الله ﷺ قطبا، وإلا كان ذلك اعترافا منا بأن الهيئة كانت على عهده ﷺ، وكان قطبها

اللهم إلا إذا عنى ابن عربي، أنهما رضي الله عنهما كانا إلى جانب رسول الله ﷺ، كالإمامين للقطب، وقد اصطلح العلماء على تسمية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما بالإمامين، لمكانتهما في مؤازرة رسول الله ﷺ ونصرة الدين

أما الهيئة فلم تبدأ إلا بعد التحاق سيد الخلق بربه، فهو ﷺ الإنسان الكامل، راعي الشريعة والحقيقة، الواقف على الأحكام والسلوك

ونعتقد أن الهيئة، لم تكن قبل رسول الله ﷺ في الشرائع السابقة، وإنما هم أولياء صالحون من عباد الله تعالى، كسيدي عبد الله الخضر عليه السلام، وجريج العابد، وغلام أصحاب الأخدود. قلت في تائيتي:

وما من نبيء كان قطبا فحسبه نبوءته أعلى المراتب حلت

وما كان قطب في زمان رسالة سماوية إلا رجال الولاية

فمنهم جريج ثم خضر وغيره وما كان قطب والحبيب بطيبة

---

[445] الفتوحات المكية

فأما أبو بكر، فأجل أسمائه الصديق، وأما عمر فأجل أسمائه الفاروق

وأما الإمامان فلا يحتاج الكلام عنهما إلى تفصيل، فحيث ما كان القطب كانا، فهما أمينا سره، وهما أعرف الناس به وأقربهم إليه، وليس لهم دوام في مقام الإمامة، بل قد يشغله غيرهما في أي وقت من الأوقات، إما بموت أحدهما أو بعده عن القطب، أو إخلاله بما يقتضيه مقامه.

ومن حكمة الله تعالى في الإمامين، أن يكون أحدهما أقرب إلى القطب من الآخر، وهما متآخيان رغم تحكم الأقرب في أخيه، وقد يتخاصمان ويصطلحان، ولا يكونان متصفين بشدة العبادة والنسك، بل هما على دين القطب، وربما أقل، ولكن أهلهما لهذا المقام حبهما وإخلاصهما للقطب، حتى أن أحدهما ليفديه بنفسه لو اقتضى الحال

ولو أمعن الإمامان في العبادة، كما يظنه البعض، لانشغلا عن القطب بالذكر والعبادة والانقطاع إلى الله تعالى.

وسمى ابن عربي القطب: عبد الله وعبد الجامع، ولا نسميه بغير اسمه، ولا نرى له اسما مخصوصا

ولا مبايعة عندنا للقطب، بل المبايعة لله تعالى ورسوله ﷺ.

وقد أصاب ابن عربي حين وصف القطب بالوسطية: فلا تظهر عليه سمات المتدينين، بل هو مع أهل الدنيا وكأنه منهم، يأخذ من الدنيا والدين، لأنه يحفظ التوازن والاعتدال ويكون مثاله

أما الأوتاد الأربعة، فهم من أشد خلق الله رزانة، ومن أتقاهم على الإطلاق، لا يفرطون في شيء من الفرائض والرواتب، قائمون صائمون ذاكرون، إلا أنهم لا يباشرون الناس، ولا يعرفون أساليب التربية وتصفية القلوب ومداواة النفوس، بل هم في معزل عن الخلق، ولو كانوا فيهم

تظهر عليهم هيأة العبادة، بخلاف القطب، ولا يتواصلون مع أهل الدنيا، ولا يعرفون كيف يجالسونهم ويبقون على دينهم

لا يتواصلون مع القطب إلا قليلا، وليس من الضروري أن يعاشروه، بل هم في أغلب الأحيان شتات لا يلتقون بالأجساد

وظيفتهم القيام بواجبات الدين، واحتقار أعمالهم، مهما كثرت، في ميزان رب العالمين، يعظمون خلق الرحمن، ولا يعيبون أحدا ولا ينقصون من قدره، فهم على دين القطب في ذلك، ولكنهم يكملون ما نقص في القطب من الشريعة والعبادات، ليوازن بينها وبين الحقيقة

وأما الأبدال، فهم حاشية القطب وملأه، عددهم سبعة، يخدمونه ويقومون بحاجياته، يلتفون حوله التفاف الأكمام بالزهر ويحيطون به إحاطة الهالة بالقمر، ويطلبونه متى غاب، يسبق إليهم بما دبره للعالمين، ويكونون على حسب أيام الدنيا السبع وأقطارها، وعلى حسب خصائص السبعة أرضين

أما عن سبب تسميتهم بالأبدال، فقد تضاربت الأقوال عند أصحاب الأحوال، وأصبح إدراك الحق من المحال.

فنقول وعلى الله التكلان: سموا أبدالا لأسباب، منها:

الأول: تتبدل أحوالهم تبدل أحوال الأقطار والأرضين بالليل والنهار، فليس منهم من يثبت على حال، وحتى لو شاء ذلك أرغمته المسالك والأحوال

هم ظلال القطب، يدورون حوله ولا قيام لهم بغيره، ولا خروج لهم عن دائرته، ومن خرج تاه

الثاني: أنهم ليس من اللازم أن يبقوا معه حتى يلتحق بربه، فكلهم معرض للتبدل، في أي وقت وحين، ولكن يأتي الله بمن يحل محله، ممن يكون بصفته، وقد يبقى منهم باق لا يخرج بالمرة عن حياض القطب

وأما رجال التوبة، وقد يسمون برجال الغيب، فهم تسعة وتسعون، على عدد أسماء الله الحسنى، لا لقاء للقطب بهم إلا مصادفة، سمتهم محبة الخلق بطبعهم، والاستغفار لهم، ولولا محبتهم للخلق ما خصهم الله تعالى بما هم فيه

سفينة الحقيقة

الهيئة سفينة، والأوتاد صواريها والأبدال أشرعة، والإمامان ريح الشمال وريح الجنوب، ورجال التوبة ألواح ودسر، والقطب ربان السفينة، والبحر الحقيقة، والشريعة البر، فكل من ترك البر وركب السفينة تحقق، والناس في بحر الحقيقة، منهم من يسبح بلا هدى ومن يغرق، فمن ركب سلك ونجا، ومن أبى غرق وهلك. فتأمل.

وقبل أن نودع ابن عربي، ونسدل الستار على أخبار الهيئة، وجب الكلام على ما أخبر به سيدي عبد العزيز الدباغ في الإبريز، ليس لشيء، إلا لأن ما أخبر به انتشر بين أهل الطريق وتداولته الكتب، فوجب الإدلاء برأينا فيه.

كلام سيدي عبد العزيز الدباغ[446] في الهيئة واجتماعها

يقول رحمه الله تعالى: الديوان يكون بغار حراء الذي كان يتحنث فيه النبي ﷺ قبل البعثة.

قال رضي الله عنه: فيجلس الغوث خارج الغار ومكة خلف كتفه الأيمن والمدينة أمام ركبته اليسرى؛ وأربعة أقطاب عن يمينه، وهم مالكية على مذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه؛ وثلاثة أقطاب عن يساره، واحد من كل مذهب من المذاهب الثلاثة؛ والوكيل أمامه، ويسمى قاضي الديوان، وهو في هذا الوقت مالكي أيضا من بني خالد القاطنين بناحية البصرة، واسمه سيدي محمد بن عبد الكريم البصراوي؛ ومع الوكيل يتكلم الغوث، ولذلك سمي وكيلا، لأنه ينوب في الكلام عن جميع من في الديوان.

---

[446] من الشرفاء الأطهار الدباغين المشهورين بفاس، ولد سنة 1095هجرية. ونشأ في حجر أبويه، وكان في صغره قد دخل الكتاب وتعلم وحفظ بعض سور حزب سبح، ولم يقدر له استمرار في القراءة، ولا جلس بين يدي عالم قط، ولأمر ما، أراده الله عز وجل بهذا الرجل العظيم، على عاميته وأميته، وبعده عن الميادين العلمية، حفه الله عز وجل بعنايته وأحاطه بكامل رعايته، واختار له أبوين كريمين: أبوه شريف نسيب حسيب من السلالة الطاهرة النبوية، ينتمي نسبه إلى سيدي عيسى بن مولاي إدريس، أما والدته، فهي بنت أخت العارف الكبير سيدي العربي الفشتالي رضي الله عنه. انتهى

وكان سيدي العربي الفشتالي يقول: رأيت النبي ﷺ، فقال لي: إنه سيولد ولي كبير عند ابنة أختك. فقلت: يا رسول الله ﷺ، ومن أبوه؟ فقال ﷺ: أبوه مسعود الدباغ، وقالت والدة سيدي عبد العزيز: كان سيدي العربي يقول: سيولد لكم ولد اسمه عبد العزيز، له شأن عظيم في الولاية. وكان سيدي العربي يتمنى إدراك ولادته، ولكنه فاجأه أجله سنة تسعين وألف، قبل ولادته بخمس سنوات، ولما حضرته الوفاة، أوصى لسيدي عبد العزيز بطاقية وحذاء تركهما عند والديه، وقال لهما: هذه أمانة الله عندكما حتى يولد لكما عبد العزيز، فأعطوه هذه الأمانة. ولما ولد وبلغ من العمر نحوا من أربعة عشر عاما، ألهم الله عز وجل والدته، فجاءت بالأمانة، وقالت له: يا ولدي، إن سيدي العربي الفشتالي، أوصى إليك بهذه الأمانة، فأخذها ولبس الطاقية في رأسه والحذاء في رجليه، فتغيرت أحواله وانقلبت عوالمه ونزلت به حالة، وعرف لحينه ما قال له سيدي العربي الفشتالي وما أشار به إليه. انتهى

ويصرح لنا سيدي عبد العزيز، بأن سيدي الهواري أخبره عند وفاته، بأن شيخه هو سيدي العربي الفشتالي، وأنه كان حاملا لبعض أسراره، ثم ينتقل الجميع لسيدي عبد العزيز بواسطة الهواري. انتهى

ثم عقب هذا الحادث (يعني حادث الفتح)، جمعه الله عز وجل بولي لله تعالى غريب، يقال له: سيدي عبد الله البرناوي، لقيه بباب الجيسة، فجعل ينظر إليه ويصعد فيه النظر، فقال له: أريد منك أن ترجع معي إلى المسجد لنجلس ساعة نتحدث فيها، فرجع معه، فجعل يكاشفه بحاله ويقول له: إني مريض بكذا وكذا، وحصل لي كذا وكذا، للحالة التي وقعت له، ثم صارحه بأنه من بلاد برنو، وأنه ما جاء لفاس إلا لأجله؛ فبقي معه يربيه ويقويه ويراقبه. انتهى

توفي سيدي عبد العزيز الدباغ سنة: 1131هجرية. ودفن بالقباب، خارج باب الفتوح، وعمره دون الأربعين سنة، ودفن معه تلميذه العلامة سيدي أحمد بن المبارك. انتهى من المطرب

قال: والتصرف للأقطاب السبعة على أمر الغوث، وكل واحد من الأقطاب السبعة تحته عدد مخصوص يتصرفون تحته، والصفوف الستة من وراء الوكيل، وتكون دائرتها من القطب الرابع إلى الذي على اليسار من الأقطاب الثلاثة، فالأقطاب السبعة هم أطراف الدائرة، وهذا هو الصف الأول، وخلفه الثاني على صفته وعلى دائرته، وهكذا الثالث إلى أن يكون السادس آخرها.

قال: ويحضره النساء، وعددهن قليل، وصفوفهن ثلاثة، وذلك في جهة الأقطاب الثلاثة التي على اليسار فوق دائرة الصف الأول، في فسحة هناك بين الغوث والأقطاب الثلاثة.

قال رضي الله عنه: ويحضره بعض الكمل من الأموات، ويكونون في الصفوف مع الأحياء، ويتميزون بثلاثة أمور:

أحدها: أن زيهم لا يتبدل بخلاف زي الحي وهيئته، فمرة يحلق شعره، ومرة يجدد ثوبه، وأما الموتى فلا تتبدل حالتهم، فإذا رأيت في الديوان رجلا على زي لا يتبدل، فاعلم أنه من الموتى، كأن تراه محلوق الشعر ولا ينبت له شعر، فاعلم أنه على تلك الحالة مات، وإن رأيت الشعر على رأسه على حالة لا يزيد ولا ينقص ولا يحلق، فاعلم أيضا أنه ميت، وأنه مات على تلك الحالة.

ثانيها: أنه لا تقع معهم مشاورة في أمور الأحياء، لأنهم لا تصرف لهم فيها، وقد انتقلوا إلى عالم آخر في غاية المباينة لعالم الأحياء، وإنما تقع معهم المشاورة في أمور عالم الأموات.

قال رضي الله عنه: ومن آداب زائر القبور، إذا أراد أن يدعو لصاحب قبر ويتوسل إلى الله تعالى بولي من أوليائه في إجابة دعوته، أن يتوسل إليه تعالى بولي ميت، فإنه أنجح لمقصوده وأقرب لإجابة دعوته.

ثالثها: أن ذات الميت لا ظل لها، فإذا وقف الميت بينك وبين الشمس، فإنك لا ترى له ظلا، وسره أنه يحضر بذات روحه لا بذاته الفانية الترابية، وذات الروح خفيفة لا ثقيلة وشفافة لا كثيفة.

قال لي رضي الله عنه: وكم مرة أذهب إلى الديوان أو إلى مجمع من مجامع الأولياء وقد طلعت الشمس، فإذا رأوني من بعيد استقبلوني، فأراهم بعيني رأسي متميزين، هذا بظله وهذا لا ظل له.

قال رضي الله عنه: والأموات الحاضرون في الديوان يترلون إليه من البرزخ يطيرون طيرا بطيران الروح، فإذا قربوا من موضع الديوان بنحو مسافة، نزلوا إلى الأرض ومشوا على أرجلهم إلى أن يصلوا إلى الديوان، تأدبا مع الأحياء وخوفا منهم. قال: وكذا رجال الغيب إذا زار بعضهم بعضا، فإنه يجيء يسير بروحه، فإذا قرب من موضعه تأدب ومشى مشي ذاته الثقيلة تأدبا وخوفا. قال: وتحضره الملائكة، وهم من وراء الصفوف، ويحضره أيضا الجن الكمل وهم الروحانيون، وهم من وراء الجميع، وهم لا يبلغون صفا كاملا.

قال رضي الله عنه: وفائدة حضور الملائكة والجن، أن الأولياء يتصرفون في أمور تطيق ذواقم الوصول إليها، وفي أمور أخرى لا تطيق ذواقم الوصول إليها، فيستعينون بالملائكة وبالجن في الأمور التي لا تطيق ذواقم الوصول إليها.

قال: وفي بعض الأحيان يحضره النبي ﷺ، فإذا حضر عليه الصلاة والسلام، جلس في موضع الغوث، وجلس الغوث في موضع الوكيل، وتأخر الوكيل للصف. وإذا جاء النبي ﷺ، جاءت معه الأنوار التي لا تطاق، وإنما هي أنوار محرقة مفزعة قاتلة لحينها، وهي أنوار المهابة والجلالة والعظمة، حتى إنا لو فرضنا أربعين رجلا بلغوا في الشجاعة مبلغا لا مزيد عليه، ثم فوجؤوا بهذه الأنوار، فإنهم يصعقون لحينهم، إلا أن الله تعالى يرزق أولياءه القوة على تلقيها، ومع ذلك، فالقليل منهم هو الذي يضبط الأمور التي صدرت في ساعة حضوره ﷺ.

قال: وكلامه ﷺ مع الغوث. قال: وكذلك الغوث إذا غاب النبي ﷺ تكون له أنوار خارقة، حتى لا يستطيع أهل الديوان أن يقربوا منه، بل يجلسون منه على بعد، فالأمر الذي يترل من عند الله تعالى لا تطيقه ذات إلا ذات النبي ﷺ، وإذا خرج من عنده ﷺ، فلا تطيقه ذات إلا ذات الغوث، ومن ذات الغوث يتفرق على الأقطاب السبعة، ومن الأقطاب السبعة يتفرق على أهل الديوان.

وأما ساعة الديوان، فقد سبق الكلام عليها، وأنه هي الساعة التي ولد فيها النبي ﷺ، وأنها هي ساعة الاستجابة من ثلث الليل الأخير، التي وردت بها الأحاديث، كحديث: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له. الحديث ".[447] انتهى[448]

تعليق أبي الفتح على ما قاله الدباغ

قال الجعفي فتح الله بصيرته: قلت: انتهى كلام سيدي عبد العزيز الدباغ، وفيه من الغرابة ما لا يخفى، ففي مذهبنا: لا اجتماع لأفراد الهيئة بالأجساد، بل بالنفوس والأرواح، وذلك أبلغ وأجدى

وعندنا: لا وصلة بين القطب والأوتاد إلا قليلا

ولا وصلة بين الإمامين والأوتاد، ولا بين الإمامين والأبدال بالمرة، بل قد لا يعرف الأوتاد بعضهم البعض.

ولا وصلة بين الأوتاد والأبدال بالمرة، والاتصال قائم بين القطب والإمامين والأبدال بالأجساد في شتى الأوقات، وحيث القطب حيث الإمامان والأبدال، ففهم

---

[447] عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: "يترل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له". رواه البخاري

[448] الإبريز

أسئلة أبي الفتح الجعفي عن القطب والهيئة

ونختم كلامنا بما طرحناه من سباعية الأسئلة، التي تتعلق بعلوم القطب، مع العلم أن القطب أعلم الناس بالناس، وأمهر العارفين في حرفة إصلاح القلوب وتطهير النفوس، وهي كالتالي:

قال أبو الفتح: نعتك الأتباع بالشيخ، فأصبحوا مريدين وأنت المراد، وقبلوا منك الأكف والأقدام، وتمسحوا بتراب نعليك؛ فهل أنت كما نعتوا؟ وهل أنت من قبلوا منه الأكف والأقدام، وتمسحوا بتراب النعال؟

فلا تسكن هداك الله للصواب لهذا الهيلمان، حتى تعرف ما يشترط أن تعرف، مما بمعرفتك له، يكون لك ما وضعوه فيك؟

السؤال الأول: فأخبرني رعاك الله عن قطب الوجود، في أي قطر هو موجود، وما اسمه في الغيب والشهود، وما أمارته في جسده وما كتب عليه من أحرف، لا يراها سوى ذوو الأبصار الحديد؟

وما أهله للقطبية حتى أوتيها، وهل تدرج في البدلية قبل أن يؤتاها، وهل نالها بالتقوى، أم بالعلم، أم كان ذا حظ عظيم؟

وكيف أخفاه الباطن بشدة الظهور، وأظهره الظاهر بغير ظهور؟ ذاك قطب الرحى كل ما حوله يدور، وهو قائم كالألف المسطور؛ وما علاقته بالألف؟ غير تساوي عدد الحرف بالجمل الصغير والكبير، وما تميز به حرف الابتداء عن باقي حروف المعجم؟ أليس مهام الحرف من مهام القطب؟ أما علاقة القطب بالصفر فقد أطلعنا عليه من يلينا، فلا داعي للسؤال عنه

الثاني: وأخبرني رعاك الله عن علومه، ما أخذ من الملك، وما ألهم من الملكوت

فله من عالم الملك:

– علم الدلالة: يكشف به استعداد المريد لتحمل ودائع الجلالة

– ومنه علم الاطلاع: يستطلع به قلوب الأتباع، حيث هو في جميع البقاع

– ومنه علم المخاطبة: يخاطب به الناس بما تقتضي المناسبة

– ومنه علم التدبير: يدبر به معادن التابعين ويصفيها، يكلس منها ما يلين، ويقويها، ويلين الصلد المتين، ولا يكسوها

– ومنه علم القلوب: يعرف به من أين يوقد عليها حتى تذوب، وكيف يقلبها ويغسلها مما شابها من كروب، ويصقلها حتى تعكس من الأنوار ما تنزل من أسرار الغيوب

– ومنه علم الدورة: بما يعيد على بدء مما قطع المريد من أشواط، وما جاز من أشراط، دون تفريط ولا إفراط

– ومنه علم الوقت والساعة: يعرف به سعد الليالي والنهارات، ونحوسها في كل الساعات، جريها وركودها،

صفاءها وكدرها، حتى لا يبشر في النحس أصحابه، وحتى لا ينذر بالبأس أترابه؛ بل يرسل دون لبس ما تيسر له، لمن جاءه أو طرق بابه

وله من علوم الملكوت:

علم الترقي: ما لأدراجه من تمام، يقوم على الذكر والتلقي، ابتداء بالخواطر والأوهام

– ومنه علم الخواطر: يصنفها لذوي البصائر، منها ما هو من الباري عز وجل، أو من ملاك خاطر، وما هو من الشيطان أو من النفس، بالسوء آمر، كل قد علم ماله من مصادر، وعن أيهم هو صادر، ومتى يبدأ ومتى يغادر

– ومنه علم الأرضين كما هي، وعلاقة أرض بأرض، وهل لكل أرض نبي، وعلاقة الستة بالتي نحن فيها، وما يروج في هذه وتلك من ظاهر وخفي، وما بقاؤها إن زالت هذه، وإن بقيت هل يبقى منها بقي

وما شأن الأرضين السبع والسماوات، وما ألوانها، وما سكانها، وما لسانها، وما مكانها، وما شرعها وسننها، وماينبيك غير خبير

– ومنه علم الحضرة وآدابها: لا يتلقاه صاحبه إلا وهو فيها، متى رضي جنابه، يعرف بالسكينة أصحابه، لا يغضبون ولا يرعدون، بل هم كالغيث يبشر الناس سحابه، ومن حضر مع مولاه استقامت نجواه، وتخلق بأخلاق الملوك، وصفا قلبه صفاء الذهب المسبوك، وتذلل لعزة المولى، تذلل العبد المملوك

ومن لم يحضر، إذا تكلم لم يجد، وإذا تعلم لم يفد، وإذا استفاد لم يزد، وإذا سلك لم يبتعد

– ومنه علم الخليقة لأهل الشهود: متى بدأت ومتى تعود، ما وضعها وما طبعها، وما نوعها، متى تنقص ومتى تزيد

– ومنه علم الموازين: حتى يقسط فيما أوتي من رب العالمين، تفرعت منه الحكم والألطاف كالغصون، ما حده وما وضعه في العلوم، وكيف يكون التلقين

– ومنه علم التلوين: يتبدل صاحبه في كل حين، ولا يتغير منه شيء في الدنيا والدين، كل يوم هو في شان، كما شاء أن يكون كان، في الحين

الثالث: وأخبرني رعاك الله عن ختم الولاية، هل يكون قطبا من هيئة النهاية، أم وليا لا شأن له بذاك منذ البداية؟

الرابع: وأخبرني رعاك الله عن الأبدال، هل لهم شأن بالتبدل والتبديل، أم سموا بذلك لسر أخفاه الجليل؟ وهل لهم بالقطب وصلة واتصال؟ وكيف يسيرهم في كل حال، وهل يجتمعون به، أم أن اجتماعهم من المحال؟

وما مهمة الأبدال في الكون، ما دينهم وما تقواهم، وما ذكرهم ونجواهم؟

الخامس: وأخبرني رعاك الله عن الأوتاد، ما يفترقون به عن الباقين، وما أهلهم للوتدية في السالكين، وما علاقتهم بالقطب حاضرين وغائبين؟

السادس: وأخبرني رعاك الله عن الإمامين، ما ذا يؤمان، وما وصفهما في بني الإنسان، وهل هما مع القطب في ذات المكان، وما يميز الأول منهم عن الثان؟

السابع: وأخبرني رعاك الله عن رجال التوبة، هل لهم على القطب اختلاف، أم هم في استقلال عنه في الأطراف، و لم سموا برجال التوبة حسب الأعراف، وهل هم في افتراق أم هم في ائتلاف؟ انتهى

وقبل الانتهاء نقول: ولا نرجح ما قلناه على ما قاله غيرنا، بل نسلم لهم فيما قالوه تسليما، فكل يقول على حسب ما فتح الله به عليه، والله أعلم بالحق وأدرى بالخلق، سبحانه لا إله غيره الحكيم العلام

لو تستغفر سبعين مرة ما يغفر ليك بمرة
الغفور مول القدرة قادر يحمل الجرة

يقول: لو تستغفر الله تعالى سبعين مرة، فقد لا يغفر الله تعالى جميع ذنوبك، لأنك لا تستوفي شروط التوبة والإستغفار، ولكن الله تعالى الغفور، قادر أن يتحمل عنك كل ذنوبك بمنه وكرمه

والمعنى: قلت: يستغفر العبد ربه من ذنبين: ذنب أتاه في حق ربه، يمحوه سبحانه ويتجاوز عن عبده، وذنب أتاه في حق الناس، لا يمحى سوى برد الحق إلى صاحبه، فقد يكون غيبة يطلب المغتاب الصفح ممن اغتابه، وإن كان سلبا رد السالب الحق إلى المسلوب، فإن لم يستطع إلى ذلك سبيلا، سأل الله أن يحمل عنه ذنوبه في حق الناس، حتى تكون توبته كاملة

الكلام عن التوبة والاستغفار

عن سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: "إني لأستغفر الله وأتوب إليه، في اليوم، سبعين مرة". رواه ابن ماجه

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول، دعي له رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فلما قام رسول الله ﷺ وثبت إليه، فقلت: يا رسول الله، أتصلي على ابن أبي؟ وقال: قال يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ أعدد عليه قوله، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: "أخر عني يا عمر". فلما أكثرت عليه، قال: "إني خيرت فاخترت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها". قال: فصلى عليه رسول

الله ﷺ ثم انصرف، فلم يمكث إلا يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة: "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا" إلى "وهم فاسقون".[449] قال: فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله ﷺ يومئذ، والله ورسوله أعلم. رواه البخاري

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ما أصر من استغفر، وإن عاد في اليوم سبعين مرة". رواه أبو داود

عن هلال بن يسار بن زيد مولى النبي ﷺ قال: سمعت أبي يحدثنيه عن جدي، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، غفر له وإن كان قد فر من الزحف". رواه أبو داود

عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجا، ومن كل هم فرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب". رواه أبو داود

وقد يتعذر إيجاد صاحب الحق، بغيبة أو موت، فلا يسع التائب كيف يطلب سماحه أو يؤدي حقه، ومن هنا كان لا بد من سؤال الله تعالى في الاستغفار تحمل ما فاتنا وشق رده، وتأدية ما عجزنا عن تأديته، ولذلك قال الشيخ: بأن الله تعالى قادر على أن يحمل عنا ما غلبنا من جرائر. فلا تنس أخي هذا الجانب في توبتك، وأحسن استغفارك بسؤال الله تعالى أن يكفيك ما عجزت عنه بمنه وكرمه

قال أبو الفتح: مولاي، هذا جسدي وجهته إليك ، فما كان من ذنب أذنبته في حقك اغفره لي، وما كان من ذنب أذنبته في حق عبيدك تحمله عني.

وهذا قلبي وضعته بين يديك، وبرئت مما زاد فيه عليك، أشرق بوجهك الجميل عليه، وامحق بأنوارك ما سكن إليه وانطبع من الصور والأغيار والحوادث والأكدار. انتهى[450]

---

[449] قال تعالى: "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون". التوبة85

[450] حزب الحضرة للجعفي

الاسباط تابوا قبل ما يذنبوا نية العمى في قبو

ولي صفى نيتو مع ربو غلبهم بعد ما تغربوا

يقول: الأسباط، وهم إخوة نبي الله يوسف عليه السلام، تابوا من قبل أن يذنبوا، أي قبل أن يلقوا أخاهم في غيابات الجب، ظنا منهم أنهم بذلك يغفر الله ذنبهم، ولكنهم تصرفوا كالأعمى الذي لا يثق إلا بما في قب جلبابه، والذي صفت نيته مع ربه، وهو يوسف عليه السلام، غلبهم بعد ذلك وهم متغربون في أرض مصر

والمعنى: قال الله تعالى: "اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين".[451] مثل الشيخ لمن تاب توبة غير كاملة بإخوة يوسف عليه السلام، حين عزموا على إذايته وتابوا قبل أن يفعلوا ذلك، وهم لازالوا عازمين على فعله، وهي توبة غير مقبولة؛ فإن من شروط التوبة عند العلماء: الإقلاع عن الإثم والعزم عزما أكيدا على عدم الرجوع إليه، فكيف تقبل توبتهم وهم لا زالوا معولين على ارتكاب ما تابوا منه؟

ولكن الغالب على أمره سبحانه، قد نصر يوسف وأعزه عليهم، فصار عزيز مصر، وجاؤوه بفاقتهم، وقد أحوجهم الله تعالى إليه، يطلبون عطاءه ونواله، فعرفهم وهم له منكرون

قال تعالى: "وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون".[452]

ثم جاؤوه أكثر فاقة ببضاعة مزجاة يرجون عطفه وتكرمه

قال تعالى: "فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة، فاوف لنا الكيل وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين".[453]

قلت: سألني العارف بالله تعالى المتجرد لخدمة مولاه، بو الاعراف حمزة الجيلاني، الملقب بالعبار، أبقاه الله تعالى فقال: ما قولك: "نية العمى فى قبه"، وإنما نقول في المثل المغربي العامي: "نية الأعمى في عكازه؟" فلم أجبه في الحين، حتى ألهمني الله تعالى بالجواب، فقلت: نية الأعمى في عكازه، أي أنه لا يثق إلا في عصاه التي يتوكأ عليها، ذلك أعمى النظر، وإنما عنيت أعمى البصيرة، فإن نيته فى قبه، لأن القب يعني ما حمل من ضغينة في سره، قال تعالى: "فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور".[454]

---

[451] يوسف09

[452] يوسف58

[453] يوسف88

[454] الحج44

لو ما عرفتو غفار فمت الليل ؤ صمت النهار

الراعي ما هو حكار حتى يكوي عبادو بالنار

يقول: لو لم أعرف أن الله تعالى غفار، أسهرت ليلي وأظمأت نهاري. ولكني عرفت أن الله لا يحقر عبيده حتى يكويهم بنار جهنم

والمعنى: لا تخوفوني من ربي، فلا زال ربي يتحبب إلى عباده وهو غني عنهم، الإله الذي أعبده سمى نفسه الرحمن الرحيم، الإله الذي أعبده ليس ذاك الذي تتحدثون عنه.. ليس إلهكم

إلهكم، تقولون أنه يمسك في اليد اليمنى رمانة، ويمسك في اليد اليسرى سوطا؛ فمن أطاعه أعطاه الرمانة، ومن عصاه جلده بالسوط. إلهكم لا يعرف سوى المكافأة والعقاب، أنتم تعبدونه طمعا في الرمانة، وتعبدونه خوفا من الجلد، رمان وسياط، مضغ وألم، هذا دينكم، ليس هذا ديني.. لكم دينكم ولي دين

هو واحد يرجو العالمون رحمته، هو السيد ونحن العبيد، هو الحبيب ونحن أحباؤه، هو الغفار ونحن المذنبون، هو المحسن ونحن المسيؤون، هو الغني وما منا إلا فقير إليه، هو هو.. بذلك تخبر القلوب

لا يريد لنا إلا الحياة الطيبة، فاربعوا على أنفسكم، وآمنوا بالإله الذي وصفت لكم، آمنوا بربي، فربي جميل عفو غفور، ليس كربكم، كفاكم أن أرعبتم الخلق وأفزعتموهم

ألا تخشون من أن يقول لكم الله تعالى يوم الحساب: لماذا أرعبتم خلقي؟ لماذا قلتم لهم أني شديد العقاب، و لم تقولوا لهم أنني أنا الرحمن الرحيم؟ ما قولكم له حينئذ، وقد نفذت الأعذار وأنتم في حضرة الواحد القهار؟

لا تخافوا يا من يخيفون الناس، فأنا بكلامي هذا لا أخوفكم، فإني أرجو أن يغفر لكم ويتجاوز عن جهالتكم، فإن ربي ليس كربكم.. ربي رؤوف بعباده "**نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم**".[455]

[455] الحجر 49

إلهي أنت بر أنت نور إذا الأنوار أخفتها ستور
فمن في الناس يعفو عن ذنوبي وهل في الناس عبد لا يجور؟
أخاطب باري الأكوان طرا وتبكيني بحضرته سطور
وما دمعي غزير غير أني إذا هاج الهوى دمعي غزير
أتقبل من ذنوبه ليس تحصى؟ إليك فؤاده شوقا يطير
رأيت الناس قالوا: ذاك عاص وللعاصي إذا مات السعير
ولكني سألتك يا إلهي ولم أسألهم حتى يثوروا
إذا حضر الردى فأنا أمين فبعد الموت حور أو قصور
وذاك لأنني أهوى إله حبيب الله للحسنى يسير.[456]

عن أبي هريرة، أن النبي ﷺ قال: "لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي". رواه مسلم

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من جنته أحد". رواه مسلم

عن الحارث بن سويد: حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبي ﷺ، والآخر عن نفسه، قال: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا. قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه، ثم قال: "لله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل مترلا وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتى اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله، قال: أرجع إلى مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه، فإذا راحلته عنده". رواه البخاري

عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "كان في بني إسرائيل رجل قتل تسعة وتسعين إنسانا، ثم خرج يسأل، فأتى راهبا فسأله فقال له: هل من توبة؟ قال: لا، فقتله. فجعل يسأل، فقال له رجل: ائت قرية كذا وكذا. فأدركه الموت، فناء بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأوحى الله إلى هذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بشبر، فغفر له". رواه البخاري

[456] من قصيدة: ابتهال في محراب الغفران ديوان أطلال للمؤلف

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "جعل الله الرحمة في مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءا، وأنزل في الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلق، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها، خشية أن تصيبه". رواه البخاري

إذا رأيتم مني تكاسلا، فما ذاك إلا لأنني عرفته تعالى غفارا لعبيده، ولو كان غير ذلك لعبدته عبادة الخائفين، وما فتئت أقوم الليل كله وأصوم الدهر؛ فإنني تفكرت في ملكه، وذكرت سعة رحمته، ففهمت أنه لا يمكن أن يلقي عباده في النار ويحرق جلودهم، ولذلك تركت عبادة الخائفين وعبدته عبادة الراجين رحمته

من عرف الله احتار من لا يعرفو حار

محارم العوام كثار منها حلايل الاحرار

يقول: من عرف الله تعالى احتار في ما عرف من خفي ألطافه وإتقان صنعه وبلاغة حكمته، ومن لم يعرف الله تعالى حار، إذ لا اهتداء لغير العارف، حتى أن العامة الذين لا يعرفون مولاهم وظنوا أنفسهم ملتزمين بشريعته، حرموا على أنفسهم أشياء ربما تكون حلالا عند العارفين الأحرار

الكلام عن حال الحيرة

والمعنى: يقول السراج الطوسي: والحيرة: بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم وحضورهم وتفكرهم، تحجبهم عن التأمل والفكرة، قال الواسطي: حيرة البديهة أجل من سكون التولي عن الحيرة

والتحير منازلة تتولى قلوب العارفين، بين اليأس والطمع في الوصول إلى مطلوبه ومقصوده، لا تطمعهم في الوصول فيرتجوا، ولا تؤيسهم عن الطلب فيستريحوا، فعند ذلك يتحيرون. انتهى[457]

ويقول الشيخ عبد الكريم الجيلي: الحيرة : هي عين الثبوت. [458]

قال في السلوة: الحيرة والتحير لغة: الهيمان من تفرق النظر في شيء وامتناعه، بحيث لا يجد له سبيلا. وما يقتضيه المقام التوحيدي هو: هيمان يترل بالناظر لعجزه عن معرفة كنه الجلال ونعوت الكمال، فلا يجد لإدراك

---

[457] اللمع في تاريخ التصوف

[458] الشيخ عبد الكريم الجيلي، مخطوطة شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية. كستران

الكنه سبيلا، لامتناع إدراك الحقيقة على الصحيح، وامتناع الإحاطة بها. قال تعالى: "ولا يحيطون به علما".[459]

تحيرت فيك فخذ سيدي دليلا لمن قد تحير فيك
ورمت الوصول فلم أهتد وأنت الدليل لمن يرتجيك.[460]

قال أبو الفتح: الحيرة حيرتان: حيرة العارف وحيرة غير العارف

فأما حيرة غير العارف، فهي الدهش والاندهاش، متى تفكر في جميل صنع الله وحكمته، وفي تدبر عظمته وجبروته

قال تعالى: "فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسيا وهو حسير".[461]

وأما حيرة العارف: فمنها حيرة العارف المبتدئ، ومنها حيرة العارف الواصل

فأما العارف المبتدئ: فلما كشف عنه الحجاب، بما أطلعه الله الحكيم الوهاب، على زاهيات المشاهد في طاويات الروافد، حار مما رأى وسمع، فكانت حيرته في الملكوت، وهي أشد من حيرة الملك، فما الملك في الملكوت إلا كضوء شمعة في شمس الضحى

فانطفأت في عينيه أضواء الدنيا، وخنست نجوم السماء، وبهتت فتنة الألوان، وانتفى الجمال عن الوجوه الحسان، وفي كل منظر فتان

فلم يعد له تعلق بما انطفا وخنس وبهت وانتفى، وأصبح عاشقا لله وكفى

عرف النور فلم يعد يلتبس عليه بالظلمة، وعرف الجمال فتعرف على القبح، وأحس بالجلال، فذلت في ناظريه شامخات الظلال

فأخذته حيرة المبتدئ، وهي نتيجة ما رأى وشاهد وشهد، حيرة تورث استشعار جلال المولى وعظمته

وأما حيرة الواصل: فهي احتيار وتحير، ولا علاقة لها بحيرة المبتدئ، فزيادة المبنى يدل على زيادة المعنى

وقد طالعت تعريفات الحيرة في كثير من الكتب، فوجدت أغلب المحققين يجعلون الحيرة واحدة، ويقصرونها على الدهشة والاندهاش، ولم أجد من توفق، حسب ظني والله أعلم، في تعريف الحيرة كما يجب، إلا القليل.

وقد أخطأ من عد الحيرة مقاما في المقامات، وإنما هي حال في الأحوال، إذا حلت لا تدوم

---

[459] طه107

[460] سلوة الأنفاس

[461] الملك3-4

وقد هجمت علينا الحيرة، وطرأت علينا أحوال ليس لنا بها عهد، ولا نعرف لها مفهوما إلا ما قرأنا من تعريفات قصرت عن تعريفها، فلم ندر ما أصابنا واعترانا، فعانينا من ذاك الأمر الأمرين، و لم يكن لنا مرشد يقرنا عليها، ويأخذ بيدنا حتى نسلك مهامهها سالمين

و لم يدم الأمر طويلا حتى انكشف عنا الحال، وأذن المولى للغمة بالزوال

ولو لم نجز حال الحيرة ما عرفنا لها معنى، سوى ما يتداول من قصور عن إدراك معناها من أقوال

فأقول، وبالله التوفيق الكريم المتعال: الحيرة تجاوز الحواجز والأركان، واستواء الملل والأديان، في وحدة الزمان في اللامكان

ومعنى ذلك: أن الحائر لا يكون حائرا، إلا بعد أن يتنصل من الأعراف البشرية ويتحتت من الأعراض الإنسانية، فيكون وقته وقت الله، وهو لا وقت، أو هو إن شئت: وقت واحد وليس بثلاثة: ماض وحاضر ومستقبل

فإذا كان وقت الحائر واحدا، التقت عليه الرسالات و لم تتتابع، فإذا كل الرسالات إسلام، فلم يفرق بين هذه وتلك، فلا ناسخ ولا منسوخ، فيحار في أمره، فلا هو بمسلم ولا هو بنصراني ولا بيهودي، وإنما هو عبد الله، لا يحس إلا بعبوديته لمولاه

فيقول: لا إله إلا الله، حتى يبقى مع التوحيد، لأن جميع الرسل والأنبياء، ما بعثوا إلا من أجل توحيد الله عز وجل

"قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".[462]

يقول الشيخ ولي الدين الدهلوي: الحيرة: هي حالة لا يقف فيها العبد عند حالة واحدة، إنما له الجمع في المراتب، وهي نتيجة لترقيه إلى حقيقة الحقائق والوحدة القصوى، حيث تستوي عنده الحالات جميعا والتجليات بأسرها والنشآت قاطبة.[463]

ويقول الشيخ فريد الدين العطار: وادي الحيرة: هو مقام يتنازع السالك أحوال مختلفة، فلا يدري ما يصنع: لا يستطيع أن يهب قلبه لهذا الجلال الذي لا قبل له به، ولا أن يمسكه عنه، بل يذهل عن نفسه ولا يستطيع أن يقفو المرشد ولا أن يسير وحده، يضيق بالناس وبنفسه، ولا يسعه شيء، لا هو مسلم ولا هو كافر، فإن دين الحيرة لا حدود له، ليس له مبدأ ولا منتهى، ولا يعرف الحب ولا البغض، وليس له روح ولا جسم، ولا هو

---

[462] البقرة135

[463] الشيخ عبد الله الدهلوي التفهيمات الإلهية بتصرف. كستران

خير ولا شرير، ولا تقي ولا فاسق، ولا معتقد ولا شاك، ولا عظيم ولا حقير، لا هو شيء، ولا هو لا شيء، ولا جزء ولا كل.[464]

قلت: والحيرة إذا فاتت العارف، لا تفوته بالمرة، وإنما يخرجه الباري عز وجل مما ناء تحت ثقلها، فتغادره وقد وقرت حقيقتها في قلبه، لا تغادره ولا تعاوده بعد ذلك أبدا

وعلامة الحيرة، أن تورث صاحبها رحمة شاملة للعالمين كافة: إنسهم وجنهم، مسلمهم وكافرهم، سباعهم وبهائمهم، فلا يدعو لنفسه بخير إلا ودعا لهم بمثله، ويسأل الله تعالى أن يتجاوز عنهم وألا يؤاخذهم بما يجنون وبما يجرحون بالليل والنهار

ولا يطيق أن يدعو على أحد بعد ذلك مهما ظلمه، ومهما سلبه، بل يسأل الله له الغفران، ولا يطالبه بحق في الدنيا ولا في الآخرة، ذلك هو الذي عرف الله.. ذاك هو المختار

وقد قال الشيخ بعد ذكر الحيرة: حرايم العوام كثار منها حلايل الاحرار

وقد عنى بالاحرار من عرف حال الحيرة

فإنه باستواء الأمور لديه يخالف عوام الناس في كثير مما يعتقدون ويفعلون، وقد يعترضون عليه لاختلاف نظرته إلى الأحكام وطريق استنباطها، فيحرمون كثيرا مما حكم بجوازه

تضارب فتاوى العوام والخواص لاختلاف نظرهم إلى النصوص

ولما اختلفت الرؤى، بين عالم عامي، ينظر إلى النصوص نظرة متجردة، ويطفو بعقله في عرض مبناها، ولا يبحر بفهمه في عمق مغزاها. وبين عالم من الخواص، يقرأ النص، ولا يبقى مع لفظه، بل يتقصى ما يرمي إليه، بوضعه ونحوه وإعرابه، وموقعه وإيقاعه، ويغوص في أعماق معناه، يقطف الصدف، ويكشفها عن درها المكنون، وسرها المصون، ويقابل نصا بنص، ويستخرج معناه، بتدبر مبناه وسبر فحواه، وفهم عبارته، وتلقي إشارته، ويراعي مقصود الشرع منه، ويعرضه على أحوال الزمان، ما ثبت منها وما تحول، بما فسر وأول، بما أوتي من معرفة أحوال الناس وفقه الواقع

ولما تفاوت المدد الرباني، و لم تتساو نصرة الله لمن قصد الخير لبني الإنسان: فهذا اعتمد على عقله وعلمه، وذاك اعتمد على فتوحات ربه تعالى وتوفيقه، فيما يقصد تحصيله من علمه

"ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما".[465]

---

[464] الدكتور عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين العطار. كستزان

[465] الأنبياء78

ولما اختلف الأدوات والمقصد، بين هذا وذاك، تباينت الأحكام بينهما، وتضاربت التأويلات، فكثر ما حرمه العوام، أن رأوا فيه انتفاء داعي الجواز، ومما حرموه كثير مما حلله الخواص

فقال العامي: تارك الصلاة كافر، لقوله ﷺ: "العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، فمن تركها فقد كفر". رواه الحاكم في المستدرك عن عبد الله بن بريدة عن أبيه

وقال الخواص: تارك الصلاة مسلم موحد، سوى أنه غافل عاص، ترجى له الهداية، فعسى الله تعالى أن يتوب عليه، فيتوب، فقد قال سبحانه: "ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم".[466] والأعمال بخواتيمها، فعسى أن تكون خاتمته خيرا

ولكن نكفر تارك الصلاة، متى تركها، غير مؤمن بوجوبها، أما إذا تركها غفلة وتراخيا عن أدائها، فهو مذنب من المذنبين ترجى له الهداية، وربه رحمن رحيم

وقال العوام: لا يجوز إسبال الثوب، ومن أسبل فهو في النار

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار". رواه البخاري

وقال الخواص: يجوز الإسبال في زماننا لانتفاء سبب تحريمه، وهو الفخر والخيلاء، فلم يعد يراد بالإسبال حسب العرف شيء من ذلك، ولهذا بطل حكم تحريمه

ألا ترى كيف أقال رسول الله ﷺ أبا بكر منه، لما علم سلامة قصده من الفخر والخيلاء

عن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: "من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة"، قال أبو بكر: يا رسول الله، إن أحد شقي إزاري يسترخي، إلا أن أتعاهد ذلك منه؟ فقال النبي ﷺ: "لست ممن يصنعه خيلاء". رواه البخاري

سأل سائل فقال: لي أخ شقيق عليه زوجة وعيال، لا يجد ما يطعمهم، فهم يتضورون جوعا، ولي مال فضل عن حاجتي، هممت أن أحج به حجة ثانية، فهل علي شيء؟

فأجاب العوام: ليس عليك شيء، إذ نويت بمالك التقرب إلى الله تعالى، بأداء إحدى شعائره، وهي الحج، أما أخوك، فرزقه على الله، إن شاء أعطاه وإن شاء منعه

وقال الخواص: إذا حججت ثانية وتركت أخاك وأهله في ضنك وخصاصة، فقد أذنبت، وقد تبوء بغضب الله تعالى من حيث قصدت رضاه، كيف، وقد حججت الأولى، ولا حاجة لك بالثانية؟ ومالك أخوك وعياله أحوج إليه منك، فأكرم أخاك، وغادر حجك، فقد يكتب لك الباري عز وجل بذلك حجات، وما ذاك على الله بعزيز

وقد قال الله تعالى: "واتقوا الله الذى تساءلون به والارحام، إن الله كان عليكم رقيبا".[467]

---

[466] التوبة119

ولا تقل كما قال الكافرون: "وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن انتم إلا في ضلال مبين". [468]

سأل شاب يافع عالما عاميا في شهر رمضان، فقال: كنت مع أترابي، فقالوا ونحن صائمون: من يجترئ على أن يفطر في رمضان عمدا؟ فقلت: أنا أفعل، وأفطرت عمدا. ولما تولوا عني، ندمت على ما فعلت، فأفتني في أمري رعاك الله وأدام بقاءك

فقال له العامي غاضبا: لا حياك الله، بئس ما فعلت، أليس جاهرت ربك بالمعصية؟ فمثلك لا يأتي مثلي، ولا يفتى وقد أهان نفسه ودينه

فقال الشاب متوسلا: فهل لي عندك مخرج، أرجع به إلى مولاي، وقد عزمت على ألا أخالف له أمرا ما حييت؟

قال العامي: تصوم شهرين متتابعين كفارة ما صنعت

قال: لا طاقة لي يا سيدي بصيامها، فهل في الشرع أهون من ذلك؟

قال: تطعم ستين مسكينا

قال الشاب: لا أستطيع ذلك

فقال: ما لك عندي شيء، بعد ما خيرتك وعجزت

قال: وإن لم أصم و لم أطعم؟

قال: فلتتبوأ مقعدك من النار يوم القيامة

رجع الشاب إلى بيته يائسا منكسر الخاطر، وأيقن بدخول النار، فقال: ففيم صيامي ما تبقى في رمضان، وما يدفع عني ذلك وقد علمت أن جهنم مثواي؟ فأفطر يومه الثاني

ولما رآى أصحابه ما هو فيه من يأس وخيبة وأسف، ساقوه إلى عالم من الخواص، فلما أتاه حكى له أمره، فبادره قائلا: أبشر ولا تستيئس، فربك غفور رحيم

فما عليك سوى أن تتوضأ وتصلي ركعتين وتتوب إلى الباري عز وجل من زلتك، فإذا كبرت واشتد عودك، فصم لله تعالى ستين يوما، كفارة يومين أفطرتهما عمدا، وإن لم تقو على الصيام، فأطعم ستين مسكينا على كل يوم أفطرته، وإن كنت اليوم قليل اليد، فقد يرزقك الله تعالى غدا من حيث لا تحتسب

ففرح الشاب وانبسطت أسارير وجهه وسكن روعه، وانزاح ما على كتفيه من وزر، ورضي بفتوى الشيخ واطمأن لها، وانصرف عنه شاكرا

---

[467] النساء1

[468] يس46

ولو بقي على حاله الأولى من قنوط من رحمة الله تعالى، لما ترك معصية إلا أتاها، وأهلك نفسه وأفسد الحرث والنسل

كل ذلك بسبب من أفتاه دون مراعاة صغر سنه وقلة حيلته

فانظر رعاك الله، إلى حكمة رسول الله ﷺ، فيما يصدر من أحكام، يزل عنك الاستغراب وترى في ما قلت عين الصواب

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هلكت، قال: "ويحك"، قال: وقعت على أهلي في رمضان، قال: "أعتق رقبة"، قال: ما أجدها، قال: "فصم شهرين متتابعين"، قال: لا أستطيع، قال: "فأطعم ستين مسكينا"، قال: ما أجد. فأتي بعرق، فقال: "خذه فتصدق به"، فقال: يا رسول الله، أعلى غير أهلي؟ فوالذي نفسي بيده، ما بين طنبي المدينة أحوج مني، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه، قال: "خذه". رواه الشيخان واللفظ للبخاري

وفي رواية مسلم: فأتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر. فقال: "تصدق بهذا" قال: أفقر منا؟ فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا. فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه. ثم قال: "اذهب فأطعمه أهلك".[469]

ورواه مالك في الموطأ، قال: عن أبي هريرة أن رجلا أفطر في رمضان، فأمره رسول الله ﷺ أن يكفر بعتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكينا، فقال: لا أجد. فأتي رسول الله ﷺ بعرق تمر، فقال: "خذ هذا فتصدق به"، فقال: يا رسول الله، ما أحد أحوج مني، فضحك رسول الله حتى بدت أنيابه، ثم قال: "كله". انتهى الحديث

احن علي من والدي نعايمو ماهي محصيه

شلا من ذنب غفر لي خلى سريرتي نفيه

يقول: إن ربي أحن علي من والدي، نعمه علي لا تحصى، كم غفر لي من ذنب، حتى ترك سريرتي بيضاء نقية. والمعنى: لا تظن بالله تعالى إلا خيرا، فقدشملت رحمته العالمين، وشملت نعمه المسلمين والكافرين، وهو الذي يتجاوز عن عباده ما جرحوا بالليل والنهار، حتى يمحو صحائفهم وتتنقى سرائرهم، فهم به في غبطة وحبور، وهو لهم نعم التواب الشكور

[469] قال مسلم بعد رواية الحديث: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير عن منصور، عن محمد بن مسلم الزهري، بهذا الإسناد. مثل رواية ابن عيينة. وقال: بعرق فيه تمر، وهو الزنبيل. و لم يذكر: فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تسعى، إذ وجدت صبيا في السبي، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: "أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟" قلنا: لا، والله، وهي تقدر على أن تطرحه. فقال رسول الله ﷺ: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها". رواه مسلم

ابدا بالتوحيد فى اذكارك الهيلله تغسل اكدارك
تزيح الشرك من دارك اذكر حتى يطلع نهارك

يقول: ابدأ بالتوحيد في أذكارك، والتوحيد: قول لا إله إلا الله، فإن هذه الكلمة العظيمة تغسل أكدار قلبك وتزيح عنك الشرك، فتكون من الموحدين، فأكثر من ذكر لا إله إلا الله ما استطعت، ولو أن تذكرها ليلك كله، ولا تفتأ تذكرها حتى تطلع شمس نهارك

والمعنى: قال أبو الفتح: الذكر إقرار بصدق الإرادة في السير إلى حضرة علام الغيوب

والورد شرب العارفين لا يعبرون دون شرب

ومن لا ورد له، ليس له شرب، ومن لم يشرب لم يطرب، فإنه متى شرب طرب، ومتى طرب اضطرب فاقترب، فكان قاب قوسين أو أدنى

فضائل الذكر

قال أبو المحاسن رحمه الله تعالى: اعلم: أن أقرب الطرق إلى الله، وأحبها إليه: دوام الذكر. والذكر منشور الولاية، ولابد منه في البداية والنهاية، وهو يثمر أحوالا شريفة، ومقامات عالية منيفة، وعلوما لطيفة، ويحيي عوالم طالما كانت قبل مواتا، ويلبس النفس وجنودها ذلة وسباتا. ونظيره إذا وصل للقلب كدخول الماء في الأسراب؛ فإنه يخرج ما فيها من الحشرات والدواب، فكذالك الذكر إذا صادم القلب ودخل سويداءه؛ فإنه يخلصه من مساكنة صلصال النفس، ويزيل عن ناظره الغشاوة واللبس، ويصفيه من ملاحظة الأراجيف الغيرية والأحكام الخلقية، ويرحل به إلى المنازل الديرية، ويحقق له المقامات والمراتب الإحسانية.

فإذا ظهر أن خاصية الذكر: الإنجذاب نحو المذكور، والتحقق بأن كل ما سواه غرور، والتخطي عن جميع المراتب الكونية، والدخول في الحضرات الحقية، فنقول: إن العبد إذا لازم الذكر بجمع الهم في المذكور، ودفع كل خاطر، ومنع كل تفرقة، وثابر عليه مستحضرا جمال مذكوره، واستصحب ذلك في وروده وصدوره، عامله الحق في حال سيره بصورة الاختبار، إظهارا لمزيته، أو قطعا لحجته. فتارة تتبرج له ظواهر الكائنات،

وتتزخرف له أنواع المكونات، فتناديه منه فيه بواطنها: المنهل قدامك، وأخرى تلاحظ همه شيئا مما كشف لها، فتصيح به هواتف الحقيقة: الذي تطلب أمامك، وتارة يطوفه في العوالم العلوية والسفلية، ويحفظ قلبه ويسمع النداء منه فيه. انتهى[470]

فاجعلوا لأنفسكم إخواني، وردا من القرآن والأذكار، تتعهدونه في الليل والنهار، فإن خير العمل أدومه

فإذا قلت: فكيف لنا بذلك، ولا نعرف من أمور الذكر ما نبتدئ به وننتهي؟

قلت: أذكر لكم ما لا بد منه من أذكار مما جاء به القرآن وسنة سيد الأبرار

وأول ما تبدأ به أيها الراغب: قول لا إله إلا الله، فإنها كلمة التوحيد، لابد للمبتدئين من ذكرها، ولا ذكر للمنتهين بغيرها.

فاتخذ لنفسك من الهيللة وردا، فإن كان لك شيخ فهو يدلك على مقدار ما تذكر، وإن لم يكن لك شيخ فاذكر منها ما استطعت

فضل لا إله إلا الله

اعلم أخي، أن لا رسالة من الرسالات السماوية، إلا وجاءت من أجل لا إله إلا الله، ولا رسول ولا نبي إلا دعا قومه إلى لا إله إلا الله

وهي أحب كلمة إلى الله تعالى، فإن السالك إذا ذكرها في بدايته، محقت منه ما أشرك بالله في جميع ما يعتقد ويحب ويخاف ويحذر، وهيأت له التوكل على الله وحده، واليأس مما في أيدي الناس

فذكر لا إله إلا الله يورث شريعة الحقيقة، دون كثرة المجاهدات، ودون التضييق على النفس بحرمانها مما أحل الله لها من طيبات، قصد تخليصها من رذائلها التي جبلت عليها، من أثرة وحقد وغرور وكبرياء، وإنك بذكر لا إله إلا الله، تحصل عزة الخضوع لرب العالمين، وتتسم بسيمى الخاشعين

فلتكن بداية وردك، حتى تتأهل لوضع أول قدم على طريق السلوك

عن طلحة بن عبيد الله بن كريز، أن رسول الله ﷺ قال: "أفضل الدعاء: دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له". رواه في الموطأ

عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله". رواه الترمذي

عن عثمان قال: قال رسول الله ﷺ: "من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة". رواه مسلم

---

[470] مرآة المحاسن

عن أنس عن النبي ﷺ قال: "يخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله، وفي قلبه وزن ذرة من خير".

عن أنس عن النبي ﷺ: "من إيمان" مكان "من خير". رواه البخاري

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون بابا، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول لا إله إلا الله". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

صل على النبي المختار محمد منو شرفت الانوار

توسع صدور الاغيار تزيد في الرزق مقدار

يقول: ثم صل على النبي المختار، سيدنا محمد ﷺ مشرق الأنوار، فإن الصلاة عليه تنشرح بها الصدور وتتطهر القلوب، من هموم الدنيا وأغيارها، وتزيد في الرزق مقدارا مما قسمه الله تعالى للعبد

والمعنى: ثم أكثر من الصلاة والتسليم على النبي الأمين، فإنه لا بركة في ورد يخلو من الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ؛ وإن الله تعالى لا يلتفت إلى ذاكر لا يصلي على حبيبه رسول الله ﷺ

فلولا ما صبر النبي ﷺ على أذى الخلق، وما جاهد في سبيل الله، ما عرفنا الإسلام، ولكنا نأكل ونشرب كالأنعام، وما أشرقت علينا شمس الحق بعد ظلمات الأعتام

وإنا لنصلي عليه حبا وكرامة، عرفانا للجميل، وإنا لنصلي عليه، لأن الباري عز وجل صلى عليه وملائكته، وأمرنا بالصلاة عليه: "إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما". [471]

ولأن النبي ﷺ بين فضل الصلاة عليه

وإنه من شأن الصلاة عليه أن تنشرح بها الصدور وتتزكى النفوس، وهي تزيد في الرزق وترضي الملك الحق، لا إله غيره

[471] الأحزاب56

فضل الصلاة على رسول الله ﷺ

يقول الله عز وجل: "إن الله وملايكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا سليما".[472]

عن أبي طلحة قال: دخلت على رسول الله ﷺ فرأيت من بشره وطلاقته شيئا لم أره على مثل تلك الحال قط، فقلت: يا رسول الله، ما رأيتك على مثل هذه الحال قط؟ فقال: "وما يمنعني يا أبا طلحة وقد خرج من عندي جبريل ﷺ آنفا، فأتاني ببشارة من ربي، قال: إن الله بعثني إليك أبشرك أنه ليس أحد من أمتك يصلي عليك صلاة، إلا صلى الله وملائكته عليه بها عشرا". رواه الطبراني في الكبير

عن كعب بن عجرة رضي الله عنه: قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة؟ قال: "قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم، إنك حميد مجيد". رواه البخاري

عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ، إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال: "يا أيها الناس اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه". قال أبي: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: "ما شئت"، قال: قلت: الربع؟ قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"؛ قلت: النصف؟ قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"؛ قال: قلت: فالثلثين؟ قال: "ما شئت، فإن زدت فهو خير لك"؛ قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: "إذا تكفى همك ويغفر لك ذنبك". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

أما قول الشيخ: تزيد فى الرزق مقدار

يريد به أن الصلاة على النبي ﷺ تبسط الرزق، وتزيده مقدارا

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ في ما رواه الترمذي عن الطفيل بن أبي بن كعب عن أبيه، أن الصلاة عليه ﷺ تكفي الهم وتغفر الذنوب، ولا شك أن هم الرزق من أشد الهموم، فكيف لا تكفيه الصلاة على المختار ﷺ؟

وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه". رواه البخاري

كما يقول الله تعالى: "قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى".[473]

---

[472] الأحزاب56

[473] الشورى21

فمتى صليت على البشير وأردفته بالصلاة على آله الطاهرين وصحابته الميامين، فإنك تكون بذلك قد صلت رحمه ﷺ، فكيف يبسط رزقك إذا صلت رحمك، ولا يزداد بسطا بالصلاة على النبي ﷺ وآله وصحبه، فتدبر

عن جابر بن سمرة السوائي عن أبيه قال: كنا عند النبي ﷺ، إذ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما أقرب الأعمال إلى الله؟ قال: "صدق الحديث، وأداء الأمانة"، قلت: يا رسول الله، زدنا، قال: "صلاة الليل، وصوم الهواجر"، قلت: يا رسول الله، زدنا قال: "كثرة الذكر لي والصلاة علي تنفي الفقر"، قلت: يا رسول الله، زدنا، قال: "من أم قوما فليخفف، فإن فيهم الكبير والعليل والضعيف وذا الحاجة". رواه أبو نعيم الأصبهاني في معرفة الصحابة

كيف يكون الذكر؟

ولا يطمع الذاكر في الحضور من أوله، بل عليه أن يداوم على الأوراد، ويسأل التوفيق من رب العباد، حتى يكون لسانه رطبا بذكر الله تعالى، فبعدها سيكافئه الباري عز وجل بالحضور، ويكون حضوره في البداية حلاوة في اللسان ونورا في الجنان، حتى أنه لا يمل من الذكر مهما ذكر، ثم يصبح صفاء في النفس تتبعه واردات على الخاطر، يحس بها مددا ربانيا يبشره بالرضا، فتغشاه سعادة ما ذاق لمثلها طعما

فتتحقق نفسه ويبدأ في قطع المراحل، إذ تكون هذه المرحلة الأولى، وقد جازها بسلامة بتوفيق العلي العلام

ثم يزيد حضوره حتى يستثقل ذكر اللسان، فبعد أن تم حضوره، يرى أن ذكر اللسان يخص الغائب والله حاضر لا يغيب، فلا يرضى بغير القلب ذاكرا، فيتوجه بكليته إلى مولاه يناجيه بلا لفظ، ويسمعه بلا سمع، فيضحك ويبكي ويسمع ويحكي ويسأل ويجيب.

قال في الأنوار القدسية: ومن شأنه إذا افتتح مجلس الذكر وحده، أن لا يسكت حتى يحصل له الغيبة عن الأكوان كلها، فإن الذكر إنما شرع للحضور مع الحق جل وعلا، وما دام المريد يشهد شيئا من الأكوان، فهو لم يدخل حضرة الواحد الأحد، ثم إذا دخل الحضرة وحضر قلبه مع الحق تعالى، فليسكت حينئذ، لأنه لا معنى للذكر اللفظي مع شهود الله تعالى، بل لو أراد الحاضر أن يذكر الله بلسانه لم يقدر على النطق، لأنها حضرة هيبة وجلال، وبهت وخرس. انتهى[474]

[474] الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية

وفي مواقف البصري: يقول الله عز جل: إذا لم ترن فالزم اسمي، فإذا رأيتني فاصمت، لأني ما شرعت لك أن تذكر اسمي إلا وسيلة للحضور معي، فإن اسمي لا يفارقني. انتهى[475]

وقال أبو المحاسن الفاسي رحمه الله تعالى: الذاكر بالأسماء على الوجه المذكور؛ سالك فيها وصاعد إن بدأ به، وإلا؛ فمتدل، وربما التقيا لا بمعنى واحد، فكل على حسبه، ودوران أفلاكها النورانية عليه وترتيبها الوحداني لديه، أحد وجوه الإحصاء الوارد، وحالة التعلق بها على سبيل المواجد وتعددها وتباين خاصيتها، واختلاف تأثيرها، هو الموجب للأمور النازلة بذاكرها، الجارية على سره وضميره، لأن كل اسم خاصيته من معناه، وتصريفه في مقتضاه، وإفادته في وقته، وسره في عدده، وتأثيره على قدر التأثير به... وذلك بحسب الفيض والقصد والهمة، وكلها تختلف باختلاف الطباع والأرواح والأحوال، ولهذا يفتقر السالك إلى الشيخ المربي افتقار وجوب واضطرار لا يسعه غيره؛ لأن أهله أهل كشف ومطالعة؛ فتعرض لهم أمور وجدانية، وأحوال روحانية، لا تنضبط ولا ترتبط بمعهود، بخلاف غيره؛ فلا يجب إلا على الأنفس الكثيفة العصية، ومن نفسه منقادة؛ فهو في حقه كمال، والكلام هنا يطول. انتهى[476]

قلت: ودليل قرب الذاكر من مولاه، أن يستحيي أن يسأله شيئا من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة، وإنما يرضى بوجهه الكريم، فهو يستعظم أن يكدر صفو نجواه بطلب ما لا يليق، وهو يعلم علم اليقين، أن الله تعالى أعلم بحاجياته، وأعرف بما يصلح له، وقد اختار له الأنسب، ولا اعتراض على ما شاء وقدر

ذاك أدب الحضرة، ألا ترى أن من جالس الملوك، يأنف أن يسألهم مالا رغم حاجته، وإنما يكتفي بشرف مجالستهم، فلله المثل الأعلى، وأي جليس عز جلساؤه غير الملك الحق

ولا يحضر المريد بغير محبة، فلو لم تصدق محبته، ويترجمها شوقه إلى لقاء المحبوب ما حضر

ومتى حضر وانتشى بأنوار نور الأنوار، وبمناجاة الواحد القهار، هان عنده ما سوى الأزلي الباق، من أحداث وحوادث، فأصبح لا يغيب عن الله الظاهر، ويناجيه في كل وقت وآن، حتى في منامه

ويتبدل ذكره من حال إلى حال، وقد يذكر وردا لا يخرج عنه حتى لا يفتر لسانه، ولكن نجواه لا تتأتى إلا بما يلهمه الله تعالى من أسماء وأذكار

فمتى ألهم بذلك ذكره بلسان الإرتجال، وتلك أرقى مراحل الذاكرين، وذلك خير الذكر، إذ لا تكلف فيه، بل منبعه المحبة والشوق، وهو يخرج على حسب محبة الذاكر وشوقه، ولا يصلح لغيره كما يصلح له، لأنه خرج منه في الحين والآن؛ وقد يذكره في ليلة واحدة، وفي الليلة التي تليها يأتيه غيره، وقد يعود إليه وقد لا يعود أبدا. ومن الذاكرين من يستمد من شيخه في ذكره، بل من الشيوخ من يأمر المريدين أن يستمدوا منهم

---

[475] المرجع نفسه

[476] مرآة المحاسن

قال أبو الفتح: ولا نرى مددا يكون من غير الله تعالى، فإن الاستمداد من الخلق ولو كانوا شيوخا، لا يكون إلا ناقصا، لأنه لا كمال إلا لله

وإن كان ولا بد، فالاستمداد من الأنموذج الكامل، والشخص الفاضل، والفيض الهائل، النور الوهاج والسراج المنير، واسطة العقد ولسان الميزان، حبيب الرحمن، سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين

ومن الذاكرين من يذكر في خلوته وهو منشغل بالبوارق والشوارق والخوارق، فلا يبلغ شيئا بذكره، لأنه ما أراد به وجه الله، ولكن أراد أن يظهر بالكرامة على بني جنسه، فليس له في طريقنا من شيء، كيف وهو يقلب ناظريه في الدلجة ويصغي، عله يرى ما لا يراه غيره، ويسمع ما لا يسمعه سواه، حتى تكون له الخصوصية من بين الناس، ويحوز بذلك الشهرة والفخار؟

فوالله يا هذا، ما لك في الذكر نفع، فإنك تذكر لنفسك لا لله، تذكر وفي نفسك إشراف إلى التوافه

وإنما يطرأ على ذات الذاكر حالات إلهية لا عهد له بها، لأن الجسم في الحضرة يدرك حضور خالقه، فتهده الأنوار وتسحقه الأقدار، ولكن لا يتأذى بشيء من ذلك، كيف يتأذى وهو في حصن الواحد القهار، مقلب الليل على النهار؟

والشيخ من دلك على الله وليس من دلك على نفسه

فإذا رأيت الشيخ يعجبه الثناء، ويعجبه تكالب الناس عليه، ويعجبه أن تنصب له الكراسي والعروش، وأن تقبل منه يداه ورجلاه، فاعلم أنه ليس على شيء

وإذا سمعت الشيخ يتعنى بنفسه ويرفع شأنه على العالمين، فلا تلتفت إليه، فلو رفعه الله حقا ما ترفع، ولو أعزه ما تعزز، وإنما هو رجل محجوب، والعياذ بالله، فلا قعود لك معه، وإنك لن تنال منه سوى البعد والقطيعة؛ فانفر عنه خفيفا إلى ربك، يسخر لك من يدلك على العظيم باحتقار نفسه، ويسلمك للكريم بترك المن والأذى

مقام التوبة

زيد التوبه الحبيبه سبعين مرة فى الحسيبه
ترد الباس ؤ المصيبه تشرع باب البويبه

يقول: زد التوبة الحبيبة إلى القلوب، فتب إلى الله سبعين مرة في اليوم، فإن التوبة ترد البأس والمصائب، وتفتح باب الإجابة

والمعنى: ولا تنس الاستغفار من وردك، بل اجعل له نصيبا، فإن المرء يذنب بالليل والنهار، وما أحوجه إلى أن يمحو ذنوبه في كل يوم وليلة بممحاة الإستغفار

وقدجعل الشيخ الاستغفار سبعين، كما فهم العلماء من الآية الكريمة أن غايته سبعين مرة، فقد قال الباري عز وجل: "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم". [477]

ومن زاد على السبعين كان له ذلك، فقد فعله النبي ﷺ:

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة". رواه البخاري

من اوراد الشيخ كلام جيب التبعة فى الروام
كلام الشيخ احكام تسكر الروح بلا مدام

يقول: والتزم ببعض أوراد الشيخ إن كان لك شيخ، حتى تثبت تبعيتك له، فإن كلام الشيخ كله حكم، كلامه من شدة حلاوته يسكر الروح بغير مدام

والمعنى: خذ من كلام شيخك ودعائه في وردك، حتى تحقق تبعيتك له، فإن كلام العارفين قريب إلى الرب، حبيب إلى القلب

قال تعالى: "إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه". [478]

وقد قال قوم: لا ندعوا سوى بما دعا به رسول الله ﷺ مما ثبت وصح في مصنفات الحديث

قلت: بل فيما دعا به الصالحون خير أقره النبي المختار ﷺ

---

[477] التوبة81

[478] فاطر10

بل حكى الباري عز وجل من أدعية الصالحين غير الأنبياء والمرسلين، منه الكثير، فكان للناس شرعة وردت في التتريل، ومنه:

"ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين".[479]

"إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا".[480]

"ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله".[481]

وحكت السنة من ذلك مثله

فقد روى البخاري من حديث عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: "سمع الله لمن حمده". قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد، حمدا طيبا مباركا فيه. فلما انصرف قال: "من المتكلم؟" قال: أنا، قال: "رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها، أيهم يكتبها أول".

وروى مسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما نحن نصلي مع رسول الله ﷺ، إذ قال رجل من القوم: الله أكبر كبيرا، والحمد لله كثيرا، وسبحان الله بكرة وأصيلا. فقال رسول الله ﷺ: "من القائل كلمة كذا وكذا؟" قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: "عجبت لها! فتحت لها أبواب السماء". قال ابن عمر: فما تركتهن منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك.

كما وضع مشايخ أحزابهم، وأخذها عنهم غيرهم، فوجدوا في ذكرها والدعاء بها حلاوة في اللسان وصفاء في الجنان.

عن أنس بن مالك، قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ من الأنصار، يكنى: أبا معلق، وكان تاجرا يتجر بماله ولغيره، يضرب به في الآفاق، وكان يزن بسدد وورع، فخرج مرة، فلقيه لص مقنع في السلاح، فقال له: ضع ما معك، فإني قاتلك، قال: ما تريد إلى دمي؟ شأنك بالمال، فقال: أما المال فلي، ولست أريد إلا دمك، قال: أما إذا أبيت، فذرني أصلي أربع ركعات؟ قال: صل ما بدا لك، قال: فتوضأ ثم صلى أربع ركعات؛ فكان من دعائه في آخر سجدة، أن قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما يريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، وملكك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك، أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني. (ثلاث مرار) قال: دعا بها ثلاث مرات، فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة واضعها بين أذني فرسه، فلما بصر به اللص، أقبل نحوه فطعنه فقتله، ثم أقبل إليه فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي، فقد أغاثني الله بك اليوم؟ قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول، فسمعت لأبواب السماء قعقعة، ثم دعوت

---

[479] البقرة248

[480] الكهف10

[481] الكهف38

بدعائك الثاني، فسمعت لأهل السماء ضجة، ثم دعوت بدعائك الثالث، فقيل لي: دعاء مكروب، فسألت الله تعالى أن يوليني قتله.

قال أنس رضي الله عنه: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات، ودعا بهذا الدعاء استجيب له، مكروبا كان أو غير مكروب. انتهى[482]

كيف يضع الشيخ حزبه؟

اعلم وفقني الله وإياك لطاعته، أن الشيخ حين يضع حزبه، لا يقصد من ذلك تهيئته لمن سيتبعه، بل إن الشيخ بما يخالجه ويغشاه من محبة مولاه، وبهجوم الشوق عليه، يؤلف كلاما يناجي به مولاه ويبث إليه حزنه وشكواه، ولذلك يكون كلامه في حزبه صادقا تتفتح له أبواب السماء ويستجيب له الرب

وقد كنت في بدايتي لا أفتر عن ذكر لا إله إلا الله، فشدتني رغبة قوية في أن أتبعها بدعاء يخصها، فبحثت في الكتب وقرأت الصحف، وقلبت الصحائف، وعثرت على عدة أدعية بلا إله إلا الله، وكلما قرأت منها دعاء لم يكن يلبي مرادي فيما قصدت، ولم يكن يشبع خاطري ويشفي غليلي فيما أردت

فبت ليلة مشغول البال بهذا الأمر، فرأيت فيما يرى النائم، أنني أدلف إلى غرفة صغيرة، بها قوم ينتظرونني لأرقيهم من مس الجن والشياطين، وما جاوزت باب الغرفة، حتى قبضت على مرفقي عجوز شمطاء من الحاضرين، لم أر امرأة غيرها فيهم، فما تملصت منها إلا بشق الأنفس، وذهبت لأقعد وأنا أقول في نفسي: ما أقوى هذا الشيطان الذي يمس هذه العجوز، ولعل الله يؤيدني ويزيد قوته في ضعفي، حتى أخلصها منه

وإذا بي أرى نفسي أجري وراء العجوز الشمطاء، وهي هاربة مني، ويجري بحذوها شخص نحيف، وقع في خاطري أنه الشيطان لعنه الله تعالى، وكنت أعدو خلفهما، وأنا أدعو الله بدعاء جاء على لساني، ما سمعته من قبل، وكنت كلما اقتربت منهما تصور في أثرهما حيوانات على شكل ديناصورات لكنها صغيرة، فعلمت أن المراد بذلك إفزاعي، فبقيت متجلدا أدعو الله تعالى أن ينصرني عليهما، وكانت الحيوانات تختفي أمامي؛ وإذا بي أرى نفسي قرب رباط الأوداية بالرباط مما يلي البحر، وقد تسمر الشيطان بالأرض، فلحقته وأنا أقرأ الدعاء لا أفتر عن قراءته، وهو يتألم من دعائي ويركز في مكانه، ثم بدت لي خيمة كبيرة مقابل الأوداية، يظهر فيها أناس ويسمع منها مزامير وشبهها من آلات الطرب، وكأنه عرس، فقلت للشيطان لعنه الله تعالى: اذهب لعنك الله تعالى، إلى هناك، فثم حاجتك. فانطلق اللعين حيث أشرت

[482] مجابي الدعوة لابن أبي الدنيا

فأفقت قبل أذان الفجر، وكتبت معاني الدعاء الذي كنت أقرأ في منامي حتى لا أنساه، فوجدت فيه مبتغاي، وكنت ولا زلت أدعو به، بعد ذكر ما تيسر من كلمة التوحيد، وسميته حزب لا إله إلا الله، وهو كالتالي:

اللهم إني أسألك بمكنون سر لا إله إلا الله التي تفردت بها عما سواك، وأقمتها حصنا لعبدك الذي تراه ولا يراك من الشرك والإشراك، أن تفيض علي من مكنونها نورا ينكشف به غطائي وينجلي حجابي، وتغمرني ببركتها ما آمن به من الشيطان والنفس والهوى، وتجعل كيد من كاد لي في نحره وما نوى.

اللهم إني أسألك بحبي لذاتك العلية المنزهة عن الند والشبيه، ولملائكتك السفرة الكرام البررة الذين لا يفترون عن الذكر والتأليه، ولكلامك الذي أثبته في كتبك السماوية هدى ونورا للطائفة الناجية، ولرسلك وأنبيائك الذين أصفيتهم بالوحي، وحفظتهم من الغي، وبحبي لمن تفرد بالختمة عنهم، وحظي بالشفاعة منهم، وآتيته الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، سيد الخلق وإمام الحق، حبيبك ونبيك محمد ﷺ.

وأسألك بحبي لأوليائك الأصفياء، ما أخفيت منهم وما أبديت، وما أمت وأحييت، أن تسلني من نفسي وتطهرني من رجسي وتعتقني من رقي وتكفيني أمر رزقي، وتدخلني في حضرة: "إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة"،[483] من أبديت لهم الغيوب سافرة في القلوب الساهرة، وأضفتهم في سرادق: "رضي الله عنهم ورضوا عنه"،[484] وسخرت لهم الأكوان، لما سخروا بتوفيقك الأبدان للواحد الديان، بحرمة لا إله إلا الله، يا الله، يا الله، يا الله، سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

كما أن كثيرا من المشايخ صلوا على النبي ﷺ، بصيغ لم ترد في الحديث، وتداولها الناس وتناقلوها، في حياتهم وبعد موتهم

وقد جمع الإمام سيدي محمد الجزولي رحمه الله تعالى،[485] صلوات بصيغ مختلفة، منها ما جاء في أحاديث رسول الله ﷺ، وما نقل عن الصالحين من عباد الله تعالى، جمعها في كتاب وقسمها على الأيام، وجعل لكل يوم

---

[483] فصلت29-30

[484] التوبة1

[485] سيدي محمد فتحا بن عبد الرحمن بن سليمان الجزولي، الشريف النسيب، ولد ببلاده جزولة من سوس، وبها نشأ وقرأ القرآن، ثم اشتغل بالعلم، ورحل لفاس وبقي به مدة، وبه لقي العارف سيدي أحمد زروق، وكان علامة على قدم راسخ في فقه مالك، يقال أنه كان يحفظ المدونة وغيرها. ولكنه انصرف عن ذلك كله واشتغل بعبادة الله عز وجل، وتزهد وتنسك وشغف بالصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ، وأولع بالمداومة عليها، واعتزل الأصدقاء وعموم الناس ولزم بيته واشتغل بما يهمه، وألف كتابه العظيم: دلائل الخيرات، الذي حاز من الحظوة والانتشار ما لم يحزه أي كتاب، وعم دخوله كل البيوت وجميع الطبقات، وقرأه حتى ربات الخدور. انتهى

وردا من الصلاة على النبي ﷺ، وسماه: دلائل الخيرات، وهو مشتهر معروف بين الذاكرين، وكتب الله له القبول في العالم أجمع، وقد قرأنا فيه وانتفعنا منه، ودعونا لجامعه بالخير وحسن الجزاء

ومهما صليت على النبي المختار، فلا تنس ذكر الصلاة الإبراهيمية، إذ أمرها جسيم وفضلها عظيم، وقد أحسن الإمام الجزولي رحمه الله تعالى في دلائل الخيرات، وتنبه لذلك، فمهما أورد من صلوات كان يرجع إليها مرات ومرات

وقد ألهمنا الله تعالى من شدة ما قرأنا من صلوات على النبي ﷺ، بصلاة نصلي بها عليه، سميناها: صلاة المشيئة، وهي كالتالي:

سبحانك لا أحصي صلاة على سيدنا محمد كما صليت أنت وملائكتك عليه، اللهم صل على النبي كما تشاء بما تشاء، صلاة ترضيك وترضى بها عنا يوم البعث والجزاء، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

اتصل بالعارف سيدي محمد بن عبد الله أمغار، فأخذ عنه الطريق، ثم دخل الخلوة ومكث فيها أربعة عشر عاما، وكان ورده الألوف من البسملة وعدة ختمات من الدلائل وربعا من القرآن الكريم كل يوم وليلة، ثم خرج للدعوة والإرشاد والتربية، فكون بفضل الله عز وجل جموعا غفيرة من المومنين الصالحين، حتى أنه اجتمع بين يديه من المريدين: اثنا عشر ألفا وستمائة وخمسة وستون، كما ذكر سيدي المهدي الفاسي في ممتع الأسماع.

وكانت طريقته التي يأخذ عليها العهد هي الصلاة على الرسول ﷺ، مع الفناء في محبة الله ورسوله ﷺ، وزيارة الأولياء مع التبري من الحول والقوة، والاعتماد على الله عز وجل. انتهى

وسيدي محمد الجزولي، كان قد رحل للديار الشرقية وحج وجاور مدة، ولقي بها الأكابر ثم رجع لبلاده واتخذ مدينة آسفي مقرا لسكناه، فعاداه أهلها وأنكروا عليه أمورا في الطريق، وابتلي بسبب ذلك، فكانت نهايته إخراجه منها ونفيه عنها إجباريا، فرجع لبلاده جزولة، وبقي بها إلى أن توفي بها رضي الله تعالى عنه، وذلك سنة 870هجرية، ثم نقل لمراكش بعد سبع وسبعين سنة ودفن برياض العروس. انتهى من المطرب

لاذكر بغير مشاورة الشيخ

لا تزيغ على هاذ الورد لا تكحل بلا مرود
مرود العين السيد إلى ما حبسك زيد جبد

يقول: لا تزغ عن هذا الورد الذي ذكرت لك، لا تكحل عينيك بغير مرود، فإن مرود العين هو السيد، أي الشيخ، وإذا أقرك على ما تذكره و لم يحبسك عنه، فلا تتوقف ولا تقتصد

والمعنى: متى ذكرت الله تعالى دون استشارة شيخك، فكأنما تكحل عينيك بغير مرود، قال في لسان العرب: المرود: بكسر الميم، الميل الذي يكتحل به. انتهى

فاستشر شيخك فيما تذكر، حتى يدلك على ما ينفعك

ما دمت تخاف غير الله مازلت تشرك معاه
ما دمت تحب سواه كلها يغني على ليلاه

يقول: ما دمت تخاف غير الله، فذلك نوع من الشرك، ما دمت تحب سواه، فقد اتخذته إلهك من دون الله، فإذا كان محب الله تعالى يتوجه بكليته إلى مولاه، فأنت لا توجه لك سوى إلى ليلاك

والمعنى: قال الله تعالى: "والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب".[486]

وقال سبحانه: "الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وكفى بالله حسيبا".[487]

قلت: وقد ارتأينا أن نسوق ماذكرناه في كتابنا السوانح، في حقيقة الخوف وأنواع الخائفين، حتى نوفي الكلام حقه:

يقول أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه: أمر المولى عباده بالتوحيد، فقالوا: لا إله إلا الله، فظن منهم من ظن أن التوحيد عبادة الله وحده، فعبدوه ما استطاعوا، لكنهم سألوا غيره وتوكلوا على سواه، فأشركوا به في السؤال

---

[486] الرعد23

[487] الأحزاب39

والتوكل، وهم يعلمون أنه سبحانه قال: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مومنين".[488] وأن النبي ﷺ قال: "إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

فتبين من ذلك أن التوحيد لا يسعه علم العقائد وحده، وإنما هو التعامل مع الله تعالى كما أراد، وإخلاص التوجه له وحده، وتخليص الرجاء واستشراف الحي الذي لا يموت، ومراقبته في السر والعلن، والإستخفاء منه وحده، والخوف منه لا من سواه

لا تخش غير الواحد الأحد

وقد خوف الباري عز وجل عبيده بما يخافون، حتى يردعهم عن سبيل الضلال.

فالعبيد هم المستضعفون، والله الجبار، هم المقهورون على أمورهم وهو القهار، هم المسترسلون وهو القابض، هم المستكبرون وهو الخافض، هم المتعززون وهو المذل، هم الصاغرون وهو العظيم، هم الناكثون وهو الحسيب، هم الغافلون وهو الرقيب، هم المقصرون وهو الوكيل، هم الواهنون وهو القوي، هم المتهالكون وهو المتين، هم الطاغون وهو المحصي، هم المؤملون وهو المميت، هم العاجزون وهو القادر، هم المعتدون وهو المنتقم، هم المملوكون وهو مالك الملك، هم الطامعون وهو المانع، وهم الشاكون وهو الضار

تلك صفات الخوف تخوف عباد الرحمن، ومتى خافوا عرفوه بها، إذ لا يعرف بغيرها، ومن عرفه بغيرها لم يقدر قدره.

وإن سألتني أيها الرفيق: كيف تعرف صفاته؟ قلت: لا تعرف بقراءة الصحف والصحائف، فدونك وعلم الأوراق، فلن تبلغ منه شيئا، وإنما تعرفها إذا أذعنت لصاحبها وسألته سؤال الراغب الملح كي يعرفك بها، ولا تنس أن تطلب اللطف مع التعريف، حتى لا تقهر فتتقهقر عنها، فإن كنت ذلك الرجل، حيث أظنك، فاقدم علينا من الباب، ولا تناد من وراء الحجرات، وإن كنت من المدعين، فلا تسأل ما لا طاقة لك به فتكون من النادمين.

على أعتابنا يقف الفارون إلى ربهم من وهج ما صنعت أيديهم، "حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم".[489]

---

[488] المائدة25

[489] التوبة119

على أعتابنا يقف النادمون؛ ومن ترفع عن الوقوف واستعجل الديار، فما له عندنا من أخبار حتى يدع التنطع والإصرار.

اذهب يا زيد ولا تتربع علينا ولا زال فيك من الدنيا بقية، فما لك عندنا من مرام، اذهب يا زيد والعب النرد وعد مهاويك وأحسن العد، فوالله ما ينساك الواحد الأحد؛ حتى إذا قنعت من التموج في من يموج، ومللت غانيات المروج، وضقت ذرعا بكل ما يروج، فادلف إلى بابنا فإنه لا يوصد في وجه أحد.

إذا أتيت وما همك سوى فضول الآتي، فإتيانك غير موات، وقد تؤتى من حيث لا تحتسب، فأبعد عن العرين حتى تلين، وإذا لم تبعد وبقيت على صلابتك كسرناك بجناح الرحمة، وإذا لم تبعد وبقيت على جهالتك حضناك حتى كدت تقضي حضينا، وإذا بقيت على غوايتك أغويناك بملامتك، وجاريناك في ضلالتك، وأجريناك ضمن من أجرينا من أهل بطانتك حتى تسلم تسليما، فإن لم تسلم لم ندعك لنفسك، بل أذقناك مما هيأ لنا المولى من كؤوس الزعاف، حتى لا يبقى لك عن التسليم مفر؛ فإذا أسلمت سلمناك لقوافل السالكين، وأركبناك الركب المتين، وأمرنا أحد الحادين يحدو، ومتى حدا وسمعته يغشاك الحنين، فتفيض عيناك، ثم ننساك حتى حين.

أيها العابدون الله وحده، الموحدون غيره، ما لكم من الأمر شيء، "إن الامر كله لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون".[490]

سأدلك أيها الرفيق على كيف تعرف صفات القهر: أسلم نفسك للقهار وارتج أن يعرفك بما طلبت، ضع الحبل على الغارب وارض بالمكاتيب مادام الله الكاتب، لا تفرح بالنعم ولا تحزن عند المصائب، اقرأ في صحف البلاء فسوف يعرضها عليك بكرة وأصيلا، وافهم ما تقول، ستلقى معاني كتبت بمداد الخوف والحرمان، بقلم قد من صولجان، وإذا خفي عنك ما تقول، فاسأل من يصول فيها ويجول، أولئك خبراء الصفات، يؤولون المعاني إذا تعلقت بالذات، ويذلون كل جبار عات، ولا ينبيك غير خبير.

عرفنا خوفه فأمنا، وكلما زدنا معرفة كان لنا من الأمن زيادة، وما فتئ الأمن يزيد حتى صار غفلة، فأصبحنا من الغافلين، وظنناه أرادنا بما نحن عليه، فتكلمنا كلام الأمن، فاستكانت قلوب السامعين، وأصبحنا مبشرين، ولولا أن كنا من المسبحين لنسينا مع من نسي، ولكننا كنا نناجيه ونسأله بالليل هل نحن مفلحون، ولما راق الكاس وشعشعت الشمول، ولعبت الحميا بالراس، وصار المعقول غير معقول، أخذنا من الكشف نصيبا، وزاد شربنا في الكأس شيئا عجيبا، فلم ندر ما نقول؛ سكرنا بالمحبة، واستوت لدينا الدهور بمعتقة عبر العصور، تمور في الوجدان مورا، وتدور بالأكوان ألف مرة.

---

[490] يوسف40

نادمنا في ليالي القدر أقواما يذكرون الله بالتغني، لا يعرفون الطلب والتمني، فأمدونا في ليل بلا قمر بما عزب عن كل البشر، حتى صار علمنا بحرا بلا ساحل، تتيه فيه المراكب وينخلع من موجه قلب الراكب؛ وضج الراس بما عرف من أسرار لا حاجة لنا بها، وعرفنا أننا أمعنا في السياحة والإبحار، فندمنا على كشف الستار، واشتقنا للنظر بعد الإبصار، فتضرعنا إليه كي يحجب عنا الملكوت، وينسينا ما عرفنا من نعوت، ولجأنا إليه نسأله العافية والناس في فراشها لا هي، سائمة ساهية، فأدركنا برحمته وغمرنا برأفته، ورأى من حالنا أن سلكنا وحدنا حين غاب عنا بعض من سبقنا للطريق، وقبل توبتنا في ليلة لا تليق، فعدنا سالمين آيبين تائبين عابدين لربنا حامدين؛ ابتدأنا بالخوف حتى لا نعيد الكرة، وخوفنا أكثر من مرة، حتى أوجست النفس وانزعج الخاطر فترة بعد فترة، ثم قال: هل خفتني؟ قلت: خفتك، قال: عرفتني؟ قلت: أنت الجبار، هل أمنتني؟ كيف آمن مكرك وأنت خير الماكرين؟

ما بال عبدك لما رجع إليك كي تلقاه بالرأفة أمته اثنتين ثم بعثته، فلما حيي اشتاق إلى موته؟ القهر منك يا قهار فتت ما تبقى من أمني، وخفف عني أحمالا وأثقل علي أحمالا، فإذا المعارف غير المعارف، وإذا الدمع في العين ذارف، ليس من حر الجوى، ولكن من هول المخاوف.

ها أنا يا خليل فيما كتبت لي من أمور يشيب لها الولدان راض على الأحزان، لا تهمني أوصالي ما رجفت لما حل بي من أكدار، في زمن ليس مثله في الأزمان؛ الإضطرار طرق ساحة عبدك لما ألجأته إليك فدعاك، وما للعبد من يخرجه من قهرك غيرك يا قهار.

لا إله إلا هو، عرشه على الماء، والثمانية يحملون العرش ومن حوله، هم عند ربك أدرى من غيرهم بجبروته، وإلا فما استغفارهم للمومنين؟ لا إله إلا هو، ما اتخذ من صاحبة ولا ولد، المهيمن أحاط بسرائر ما خلق، ما خلقهم عبثا، أحسن صنع كل شيء وكل شيء أنزله بمقدار، لا مفر من الله إلا إليه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ترى تنساني فيما صنعت يدي، بعدما صنعتني من عجل؟ ترى تدركني يا وكيل إذا همت و لم أدر ما العمل؟

من لي غيرك يا مولاي إذا دارت بي دوائر لا منجي منها متى دارت سواك؟ ألا يكفيك أني عرفت معاني الخوف حتى تعيده علي؟ متى تعفيني يا عفو وتردني إلى شيء من أمني؟ متى تصفح عن عبدك فإن عقابه لا يغني؟ ما حاجتك لتخويفي سوى أن تتعرف إلي وقد عرفتك فما فتئت لا أخاف؟

سأرش بالخوف ما أبلغ من رسالات للآمنين، وأوحدك كما تشاء، وأجمع على وحدتك المشركين، وأحكي جبروتك لكل ختال كفور، وأتغنى بما انتابني في ساعات الجهد والأهوال، من مخاوف، في تيه ودلال

بما عزفت الأملاك على أوتار القربى، لما طالعتها على حين غرة في عرفات بات فيها الحجيج، جذبنا على أنغامها جذبا، وبما ألهب الشوق وزاد الأجيج من روائع من ذي الجلال، أذهلت رائعات الملائك أولي أجنحة

تحوم بالبيت، في عرض بحار راكدات لا تهيج؛ بواحد تجلى للعاشقين، كل على هواه، في سماء ما لها من فروج، بما زارني في ظلمة أضاءت ما استتر من دياجير غياباتي وأضحى يروج، بما سقت وساقني من حيث لا أدري إلى عالم عز منه الخروج، عجزت عن حمد من أولاني بما أولى به من ساروا في صفاء، لا يهمهم من علا الران ما شيد على رمال، سرعان ما يتهاوى ما حق الحق من بروج

أنواع الخوف:[491]

الأول: خوف عاملون راكعون ساجدون، يتقون بابتتالهم وامتثالهم حر جهنم، دفعهم خوفهم منها إلى القيام بأمر الله والوقوف عند نهيه، يخشعون ويبكون خوفا من أن يردوها، وقد قرؤوا وسمعوا عنها ما يدفعهم للخوف وأخذ الحذر، أولئك خوف النار، أمرهم الله بالخوف فعملوا بأمره، وفهموا ما يقتضيه الخوف، فأطاعوا السيد كي لا يعذبهم، فيسلموا وينجوا من لفحها

لله يا الكاويات،لهيبها شاعل في احداقي،مالو من راقي.حروق شاوية على وجوه الحسان،والغيد نارها في الجيد،زينها قبحو في العيان،عاد فريد.قيود في معاصم،مدى لبست من سوار،صوابع عزفت عالاوتار،ماعادت باهية،زينها طار،خوف ؤ روايع،صروف ؤ صراخ ولا احد سامع،ملوك سيفها بتار،تقمع خلايق بمقامع النار،ما فيهم رحمه ولا يشفقوا على بشار،مايسخاوا بعذاب من خفت موازنو،ليل ولا نهار،سوى ياذن بالرحمة مولاي،الوحيد القهار

عنيتك يا الكاديات، يوم مالو ثاني
نار واكدة شرارها فى اعلالي
قومان تصيح فى ازوابي وتعاني
وثاقها سلاسل وغلالي
ترى زادي يرجح فى الميزان؟

ومالك آمالك على باب الاهوال
وضعك المولى فى اعوافي
حارس شرار على باب الدار
ما تصفح ولا تعافي
بالقدرة ما تمسك نيران؟

[491] الخوف، برفع الخاء، وتشديد الواو المفتوحة، أي الخائفين

خوفي من يوم الحر لا نخيب
نصلى فى شر اعمالي
نار شاعلة ولهيب
لا صديق ولا قريب يوالي
ولا حد بان من الاخوان

والني والني يا الخافي لا تنساني
انت لي بريتيني فى اعجالة
ما ضرك ما سويت وانا جاني
فوت عذابي لا تواخذني بزلاله
علاه ما انت رحمن؟

لا تجدهم إلا سائلين عما يرضي الله عز وجل ليفعلوه، وعما يغضبه ليجتنبوه، هم في حالة استنفار، ومتى أذنبوا أكثروا من الإستغفار، حازوا الورع والتقوى، رضي الله عنهم ورضوا عنه.
لهم نصيب من الخشوع، متى قرأوا في صلاقم بآي الترهيب بكوا وطلبو النجاة، ومتى قرأوا بآي الترغيب استبشروا وطلبو الفوز والفلاح.
ذلك مبلغ علمهم، منهم من لا يزيد عن حاله مهما علمته، إذ قصر فهمه عن إدراك ما هو أسمى من ذلك.
يعمرون مساجد الله تعالى، وينصرون دينه، لا حرج عليهم، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.
الثاني: خوف خافوا الله ليس لناره فحسب، بل لمعرفتهم بصفاته، حذروا الملامة والأذية منه في الدنيا والآخرة، بما علموا أن الله تعالى قد يعجل العقاب في الدنية قبل الآتية، فسلكوا سبيل السلامة حتى لا يصيبهم الله تعالى بمكروه، فكانوا أرقى مترلة من خوف النار، إذ لم يقفوا على آيات الوعد والوعيد وحدها، بل وقفوا حتى عند ظهور الحق بالقوة والجبروت، فجمعوا بذاك بين الحسنيين ووفقوا بين الأمرين، فكانوا أقرب إلى رهم وأعرف به من الطائفة الأولى.
وهؤلاء يتذاكرون في الله وفي الآخرة، وقد تجد في مجالسهم قسطا من المعرفة، لا تجده في مجالس الصنف الأول من الخوف، أولئك يدخلون في سلك العارفين.

الثالث: خوف أمعنوا في معرفته بتوفيق منه تعالى، إما بملازمة شيوخ الطريق، وإما بما أمد الله قلوبهم من أمداد المعارف، فغلبت محبته سبحانه على عوالمهم وكلفوا بذكر الحبيب، حتى لم يبق في قلوبهم لغيره نصيب، أحبهم المولى فأحبتهم الأكوان، ونشر لهم بساط المحبة والوداد بين العباد، لا يكاد أحد يراهم إلا أحبهم، ولا يبغضهم سوى من حرمه الله تعالى سكينة الإيمان، لا يراعون لمن آذاهم ولم يوقر حرماتهم، إذ هم عن الناس بالله؛ لا تسع قلوبهم نشوة القربى، ولا تتحمل أبدانهم غمرة الفرح التي أورثوها بفضل الله ومنته، تراهم لا يفترون عن ذكر الجليل أينما حلوا وارتحلوا، لا يغيب عنهم الباري عز وجل طرفة عين، تنعموا قبل النعيم في أرض البلاء، دون الناس أجمعين، لا يستشرفون الجنة استشراف الناس لها، ويخافون النار أشد من خوف الناس منها.

ما زادت معرفتهم بعظمة الله تعالى وجبروته إلا ازدادوا ذلا وخضوعا، واقفون على الأعراف، تعرفهم بسيماهم بين نار الخوف وجنة الرجاء، لا يأمنون مكر الله تعالى، ولا يقنطون من رحمته؛ من صفاتهم:

- لا يتكلمون إلا قليلا، وإذا تكلموا أصابوا شغاف القلوب، وأذابوا من الصلد ما لا يذوب، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

- يحقرون أعمالهم مهما ربت، ويخافون ألا يخلصوا فيها لله تعالى، فيردها عليهم، ويكتمون حسناتهم كما يكتمون سيئاتهم.

- لا يرون لأنفسهم فضلا على الناس، بل يوقرون خلق الله عز وجل، ويخدمونهم ويدعون لهم بالهداية والخير

- حلماء يغفرون لمن آذاهم، ويدعون الله تعالى له بالهداية.

- زينهم بأنواره وأضفى عليهم وقار الملوك رغم ذلهم له، فعزوا مهما كان شأنهم بين الناس، فلا الجاه يرفعهم، ولا المال يطغيهم، ولا النسيان يغمرهم، ولا الفقر يسخطهم.

- راضون بما صرفهم المولى فيه، وبما صرف المولى عليهم؛ لا يضجرون ولا يغضبون ولا ينتصرون، بل تركوا الأمر لله يفعل ما يريد.

- أعطوا لكل ذي حق حقه، ولم يلحوا في طلب حقوقهم مهما سلبت، إذ هم بالمولى في عز وغنى وبالمعطي في قناعة ورضا.

من جالسهم غفر له، متى ضام انفرج، ومتى أظلم انبلج، ومتى ابتأس ابتهج، ومتى انحرف انتهج

هم مصابيح الأمة، يستقون من مشكاة النور، لا يخبو نورهم، ولا ينتهي حبورهم، ولا تفرغ من القاصدين دورهم.

- لا يضيقون ذرعا بسائل أو بضيف، ولا يردون الآتي في مشتاة أو في صيف

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى: إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، قلوبهم محزونة وسرائرهم مأمونة، حوائجهم خفيفة وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصارا لعقب

راحة طويلة؛ أما الليل فصافون أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربنا، ربنا، وأما النهار فحكماء علماء أتقياء، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، أو خولطوا، وقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم. انتهى[492]

ويقول الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى: الأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى: قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار، فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى، لما رأى عليهم من آثار الملكوت، والقلب معدن هذه الأشياء ومستقر النور؛ فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدى إلى الوجه ذلك النور، فإذا وقع بصرك عليه ذكرك التقوى ووقع عليك منه مهابة الصلاح والعلم بأمور الله تعالى، ومتى كان على القلب نور سلطان الحق ذكرك الصدق والحق، ووقع عليك مهابة الحق والاستقامة، وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله، ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه، وإذا كان على القلب نوره، وهو نور الأنوار، بهتك رؤيته. انتهى من المرجع نفسه. تم ما نقلناه من السوانح

وروى ابن خلكان عن رابعة العدوية قال: وكانت إذا جن عليها الليل قامت إلى سطح لها ثم نادت: إلهي، هدأت الأصوات وسكنت الحركات، وخلا كل حبيب بحبيبه، وقد خلوت بك أيها المحبوب، فاجعل خلوتي منك في هذه الليلة عتقي من النار. انتهى[493]

ولقي سفيان الثوري رابعة وكانت زرية الحال، فقال لها: يا أم عمرو، أرى حالا رثة، فلو أتيت جارك فلانا لغير بعض ما أرى؟ فقالت له: يا سفيان وما ترى من سوء حالي؟ ألست على الإسلام؟ فهو العز الذي لا ذل معه، والغنى الذي لا فقر معه، والأنس الذي لا وحشة معه، والله إني لأستحيي أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟ فقام سفيان وهو يقول: ما سمعت مثل هذا الكلام. وقالت رابعة لسفيان: إنما أنت أيام معدودة، فإذا ذهب يوم ذهب بعضك، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم، فاعمل. انتهى[494]

قال تعالى: "ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، والذين آمنوا أشد حبا لله".[495]

قالت رحمها الله تعالى:

---

[492] ملحق تاريخي بالختم

[493] وفيات الأعيان

[494] وفيات الأعيان

[495] البقرة164

أحبك حبين حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لله الحمد في ذا وذاك.[496]

ما دمت تطمع في الناس لا زلت في طريق الافلاس

يحوجك لموسى وعباس حتى يخذلوك بلا فياس

يقول: ما دمت تطمع فيما في أيدي الناس، فلا زلت في طريق الإفلاس، سيعاقبك الله تعالى بأن يحوجك إلى ما في أيديهم، فتقف على أبوابهم وتسألهم وتستجديهم، فيخذلونك ويذلونك وتنقلب خائبا

وقوله: يحوجك لموسى وعباس، أي يحوجك إلى زيد وعمر، والمراد به الناس كافة

والمعنى: قال الله تعالى: "ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور".[497]

وقال سبحانه: "يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله، والله هو الغني".[498]

قال أبو الفتح: ما غني إلا الغني، إذ الغني: من لا يفتقر إلى غيره، وكل العالمين مفتقرون، فلا غني إلا الله، ولا استغناء إلا بالله

علمت أن الغنى له وحده، وأن خزائنه لا تنفذ، فطمعت فيما عنده

سألته فأعطاني، وسألته فأعطاني، ثم استحييت أن أسأله الثالثة، فلما قرأت قول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر".[499]

---

[496] رابعة العدوية مأمون غريب

[497] النور39

[498] فاطر15

[499] نص الحديث كاملا من صحيح مسلم: عن أبي ذر عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى، أنه قال: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا؛ يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفروني أغفر لكم؛ يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني؛ يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك

فبعد أن قرأت ذلك، سألت وسألت، فما برم بي، وما ردني خائبا ولو مرة واحدة

إذا ضاق الحال، وقل المال، وتكالبت الخطوب والأهوال، من لي أسأله غير ذي العزة والجلال؟

ألم يقل ربي: "وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان". [500]

كيف أترك القريب وأقصد البعيد؟

رجوت عفو الرحمن الرحيم، يغفر ما أرقني من ذنوب

رجوت العزيز الوهاب، يطلعني على ما عزب من غيوب

طمعت في الغني الكريم يطعمني ويسقين، يكسوني ويشفين، يعيذني ويكفين، من الأسقام والكروب

متى عولت على الخلق ألجأك إليهم، وأحوجك إلى ما في أيديهم، فاستجديتهم وردوك خائبا، وإذا أعطوك أذلوك بالمن والأذى

فاسأل الله تعالى أن يغنيك بفضله عمن سواه

وما ألجأك إلى الناس، إلا ليردوك فتيأس منهم، ويحصل لديك اليقين في الله، فتتوجه إليه وحده بالسؤال

النهي عن كثرة السؤال والطمع فيما في أيدي الناس

يقول الله تعالى: "للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا". [501]

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "ليس المسكين الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي ليس له غنى، ويستحيي، أولا يسأل الناس إلحافا". رواه البخاري

عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال: "يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله؛ واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا

في ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه".

قال سعيد: كان أبو إدريس الخولاني، إذا حدث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه. رواه مسلم

[500] البقرة185

[501] البقرة272

بشيء قد كتبه الله عليك؛ رفعت الأقلام وجفت الصحف". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن محمد بن عيينة عن أبي حازم قال مرة: عن ابن عمر، وقال مرة: عن سهل بن سعد قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: "يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به"؛ ثم قال: "يا محمد، شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس". رواه الحاكم في مستدركه

عن سعد بن عمار، أخي بني سعد بن بكر، وكانت له صحبة، أن رجلا قال له: عظني في نفسي يرحمك الله، قال: إذا أنت قمت إلى الصلاة، فأسبغ الوضوء، فإنه لا صلاة لمن لا وضوء له، ولا إيمان لمن لا صلاة له، ثم قال: إذا أنت صليت، فصل صلاة مودع، واترك طلب كثير من الحاجات، فإنه فقر حاضر، واجمع اليأس مما في أيدي الناس، فإنه هو الغنى، وانظر إلى ما تعتذر منه من القول والفعل، فاجتنبه. رواه الطبراني في الكبير

عن الشعبي: حدثني كاتب المغيرة بن شعبة قال: كتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة: أن اكتب إلي بشيء سمعته من النبي ﷺ، فكتب إليه: سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وإضاعة المال وكثرة السؤال". رواه البخاري

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "لأن يأخذ أحدكم حبله، ثم يغدو"، أحسبه قال: "إلى الجبل، فيحتطب، فيبيع، فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس". رواه البخاري

وعن أنس بن مالك، أن رجلا من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله فقال: "أما في بيتك شيء؟" قال: بلى، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء، قال: "ائتني بهما"، قال: فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: "من يشتري هذين؟" قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: "من يزيد على درهم؟" مرتين أو ثلاثا، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال: "اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدوما فأتني به"، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودا بيده ثم قال له: "اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوما"، فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبا وببعضها طعاما، فقال رسول الله ﷺ: "هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غرم مفظع، أو لذي دم موجع". رواه أبو داود

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: "يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى". قال حكيم: فقلت: يا

رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدا بعدك شيئا، حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيما إلى العطاء، فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي. رواه البخاري

يقول ابن عطاء الله السكندري: ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام، لما قال له ربه أسلم، قال: "**أسلمت لرب العالمين**".[502] فلما زج به في المنجنيق استغاثت الملائكة قائلة: يا ربنا، هذا خليلك قد نزل به ما أنت أعلم، فقال الحق سبحانه وتعالى: "اذهب إليه يا جبريل، فإن استغاث بك فأغثه، وإلا فاتركني وخليلي". فلما جاءه جبرائيل عليه السلام في أفق الهواء قال: ألك حاجة؟

قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله، فبلى.

قال: فاسأله، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي.

فلم يستنصر بغير الله، ولا جنحت همته بغير الله، بل استسلم لحكم الله مكتفيا بتدبير الله له عن تدبيره لنفسه، وبرعاية الحق له عن رعايته لها، وبعلم الحق سبحانه، عن سؤاله، علما منه، أن الحق به لطيف في جميع أحواله، فأثنى الله تعالى عليه بقوله: "**وإبراهيم الذي وفى**".[503] ونجاه من النار، فقال تعالى: "**قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم**".[504] قال أهل العلم: لو لم يقل الحق سبحانه: "**وسلاما**" لأهلكه بردها، فخمدت تلك النار. وقال أهل العلم بأخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: لم يبق ذلك الوقت نار بمشارق الأرض ولا بمغاربها إلا خمدت، ظانة أنها المعنية بالخطاب. فقيل: إنه لم تحرق النار منه إلا قيده. انتهى[505]

الحكمة من تسليط الناس على عباده الصالحين

وإذا أراد الله بك خيرا، سلط عليك الناس يؤذونك وينتقصون منك، ويردون خيرك شرا، حتى لا تلجأ سوى إليه وحده

قال في الحكم: متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك، فإن كان لا يقنعك علمه فيك، فمصيبتك بعدم قناعتك بعلمه، أشد من مصيبتك بوجود الأذى منهم. انتهى

---

[502] البقرة130

[503] النجم36

[504] الأنبياء68

[505] التنوير في إسقاط التدبير

قال ابن عجيبة: قال في لطائف المنن: اعلم أن أولياء الله تعالى، حكمهم في بدايتهم، أن يسلط الخلق عليهم ليتطهروا من البقايا، وتكمل فيهم المزايا، وكي لا يساكنوا هذا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد، ومن آذاك، فقد أعتقك من رق إحسانه، ومن أحسن إليك، فقد استرقك بوجود امتنانه. ولذلك قال ﷺ: "من أسدى إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تقدروا، فادعوا له". كل ذلك ليتخلص القلب من رق إحسان الخلق ويتعلق بالملك الحق. ثم قال: وقال الشيخ أبو الحسن: اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك، خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله، خير من حبيب يقطعك عن الله؛ وعد إقبالهم عليك ليلا، وإدبارهم عنك نهارا، ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا. قال: وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدإ طريقهم سنة الله في أحبائه وأصفيائه. قال الشيخ أبو الحسن في حزبه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا. ثم قال: ومما يدلك على أن هذه سنة الله في أحبائه وأصفيائه، قوله تعالى: "وزلزلوا حتى يقول الرسول الآية"،[506] وغير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. انتهى وقال بعض العارفين: ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في موطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه، لهلكت، فأزعجها عن ذلك بما سلط عليها من أذى المؤذيين ومعارضة الجاحدين. وفي هذا المعنى قيل:

عداتي لهم فضل علي ومنة فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا

فهم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فارتكبت المعاليا

وقال بعضهم: النصيحة من العدو سوط من الله، يرد بها القلوب إذا سكنت إلى غيره، وإلا رقد القلب في ظل العز والجاه، وهو حجاب عن الله تعالى عظيم. وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: آذاني إنسان مرة، فضقت ذرعا بذلك، فنمت فرأيت يقال لي: من علامة الصديقية كثرة أعدائها، ثم لا يبالي بهم. انتهى

إذا تقرر هذا، علمت أن إذايه الخلق للولى، سنة ماضية، يعني سنة أنبياء الله ورسله، فلن تجد لسنة الله تبديلا، وانظر أحوال نبينا عليه الصلاة والسلام، ما رأى مع قريش وبني وائل، مكث معهم بعد النبوة التي هي محل الأذى من الخلق، ثلاثة عشرة سنة،كلها جلال وشدة وبلاء، وحين انتقل إلى المدينة، لم تكن له راحة، بين جهاد وتعليم ومعاناة أحبار يهود بالأذية والتشغيب، حتى لقي الله ﷺ وشرف وكرم ومجد وعظم، وكذلك أصحابه معه بعده، لم تكن لهم راحة، وجلهم ماتوا مقتولين: فقد مات الصديق مسموما، ومات الفاروق مقتلا، وعثمان مذبوحا، وسيدنا علي مضروبا بالسهم مسموما حتى مات، والحسن مسموما، والحسين مقتولا، حتى لعبوا برأسه بالشام، ثم دفن بمصر، فداه بعض الملوك ودفنه بمصر، وهو مزار الحسين المشهور عندهم. ثم ما لا يحصى، وقد سعي بالجنيد وأصحابه للسلطان، وأتى بهم للسيف، ثم لطف الله بهم، وقصتهم: أن فقهاء

[506] البقرة212

بغداد، قالوا للمتوكل أن الجنيد، قد تزندق هو وأصحابه، فقال لهم الملك، وكان يميل إلى الجنيد: يا أعداء الله، ما أردتم إلا أن تفنوا أولياء الله من الأرض، واحدا بعد واحد، قتلتم الحلاج، وأنتم ترون له كل يوم عبارة، ولا تزدجرون، وهذا الجنيد، لا سبيل لكم إليه حتى تغلبوه بالحجة، فاجمعوا له الفقهاء، واعملوا له مجلسا، فإن أنتم غلبتموه وشهد الناس بأنكم غالبون عليه، قتلته، وإن هو غلبكم، والله لأمشين عليكم بالسيف، حتى لا نبقي منكم أحدا على الأرض. قالوا: نعم. فجمعوا له الفقهاء من الشام واليمن والعراق والأمصار، فلما اجتمع الفقهاء في ذلك، حتى لم يبق في الجوانب الأربع من يعرف مسألة في دينه إلا حضر. فلما اجتمع الفقهاء في المجلس، بعث الملك إليه، فأتى هو وأصحابه إلى باب القصر، فدخل الجنيد، وترك أصحابه، وأدى حق الخليفة، يعني من التعظيم، وقعد، فقام إليه أحد الفقهاء يسأله في مسألة، فسمعه القاضي علي بن أبي ثور، فقال لهم: تسألون الجنيد؟ فقالوا: نعم، فقال لهم: أفيكم من هو أفقه منه؟ فقالوا: لا، فقال: يا عجبا، هو أفقه منكم في علمكم، وقد تفقه في علم تنكرونه عليه؟ يعني، ولا تعرفونه، فكيف تسألون رجلا لا تدرون ما يقول؟ فبهت القوم وسكتوا زمانا. انتهى[507]

وانظر أيضا، قضية القطب الشهير، شيخ أشياخنا، الشيخ ابن مشيش، فقد مات مقتولا كما هو معلوم، وكذلك قضية تلميذه مع القاضي ابن البراء، حيث أخرجه من تونس، وكتب به إلى عامل مصر، وعمل به بينة، أنه مشوش، وأنه يطلب الملك، فانتصر الله له، كما هو شأنه سبحانه من انتصاره لأوليائه.

وكذلك قضية الغزواني، فإنه لما كملت تربيته، وظهر رشده، أرسله شيخه، الشيخ التباع، يعمر بلده، فسكن بني زروال، جوار ضريح الشيخ ابن مشيش، فلما عمر سوقه، وانكبت عليه المخلوقات، سعي به إلى السلطان المريني، فأرسل إليه الحرس، وأطلعوه مكبلا إل الرايش، لأن السلطان كان ثم نازلا، ثم أرسل به إلى فاس، فسجن أربعة أشهر أو سنة، حتى قدم السلطان إلى فاس، فأطلقه وشرط عليه السكنى معه بفاس، فسكن معه، فلما قرب انقراض مدة المرينيين، خرج إلى مراكش، وقال: ذهبت دولة بني مرين، وبقي بمراكش حتى توفي رضي الله عنه. وذكر التجيبي أن الشبلي، رفع إلى السلطان، وأرهج أبو يزيد من مدينة بسطام مرارا. وهذا أمر شهير.

قال بعض الحكماء: إذا أراد الله ظهور الحق، جعل من خلقه من يعانده ويريد إخماده، فيكون ذلك سببا لظهوره وإيضاحه. ولذلك سلط الله على كل نبي عدوا من المجرمين، وعلى الأولياء كذلك.

وأنشدوا:

---

[507] إيقاظ الهمم

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود.[508]

سيدي أبو العباس أحمد التجاني[509] وما افتراء عليه صاحب الترجمانة الكبرى

قال أبو الفتح: ولا يخفى ما تعرض له الشيخ أبو العباس أحمد التجاني رحمه الله تعالى، من محن في المغرب الأوسط، وهجرته إلى المغرب الأقصى حيث ضيق عليه الفقهاء ووشوا به عند السلطان فنصره الله عليهم وانقلبوا صاغرين

وعلى رأس من عاداه منهم المؤرخ أبو القاسم الزياني رحمه الله تعالى، صاحب كتاب الترجمانة، فقد قرأت في كتابه، ما قاله فيه، مما لا يليق بمثله أن يقوله في أمثال هذا الشيخ الذي اجتمع عليه الناس، ونشر دين الإسلام في بلاد الشرك، وخرجت طريقته أولياء واصلين، واتسم أتباعه بكثرة الأذكار ومداومة الصلاة والتسليم على النبي المختار ﷺ

---

[508] المرجع نفسه

509 ولد رضي الله عنه سنة خمسين ومائة وألف، على ما حدثني هو بنفسه رضي الله عنه، بعين ماضي، وهي بلده ومقر أسلافه رضي الله عنه وعنهم على ما تقدم في الفصل الأول. وهو أوسط الأبناء لأمه وأبيه، والآخذ كل ما لهم من الفخار والتتريه، وخاتمة مجدهم، وواسطة عقدهم، الذي شرف به طالعهم السعيد، واستمر به مددهم المديد، ختم الله به من نظامهم سلكا، وجعل ختامه مسكا. انتهى

وأما بدايته رضي الله عنه في الطريق، وكيفية أخذه إياها على التحقيق، فإنه لما توفي والده رحمه الله تعالى، بقي على حاله من قراءة العلم وتدريسه، والتقاط درره وتدوينه في بلدة عين ماضي، ثم ارتحل إلى ناحية الغرب لفاس وأحوازها سنة إحدى وسبعين ومائة وألف، سمع فيها شيئا من الحديث، وبقي يجول بقصد الزيارة والبحث عن أهل الخير والصلاح، والدين والفلاح، فلقي رجلا بجبل الزبيب من أهل الكشف، فأشار له بالرجوع إلى بلده وأخبره بأنه سيكون من أمره ما هو بصدده، فلم يلبث حتى رجع لبلده سريعا، وخرج قاصدا البلد الأبيض في ناحية الصحراء التي بها ضريح الولي الكبير، والقطب الشهير، سيدي عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ، فمكث هناك خمسة أعوام للقراءة، والعبادة والتدريس والتلاوة، في هذه المدة وصل إلى بلده عين ماضي تصديقا لما أخبره به الولي المتقدم، ورجع إلى مكانه بزاوية الشيخ المذكور، ثم ارتحل منها إلى تلمسان، وأقام بها للزهادة والعبادة، والتدريس لعلم الحديث والتفسير والإفادة، حتى ألهم سيدنا ما ألهم، ووقر في صدره ما وقر، وظهر له ما ظهر، مع ما أهله الله إليه بسابق عنايته، وفيض كرامته، فنفض يديه مما لديه، وتعلقت همته العلية بالله والإنحياش إليه، والوقوف ببابه والعكوف عليه. انتهى من جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيدي أبي العباس التجاني

وقد ارتأيت أن أورد بعض ما قاله الزياني، حتى يعرفه القارئ ويدرك مدى فداحته وبعده عن سمت العلماء الأجلاء، يقول رحمه الله تعالى: ولما استقرت به الدار، اجتمعت عليه طائفة أخرى من الأشرار، وتسمت هذه الطائفة باسمه الخسيس، واشتهر شهرة إبليس، وهو أحمد تجين، هو وطائفته في سجين، فأظهر ما كان منطويا عليه من البدعة، وهو يزداد عندهم بذلك رفعة، ولما سمع بمقالته الأشرار، وجملة من أهل اليسار، انكبوا عليه أنكبابهم معه في النار، ففرض لهم الفرائض وسن لهم السنن، والبدعة تتزايد منه وتتكون، فأول ما قال لهم: اسمعوا كلامي وعوه، وكل ما تعرفونه قبلي دعوه، إني أرى رسول الله ﷺ في اليقظة لا في المنام، ويقول لي وأقول له ما يعرض لي من الكلام، ومن جملة ما قال لي: يا أحمد، اعلم أن كل من يبغضك أو يشتمك أو ينسب لك ما يسوءك، فإنه لا يموت على ملة الإسلام، وقال لي: إنك وأصحابك وطريقتك أفضل من وجد بعد الصحابة، ثم بعد مدة قال لهم أن رسول الله ﷺ، علمني صلاة قالها، وصلى عليه بها. خرج رسول الله ﷺ، من رمسه، وجاءه بسبب ذلك يزوره بنفسه، وإذا ذكرها جماعة منكم وأزالوا عنهم ثيابهم، ووضعوها بين أيديهم شبه القطينة، يأتي إليهم النبي زائرا ويجلس عليها بذاته الشريفة، وأنه ﷺ، أخبره بأن له ولأصحابه تقدما وشفوفا على كل حر وعبد وذكر وأنثى كبير وصغير، وأنه منذ عصر الصحابة لم يكن له نظير، وأن طريقته أفضل الطرق كلها على الإطلاق، والشمول والاستغراق، وأعطاها له رسول الله ﷺ منه إليه، وأن تلاميذه تلاميذ رسول الله ﷺ وفقراؤه، وأنه لم تكن هذه الطريقة لغيره إلى النفخ في الصور، وأن أصحابه عند الله ورسوله في الدنيا والآخرة في نعم وسرور، من فضل الله والعز الأكبر، والبرهان الساطع الأنور، وذلك أمر لا مطمع فيه لغير الصحابة من جميع الأولياء، حتى الأقطاب لا يلحقون مراتب أصحابه في الآخرة، وأنه لا يتأتى لطريقتي إلا التفرد بها، فمن ذكر ورد أحد من المشايخ مع وردي فهو خارج عن طريقتي المحمدية، وكل طرق المشايخ تدخل عليها طريقتي وتبطلها، ولا يخاف من ترك طريقة غيري لطريقتي في الدنيا ولا في الآخرة، ومن تعمد وأدخل طريقة أخرى على طريقتي حل به الهلاك في الدنيا والآخرة، ومن ترك طريقة غيري لأجل طريقتي فهو آمن في الدنيا والآخرة، قبحه الله وقبحهم أجمعين. انتهى[510]

قلت: فانظر رعاك الله، إلى ما أقدم عليه صاحب الترجمانة، من تجرئ على أصحاب الفضل والديانة، ولا تعجب مما جنح إليه، من سب وإهانة، في حق من فرغ لخدمة مولاه، وتفرغ لدعوة الناس إليه حتى يلقاه، أليس لم يدع نعتا مشينا إلا نعته، ولا فعلا مهينا إلا نسبه، ولا سجعا مبينا إلا كتبه؟ يظن أنه إذا تحامل على العارفين لن يساءل يوم الدين، وإذا تطاول على العالين يدرك رجلا في عليين، فما له تنازل أسفل سافلين؟

---

[510] الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا

فوالله ما زاد كلامه الشيخ إلا اشتهارا، وقد عاد ما افتراه عليه ذلة وصغارا، كيف وقد عادى وليا فآذنه الله بالحرب جهارا؟

ولعل الفقيه غار من اجتماع الناس على شخص أجمعوا على فضله، و لم يجتمعوا عليه رغم عقله ونقله، فما زاد الناس عنه إلا ابتعادا، وما زاد ازدحامهم على غريمه إلا اشتدادا، وما اعتد أحد بما افتراه اعتدادا، فخاب سعيه وبارت تجارته كسادا

فما كل من جاء بنبأ صادق، وما كل من هب ودب يسابق، وكيف للعصفور أن يحارب الباشق؟ وللأقزام مطاولة الشاهق، وهل رنة الدينار تحدثها الدوانق، وخبرة الأبرار يعرفها المماذق؟

فالله الله فيمن اتخذ علمه للنيل من الأحرار مطية، يطمع بذاك في الشهرة والنوال والعطية، يبيع دينه للأشرار أوقية أوقية، بالليل والنهار، حتى لا يبقي منه بقية

فانظر إلى ما انتشر من طريق الشيخ في المعمور، وما حملت الأسفار من سطور، وانظر إلى ما آل إليه غريمه المغمور، وأيهما أنار القلوب وشرح الصدور، تراه العالم المختال الجسور، أم الشيخ المهاب الوقور؟

فوالذي نفسي بيده، من رفعه الله ليس لأحد أن يخفضه، ومن أعزه الله ليس لأحد أن يذله، ومن حفظه الله ليس لأحد أن يضره

فيا ليت علمك عرفك قدر الكبار فأذعنت، ويا ليت فقهك أفتاك في مقاصد الأبرار فأحجمت، ويا ليت فهمك سلمك لأخذ العبرة والاعتبار فاعتبرت

فها قد أصبحت عرضة لسوء الدعوات، في حياتك ومماتك، وكتبت ما تندم عليه في صفحات، يشهد بتعديك وإذايتك، فما قولك إذا خشعت الأصوات في جنايتك وغوايتك؟

فاللهم اغفر للجاني ما جناه، فإن من شأن الإنسان أن يعادي من فاته في علمه وتقواه، ولا تواخذه بتلك الألفاظ والمباني، فإنما هي لغو لغاه

وأكرم الشيخ في قراك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، واذكره كما ذكرك، ودعاك ودعا إليك يوم البعث والمحشر، وابعثه نضر الوجه هناك، واجزه الجزاء الأوفر

وانشر صيته في الثقلين، واحفظ شيعته وأتباعه في المشرقين والمغربين، وانفعنا ببركاته في الدارين

الولايه سلوك ؤ جذبه　　　والي سالك والي مجذوب

كلها يودي للقربه　　　بها تصفا القلوب

طريقنا سالكه مهذبه　　　كالحجر كالطوب

على المجاهدة ما هي مدربه　　　لما يكويها الشوق تذوب

كيف النحل مع الازهار　　　يرشف بالرغبه رحيقو

كيف الليل مع النهار　　　كلها ساير في طريقو

شوق العاشق بلا شوار　　　لما يخطر عشيقو

قايم الليل بلا اخبار　　　والنهار ناشف ريقو

يقول: الولاية سلوك وجذب، والطريق إلى الله تعالى من أجل تهذيب النفوس وتصفية القلوب، تكون بالسلوك والجذب

فهناك وال سالك ووال مجذوب، وكلتا الطريقتين يقرب إلى الله تعالى، وتصفو بهما القلوب

وأما ما نحن عليه، فهو طريق سلوك، وليس طريق جذب، مع أننا لا نفرق بينهما، ونشهد بأن الإثنتين أشرقتا من مطلع واحد، فهما سيان كالحجر مع الطوب

إلا أن ما نحن عليه من سلوك إلى الباري عز وجل، لا يعرف التكلف والمجاهدة، ولكن متى كوتنا نار الشوق إلى الواحد الجليل، ذبنا بمحبته، وعبدناه سبحانه برغبة ومودة دون تكلف أو تصنع

ثم يضرب الشيخ مثلا لذلك، بالنحل مع الأزهار، يرشف رحيقها برغبة ونهم، ويستسيغه بلهفة وطلاوة؛ وضرب مثلا بالليل مع النهار، كلاهما سائر فيما يسر الله تعالى له، بتلقائية، دون تردد أو تلكئ

فكذلك العاشق، يهجم عليه الشوق دون مناسبة، ودون أن يشاوره، بمجرد خطور عشيقه، عند رؤيته له أو تذكره إياه، ومتى كان ذلك، دفعه الشوق إلى إرضائه والإذعان إليه دون تعب ومشقة، فإذا قام الليل، فعل ذلك اشتياقا للمثول بين يدي مولاه في تبتل وخشوع، لا يعلم بأمره أحد، وإذا صام النهار وجف ريقه، لم يضره ذلك، بل وجد فيه حلاوة الطاعة وروعة الإذعان للباري عز وجل.

والمعنى: قال الشيخ: حبيبي، أتكلف للقاك، وأعنت في ملقاك، ولا حبيب لي سواك؟ إن هو إلا الشوق جرى في عروقي وركب أوصالي، فلم أعد أقو على ألا أطيعك وأرضيك، بل صرت أجد في إطاعتك وإرضائك قرة عيني وبهجة نفسي، فحتى لو لم تأمرني أطعت، وحتى لو لم تنهني كففت. ما عادت شريعة الأمر والنهي بين

الأحباب قائمة، فإن أطاعوا، أطاعوا عن طواعية، وإن هموا بالعصيان لم يردعهم عن المعصية حر جهنم، وإنما ردعهم عدم تحملهم سخط الحبيب

هجم السرور علي حتى انه من فرط ما قد سرني أبكاني

يا عين صار الدمع فيك سجية تبكين من فرح ومن أحزان.

تعريف الولاية وشروطها

يقول الشيخ نجم الدين أربكان: الولاية على قسمين: عامة: وهي مشتركة بين جميع المؤمنين، كما قال تعالى: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور".(512) انتهى[513]

وخاصة: وهي مختصة بالواصلين إلى الله من أهل السلوك. انتهى(514)

ويقول الشيخ عبد الكريم الجيلي: الولاية على مراتب كثيرة، ويجمعها ثلاثة أنواع: ولاية صغرى وولاية مطلقة وولاية كبرى:

فالولاية الصغرى لها ألف درجة، أولها: الإيمان بالغيب، وآخرها: الفناء في شهود الله.

والولاية المطلقة لها ألف درجة، أولها: الفناء في الشهود، وآخرها: التحقق بالأوصاف الإلهية.

والولاية الكبرى لها ألف درجة، أولها: التحقق بالأوصاف الإلهية، وآخرها: مقام العجز، وفيه يتحقق العبد بالكمال المطلق. انتهى(515)

---

[511] البيتان من ألف ليلة وليلة

512- البقرة256 كستران

[513] كما أن لله تعالى أولياء من المؤمنين، فإن للشياطين، لعنهم الله تعالى أولياء من الذين لا يومنون

يقول الباري عز وجل في أوليائه: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، لا تبديل لكلمات الله، ذلك هو الفوز العظيم". يونس62-64

ويقول سبحانه في أولياء الشيطان، لعنه الله تعالى: "فقاتلوا أولياء الشيطان، إن كيد الشيطان كان ضعيفا". النساء75

وكما أن الله تعالى ولي الذين آمنوا، فالشياطين أولياء الذين لا يومنون

"والله ولي المومنين". آل عمران67

"إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يومنون". الأعراف26

514- الشيخ اسماعيل حقي البروسوي تفسير روح البيان. كستران

515- الشيخ قطب الدين البكري الدمشقي مخطوطة شرح ورد السحر الكبير. كستران

ويقول الشيخ الشعراني: لا طريق للولاية ظاهر حتى تطلب، إنما هي أخذة تأخذ العبد على أي حال كان، فتقلب عينه وليا خالصا في أسرع من لمح البصر، وهذا ليس للعبد فيه تعمل، لأنه من الوهب، لا من الكسب. انتهى[516]

ويقول الشيخ سعيد النورسي: إن سلوك طريق الولاية مع سهولته هو ذو مصاعب، ومع قصره فهو طويل جدا، ومع نفاسته وعلوه فهو محفوف بالمخاطر، ومع سعته ضيق جدا. انتهى[517]

ويقول الشيخ إسماعيل حقي البروسوي: لا يشترط في الولاية الكرامات الكونية، فإنها توجد في غير الملة الإسلامية، لكن يشترط فيها الكرامات القلبية، كالعلوم الإلهية والمعارف الربانية، فهاتان الكرامتان قد تجتمعان كما اجتمعتا في الشيخ عبد القادر الكيلاني، والشيخ أبي مدين المغربي قدس الله سرهما، فإنه لم يأت من أهل الشرق مثل عبد القادر في الخوارق، ومن أهل الغرب مثل أبي مدين، مع مالهما من العلوم والمعارف الكلية؛ وقد تفترقان، فتوجد الثانية دون الأولى، كما في أكثر الكمل من أهل الفناء. انتهى[518]

الولاية سلوك وجذب

قال أبو الفتح: قلت: قسم أولوا الشأن الأولياء إلى قسمين:

الولي السالك: وهو الذي يحفظ ظاهره بالتزام ما أمر به من آداب المعاملات وتكاليف العبادات وغيرها، مع أنه يشهد الله تعالى بباطنه

الولي المجذوب: وهو الذي لا يتحكم في ظاهره، ولكن يميل متى مال باطنه، ويغلب عليه الحال، وقد يخل بأوامر الشرع ومقتضيات الآداب، ويفرط في العبادات دون قصد

ولا عليه، ما دام مجذوبا لا حول له ولا قوة فيما يقول ويفعل، فهو في حكم المجنون، يرفع عنه القلم ما انتابه حاله، فلا يكتب عليه شيء، ولا يواخذ بشيء

وسمي المجذوب وليا، لما ظهر عليه من علامات الأولياء وسيمى الصالحين، في أقواله وتصرفاته، بل وبما شهد له به من خوارق وكرامات، تدل على أن له حالا مع الله

فمنهم مستجاب الدعوة، يلجأ إليه في النوائب والمهمات، فيدعو مولاه فيكشفها

ومنهم من أطلعه الله تعالى على بعض غيبه بمنه وكرمه

516- الشيخ كريم الدين البرموني كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادة الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر. كستران

517- الشيخ سعيد النورسي أنوار الحقيقة. كستران

518- الشيخ اسماعيل حقي البروسوي تفسير روح البيان. كستران

ومن يستشفى به

ومن لا يفتأ يذكر الناس بربهم جهرة، ويدعوهم إليه بمنطق حكيم وحكمة بالغة

إلا أننا لا نرى أن المجذوب من شأنه أن يسلك بالناس إلى ربهم، ويكون شيخا، بما تحمله الكلمة من معنى، لأن الإسلام قائم على الثبات والعلم، ولا يكون ذلك إلا للسالك على هدي رسول الله ﷺ وسنته.

الكلام على مبدإ المجاهدة عند الصوفية

وقد عرف المذهب الصوفي منذ بدء انتشاره في القرن الثاني الهجري، بميله عن سنة النبي ﷺ، بالتشدد في مجاهدة النفس وحرمانها مما أحل الله لها من طيبات

يقول أبو عثمان المغربي: من ظن أنه يفتح له شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن شيء منها، إلا بلزوم المجاهدة، فهو في غلط. انتهى[519]

فبالغ المتصوفة في المجاهدة، واعتقدوا أن الله تعالى لا يعرف إلا بلبس المرقعات ومداومة الجوع والعطش، ولو كان الأمر كذلك، لفعله سيدنا محمد ﷺ، فأوردوا في كتبهم من الأقوال والحكايات، ما لا يطيقه بشر، وقد قرأنا لهم عدة حكايات غريبة، نطلع القارئ الكريم على بعضها:

وقال إبراهيم الخواص: كنت في جبل اللكام، فرأيت رمانا فاشتهيته، فدنوت منه وأخذت منه واحدة، فشققتها فوجدتها حامضة، فمضيت وتركت الرمان، فرأيت رجلا مطروحا قد اجتمع عليه الزنابير، فقلت: السلام عليك، فقال: وعليك السلام يا إبراهيم، فقلت: كيف عرفتني؟ فقال: من عرف الله تعالى لا يخفى عليه شيء، فقلت: أرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يحميك ويقيك الأذى من هذه الزنابير؟ فقال: وأنا أرى لك حالا مع الله تعالى، فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان؟ فإن لدغ الرمان يجد الإنسان ألمه في الآخرة، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا. فتركته ومضيت. انتهى[520]

يقول السري: إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة، أن أغمس جزرة في دبس[521] فما أطعتها. انتهى[522]

---

[519] الرسالة القشيرية

[520] المرجع نفسه

[521] قلت: والجزة: صوف شاة في السنة، والمراد كسرة خبز ونحوها، والدبس: عسل التمر وعصارته

[522] الرسالة القشيرية

وسئل السري عن الصبر، فأخذ يتكلم فيه، فدبت على رجله عقرب، وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة، وهو ساكن لا يتحرك، فقيل له: لماذا لم تبعد العقرب عن رجلك؟ قال: استحييت من الله تعالى أن أتكلم في الصبر ولم أصبر. انتهى[523]

قلت: لاشك في أن رسول الله ﷺ، لم يفهم الصبر بأنه أن يلقي المرء بأيديه إلى التهلكة، كيف وقد أمر ﷺ بقتل السم ولو في الصلاة؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "اقتلوا الأسودين في الصلاة، الحية والعقرب". أخرجه الأربعة وصححه ابن حبان

وقال أبو بكر محمد الوراق: آفة المريد ثلاثة أشياء، التزوج وكتابة الحديث والأسفار. وقيل له: لماذا تركت كتابة الحديث؟ فقال: منعتني عنها الإرادة. انتهى[524]

وقال أبو عثمان المغربي: الرباني لا يأكل في أربعين يوما، والصمداني في ثمانين يوما. انتهى[525]

وكان حسان بن أبي سنان لا ينام مضطجعا، ولا يأكل سمينا، ولا يشرب ماء باردا ستين سنة، فرؤي في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: خيرا، إلا أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها. انتهى[526]

وقيل: كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوما، فإذا دخل شهر رمضان، كان لا يأكل حتى يرى الهلال، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح. انتهى[527]

منهج شيخنا أبي الحسن الشاذلي في السلوك

قال أبو الفتح: ثم جاء الإمام علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي بالشين والذال المعجمتين. وشاذلة قرية من أفريقية، الضرير الزاهد، نزيل الإسكندرية وشيخ الطائفة الشاذلية، المتوفى سنة ست وخمسين وست مائة هجرية، رحمه الله تعالى، فرد الحق إلى نصابه، وهذب الطريق وصحح أخطاءها، ويسر ما عسر منها، وأحل ما حرم

فكانت طريقه سلسة لينة، لا عوج فيها ولا أمتا، ولا حرج ولا مشقة

---

[523] المرجع نفسه

[524] المرجع نفسه

[525] المرجع نفسه

[526] المرجع نفسه

[527] المرجع نفسه

ولم يأت، رحمه الله تعالى بشيء جديد، وإنما هو الإسلام الذي جاء به خير الرسل والأنبياء ﷺ، حنيفية بيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك

وقد رأى رحمه الله تعالى، أن الذي يتقشف وهو يملك من متاع الدنيا ما لا يلجؤه إلى التقشف، لا يعرف من الطريق شيئا، كيف، والله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده؟

ورأى في لباس الحسن من الثياب استغناء عن الخلق، وفي لبس الخشن مد يد الفاقة وتكففا للناس

قال ابن عطاء الله: وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضي الله عنهما، وطريقة أصحابهما، الإعراض عن لبس زي ينادي على سر اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزي فقد ادعى.

ولا تفهم، رحمك الله، أنا نعيب بهذا القول على من لبس زي الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذا كانا من المحسنين، و"ما على المحسنين من سبيل".[528] .[529]

ورأى في التجويع إجحافا للنفس، في حين أن أكل الطيبات يورث الشكر وعرفان نعمة الله تعالى على خلقه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يا بني برد الماء، فإنك إذا شربت الماء السخن، فقلت: الحمد لله، تقولها بكزازة، وإذا شربت الماء البارد، فقلت: الحمد لله، استجاب كل عضو منك بالحمد لله. انتهى[530]

والشيخ إذا عرف المريد بربه وأورثه محبته، قام بواجباته نحو محبوبه، وانتهى عن المحرمات، استحياء من باريه عز وجل

وبذلك تميزت طريقته رحمه الله تعالى، بسرعة الوصول دون جهد ومشقة

كما دعا، رحمه الله تعالى، إلى الأخذ بالأسباب، ونهى عن التفرغ للذكر والعبادة، كما هو الشأن عند الكثيرين ممن تقدم عليه

قال ابن عطاء الله: ودخلت أنا عليه يوما (أي على أبي العباس)، وفي نفسي ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلا: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة

فقال من غير أن أبدي له شيئا: صحبني بقوص، إنسان يقال له ابن ناشي، وكان مدرسا بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا، فقال: يا سيدي، أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن أمكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل

---

[528] التوبة92

[529] لطائف المنن

[530] المرجع نفسه

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي، وكأنما كانت ثوبا نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامني فيه. انتهى[531]

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لكل ولي حجاب، وحجابي الأسباب. انتهى[532]

وكان (أي أبو العباس)، لا يدل المريد على المتاعب والمشقات، ولا يلزمه ذلك

وكان يقول عن شيخه أبي الحسن: ليس الرجل من دلك على تعبك، إنما الرجل من دلك على راحتك. انتهى[533]

تربية الشيخ للمريد

يتخذ المشايخ طرقا وأساليب لتربية مريديهم، تبتدئ بالنصح والموعظة، وتنتهي بتكليف المريدين بأعمال من شأنها أن تنزع عنهم من أخلاق مذمومة، وطبائع لا تليق بطالبي وجه الحق، كالبخل والكبر والغرور

وقد اقتضت هذه الطرق من المريدين، لكي تؤتي أكلها، قربهم من مشايخهم، ومعاشرتهم بالليل والنهار

واقتضت من المشايخ متابعة المريدين في جميع أحوالهم، والوقوف على تخليصهم، من آفات النفس وغوائلها، وذلك عن كثب.

وقد نسمي هذا المنهج في التربية، الذي تعارف عليه المشايخ منذ القديم، منهجا مباشرا، لأنه يقوم على مباشرة الشيخ لمريده، وتعهده بالنصح والإرشاد

لكننا، إذا اعتبرنا طريقة الإمام الشاذلي في التربية، نجدها مختلفة كل الإختلاف عما سبق

فإن الشيخ الشاذلي، بمجرد ما يأتيه المريد وينظر إليه نظرة محبة واستطلاع، لا يحتاج معه إلى كثرة الكلام والإرشاد، بل يمده بما خول له الله تعالى من خزائن العناية الربانية، بما يصلحه ويرتقي به من حال إلى حال.

وبصيغة أخرى، هي تربية غير مباشرة

قال ابن عطاء الله السكندري: وسمعته يقول، أي أبا العباس: والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته. انتهى[534]

---

[531] المرجع نفسه

[532] المرجع نفسه

[533] المرجع نفسه

[534] المرجع نفسه

قلت: وقد لقينا والحمد الله في زماننا هذا، من يغني بالنظر، صحبناهم وعرفناهم على قدم الشاذلي والمرسي رضي الله عن جميعهم، وخرطنا في سلكهم آمين. انتهى[535]

إن الشيخ إذا كان مخلصا في إرادته تربية مريديه، وإذا كان لا يهدف من هذه التربية، سوى إلى تحبيب الله إلى الخلق، وإذا كان لا يبتغي من ذلك علوا ولا افتخارا، ولا سمعة واشتهارا، فإن الله تعالى يتولى هداية المريدين ويؤدبهم سبحانه، بكل ما يصرفهم فيه ويصرفه عليهم من أمور الدنيا والدين

ومتى فارق المريد الشيخ، لم تنقطع عنه التربية، بل جعل الله تعالى من كل شيء أداة لتربيته

فإذا كان غنيا واستكبر، أفقره حتى يلجأه إلى التواضع، وإذا كان غير راض بما أقامه فيه، ابتلاه بالمصائب حتى يرضى

وإذا نام المريد، فتح عليه في منامه من الرؤى ما يقربه إلى مولاه

وإذا قام من نومه، سخر له من الأقوال والأحداث ما يأخذ منه العبرة

فلا يكله الله تعالى إلى نفسه طرفة عين، ببركة دعاء الشيخ له، ورغبته الصادقة في هدايته

وفيما حكاه الله تعالى من قصة يونس عليه السلام، في القرآن الكريم، عبرة لأولي الألباب، وحجة على وجه الصواب فيما نبهنا إليه الأحباب، فإن سيدنا يونس عليه السلام، غادر أرض الرسالة، لما أضجره نفور قومه منه وارتدادهم عن اتباعه، وما أذن له الباري عز وجل في الخروج والمغادرة

وكان الله تعالى جلت قدرته، قادرا على أن يبعث له جبريل عليه السلام حتى يبلغه لومه عن خروجه، ويأمره بالصبر على قومه وتحمل تكذيبهم، ولكنه تعالى، أدبه بالبلاء، واستعمل في تأديبه البحر والسفينة والحوت

فكذلك المريد، متى خرج عن الحق، رده الله تعالى إليه بأساليب تقوم على توظيف كل المخلوقات، التي ما فيها من يخالفه سبحانه

أما إذا علم الحق سبحانه، أن هذا المريد لم يأت بنية صادقة، ولم يصحح قصده، فقد لا يبتليه بشيء، ويتركه على حاله، حتى يموت مصرا على سوء نيته، ويؤاخذه بما كسب

قال الله تعالى: "فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون". [536]

وإياك أيها المؤمن الصادق، أن تغتر بما أنت فيه مما وفقك الله إليه من قيام بشرع الرب، وما أنت عليه من قربى، فلا تأمن مكر الله

"أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون". [537]

---

[535] الفتوحات الإلهية ابن عجيبة

[536] التوبة55

إن المؤمن لا يزال خائفا سوء العقبة حتى يتوفاه الله تعالى إليه

فاللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك

وليس الأمر في أن السالك إذا عرف ربه أمن من الزيغ والضلال، وأفلت من وسوسة الشيطان، بل كما ذكرنا قبله، لا يأمن شيئا، ما دام فيه من الحياة بقية

قال الله تعالى: "واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين". [538]

فإن قلت: وهل يضل العارف بعد ما عرف ويزيغ الواصل بعدما وصل؟

قلت: قد يكون ذلك، وإذا كان، كان عقابه عسيرا، أشد من عقاب من لم يعرف ومن لم يصل، ألم تر إلى قوله تعالى: "إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم، وأملى لهم، ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر، والله يعلم إسرارهم، فكيف إذا توفتهم الملايكة يضربون وجوههم وأدبارهم، ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم". [539]

وامتازت مدرسة الإمام الشاذلي رحمه الله تعالى، بتخريج المحبين المولهين في شهود جلال الحق، عذبة نقية، تهفو إليها القلوب وترتاح إليها النفوس

إن محبة الله تعالى، إذا تغلغلت في القلوب، محقت دون ما مشقة، ما علق فيها من الصور والأغيار، فسارع أصحابها إلى إرضاء الحبيب، ونشطت أعضاؤهم في العبادات، وذربت ألسنتهم بذكر الله

ما اختلقه الصوفية من غرائب في الطريق، لا تمت إلى سنة رسول الله ﷺ بصلة

وتداولت كتب الصوفية أقوالا وحكايات وجدانية، تجعل القارئ المسلم، يشعر بالضعف والعجز والتفريط، لأن هذه الأقوال والحكايات، تمثل له الدين تمثيلا خياليا لا يقدر عليه إلا أناس شداد، يتحدون المألوف، ويفعلون ما لا يقدر عليه غيرهم؛ فوعظوا الناس بهذه العجائب، ودعوهم لتقليد تلك المصائب، فمنهم من غالب الدين فغلبه، ومنهم من اعتزل الدنيا بما فيها، فلم يتزوج ولم يلد، ومنهم من حرم النفس الحلال فأهلكها. فابتدعو بذاك في الدين ما ليس منه، وشددوا ما تيسر، فنفروا ولم يبشروا، منشغلين بقهر نفوسهم ودحض أهوائهم، عن رفع أمرها إلى الله الكبير المتعال، ومن هذه الوجدانيات:

---

[537] الأعراف98

[538] الأعراف175

[539] محمد26-29

ورئي رجل جالسا في الهواء، فقيل له: بم نلت هذا؟ فقال: تركت الهوى فسخر لي الهواء. انتهى[540]

يقول إبراهيم الخواص: طلبت المعاش لأكل الحلال، فاصطدت السمك، وذات يوم وقعت في الشبكة سمكة، فأخرجتها وطرحت الشبكة في الماء، فوقعت فيها سمكة أخرى، فرميت بها ثم عدت، فهتف بي هاتف: لم تجد معاشا إلا أن تأتي من يذكرنا فتقتلهم. قال: فكسرت القصبة وتركت الإصطياد. انتهى[541]

وقال بعضهم: كنت بمكة المكرمة حرسها الله تعالى، فرأيت فقيرا طاف بالبيت وأخرج من جيبه رقعة ونظر فيها ومر، فلما كان الغد فعل مثل ذلك، فراقبته أياما، وهو يكرر في كل يوم العمل نفسه، وذات يوم، طاف ونظر في الرقعة وتباعد قليلا ثم سقط ميتا؛ فأخرجت الرقعة من جيبه، فإذا فيها قوله تعالى: "**واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا**".[542]. انتهى[543]

وقال بعضهم: دخلت بلاد الهند، فرأيت رجلا بعين واحدة، يسمونه: فلانا الصبور، فسألت عن حاله، فقيل لي: كان في عنفوان شبابه عندما سافر صديق له، فخرج في وداعه، فدمعت إحدى عينيه ولم تبك العين الأخرى، فقال لعينه التي لم تدمع: لماذا لم تدمعي على فراق صاحبي؟ لأحرمنك النظر إلى الدنيا، وأغمض عينه؛ فمنذ ستين سنة لم يفتح عينه. انتهى[544]

وكان أحمد بن محمد الدينوري يتكلم، فصاحت عجوز في المجلس صيحة، فقال لها أبو العباس: موتي، فقامت وخطت خطوات، ثم التفتت إليه وقالت: لقد مت، ووقعت ميتة. انتهى[545]

وقيل: رؤي رجل يصلي خارج المسجد، فقيل له: لماذا لا تدخل المسجد فتصلي فيه؟ فقال: استحيي منه أن أدخل بيته وقد عصيته. انتهى[546]

وسئل أبو عثمان الحيري عن الورع، فقال: كان أبو صالح حمدون القصار، عند صديق له وهو في النزع، فمات الرجل، فنفخ أبو صالح في السراج، فقيل له في ذلك، فقال: إلى الآن كان الدهن في المسرجة له، ومن الآن صار للورثة، اطلبوا دهنا غيره. انتهى[547]

---

[540] الرسالة القشيرية

[541] المرجع نفسه

[542] الطور46

[543] الرسالة القشيرية

[544] المرجع نفسه

[545] المرجع نفسه

[546] المرجع نفسه

[547] المرجع نفسه

قال أبو الفتح عفا الله عنه: ما موقع ما سردنا من هذه الغرائب من سنة رسول الله ﷺ؟
كيف، وقد ثبت في صحاح الآثار أن رسول الله ﷺ، كان يدعو إلى اتباع سنته وعدم الخروج عنها؟
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا، كأنهم تقالوها، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله، إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني". رواه البخاري
عن عائشة: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة، قال: "من هذه؟" قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال: "مه، عليكم بما تطيقون، فو الله لا يمل الله حتى تملوا". وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه. رواه البخاري
عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال لي النبي ﷺ: "ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟" قلت: إني أفعل ذلك، قال: "فإنك إذا فعلت ذلك، هجمت عينك ونفهت نفسك، وإن لنفسك حقا، ولأهلك حقا، فصم وأفطر، وقم ونم". رواه البخاري
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ، فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: "ما هذا الحبل؟" قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت. فقال النبي ﷺ: "لا، حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد". رواه البخاري
فهذا هدي النبي ﷺ، ومن زاد عليه فقد رغب عنه، ومن رغب عنه لم يعد على نهجه
إخواني الأعزاء، إن الله تعالى لا يرفع درجات الناس، سوى إن قاموا بأعمال لا طاقة لهم بها، بل يرفع درجاتهم بصدق إيمانهم وجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله تعالى
والذي أعجب له، في هذه الأقوال والحكايات، التي سقتها من أصولها، ليس خروجها فقط عن الدين، بل كيف أن قائليها وفاعليها، يستلزم ما قالوا وما فعلوا أنهم من خاصة الله تعالى، ففيم بوحهم بها وإعلانهم عنها أمام من لا يقدر عليها؟ فهلا كتموها، إن كانوا يريدون بها وجه الله تعالى، حتى يتقبلها سبحانه قبولا حسنا؟
وقيل: أرسل ذو النون إلى أبي يزيد رجلا، وقال له: قل له: إلى متى النوم والراحة وقد جازت القافلة؟ فقال أبو يزيد: قل لأخي ذي النون: الرجل من ينام الليل كله، ثم يصبح في المترل قبل القافلة؛ فقال ذو النون: هنيئا له، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا. انتهى[548]

[548] المرجع نفسه

والأدهى والأمر، أن كثيرا من الناس في كل عصر، أصبحوا يظنون أن الولي هو الذي يلبس المراقع والأسمال، ويعيش في الفيافي والكهوف والأدغال، في حين أن الولي من والى الله تعالى، وامتثل لأوامره، وانتهى عند نواهيه

وقال رضي الله عنه (أي أبو العباس): العامة إذا رأوا إنسانا ينسب إلى طريق الله جاء من البراري والقفار، أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم، وكم من ولي لله وبدل بين أظهرهم، فلا يلقون إليه بالا، وهو الذي يحمل أثقالهم، ويدافع الأغيار عنهم، فمثلهم في ذلك كمثل حمار الوحش، يدخل في البلدة، فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته، والحمر التي بين أظهرهم وهي التي تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها. انتهى[549]

أجينى يا المغرور أجينى نداويك أنا من الغرور

نوضعك لما توافينى تعود بى الخلايق محفور

وانت يا الباخل لا توالينى حتى تجود جود الميسور

أنا عند الجود تلافينى باسط كفوفي بلا قشور

يقول: أقبل علي أيها المغرور، أنا أداويك من الغرور، أضعك بعد استعلائك متى وافيتني وأتيتني، حتى تعود محقورا بين الخلائق بعد عزتك وكبريائك؛ أما أنت أيها البخيل، فلا توالني ولا تقربني حتى تجود جود الميسور الذي لا يخشى فاقة، فإنك إن سألت عني، فستجدني عند الجود والسخاء، باسطا كفي بالعطاء مما جعلني الله تعالى مستخلفا فيه، دون من وامتنان

والمعنى: قال الله تعالى: "إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك، ولا تبغ الفساد في الارض، إن الله لا يحب المفسدين، قال إنما أوتيته على علم عندي، أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون".[550]

يعتبر قارون، وهو من قوم موسى، مثالا لمن غره ماله، فنسي فضل الله عليه، وأخذته العزة بالإثم، وتصامم عما وجه إليه من نصح، فكان عاقبة علوه وغروره، أن خسف الله تعالى به وبداره الأرض، فهوى أسفل سافلين، بعد أن ظن أن منزلته في أعلى عليين

---

[549] لطائف المنن

[550] القصص76-78

ومن أمثال قارون ذو الجنتين، الذي اغتر هو الآخر بجنته أن دخلها. قال الله تعالى: "ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منهما منقلبا". [551]

فأحاط الله بثمره، "فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا". [552]

الكلام على الغرور والمغرورين

يقول أبو حامد الغزالي: فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ويميل إليه الطبع، عن شبهة وخدعة من الشيطان، فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة، فهو مغرور، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه، فأكثر الناس إذا مغرورون، وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض، وأظهرها وأشدها، غرور الكفار وغرور العصاة والفساق. انتهى[553]

والمغترون، هم الذين أراد الله أن يضلهم، فجعل صدرهم ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء، والمغرور، هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلا، وبقي في العمى، فاتخذ الهوى قائدا، والشيطان دليلا، "ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا"[554]. انتهى[555]

قال الله تعالى: "يا أيها الناس إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير". [556]

قال أبو الفتح: والشيطان مغرور ومغرر به، وصفة الغرور لا تكاد تخلو من أحد من العالمين، فلكل غروره، وهو يركب العامة متى زادهم الله تعالى بسطة في المال والجسم؛ ويركب الخاصة متى زاد علمهم، فاستطابوا قيامهم على رؤوس الناس، يأمرونهم بما لا يأتون وينهونهم عما يأتون

ولعل غرور العلماء أشد من غرور العامة

---

[551] الكهف35

[552] الكهف41

[553] إحياء علوم الدين

[554] الإسراء72

[555] إحياء علوم الدين

[556] فاطر5-6

إذ العالم يرى لنفسه فضلا على الناس، وقد لا يتواضع لناصحيه، ظنا منه أنه أعلم منهم

فتجده وهو يحدث الناس، يعيبهم ويزجرهم بشدة، ولا يفتأ يفضح عوراتهم، ويسخر منهم، ولا يذكر لهم الله تعالى إلا قليلا

وقد ورط الغرور فقهاء، حتى أفتوا بغير الحق، و لم يتراجعوا عن فتواهم، رغم أنهم تبينوا خطأها، حتى لا تسقط مترلتهم في أعين الناس، بل منهم من استدل لفتواه من القرآن الكريم والحديث الشريف، مؤولا نصوص الكتاب والسنة على حسب هواه، حتى ينتصر لرأيه

يقول الإمام أبو حامد الغزالي، متحدثا عن إحدى فرق المغرورين من العلماء: فرقة منهم، لما أحكمت العلوم الشرعية والعقلية، تعمقوا فيها واشتغلوا بها، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، فاغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان، وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغا لا يعذب الله تعالى مثلهم، بل يقبل عليهم ويقبل في الخلق شفاعتهم، ولا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم، وهم مغرورون؛ فإنهم لو نظروا بعين البصيرة، علموا أن العلم علمان: علم معاملة، وعلم مكاشفة.

وعلم المكاشفة، وهو العلم بالله تعالى وبصفاته.

ولا بد من علم المعاملة لتتم الحكمة المقصودة، وهي العلم بمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق الناس المذمومة والمحمودة.

ومثالهم مثال طبيب طب غيره، وهو عليل قادر على طب نفسه و لم يفعل، وهل ينفع الدواء بالوصف؟

هيهات، لا ينفع الدواء إلا من شربه بعد الحمية.

وغفلوا عن قوله سبحانه وتعالى: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها"،[557] و لم يقل: من يعلم تزكيتها وأهمل علمها وعلمها الناس.

وغفلوا عن قوله ﷺ: "إن أشد الناس عذابا يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه"، وغير ذلك كثير.

وهؤلاء المغرورون، نعوذ بالله منهم، وإنما غلب عليهم حب الدنيا وحب الآخرة وحب الراحة، وظنوا أن علمهم ينجيهم في الآخرة من غير عمل. انتهى[558]

قلت: ولذلك، يدعو الشيخ المغرور، كي ياتيه ويداويه من مرضه العضال، إذا سلم أمره إليه

وكذلك حال المشايخ مع مريديهم، متى جاءهم طالب الطريق، تفرسوا في وجهه، فعلموا بما وهبهم الله تعالى من فراسة وحكمة ما يصلحه، وعرفوه بأمراضه وأمروه بفعل ما يشفيه

فإذا كان مغرورا،كلفوه بفعل ما لا يرضاه، وإذا كان بخيلا، أمروه بإنفاق ماله، وهكذا

---

[557] الشمس9-10

[558] أصناف المغرورين للغزالي

وقد وقف الغرور حجر عثرة في طريق القاصدين، فلم يبلغوا شيئا، مهما جاهدوا وذكروا وصبروا، أليس الغرور هو ما أخرج إبليس من الجنة؟

ولو لم يغتر، لعنه الله تعالى، بما أولاه الله ورفعه، و لم يستكبر عن السجود لآدم، لما كان من المبلسين

والغرور عندنا: أن ترى لنفسك فضلا على الناس

وهو أصل الكبر والكبرياء

وكل متكبر مغرور، ولا يحق لمخلوق أن يتكبر، بل الكبرياء لله تعالى، والتكبر تفعل، أي تقمص لما ليس له، وأنى للصغير أن يتكبر، بل الكبر والكبرياء، لله العلي الكبير

فاعرف أيها المؤمن حدك وقف عندك، ولا تتعال وتتبختر ثم تتمطى، فمهما تعاليت وتبخترت وتمطيت، فإنك لن تبلغ شيئا

قال تعالى: "ولا تمش في الارض مرحا، إنك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا".[559]

فكن ذليلا على المؤمنين، ولا تتذلل للمتكبرين، فإن العزة لله جميعا

ذم البخل والبخلاء

أما أنت أيها البخيل، فلا تقربني، ولا تقعد في مجالسي، حتى تجود بمالك، جود الميسور الذي لا يخشى الفاقة.

إنني أمقتك أيها البخيل، كما يمقتك الله تعالى، ومتى كان البخيل محبوبا عند أحد؟ كيف وقد لفظته الأكوان وتبرأ منه الرحمن؟

وقد كنت أتحدث مع ولدي محيي الدين، حفظه الله تعالى ورعاه، عن البخل، وكان لا يزال صغيرا، فقال: إن البخيل ما يفتأ يبخل على الناس، حتى يبخل على نفسه، وذاك عقاب الله له

ما حاجتك بي وأنت لا زلت تقبض يديك عن والديك وإخوانك وأخواتك، بل وعن أهلك وأبنائك؟

كيف تجود على الفقراء والمحتاجين، وقد بخلت على أهلك وذويك أيها الشحيح؟

يا عابد الدرهم والدينار، ما قعودك في حلقتي، وقد قعدت عن الجائع فلم تطعمه، وقعدت عن العاري فلم تكسه، وعلى الضعيف فلم تعنه؟

فماذا لو قعد الله تعالى عنك؟ فلم يرزقك و لم يشفك ويغفر لك ويهديك؟

أطعموا الناس كي يطعمكم الله

اكسوا الناس كي يكسوكم

---

[559] الإسراء37

اغفروا للناس كي يغفر لكم

اعذروا الناس كي يعذركم

استروا الناس كي يستركم

أحبوا الناس كي يحببكم

أيها البخلاء، لقد ضقت بكم ذرعا، فاهجروني مليا، ولا تقربون

أتبخلون خوف الإفلاس؟ وهل تدرون ما الإفلاس؟

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "أتدرون ما المفلس؟" قالوا: المفلس فينا يا رسول الله، من لا درهم له ولا متاع. قال رسول الله ﷺ: "المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيقعد، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقتص ما عليه من الخطايا، أخذ من خطاياهم، فطرح عليه، ثم طرح في النار". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

أنتم أيها البخلاء، تسرقون الفقراء، ولا تؤدون زكاتهم، وتكتزون ما جمعتم

قال تعالى: "ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة، ولله ميراث السماوات والارض والله بما تعملون خبير".[560]

قصدتني أيها الشحيح، تريد معرفة الجواد، فهلا جدت بما كتزته قبل أن تأتيني، فربما صح عندها قصدك؟

أنا أعرف ما تكتز، فكلما زاد مالك زاد سواد وجهك، وزاد انقباضه، فغارت عيناك ودق أنفك، فما أشبهك بالشيطان أيها الإنسان

تصدق بما كتزت، ولا تقبضه حتى لا ينقبض وجهك

ابسط كي تنبسط، وجد كي تجود، وإن أبيت ألا تفعل، فدونك أيها المنبوذ، فاجمع لورثتك ما يشتتون، وما يطول به حسابك يوم القيامة

"والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأوليك هم المفلحون".[561]

نحن لا نقبل المتكبرين والبخلاء في نوادينا، وإن تواضع أولئك، وجاد هؤلاء، أصبحنا وإياهم إخوانا

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "مثل البخيل والمنفق، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد، من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه،

---

[560] آل عمران180

[561] الحشر09

وتعفو أثره. وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئا، إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها ولا تتسع". رواه البخاري

عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة؛ واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم". رواه مسلم

وقد قيل في هذا المعنى أيضا:

يا جامعا مانعا والدهر يرمقه	مقدرا أي باب منه يغلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته	أغاديا أم بها يسري فتطرقه
جمعت مالا فقل لي: هل جمعت له	يا جامع المال أياما تفرقه؟
المال عندك مخزون لوارثه	ما المال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه ببال فتى يغدو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون مايدنسه	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يحلل بساحتها	لم يبق في ظلها هم يؤرقه[562]

الكلام على الجود باليمين

وبعد تبرئ الشيخ من البخيل في رباعيته، إلا إن تاب عن بخله وجاد بيمينه، بين له أن خلقه الجود والإحسان، دون من وامتنان

يقول الشيخ ابن عربي: من جاد ساد. انتهى[563]

ويقول الإمام علي كرم الله وجهه: الجواد: هو الذي لا يغيضه سؤال السائلين، ولا يبخله إلحاح الملحين. انتهى[564]

عن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم: هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله، أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ محتاجا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها، فقال: "نعم". فلما قام النبي ﷺ لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجا إليها،

---

562 إحياء علوم الدين

563- الشيخ ابن عربي مخطوطة نبذة لطيفة وكلمات طريفة. كستران

564- الشيخ محمد عبده نهج البلاغة. كستران

ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أكفن فيها. رواه البخاري

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا يجتمع غبار في سبيل الله، ولا دخان في جوف عبد أبدا، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا". رواه النسائي في السنن الكبرى

بالجود ينفعل الوجود

إنه الشيخ الفقيه أبو العباس السبتي رحمه الله تعالى،[565] من بنى مذهبه على الجود والسخاء

عن عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي، قال: بعثني أبو الوليد بن رشد من قرطبة، وقال لي: إذا رأيت أبا العباس السبتي بمراكش، فانظر مذهبه وأعلمني به، قال: فجلست مع السبتي كثيرا، إلى أن حصلت مذهبه، فأعلمته بذلك، فقال لي أبو الوليد: هذا رجل مذهبه: أن الوجود ينفعل بالجود، وهو مذهب فلان من قدماء الفلاسفة، وكان إذا أتاه أحد بأي أمر أتاه، يأمره بالصدقة ويقول له: تصدق، ويتفق لك كل ما تريد. وأخباره كثيرة عجيبة اختصرت عيونها. انتهى[566]

وحدثني أبو الحسن علي بن أحمد الصنهاجي قال: احتبس المطر في بعض الأوقات، فقال أبو الحسن البلنسي الجنان لأبي العباس: أما ترى ما فيه الناس من احتباس المطر؟ فقال له: إنما احتبس لشح الناس، فلو تصدقوا لمطروا، فقل لأصحابك من الفلاحين: تصدقوا بقدر ما أنفقتم تمطروا، فقال له أبو الحسن: لن يصدقني أحد، ولكن مرني في خاصة نفسي، فما أمرتني به أفعله، فقال: تصدق بمثل ما أنفقت، فقال: إذا مطرت أخرجت من ثمن الغلة مثل ما أنفقت، فقال له: إن الله تعالى لا يعامل بالدين، ولكن استلفها، فاحتال فيها وتصدق بها كما أمره. قال أبو الحسن: فخرجت إلى البحيرة التي كنت اعتمرتها والشمس شديدة الحرارة وقد أيست من المطر، ورأيت جميع ما غرست قد أشرف على الهلاك، فأقمت ساعة فرأيت سحابة قد أمطرت البحيرة إلى أن رويت

---

[565] وهو أبو العباس، أحمد بن جعفر الخزرجي، مولده بسبتة، عام أربعة وعشرين وخمسمائة، نزل مراكش، وبها مات، عام أحد وستمائة، وذلك في يوم الإثنين، الثالث من شهر جمادى الآخرة، ودفن بباب تاغزوت، وشيخه أبو عبد الله الفخار، صاحب الشيخ الفقيه أبي الفضل، عياض بن موسى اليحصبي

وكان أبو العباس، جميل الصورة أبيض اللون، حسن الثياب، فصيح اللسان، قديرا على الكلام، مفوها حليما صبورا، يحسن إلى من يؤذيه، ويحلم عمن يسفه عليه، رحيما عطوفا محسنا إلى المساكين واليتامى والأرامل، يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرق، فيحض الناس على الصدقة، ويأتي بما جاء في فضيلتها من الآيات والآثار، فتنثال عليه الصدقات، فيفرقها على المساكين وينصرف. انتهى من التشوف

[566] التشوف إلى رجال التصوف

وبلت ثيابي، وظننت أن الدنيا كلها كذلك قد أمطرت، فلما خرجت من البحيرة، رأيت المطر لم يجاوزها. وهذه القصة مشهورة صحيحة، سمعت أبا يعقوب الحكيم وجماعة يحدثون بها، وكان أبو العباس يعضدها بحديث حذيفة[567] المخرج في الصحيحين. انتهى[568]

قال أبو الفتح: وحكي لي: أن أختين كانتا تعيشان في بيت من غرفتين، كل واحدة منهما تقيم في غرفة، وكان قد توفي والداهما، وكانت إحداهما لا تفتر عن ذكر الله وعن الصلاة والصيام، وكانت الأخرى تشرب الخمر، ولا حظ لها من عبادة وصيام

وكانت لهما جارة نفساء، شمت في ليلة رائحة طعام يطهى بلحم، وكانت الرائحة تنبعث من دار الأختين، فدقت الباب، فخرجت الأخت العابدة ولم يكن غيرها في الدار، فنظرت النفساء، فإذا طاجين على الجمر، واستحيت أن تسألها أن تصب لها شيئا منه، فقالت العابدة: ما حاجتك أيتها الجارة؟ قالت: أريد بعض الجمر، حتى أوقد على طعامي، فجاءتها به، وهي تعلم أنها نفساء، ولم تذقها شيئا من الطاجين، فانصرفت

ثم عادت بعدها أختها وهي سكرى، فاعترضتها الجارة، وشكت إليها حاجتها، فدلفت إلى أختها، وقالت: هات الطاجين، نعطه الجارة، فإنها أحوج إليه منا، فقالت: لا، والله ما أعطيها إياه، قالت السكرى: ما لي ما أشتريه به منك، ولكن أطلبي ما شئت غيره، قالت: تتخلين عن نصيبك في الدار، وتمكنيني من غرفتك، قالت دون تردد: فليكن الأمر كذلك، ولكن أبيت الليلة في غرفتي، وفي الغد أرحل. فناولتها الطاجين، فمكنت السكرى جارتها منه، ثم عادت وباتت في غرفتها

وفي الغد لم تخرج السكرى من غرفتها، وقد طلع النهار، فدخلتها العابدة، لتخرجها منها، فلم تعثر لها على أثر، وإنما وجدت ثوبا أخضر ناصعا في موضع نومها

---

[567] قال النبي ﷺ: "كل معروف صدقة". رواه مسلم عن حذيفة بن اليمان، ورواه البخاري عن جابر بن عبد الله بلفظه مرفوعا

[568] التشوف إلى رجال التصوف

ألا فاءتوا على فور أكافيكم على الصبر
فإن أنتم تفضلتم على جار بلا أجر
أنا أقريكم عندي بآلائي بلا حصر
وإن كنتم سكرتم لم أواخذكم على سكر
أليس الجود منكم قد عفا عن زلة الخمر؟
فذوقوا من خموري إن ظمئتم واسكنوا قصري
وقولوا للتي صلت وصامت أعظم الدهر
لقد أحبطت ما صلت وما صامت ولم تدري
فما أعطت سوى جمر لجاري ثم لم تقري
فهذي خرقة خضرا تداري حمرة الجمر[569]

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: "أن رجلا رأى كلبا يأكل الثرى من العطش، فأخذ الرجل خفه، فجعل يغرف له به حتى أرواه، فشكر الله له، فأدخله الجنة". رواه البخاري

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ صلى صلاة الكسوف، فقال: "دنت مني النار، حتى قلت: أي رب وأنا معهم، فإذا امرأة"، حسبت أنه قال: "تخدشها هرة"، قال: "ما شأن هذه؟ قالوا: حبستها حتى ماتت جوعا". رواه البخاري

[569] من نظم المؤلف في الهزج

وصية الشيخ أبي الفتح الجعفي لإخوانه في الله تعالى

كتب أبقاه الله تعالى، ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

هذه وصية أبي الفتح الجعفي قبل أن يتوفاه المتوفي

أدركتم معشر الإخوة، رعاكم الله، أن ليس مع الله سواه، وأن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، وعرفتم، رعاكم الله، أن لا ملجأ من الله إلا إليه.

أيها الراغبون في رضاه لا تعبدون إلا إياه، أإله مع الله؟ لا إله إلاه

هو الواحد الأحد الفرد الصمد، تنزه في قدسه، كتب على نفسه الرحمة، هو الرحمن الرحيم

حسب الله تعالى رحمة بأكوانه، أن بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين

وأظنني بكم لا تبغون من نهج الحبيب خبزا ولا شعيرا، نقيرا ولا قطميرا، وإنما تبغون وجه الله، وأسمى أمانيكم أن تلقوه وهو عنكم راض

مهما أفقركم وهو عنكم راض، فما يضر الفقر والغني الله؟ ومهما بسطكم، ومهما قبضكم، فالله الباسط والله القابض، ومهما رفعكم ومهما خفضكم، فالله الرافع والله الخافض

ومهما سركم ومهما أحزنكم، فما ذلك سوى شأن الحبيب مع حبيبه

ومهما أقبل ومهما أدبر، وصل وهجر، كذلك شريعة الأحباب

و من اعترض فليس له في المحبة شيء

ألا يكفيكم أنه من يفعل بكم ما يجري عليكم من مسرة ومضرة؟

ألا يكفيكم أنه من أسبغ عليكم آلاءه ظاهرة وباطنة، حتى يفتح لكم باب الشكر ويزيد؟

و متى فتح عليكم باب البلاء، فما فعل سوى ليبسر لكم باب الصبر ويعفو

أما أن تعرفوه ببضعة تصاريف: نعمة ومال وحسن حال، فذلك من المحال

عرفت أن الله يسمعني لما دعوت الناس فتصامموا

عرفت أن الله يجيبني لما سألت الناس فتجاهلوا

عرفت أن الله لا يفوتني لما استغثت بالناس فخذلوا

عرفت أنه جميل لما ابتغيت بالنظر في حسن ما صنع معرفة الصانع، و لما أدرك ما ابتغيت، أشرق بنور كماله في قلبي، فإذا الموجودات قد خنست، فلا جمال غير جماله ولا كمال غير كماله

مالي أقدم رجلا على أرض التسليم وأأخر أخرى؟

متى أتحقق؟

أم رأيت فيما ابتلاني أنه ظلمني؟

فيم اعتراضك يا زيد، وقد حان الفصال، طال إعراضك وأمعنت في الجدال، ألم تعلم أن الله شديد المحال؟

سلم له مقاليد أمورك و لا تسأل، إن كثر سؤالك أوكلك إلى نفسك، و متى أوكلك إليها هلكت

حقق التسليم يا زيد، أعدك بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، في الدنيا قبل الآخرة، ويوم القيامة أجلسك مع الصديقين

متى تسلم تسليما وقد مر من العمر مقدار في جدال الواحد القهار، مكور الليل على النهار؟

أيها الإخوة، كونوا على قلب رجل واحد، ترجم الشياطين متى اقتربت من جمعكم بالشهب الثواقب، وتيأس من قلوبكم الوساوس والأكدار، وتخطئكم المصائب، ويرزقكم الله من حيث لا تحتسبون، وتكفون سوء العواقب. ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم

ليس مني من مشى بالنميمة بين أصحابي

ليس مني من عاب أصحابي

ليس مني من بات يغط في نومه وإخوانه لا يعرف النوم إلى جفونهم سبيلا

ليس مني من بات في شبع وإخوانه في سغب

ليس مني من جلس مع إخوانه وما سألهم عن أحوالهم

أنا بريء من حبيب نفسه، ماله عندي من خلاق، يأتيني بوجه بشوش وهو الكاذب الأفاق، يخفي عني ما أعلم منه، يقبض يده عن إخوانه، يشهد على نفسه الواحد الخلاق، فبشره بيوم كظيم عند التلاق. من ذا الذي يسأله رزقا؟ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين

راقبوا أحوال بعضكم يراقبكم الله، ارعوا إخوانكم يرعاكم الله، لا تعاملوا الناس بالعدل، فوالله لو عاملكم الله بالعدل ما ترك من أحد، بل عاملوهم بالرحمة يرحمكم الله

اجروا في مصالح إخوانكم يكفكم الله الجري في مصالحكم، واعلموا أن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه

اذكروا نعمة الله عليكم أيها الصابرون، إذ أخرجكم من الظلمات إلى النور، والتمسوا للناس المعاذير، واسألوا لهم الهداية، واسألوا لأنفسكم الثبات، فإن الأعمال بخواتيمها ومن عاب خاب، ومن عذر ظفر، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب

ولا تنصبوا أنفسكم حكاما على الناس، فما كلفكم الشرع بالحكم على أحد، بل عليكم أنفسكم، وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس

و اجعلوا لله من الليل ساعة، تناجونه قبل أن تقوم الساعة، وصلوا على رسول الله ﷺ، تحظوا بالشفاعة،

وأخلصوا الطاعة، ولا تلتفتوا إلى البضاعة، و الزموا القناعة يغنكم الله من فضله، إن الله هو الغني وأنتم الفقراء إلى الله

و اسمعوا و أطيعوا أمير البلاد، وادعوا له بالهداية والسداد، ولا تشقوا عصا الطاعة، فإنه من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه، ولو صلى وصام و ادعى أنه مسلم

بالله يا زيد، حطم القيد، وشمر عن ساعد الجد، تكن من أولي الأيد

لا تتمن على الله الأماني و تتقاعس عن العمل، وتظن نفسك مفلحا وأنت من الخاسرين

جودوا من القليل، ولا تنتظروا الكثير كي تجودوا، إنما الجود من الموجود، ومن لم يجد في العسرة بخل أشد البخل في الميسرة

واشكروا عند قلة اليد، ولا تشكوا الواحد الأحد إلى أي أحد، فمن لم يشكر في الضيق جحد في السعة وجحف نعمة الملك الحق

ثم الوضوء الوضوء، ثم الصلاة الصلاة، فمن دونها ليس لك عندي شيء يا زيد

ثم المساجد، لا تكن مثلي عنها قاعدا، فوالله ما سبقنا عمارها بذكر ولا قيام وطاعة وصيام، كيف وأننا في بيوتنا قابعون، وهم في بيت الباري عز و جل ضارعون؟

الجود الجود معشر الزيود، الجود الجود من الموجود، فقد بلغ النصاب ووجبت الزكاة منذ عقود

تجب الزكاة في ما نملك يسيرا أو كثيرا، لا نصاب ولاحول في شرعتنا، كل ما رزقت وجبت زكاته على الفور كل قرش نصاب، تلك ملة أولي الألباب، ما عليهم من حساب

أد ما للناس عليك وإلا تكن سارقا، واستقم على ما هديت إليه ولا تكن مارقا. هدانا الله و إياك للصواب

وافرحوا بالموت، فانه راحة المومنين في كنف الله، وموعد المولهين في ملكوت الله، وحياة المخلصين بالله في الله

"رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تاويل الاحاديث، فاطر السموات والارض أنت وليي في الدنيا والاخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين". [570]

ولله الحمد من قبل و من بعد لا إله غيره

الرباط في: 11/09/2007

كتبه أبو الفتح الجعفي المغربي عفا الله عنه في تاريخه

[570] يوسف 101

ابتر حبال الاعراض تسبح في بحور الاجواد
طر بجناحات عراض ما تبقى مع القراد
في الدنيا ديما عاض حتى ياتي يوم المعاد
يا الخامل بادر بالنواض محال يفيدك رقاد

يقول: اقطع عنك حبال الأعراض التي تشدك إلى الأرض، تسبح في بحور الأجواد، طر بجناحات عريضة، ولا تبق لاصقا كالقراض، عاضا في الدنيا، لاهيا عما خلقك الله تعالى لأجله، حتى يأتي يوم المعاد، فلا ينفعك ندم ولا تجديك حسرة

أيها الخامل الكسول، بادر بالنهوض، فمن المحال أن يفيدك رقادك

والمعنى: **النهي عن التثاقل إلى الأرض**

يقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل". [571]

يقول الشيخ: لا تتثاقل يا أخي فتثقل، ولا تساير رغبات نفسك الأمارة بالسوء، وطبيعة جسدك السفلية التي تجرك إلى الأسفل جرا، ألا ترى إلى جاذبية الأرض، كيف تجذب كل ما هو من طبعها إليها جرا عنيفا، فلا يكاد يفارقها، حتى يعود فيرتطم بها ارتطاما شديدا؟

وقد تقول: قد فهمت جاذبية الأجساد، فما جاذبية النفوس؟

أقول لك: جاذبية النفوس تطلعها إلى كل ما هو سافل ودنيء، مما نهى الله تعالى عنه

ألا ترى حب النفوس للفواحش ما ظهر منها وما بطن، وشغفها بالمعاصي؟ فكل شهوة ترابية، سواء تعلقت بالدرهم والدينار، أوبالنساء، أو تطلعت إلى الكبر والافتخار، أو تاقت إلى غرور واستكثار، كل شهوة من هذه الشهوات، هي بمثابة حبل متين يربطك بالسفليات، ويمنعك من الترقي إلى العلويات

فاقطع عنك، رعاك الله تعالى، هذه الحبال، وانزع الأكدار التي عششت في قلبك، حتى ترقى وتطير في عالم الأحرار

إنها الحرية المطلقة، وإنهم الرجال الأحرار.

هم رجال بثباتهم عند الشدائد والمحن

---

[571] التوبة38

رجال بثباتهم عند الغواية والفتن

رجال بتملصهم عن كل ما يلهيهم عن الله

"رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله، والله يرزق من يشاء بغير حساب". [572]

وهم الأحرار، أن تحرروا من قيود صدئة، وانطلقوا خفافا، وليس ثقالا، يتبوؤون من القربى منازل الحظ والفلاح

فدونك أيها المحب الوامق، فاهجر ليلاك التي أقعدتك عن درك درجات الأبرار، وطر بعشق مولاك إلى هناك،

لا تبق عاضا بجيفة نتنة، تنازعها الكلاب، تنازعهم فيها، يعوون فتعوي لعوائهم، ويكون مثلك كمثل الكلب، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث

لا تلتصق بالرجس كالقراد لا تحيد، والقراد كما قال ابن منظور: معروف، واحد القردان. والقراد: دويبة تعض الإبل. [573]

حلق معي في ملكوت العز والكرامة، واشهد معي خوارق الجمال في عوالم الكمال، واعرف من تكون، فقد خلقت بلا مثال

بادر بالنهوض فلا يفيدك الرقاد

والله لئن بصرت بما بصرت به، مما ابتدعه الباري عز وجل، مما لم تره من قبل، لو بصرت بما بصرت به، لخنست في ناظريك وجوه الغانيات، وما عادت مشرقات كما عهدتها من قبل

ولو أصبحت حيث أصبحت، واستضأت بما استضأت، ما حلا نهارك في الدنيا، ولا قنعت بضوء الشمس، ولو كان ضوؤها عند الهجيرة، بل انطفأت وأظلم كونك الصغير فيما أبصرت من أكوان غابت عن العيان، بناها الواحد الديان بأييد، لا يبصرها إنس ولا جان، سوى من سبقت له الحسنى من الإخوان

ابتر الحبال التي تشدك، يخف وزنك، وتعلو كالمنطاد، متى بترت حباله طار عاليا لا يلوي على شيء

---

[572] النور 36-37

[573] قال ابن منظور بعد ذلك: قال:

لقد تعللت على أيانق صهب، قليلات القراد

عنى بالقراد ههنا الجنس، فلذلك أفرد نعتها وذكره. ومعنى قليلات: أن جلودها ملس لا يثبت عليها قراد إلا زلق، لأنها سمان ممتلئة، والجمع: أقردة وقردان كثيرة. انتهى من لسان العرب

أتظن أن صلواتك وصيامك تكفي لكي تحوم في روضات الينع والشغف، مع الحائمين ممن استعلوا عن السفليات، وتاقوا للعلويات، وعلوا كل عال، وسبقوا كل شقي في الديوان؟

كيف تجدي صلوات أناسا قلوبهم تدنست بالشهوات؟

كيف ينفع الصيام أقواما لهم بليلى هيام وأي هيام؟

إنما شواهد الحق الذين أراهم من ملكوت السماوات والأرض، أولئك المتجردون لخدمته، المتفرغون لنجواه، المتملون في طلعته، أولئك أحباب الله

أخلاء الرحمن، من أهل الخصوصية في الديوان، أولئك من خلق السموات والأرض لأجلهم، متى توفاهم بكت عليهم السماوات والأرض

يناجيهم بالليل، ويحدثهم بالنهار، لا يغيب عنهم طرفة عين، فهم به فيه وإليه، رفعهم عن العالمين، وبشرهم في خلواتهم بشارة المقربين، وبعثهم قبل يوم الدين، لا يندمون ولا يفرحون ولا يترقبون، كل شيء عندهم قائم، ومتى قام لا يفوت، ما شأنهم والحساب، وقد رضي عنهم رب الأرباب، ورفع عنهم اللوم والعتاب، ما عليهم من حساب

سارع أخي إلى هذا الخير العظيم، ما دام فيك بقية، ماذا تنتظر؟

"ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الامد فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون".[574]

تخلص من قبضة غوايتك، وتطهر من درن جنابتك، واستبدل بهواه جميع هواياتك، واسبح معي في هذه البحار، تنبهر بأمواج الأنوار، في ليل عاد كالنهار، فلن تقو على الرجوع إلى الديار

الله، الله، يا مسترسلا في الضلال، متى تستيقظ من غفوة الدلال، وتصحو من سكرة شلت منك الأوصال؟

متى تعود إلى رشدك، وتأذن بالإنفصال، ثم تشد الرحال في ركب الرجال إلى ذي العزة والجلال، متى...؟

حكاية: عن عتبة الغلام رحمه الله تعالى، وكان من أهل الفسق والفجور، مشهورا بالفساد وشرب الخمر، فدخل يوما في مجلس الحسن البصري، وهو يقرأ في تفسير قوله تعالى: "ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله"، يعني: ألم يجئ وقت تخاف قلوبهم؟ فوعظ الشيخ في تفسير هذه الآية وعظا بليغا، حتى أبكى الناس، فقام من بينهم شاب، فقال: يا تقي المؤمنين، أيقبل الله الفاسق الفاجر مثلي إذا تاب؟ فقال الشيخ: نعم، يقبل الله توبة فسقك وفجورك، فلما سمع عتبة الغلام هذا الكلام، اصفر وجهه، وارتعدت فرائصه، فصاح صيحة، فخر مغشيا عليه، فلما أفاق، دنا منه الحسن وقال الأبيات:

---

[574] الحديد15

أيا شاب لرب العرش عاص — أتدري ما جزاء ذوي المعاصي؟

سعير للعصاة لها زفير — وغيظ يوم يؤخذ بالنواصي

فإن تصبر على العصيان فاعصه — وإلا فكن عن العصيان قاصي

وفيما قد كسبت من الخطايا — رهنت النفس فاجهد في الخلاص

فصاح عتبة صيحة عظيمة، وخر مغشيا عليه، فلما أفاق، قال: يا شيخ، هل يقبل الرب الرحيم توبة مثلي اللئيم؟ فقال الشيخ: هل يقبل توبة العبد الجافي، إلا الرب المعافي؟

ثم رفع رأسه ودعا ثلاث دعوات:

الأولى: قال: إلهي، إن كنت قبلت توبتي، وغفرت ذنوبي فأكرمني بالفهم والحفظ، حتى أحفظ كل ما سمعت من العلم والقرآن

والثانية: قال: إلهي، أكرمني بحسن الصوت، حتى إن كل من سمع قراءتي يزداد رقة في قلبه، وإن كان قاسي القلب

والثالثة: قال: إلهي، أكرمني بالرزق الحلال، وارزقني من حيث لا أحتسب

فاستجاب الله جميع دعائه، حتى زاد فهمه وحفظه، وكان إذا قرأ القرآن، تاب كل من سمع قراءته، وكان يوضع في بيته كل يوم قصعة من المرق ورغيفان، ولا يدري أحد من يضعها، وكان على هذه الحال حتى فارق الدنيا

وهذا حال من أناب إلى الله، لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. انتهى[575]

نوصيك يا المفتون بعيون ناعسه فتانا

النسا عبيدات المجون عاشق النسا ما جانا

صابوا عقال بالجنون ورطوا قومان فطانا

ما يصرفهم غير مول الكون لا تقول: أنا نصرف أنا

يقول: أوصيك أيها المفتون بعيون ناعسة فتانة، فما النساء إلا إماء للمجون، ومن يعشقهن، من المحال أن يأتينا ويشهد مجالسنا، لأنه في شغل شاغل عن ذلك، وكم من العاقلين أصابهم حب النساء بالجنون، وكم ورطن فيما لا تحمد عقباه من أقوام اتصفوا بالفطنة والكياسة

[575] مكاشفة القلوب

فادع الله تعالى أن يصرف كيدهن عنك، فلا يصرفه سوى رب الكون، وإياك أن تقول: أنا أصرفه، فإنك لا تقوى على ذلك

يقول جرير بن الخطفي:[576]

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

والمعنى: يقول الله تعالى: "زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب، قل أؤنبيكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد".[577]

يقول الحافظ ابن كثير: يخبر تعالى، عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء، لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح، أنه ﷺ، قال: "ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء"، فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه، مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، "وإن خير هذه الأمة من كان أكثرها نساء"، وقوله ﷺ: "الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله". وقوله في الحديث الآخر: "حبب إلي النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة". وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن شيء أحب إلى رسول الله ﷺ من النساء إلا الخيل، وفي رواية: من الخيل، إلا النساء. وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة، فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل وتكثير أمة محمد ﷺ ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: "تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة". انتهى[578]

وحتى إذا وقفت موقف الغواية، فقل كما قال الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، سيدنا يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام: "وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين".[579]

لما راودته امرأة العزيز عن نفسه وقالت: هيت لك، فاستعصم وقال: معاذ الله

---

[576] وهو جرير بن الخطفي، ويقال: ابن عطية بن الخطفي، واسم الخطفي: حذيفة بن بدر بن سلمة عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار، أبو حرزة الشاعر البصري.

[577] آل عمران14-15

[578] تفسيرابن كثير

[579] يوسف33

قلت في السوانح: و"هيت لك"، معناها فيما تقدم عليها من كلام، ابتداء من قوله تعالى: "وراودته"، إلى قوله تعالى: "الابواب"، ومقتضى هذا المعنى: الدعوة إلى الفاحشة. انتهى[580]

وفر من الفتن، رعاك الله، كما يفر الصحيح من المجذوم، وكما يفر الجبان من الأسد، والتزم الوقاية لنفسك أما إذا لم تأت بالحيطة والحذر حتى خلوت بالخطر، فمن الصعب أن أعدك بالنجاة، وقد همت في الفلاة، وركبت رياحا عاتيات لا تبقي ولا تذر

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تسافر امرأة مسيرة يوم وليلة، إلا ومعها ذو محرم". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن عقبة بن عامر، أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم والدخول على النساء"، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: "الحمو الموت". رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح وقال: وإنما معنى كراهية الدخول على النساء، على نحو ما روي عن النبي ﷺ قال: "لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان"، ومعنى قوله: "الحمو"، يقال: هو أخو الزوج، كأنه كره له أن يخلو بها. رواه الترمذي

وابتعد عن مواطن المعاصي، حتى لا تقول لا مناص، يوم يؤخذ بالنواصي، واهرب من مواضع الفسق والفجور، حتى لا تقع في المحظور، وعاشر أهل الهداية، تحظ بالكفاية، وعظم حرمات الله تعالى، يعظم الله حرمتك، والله الهادي إلى الصواب.

قدم التوبة في الاول سبع مقامات في التعداد
التوبه عليها تعول من قبل ما تزداد
على مقامها ما تحول حتى تخبر البلاد
إلى ما تبت ما تسول على مقامات الامجاد

يقول: قدم التوبة في أول سلوك الطريق إلى الله تعالى، فالتوبة هي أول مقام من المقامات السبع التي يجب قطعها للوصول، والتوبة هي المعول عليها، وأمرها معروف عند الأولين منذ القديم، حتى قبل أن تزداد أنت بنفسك، فلا تتحول عن مقامها حتى تحققه وتكمله، وقد مثل الشيخ التائب كداخل بلدا غريبا عنه، يجب أن يحفظ طرقه ودروبه وأزقته، حتى يتعرف عليه، فكذلك التوبة، تقتضي من التائب أن لا يفوتها إلى مقام آخر، حتى يتقنها ويأتي بها كاملة غير منقوصة

---

[580] سوانح الخواطر في كوامن السرائر

وإذا لم تتب فلا تسأل عن مقامات أهل المجد والشرف، فإنك لن تبلغها وأنت لم تأت بتوبة نصوح

والمعنى: يقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار يوم لا يخزي الله النبيء والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا، إنك على كل شيء قدير". [581]

ويقول سبحانه: "أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم". [582]

ويقول سبحانه: "وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون". [583]

المقام والحال والفرق بينهما

قلت: المقامات سبعة، والأحوال كثير، وقد خلط قوم بين المقام والحال، فما المقام وما الحال؟

يقول القشيري: المقام: وهو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب، مما يتوصل إليه بنوع تصرف، ويتحقق بضرب تطلب ومقاساة تكلف، فقام كل واحد في موضع إقامته عند ذلك، وما هو مشتغل بالرياضة له

وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر، ما لم يستوف أحكام ذلك المقام، فإن من لا قناعة له، لا يصح له التوكل، ومن لا توكل له، لا يصح له التسليم، ومن لا توبة له، لا تصح له الإنابة، ومن لا ورع له، لا يصح له الزهد

والمقام هو الإقامة، كالمدخل بمعنى الإدخال، والمخرج بمعنى الإخراج، ولا يصح لأحد منازلة مقام، إلا بشهود إقامة الله تعالى إياه بذلك المقام، ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة. انتهى[584]

وقال رحمه الله تعالى: الحال عند القوم: معنى يرد على القلب من غير تعمد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب، من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب، والأحوال تأتي من الوجود نفسه، والمقامات تحصل ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن في مقامه، وصاحب الحال مترق عن حاله. انتهى[585]

---

[581] التحريم8

[582] المائدة76

[583] الشورى23

[584] الرسالة القشيرية

[585] المرجع نفسه

الكلام على مقام التوبة

يقول ابن عباد الرندي: مقام التوبة: هو أول المقامات وأساسها، وعليه تنبني أنواعها وأجناسها، وهي تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة، فيدخل في عموم هذا، حركات الظاهر والباطن في العقود والأقوال والأفعال. انتهى(586)

ويقول الشيخ عبد القادر الكيلاني: التوبة: هي نظر الحق تعالى إلى عنايته السابقة القديمة لعبده، وإشارته له بتلك العناية إلى قلب عبده، وتجريده إياه بالشفقة مجتذبا إليه قابضا، فإذا كان ذلك لذلك، انجذب القلب إليه عن كل همة فاسدة، وتابعه الروح، ووافقه العقل، وصحت التوبة، وصار الأمر كله لله. انتهى(587)

ويقول كذلك: التوبة: هي أصل كل خير وفرعه، ولهذا لا يفتر الصالحون عنها في جميع أحوالهم. انتهى(588)

ويقول أحمد بن محمد بن عباد: التوبة: أصل كل مقام وحال، وهي أول المقامات، وهي بمثابة الأرض للبناء، فمن لا أرض له لا بناء له. انتهى(589)

ويقول الشيخ إبراهيم الخواص: حد التوبة في قلب التائب: هي أن يبغض الذنب كما يحبه، ويبكي منه كلما ذكره، ويتركه كما كان يأخذه، ويفزع من عارض الذنب إذا وقع به. انتهى(590)

وقال الشيخ الحسين بن منصور الحلاج:

إلى كم أنت في بحر الخطايا تبارز من يراك ولا تـــراه
وسمتك سمت ذي ورع ودين وفعلك فعل متبـــع هـــواه
فيا من بات يخلو بالمعاصـــي وعين الله شاهـــدة تـــراه
أتطمع أن تنال العفو ممـــن عصيت وأنت لم تطلب رضاه
وتفرح بالذنوب والخطايـــا وتنســـاه ولا أحـــد ســـواه
فتب قبل الممات وقبل يـــوم يلاقي العبد ما كسبت يـــداه.(591)

586- بولس نويا الرسائل الصغرى للشيخ ابن عباد الرندي. كستران

587- الشيخ علي بن يوسف الشطنوفي مخطوطة بهجة الأسرار ومعدن الأنوار. كستران

588- المصدر نفسه

589- الشيخ أحمد بن محمد بن عباد مخطوطة الموارد الجلية في أمور الشاذلية. كستران

590- الشيخ عماد الدين الأموي حياة القلوب (بهامش قوت القلوب لأبي طالب المكي) (بتصرف). كستران

591- د. قاسم السامرائي أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري. كستران

قال أبو الفتح الجعفي: التوبة أول الأشواط في سبيل السلوك إلى حضرة مالك الملوك، ومدخل العازمين على السفر إلى المحبوب، ومن لم يتب، لم يصل إلى دار مولاه و لم يحظ بإحسانه وقراه

والتوبة عندنا: خروج من ذل الإصرار إلى عز الإقرار، وعروج من هوة الأوزار إلى سماء الأبرار

وقد اشترط العلماء في التوبة شروطا، وهي: الإقلاع عن المخالفة، والندم على اجتراح الذنوب السالفة، والعزم عزما أكيدا على عدم الرجوع إليها، ثم رد الحق إلى صاحبه، زيادة على الشروط الآنفة

فمم تكون التوبة؟ وبم تكون؟

فأما الأول: فمن كل قول وفعل لا يرضاه الباري عز وجل

وأما الثاني: فبقطع عوائد النفس، وتوجيه الهوى إلى ما يرضي الله تعالى، بالإعتراف بالعبودية وترك أذى الناس والأخذ بالقناعة

فأما الإعتراف بالعبودية: فهو القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات

وأما ترك أذى الناس: فبالصبر عليهم، والإحسان إليهم

وأما الأخذ بالقناعة: فهو سفينة النجاة في بحر الدنيا المتلاطم بأمواج التلف والفتنة

ولا يتوب التائب إلا إذا تاب عليه التواب الرحيم

يقول الجعفي عفا الله عنه: نفرق بين التوبة والاستغفار

يقول الباري عز وجل: "أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه، والله غفور رحيم". [592]

فالاستغفار يكون من كل ذنب جرحته في الليل والنهار، في حق نفسك أوغيرك، أو في حق الواحد القهار

أما التوبة: فهي ترك الإصرار، وإذعان للواحد الغفار

وقد يذنب العبد وهو تائب

وقد لا يذنب وهو غير تائب

فأما وجود الذنب مع التوبة: فهو ما يرتكب من زلات وهفوات، بإتيان المحظورات أو بترك الواجبات، وهو كاره له، وإنما غلبته نفسه وأرغمه هواه، ثم يستغفر بعدها، فيجد الله تعالى غفورا رحيما، لأنه صدق في توبته، وإنما أخطأ، والخطأ طبعه، والكمال كله لله

قال تعالى: "وعلى الثلاثة الذين خلفوا، حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم". [593]

---

[592] المائدة76

وأما انتفاء الذنب من دون توبة: فذاك المصر على الآثام، الذي يعتقد صلاحيتها لنفسه، وإنما منعه من إتيانها عدم استطاعته ذلك، ومتى تهيأت له أسبابها، وتوفرت له ظروفها، عصى مولاه، واستغفر ولم يقبل استغفاره، لأنه لا زال يرى فيما اقترف من سوء حسنا، وأتى من شر خيرا

قال تعالى: "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون".[594]

وقال سبحانه: "وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا".[595]

وخيرهما من جمع بين التوبة بترك الإصرار، وترك الذنوب استحياء من الواحد القهار

فأحسن توبتك، وتبرأ مما لم تستطع نزعه من هوى النفس، وما علق في القلب من الصور والأغيار، وأوكل أمره إلى الله تعالى

وادع الله أن يتحمل عنك مما أنت مطالب به من الناس، ما لم تستطع رده، تصح توبتك

وما أشد فرح المولى الكريم بتوبة عبده الجاني

عن إسحاق بن عبد الله بن طلحة، حدثنا أنس بن مالك، وهو عمه، قال: قال رسول الله ﷺ: "لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته؛ فبينا هو كذلك، إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح". رواه مسلم

والتوبة، وإن كانت أول المقامات، إلا أنها تبقى إلى أن يقضي السالك نحبه، وذلك لبقاء الاستغفار

ألم تر إلى رسول الله ﷺ، كيف كان يستغفر ربه ويتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة، وهو المعصوم، إلى أن لقي ربه سبحانه

إلا أن التوبة تختلف على حسب تغير منازل السالكين

فهناك توبة المبتدئين: وهي التي ذكرناها، وذكرنا مم تكون وكيف تكون

وأما توبة السائرين: فتكون بالتبرئة من الحول والقوة، برد الفضل إلى الله تعالى فيما يحققه السائر من أذكار وطاعات ومعاملات، بتوفيق من الله عز وجل

وأما توبة الواصلين: فمن الإشراف إلى الجزاء، مما أعد الله تعالى للمؤمنين في جنة النعيم

---

[593] التوبة119

[594] آل عمران135

[595] نوح7

فالأولى توبة المؤمنين

والثانية توبة المخبتين

والثالثة توبة المقربين

وإلا، فالأولى توبة، والثانية أوبة، والثالثة إنابة

وإلا، فالأولى صد، والثانية قصد، والثالثة فقد

والتوبة عندنا: تبرء العبد من الجنايات، ولجوء إلى الرب في البدايات، من أجل التوفيق في النهايات

والتوبة اعتراف بالذنب ورجوع إلى الرب، كي يقبل التوب قبل الحوب

قال تعالى: "إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب، فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليما حكيما، وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما".[596]

والتوبة: كبح جماح النفوس، عن أن تدوس مواطن الذلة والبوس

واعلم أخي، أن المرء يوقعه في إتيان الفواحش ما ظهر منها وما بطن، دون مراعاة حرمات الله تعالى، أمران عظيمان:

الأول: الاعتزاز بالنفس: وذلك أن يظن في نفسه العصمة من المعاصي، ويتباهى بذلك في الملإ، حتى إذا ما تولى، أوكله الرب إلى نفسه وهواه، فبارز الله تعالى بالخطايا، ووقع فيما لا تحمد عقباه والعياذ بالله

"ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم فحسبه جهنم، ولبيس المهاد".[597]

وسئل الجنيد: بما يستعان على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى ما تنظره.

وقال أبو الجلد: أوحى الله تعالى إلى نبي من الأنبياء: قل لقومك: ما بالكم تسترون الذنوب من خلقي، وتظهرونها لي؟ إن كنتم ترون أني لا أراكم، فأنتم مشركون بي، وإن كنتم ترون أني أراكم، فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟ انتهى[598]

والثاني: فضح عيوب الناس وتتبع عوراتهم، فإن الذي يؤذي الناس ولا يلتمس لهم الأعذار، لا بد أن يقع في شرك الزلل فلا يجد من يستره، ولا يلقى إلا من لا يعذره

---

[596] النساء17-18

[597] البقرة202-204

[598] دروس تربوية من الأحاديث النبوية

قال الله تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا". [599]
عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: "يا معشر من آمن بلسانه و لم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته". رواه أبو داود

فاعرف أخي خسة نفسك، وشغفها بإتيان الفواحش، وانتهاك الحرمات، وارتكاب المنكرات، واعرف ميلها إلى السوء والفسوق، واستعن بالله تعالى عليها، وقل: رب لا تكلني إلى نفسي طرفة عين، واستر الخلق ونزه لسانك عن النيل منهم.

يقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى، حاكيا ما أوصاه به أستاذه سيدي عبد السلام بن بشيش رحمه الله تعالى: فقلت له: ياسيدي، أوصني، فقال لي: يا علي، الله الله، والناس الناس، نزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك من التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عندك، ولا تذكرهم إلا بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك؛ وقل: اللهم أرحني من ذكرهم ومن العوارض ونجني من شرهم، وأغنني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم، إنك على كل شيء قدير. انتهى [600]

ومما نسب للشافعي:

إذا رمت أن تحيا سليما من الأذى وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرئ فكلك عورات وللناس ألسن
وعينك إن أرتك يوما نقيصة لناس فقل: يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى وفارق ولكن بالتي هي أحسن

---

[599] الإسراء36
[600] درة الأسرار

عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: بينا أنا أطوف مع أبي حول البيت في ليلة ظلماء، وقد رقدت العيون وهدأت الأصوات، إذ سمع أبي هاتفا يهتف بصوت حزين شجي، وهو يقول:

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم يا كاشف الضر والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا وأنت عينك يا قيوم لم تنم
هب لي بجودك فضل العفو عن جرمي يا من إليه أشار الخلق في الحرم
إن كان عفوك لا يدركه ذو سرف فمن يجود على العاصين بالكرم؟

قال: فقال أبي: يا بني، أما تسمع صوت النادب لذنبه، المستقيل لربه؟ الحقه، فلعل أن تأتيني به.

فخرجت أسعى حول البيت أطلبه، فلم أجده، حتى انتهيت إلى المقام، وإذا هو قائم يصلي، فقلت: أجب ابن عم رسول الله ﷺ، فأوجز في صلاته واتبعني.

فأتيت أبي، فقلت: هذا الرجل يا أبت.

فقال له أبي: ممن الرجل؟ قال: من العرب، قال: وما اسمك؟ قال: منازل بن لاحق.

قال: وما شأنك وما قصتك؟ قال: وما قصة من أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، فهو مرتطم في بحر الخطايا؟

فقال له أبي: علي ذلك، فاشرح لي خبرك.

قال: كنت شابا على اللهو والطرب، لا أفيق عنه، وكان لي والد يعظني كثيرا، ويقول: يا بني، احذر هفوات الشباب وعثراته، فإن لله سطوات ونقمات، ما هي من الظالمين ببعيد. وكان إذا ألح علي بالموعظة ألححت عليه بالضرب، فلما كان يوم من الأيام، ألح علي بالموعظة، فأوجعته ضربا، فحلف بالله مجتهدا، ليأتين بيت الله الحرام، فيتعلق بأستار الكعبة، ويدعو علي. فخرج حتى انتهى إلى البيت، فتعلق بأستار الكعبة، وأنشأ يقول:

يا من إليه أتى الحجاج قد قطعوا عرض المهامه من قرب ومن بعد
إني أتيتك يا من لا يخيب من يدعوه مبتهلا بالواحد الصمد
هذا منازل لا يرتد عن عققي فخذ بحقي يا رحمن من ولدي
وشل منه بحول منك جانبه يا من تقدس لم يولد ولم يلد

قال: فوالله، ما استتم كلامه حتى نزل بي ما ترى، ثم كشف عن شقه الأيمن، فإذا هو يابس.

قال: فأبت ورجعت، ولم أزل أترضاه وأخضع له، وأسأله العفو عني، إلى أن أجابني أن يدعو لي في المكان الذي دعا علي.

قال: فحملته على ناقة عشراء، وخرجت أقفو أثره، حتى إذا صرنا بوادي الأراك، طار طائر من شجرة، فنفرت الناقة فرمت به بين أحجار، فرضخت رأسه فمات، فدفنته هناك، وأقبلت آيسا، وأعظم ما بي ما ألقاه من التعيير، أني لا أعرف إلا بالمأخوذ بعقوق والديه.

فقال له أبي: أبشر، فقد أتاك الغوث، فصلى ركعتين، ثم أمره فكشف عن شقه بيده، ودعا له مرات، يرددهن، فعاد صحيحا كما كان.

وقال له أبي: لولا أنه قد كان سبقت إليك من أبيك في الدعاء لك، بحيث دعا عليك، لما دعوت لك.

قال الحسن: وكان أبي يقول لنا: احذروا دعاء الوالدين، فإن في دعائهما النماء والانجبار، والاستئصال والبوار. انتهى[601]

عن سعدان قال: أمر قوم امرأة ذات جمال بارع، أن تتعرض للربيع بن خيثم، لعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها، فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك، فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت، فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة، فسقطت مغشيا عليها، فوالله، لقد أفاقت وبلغت من عبادة ربها، ما أنها كانت يوم ماتت، كأنها جذع محترق. انتهى[602]

عن رجاء بن عمر النخعي قال: كان بالكوفة فتى جميل الوجه، شديد التعبد والإجتهاد، وكان أحد الزهاد، فنزل في جوار قوم من النخع، فنظر إلى جارية منهم جميلة، فهويها وهام بها عقله، ونزل بها مثل الذي نزل به.

فأرسل يخطبها من أبيها، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها.

واشتد عليهما ما يقاسيان من ألم الهوى، فأرسلت إليه الجارية: قد بلغني شدة محبتك لي، وقد اشتد بلائي بك لذلك، مع وجدي بك، فإن شئت زرتك، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي.

فقال للرسول: لا واحدة من هاتين الخصلتين، "إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم".[603]

أخاف نارا لا يخبو سعيرها، ولا يخمد لهبها.

فلما انصرف الرسول إليها، فأبلغها ما قال، قالت: وأراه مع هذا زاهدا، يخاف الله تعالى، والله ما أحد أحق بهذا من أحد، وإن العباد فيه لمشتركون. ثم انخلعت من الدنيا، وألقت علائقها خلف ظهرها، ولبست المسوح، وجعلت تعبد، وهي مع ذلك تذوب وتنحل حبا للفتى، وأسفا عليه، حتى ماتت شوقا إليه.

---

[601] التوابون

[602] المرجع نفسه

[603] الزمر13

فكان الفتى يأتي قبرها، فرآها في منامه، وكأنها في أحسن منظر، فقال: كيف أنت وما لقيت بعدي؟ فقالت:

نعم المحبة يا حبيبي حبكا حب يقود إلى خير وإحسان

فقال على ذلك: إلى ما صرت؟ فقالت:

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد ملك ليس بالفاني

فقال لها: اذكريني هناك، فإني لست أنساك. فقالت: ولا أنا والله أنساك، ولقد سألتك ربي مولاي ومولاك، فأعانني على ذلك بالإجتهاد، ثم ولت مدبرة، فقلت لها: متى أراك؟ قالت: ستأتينا عن قريب، فلم يعش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمهما الله. انتهى[604]

وروي أن رجلا جاء إلى إبراهيم بن أدهم فقال له: يا أبا إسحاق، إني مسرف على نفسي، فاعرض علي ما يكون لها زاجرا ومستنقذا لقلبي.

قال: إن قبلت خمس خصال وقدرت عليها، لم تضرك معصية و لم توبقك لذة.

قال: هات يا أبا إسحاق

قال: أما الأولى، فإذا أردت أن تعصي الله عز وجل فلا تأكل رزقه.

قال: فمن أين آكل وكل ما في الأرض من رزقه؟

قال له: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتعصيه؟

قال: لا، هات الثانية

قال: وإذا أردت أن تعصيه، فلا تسكن شيئا من بلاده، قال الرجل: هذه أعظم من الأولى، يا هذا، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له، فأين أسكن؟ قال: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه؟

قال: لا، هات الثالثة

قال: إذا أردت أن تعصيه، وأنت تحت رزقه وفي بلاده، فانظر موضعا لا يراك فيه مبارزا له، فاعصه فيه، قال: يا إبراهيم، كيف هذا وهو مطلع على ما في السرائر؟

قال: يا هذا، أفيحسن أن تأكل رزقه وتسكن بلاده وتعصيه، وهو يراك ويرى ما تجاهره به؟

قال: لا، هات الرابعة

قال: إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك فقل له: أخرني حتى أتوب توبة نصوحا، وأعمل لله عملا صالحا.

قال: لا يقبل مني

قال: يا هذا، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك الموت لتتوب، وتعلم أنه إذا جاء لم يكن له تأخير، فكيف ترجو وجه الخلاص؟

---

[604] التوابون

قال: هات الخامسة.

قال: إذا جاءتك الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار، فلا تذهب معهم.

قال: لا يدعونني ولا يقبلون مني

قال: فكيف ترجو النجاة إذا؟

قال له: يا إبراهيم، حسبي أن أستغفر الله وأتوب إليه

ولزمه في العبادة حتى فرق الموت بينهما. انتهى[605]

حدثني جعفر بن سليمان قال: مررت أنا ومالك بن دينار بالبصرة، فبينا نحن ندور فيها، مررنا بقصر يعمر، وإذا شاب جالس، ما رأيت أحسن وجها منه، وإذا هو يأمر ببناء القصر، ويقول: افعلوا واصنعوا

فقال لي مالك: ما ترى إلى هذا الشاب، وإلى حسن وجهه، وحرصه على هذا البناء؟ ما أحوجني إلى أن أسأل ربي أن يخلصه، فلعله يجعله من شباب الجنة، يا جعفر، ادخل بنا إليه.

قال جعفر: فدخلنا، فسلمنا، فرد السلام و لم يعرف مالكا، فلما عرفوه إياه، قام إليه فقال: حاجة؟ قال: كم نويت أن تنفق على هذا القصر؟ قال: مائة ألف درهم.

قال: ألا تعطيني هذا المال فأضعه في حقه، وأضمن لك على الله تعالى قصرا خيرا من هذا القصر بولدانه وخدمه وقبابه وخيمه، من ياقوتة حمراء، مرصع بالجواهر، ترابه الزعفران، وملاطه المسك، أفيح من قصرك هذا، لا يخرب، لا تمسه يدان و لم يبنه بناء، قال له الجليل: كن، فكان؟

قال: أجلني الليلة، وبكر علي غدوة

قال جعفر: فبات مالك وهو يفكر في الشاب، فلما كان في وقت السحر، دعا وأكثر من الدعاء.

فلما أصبحنا، غدونا، فإذا بالشاب جالس، فلما عاين مالكا هش إليه، ثم قال: ما تقول في ما قلت بالأمس؟

قال: تفعل؟ قال: نعم.

فأحضر البدر ودعا بدواة وقرطاس، ثم كتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما ضمن مالك بن دينار لفلان بن فلان: إني ضمنت لك على الله قصرا، بدل قصرك بصفته، كما وصفت، والزيادة على الله. واشتريت لك بهذا المال قصرا في الجنة، أفيح من ظل ظليل، بقرب العزيز الجليل. ثم طوى الكتاب ودفعه إلى الشاب، وحملنا المال، فما أمسى مالك، وقد بقي عنده مقدار قوت ليلة.

---

[605] المرجع نفسه

فما أتى على الشاب أربعون ليلة، حتى صلى مالك ذات يوم الغداة، فلما انفتل، فإذا بالكتاب في المحراب موضوع، فأخذه مالك فنشره، فإذا في ظهره مكتوب بلا مداد: هذه براءة من الله العزيز الحكيم، لمالك بن دينار: إنا وفينا الشاب القصر الذي ضمنت له، وزيادة سبعين ضعفا.

قال: فبقي مالك متعجبا، وأخذ الكتاب، فقمنا، فذهبنا إلى مترل الشاب، فأقبلنا، فإذا الباب مسود، والبكاء في الدار، فقلنا: ما فعل الشاب؟ قالوا: مات بالأمس.

فأحضرنا الغاسل، فقلنا: أنت غسلته؟ قال: نعم، قال مالك: فحدثنا كيف صنعت؟ قال: قال لي قبل الموت: إذا أنا مت وكفنتني، اجعل هذا الكتاب بين كفني وبدني، فجعلت الكتاب بين كفنه وبدنه، ودفنته معه.

فأخرج مالك الكتاب، فقال الغاسل: هذا الكتاب بعينه، والذي قبضه، لقد جعلته بين كفنه وبدنه بيدي.

قال: فكثر البكاء.

فقام شاب، فقال: يا مالك، خذ مني مائتي ألف درهم، واضمن لي مثل هذا.

قال: هيهات، كان ما كان، وفات ما فات، والله يحكم ما يريد. فكلما ذكر مالك الشاب، بكى ودعا له. انتهى[606]

[606] المرجع نفسه

لما توب توكل على مولاك يا التايب
إلى بغيتي تتعقل عش في الدنيا سايب
مريم مهما تتبتل رزقها ياتي بلا سبايب
في المقام و تحصل ولا سبب يا العايب
التوكل عندنا توحيد الموكل وحده موحد
من يتوكل على العبيد اشرك بالله شي حد
على العبيد كن تحيد كل ما عندهم ينفد
ما عند الله ما يبيد خزاينو ما ليها حد
العبد مهما تسولو يشردك تلح على سوالو يغضب
سول الله ما يردك التسوال يهواه الرب
من تكسيه يجردك لا زلت عليه تعتب
العبد إلى زردك يوم عليه ينصب

يقول: وإذا أتيت بتوبتك على الوجه الصحيح، فعليك بالتوكل على مولاك أيها التائب، وهو المقام الثاني بعدها، وإن كنت ذا عقل، فعش سائبا في الدنيا، ولا تتوكل سوى على مولاك

ومتى صححت مقام التوكل، فقد ترزق بغير سبب، فهذه مريم العذراء كانت ترزق بغير سبب، لما صححت توكلها على الله تعالى وتبتلت إليه، ولكن إن كان في توكلك عيب، فعليك باتخاذ الأسباب، فلن ترزق بغيرها قال الله تعالى: " كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب".[607]

قلت: قوله تعالى: "كلما"، أي في كل مرة، والمراد مرات

وقوله تعالى: "وجد عندها رزقا"، يفيد التكرار والتنوع

وقوله تعالى على لسان زكرياء عليه السلام: "يا مريم أنى لك هذا"، استبعاد وتعجب، صدر عن نبي من أنبياء الله تعالى، لما رآه من شأن صديقة، وفيه ما فيه من عظم ما حبا الله تعالى به مريم من منة وخصوصية وفضل

---

[607] آل عمران37

وفي مذهبنا: لا ندع الأسباب مهما كفيناها، لأن الأخذ بها من سنة رسول الله ﷺ، ومن دعا إلى تركها، فقد خرج عن السنة

ولو سارت الأمة بترك السبب، لاضمحل أمر المسلمين، وساءت أمورهم، وفلت شوكتهم، وقدر عليهم غيرهم، وما عاد لهم من بأس ولا قوة لحفظ الدين، فتدبر

ولكن من سار على غير مذهبنا، فلم يأخذ بالسبب، فهلا ألزم نفسه بذلك، و لم يأمر به غيره، حتى لا يكون ما قلت.

وأما الشيخ المربي، فأنصحه باتباع ما أمر به الدين من الأخذ بالأسباب، حتى لا يربي مريديه على التجرد من الدنيا، فلا يقدرون، ويجدون في ذلك مشقة، ويحسبونه من الدين، وما هو من الدين، فإنه مؤاخذ به، نسأل الله تعالى لنا وله الغفران

الكلام على مقام التوكل

يقول الله تعالى: "ومن يتوكل على الله فهو حسبه، إن الله بالغ أمره، قد جعل الله لكل شيء قدرا". [608]

ويقول سبحانه: "وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا، ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون". [609]

وقال سبحانه: "فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين". [610]

وقال سبحانه: "فأعرض عنهم وتوكل على الله، وكفى بالله وكيلا". [611]

وقال سبحانه: "وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين". [612]

تعريف التوكل

يقول السري السقطي: التوكل: هو الانخلاع عن الحول والقوة . انتهى[613]

[608] الطلاق3

[609] إبراهيم15

[610] آل عمران159

[611] النساء80

[612] المائدة25

613- الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي طبقات الصوفية. كستران

ويقول الإمام أبو حامد الغزالي: حال التوكل: معناه أن تكل أمرك إلى الله تعالى، ويثق به قلبك، وتطمئن بالتفويض إليه نفسك، ولا تلتفت إلى غير الله تعالى. انتهى(614)

يقول أبو الفتح الجعفي: والتوكل مقام يأتي بعد التوبة، إذ نهاية الأول بداية الثاني

وقد عز فهم معنى التوكل على العارفين وامتنع، ألا ترى إلى قول الشيخ: التوكل عندنا توحيد، أي أنه يرى أن تحقيق التوكل هو توحيد لله تعالى، و لم ير موحدا لله تعالى أخلص في توحيده غير المتوكل

وقد ظن أقوام أن التوحيد هو قول لا إله إلا الله، وعبادة الله تعالى وحده دون سواه

أما التوحيد عندنا، فهو أكثر من ذلك، التوحيد إفراده تعالى وتخصيصه في اللجوء والتوجه، وفي الرجاء والخشية والمحبة، ذلك حد التوكل

فهو إذن علامة التوحيد، فمن اتصف بما قلناه في تعامله مع مولاه، كان متوكلا

وقد فهم قوم أن التوكل يكون بترك الأسباب، وفهم آخرون أنه يكون بالإتيان بالأسباب والاتكال على رب الأرباب، أي بدعوته تعالى تيسير منفعتها

يقول في منازل السائرين: التوكل كلة الأمر كله إلى مالكه، والتعويل على وكالته. وهو من أصعب منازل العامة عليهم، وأوهى السبل عند الخاصة، لأن الحق قد وكل الأمور كلها إلى نفسه، وأيأس العالم من ملك شيء منها، وهو على ثلاث درجات، كلها تسير مسير العامة:

الدرجة الأولى: التوكل مع الطلب ومعاطاة السبب، على نية شغل النفس، ونفع الخلق وترك الدعوى

والدرجة الثانية: التوكل مع إسقاط الطلب، وغض العين عن السبب اجتهادا في تصحيح التوكل، وقمع تشرف النفس، وتفرغا إلى حفظ الواجبات.

والدرجة الثالثة: التوكل مع معرفة التوكل النازعة إلى الخلاص من علة التوكل، وهو أن يعلم أن ملكة الحق تعالى للأشياء ملكة عزة، لا يشاركه فيها مشارك، فيكل شركته إليه.

فإن من ضرورة العبودية أن يعلم العبد، أن الحق هو مالك الأشياء وحده. انتهى[615]

حدثني الفقيه أبو عبد الله بن الفقيه أبي العباس عن أبيه، أنه أخبره، قال: كان ابتداء أمري، أني كنت صغيرا، فسمعت أقوال الناس في التوكل، فتفكرت في حقيقته، إلى أن رأيت أن التوكل لا يصح إلا بترك كل شيء، و لم يكن عندي منه ذوق، فتركت الأسباب واطرحت العلائق، و لم يبق في نفسي تعلق بمخلوق، فخرجت سائحا متوكلا، وسرت نهاري كله، فأجهدني الجوع والنصب، وقد كنت نشأت في رفاهية من العيش، وما تقدم لي قط مشي على قدمي، فبلغت إلى قرية فيها مسجد، فتوضأت من الساقية، ودخلت المسجد، فصليت

614- الإمام الغزالي مخطوطة الأربعين في أصول الدين. كستران

615- منازل السائرين

المغرب، وأقمت في المسجد إلى أن صليت العتمة، فخرج الناس من المسجد، فقمت لأصلي، فلم أقدر من شدة الجوع والتألم بالمشي، فصليت ركعتين، ثم قعدت وأنشأت أقرأ القرآن، إلى أن مضى سريع من الليل، فإذا قارع يقرع باب دار بعنف، فاستجاب له صاحب الدار، فقال له: هل رأيت بقرتي؟ فقال: لا، فقال له: إنها ضلت، وقد أكثر عجلها الحنين إليها؛ فطلباها فلم يجداها في القرية، فقال بعضهم: لعلها دخلت في المسجد وقت العتمة، ففتحوا باب المسجد ودخلوا، فوجدوني في المسجد، فقال لي صاحب البقرة: ما أظنك أكلت الليلة شيئا، فجاءني بكسرة خبز وقدح لبن، ثم مر يأتيني بالماء، فوجد بقرته وعجلها بوسط الدار، وكانت في مكان لم يروها فيه، فخرج صاحبها إلى جيرانه، وقال لهم: ما زالت البقرة في الدار، وما كان خروجي إلا من أجل هذا الفتى الجائع الذي بات في المسجد، فجاء إلي ورغبني أن أذهب معه إلى مترله فأبيت، فانصرف وتركني. انتهى[616]

يقول ابن عطاء الله السكندري: اعلم أنه لا ينافي التوكل على الله في أمر الرزق وجود السبب، كما أشار إليه رسول الله ﷺ، لأنه قال: "فاتقوا الله وأجملوا في الطلب". فقد أباح الطلب، ولو كان منافيا لمقام التوكل على الله، لما أباحه، لأنه لم يقل: ألا تطلبوا، وإنما قال: أجملوا في الطلب. فكأنه قال: إذا طلبتم مجملين، أي كونوا مع الله في الطلب متأدبين، وإليه مفوضين. فقد أباح صلوات الله عليه وسلامه، وجود الطلب، والطلب من الأسباب، وقد سبق قوله عليه الصلاة والسلام: "أحل ما أكل المرء من كسب يمينه"، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على جواز الأسباب، بل على الحث عليها، والندب إليها.

حكمة الأخذ بالأسباب:

وفي الأسباب فوائد منها:

الفائدة الأولى: أن الحق تعالى، علم ضعف قلوب العباد وقصورهم عن مشاهدة القسمة، وعجزهم عن صدق الثقة، فأباح لهم الأسباب إسنادا لقلوبهم، وتثبيتا لنفوسهم، فكان ذلك من فضله عليهم.

الفائدة الثانية: إن في الأسباب صيانة للوجوه عن الابتذال بالسؤال، وحفظ لبهجة الإيمان أن تزول بالطلب من الخلق، فما يعطيك الله من الأسباب، فلا منة فيه لمخلوق عليك، إذ لا يمن عليك أحد إن اشترى منك أو استأجرك على عمل شيء، فإنه في حظه سعي ونفع نفسه قصد، فالسبب أخذ منه بغير منة.

[616] التشوف إلى رجال التصوف

الفائدة الثالثة: إن في شغل العباد بأسبابهم شغلا عن معصيته، والتفرغ إلى مخالفته، ألا تراهم إذا تطلعت أسبابهم في أعيادهم وغيرها، كيف يتعرف أهل الغفلة لمخالفة الله تعالى، وينهمكون في معصية الله، فكأن شغلهم بالأسباب زحمة من الله عليهم.

الفائدة الرابعة: إن في الأسباب والقيام بها رحمة بالمتجردين، ومنة من الله على المتوجهين لطاعته والمتفرغين لها، ولا قيام لأهل الأسباب فيها، فكيف كان يصح لصاحب الخلوة خلوته، ولصاحب المجاهدة مجاهدته؟ فجعل الحق تعالى الأسباب كالخدمة للمتوجهين إليه، المقبلين عليه.

الفائدة الخامسة: إن الحق تعالى، أراد من المؤمنين أن يتآلفوا لقوله تعالى: "إنما المومنون إخوة".[617]

فكانت الأسباب سببا لتعارفهم، وموجبة لتوادده‍م، ولا ينكر الأسباب إلا جاهل أو عبد عن الله غافل.

و لم يبلغنا أن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الله وأمرهم بالخروج عن أسبابهم، ولكن أقرهم على ما يرضاه الله منها، ودعاهم إلى وجود الهدى، والقرآن والسنة محشوان بإثبات الأسباب.

ولقد أحسن من قال:

ألم تر أن الله قال لمريم إليك فهزي الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أدنى الجذع من غير هزها إليها ولكن كل شيء له سبب

إشارة إلى قوله تعالى: "وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا".[618]

وظاهر صلوات الله عليه وسلامه، بين درعين يوم أحد، وأكل عليه الصلاة والسلام القثاء بالرطب، وقال: "هذا يدفع ضرر هذا"، وذلك كثير. وفي قوله ﷺ: "تغدو خماصا وتروح بطانا"،[619] إثبات الأسباب أيضا. لأن غدوها ورواحها، سبب أقيمت فيه، فهو كغدو الآدميين إلى مكاسبهم، ورواحهم إليها. والقول الفصل في ذلك، أنه لا بد لك من الأسباب وجودا، ولا بد لك من الغيبة عنها شهودا. فأثبتها من حيث أثبتها بحكمته، ولا تستند إليها لعلمك بأحديته. انتهى[620]

ويقول الشيخ: متى سألت العبد شردك، وإذا ألححت عليه في السؤال غضب عليك، فاسأل الله الذي لا يردك، فإنه تعالى يهوى كثرة السؤال

---

[617] الحجرات10

[618] مريم24

[619] نص الحديث: عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: "لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتروح بطانا". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

[620] التنوير في إسقاط التدبير

أما العبيد، فمن كساك، جردك من ملابسك، وبقيت عاتبا عليه، ومن استضافك وأطعمك منهم، فما فعل ذلك، إلا ليستدرجك كي يخدعك وينصب عليك

وكما يقول المثل المغربي: كل شيء غرسته وتعهدته بالسقي والرعاية، حتى استقرت جذوره، واشتد عوده، أثمر وأكلت ثماره، إلا ابن آدم، إذا غرسته وتعهدته، واستقرت جذوعه واشتد عوده، اقتلعك من جذورك

يقول الشيخ ابن عباد الرندي: دخل جماعة على الشيخ الجنيد البغدادي رحمه الله تعالى، فقالوا: نطلب الرزق؟

فقال: إن علمتم في أي موضع هو فاطلبوه

قالوا: نسأل الله ذلك؟

فقال: إن علمتم أنه ينساكم فذكروه.

فقالوا: فندخل البيت، فنتوكل على الله؟

فقال: التجربة شك.

قالوا: فما الحيلة؟

قال: ترك الحيلة. انتهى[621]

قال أبو الفتح: والتوكل عندنا على قسمين:

توكل عامة الأمة: ويقوم على فعل الأسباب، دون التعويل عليها، بل المعول عليه الله

توكل خاصة الأمة: وهو غايته: ويصح لصاحبه بترك الأسباب بالمرة

فإذا كنت في النوع الأول، فابق مع أسبابك دون الركون إليها، بل اعرف أن الذي يقضي حاجتك هو الله تعالى

ومهما خانك السبب، فلا تبتئس، فما الأسباب إلا أسباب

وإياك أن تتوكل وتطرح الأسباب، وأنت لست هنالك

فإن التوكل بغير أخذ بالأسباب، يستلزم يقينا بأن الله هو الرزاق، أما إن كنت ممن يراوده الشك في ذلك، فعليك بالسبب

ومتى وعدك شخص بقضاء حاجتك، فاقبل منه وعده ومعروفه، واجعله سببا من الأسباب، ولكن إن عولت عليه خذلك الله

ومن كمل يقينه، رزق من خزائن الوهاب بغير أسباب، فهذه مريم ترزق بغير سبب

621- الشيخ ابن عباد الرندي الرسائل الصغرى

قال الله تعالى: "كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال يا مريم أنى لك هذا، قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب".[622]

فإن شئت أن ترزق كما رزقت، فتبتل كما تبتلت، وأخلص توكلك كما أخلصت، يكون حالك حالها ورزقك رزقها

يقول الشيخ تاج الدين بن زكريا العثماني: كانت امرأة عندها ولد الأخ صغيرا فتربيه، كانت هكذا تضع الطعام عند الطاقة، فإذا طلب الطعام، تقول: اذهب عند الطاقة واطلب من الله تعالى يعطيك، وكانت عملت هكذا زمانا طويلا وسنينا كثيرة، فيوما ما، نسيت هذا العمل، وذهبت إلى بيت آخر، فلما تذكرت، قالت: نسيت ذلك العمل والولد جائع، فلما جاءت، سألت الولد: أنت جائع؟

قال: لا، بل أكلت الطعام.

قالت: من أين؟

قال: أعطاني الله تعالى كما يعطيني كل يوم.

فكان رزقه هكذا حتى مات. ولهذا قيل: رزق العوام في اليمين، ورزق الخواص في اليقين. انتهى[623]

يقول الشيخ: التوكل عندنا توحيد، إذ هو نزع التوجه لما سواه واللجوء إليه وحده، فما رأيت أخلص متوجه إلى الله تعالى من المتوكل

ومن يتوكل على العبيد، فكأنما أشرك بالله غيره، فكن عن العبيد حائدا، ومن عونهم يائسا، أليس كل ما عندهم ينفد، وما عند الله باق لا يفنى ولا يبيد، إذ لا حد لخزائنه؟

---

622 آل عمران37

623- الشيخ تاج الدين بن زكريا العثماني مخطوطة آداب المريدين

وكلت عليك الله يا نفسي خليتني مع الهوى
مازلت بيا توسوسي حتى ورطتيني في الهوا
كل ليله تعرسي هبالك ما عندو دوا
كل عزايمي تهرسي تمنيني بالخوا

يقول: كلت أمرك يا نفسي إلى الله تعالى، فقد أذللتني أنت والهوى، ولا زلت توسوسين بي، حتى ورطتني في الهواء والسراب، في كل ليلة لك عرس، فأنت مجنونة ولا دواء لجنونك

كسرت كل عزائمي، ومنيتني بالتفاهات والفراغ

والمعنى: يقول الله تعالى: "وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم". [624]

ويقول تعالى: "والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويوثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". [625]

وقال سبحانه: "أرايت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا". [626]

الكلام على النفس الأمارة بالسوء

يقول الشيخ عبد القادر الجيلي: النفس تسمى في الاصطلاح على خمسة أضرب: نفس حيوانية، ونفس أمارة، ونفس ملهمة، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة؛ وكلها أسماء الروح، إذ ليس حقيقة النفس إلا الروح، وليس حقيقة الروح إلا الحق، فافهم

فالنفس الحيوانية: تطلق على الروح باعتبار تدبيرها البدن فقط، وأما الفلسفيون، فالنفس الحيوانية عندهم هي الدم الجاري في العروق، وليس هذا بمذهبنا

ثم النفس الأمارة: تسمى به، باعتبار ما يأتيه من المقتضيات الطبيعية الشهوانية، بالانهماك في الملاذ الحيوانية، وعدم المبالاة بالأوامر والنواهي

---

[624] يوسف53

[625] الحشر09

[626] الفرقان43

ثم النفس الملهمة: تسمى به، باعتبار ما يلهمها الله تعالى به من الخير، فكل ما تفعله النفس من الخير هو بالإلهام الإلهي، وكل ما تفعله من الشر، هو بالاقتضاء الطبيعي، وذلك الاقتضاء منها، بمثابة الأمر لها بالفعل، فكأنها هي الأمارة لنفسها، بفعل تلك المقتضيات، فلهذا سميت أمارة، وللإلهام الإلهي سميت ملهمة

ثم النفس اللوامة: سميت به، باعتبار أخذها في الرجوع والإقلاع، فكأنها تلوم نفسها على الخوض في تلك المهالك، فلهذا سميت لوامة

ثم النفس المطمئنة: سميت به، باعتبار سكونها إلى الحق واطمئنانها به، وذلك إذا قطعت الأفعال المذمومة رأسا، والخواطر المذمومة مطلقا، فإنه متى لم تنقطع عنها الخواطر المذمومة، لا تسمى مطمئنة، بل هي لوامة، ثم إذا انقطعت الخواطر المذمومة مطلقا، تسمى: مطمئنة، ثم إذا ظهر على جسدها الآثار الروحية من طي الأرض وعلم الغيب، وأمثال ذلك، فليس لها اسم، إلا الروح. انتهى[627]

ويقول الشيخ أحمد زروق: النفس: هي الروح، إذا ما هبطت إلى (عالم الأجسام)، وأصبحت سجينة المادة، ونسيت كلما هو خير ومتعال. ثم انغمست في عالم الرغبة والشهوة، مكبلة بحاجات الجسد الذي يقودها في كل حركة من حركاتها. انتهى[628]

يقول الإمام الغزالي: النفس: هي اللطيفة المدركة، العالمة الطاهرة الربانية الخارجة عن صفة النفخة، والمشار إليها بالروح. انتهى[629]

ويقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة حسن الأدب، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبد يجهد بردها عن سوء المطالبة، فمتى أطلق عنانها، فهو شريك في فسادها، ومن أعان نفسه في هوى نفسه، فقد أشرك نفسه في قتل نفسه. انتهى[630]

قال أبو الفتح: وقد أوهم كل من سيدي عبد القادر الجيلي، وسيدي أحمد زروق، وسيدي الإمام أبو حامد الغزالي، رحمهم الله تعالى، قلت: قد أوهموا حين ظنوا أن الروح هي النفس، وممن خلط بينهما كثير من العلماء والعارفين، إلا أننا قد فرقنا بينهما في كتابنا السوانح:

فقد قلنا: الرب والروح، والملك، والشيطان والجن، والجسد والنفس والقرين والهوى، ثم الدنيا

فمن حيث الماهية: الرب والروح لاهوت، والملك نور، والشيطان والجن نار، والجسد والنفس والقرين والهوى حمأ مسنون، والدنيا نهمت، أي نار وهواء وماء وتراب

627- الشيخ عبد الكريم الجيلي الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل. كستران

628- علي فهمي خشيم أحمد زروق والزروقية (بتصرف). كستران

629- الإمام الغزالي سر العالمين وكشف ما في الدارين. كستران

630- أحمد كاظم البهادلي من هدي النبي والعترة في تهذيب النفس وآداب العشرة (القسم الأول). كستران

"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين".[631]

إذا كان الله مصدر الروح، وهي منه ليست إياه، وهما واحد لا ينشطر، واثنان في وحدة، يتوحد دونها ولا تتوحد معه، فهي نفخة من روحه، ينفخها الروح الأول بأمر مولاه، والروح الأول هو مصدرها، والنفخة ليست طرفا منه، وإنما هي أثره، وهو أثر من مولاه، ولا يخلو الأثر من ريح صاحبه، وحاشا لله أن تكون الروح طرفا منه، وهو سبحانه لا يتجزأ، وإنما هي تحمل سر الألوهية، بما نفخت من روح ذات الإله، وليست إلها، وإنما هي تابعة للإله، بل هي من أمره:

"ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا".[632] انتهى[633]

ثم قلت: وقد خلق الله تعالى الجسد أول ما خلقه، وسواه وأمده بما يهيؤه للخير والشر على حد سواء

"ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها".[634]

أما النفس، فما هي سوى حياة الجسد، بل هي حرارته.

والنفس غير الروح فيما ذهبنا إليه.

وقد خرجت النفوس من نفس واحدة، "وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع".[635]

وإن شئت قلت: النفس عقل الجسد، لا تفكر سوى بطبعه، فيما يرغب فيه أو يرغب عنه، على حسب طبيعة التراب.

"وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم".[636]

أما الروح، فهي سجينة في الجسد، وهي شاهدة لما يفعل بأمر النفس، لا تستطيع أن تثنيه عن فعله، وإن كانت تلوح له، وقد ينثني بتلويحها، وقد يتجاهل ما تقول.

وقد تؤثر الروح في النفس، فتأخذ هذه من تلك ما يصلح حالها ويقربها إلى مولاها، فتحظى برضاه، "لا أقسم بالنفس اللوامة".[637]

---

[631] الحجر28-29

[632] الإسراء85

[633] سوانح الخواطر في كوامن السرائر

[634] الشمس07-10

[635] الأنعام99

[636] يوسف53

[637] القيامة02

"يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي".[638]

وقد نفخ الله تعالى الروح في الجسد، بعد تسويته، فلم يسجد ملائكته الكرام للجسد بعد تسويته، إذ لا يستحق السجود بذلك وحده، وإنما أسجدهم بعد أن نفخ فيه من روحه

"وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين".[639]

وقد نفخها ربها فيه راضية مرضية مطمئنة، لا قبل للنفس بتلويثها، أو صدها عن هداها.

النفس عنوان الجسد تجري به فيما قصد
يحيى بها في كونه حرا ولكن في كبد
والروح ضيف شاهد عن رشده لا يبتعد.[640]

والروح لا تغادر الجسد، بل هو الذي يغادرها متى بطل ومات، فإذا نام، انطلقت في اللآهوت تستريح من سجنه وتتطهر من درنه، وإذا انجذب تاهت، وإذا مات رجعت إلى باريها نقية صافية، كما جاءت أول مرة.

فإن قلت: فأين المكلف من المكلف؟ فإذا كان الجسد ونفسه من أصل التراب، وسيعودان ترابا، والروح تبقى نقية طاهرة لا تذنب، ولا حساب عليها، ففيم الجزاء وفيم العقاب؟

مدى بيا لو عرفت حسابي ما يغيب علي بالعرف كتابي
ما خط اللوح فى غيابي دريتو واكشفت حجابي
إلى كنت نفس فى ثيابي مال الروح شاده باهدابي.[641]

قلت: عندي جوابك:

إذا كانت الروح في جسدها تألم وتتحسر لما تفتيه النفس على الجسد من معاص، وتفرح وتنتشي بالطاعات والسبيح، فالفاعل الجسد، والمكافأ بحسن الفعل وقبحه النفس، والأمر في الدنيا مثل الأمر في الآخرة.

إذ الجسد يعذب وتتألم النفس، أو ينعم وتتمتع.

"ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم".[642] انتهى[643]

---

[638] الفجر 30-32

[639] الحجر 28-29

[640] للمؤلف

[641] للمؤلف

[642] الأنعام 94

[643] سوانح الخواطر في كوامن السرائر

اصرف عني كيد الملعون   بلاني   بحب   الدنيا

الدنيا خضيره في العيون   تتقلب   كيف   الحيه

عمر راسي بالشطون   بلاني   بألف   بليه

ما زلت بالدنيا مفتون   كلهم   تعاماوا   علي

يقول: اصرف عني كيد الملعون، وهو الشيطان الرجيم، فقد أغواني بحب الدنيا، ما أشد خضرة الدنيا في العيون، إلا أنها تتقلب كما تتقلب الحية الرقطاء، ملأ لعنة الله تعالى عليه، رأسي بالهواجس، وتسبب لي عن طريق وسوسته بي، في ألف بلية

لازلت بالدنيا مفتونا، كيف الخلاص، وكل من الشيطان والدنيا تظاهرا علي؟

والمعنى: عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ، قال "إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء". وفي حديث بشار: "لينظر كيف تعملون". رواه مسلم

قال سبحانه: "وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون".[644]

الكلام على إبليس لعنه الله تعالى

يقول الله تعالى: "إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير".[645]

إني ابتليت بأربع ما سلطوا   إلا لشدة شقوتي وعنائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى   كيف الخلاص وكلهم أعدائي

وأرى الهوى تدعو إليه خواطري   في ظلمة الشهوات والآراء .[646]

ومن مجاهدة النفس والشيطان، تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية، والهداية، والحفظ من الضلال والغواية. انتهى(647)

---

[644] العنكبوت64

[645] فاطر6

[646] مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب

647- الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية. كستران

يقول الشيخ الأكبر ابن عربي: يستعان على الشيطان بثلاث:

تعرف مكائده، وترك الاعتناء بوسوسته، وإدمان ذكر الله. انتهى(648)

ويقول الشيخ ابن عباد الرندي: قيل لبعض العارفين: كيف مجاهدتك للشيطان؟

فقال: وما الشيطان؟ نحن قوم صرفنا همنا إليه، فكفانا من دونه. انتهى(649)

ويقول ابن عطاء الله: فقد فهمت رحمك الله، أن الشيطان أحقر في قلوبهم من أن يضيفوا إليه قدرة، أو ينسبوا له إرادة.

وسر الحكمة في إيجاد الشيطان، أن يكون مظهرا ينسب إليه سباب العصيان، ووجود الكفران والغفلة والنسيان، ألم تسمع قوله: "وما أنسانيه إلا الشيطان".[650]

و"هذا من عمل الشيطان".[651]

فكان سر إيجاده، ليمسح فيه أوساخ النسب، ولذلك قال بعض العارفين: "الشيطان منديل هذه الدار، يمسح به وسخ المعاصي، وكل قبيح وخبيث، إن الله تعالى لو شاء أن لا يعصى، لما خلق إبليس.

وقال الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى: الشيطان كالذكر، والنفس كالأنثى، وحدوث الذنب بينهما كحدوث الولد بين الأب والأم، لا أنهما أوجداه، ولكن عنهما كان ظهوره.

ومعنى كلام الشيخ هذا، أنه كما لا يشك عاقل أن الولد ليس من خلق الأب والأم، ولا من إيجادهما، ونسب إليهما لظهوره عنهما، كذلك لا يشك مؤمن، أن المعصية ليست من خلق الشيطان والنفس، بل كانت عنهما، لا منهما، فلظهورها عنهما نسبت إليهما.

فنسبة المعصية إلى الشيطان والنفس، نسبة إضافة وإسناد، ونسبتها إلى الله، نسبة خلق وإيجاد، كما أنه خالق الطاعة بفضله، كذلك هو خالق المعصية بعدله.

"قل كل من عند الله، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا".[652]

وقال الله تعالى: "الله خالق كل شيء".[653]

وقال سبحانه وتعالى: "هل من خالق غير الله".[654]

648- الشيخ ابن عربي شجون المسجون وفنون المفتون. كستران

649- الشيخ ابن عباد الرندي غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية. كستران

[650] الكهف62

[651] القصص14

[652] النساء77

[653] الزمر59

وقال سبحانه وتعالى: "أفمن يخلق كمن لا يخلق، أفلا تذكرون".[655] انتهى[656]

---

[654] فاطر3

[655] النحل17

[656] التنوير في إسقاط التدبير

استعاذة أبي الفتح الجعفي

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

"حم، تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير". [657]

سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك

سورة الفاتحة

الإخلاص

المعوذتان

آيات الكرسي

أتيتك مستجيرا بجوارك يا رحمن، فأجرني من الهم والأحزان، وقني شح نفسي يا حنان يا منان، واكفني شياطين الإنس والجان

اكتبني في عبادك المخلصين، ولا تجعل للشيطان بسلطانك الذي لا يضاهيه سلطان علي من سلطان

بسم الله الذي لايضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم

أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات، اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، من شر ما ينزل من السماء وشر ما يعرج فيها، وشر ما ذرأ في الأرض وشر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن طوارق الليل إلا طارقا يطرق بخير، يا رحمن.

أعوذ بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة

تحصنت بلا إله إلا الله، فأمنت من السحر والعين والنظرة والفزع والأحزان، وكفيت أعادي من الإنس والجان

"فلما ألقوا قال موسى ما جيتم به السحر، إن الله سيبطله، إن الله لا يصلح عمل المفسدين". [658]

"فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسيا وهو حسير". [659]

"وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون". [660]

وتعممت بعزة جبروت: "لمن الملك اليوم لله". [661] واشتملت بوقاية نصرة: "إلا تنصروه فقد نصره الله". [662]

---

[657] غافر1-2

[658] يونس81

[659] الملك03-04

[660] المومنون98-99

ورفلت في كفاية منة: "ذلك فضل الله". [663]

ما ظنك بعبد سيده الله؟ لا يخشى سواه، ما زال في حماه، متى دعاه أجاب دعاه، ونصره ووالاه على من عاداه "إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين". [664]

"آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمومنون، كل آمن بالله وملايكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين". [665]

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

---

[661] غافر15

[662] التوبة40

[663] الحديد20

[664] الأعراف196

[665] البقرة284-285

ما قاله الإمام أبو حامد في الدنيا وتقلبها

يقول الإمام ابو حامد الغزالي: الحمد لله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها، وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها، حتى نظروا في شواهدها وآياتها، ووزنوا بحسناتها سيئاتها، فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها، ولا يفي مرجوها بمخوفها، ولا يسلم طلوعها من كسوفها؛ ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها، ولها أسرار سوء قبائح تهلك الراغبين في وصالها، ثم هي فرارة عن طلابها، شحيحة بإقبالها، وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها، إن أحسنت ساعة أساءت سنة، وإن أساءت مرة جعلتها سنة، فدوائر إقبالها على التقارب دائرة، وتجارة بنيها خاسرة بائرة، وآفاتها على التوالي لصدور طلابها راشقة، ومجاري أحوالها بذل طالبيها ناطقة، فكل مغرور بها إلى الذل مصيره، وكل متكبر بها إلى التحسر مسيره، شأنها الهرب من طالبها والطلب لهاربها، ومن خدمها فاتته، ومن أعرض عنها واتته؛ لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات، ولا ينفك سرورها عن المنغصات، سلامتها تعقب السقم، وشبابها يسوق إلى الهرم، ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم؛ فهي خداعة مكارة طيارة فرارة؛ لا تزال تتزين لطلابها، حتى إذا صاروا من أحبابها، كشرت لهم عن أنيابها، وشوشت عليهم مناظم أسبابها، وكشفت لهم عن مكنون عجائبها، فأذاقتهم قواتل سمامها، ورشقتهم بصوائب سهامها؛ بينما أصحابها منها في سرور وإنعام، إذ ولت عنهم كأنها أضغاث أحلام، ثم عكرت عليهم بدواهيها، فطحنتهم طحن الحصيد، ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد؛ إن ملكت واحدا منهم جميع ما طلعت عليه الشمس، جعلته حصيدا كأن لم يغن بالأمس، تمني أصحابها سرورا وتعدهم غرورا، حتى يأملوا كثيرا ويبنوا قصورا، فتصبح قصورهم قبورا وجمعهم بورا، وسعيهم هباء منثورا، ودعاؤهم ثبورا، هذه صفتها، وكان أمر الله قدرا مقدورا. والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله، المرسل إلى العالمين بشيرا ونذيرا وسراجا منيرا، وعلى من كان من أهله وأصحابه له في الدين ظهيرا، وعلى الظالمين نصيرا، وسلم تسليما كثيرا. انتهى[666]

عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: مر رسول الله ﷺ بذي الحليفة، فرأى شاة شائلة برجلها، فقال: "أترون هذه الشاة هينة على صاحبها"، قالوا: نعم، قال: "والذي نفسي بيده، للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء". رواه الحاكم في المستدرك

وقال علي بن أبي طالب: ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدا حساب ولا عمل. انتهى[667]

---

[666] إحياء علوم الدين

[667] نهج البلاغة

عن عبد الله قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء؟ فقال: "ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

الكلام على مقام التسليم

لما تتوكل سلم لابد من التجريب
المتوكل ما يسلم من صهد المكاتيب
ما تعارض ولا تتكلم فابل افدارو بالترحيب
وين ما وضعك الزم اثبت فى الشدة لا تريب

ثم يباشر الشيخ الكلام على المقام الثالث، ويقول: إذا صح توكلك دلفت إلى التسليم، ومتى سلمت ابتلاك وجربك، فلا يظن المتوكل أنه بعيد عن الاختبار، بل لا بد له من اصطلاء حر ما جرت به الأقدار والمكاتيب، ومتى ابتلاك الباري عز وجل، فإياك أن تعارض أو تتكلم، بل قابل أقداره بالترحيب، وحيثما وضعك فالزم واثبت في الشدة، ولا تتهاوى وتنهار كالسور القديم

وإذا صح توكلك، فعليك بالتسليم، والتسليم غاية التوكل وثمرته، فاصبر في هذا المقام حتى يوتيكه الله، فإن المسلم لا بد له من الابتلاء والتجريب

والمعنى: قال تعالى: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الاموال والانفس والثمرات، وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون".[668]

فلا تعترض على قضاء الله، وارض بما أقامك فيه وصرفك، تكن من المهتدين

ولا تختر لنفسك شيئا، بل اترك الاختيار لله الواحد الأحد

قال تعالى: "وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون".[669]

---

[668] البقرة154-156

[669] القصص68

قال ابن عطاء الله: والذي يقتضيه الحق منك، أن تمكث حيث أقامك، حتى يكون الحق تعالى هو الذي يتولى إخراجك، كما تولى إدخالك، وليس الشأن، أن تترك السبب، إنما الشأن أن يتركك السبب. قال بعضهم: تركت السبب كذا وكذا مرة، فعدت إليه، ثم تركني السبب فلم أعد إليه. انتهى[670]

وروي أن إبليس سأل الإمام الشافعي رضي الله عنه: ما قولك فيمن خلقني كما اختار، واستعملني فيما اختار، وبعد ذلك، إن شاء أدخلني الجنة، وإن شاء أدخلني النار، أعدل في ذلك أم جار؟

فنظر في كلامه، ثم قال: يا هذا، إن كان خلقك لما تريد أنت، فقد ظلمك، وإن كان خلقك لما يريد هو، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون. فاضمحل إلى أن صار لا شيء، ثم قال: والله، يا شافعي، لقد أخرجت بمسألتي هذه، سبعين ألف عابد من ديوان العبودية إلى ديوان الزندقة. انتهى[671]

فربما إذا اعترضت على ما اختاره لك، واخترت لنفسك، أوكلك إلى ما اخترته، فعاد عليك اختيارك بالحيرة والتيه والندامة

إذا جعت فلا تشك منه، فإن الجوع والفقر شعار الصالحين، وسنة خير المرسلين

قال في منازل السائرين: قال الله عز وجل: "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما".[672]

وفي التسليم والثقة والتفويض ما في التوكل من الاعتلال، وهو من أعلى درجات سبيل العامة، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تسليم ما يزاحم العقول مما يشق على الأوهام من الغيب، والإذعان لما يغالب القياس من سير الدول والقسم، والإجابة لما يفزع المريد من ركوب الأحوال.

والدرجة الثانية: تسليم العلم إلى الحال والقصد إلى الكشف، والرسم إلى الحقيقة.

والدرجة الثالثة: تسليم ما دون الحق إلى الحق مع السلامة من رؤية التسليم، بمعاينة تسليم الحق إياك إليه. انتهى[673]

---

[670] التنوير في إسقاط التدبير

[671] مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب

[672] النساء64

[673] منازل السائرين

وياك يا ولدي تختار مولاك يعرف صوابك
إلى اخترت تختار تشكي من لي صابك
اصبر على الاضرار ؤ ارضى بمكتابك
الجوع يكون ليك شعار ؤ الفقر اجعلو في احبابك

يقول: إياك يا ولدي أن تختار لنفسك، أترك لربك الأمر، فهو أدرى بما يصلحك ويصلح لك، وإن اخترت، فسوف تحتار وتشكو مما أصابك، اصبر على الأضرار وارض بما كتبه الله تعالى لك وعليك، واجعل الجوع لك شعارا، وأما الفقر فليكن ضمن أحبابك

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته، أو تدبير من تدبيراته، أو اختيار من اختياراته. انتهى[674]

الكلام على التسليم ومجانبة الاختيار

والمعنى: يقول ابن عطاء الله: قال الله سبحانه وتعالى: "فلا وربك لا يومنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما".[675]

وقال تعالى: "أم للانسان ما تمنى، فلله الاخرة والاولى".[676]

وقال ﷺ: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا". وقال ﷺ: "أعبد الله بالرضا، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير".

إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث، الدالة على ترك التدبير ومنازعة المقادير، إما نصا صريحا، وإما إشارة وتلويحا.

وقد قال أهل المعرفة: من لم يدبر دبر له.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إن كان ولا بد من التدبير، فدبروا أن لا تدبروا.

وقال أيضا: لا تختر من أمرك شيئا، واختر أن لا تختار، وفر من ذلك المختار، ومن فرارك، ومن كل شيء إلى الله تعالى، "وربك يخلق ما يشاء ويختار".[677] فقوله تعالى في الآية الأولى: "فلا وربك لا يومنون حتى

---

[674] لطائف المنن

[675] النساء64

[676] النجم24-25

[677] القصص68

يحكمود فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما"،[678] فيه دلالة على أن الإيمان الحقيقي لا يحصل إلا لمن حكم الله ورسوله ﷺ على نفسه، قولا وفعلا، وأخذا وتركا، وحبا وبغضا، ويشمل ذلك حكم التكليف وحكم التصريف، والتسليم والانقياد واجب على كل مؤمن في كليهما. انتهى[679]

حديث ثعلبة بن حاطب وإخلافه وعده

قال الله تعالى: "ومنهم من عاهد الله لين آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون، ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب".[680]

يقول الحافظ ابن كثير: وقد ذكر كثير من المفسرين، منهم ابن عباس والحسن البصري، أن سبب نزول هذه الآية الكريمة، في ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وقد ورد فيه حديث رواه ابن جرير ههنا، وابن أبي حاتم من حديث معان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن، مولى عبد الرحمن بن يزيد ابن معاوية، عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري، أنه قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يرزقني مالا، قال: فقال رسول الله ﷺ: "ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه". قال: ثم قال مرة أخرى، فقال: "أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فو الذي نفسي بيده، لو شئت أن تسير الجبال معي ذهبا وفضة لسارت". قال: والذي بعثك بالحق، لئن دعوت الله فرزقني مالا، لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: "اللهم ارزق ثعلبة مالا". قال: فاتخذ غنما، فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فترل واديا من أوديتها، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت، فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار، فقال رسول الله ﷺ: "ما فعل ثعلبة؟" فقالوا: يا رسول الله، اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة، فأخبروه بأمره، فقال: "يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة".

وأنزل الله جل ثناؤه: "خذ من أموالهم صدقة الآية"، ونزلت فرائض الصدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين، رجلا من جهينة ورجلا من سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين، وقال لهما: "مرا بثعلبة وبفلان، رجل من بني سليم، فخذا صدقاهما"، فخرجا حتى أتيا ثعلبة، فسألاه الصدقة،

---

[678] النساء64

[679] التنوير في إسقاط التدبير

[680] التوبة76-79

وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا، وسمع بهما السلمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بهما، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى، فخذوها، فإن نفسي بذلك طيبة، وإنما هي لله. فأخذاها منه، ومرا على الناس، فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة، فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى أرى رأيي، فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: "يا ويح ثعلبة"، قبل أن يكلمهما، ودعا للسلمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة، والذي صنع السلمي، فأنزل الله عز وجل: "ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن الآية". قال: وعند رسول الله ﷺ، رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ﷺ فسأله أن يقبل منه صدقته، فقال: "ويحك، إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك"، فجعل يحثو على رأسه التراب، فقال له رسول الله ﷺ: "هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني"، فلما أبى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، فقبض رسول الله ﷺ، و لم يقبل منه شيئا. ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف، فقال: قد علمت منزلتي من رسول الله ﷺ، وموضعي من الأنصار، فاقبل صدقتي، فقال أبو بكر: لم يقبلها منك رسول الله ﷺ، وأبى أن يقبلها. فقبض أبو بكر و لم يقبلها.

فلما ولي عمر رضي الله عنه، أتاه فقال: يا أمير المؤمنين، اقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، وأنا أقبلها منك؟ فقبض و لم يقبلها. فلما ولي عثمان رضي الله عنه، أتاه فقال: اقبل صدقتي، فقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر، وأنا أقبلها منك؟ فلم يقبلها منه. فهلك ثعلبة في خلافة عثمان. انتهى[681]

[681] تفسير ابن كثير

الكلام على الصبر عند البلاء

قال في منازل السائرين: باب الصبر

قال الله عز وجل: "واصبر وما صبرك إلا بالله".[682]

الصبر حبس النفس على جزع كامن عن الشكوى، وهو أيضا من أصعب المنازل على العامة، وأوحشها في طريق المحبة، وأنكرها في طريق التوحيد، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء على الإيمان، وحذرا من الجزاء، وأحسن منها الصبر عن المعصية حياء

والدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دواما، وبرعايتها إخلاصا، وبتحسينها علما

والدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية، بعد أيادي المنن، وتذكر سوالف النعم

وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزلت: "اصبروا"، يعني في البلاء، "وصابروا"، يعني عن المعصية، "ورابطوا"،[683] يعني على الطاعة

وأضعف الصبر، الصبر لله، وهو صبر العامة

وفوقه الصبر بالله، وهو صبر المريد، وفوقهما الصبر على الله، وهو صبر السالك. انتهى[684]

قال في مرآة المحاسن: ومنها: فصل من كتاب آخر: وصلنا مكتوبك معرفا بحالك وما أصابك، فتأملنا ذلك، وتحقق عندنا أنك مظلوم؛ فعليك بالصبر ولا تجزع، وارجع إلى الله، والله تعالى يثيبك على قدر ذلك، ويعينك في أمورك. على أن هذه المصائب للعبد المؤمن خير له إن صبر، فهي على كل حال، لو علم، منحة وإن كانت في الظاهر محنة، فان لم توجب تخصيصا؛ توجب تمحيصا. وفي الحديث: "إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه؛ فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه". وفي الحديث أيضا: يقول الله تعالى: "إذا ابتليت عبدي المؤمن فتلقى ذلك بصبر جميل، استحييت أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا"، فهذه المصائب للعبد تمحيص لذنبه وتخليص لعيبه، وتخصيص لقلبه؛ فمن اعتبر هذا وأجراه على ضميره، يجد لا محالة راحة، وينقلب الضر نعمة، ولا يزال العبد بين تخليص وتمحيص حتى يفضي إلى الآخرة ولا ذنب عليه، وكل ذلك منوط بالصبر، وإلا اجتمعت عليه

---

[682] النحل27

[683] قال الله تعالى في سورة آل عمران: "يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون". آية200

[684] منازل السائرين

مصيبتان: وجود الضر وفقد الأجر. والرزق اثنان: معجل ومؤجل، فما يلائمه: حظ معاشه، وما يؤلمه رزق معاده، فاختر ما يبقى على ما يفنى، والآخرة خير وأبقى. انتهى[685]

الكلام على الرضا

يقول ابن عطاء الله: والرضا اسم للوقوف الصادق، حيث ما وقف العبد لا يلتمس متقدما ولا متأخرا، ولا يستزيد مزيدا ولا يستبدل حالا

وهو من أوائل مسالك أهل الخصوص وأشقها على العامة، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: رضا العامة، وهو الرضا بالله ربا بسخط عبادة ما دونه.

وهذا قطب رحى الإسلام، وهو يطهر من الشرك الأكبر

وهو يصح بثلاث شرائط:

أن يكون الله عز وجل أحب الأشياء إلى العبد، وأولى الأشياء بالتعظيم، وأحق الأشياء بالطاعة

والدرجة الثانية: الرضا عن الله عز وجل، وبهذا الرضا نطقت آيات التتريل، وهو الرضا عنه في كل ما قضى، وهذا من أوائل مسالك أهل الخصوص.

ويصح بثلاث شرائط: باستواء الحالات عند العبد، وبسقوط الخصومة مع الخلق، وبالخلاص من المسألة والإلحاح

والدرجة الثالثة: الرضا برضا الله، فلا يرى العبد لنفسه سخطا ولا رضا، فيبعثه على ترك التحكم وحسم الاختيار، وإسقاط التمييز ولو أدخل النار. انتهى[686]

قال ابن عطاء الله: كان رضي الله عنه، أي أبو العباس، يفضل الغني الشاكر عن الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء، ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذي الحكيم، ويقول: الشكر صفة أهل الجنة في الجنة، والصبر ليس كذلك. انتهى[687]

عن أبي سعيد الخدري رضى الله تعالى عنه قال: دخلت على النبي ﷺ وهو محموم، فوضعت يدي من فـــوق القطيفة، فوجدت حرارة الحمى، فقلت: ما أشد حماك يا رسول الله! قال: "إنا كذلك معشر الأنبياء، يضاعف علينا الوجع ليضاعف لنا الأجر"، قال: فقلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء"، قلـــت: ثم من؟ قال: "ثم الصالحون، إن كان الرجل ليبتلى بالفقر حتى ما يجد إلا العباء فيحويهـــا ويلبـــسها، وإن كـــان

---

[685] مرآة المحاسن

[686] منازل السائرين

[687] لطائف المنن

أحدهم ليبتلى بالقمل حتى يقتله القمل، وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم". رواه الحاكم في المستدرك

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء، بخمس مائة عام، نصف يوم". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن مسروق قال: دخلت على عائشة، فدعت لي بطعام، وقالت: ما أشبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت، قال: قلت: لم؟ قالت: أذكر الحال التي فارق عليها رسول الله ﷺ الدنيا، والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويا، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن فضالة بن عبيد، أن رسول الله ﷺ كان إذا صلى بالناس، يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة، وهم أصحاب الصفة، حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين، أو مجانون، فإذا صلى رسول الله ﷺ، انصرف إليهم فقال: "لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة". قال فضالة: وأنا يومئذ مع رسول الله ﷺ. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن سماك بن حرب قال: سمعت النعمان بن بشير يقول: ألستم في طعام وشراب ما شئتم، لقد رأيت نبيكم ﷺ، وما يجد من الدقل ما يملأ بطنه. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن مقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه". رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

عن محمد بن خالد عن أبيه عن جده، وكانت له صحبة من رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن العبد إذا سبقت له من الله عز وجل مترلة لم يبلغها بعمله، ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك حتى يبلغه مترلته التي سبقت له من الله عز وجل". رواه الطبراني في الأوسط

لما تستوي بالهداوي	يطليك بهموم عظام
إلى ما كان عودك مساوي	تعزف مقاطع سقام
إلى تساوت الانعام و البلاوي	تجيب النغمه في التمام
تطرب الناس في الزواوي	ما عاد عليك حكام

يقول: إذا استويت بالهداوي، وهو المجذوب، ابتلاك الله تعالى بهموم عظام، وإذا لم تساو أوتار عودك، عزفت مقاطع سقيمة، ومتى تساوى لديك النعم والبلاء، أتيت بنغمة تامة، وأطربت الناس في الزوايا، ولم يعد شيء بعد ذلك يحكمك ويتحكم فيك، وما عدت ترضى بحكم غير حكم الله تعالى، وما عدت تحتكم لسواه

وإذا سلمت أيها الطالب، ورضيت بقضاء الله تعالى وقدره، ولزمت حيث وضعك، ولم تعترض على ما فيه صرفك، فقد يكرمك العزيز سبحانه، بأن تكون ذا قدم في مقام الاستواء

والمعنى: يقول الله تعالى: "ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزي المحسنين".[688]

لما استوى أوتي الحكم والعلم، فهما قبل الاستواء أمنية تطلب، وهما بعد الاستواء هبة من عند الرب

قال تعالى: "ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما".[689]

لما استوى الزرع أعجب وأغاظ، ولو لم يستو، أعجب من أغاظ وأغاظ من أعجب، فالأولى نصر وتمكين، والثانية قهر وتهوين

وقال سبحانه: "ذو مرة، فاستوى وهو بالافق الاعلى، ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو ادنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، ما كذب الفؤاد ما رأى".[690]

قال أبو الفتح: لما استوى دنا، ولما دنا خوطب وشاهد، ليس بناظريه، بل بفؤاده: "ما كذب الفؤاد ما رأى".

---

[688] القصص13

[689] الفتح29

[690] النجم6-11

الكلام على مقام الاستواء

قلت: اعلم، أخي الكريم، وفقني الله تعالى وإياك لما يحبه ويرضاه، أن مقام الاستواء واسطة المقامات، وحكم الإشارات، ومطار الترقيات؛ وقد خلط قوم بين التسليم والاستواء، وعدوا المقامين واحدا

وأما عندنا، فالتوبة والتوكل ثم التسليم استعداد؛ والاستواء اقتعاد، والفناء والزوال اقتياد، والتصريف ارتداد

فأما استعداد الثلاثة الأول، فيكون بخلع عوائد النفس، وكبح جماح الهوى، وإخلاص التوجه إلى الباري عز وجل، وبالرضا بقضائه وقدره

وأما اقتعاد الاستواء، ففيه يعرس السالكون، ويرتاحون من عناء السفر، وينعمون بالظفر

وأما اقتياد الفناء والزوال، فلأن الفاني والزائل، لا حول لهما ولا قوة في فناء ولا في زوال، وإنما يقتادهما المولى دون رغبة واختيار

وقد قال الذين حسبوا الاستواء تسليما: إن صاحب مقام الاستواء، تستوي عنده النعم والنقم، ويكون راضيا عن مولاه حيث أقامه، وفيم صرفه، وذلك معنى التسليم

ولكنني أقول أن الاستواء غير التسليم

فالتسليم إرادة

والاستواء لا إرادة

فإن العبد المسلم، متى أصابته مصيبة صبر واصطبر، وخالف نفسه

وأما صاحب الاستواء، فمتى أصابته مصيبة، لم يصبر، ولم يخالف، ولم يبذل جهدا باستحضار الصبر وتجرع مرارته، وإنما بقي كما هو: لا يفرح عند اليسر، ولا يضجر عند العسر، وكأنه غائب عن نفسه، غير حاضر بين بني جنسه

فالتسليم: أن تساوي بين النعمة والنقمة

والاستواء: أن تتساوى عندك النعمة والنقمة

وإن شئت قلت: التسليم أن تصبر وتتصبر

والاستواء: ألا تتبدل وتتغير

وإن شئت قلت: التسليم أن ترضى بمقاديره

والاستواء ألا تأبه لتدابيره

واعلم أخي، أن التوبة والتوكل والتسليم، قتل للنفس وتطهير للقلب، والاستواء حقن للدماء وإشراف بالقلب، ومتى أشرقت شموس القلوب، أضاءت ظلمات النفوس، فإذا النهار طالع أبلج، وإذا الضياء ساطع مبهج

وإذا الحرب وضعت أوزارها، فلا من يبارز ويعاند، ولا من يظاهر ويساند، لا عدو ولا صديق، وإنما الجنود في تجرد عن سلاحهم، واسترخاء بعد سجالهم

وإذا الأوصال ساكنة، والنظرات يغشاها الأنس والوئام

فالاستواء ثمرة المقامات الثلاث الأولى وغايتها

فالمستوي في استعداد للانتقال مما قطع به، إلى قطع ما بالله يقطع

من المريدية إلى المرادية

من مقامات المخلصين بكسر اللام، إلى مقامات المخلصين بنصبها

ومن استوى فقد انطوى عن وجوده، وامحى في شهوده وانضوى في عهوده

وهو ارتداد المؤثرات عن ذوات ساكنات غير منفعلات، بما كابدت قبل الارتداد، من قرب وابتعاد، وكرب واعتداد، في ميادين الحزم والاجتهاد

اغبط من برطو مولاه بالشدة والجوع فى الليالي

لو ما محنو نساه لو نعمو تاه فى الضلال

وفت ما كال: مالي؟ بلاه حتى ما عاد يكول: مالي

ندمو على كل ما عصاه حبب لو طريق المعالي

إلى استوى ما عاد يشعر الميت ما تدميه اشواك

ميت ؤ بافي بالعمر روحو فى كسدة بلا حراك

كفنو ؤ وضعو فى الفبر فبل لا يموت موتة الهلاك

ساوى الشكر مع الصبر ما عاد يكتب عليه ملاك

حاز مفام الفنا بلا فخر عباد الرحمان فانيين

عصمو من الشيطان إلى خطر تغافوا ساير الشياطين

الفلب مع مولاه يحضر ؤ الكسدة بين العالمين

كيف ذكر كيف ما ذكر مكتوب فى الذاكرين

إلى ما شفتي مولاك هنا زيد حفق فناك

إلى ما شفتيه ما تتهنى حتى يكون معاك

تنال كل ما تتمنى لما تنسى مناك

ما عدت تطمع فى الجنه بعد ما نلت رجاك

يقول: اغبط من صفاه مولاه، ونقى سريرته من الصفات المذمومة، بما صرف عليه من شدة وجوع في ليال طويلة، ولو لم يصرف عليه ما صرف من شدائد، لدل ذلك على أنه نسيه و لم يأبه له، ولو نعمه لتاه في ضلاله و لم يرجع إلى مولاه، وكلما ابتلاه واعترض زاده بلاء، حتى يرضى بمقاديره ويترك الاعتراض

فما زال به، حتى يندم على كل ما اجترحه من معاص، وذلك أن حبب إليه الله تعالى طريق المعالي، وهي طريق عباد الله الصابرين المخبتين الراضين بقضاء الله تعالى وقدره

ومتى حقق العبد مقام الاستواء، بتوفيق من الله تعالى، ما عاد يشعر بحر البلاء، فهو كالميت لا تضيره أشواك ولا تدميه، إلا أن المستوي ميت، ولكنه لا زال حيا بروحه، هذه الروح التي تنتشي في جسد لا يتحرك، وكأن الله تعالى كفنه ووضعه في القبر، فمات بذلك الموتة الأولى، قبل أن يموت موتة الهلاك، وهي الموتة الثانية

كيف وقد استوى، بسبب تساوي شكره وصبره؟ فهو لا يفرح بالنعمة الزائلة، ولا يحزن من النقمة الزائفة، وكأن القلم رفع عنه، لأن الملك لم يعد يجد ما يكتب عليه

ثم يفنى المستوي دون أن يفتخر، أو يرى في فنائه فضلا على الناس، فيصبح بذلك من عباد الله الفانين في محبته، وقد عصمه الله تعالى، كما عصم عباده الصالحين، من الشيطان، ومتى خطر اللعين، لم يستطع إليه شيئا، بل إن الشياطين أصبحت تخافه وتفزع منه، من شدة خشيته من مولاه، فقلبه حاضر مع الباري عز وجل، وجسده بين العالمين، سواء ذكر أو لم يذكر، كتبه الله تعالى في الذاكرين

ثم يقول: إذا لم تر ربك في فنائك، فذلك لأنك لم تحقق المقام بعد، إذا ما رأيت ربك، فلا تفرح حتى يكون معك، فوقتها ستنال كل ما تتمنى، إذ لم تعد لك أي أمنية سوى رضاه، فلم تعد تطمع في الجنة، بعدما نلت رجاءك، وهو رضاه سبحانه وتعالى عنك

الكلام على مقام الفناء

والمعنى: يقول الكلاباذي: قال الله عز وجل: "كل من عليها فان ويبقى وجه ربك".[691]

الفناء في هذا الباب اضمحلال ما دون الحق، علما ثم جحدا ثم حقا

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: فناء المعرفة في المعروف، وهو الفناء علما، وفناء العيان في المعاين، وهو الفناء جحدا، وفناء الطلب في الوجود، وهو الفناء حقا

والدرجة الثانية: فناء شهود الطلب لإسقاطه، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها، وفناء شهود العيان لإسقاطه

والدرجة الثالثة: الفناء عن شهود الفناء، وهو الفناء حقا شائما برق العين، راكبا بحر الجمع، سالكا سبيل البقاء

[691] الرحمن24-25

باب البقاء

ويقول رحمه الله تعالى في البقاء: قال الله عز وجل: "والله خير وأبقى".[692]

البقاء: اسم لما بقي قائما بعد فناء الشواهد وسقوطها، وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: بقاء المعلوم بعد سقوط العلم عينا لا علما، وبقاء المشهود بعد سقوط الشهود وجودا لا نعتا، وبقاء ما لم يزل حقا بإسقاط ما لم يكن محوا. انتهى[693]

أشار قوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف الذميمة، وأشاروا بالبقاء إلى بروز الأوصاف المحمودة به، وإذا كان العبد لا يخلو من أحد هذين (النوعين من الأوصاف)، فمن المعلوم أنه إذا لم يوجد عند الإنسان أحد القسمين، وجد الآخر لا محالة، فمن فني عن أوصافه الذميمة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الصفات الذميمة، استترت عنه الصفات المحمودة. انتهى[694]

فالفناء: هو أن يفنى عنه الحظوظ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التمييز؛ فناء عن الأشياء كلها، شغلا بما فني به، كما قال عامر بن عبد الله: ما أبالي أمرأة رأيت أم حائطا، والحق يتولى تصريفه، فيصرفه في وظائفه وموافقاته، فيكون محفوظا فيما لله عليه، مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات، فلا يكون له إليها سبيل (وهو العصمة)، وذلك معنى قوله: "كنت له سمعا وبصرا. الخبر".

والبقاء الذي يعقبه: هو أن يفنى عما له، ويبقى بما لله.

قال بعض الكبار: البقاء مقام النبيين، ألبسوا السكينة، لا يمنعهم ما حل بهم عن فرضه، ولا عن فضله؛ "ذلك فضل الله يوتيه من يشاء".[695]

والباقي: هو أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا، فتكون كل حركاته في موافقات الحق دون مخالفاته، فيكون فانيا عن المخالفات، باقيا في الموافقات.

وليس معنى: "أن تصير الأشياء كلها له شيئا واحدا": أن تصير المخالفات له موافقات، فيكون ما نهى عنه كما أمر به، ولكن على معنى: أن لا يجري عليه إلا ما أمر به، وما يرضاه الله تعالى دون ما يكرهه، ويفعل ما يفعل لله، لا لحظ له فيه، في عاجل أو آجل، وهذا معنى قولهم: يكون فانيا عن أوصافه، باقيا بأوصاف الحق؛ لأن الله

---

[692] طه72

[693] منازل السائرين

[694] الرسالة القشيرية

[695] الحديد20

تعالى، إنما يفعل الأشياء لغيره لا له، لأنه لا يجر به نفعا ولا يدفع به ضرا، تعالى الله عن ذلك، وإنما يفعل الأشياء لينفع الأغيار أو يضرهم.

فالباقي بالحق: الفاني عن نفسه: يفعل الأشياء، لا لجر منفعة إلى نفسه، ولا لدفع مضرة عنها، بل على معنى: أنه لا يقصد في فعله جر المنفعة ودفع المضرة؛ قد سقطت عنه حظوظ نفسه ومطالبة منافعها، (بمعنى: القصد والنية)، ولا بمعنى أنه لا يجد حظا فيما يعمل مما لله عليه، يفعله لله، لا لطمع ثواب، ولا لخوف عقاب، وهما، أعني: الخوف والطمع، باقيان معه، قائمان فيه، غير أنه يرغب في ثواب الله لموافقة الله تعالى؛ لأنه رغب فيه، وأمر أن يسأل ذلك منه، ولا يفعله للذة نفسه، ويخاف عقابه، إجلالا له، وموافقة له؛ لأنه خوف عباده، ويفعل سائر الحركات لحظ الغير، لا لحظ نفسه، كما قيل: المؤمن يأكل بشهوة عياله.

أنشدونا لبعضهم:

أفناه عن حظه فيما ألم به فظل يبقيه في رسم ليبديه

ليأخذ الرسم عن رسم يكاشفه والسر يطفح عن حق يراعيه

فجملة الفناء والبقاء: أن يفنى عن حظوظه، ويبقى بحظوظ غيره. انتهى[696]

ويقول الشيخ أبو سعيد الخراز: الفناء: هو التلاشي في الحق.[697]

ويقول الشيخ أبو الحسن الهجويري: الفناء: هو فناء إرادة العبد في إرادة الله، لا فناء وجود العبد في وجود الله.[698]

ويقول الشيخ الهجويري كذلك: الفناء: هو درجة كمال، يبلغها العارفون الذين تحرروا من آلام المجاهدة، وخلصوا من سجن المقامات والأحوال، والذين انتهى بهم الطلب إلى الكشف، فرأوا كل مرئي، وسمعوا كل مسموع، وأدركوا كل أسرار القلب، والذين اعترفوا بنقص كشفهم، فأعرضوا عن كل شيء، وفنوا في مقصدهم، وفنيت في هذا المقصد كل مقاصدهم.[699]

يقول الشيخ أبو يزيد البسطامي: خرجت من البايزيدية، كالحية من جلدها، ثم نظرت، وإذا بالعاشق والمعشوق والعشق واحد، فإنها تكون في عالم التوحيد واحدة أيضا، ثم سرت من الله إلى الله، حتى نوديت من نفسي في نفسي، كأن قائلا يقول: يا من أنت أنا، أي، أنني بلغت مقام الفناء في الله.[700]

---

696 التعرف إلى مذهب أهل التصوف

697 - الشيخ حجازي الموصلي مخطوطة كوكب الشاهق الكاشف للسالك. كسنزان

698- طه عبد الباقي سرور الشعراني والتصوف الاسلامي. كسنزان

699- د. عبد الوهاب عزام التصوف وفريد الدين العطار. كسنزان

700- د. قاسم غني تاريخ التصوف في الإسلام. كسنزان

قال سري السقطي: صحبت زنجيا في البرية، فرأيته كلما ذكر الله تغير لونه وابيض، فقلت: يا هذا، أرى عجبا، إنك كلما ذكرت الله حالت لبستك، وتغيرت صفتك، فقال: يا أخي، أما أنك لو ذكرت الله حق ذكره، لحالت لبستك، وتغيرت صفتك، ثم أنشأ يقول:

ذكرنا وما كنا لننسى فنذكر ولكن نسيم القرب يبدو فيبهر

فأفنى به عني وأبقى به له إذ الحق عنه مخبر ومعبر

أرى الذكر أصنافا من الذكر حشوها وداد وشوق يبعثان على الذكر

فذكر أليف النفس ممتزج بها يحل محل الروح في طرفها يسري

وذكر يعزي النفس عنها لأنه لها متلف من حيث تدري ولا تدري

وذكر علا مني المفارق والذرى يجل عن الإدراك بالوهم والفكر

يراه لحاظ العين بالقلب رؤية فيجفو عليه أن يشاهد بالذكر

صنف الذكر أصنافا، فالأول: ذكر القلب، وهو أن يكون المذكور غير منسي فيذكر.

والثاني: ذكر أوصاف المذكور.

والثالث: شهود المذكور، فيفني عن الذكر؛ لأن أوصاف المذكور تفنيك عن أوصافك، فتفنى عن الذكر.[701]

يقول أبو الفتح الجعفي: ثم ياتي مقام الفناء، وهو أول مقامات الترقي بالله والاستخلاص له

"وقال الملك ايتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين".[702]

والفناء انتفاء الوجود وغيبة في الشهود

وتاتي هذه الغيبة على حسب الغائب

فالسالك يكلم الناس ويتعامل معهم، ولا يؤثر فناؤه في حياته في شيء

ولكنه يرى في كل شيء وجه الله تعالى

فالسالك إذن يغيب عما حوله، وهو حاضر متعقل لا يظهر عليه من علامات الفناء شيء

وإنما هو مع الخلق بالجسد حاضر، ومع الواحد الأحد بالروح غابر

---

[701] التعرف إلى مذهب أهل التصوف

[702] يوسف54

أنواع التلقي

قلت: والفناء بداية التلقي، والتلقي ثلاث درجات، أولها المخاطرة، والمخاطرة أربعة أنواع:

الأول: الخاطر الرباني، حتى لا يدخل خاطر الملك والنفس والشيطان

وهو عبارة عن معان لطيفة، يعيها الفاني بوجدانه

ويترل الخاطر على المخاطر رقيقا، أقل من الهمس، ولا يتلقاه، ولا يميزه عن غيره، سوى أصحاب القلوب المرهفة

وعلامة الخاطر الرباني: خلاء الروع من كل خاطر سواه، وشعور برعاية الإله، لا رب سواه، فينتاب المخاطر إحساس بالأمان والسكينة، كيف وهو في حضرة الرب؟ وقد حجب الباري عز وجل ما يخاطر به عباده الصالحين، عن كل دخيل، وصانه عن كل رقيب، فلا يسمعه أحد من الثقلين، ولا يحضره ملك مهما كان مقربا إلى مولاه؟

فيكون المخاطر المحب في موقف المناجاة، وقد يعرف المخاطر بتوفيق من الله تعالى، كيف يخاطب الله تعالى ويرد عليه دون كلام

ومن خاطره مولاه صفت نفسه، وأضاء قلبه، وأشرق وجهه بين العالمين بنور العزة والجلال

ومن أكرمه الله تعالى بالفراسة من المشايخ، عرف بالنظر إلى وجه المريد، هل خوطر أم لم يخاطر بعد

الثاني: خاطر الملك، وقد يسمعه غير المخاطر، ألا ترى إلى الشياطين كيف كانت تسترق السمع من السماء وتسمع الملائكة، حتى منعت منه وصدت بالشهب الثواقب

وما أقرب خاطر الملك إلى ما يسمى بالضمير، فهو ينهى عن السوء ويدعو إلى الخير

وقد يدل المخاطر على أذكار معينة، يذكرها من حين إلى آخر، وقد يحبب إليه قيام الليل، وإجابة النداء عند أذان الفجر

الثالث: خاطر الشيطان، والأولى تسميته وسوسة ونزغ، ولا يأمر إلا بسوء

وعلامته، أن صاحبه لا يشعر بشيء، ولا يأتي في الغالب، إلا وصاحبه في غضب أو شهوة، أو في استشعار كبر أو حقد

فإن هذه الأمراض، هي مداخل الشيطان لعنه الله تعالى، ومهما تلافاها العبد قلت وسوسة الشيطان له

ومن أحس بوسوسة اللعين فليستعذ بالله منه

"وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم".[703]

---

[703] فصلت35

"إن الذين اتقوا إذا مسهم طايف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون".[704]

"وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن، إن الشيطان ينزغ بينهم، إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا".[705]

وأغلب وساوس الشيطان تهم العقيدة، وتكره للعبد من يدعوه إلى الخير والصلاح، وتحبب له أخلاء السوء والفجور

"وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم، فلما تراءت الفيتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب".[706]

فإن صاحب صالحا دعاه لترك صحبته، وإن لازم جماعة بغضها إليه، حتى يقصيه ويعزله عمن يسعى لهداه، فيتمكن منه

عن معدان بن أبي طلحة اليعمري، قال: قال لي أبو الدرداء: أين مسكنك؟ فقلت: في قرية دون حمص، فقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة، إلا قد استحوذ عليهم الشيطان، فعليك بالجماعة، فإنما يأكل الذئب القاصية". رواه الحاكم في المستدرك

والرابع: خاطر النفس، وهو ما يسمى بالتسويل

"وجاءوا على قميصه بدم كذب، قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا، فصبر جميل، والله المستعان على ما تصفون".[707]

"قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي".[708]

وهو يدعو إلى الأثرة والشح والاستعلاء على الناس والتكبر عليهم، ويدعو إلى الوقوع في المعاصي، ولا يكاد يمس أمور الاعتقاد

وأما الضرب الثاني من ضروب التلقي الثلاث، فهو التحديث

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لقد كان فيما كان قبلكم من الأمم ناس محدثون، فإن يك في أمتي أحد، فإنه عمر". زاد زكرياء بن أبي زائدة عن سعد عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال النبي

---

[704] الأعراف201

[705] الإسراء53

[706] الأنفال49

[707] يوسف18

[708] طه94

ﷺ: "لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال، يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي منهم أحد، فعمر". رواه البخاري

والمحدث أعلى درجة وأقرب مكانة من المخاطر

قال الله تعالى: "وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي، فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين".[709]

والمريد إذا استوى خوطر، وإذا فني حدث

والتحديث أشد وضوحا من المخاطرة، والأول يطول أشد من الثاني

ولا يكون التحديث إلا من الله تعالى

وقد اختص التحديث بالمشايخ وخصوا به، خاصة المربون منهم، وخص به كل ولي يخرج إلى الناس لينفعهم ويهديهم سبل الرشاد بإذن الله تعالى

وأما الضرب الثالث من ضروب التلقي: فهو الإفضاء

ويكون من نصيب المولهين في حب المولى، الغارقين في بحور جماله، المتقلبين في ساطعات أنوار الجلالة والكمال.

والإفضاء: بوح الحبيب لحبيبه بمكنونات نفسه، بإظهار ما أخفى من أسرار على غيره

"وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا".[710]

ولهذا، كل من أفضي له، حاز علما لدنيا لا حد له

وتخلق بأخلاق الواصلين، وتأدب بآداب المقربين

والإفضاء، لا يكون إلا بعد الزوال، والزوال لا يكون إلا بعد الفناء، لأنه تمام الرعاية، وغاية الولاية، وبداية الحكاية

ولا يفضى إلا لقوم كتموا الأسرار، واستحبوا الخفاء والاستتار، وآثروا الخمول على الاشتهار

---

[709] يوسف54

[710] النساء21

زول زول يا الحاضر امحي نفسك من الوجود

إلى بغيت تكون ناظر لما تزول ما تعود

لو ما كانت الحصاير ما يحلى ليك سجود

شلا حصاير شلا هيادر ولا شي مشهود

ما هو انت ولا انت هو ما ثم غير واحد

النظره هي العدوه لا تنظر ؤ كون شاهد

ابحث عليه كوا ؤ امض مع المصايد

هو موجود بالقوه ما تركب على حصايد

يقول: زل أيها الحاضر، وامح نفسك من الوجود، وإذا أردت أن تكون ناظرا، إذا زلت فلا تعد، ولا تكن من الذين إذا ما كانت الحصائر لا يحلو لهم السجود، ما أكثر الحصائر والهيادير،[711] لكن الذين يفترشونها للصلاة لا يشهدون شيئا. ما ثم غير الله، فلا يعرف الله تعالى، إلا بمعرفة خلقه، لا تعتمد على النظر، فقد يكون عدوك، فإن الله لا يدركه النظر، وإنما يدرك بالشهود، ابحث عن الله كوا (بكاف مثلثة)، وهي لهجة مصرية، أي بداخلك، وانتبه للمصائد، تجده موجودا بالقوة، فلا تستشرف في البحث عنه الحصائد البعيدة

والمعنى: قال أبو الفتح: ثم يأتي مقام الزوال، وهو سادس المقامات، وموطن الدرايات، يزول صاحبه عن نفسه بربه، ويبقى مع الله بالله، يصفو كدره وتنصقل مرآته، فتعكس ما انطبع فيها من أنوار لدنية تسعى من بين يديه ومن خلفه، ويشرق وجهه بنور الكرامة في العالمين

ما أسعدك أيها الزائل، ما أروعك وقد كفرت بكل القوانين والأعراف، التي تقض مضاجع الناس، لم يعد يحكمك شيء، حطمت قيودك وتحررت من سجنك، فأنت مفكوك الأسر حر طليق، أيها الرفيق

زل أيها الحاضر، فإن حضورك أقامك هدفا ورمية لكل السهام، زل عن حضورك، فلا تظن نفسك باقيا، فمهما زلت عرفت معنى البقاء، فزل لتكون من الباقين

امح نفسك من الوجود بممحاة التسليم، يطلع نهارك وينقضي ليلك وينجلي حجابك، فترى ما كنت عنه أعمى

---

[711] الهيادير، جمع هيدورة، دارجة مغربية، أصلها أمازيغي: أهيدور، والمراد بها: ما يصلى عليه من إهاب الغنم بالخصوص، بعد دبغه

الفناء موتة أولى، والميت لا يخفى عنه شيء، ألم تر إلى قول الله تعالى: "وجاءت كل نفس معها سايق وشهيد، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد".[712]

الموت انتهاء، والبعث ابتداء، والفناء ازدياد والزوال خلود

أنت أيها الزائل ريشة في الفضاء، ألا تشعر بخفتك؟ فقد رفع الله عنك الأثقال، وأمنك من الأهوال، وأعتقك من الإصر والإصرار، ألا تستشعر مودة الودود، وقد فاضت في حشاك وشعت بين خافقيك، حتى ما كاد يحتملها جسمك؟ أنت شعلة من الإقبال على الله، ما تعمل بهمتك، وقد كفاك همتك؟ أنت سائر إليه بلا عزم ولا اختيار، أنت مسير، بل أنت مدبر، كتلك الريشة التي وصفتك بها، تلهو بها الرياح فتعلو وتهوي في خفة ورشاقة، بلا حول ولا قوة

إياك أن تعود من زوالك، فما أظنك تشتاق للعودة من الوطن إلى المغترب، من التحرر إلى القيد والسجون؟ لا تعد حتى لا تحجب عن الحقائق وتحرم الرقائق، وتكتفي بالأطياف والخيالات

لا تكن من أناس يعبدون الحصائر، يركعون ويسجدون عليها ولا يشهدون ربهم طرفة عين، ولولا الحصائر والهيادير والزرابي، ما حلا لهم سجود، فهم يعبدون الله تعالى عبادة النعيم، فاحذر خشوع المنعمين، فإنه رضاء بالنعمة، لا رضاء بالمنعم المفضال.

كل ما بدا لك في زوالك لا تراه بالنظر، فإن النظر قاصر عن رؤيته، وقد تراه بالنظر مموها لا توفيه حقه، وإنما كن شاهدا، كن واحدا من تلك المشاهد، حتى لا تبقى متفرجا، بل أنت عين الفرجة أيها الشاهد المشهود

أليس الله خلقك موحدا، وبعث من ينفخ الروح فيك وأنت في رحم أمك، في ظلمات ثلاث؟ فما بالك تقلب ناظريك يمينا وشمالا؟ ألا تدري أن الله تعالى لا يحده مكان ولا تحكمه جهة، ابحث عن الله فيك، في داخلك، وسافر إليه منك، فأنت محطة الانطلاق، وأنت غاية السفر وموطن التلاق

وأنت تبحث عن ربك، تأدب في البحث، لا يغرينك غيره، حتى لا تتزلق عن ذروة مترلتك، وتتردى من برج مقامك، فتهوي

يقول سيدي محمد الحراق في تائية السلوك:

أتطلب ليلى وهي فيك تجلت وتحسبها غيرا وغيرك ليست؟

يقول أبو الفتح: وأما مقام الزوال، فهو نهاية المقامات وعز الكرامات

---

[712] ق21-22

فإذا كانت التوبة مكابدة، فالزوال مشاهدة، وإذا كان التوكل استنادا، فاحسب الزوال ابتعادا، وإذا كان التسليم تفويضا فاحسب الزوال تقويضا، وإذا كان الاستواء ارتياحا فاحسب الزوال انزياحا، وإذا كان الفناء انطواءا، فالزوال انمحاء

قلت: والزوال محو الفاني من صحائف التفاني، وإثبات المتفاني في مصاحف المعاني، والفاني متى زال لم يعد للفناء بأي حال من الأحوال، و لم يرض بغير ذي العزة والجلال، يقربه في عازبات الأفضال، ويجلسه في كراس لا تليق سوى بخيرة الرجال

ها قد زلت عني بك، يا خبير مما صرفتني فيه وصرفته علي، فأثبتني كما محوتني في دواوين أحبتك، وأبقني بالزوال في ملإ من صفوتك

وقد سمى قوم الزوال محوا، وهو عندنا ليس كذلك

فالزوال انزياح عن النفس وبقاء بالحس

أما المحو، فهو زوال عن النفس والحس سيان

والمحو عندنا مخصوص بالرسل والأنبياء، لشدة ما قربهم الباري عز وجل إليه، ما لم يقرب غيرهم

فقد انمحى رسول الله ﷺ، لما كلم الله تعالى ليلة الإسراء والمعراج، فإن العبد إذا أنعم عليه مولاه، وبلغ مبلغ القربى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فقد و لم يعد له وجود ولا تدبير سوى بالواجد المدبر

والمحو أشد من الموت، فالموت لا يفني النفوس، وأما المحو فهو التلاشي عن كل شيء والبقاء في لا شيء

قال في منازل السائرين: قال الله عز وجل: "فأوحى إلى عبده ما أوحى".[713]

المكاشفة: مهاداة السر بين متباطنين، وهي في هذا الباب: بلوغ ما وراء الحجاب وجودا، وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مكاشفة تدل على التحقيق الصحيح، وهي أن تكون مستديمة، فإذا كانت حينا دون حين، لم يعارضه تفرق، غير أن الغين، ربما شاب مقامه على أنه قد بلغ مبلغا لا يلفته قاطع، ولا يلويه سبب، ولا يقتطعه حظ، وهي درجة القاصد، فإذا استدامت فهي الدرجة الثانية

وأما الدرجة الثالثة، فمكاشفة عين لا مكاشفة علم، ولا مكاشفة حال، وهي مكاشفة لا تذر سمة تشير إلى التذاذ، أو تلجئ إلى توقف، أو تنزل على ترسم

وغاية هذه المكاشفة المشاهدة

---

[713] النجم10

باب المشاهدة

قال الله عز وجل: "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".[714]

المشاهدة: سقوط الحجاب بتا، وهي فوق المكاشفة، لأن المكاشفة ولاية النعت، وفيه شيء من بقاء الرسم، والمشاهدة ولاية العين والذات

وهي على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: مشاهدة معرفة، تجري فوق حدود العلم، في لوائح نور الوجود منيخة بفناء الجمع

والدرجة الثانية: مشاهدة معاينة، تقطع حبال الشواهد، وتلبس نعوت القدس، وتخرس ألسنة الإشارات

والدرجة الثالثة: مشاهدة جمع، تجذب إلى عين الجمع مالكة لصحة الورود، راكبة بحر الوجود

باب المعاينة

قال الله عز وجل: "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل".[715]

المعاينات ثلاث:

إحداها معاينة الأبصار، والثانية معاينة عين القلب، وهي معرفة الشيء على نعته، علما يقطع الريبة، ولا تشوبه حيرة، وهذه معاينة بشواهد العلم

والمعاينة الثالثة: معاينة عين الروح، وهي التي تعاين الحق عيانا محضا، والأرواح إنما طهرت وأكرمت بالبقاء، لتناغي سناء الحضرة وتشاهد بهاء العزة، وتجذب القلوب إلى فناء الحضرة. انتهى[716]

وقول الشيخ: ما هو انت ولا انت هو، إشارة إلى من ادعى أنه والله تعالى واحد

وقد ثبت عن بعض العارفين، نطقهم بما لا يرضاه الواحد الأحد عز وجل، وادعاؤهم ما يحكم ظاهره عليهم بالكفر

وذلك إما لغلبة الحال عليهم كأبي عبد الله، حسين بن منصور الحلاج، رحمه الله تعالى، الذي نسب إليه قوله: ما في الجبة إلا الله

وإما لتموه آفاقه، والتباس طريقة سلوكه، مثل محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، رحمه الله تعالى، الذي نسب إليه قوله:

---

[714] ق37

[715] الفرقان45

[716] منازل السائرين

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فإذا أبصرتني أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وقد اعتذر سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام للحلاج على ما قال مما لا يقبل الشرع ظاهره، اعتذر له في كتابه حل الرموز قائلا: فأما أهل التمكين، فإنهم علموا وكتموا ما علموا، لما يعلمون من ضعف احتمال عقول أطفال العقول، فلهذا، إن الحلاج لما علم شيئا من هذا العلم وتفوه به فمه، أبيح دمه، وكان خطأه من حيث إظهار ما يكتم، وإعلانه بما يسر، فكان حكم من باح أن دمه يباح. انتهى منه

ولا نرى أن ما جاء في هذا الاعتذار يقوم على شيء، لأن الحلاج رحمه الله، لم يبح بسر من الأسرار الإلهية، وأنى لبشر أن يبوح بسر الله تعالى؟ ولكنه إنما نطق بكلام الكفر، الذي لا يعذر من نطق به

قلت في مخاطباتي: أي سر هذا الذي أفشاه العباد، وأي عبد هذا الذي أفشى أسراري؟ وأي إله هذا الذي يفشي العباد سره؟ وأي عباد هؤلاء الذين يفشون ما خبأه الله؟

لو كانت أسراري أخاف إفشاءها، ما خشيني رسلي وأنبيائي، أنا الله الذي لا إله إلا أنا، فمن تكونون؟ انتهى

قلت: ولعل هؤلاء وغيرهم، ممن أخذوا بالحلول والاتحاد، ولم نعرض لذكرهم مخافة التطويل، يشهد لهم الأكابر من أرباب الذوق والسلوك بالولاية العظمى، ولا مجال عندنا لتكفيرهم والتنقيص من شأنهم

ولكن نقول كما قال الأمناء: هم مؤمنون وظاهر كلامهم كفر

ولعل ما نطقوا به من كلام عظيم لا يليق، كان بسبب خروجهم دون قصد عن نهج النبوة في السلوك، وما مشوا فيه من مغالاة في الخلوات والعبادات والأذكار، وما أجحفوا النفس حقها وحرموها مما أحل لها الباري عز وجل من متاع الدنيا وزينتها، فرجحت فيهم كفة الروح بكفة النفس، مع العلم ان أكثرهم لا يفرق بينهما، فاختل لديهم ميزان الحق والصواب، وغلب عليهم ما فاضت به أرواحهم من معاني الألوهية ولطائف الربوبية، واستشعروا جبروتها فتجبروا، إذ أن الروح أمر من أمور الله تعالى، وليس من الغريب أن تتسم ببعض صفاته، فأصبحوا أرواحا وشعروا بالألوهية، فنطقوا بالباطل وتاهوا عن الحق والصواب

قلت في تائيتي في هذا المعنى:

وقال: "أنا الله" ولي وليس هو كما قال بل عبد ضعيف وليست
فمن يحرم النفس الحلال تحرزا طغت روحه حتى ادعى ما تألت
فسل مريم العذراء من هو روحنا فقد كلمته واستعاذت وعفت
وسلني أقل: ما ذاك جبريل فاتعظ فلا يهب الغلمان جبريل واثبت
بل الواهب الله بنفخة روحه تأمل تجد ما قلت عين الحقيقة
وأوصافها من وصف من هي أمره فليست بمخلوق وليست بربة
ومن لم يميز ظن روحه نفسه أخاف عليه أن يدين بوحدة
فلا فرق بين الرب والعبد عنده وذاك ضلال في اعتقادي وملتي

وقد سلف الكلام عن الروح في الحديث على النفس الأمارة، في هذا المؤلف، فارجع إليه تجده في محله

تعال جنبي لا تتخلف اجلس على يميني
لما زلت تصرف في كوني وتكويني
كيف عرفت زيد عرف لا تتصرف من دوني
إلى قذفت نقذف ولى عفيت العفو ديني

يقول: إنه مقام التصريف، فإذا زلت آتاكه الله، وقال لك: تعال بجانبي ولا تتخلف، أجلسك عن يميني وقال: لما زلت تصرف في كوني وتكويني، سأزيدك معرفة إلى معرفتك، ولكن لا تتصرف دون إذني، إذا قذفت فأنا القاذف، وإذا عفوت فالعفو من صفاتي، وأنا معروف به منذ الأزل

الكلام على مقام التصريف

والمعنى: يقول الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي: التصريف: هو تصرف المتحقق بالهمة القلبية العالية الغيبية في الأنام، بالكلام من سير الفهوانية في الحضرة الإلهية، وهي كلمة: كن، يقول الله لوليه: أنا أقول للشيء: كن، فيكون، وقد جعلتك تقول للشيء: كن، فيكون.[717]

ويقول الشيخ محمد المجذوب: التصريف لا يكون لكل الأولياء ، سواء أكان في الحياة أم بعد الممات، بل

717- الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي قوانين حكم الإشراق (بتصرف). كستران

التصريف التام، لا يكون إلا للكمل وأهل التمكين، فهم متفاوتون في قوة التصريف، بقوة الأحوال والمنـــازل والمراتب، وعلى حسب مشاربهم، والتفاوت إذا كان ثابتا لمراتب الأنبياء، الذين مراتبهم أعلـــى الكمـــالات البشرية، فمن دونهم من المراتب أولى، وتحقيق ذلك: أن كل مرتبة من المراتب الثابتة للأولياء، لها طرفان: بداية ونهاية، ومن انتهى إلى طرف البداية من أي مرتبة كان، عد من أهلـــها؛ ويبقـــى التفاضـــل بينـــهم بحـــسب الاستعدادات والكمالات والسوابق والعنايات.[718]

ويقول الشيخ علي الخواص: كم من كامل لا تصريف له، وكم من ناقص بالنسبة إليه، يتصرف في الوجود ليلا ونهارا.[719]

قلت: فالتصريف إذن، ليس دليلا على الأولوية في الفضل، فقد حاز كثير من الصحابة رضي الله عنهم، مرتبة الصحبة، ونالوا رضوان الله تعالى، ولا مجال عندنا لمقارنة مرتبة الصحبة بمرتبة الولاية، إذ الولي لا يدرك الصحابي بحال من الأحوال، لأن الصحابي حظي بصحبة رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يعرفوا تصريفا ولا تصرفا ولا كرامة، فافهم

ومن أدب التصريف، أن من أعطيه زهد فيه، فإن في البقاء معه توقف عن السير، واحتباس عن الترقي إلى ما هو أفضل

يقول الشيخ كمال الدين القاشاني: رد التصرف: يشيرون به، إلى حال من أعطي التصرف فرده تظرفا.[720]

قال أبو الفتح الجعفي عفا عنه مولاه: من ظن أنه يتصرف في الكون بغير ما قدر الله تعالى وقضى في الأزل، فقد خانه ظنه وأخطأ واختل؛ ومن ظن أنه يتصرف في الكون بغير ما أراد الله عز وجل، فقد أتى أمرا عظيما، وجاء ببهتان مبين، وخاب ظنه

كل الناس يتصرفون، وكل خلق الله يتصرفون، أليست كل مخلوقات الله تعالى تصاريف تتصرف وفق ما أراده وابتغاه؟

فقد يسلط الله عليك طاغية يؤذيك أو يقتلك، فيكون ذلك مما صرفه عليك، ويكون الطاغية من بعض تصاريفه

وقد تحسن إلى فقير فتطعمه وتسد جوعته، فيكون ذلك من تصاريف الله تعالى عليه، وتكون بذلك أحد تصاريفه

718- المصدر نفسه

719- الشيخ عبد الوهاب الشعراني لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق. كستران

720- المصدر نفسه

فماذا يبقى لأهل التصريف؟ لا يبقى لهم شيء، إنني لأستحي أن أنعت فعلهم بالتصريف، ولو أن من سبقونا لم يصطلحوا على تسميته بذلك ما سميناه

إن الذي يرى أن الكون ينفعل بانفعاله، فيظن أنه يتحكم فيه، ويصنع لنفسه عرشا يستوي عليه، لا يدري أن ما هو فيه فتنة عظيمة، لا يخرج منها إلا أحباب الله تعالى، أما غير أحبابه، فلا يخرجون منها، بل يهيمون فيها، ويهيمون بها، ويستطيبون هذا المقام، فيحبسهم ذلك عن الترقي إلى ما هو أسمى، والأسمى رضاه تعالى، والأسمى قربه، والأسمى مرضاته

ماذا يبقى للمتصرفين؟ والله لم يكن لهم ولا يبقى لهم غير دعاء خالص يستجيبه الحق سبحانه، ومتى استجابه، دعوا للخلق ودعوا على الخلق، فكان، فعدوا أنفسهم في المالكين، ونسبوا لأنفسهم التصرف في مقادير الناس ومصائرهم

لا يبقى لهم من التصريف إلا قول رسول الله ﷺ: "وكم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك".

إنه مقام الاستجابة، متى دعي الله تعالى في خضوع وإنابة

وإن شئت قلت: إنه مقام القبول لا يرد صاحبه، متى شاء الدخول

وإن شئت قلت: إنه بداية التخلص من السلوك، إلى التخصص لدى مالك الملوك

وإن شئت قلت: هو انفعال الموجودات بما صرف الواجد فيه العارف من مقادير وتدبيرات، وتصرف الله به بالخير والشر فيما مضى وفيم هو آت

وإن شئت قلت: هو اطلاع على حكم التصاريف، ومقاصد التكاليف، من غير تشريع ولا تكليف

وإن شئت قلت: هو حكم بلا أمر، وتحكم قد قصر، من يؤتاه من البشر، لا يتركه إلا بمنة مليك مقتدر

وإن شئت قلت: هو إستشراف المجريات من عل، وإيذان بردها للعلي، وعلامة المخبت من المستعلي

وإن شئت قلت: التصرف انصراف عن التدخل في شؤون المولى، وتوقير لأمور عليها استولى، متى أتاك يكون تركه أولى

وقد قصر فهم كثيرين من عوام العارفين عن فهم معنى التصريف، فمنهم من ظن أن التصريف هو إنزال المطر ونشر الخصب والتحكم في الحر والقر، وفي كل ما فيه مصالح الناس

فتعلق هؤلاء بالناس، وجعلوا أنفسهم حكاما على العالمين، يجازون المطيع ويعاقبون المسيء، وما علموا أن الحكيم العلام، ما وهبهم كل ذلك سوى ليمتحنهم، فمن أراد الله به خيرا فطن لذلك، وعلم أنه ليس أهلا للحكم على الناس، فإن الحكم كله لله، فمتى حكم هو عليهم أخطأ وظلم، والظلم ظلمات يوم القيامة، فليس له سوى ألا يتصرف في شيء، وألا يحكم على شيء، إذا شاء أن يكفي نفسه هولا عظيما

ومن لم يرد الله به خيرا، استعذبه وطاف يخبط خبط عشواء، حتى يحمل أوزار الناس يوم القيامة

ومنهم من ظن أن التصريف هو المشي على الماء، ودخول النار والطيران في الفضاء، فطفق يبهر الناس بهذه الأعمال الخارقة حتى يتبعوه، وحتى يعرفوا خصوصيته، وما اتبعوه حبا لله، وإنما اتبعوه إعجابا بما يفعله، فلم يكن بذلك من الله في شيء

وأما العارفون، فالتصريف عندهم ولوج الملكوت، مما من شأنه أن يزيد يقينهم بالله تعالى، ويقوي دينهم، فيطيب تفكرهم وتطمئن قلوبهم، وتحلو نجواهم ويسيل دمعهم، ولا من العالمين من يطلع على أحوالهم، وهم في ذلك على دين إبراهيم عليه السلام، الذي قال الله في حقه: "وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين".[721]

"وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تومن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي".[722]

فتصريفهم من الله فيهم، وتصريف الفريقين الأولين من الله في الحوادث، وشتان بين أولئك وهؤلاء

فاحذر أيها المتصرف من أن تتصرف، وبادر إلى مجاوزة المقام بأسرع ما تقدر عليه، فإن ركنت إليه فاتك وجه المولى، ومن فاته وجه مولاه، فقد خاب مسعاه

وإذا قلت لي: فإذا فت التصريف، فأين أكون، ولا يعرف مقام بعده؟ قلت: إذا فت التصريف أصبحت أحد التصاريف، وكنت سيف الله المسلول، تلوح يمنة ويسرة، تهزم الجيوش وتدك الفلول خفية وجهرة، كنت نفحة من نفحات الله تعالى، تغشى قلوب الاعتلال، بلفحات الود والوصال، كنت بشارة المستيئسين، وأمل الراجين، وملاذ المسرفين

وما عاد لك مقام في المقامات، ولا سمة في السمات، ولا نعت في النعوت

أنت به هاهنا واحد في المشيئات والتدابير، ترفعت عن الأوصاف والهيئات والمقادير، قد تراجعت بما حزت من درر، واكتفيت بما نلت عن السفر والسفر، غابت شمسك عن الناس وحسبوك أفلت، وما أفلت شمسك إلا لتشرق بزهو في أكوان تاه عنها البشر، فمن الله وإليه، أن تجردت عن أمنياتك، وزهدت في أغنياتك، وتركت الخلق للخالق، وبترت الحبال وتنصلت عن العلائق

فكن ما شاء الله أن تكون، أو لا تكن إن لم يشأ أن تكون، وسواء كنت أو لم تكن فأنت من الله وإليه، لم تعد في الناس، و لم تعد من الناس .. أنت واحد في الأنفاس

---

[721] الأنعام76

[722] البقرة259

تعالى نشهدك الخليفه سموات و ارضين من العدام

باثفين بالعتيفه شلا دخان ؤ غيام

رالهمين بروابع زعيفة نثبتط فى الصدام

نطلعط على الحفيفه أنا الحكيم العلام

يقول: تعال أشهدك الخليقة، سموات وأرضون خرجت من العدم، انبثقت لما فتقتها من الرتق، وتعالى الدخان وعم الغمام. وإن كان الخلق والإيجاد له ارتطام وتنبعث عنه روائح كريهة، فلا تخف، سأثبتك عند الاصطدام، سأطلعك على الحقيقة، فأنا الحكيم العلام

والمعنى، قال الله تعالى: "ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا".[723]

وفيه إمكان إشهاد الله تعالى غيرهم خلق السماوات والأرض

الكلام على الخلق

قلت: اتفقت الكتب السماوية على أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وإنما وقع الاختلاف في ماذا خلق أولا وآخرا، ولنبدأ بحول الله تعالى وقوته، بما ذكره الكتاب المقدس، في سفر التكوين من العهد القديم، فنقول: ورد فيما يخص اليوم الأول:

1 - في البدء خلق الله السماوات والأرض.

2 - وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه.

3 - وقال الله: «ليكن نور»، فكان نور.

4 - ورأى الله النور أنه حسن. وفصل الله بين النور والظلمة.

5 - ودعا الله النور نهارا، والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء وكان صباح يوما واحدا.

وفي اليوم الثاني:

6 - وقال الله: «ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه».

---

[723] الكهف05

7 - فعمل الله الجلد، وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد . وكان كذلك.

8 - ودعا الله الجلد سماء . وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا .

وفي اليوم الثالث:

9 - وقال الله: «لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد، ولتظهر اليابسة» . وكان كذلك.

10 - ودعا الله اليابسة أرضا، ومجتمع المياه دعاه بحارا . ورأى الله ذلك أنه حسن.

11 - وقال الله: «لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا، وشجرا ذا ثمر يعمل ثمرا كجنسه، بزره فيه على الأرض» . وكان كذلك.

12 - فأخرجت الأرض عشبا وبقلا يبزر بزرا كجنسه، وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن.

13 - وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا .

وفي اليوم الرابع:

14 - وقال الله: «لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين.

15 - وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الأرض» . وكان كذلك.

16 - فعمل الله النورين العظيمين: النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم.

17 - وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض،

18 - ولتحكم على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن.

19 - وكان مساء وكان صباح يوما رابعا .

وفي اليوم الخامس:

20 - وقال الله: «لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء» .

21 - فخلق الله التنانين العظام، وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذي جناح كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن.

22 - وباركها الله قائلا: «أثمري واكثري واملإي المياه في البحار. وليكثر الطير على الأرض» .

23 - وكان مساء وكان صباح يوما خامسا .

وفي اليوم السادس:

24 - وقال الله: «لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها: بهائم، ودبابات، ووحوش أرض كأجناسها» . وكان كذلك.

25 – فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها، والبهائم كأجناسها، وجميع دبابات الأرض كأجناسها . ورأى الله ذلك أنه حسن.

26 – وقال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض» .

27 – فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرا وأنثى خلقهم.

28 – وباركهم الله وقال لهم: «أثمروا واكثروا واملأوا الأرض، وأخضعوها، وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض» .

29 – وقال الله: «إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه كل الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرا لكم يكون طعاما .

30 – ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية، أعطيت كل عشب أخضر طعاما» . وكان كذلك .

31 – ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدا . وكان مساء وكان صباح يوما سادسا .

ابتداء الخلق في القرآن الكريم

قال الله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا، ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم".[724]

قلت: الظاهر من النص أن الله تعالى خلق الأرض أولا

ثم جعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر أقواتها ثانيا

ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فقال لها وللأرض: ائتيا طوعا أو كرها، قالتا: أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات، ثالثا

وأوحى في كل سماء أمرها، وزين السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم رابعا

[724] فصلت8-11

وقد ظن قوم، أن عدد أيام الخلق في هذه الآية ثمانية أيام، وهو ما يخالف ما ذكره الله تعالى من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، في آيات أخرى، كما في قوله تعالى: "**ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب**".[725]

ورد بعض المفسرين عليهم بأن الأمر ليس كما ظنوا، فقوله تعالى: "**في أربعة أيام**"، بحساب قوله تعالى: "**خلق الارض في يومين**"، قال القرطبي: "**في أربعة أيام**"، يعني: في تتمة أربعة أيام، ومثاله: قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد، في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي: في تتمة خمسة عشر يوما. انتهى[726]

أما المراد بقوله تعالى: "**أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي**".[727]

فقد قال الحافظ ابن كثير: وقال إسماعيل بن أبي خالد: سألت أبا صالح الحنفي عن قوله: "**أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما**"،[728] قال: كانت السماء واحدة، ففتق منها سبع سموات، وكانت الأرض واحدة، ففتق منها سبع أرضين؛ وهكذا قال مجاهد، وزاد: و لم تكن السماء والأرض متماستين. وقال سعيد بن جبير: بل كانت السماء والأرض ملتزقتين، فلما رفع السماء وأبرز منها الأرض؛ كان ذلك فتقهما الذي ذكر الله في كتابه. وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعا، ففصل بينهما بهذا الهواء. انتهى[729]

قلت: خلق الله تعالى السماوات والأرض أولا، وقوله تعالى: "**أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي**".[730] لا يعني أنهما كانتا متحدتين، أو كانتا في كتلة واحدة، بل كانت الأرض كتلة غير مدحوة، أي غير صالحة لحياة البشر، وكانت السماوات رتقا، أي فضاء واحدا مستمرا غير مفصول

ودليل ما قلناه، قوله تعالى: "**أأنتم أشد خلقا أم السماء، بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم**".[731]

---

[725] ق38

[726] الجامع لأحكام القرآن

[727] الأنبياء30

[728] الأنبياء30

[729] تفسير ابن كثير

[730] الأنبياء30

[731] النازعات27-33

وبه تبين فتق السماء، وهو بناؤها ورفع سمكها وتسويتها، وإغطاش ليلها وإخراج ضحاها، كما في قوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طايعين فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم".[732]

أي أن الله تعالى خلق السماء دخانا في فضاء واحد، فقضى فيها سبع سماوات، وزين السماء الدنيا بمصابيح، وهي الكواكب والنجوم، وذلك مبدأ النور، لأن أصل الكون ظلام كما أسلفنا آنفا

وتبين فتق الأرض بقوله تعالى: "وجعلنا من الماء كل شيء حي"،[733] وقوله تعالى: "وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون".[734]

قال ابن كثير: وقوله: "وجعلنا في الارض رواسي"،[735] أي جبالا أرسى الأرض بها، وقررها وثقلها لئلا تميد بالناس، أي تضطرب وتتحرك، لا يحصل لهم قرار عليها، لأنها غامرة في الماء إلا مقدار الربع. فإنه باد للهواء والشمس ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات والحكم والدلالات، ولهذا قال: "أن تميد بهم"، أي لئلا تميد بهم. وقوله: "وجعلنا فيها فجاجا سبلا"،[736] أي ثغرا في الجبال يسلكون فيها طريقا من قطر إلى قطر، ومن إقليم إلى إقليم،كما هو المشاهد في الأرض، يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد، فيجعل الله فيه فجوة، ثغرة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا، ولهذا قال: "لعلهم يهتدون".[737] انتهى[738]

قلت: وقد تتبعنا لفظ الفتق في لغة الضاد، فوجدنا معناه مصاحبا لنا فيما قلناه:[739]

قال ابن منظور: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما"،[740] قال بعض المفسرين: كانت السموات رتقا لا يترل منها رجع، وكانت الأرض رتقا ليس فيها صدع، ففتقهما الله تعالى بالماء والنبات رزقا للعباد. انتهى[741]

---

[732] فصلت10-11

[733] الأنبياء30

[734] الأنبياء31

[735] الأنبياء30

[736] الأنبياء30

[737] الأنبياء30

[738] تفسير ابن كثير

[739] فتق: الفتق: خلاف الرتق. فتقه يفتقه ويفتقه فتقا: شقه؛ قال: ترى جوابها بالشحم مفتوقا

إنما أراد مفتوقة فأوقع الواحد موقع الجماعة. وفتقه تفتيقا، فانفتق وتفتق.

والفتق: الخلة من الغيم، والجمع فتوق. انتهى من لسان العرب

وقال كذلك: والفتق: الخصب، سمي بذلك لانشقاق الأرض بالنبات؛ قال رؤبة:

تأوي إلى سفعاء كالثوب الخلق   لم ترج رسلا بعد أعوام الفتق

أي بعد أعوام الخصب. انتهى[742]

ابتداء الخلق في السنة النبوية

لاشك أن النبي ﷺ قد عرض لخلق السماوات والأرض، لكن الظاهر، أن روايات أحاديثه في الخلق لم تصلنا ككثير من الأحاديث غيرها، كما هو معروف عند ذوي الشأن، وإنما ساق المفسرون كثيرا من الأخبار الإسرائيلية التي لا يأبه لها في شيء، والتي لا يمكن أن نعيرها اهتماما ونحن نحقق في الموضوع

فقد روى الإمام البخاري عن طارق بن شهاب قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول: قام فينا النبي ﷺ مقاما، فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه. رواه البخاري

وإنما الثابت، ما رواه مسلم في باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام، عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: "خلق الله عز وجل، التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام، بعد العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل".

وقد علق الحافظ ابن كثير على هذا الحديث بعدما ساقه في تفسيره، قائلا: وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة، فجعلوه مرفوعا. وقد حرر ذلك البيهقي.[743] انتهى[744]

---

[740] الأنبياء30

[741] لسان العرب

[742] المرجع نفسه

[743] قلت: وهذا ما قاله البيهقي في الأسماء والصفات: عن عبد الله بن سلام قال: خلق الله الأرض في يومين، وقدر فيها أقواتها في يومين، ثم استوى فخلق السماوات في يومين، خلق الأرض في يوم الأحد ويوم الإثنين، وقدر فيها أقواتها يوم الثلاثاء ويوم

قيل: وقد ضعف الإمام البخاري هذا الحديث، بسبب تعارضه مع صريح القرآن، حيث حدد القرآن أيام الخلق في ستة أيام، بينما حددها هذا الحديث في سبعة أيام؛ وقيل: هذا التضعيف كان، بسبب حصول خطأ ما في الحديث، أثناء تناقل الرواة له، وذلك لا يمنع من الاستفادة من بعض الحقائق الواردة فيه

قلت: روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "خلق الله التربة يوم السبت الحديث"، وقال: وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح. انتهى[745]

قال أبو الفتح: هذا الذي قاله الإمام البخاري فيه نظر من وجوه:

الوجه الأول: قوله: وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح، لا يعتبر إن لم يسم هذا البعض و لم يذكر دليلا لهم على ما قالوا حتى نتابعه

وقوله: وهو أصح، لا يقتضي ضعف ما رواه مسلم عن أبي هريرة

الأربعاء، وخلق السماوات في يوم الخميس ويوم الجمعة، وآخر ساعة في يوم الجمعة، خلق الله آدم في عجل، وهي التي تقوم فيها الساعة، وما خلق الله من دابة، إلا وهي تفزع من يوم الجمعة، إلا الإنسان والشيطان

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: "خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الإثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها من الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة، فيما بين العصر إلى الليل". هذا حديث قد أخرجه مسلم في كتابه، عن سريج بن يونس وغيره عن حجاج بن محمد. وزعم بعض أهل العلم بالحديث أنه غير محفوظ، لمخالفته ما عليه أهل التفسير وأهل التواريخ.

وزعم بعضهم أن إسماعيل بن أمية إنما أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى عن أيوب بن خالد، وإبراهيم غير محتج به

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو يحيى أحمد بن محمد السمرقندي، ببخارى، حدثنا أبو عبد الله محمد بن نصر، حدثني محمد بن يحيى، قال: سألت علي بن المديني عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "خلق الله التربة يوم السبت"، فقال علي: هذا حديث مدني رواه هشام بن يوسف عن ابن جريج عن إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن أبي رافع مولى أم سلمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، قال علي: وشبك بيدي إبراهيم بن أبي يحيى، وقال لي: شبك بيدي أيوب بن خالد، وقال لي: شبك بيدي عبد الله بن رافع، وقال لي: شبك بيدي أبو هريرة رضي الله عنه، وقال لي: شبك بيدي أبو القاسم ﷺ، وقال لي: "خلق الله الأرض يوم السبت". فذكر الحديث بنحوه. قال علي بن المديني: وما أرى إسماعيل بن أمية أخذ هذا، إلا من إبراهيم بن أبي يحيى. قلت: وقد تابعه على ذلك موسى بن عبيدة الربذي عن أيوب بن خالد، إلا أن موسى بن عبيدة ضعيف، وروي عن بكر بن الشرود عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سليم عن أيوب بن خالد، وإسناده ضعيف. والله أعلم. انتهى من الأسماء والصفات

[744] تفسير ابن كثير

[745] التاريخ الكبير

الوجه الثالث: لا يقدح في أيوب ترك ابن المبارك، وقد وثقه كثير غيره ممن يحسب له حساب في الجرح والتعديل

يقول الأستاذ منصور العبادي: لقد ذكر الحديث أن الله خلق التربة في أول أيام الخلق، ومن الواضح أن المقصود بالتربة هي القشرة الأرضية، فالأرض عند أول نشأتها كانت كرة ملساء، وسطحها شبه سائل، وبدأ هذا السطح بالتجمد بشكل تدريجي، إلى أن أصبح من الثخانة، بحيث يقوى على حمل المواد التي تقذف بها البراكين من باطن الأرض المنصهر، لتبدأ بذلك عملية تكون الجبال، التي ذكر الحديث أن الله خلقها في اليوم الثاني من أيام الخلق. أما الأحداث التي حدثت في بقية أيام الخلق، فهي تتعلق بخلق الكائنات الحية، باستثناء خلق النور في يوم الأربعاء. وأعتقد والله أعلم، أن هذا الحدث، أي النور، ليس له مكان في أيام الخلق، وإذا ما استثنيناه من هذا الحديث، فإن أيام الخلق فيه تصبح ستة أيام، وهو ما يتوافق مع صريح القرآن. ومن المحتمل أن يكون اليوم الرابع الذي خلق الله فيه النور، قد نقله الراوي خطأ من نص التوراة إلى نص هذا الحديث النبوي. انتهى[746]

قلت: ليس من السهل الجزم بضعف الحديث، إذ لم ينفرد مسلم بروايته، فقد رواه غيره، منهم: الإمام أحمد في مسنده، ورواه النسائي في الكبرى، ورواه ابن حبان في صحيحه، ورواه البيهقي في السنن الكبرى، ورواه أبو يعلى في مسنده، وأخرجه ابن مردويه، وغيرهم،[747] وقد صحح إسناده برواية مسلم من المحدثين، كل من أحمد شاكر والألباني. بل رواه النسائي مرة أخرى بسند غير سند مسلم، مع زيادة، نورده من أجل البيان:

---

[746] بداية الخلق في القرآن الكريم

[747] قلت: رواه أحمد في مسنده، قال: حدثنا عبد الله، حدثني أبي قال: ثنا حجاج، قال ابن جريج: أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث

ورواه النسائي في السنن الكبرى، قال: أنا هارون بن عبد الله ويوسف بن سعيد، واللفظ له، نا حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث

ورواه ابن حبان في صحيحه، قال: أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى، حدثنا سريج بن يونس، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا ابن جريج، أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث

ورواه البيهقي في السنن الكبرى، قال: أخبرنا أبو الحسين علي بن محمد بن عبد الله بن بشران ببغداد، أنبأ أبو بكر أحمد بن سلمان بن الحسن الفقيه قال: قرئ على يحيى بن جعفر بن الزبرقان وأنا أسمع، أنبأ حجاج بن محمد الأعور قال: قال ابن جريج: أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث

أخبرنا إبراهيم بن يعقوب، قال: حدثني محمد بن الصباح، قال: حدثنا أبو عبيدة الحداد، قال: نا الأخضر بن عجلان عن بن جريج المكي عن عطاء عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أخذ بيدي قال: "يا أبا هريرة، إن الله خلق السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والتقن[748] يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلق أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله عز وجل من آدم الطيب والخبيث". رواه النسائي في السنن الكبرى

وقد ذهب فريق من العلماء إلى أن الخلق المذكور في الآيات يختلف عن الخلق المذكور في الحديث، فالخلق المذكور في الآيات هو خلق السماوات والأرض جملة، أما الخلق المذكور في الحديث، فإنه تفصيل لما خلق الله في الأرض من جبال وتربة وشجر ودواب وغير ذلك، وهذا لا يتعارض مع الآيات، ولكن يضم إليها.

وقالوا: كما أخبر النبي ﷺ، أن بدء الخلق كان يوم السبت، وهذا هو الصحيح، أما من ذهب إلى أن بدء الخلق كان يوم الأحد، فلم يعتمد سوى على آثار موقوفة أو ضعيفة، بمقابلتها برواية مسلم، وهي من الإسرائيليات التي أخذت عن كعب ووهب بن منبه وغيرهما من مسلمة أهل الكتاب، وهذا ما ذكره الإمام السهيلي في الروض الأنف، وعاب على من قال: إن أول الأسبوع الأحد لا السبت، ومن ثم فقد ثبتت صحة الحديث سندا ومتنا.

قال أبو الفتح عفا الله عنه: لنا في ما قاله من سلف في أمور الخلق نظر

فنقول وبالله التوفيق: قوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا، ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم".[749]

ورواه أبو يعلى في مسنده، قال: حدثنا سريج بن يونس حدثنا حجاج بن محمد عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: الحديث. أنظر الدر المنثور

[748] التقن: ترنوق البئر والدمن، وهو الطين الرقيق يخالطه حمأة يخرج من البئر

[749] فصلت8-11

أولا: لا نجاري من فسر قوله تعالى: في أربعة أيام، بأن المراد بها يومين، وإنما زادها الله تعالى على اليومين السابقين، وقول القرطبي: "في أربعة أيام"، يعني، في تتمة أربعة أيام، ومثاله قول القائل: خرجت من البصرة إلى بغداد، في عشرة أيام، وإلى الكوفة في خمسة عشر يوما، أي، في تتمة خمسة عشر يوما. انتهى[750]

فلو كان الأمر كذلك لما قال سبحانه بعدها: "فقضاهن سبع سماوات في يومين"، بل قال: في ستة أيام، في تتمة ستة أيام، فذلك أقرب إلى السياق من غيره

ثانيا: لانتطلع إلى الآيات، دون أن نقابلها بالحديث

فنقول: رأينا أن أيام الخلق المذكورة في الحديث ليست هي ذاتها المذكورة في الآية، وذلك من وجوه:

الوجه الأول: ما ورد في الحديث من خلق لا يتعلق سوى بما في الأرض، بخلاف تعلق ما ورد في الآيات الكريمة بخلق الأرض وما فيها

الوجه الثاني: لم يسم الله تعالى الأيام بأسمائها في الآيات، بخلاف ما ورد في الحديث

الوجه الثالث: نحسب أيام خلق السماوات والأرض ستة كما ورد في قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش". [751]

أما الحديث، فهو لا يعرض لهذه الأيام الستة كما ذكرتها الآية، وإنما يعرض لبعضها كما سنراه إن شاء الله تعالى، وإنما يهم الحديث ما دبره الله تعالى في الأرض بعد الخلق

وأما قوله تعالى: قل أينكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الآية"،[752] فالمراد به يومان من أيام خلق السماوات والأرض الستة، التي لم يتضمنها الحديث، ليبقى منها أربعة أيام تتمة الستة، وهي تخص مدة خلق السماوات

فإن قلت: أليس إخباره تعالى بخلق السماوات والأرض في ستة أيام يعني انتهاءه منهما؟ قلت: خلقهما لا يعني انتهاءه منهما، بل المراد بالخلق الإيجاد، وهو الذي استغرق ستة أيام، وتبعه التهييء وهو الذي ورد ذكره في الحديث

ألا ترى إلى قوله تعالى: "هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا، ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون". [753]

---

[750] الجامع لأحكام القرآن

[751] السجدة3

[752] فصلت8

[753] غافر67

وأما قوله تعالى: "وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسايلين، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طايعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم".[754] فيتضمن ستة أيام التي أشار إليها الحديث

أما قوله تعالى: "وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسايلين ".

فهو يوافق ما ورد في الحديث، من خلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والنور يوم الثلاثاء

وقوله تعالى: "ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللارض ايتيا طوعا أو كرها، قالتا أتينا طايعين، فقضاهن سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها، وزينا السماء الدنيا بمصابيح، وحفظا، ذلك تقدير العزيز العليم".[755] فيوافق الحديث في خلق النور يوم الأربعاء، وخلق الدواب يوم الخميس، فإن بث الدواب لا يكون إلا بعد تهيىء الأرض ووجود النور

وما خلقه الله تعالى في الأرض في ستة أيام التي ذكرها الحديث، هو ما يذكره سبحانه وتعالى في قوله: "خلق السماوات بغير عمد، ترونها، وألقى في الارض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة، وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم، هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه، بل الظالمون في ضلال مبين".[756]

وما دام الحديث يخبر أن الله تعالى خلق آدم عليه السلام يوم الجمعة وهو سادس الأيام، ومعلوم أن خلق السماوات والأرض كان قبل آدم، لقوله تعالى: "وإذ قال ربك للملايكة إني جاعل في الارض خليفة".[757]

فيقتضي ذلك أن أيام الحديث، ليست هي أيام خلق السماوات والأرض المذكورة في الآية

ثالثا: نقول بأن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام، ثم استوى سبحانه على العرش، وأتبعه ما ذكر من أيام في الحديث، وذلك لقراين نذكر منها:

الأولى: قوله تعالى: "الله الذي خلق السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش".[758]

لا يعني بالضرورة أنه تعالى لما استوى على العرش في اليوم السابع، لم يواصل الخلق في اليوم نفسه، وبذلك يمكن أن يكون ابتداؤه خلق السماوات والأرض يوم الأحد، كما هو غالب أقوال الناس من المسلمين وأهل

---

[754] فصلت8-11

[755] فصلت8-11

[756] لقمان9-11

[757] البقرة29

[758] السجدة3

الكتاب، فيكون تعالى انتهى من خلقهما في يوم الجمعة، واستوى يوم السبت، وابتدأ ما ذكر من خلق في الأرض في الحديث الشريف في اليوم نفسه، وهو يوم السبت، فلا يحتاج سبحانه من أجل تحقيق الإستواء أن يستغرق يوما كاملا، كيف وقد قال سبحانه: "ولقد خلقنا السماوات والارض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب".[759]

ويؤيد ذلك قوله تعالى: "الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثم استوى على العرش، وسخر الشمس والقمر، كل يجري لأجل مسمى، يدبر الامر، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون، وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الاكل، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون".[760]

ولا نقول كما ورد في سفر التكوين: وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل. فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل. سفر التكوين 2 آية2

فيقوم التوافق والانسجام بين الآية والحديث الذي يجعل بداية خلق ما في الأرض يوم السبت

الثانية: نرى أن أيام الخلق الستة المذكورة في القرآن، سبقت ما ذكر في السنة، وذلك لما جاء في رواية النسائي من ذلك:

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ، أخذ بيدي، قال: "يا أبا هريرة، إن الله خلق السماوات والأرضين وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش يوم السابع، وخلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والتقن يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، والدواب يوم الخميس، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر، وخلق أديم الأرض أحمرها وأسودها وطيبها وخبيثها، من أجل ذلك جعل الله عز وجل من آدم الطيب والخبيث". رواه النسائي في السنن الكبرى

وبذلك تبين أسبقية خلق السماوات والأرض، على ما ورد في الحديث

ويؤيده ما ورد في سفر التكوين:

1 في البدء خلق الله السماوات والأرض.

---

[759] ق38

[760] الرعد2-4

2 وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه.

3 وقال الله: «ليكن نور»، فكان نور. سفر التكوين 1

وأما ما رواه ابن جرير عن عبد الله بن سلام أنه قال: إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والإثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات في الخميس والجمعة، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة، فخلق فيها آدم على عجل، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة. انتهى[761]

فلا أساس له من الحق على ما يظهر، فهو يخلط بين أيام خلق السماوات والأرض، وبين أيام خلق ما في الأرض، ولا غرابة في ذلك، إذ الخبر من الإسرائيليات، التي لا يقوم ما فيها على دليل

رابعا: لم يلتزم الله تعالى في ذكره أيام الخلق في قوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين الآية"،[762] قلت: لم يلتزم سبحانه، بما ذكر في غيرها من خلق السماوات والأرض في ستة أيام، خاصة وقد عددنا عددها ثمانية، على حسب ما ذهبنا إليه، وقد نوفق بينهما ونقول:

أما قوله تعالى: "قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين"،[763] فهي يومان من أيام خلق السماوات والأرض الستة المذكورة في الآية

وأما قوله تعالى: "وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام".[764]

فهي ما ورد في الحديث: من خلق التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الإثنين، والمكروه يوم الثلاثاء

قال تعالى: "والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم".[765]

أما خلق النور يوم الأربعاء، فلا يدخل ضمن معاني قوله تعالى: "وبارك فيها وقدر فيها أقواتها".

بل يدخل في قوله تعالى: "هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا، ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات، وهو بكل شيء عليم".[766]

---

[761] تفسير ابن كثير

[762] فصلت8

[763] فصلت8

[764] فصلت9

[765] النازعات 30-33

[766] البقرة28

وشاهد مناسبته، دلالته على أنه تعالى استوى إلى السماء بعدما فرغ من خلق ما في الأرض جميعا، مما يسايرنا على ما نحن عليه

قال الله تعالى: "أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها". [767]

وأما قوله ﷺ: وبث فيها الدواب يوم الخميس، فبأن توفر ماؤها وشجرها وتهيأت أقواتها، وانتشر ضوؤها، فاقتضت بث الدواب فيها لتمام استحقاقها لعيشهم في أكنافها

قلت: ومن قال غير ذلك: فقد فهم من الآية ما لا يفهم منها، فربطها بأيام الخلق الستة المذكورة في غيرها، إذ لا داعي للربط، وإلا ظن أن أيام الحديث الشريف وجب أن تكون نفسها الستة أيام المذكورة في القرآن، ولا من يدعوه لذلك، حتى أنهم حاولوا جعلها ستة، مع أن الظاهر من النص ثمانية، بأن حسبوا الأربعة يومين، وإنما هي تتمة اليومين الأولين

وتحرير الكلام: أن الله تعالى ابتدأ بأن خلق السماوات والأرض أولا، في ستة أيام ابتداء بيوم الأحد إلى يوم السبت، خلق الأرض في يومين كما ورد في كتابه العزيز، وبقيت أربعة أيام، الغالب أنه خصصها لخلق السماوات، وهي الستة أيام المذكورة في الآية، واستوى على العرش في اليوم نفسه وهو السبت حيث ابتدأ خلق ما في الأرض وخلق آدم، إلى يوم الجمعة، وهي الستة أيام المذكورة في الحديث. والله تعالى أعلم

فصل في قوله تعالى: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن، يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما". [768]

تدل الآية دلالة صريحة على أن الله تعالى خلق سبع أرضين و لم يخلق أرضا واحدة، وذلك ما دلت السنة عليه. قوله تعالى : "فسواهن سبع سماوات". [769]

قال القرطبي: ذكر تعالى أن السموات سبع. و لم يأت للأرض في التتريل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى: "ومن الارض مثلهن". [770] وقد اختلف فيه، فقيل: "ومن الارض مثلهن"، أي في العدد، لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والأخبار، فتعين العدد. وقيل: "ومن الارض مثلهن"، أي في غلظهن وما بينهن. وقيل: هي سبع، إلا أنه لم يفتق بعضها من بعض، قال الداودي: والصحيح الأول، وأنها سبع كالسماوات سبع. روى مسلم عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من أخذ شبرا من

---

[767] النازعات27-29

[768] الطلاق12

[769] البقرة28

[770] الطلاق18

الأرض ظلما، طوقه إلى سبع أرضين". وعن عائشة رضي الله عنها مثله، إلا أن فيه "من" بدل "إلى". ومن حديث أبي هريرة: "لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه، إلا طوقه الله إلى سبع أرضين". وروى النسائي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: "قال موسى عليه السلام: يا رب، علمني شيئا أذكرك به، وأدعوك به، قال: يا موسى، قل: لا إله إلا الله، قال موسى: يا رب، كل عبادك يقول هذا، قال: قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت، إنما أريد شيئا تخصني به، قال: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع، في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله".

وروى الترمذي عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ، جالس وأصحابه، إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: "هل تدرون ما هذا؟" فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "هذا العنان، هذه زوايا الأرض، يسوقه الله إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه". قال: "هل تدرون ما فوقكم؟" قالوا: الله ورسول أعلم، قال: "فإنها الرقيع، سقف محفوظ وموج مكفوف". ثم قال: "هل تدرون كم بينكم وبينها؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "بينكم وبينها مسيرة خمسمائة عام". ثم قال: "هل تدرون ما فوق ذلك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن فوق ذلك سماءين، بعد ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة". ثم قال كذلك، حتى عد سبع سماوات، ما بين كل سماءين ما بين السماء والأرض. ثم قال: "هل تدرون ما فوق ذلك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن فوق ذلك العرش، وبينه وبين السماء بعد ما بين السماءين". ثم قال: "هل تدرون ما الذي تحتكم؟" قالوا : الله ورسوله أعلم، قال: "فإنها الأرض"، ثم قال: "هل تدرون ما تحت ذلك؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: "فإن تحتها الأرض الأخرى، بينهما مسيرة خمسمائة سنة"، حتى عد سبع أرضين، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة، ثم قال: "والذي نفس محمد بيده، لو أنكم دليتم بحبل إلى الأرض السفلى، لهبط على الله"، ثم قرأ: "هو الاول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم".[771] قال أبو عيسى: قراءة رسول الله ﷺ الآية، تدل على أنه أراد: لهبط على علم الله وقدرته وسلطانه، علم الله وقدرته وسلطانه في كل مكان، وهو على عرشه كما وصف نفسه في كتابه. قال: هذا حديث غريب، والحسن لم يسمع من أبي هريرة. والآثار بأن الأرضين سبع كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

وقد روى أبو الضحى، واسمه مسلم، عن ابن عباس أنه قال: "الله الذي خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن"، قال: سبع أرضين في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقي: إسناد هذا عن ابن عباس صحيح، وهو شاذ بمرة، لا أعلم لأبي الضحى عليه دليلا، والله أعلم. انتهى[772]

---

[771] الحديد03

[772] الجامع لأحكام القرآن

قوله تعالى: "والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها".[773]

دحا: الدحو: البسط. دحا الأرض يدحوها دحوا: بسطها.

وقال الفراء في قوله عز وجل: "والارض بعد ذلك دحاها"، قال: بسطها؛ قال شمر: وأنشدتني أعرابية:

الحمد لله الذي أطاقا بنى السماء فوقنا طباقا

ثم دحا الأرض فما أضاقا. انتهى[774]

قال أبو الفتح: قلت: دحو الأرض يأتي بعد خلقها، ويدخل في فتقها، والمراد به، والله أعلم: جعل شكلها وحجمها بما هي عليه الآن، وذلك حتى تكون صالحة لأن يعيش عليها الإنسان، فتواتيه موضعا وزمانا

فأما الموضع، فبأن جعلها ذلولا لإقامة البشر عليها ومشيه فيها: قال الله سبحانه: "هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور".[775]

وأما الزمان، فبأن جعل شكلها، يحتمل دورانها في وقت معدود لا يقل ولا ينقص، ويسبب الفصول الأربع، حتى يكون في ذلك تنوع في نفع البشر

قوله تعالى: "وكان عرشه على الماء".[776]

"أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يومنون ".[777]

"وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا".[778]

اعلم أخي الكريم، هدانا الله وإياك للصواب، أن رب الأكوان، خلق لنا السماوات والأرض، وكان عرشه على الماء

والماء أول خلقه، وأصل جميع ما خلق في هذا الكون، فقد اقتضى أن يكون عرشه في بادئ الأمر على الماء، ثم خلق منه السماوات والأرض وما بينهما، وخلق الإنسان والدواب

---

[773] النازعات31

[774] لسان العرب

[775] الملك15

[776] هود07

[777] الأنبياء30

[778] هود7

"وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا". [779]

"والله خلق كل دابة من ماء، فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، يخلق الله ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير". [780]

وجاء في الكتاب المقدس:

لأن هذا، يخفى عليهم بإرادتهم أن السماوات كانت منذ القديم و الأرض بكلمة الله، قائمة من الماء و بالماء. بطرس الثانية 3-5

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: "كان الله و لم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض". رواه البخاري

عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "كل شيء خلق من ماء". رواه الحاكم في مستدركه

والظاهر، أن الله تعالى، ابتدأ خلقه بأن خلق الماء أولا، ثم خلق منه السماء، وكانت سماء واحدة غير مفصلة بسبع سماوات، كما هو عليه الحال اليوم، وإن شئت قلت: كانت فضاء مستمرا شائعا بلا حدود ولا فواصل. ثم خلق سبحانه الأرض، وسط هذا الفضاء الشاسع المترامي، إلا أن هذه الأرض لم تكن على ما هي عليه اليوم، هي الأخرى، وإنما كانت كتلة ملساء جرداء، هائمة في الفضاء، غير صالحة لأن يعيش عليها الإنسان. ويؤيد ذلك ما ورد في سفر التكوين1، آية: 2

وكانت الأرض خربة وخالية

ومن قال بخلق الأرض قبل السماء، لم يخرج على ما قلناه، إذ لا وجود للأرض بغير فضاء تكون فيه، وإلا فما سبق الخلق غير العماء.

ثم تولى الله تعالى السماء بالتسوية والإكمال، وبعدها تولى سبحانه الأرض بالدحو والتهييء للمعيشة

ويظهر ذلك في قوله تعالى: "أأنتم أشد خلقا أم السماء، بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولأنعامكم". [781]

وفي قوله تعالى: "أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يومنون ". [782]

---

[779] الفرقان54

[780] النور43

[781] النازعات27-33

[782] الأنبياء30

وفي هذه المرحلة، أي مرحلة تسوية السماء وفتقها إلى سبع سماوات، ودحو الأرض، حيث أخرج ماءها ومرعاها، وجعل فيها الجبال رواسي؛ في هذه المرحلة، مرحلة التهييء والتأهيل والإعداد، كان ضوء النجوم وكان نور الشمس والقمر، وكان الليل والنهار

والمراد من كلام الشيخ في رباعيته: باثقين بالفتيقة، أي أن السماوات والأرض منبثقتين بعملية الفتق كما ذكرنا آنفا

وقوله: شلا دخان وغيام، إشارة إلى قوله تعالى "ثم استوى إلى السماء وهي دخان"

وقوله: راطمين بروايح زعيقة نثبتك عند الصدام

أي أن خلق الكون يسمع له ارتطام شديد وتنبعث منه روائح كريهة، مما لا تتحمله قوة بشر، ولكن الله هو القادر على تثبيت فؤاد من أشهده خلقته، سبحانه وتعالى الحكيم العلام

"ثم استوى إلى السماء وهي دخان"، وهو بخار الماء المتصاعد منه، حين خلقت الأرض. انتهى[783]

وفي خلق الكون، يقول الإمام علي كرم الله وجهه: أنشأ الخلق إنشاء، وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها، ولا تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها، ولا همامة نفس اضطرب فيها. أحال الأشياء لأوقاتها، ولأم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها عالما بها قبل ابتدائها، محيطا بحدودها وانتهائها، عارفا بقرائنها وأحنائها. ثم أنشأ سبحانه فتق الأجواء، وشق الأرجاء وسكائك الهواء، فأجرى فيها ماء متلاطما، تياره متراكما، زخاره حمله على متن الريح العاصفة، والزعزع القاصفة، فأمرها برده، وسلطها على شده، وقرنها إلى حده. الهواء من تحتها فتيق، والماء من فوقها دفيق. ثم أنشأ سبحانه ريحا اعتقم مهبها، وأدام مربها، وأعصف مجراها، وأبعد منشأها، فأمرها بتصفيق الماء الزخار، وإثارة موج البحار، فمخضته مخض السقاء، وعصفت به عصفها بالفضاء، ترد أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عب عبابه، ورمى بالزبد ركامه، فرفعه في هواء منفتق، وجو منفهق، فسوى منه سبع سموات، جعل سفلاهن موجا مكفوفا، وعلياهن سقفا محفوظا، وسمكا مرفوعا بغير عمد يدعمها، ولا دسار ينظمها. ثم زينها بزينة الكواكب، وضياء الثواقب، وأجرى فيها سراجا مستطيرا، وقمرا منيرا، في فلك دائر، وسقف سائر، ورقيم مائر. انتهى[784]

قال الجعفي: **حكمة الله تعالى في خلق الزمان والمكان في الوقت ذاته**

ومما غاب عن المتكلمين في خلق السماوات والأرض، أن الله تعالى خلق المكان والزمان في آن واحد، فإخباره سبحانه بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يوحي بجلاء، بأن المراد خلق الزمان

---

[783] تفسير ابن كثير

[784] نهج البلاغة

الذي كان رتقا أي مستمرا، ففتقه أي قسمه إلى سبعة أيام، وإن شئت: كان الزمان رتقا، أي واحدا، ففتقه هو الآخر، أي قسمه الله تعالى إلى ماض وحاضر ومستقبل، وإلا فما حاجته سبحانه، وهو القادر المقتدر، لاستغراق سبعة أيام في الخلق؟ أليس هو القائل: "إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن، فيكون".[785]

فكما فصل الله تعالى الفضاء الشاسع بسبع سماوات، فكذلك قسم الزمان الشائع إلى سبعة أوقات، وهي أيام الأسبوع، فافهم

ألا ترى أن الناس يراعون هذه الأيام السبعة في حساب زمانهم، فهي نفسها تتردد عودا على بدء؟

وما قسم الزمان على سبعة أيام، إلا ليكون عبارة على ثلاثة: ماض وحاضر ومستقبل، وإلا فالزمان عند الله واحد، فحاشى أن تحكمه هذه الأزمنة الثلاثة، ما ضيها فيفوته، وحاضرها فيحياه، ومستقبلها فيتشرفه، وإنما ذلك من شأن الحوادث، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا

فالأوقات عندنا لا تمضي ولا تفوت، ولا ترتقب، بل كلها حاضرة في آن واحد، وهي لا تكون معدومة إلى حين حدوثها في الحاضر أو المستقبل، بل كلها متعلقة بالحاضر

وإنما هي، أي الأوقات، تتنقل في الأزمنة الثلاث، في نظر الإنسان، كما أراد له الله تعالى أن ينظر، لا كما هي عليه، لأنه، أي الإنسان، محكوم بالماضي والحاضر والمستقبل، تؤثر فيه هذه الأزمان بالبلى والهرم، وتؤثر في إحساساته من أفراح وأتراح، وغضب وانشراح، وحسرات وأمان وما إلى ذلك، وهو في الحاضر لا يستطيع أن يعيش الماضي أو يرده إذا فات، وهو في الحاضر لا يستطيع أن يجر المستقبل ويحياه

أما الله تعالى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن، فلا يحكمه زمان ولا يحده مكان، ألا ترى كيف عبر في كتابه العزيز بفعل الماضي عن المستقبل، وبفعل الحاضر أي المضارع عن المستقبل كذلك؟ فإنه سبحانه، لم يفعل ذلك خطأ وسهوا، وإنما فعل ذلك على وجه الحقيقة والصواب، لأن الأوقات عنده واحد، فلا عليه إذا عبر عن بعضها بصيغة البعض الآخر

ويمكن أن يعتبر ما حررناه، من تقسيم الزمان على الأيام، ردا على من تساءل وقال: كيف يستغرق الله تعالى سبعة أيام في الخلق؟

ولا يخفى على أحد تردد عدد السبعة على كثير مما خلق الله تعالى

فالنور مركب من سبعة ألوان، وهو واحد

والصوت سبع علامات، وهو واحد

والزمان سبعة أيام، وهو واحد

---

[785] يس81

والسماوات سبعة في واحدة والأرضون سبعة في واحدة

وفي رأينا، أنك إذا تأملت كل مخلوق من خلق الله تعالى، أدركت أنه في خلقه يحمل معنى السبعة، فتدبره تجده صحيحا

ويكمن سر السبعة في أنها كمال ينتهي إلى الوحدة

وكل شيء خاضع لهذا القانون إلا الواحد الأحد، الخلاق العليم، فهو الفرد الصمد الغني بنفسه عن العالمين، سبحانه وتعالى عما يشركون، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير

"قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده، قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده، فأنى تؤفكون". [786]

---

[786] يونس34

فصل في ما أول به الشيخ قوله تعالى: وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملايكة فقال أنبيوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين

سأل بعض الإخوة الشيخ أبا الفتح الجعفي، عن المراد بلفظة الأسماء، في قوله تعالى:

"وإذ قال ربك للملايكة إني جاعل في الارض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملايكة فقال أنبيوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبيهم بأسمايهم، فلما أنبأهم بأسمايهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون".[787]

فكتب إليهم ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

تضاربت تأويلات المفسرين لهذه الآيات، فيما يخص لفظة الأسماء والمراد منها في قوله تعالى: "وعلم آدم الاسماء كلها"

وقد اطلعنا على مختلف هذه التأويلات، فرأينا أنها لا تفي بالغرض، والله أعلم

وقد أقر بعضهم بأن المراد بالأسماء: أسماء الأوثان، وقالوا: متى ورد هذا اللفظ، أريد به الأسماء الحسنى كما في قوله تعالى: "ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها".[788]

وإلا أريد بها الأوثان التي تعبد من دون الله تعالى، كما في قوله تعالى على لسان هود عليه السلام: "أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآبآؤكم".[789] أو على لسان يوسف عليه السلام: "ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآبآؤكم".[790] وفي سورة النجم: "إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم". آية23

وانتفى احتمال كونها أسماؤه الحسنى، سبحانه، لأن الأسماء المذكورة هنا، نسبها الله تعالى إلى هؤلاء، أي نسبها إلى غيره

قلت: ويبقى تفسير لفظ الأسماء بالأوثان، هو الأقرب إلى الصواب، لأنه اعتمد على أصل تفسير القرآن بالقرآن نفسه، إلا أنه يفتح علينا عدة تساؤلات، منها:

الأول: كون الله تعالى أظهر للملائكة أن آدم يعلم أسماء الأوثان كلها، مما يجهلونه، لا يدل على أن ذريته لن تفسد في الأرض وتسفك الدماء، فلم يكن العلم يوما رادعا عن الفساد

---

[787] البقرة29-32

[788] الأعراف180

[789] الأعراف70

[790] يوسف40

فلو قالت الملائكة: رب كيف خلقت آدم جاهلا؟ لكان علمه بالأسماء كلها، ردا مفحما على اعتراضهم

الثاني: قول الملائكة: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، فهم منه المفسرون عامة: كيف تخلق من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ألا يكفيك أننا عبيدك، نسبح بحمدك ونقدس لك، فما حاجتك إلى خلق يعصيك؟

وهو اعتراض لا يليق بالملائكة وشدة طاعتهم لربهم، حتى يعارضوه ويتدخلوا في مشيئته

الثالث: قوله تعالى: قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون

يبقى مبهما، لا يفسره اعتراض الملائكة عن الخلق عامة، إذ ليس في اعتراضهم ما يبدون أو يخفون، فما الذي يبدونه؟ وما الذي يخفونه؟

وقد ألهمنا الله تعالى، بتأويل أقرب إلى الصواب، تأويل يجيب عن التساؤلات ويزيح الإبهام

وهو أن الملائكة، بمقتضى ما أطلعهم الله مما شاء على الغيب، علموا أن الكافرين سيصنعون أوثانا يسمونها بأسماء الأنثى، ويدعون أنها أسماء الملائكة، بل يدعون أسماء سموها ولو لم ينصبوا لها أوثانا، على أنها ملائكة؛ ولغيرة الملائكة على وحدانية الله، وكرههم أن يعبد غيره على وجه الأرض، خاصة وأن يكونوا هم ما يعبد معه أو من دونه؛ راعهم هذا الأمر، وهم الموحدون المسبحون، لا سيما أنهم يعلمون أن الله تعالى سيغضبه ذلك، وهم الذين يخشون من ربهم ويتقونه، قال الباري عز وجل في حقهم: "يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يومرون".[791]

بل حتى الله تعالى في رده على من اتخذ الملائكة ولدا إلها، قد عرض لهم بالتهديد ولو أنه لا دخل لهم فيه، قال سبحانه: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين".[792]

أليس الله تعالى توعد رسوله ﷺ، وهو أعز الخلق عليه، بقوله: "ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين".[793]

وقوله: "ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا، إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا".[794]

---

[791] النحل50

[792] الأنبياء26-29

[793] الحاقة44-47

[794] الإسراء74-75

عرف الملائكة أن هذا الخلق، بكفره وشركه، سيقحمهم فيما لا يرضونه ويتنزهون عنه، مما سيغضب ربهم، حتى يتوعدهم وهم البرءاء منه، فهرعوا إليه سبحانه، يحاولون صرفه عما قضى وقدر

وقد يقول القائل: وكيف للملائكة أن تعلم الغيب، وليس إلا الله علام الغيوب؟

فنقول له: قد أخبر سبحانه، في كتابه العزيز أنه أطلع خاصة من خلقه على بعض غيبه، في قوله تعالى: "عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا".[795]

فإن قلت: ومتى كان الملائكة رسلا؟

قلت المراد بالرسل من الملائكة، ما يرسله منهم إلى الأنبياء والمرسلين، وإلى عباد الله الصالحين، وقد سماهم سبحانه رسلا في كتابه العزيز، قال سبحانه: "جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع".[796]

وقال كذلك: "الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس، إن الله سميع بصير".[797]

ومن دلائل اطلاع بعض الملائكة على الغيب، دون ذكر ما كان يخبر به جبريل الرسل والأنبياء عن ربه تعالى، قوله تعالى: "ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال إنا منكم وجلون، قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم".[798] وما ورد من غير هذه الآيات، مما يماثله تركناه خوف التطويل

استحيى الملائكة الكرام، أن يناقشوا الله تعالى فيما علموا، من شدة تنزيههم لربهم وخوفهم منه، فلم يجرؤوا على أن يلفظوا بالقول كما هو، فيقولوا: أتجعل فيها من يعبدنا معك أومن دونك، وهي كلمة عظيمة، بمراعاة المخاطب وهو الملك، والمخاطب وهو الواحد الأحد، وبمراعاة الحضرة الإلهية في الملإ الأعلى، الذي لم يعهد فيها مثل هذا الكلام

ألا ترى أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة أو تمثال؟ ليس خوفا من الصور والتماثيل، ولكن لأنها تشمئز من أن يصنع العباد رسما أو صنما يضاهي خلق الله تعالى، فكيف تنطق بعبادة الناس لها دون الله عز وجل؟

ومن آداب العارفين التعريض بالدعاء، فيما يستحيون سؤاله من الله تعالى، كما ورد على لسان نبي الله نوح عليه السلام: "ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين".[799]

---

[795] الجن26-27

[796] فاطر1

[797] الحج73

[798] الحجر51-53

[799] هود45

وباعتبار الملائكة الكرام من أعرف العارفين بالله تعالى، وأفضل المتأدبين في حضرته، فقد لجأوا إلى التعريض في القول، لكي يصرف عنهم ما لم يرضوه، فقالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك

وحقيقة الكلام دون تعريض: أتجعل فيها من يعبدنا من دونك؟ ونحن برءاء من ذلك، بل نحن عبيدك المطيعون الذين يسبحونك ويقدسون لك

فعلم الله تعالى: حقيقة ما أخفوا، وتعامل معهم على حسبه، لا على حسب ظاهر تعريضهم، وعلم آدم أسماء الأوثان التي ستعبد على أنها ملائكة، وقال لهم: أنبؤوني بأسماء هؤلاء الأوثان التي عرفتم أنها ستنسب إليكم، إن كنتم صادقين، بمعنى: إن كان علمكم قطعيا في أنها كذلك؛ فلما عجزوا عن الإنباء، أنبأهم آدم عليه السلام

والمراد، أن هذا الخلق الذي علمتم أنه سيعبد ما يصنع من أوثان من دوني، واستحييتم من إخباري بذلك، ها هو أبوهم آدم ينبؤكم بأكثر مما علمتم، بأن ذكر لكم أسماء هؤلاء الأوثان التي لا تعرفون أسماءها، وها أنتم أولاء أدركتم، أن ربكم علم بما شغل بالكم من عبادة غيره، علم أشد مما علمتموه، ومع ذلك جعل الإنسان خليفة في أرضه، ولم يرده ما علم عما هم بفعله، لأنه ما أقدم على ذلك إلا لحكمة لا تدركونها، وما أنبأكم آدم بما أنبأ، سوى لتدركوا، أنه مهما بدا لكم ضعيفا، فقد اطلع على ما لا سبيل لكم للإطلاع عليه، فأقروا بقلة علمكم، ولا تحقروا هذا الإنسان، فهو ليس كما حسبتم، فكما أطلعه الله تعالى على ما لا قبل لكم به، فقد يهديه وييسر له سبل طاعته، فيكون منه الموحدون والمسبحون، كما يكون منه الكافرون والمشركون

ومن هنا يظهر معنى قوله تعالى: " قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون".

أي، أنني أعلم ما أبديتموه في تعريضكم، وما أخفيتوه مما استحييتم من ذكره

فإن قيل: قوله تعالى: "فقال أنبيوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين"، على حسب تفسير الأسماء بالأوثان، إشارة بهؤلاء إلى العاقل، والأوثان ليست كذلك؟

قلت: أشار سبحانه بإشارة العاقل إلى الأوثان في قوله تعالى: "ثم نكسوا على رءوسهم، لقد علمت ما هؤلاء ينطقون". [800]

ألا ترى إلى قول الله تعالى على لسان نبي الله لوط عليه السلام: "يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم". [801]

فأشار بذلك إلى جمع المؤنث بإشارة المذكر؟

---

[800] الأنبياء65

[801] هود77

ويؤيد ما ذهبنا إليه قول الملائكة: ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك، فذكروا التسبيح، وهو عادة العارفين من الأنبياء والمرسلين، متى ادعي مع الله تعالى غيره، ومثاله قول الله تعالى: "وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب".[802]

ومتى عرض الله تعالى، لذكر من نسب إليه الولد، قال: سبحانه، كما في قوله تعالى: "وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون".

وقوله تعالى: بل عباد مكرمون، دليل على أن الكافرين جعلوا الملائكة أبناء الله تعالى

بل قال الله عز وجل: "ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملايكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون، قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن، أكثرهم بهم مومنون".[803]

وفي سياق كلامه تعالى على من جعل الملائكة إناثا، قد أتاح للملائكة أن يتحدثوا عن أنفسهم، مظهرين تبرأهم من ذلك، قال سبحانه: "فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون، أم خلقنا الملايكة إناثا وهم شاهدون، ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون، أصطفى البنات على البنين، ما لكم، كيف تحكمون، أفلا تذكرون أم لكم سلطان مبين فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين، وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا، ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون، سبحان الله عما يصفون، إلا عباد الله المخلصين، فإنكم وما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم، وما منا إلا له مقام معلوم، وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبحون".[804]

ولعل إبليس لعنة الله عليه، كان يتمثل للمشركين فيما يعبدون من تماثيل، ظنا منهم بأنها ملائكة، ويكلمهم بصفته ملكا، فيضلهم ضلالا بعيدا، قال الباري عز وجل: "إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا".[805]

ألا ترى كيف دس لعنه الله تعالى في سورة النجم ما ليس منها، ووصف الأوثان، التي يعتقد المشركون أنها إناث، وصفها بقوله: تلك الغرانيق العليا، وإن شفاعتهن لترجى

وبأخذنا بهذا التأويل، ينتفي التساؤل والإبهام، ونجد تفسيرا لقول الملائكة: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك

ونرد قول من قال من جمهرة المفسرين: قال الملائكة ذلك، لأن الله تعالى خلق خلقا قبل الإنس في الأرض، أفسدوا وسفكوا الدماء

---

[802] المائدة118

[803] سبأ40-41

[804] الصافات149-166

[805] النساء117

والله الهادي للصواب، عليه التكلان والمعول، لا إله إلا هو رب العرش العظيم

كتبه أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه

واش الي بنى ما يهدم؟ محال تشهد القيامه
صداع البني يدمدم اعتى من صواعق الغمامه
الكون لما يتحطم ما تنفع معاه كمامه
تذهل على رضيعها الام ؤ ياذن الكون بظلامه

يقول: أتظن أن القادر على البناء لا يقدر على الهدم؟ من المحال أن أشهدك القيامة

إن للبناء صداع يدمدم، أشد من صواعق الغمامة، وإذا تحطم الكون، لا ينفع لإسكاته كمامة، وهي ما يسد به فم الفرس والبعير لئلا يعض، تذهل الأم عن رضيعها، وياذن الكون بالظلام

والمعنى: يقول الباري عز وجل: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم، يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد".[806]

أليس الذي بنى الكون بقادر على هدمه؟ فلا تترعج مما أخبرت به من هول هدمه، لأنك لن تشهد قيام الساعة، وذلك رحمة بك وبالمؤمنين، لأن الكون إذا ما تحطم، فما يصدره من جلبة عظيمة تنخلع لها الأفئدة، لا تحبسه كمامة، وفي ذلك اليوم تذهل الأم عن رضيعها، ويعم الظلام

وقد أخبرسيد الأمة بأن الساعة لا تقوم سوى على شرار الخلق، فلا يخاف المؤمن من أن يشهد قيام الساعة وأهوالها

عن أنس رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض لا إله إلا الله". رواه الحاكم في المستدرك

عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله". رواه الحاكم في المستدرك

عن عقبة بن عامرقال: وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم، حتى تأتيهم الساعة، وهم على ذلك". فقال عبد الله: أجل. ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، عليهم تقوم الساعة. رواه مسلم

---

[806] الحج1-2

لو عرفوا علام البلاد   فين ابقاوا لما طاروا

ولا خرجوا من الاجساد   ما زادوا غير غاروا

الارنب لو ماخاف الصياد   ما يلزم غارو

مالي نبني بالعماد   كل ما تغنى احجارو؟

يقول: لو علم علماء البلاد الذين حلقوا في الفضاء أين بقوا، فإنهم لم يخرجوا عن أجسادهم، بل ازدادوا غورا فيها، ألا يعلمون أن الأرنب ما لزم غاره إلا لخوفه من الصياد؟

أتظن أني أبني بالعماد شيئا ستغني أحجاره ذات يوم؟

والمعنى: إن هذا الكون سراب واسع، تاه العلماء وهم يحاولون درك أبعاده، ألا ترى أنهم كلما اخترعوا منظارا أقوى، إلا وظهر لهم ما كانوا يظنونه قريبا، أبعد مما كان؟ إنهم كلما حلقوا في الفضاء وتطورت علومهم، ما زادهم ذلك إلا انحدارا وتقهقرا، وما زاد الكون إلا انتشارا واتساعا

إن أمري بين الكاف والنون، فما حاجتي للبناء والتشييد، أأبني وأشيد ما سأقوضه وأحطم حجارته؟

إنما الأمر صور أنثرها حيث شئت، هذه الصور، متى انتهى عمر الوجود، طويتها كأن لم تكن من قبل، طي السجل للكتاب

قلت في تائيتي:

أأشهدت ما أشهدت مما حسبته   لعمري سراب ليس ماء بقيعة

فما أنت إلا نائم في خبائه   يظن الرؤى حقا ونومه يقظتي

فلا حق غير الحق فاقنع بباطل   رسوم وأوهام تموه لعبتي

ودين وأحكام وكفر وردة   وسوق قد اكتظت ومن بعد فضت

فسبحان من أخفى حقيقة خلقه   بما قد تبدى للورى عين الخلقة

قوارير تغري بالجمال أناسيا   ممردة من حسن سبك وصنعة

فلا تحسب العيش الذي في قصورها   سوى سكرة عادت عليك بتهمة

تخال الذي تسعى إليه ببهوها   فتلقى به من مومسات تزيت

انت الكون يا الخليفه   فيك نكون ؤ تكون
إلى تبحث على تليفه   اللوح فيها مكنون
علوم ؤ احكايم لطيفه   اسرار الكاف ؤ النون
طويت الاكوان كالمليفه   ؤ لبست اثواب الكفون

يقول: أنت أيها الإنسان خليفتي في الأرض، أنت الكون، فيك أكون وتكون، إذا كنت تبحث عن شيء ضائع، فالكون فيك مكنون، علوم وأحكام لطيفة، سر الكاف والنون؛ إلا أنك لم تأبه لكل ذلك، بل طويت الأكوان كالمليفة، وهو نوع من الأثواب الرفيعة، وقنعت بلبس ثوب الأكفان

والمعنى: لا تبحث في كوني عن أي شيء، إنك لن تجد شيئا، أنت الكون بنفسك، والكون منك ولست منه، الكون فيك ولست فيه، في كونك أكون وتكون، فاعرفني به وفيه، ولا تعرفني بما خرج عنه، وفيما ليس بهو، كل ما غاب عنك واستشكل عليك، فهو فيك، وبيانه عندك، اللوح فيك مكنون، علوم وأحكام لطيفة، بل حتى أسرار التكوين

مالك أيها الإنسان غفلت عن سرك وكنهك؟ أعرضت عما أنشأت فيك من أكوان ولطائف، وتوجهت بكليتك إلى الفانيات، طويت هذه الأكوان واللطائف، كما تطوي ثوبا لا حاجة لك به، وقنعت بلبس أثواب الأكفان، التي تميت فيك إنسانيتك، وتقتل فيك سر الخلافة والتفضيل؟

كان مول القدرة كان ؤ لازال كاين ويكون، لا احد غيرو كاين في هاذ الكون، الألف فى كان قايمة بلا تقويم، تستر ساكن فى البديا والتقديم، تمد حروف ناصبة وتقيم، محذوفة أو ثابتة، حاضرة فى التكليم، فى الجلالة مفتاح

دلالتها على المولى

يقول: كان صاحب القدرة كان ولا زال كائنا، لا أحد غيره في هذا الكون، فحرف الألف في لفظة: "كان"، قائم وحده دون أن يكون في حاجة إلى إقامة، فهو، أي: حرف الألف، يستر الحروف الساكنة في البدء والتقديم، أي في ابتداء الكلمة، كما يقول النحاة: العرب لا تبتدئ بساكن. كما أن الألف، يمد الحروف المنصوبة ويقيمها، فيصبح ألف مد. وسواء كان الألف محذوفا في الكلمة أو ثابتا، فان مده يكون ظاهرا في النطق والتكلم. فيكفي حرف الألف شرفا على باقي حروف المعجم، أنه مفتاح اسم الجلالة وبه يبتدئ. واسم الجلالة هو: الله، فكأن الألف بوحدانيته وامتداده وقيوميته بنفسه، وستره للساكن ومده للناصب، يدل على المولى عز وجل.

والمعنى: يقول المحاسبي: فالحمد لله الأول (اسمه وتعالى) القديم لم يزل، ولا يستحق هذا الوصف غيره، ولا يليق بسواه، لأنه (كان و) لم يزل واحدا، لا شيء معه، ثم ابتدأ خلق الأشياء، لا من شيء (ولا شيء) كان معه قديما، فاخترع الأشياء وأنشأها وقدرها كما أراد، فليس له شريك في الملك، وكل شيء (سواه عبد) له مملوك، بدأنا منه بالنعم تفضلا، وبالأيادي التي لا تحصى كرما وجودا. انتهى[807]

باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات

من ذلك: الإيمان بالقلب، والنطق باللسان، أن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة له، ولا شريك له

ليس لأوليته ابتداء، ولا لآخريته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المتفكرون بآياته، ولا يتفكرون في ماهية ذاته، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، "وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤوده حفظهما، وهو العلي العظيم".[808]

العالم الخبير، المدبر القدير، السميع البصير، العلي الكبير

وأنه فوق عرشه المجيد بذاته، وهو في كل مكان بعلمه

---

[807] الرعاية لحقوق الله

[808] البقرة254

خلق الإنسان، ويعلم ما توسوس به نفسه، وهو أقرب إليه من حبل الوريد، "وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين".[809]

على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه، تعالى أن تكون صفاته مخلوقة، وأسماؤه محدثة. انتهى[810]

ويقول الفقيه: محمد بن أحمد بن محمد المالكي الفاسي، الشهير بميارة: فوصفه تعالى بالوجود (وهي **الصفة الأولى**) واجب لا يتصور في العقل عدمه. قال في شرح الصغرى: وفي عدم الوجود صفة على مذهب الأشعري، تسامح لأنه عنده عين الذات، ليس بزائد عليها، والذات ليست بصفة، لكن لما كان الوجود توصف به الذات في اللفظ، فيقال: ذات مولانا موجودة، صح أن يعد صفة على الجملة. وأما على مذهب من جعل الوجود زائدا على الذات، كالإمام الرازي، فعده من الصفات صحيح لا تسامح فيه.

الثانية: القدم، وهو عبارة عن سلب العدم السابق على وجوده، فهو تعالى موجود كما مر، وبعد اتصافه تعالى بالوجود، وجوده قديم، أي لم يكن معدوما ثم وجد، فيكون وجوده مسبوقا بعدم، بل لم يزل تعالى موجودا. هذا معنى القدم باعتبار ذاته تعالى وصفاته، أما إذا أطلق في حق الحادث، كقولنا: هذا بناء قديم، فهو عبارة عن طول وجوده، وإن كان حادثا مسبوقا بعدم.

الثالثة: البقاء، وهو عبارة عن سلب العدم اللاحق للوجود، فهو تعالى موجود كما تقدم، ولا يلحق وجوده عدم، بل هو تعالى باق لا ينعدم. انتهى[811]

قال الشيخ: وما قلت: كان، سوى لأن رب الكون قال: **كان**، وإلا ما كنت لأقول على الله بما يقال عما سواه

وما قلت: كان، إلا ليفهم عني من لا يفهم من بني الإنسان سوى بالعبارة والبيان، وإلا فالله ما كان وما أتى وما سبق حتى.

إن قولك: كان، يلزمك التقيد بالزمان والمكان، وهو، أي الرحمن، تعالى عن أن يتقيد بالموضع والأوان

ولا أقول: هو الموجود، فأصفه بوصف المفقود، وأنعته بنعت العبيد

ولكن يكفي أن أقول: الله، ولا أنسب له الكينونة ولا الوجود، بل هو المكون الواجد، وأترك اسم الذات يقول عني ما أخطأت في قوله، ويصفه بما أخللت في وصفه

---

[809] الأنعام60

[810] رسالة ابن أبي زيد القيرواني

[811] الدر الثمين والمرشد المعين

حاشا الله أن أقول: كان قبلي، فمقتضى قولي: أنني كنت بعده. كيف وقد عرفت من هو ومن أنا، فأترتب معه، ولو بعده، في الكينونة؟

لم يكن شيء وهو، لا يسبق ولا يلحق في فعل من الأفعال، وما من شيء إلا مندثر إلا هو

"كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام".[812]

ولا يزال هو، وسواه إلى زوال

الله الله فيمن عد مولاه سابقا ولا حقا، ما أقصاه

الله الله فيمن وصف القدير بأوصاف حادثات تسير وفق ما قضته المقادير، وهو"ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير".[813]

الله الله فيمن غفل عن هوية الباري، وانبرى يرسم له صورا كالدراري،[814] ألا يدري أن الله لا يجارى فيجاري؟ أم أنه كفر بما هو دار، فاستوى لديه السارب والساري؟ فليمسح ما رسم من إثم وأوزار، بممحاة التوبة والاستغفار

ما حاجتي لكي أفصل صفات ربي، وقد توحد الواحد في قلبي، حتى وحدته في شهادتي وغيبي؟

قال أبو الفتح: **نفرق بين التوحيد والوحدة**

اعلم أخي هداك الله تعالى للصواب، أن التوحيد: تفعيل، فبتوحيدك تفعل الله تعالى، وتنسب له ما لا يليق به.

والتوحيد: علم العقائد عند أولي الشأن، وقد قال بعضهم: من لم يقرأ علم التوحيد بقي على كفره وشركه.

وهل قرأه الصديق والفاروق؟ فما بال إيمانهما أشد من إيمان من قال بذلك، وما بال توحيدهما أخلص وأصح؟

دعونا من التعريف والتفصيل، وأصلحوا أعمالكم، وأخلصوا نياتكم تعرفوه

والله لا يعرف الله تعالى، إلا من عرفه الله بنفسه

فيم تسويد الصحائف وتبييض المناشير؟ والله لا يزيد من قرأ فيها إلا جهلا بالحكيم الخبير

ما أرداني حتى أوجبت من صفاتك ما رأيته واجبا، ونفيت ما رأيته مستحيلا، وأجزت ما رأيته جائزا؟ أي تجرئ أشد من تجرئي على وصفك؟

---

[812] الرحمن26-27

[813] الشورى9

[814] كالدراري، وهو لسان دارجي، والمراد بالدراري الصبيان

ما أعبأ بما وصفوك، وقد حللت في روعي بهيبتك وجبروتك، وتجليت بجمالك وجلالك في كل ما أرى وأسمع وأحس؟

كفوا تقاييدكم عني، فلا حاجة لي بها، إني كفرت بما تكتبون، فهل تسمعون

آمنوا أن ربي لا يحيط به الواصفون، حتى تعرفوا قدركم فتستحوا مما أنتم فاعلون

وإن أبيتم، فانفوا الأكوان عنه كما نفاها، فإنكم متى نفيتموها ظهر المكون

أما أن تميزوه بوصف أو بفعل عن الأكوان، فإنكم بذلك تعدون المكون والأكوان واحدا

قال الشيخ: كان الله ولا يزال، لا أحد غيره في هذا الكون

متى عزلت الموجودات عن الموجد صنفته، ومتى أوجدت المكون وهو الواجب الوجود ما أنصفته، ومتى قلت: هي هو، جهلته، وإن قلت: هو هي، ما عنيته

فماذا تقول؟ لا يجزؤك سوى قولك: الله

"قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون".[815]

"قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون".[816]

هو ولا شيء معه، تجلى بما تقتضيه الربوبية في عالم العبودية سيدا ومسودا، بالأمر والنهي والجزاء والعقاب، وأبدع الحركات والسكنات والأماني والحسرات، في تجلياته بلا خلق ولا أدوات، وما كان ما كان، وما يكون لا يكون، سوى كما أراده أن يكون، ولا يكون إلا بقوله: كن، فيكون

فلا تعرفه، فإنك متى عرفك عرفت نفسك، ومتى عرفت نفسك التزمت بآداب الإذعان والخضوع، فأدركت ما أراد منك.

أيها السائحون في الملك والملكوت، يحاولون معرفة الحي الذي لا يموت، لا تسيحوا، ولكن انهوا أنفسكم، وحتى إذا ما سحتم فلا تجاوزوها

يقول الجيلي رحمه الله تعالى: واعلم أن الأزل لا يوصف بالوجود ولا بالعدم، فكونه لا يوصف بالوجود، لأنه أمر حكمي لا عيني وجودي، وكونه لا يتصف بالعدم، لكونه قبل النسبة والحكم والعدم المحض، فلا يقبل نسبة ولا حكما، ولهذا انسحق حكمه، فأزل الحق أبده، وأبده أزله. انتهى[817]

وقال رحمه الله تعالى: واعلم أن كل شيء من الممكنات له أبد، فأبد الدنيا يتحول الأمر إلى الآخرة، وأبد الآخرة يتحول الأمر إلى الحق تعالى، ولا بد أن يحكم بانقطاع الآباد، آباد أهل الجنة وآباد أهل النار، ولو

---

[815] الأنعام91

[816] يونس59

[817] الإنسان الكامل

دامت وطال الحكم ببقائها؛ فإن أبدية الحق تلزمنا أن نحكم على ما سواه بالانقطاع، فليس لمخلوق أن يسايره في بقائه. وهذا الحكم، ولو أنزلناه في هذا الكلام بعبارة معقولة، فإنا قد شهدناه كشفا وعيانا. "**فمن شاء فليومن ومن شاء فليكفر**".[818] انتهى[819]

---

[818] الكهف29

[819] الإنسان الكامل

ما بداني غير بالخاطر، مولايا، خاطبني كينو حاضر، عالم بسقامي ودوايا، لما اوحى لي ما اوحى، بث بروعي و حشايا، ثبت ما شا و محا، من كل ما في اللوح من اسرار، ؤ بديت نبوح بالافكار، نطقت بلسان القهار، نقهر شي بعضين من اعباد عادوا على العالمين، بعد ما سادو، نبرق بلا شعا في عيون اعبادو، زبرجده يتيمه في اعقادو، منظومه بلا نظام، ضاويه موقده في الاعتام

تمد اكوان و اكوان مما كان

يقول: ما بدأني مولاي سوى بالخاطر، خاطبني كأنه حاضر، عالم بسقمي ودوائي، لما أوحى إلي ما أوحى، وبث بروعي وحشاي، وثبت ما شاء ومحا ما شاء، من كل ما في اللوح من أسرار. فبدأت أبوح بالأفكار، نطقت بلسان القهار، كي أقهر بعضا من العباد، الذين عادوا واعتدوا على العالمين بعد ما سادوا، أبرق بلا أشعة في عيون عباده، كأني زبرجدة[820] يتيمة في عقوده، منظومة بلا نظم، مضيئة متوقدة في العتمات والظلمات

تمد أكوانا وأكوانا مما كان

والمعنى: للوحي معان كثيرة في كتاب الله العزيز، معروفة في كتب التفسير، ويختلف وحي الأنبياء عن وحي غير الأنبياء

فقد يأتي وحي غير الأنبياء، عن طريق الإلهام والمخاطرة، فما هو الإلهام؟

قال الجرجاني: ما يلقى في الروع بطريق الفيض، وقيل: الإلهام ما وقع في القلب من علم، وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة. انتهى[821]

ويقول الإمام الرازي: اعلم أن مريم عليها السلام، ما كانت من الأنبياء، لقوله تعالى: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى".[822] وإذا كان كذلك، كان إرسال جبريل عليه السلام إليها، إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاصا لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لزكرياء عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروع والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام، في قوله: "وأوحينا إلى أم موسى".[823] . انتهى[824]

---

[820] الزبرجد حجر كريم يشبه الزمرد، متعدد الألوان، أشهره الأخضر والأصفر، جمع زبارج. انتهى من المعجم الوسيط

[821] التعريفات

[822] يوسف109

[823] القصص6

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له، على مدرجته ملكا؛ فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل؛ قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه". رواه مسلم

قال الشيخ: ولما علم جمع همتي في الوصول إليه، واطلع على صدق رغبتي في التعرف عليه، نظر من حالي، ورثى لشدة وحشتي وافتقاري، ورحم حيرتي واحتياري، وأني ما آليت جهدا إلا بذلته، ولا تركت دربا إلا سلكته، ولا فت بابا وما قرعته، حتى انتهى بي المطاف والتطواف، و لم هدني فاتحة الإلطاف. وقلت: "لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين".[825]

يا من يراني ولا أراه، أما كفاك حيرتي واشتياقي، وتقلبي واحتراقي، وترددي واستباقي؟

ها قد ألهبت القلب بهواك، وأشعلت جوانحي بجواك، وبهتت فكري بجمالك وبهاك

صيرت أحبابي خصوما، وأحلت أماني هموما، ومسخت ما أبصرت من محاسن قبحا ذميما

فلم أعد أرى مع جمالك جمالا، ولا مع جلالك جلالا، ولا معك إلا فناء وزوالا

كيف تنساني، وقد بلوتني بعشقك، وأنت أعلم بما أعاني بفرقك، ألا تتولني برحمتك ورفقك؟

هذي الشموس خانسات في عز ضحاها، وهذه الأقمار باهتات في سماها، وهذه المفاتن شاحبات في زينتها وحلاها، وهذه الأماني مدبرات بائدات في عزها ومنتهاها

لا صبر لي على ألا أرى وجهك إلا حين يبعث العالمون، ولو أن الساعة قريب، إن هي إلا سنون، وأرى الحبيب، صرت أعشق المنون، متى قربت نحبي لم ينفع التقريب، وهل ينعم بالحياة إلا مجنون؟ ما حياتي والأحباب لم يظهر منهم حبيب؟

ولما هديتني إلى الإلحاح في الطلب، ووفقتني إلى الإمعان في البحث من غير نصب، وأكرمتني بحسن القصد والأرب، خاطبتني مخاطرا، وتجليت لي في الروع سافرا، وبشرتني بالقربى حاضرا، وأسكنت روعاتي بعد أن كنت ثائرا، وربطت على فؤادي بعد ما كان خاويا مقفرا، وقلت: عبدي، والأكوان في قبضتي مذ كنت وما كانت، والأقدار تساير إرادتي متى دارت دارت، والأحباب أناجيهم بما شغل ألبابهم وانقلعت له قلوبهم، بألفاظ رقت حتى ذابت. أولئك الغرباء، عرفوا موطنهم فاتخذوا هذه الأقدار المنتفشات سيرا، مهما تعالت وطالت.

أردتني في حطامات تراكمت وتكالب عليها الناس، وقصدتني في طريق وعرة لا يسلكها إلا ذوو العزم والباس، وابتهلت في محاريب موحشات استضأت فيها بالأنفاس

---

[824] مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير فخر الدين الرازي

[825] الأنعام78

ها أنا مقبل عليك كما أقبلت، مستجيب بما استجبت، مؤنس وحدتك بعدما مللت واستوحشت

أكلمك لا أفتأ في اليقظة والمنام، وأمدك لا أهدأ بما عذب من الرقائق والأحكام، وأبوؤك قبل الميعاد أرفع الدرجات في دار السلام

أنت من أحبابي، من آذاك آذنته بالحرب، وأنت من جندي، أرسلك إلى من ذكر فلم تنفعه الذكرى، وما تاب واقترب

أرفع بك قوما وأخفض بك قوما، من أذعن طلع، ومن طغى وقع. أنت شمسي، أضيء بك معتمات هالها طول لياليها، وأنت مزني أسوقك إلى مجدبات نالها يبس دواليها، وأنت سيفي، أقصم بك طاغيات تداعت عواليها

فجل في ملكوتي، واعتبر فيما أبدعت في كوني، ورفرف في آفاق سماواتي، وصل في الملك لا تعيى ولا تغلب، حتى آتي بأمري، واشهد خلق السماوات والأرض ولا تعجب

سأخفيك عن خلقي، حتى لا تضيق بهم ذرعا، يكفي ما آذوك وأنت بعيد عني، فلا يراك إلا ذوو الأبصار وأولو البصائر من عباد الله الصالحين، وما أقلهم، ومن رآك والاك، ومن والاك أسكناه حيث أسكناك وألزمناه بعض ما ألزمناك

سأمد بك أكوانا وأكوانا، لا أمدها بغيرك، فامدد منا متلهفين لكي نتعرف إليهم، وعرف بنا من عرفناه، وأضلل عنا من رددناه، ولا تأمن مكرنا، فإنك متى أمنت مكرنا أنزلناك. ولا تخش غيرنا، فإنك متى خشيت غيرنا زلزلناك

كيتي مما عرفت، ليتني ما عرفتو، أنا في الغيب اسرفت، حتى عدفتو، آش حاجتي بالآتي؟ حسبي اذكاري وصلاتي، ما زادني سرايا في الليالي والو من حالي، ولا معراجي في الاعلالي عندي غالي، ولا ما تلقيت من خطاب الملاك حلا لي، على خطاب الوالي. مالي نرضى بغير ذي الجلال، وانا الفقير لما اوحى لي؟ لما زاد شوقي و هبالي

لازلت في جمالو ولهان

يقول: ياويلتاه مما عرفت، ليتني ما عرفته، أنا في الغيب أسرفت حتى مللته، ما حاجتي بالآتي؟ حسبي أذكاري وصلاتي، ما زادني سراي في الليالي شيئا في حالي، ولا عددت معراجي في الأعالي غاليا، ولا ماتلقيت من خطاب الملاك حلا لي على خطاب الولي، وهو الله تعالى. كيف لي أن أرضى بغير ذي الجلال، وأنا الفقير لما أوحى لي، لما زاد شوقي وجنوني.

لا زلت متولها في جماله

والمعنى: يعرض الشيخ هنا، لموضوع الكشف والاطلاع على ملكوت الله سبحانه وتعالى. فقد دأب كثير من المريدين على مجاهدة أنفسهم، بالتقرب إلى الله تعالى بالفرائض والنوافل، والالتزام بأوراد الصباح والمساء، دأبوا على كل ذلك، من أجل الوصول إلى الفتح الرباني والكشف الروحاني، وفي ذلك إخلال بالتأدب مع الله تعالى، وفي ذلك خروج عن نية القصد في طلب وجهه الكريم، سبحانه وتعالى الحق المبين

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: كنت أنا وصاحب لي قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله، فكنا نقول: غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا؛ فدخل علينا رجل عليه هيبة، فقلت له: من أنت؟ قال: عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول: غدا يفتح لي، بعد غد يفتح لي؟

فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس لا تعبدي إلا الله، إلا الله. قال: فتفطنا من أين دخل علينا، فتبنا واستغفرنا، ففتح لنا.[826]

فاعلم أيها المريد الصادق، أن الله تعالى، لا يكرم طالبيه بالفتح الأكبر، إلا إذا ترفعوا عن الطمع فيه، فإن في طلب الفتح رغبة النفس ومنية الهوى

فإذا صحت نية القاصد، بترك جميع الأغراض والمقاصد، ولم يرج غير الله الواحد، فتح عليه من عنده، وقربه إلى حضرته، وشمله بوده، وأشهده ما تخفى بحسن نيته وسلامة مقصده

اللهم فقهنا في الدين وافتح علينا فتوح العارفين

---

[826] المفاخر العلية في المآثر الشاذلية

ولكل فتحه حسب استعداده، وقد يفتح على المبتدئ ويعفى عن المنتهي، وليس الفتح دليلا على التقدم والأفضلية، فقد قرأنا سيرة السلف والخلف، فوجدنا من هم أرقى مترلة عند الله تعالى، وأعظم حظوة، لم يحدث لهم شيء من الفتح ألبتة، بل كانوا رحمهم الله تعالى، هم أنفسهم، فتحا على الأمة جمعاء

فما هو الفتح، وما فائدته على العارفين؟

الفتح طلوع شمس النهار على قلوب الأبرار، بعد تحقيق المحو والاندثار، في محبة الواحد القهار

قال سيدي عبد الرحمن المجذوب:

غيبت نظري في نظره وفنيت عن كل فاني

حققت ما وجدت غيره وامسيت في الحال هاني

طلع النهار على قلبي حتى نظرت بعيني

أنت دليلي ياربي أنت اولى مني بي

وإن شئت قلت: الفتح التفات الباري، إلى مرآة العارف بعد ترك الاختيار، ومحق الأكدار، وإثبات المعارف والأفكار

وإن شئت قلت: الفتح فيض المكنون بلطائف التكوين، بما كان وسيكون، دون تدوين

وإن شئت قلت: الفتح علامة الوصول، وحظوة بالرضا والقبول

وإن شئت قلت: الفتح انطماس الأنظار عن كل المناظر، وجلو الأبصار بكل المساطر

وإن شئت قلت: الفتح انطلاق في سماء الملكوت، من أرض الناسوت، إذا حل لا يفوت

وإن شئت قلت: الفتح انزعاج الخاطر، بما غشاه من خواطر، وغياب الحاضر عن البوادي والحواضر

وإن شئت قلت: الفتح من علام الغيوب إشارة، وهو للموهوب بشارة، ليس بمطلوب ولا مرغوب، لا يؤتاه من حاول انتظاره

وإذا حصل الكشف، يتطهر قلب الولي، وتذهب حظوظ نفسه، فما جشم نفسه المشاق من الأذكار والمجاهدات، لكي يتخلص منه، إذا هو ممحي متلاش

والفتح نور من الله نور السماوات والأرض، يترل على القلب، فيغمره رأفة ورحمة وسكينة، فيختزل بصاحبه مراحل طويلة لحظة نزوله، ويمحق أكداره قبل أفوله، فيصبح نقيا طهورا، لا يكون إلا بالله لله، ولا يعود للشيطان عليه سبيل، كيف، وقد تولاه الواحد الجليل؟

وقد يترل الفتح على المبتدئ، وهو لم يستكمل بعد تربيته على يد شيخه، فوجب عليه إذا حصل له ذلك، أن يعلم شيخه، كي يخبره بحقيقة حاله، وينصحه بالسكوت والكتمان عن الرفقاء والأقران، وينهاه عن الغرور

والإعجاب بالنفس، لأن المريد المبتدئ، لا زال لم يقطع عقبة النفس، ولا زال فيه بقية أعراض وأكدار، قد تقلب فتحه طردا من رحمة الله تعالى الواحد القهار

متى يكون الفتح، وكيف يكون؟

يكون إذا صفى السالك مرآة باطنه، وصقلها بالذكر والتسليم ومراقبة ظاهره، وتبرأ من حظ نفسه وهواه.

فمتى كان ذلك، أشرقت شمس الحقائق عليه، بالحكم والأسرار اللدنية

يأتي الفتح الرباني، إحساسا علويا غامرا، ينتشي له المريد، وتفيض عيناه، ويشعر بالأمن والطمأنينة، ويستقيم سلوكه، وتزيد محبته لله عز وجل، وتتسع رحمته للعالمين أجمعين

وقد يأتي الفتح على شكل إغماء، يرى فيه صاحبه أو يسمع، ما لا مترجم له ولا ناقل، فيستفيق وكأنه مات ثم بعثه الله، وقد زاد يقينه وكملت معرفته

"فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير".[827]

والمفتوح عليه في الغالب، يتبدى له الكون، بما ليس عليه، وتلقى إليه المعارف، بما لا طاقة له بحمله، وقد يصرخ أو يجذب، جاريا أو ماشيا أو قافزا، وقد يقوم بحركات لا عهد له بالقيام بها

وقد حكى سيدي عبد العزيز الدباغ، كيف فتح عليه، واقتضت المناسبة إيراده حتى يتضح المقال بالمثال، قال رحمه الله تعالى: فذهبت، فلما بلغت باب الفتوح، دخلتني قشعريرة، ثم رعدة كثيرة، ثم جعل لحمي يتنمل كثيرا، فجعلت أمشي وأنا على ذلك، والحال يتزايد، إلى أن بلغت إلى قبر سيدي يحيى بن علال نفعنا الله به، وهو في طريق سيدي علي بن حرزهم، فاشتد الحال وجعل صدري يضطرب اضطرابا عظيما، حتى كانت ترقوتي تضرب لحيتي، فقلت: هذا هو الموت من غير شك؛ ثم خرج شيء من ذاتي، كأنه بخار الكسكاس، ثم جعلت ذاتي تتطاول حتى صارت أطول من كل طويل؛ ثم جعلت الأشياء تنكشف لي وتظهر كأنها بين يدي، فرأيت جميع القرى والمدن والمداشر، ورأيت كل ما في هذا البر، ورأيت النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأيت جميع البحور، ورأيت الأرضين السبع وكل ما فيهن من دواب ومخلوقات، ورأيت السماء وكأني فوقها وأنا أنظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف الذي يجيء من كل جهة، فجاء ذلك النور من فوقي ومن تحتي وعن يميني وعن شمالي ومن أمامي وخلفي، وأصابني منه برد عظيم، حتى ظننت أني مت، فبادرت ورقدت على وجهي، لئلا أنظر إلى ذلك النور، فلما رقدت رأيت ذاتي كلها عيونا، العين تبصر والرأس يبصر والرجل تبصر، وجميع أعضائي تبصر، ونظرت إلى الثياب التي علي، فوجدتها لا تحجب ذلك

---

[827] البقرة258

النظر الذي سرى في الذات، فعلمت أن الرقاد على وجهي والقيام على حد سواء. ثم استمر الأمر علي ساعة وانقطع، وصرت بمثابة الحالة الأولى التي كنت عليها أولا، فرجعت إلى المدينة، و لم أقدر على الوصول إلى سيدي علي ابن حرزهم، وخفت على نفسي واشتغلت بالبكاء، ثم عاودني ذلك الحال ساعة ثم انقطع، فجعل يأتيني ساعة وينقطع ساعة أخرى، إلى أن اصطحب مع ذاتي، فصار يغيب ساعة في النهار وساعة في الليل، ثم صار لا يغيب. انتهى[828]

إلا أن الشيخ عندنا، يقول: كيتي مما عرفت ليتني ما عرفتو، أنا فى الغيب اسرفت حتى عدفتو

بمعنى أنه يتبرأ من المغالاة في طلب الغيوب التي ألقيت إليه، فيقول: يا ويلتاه مما عرفت، ليتني ما عرفته، فقد أسرفت في طلب الغيب، بمعنى أنه كان فضوليا، متى حل الليل، وأوى الناس إلى مراقدهم، تطلع في خلوته إلى الملكوت، وعرف ما لا حاجة له في معرفته، مما يأتي ومما سيفوت، ومما أتى من قبل أن يأتي ويفوت، حتى بالغ في ذلك

ويقول: ما حاجتي بمعرفة ما هو آت، حسبي ما وفقت إليه من أذكاري وصلاتي، فما زادني السرى في الليالي، والعروج في الأعالي، بعد أن خرجت عن نفسي، وطفت أترامى في ملكوت الله تعالى من غير قيد ولا حد، ما عدت أحسب ذلك يجديني شيئا، وما عدت أقنع بخطاب الملائكة بعد أن تلقيت خطاب الله تعالى، فصممت عن كل خطاب من غيره؛ كيف أرضى بغير الله تعالى ذي الجلال والإكرام، وقد أعزني وأكرمني بما أوحى إلي، مما ملك علي نفسي وجرى في مهجتي، حتى أشعل نار شوقي وزاد جذبي وجنوني؟ ولا زلت متولها هائما في محبة مولاي

---

[828] الإبريز

عند ختام المنازل معراجي، ما عدت في أي مقام نازل، بعد ما جرى في مهاجي ؤ زاد تهياجي، ريش جناحي المحبة، جناحي عبار، يطير فوق القبة، يقطع الفلك الدوار، عند المليك بمرة، في الملايك مشهور، يتمسح بالسدرة، و يطوف بالمعمور، والعرش قوامو قوامي، زاد في هياجي و تهيامي، موالي الله هو مواليني، ما نعبد حد معاه

لا تسالني على روا وانا عطشان

يقول: عند خاتمة المنازل أعرج وأرتقي، ماعدت نازلا في أي مقام، بعد الذي جرى في مهجتي وزاد هيجاني، جناحي ريشه المحبة، جناحي عبار، يطير فوق القبة، ويقطع الفلك الدوار، عند المليك مرة واحدة، مشهور في الملائكة، يتمسح بالسدرة ويطوف بالبيت المعمور، والعرش قوائمه قوامي، زاد هياجي وهيامي، أوالي الله وهو يواليني، لا أعبد أحدا معه

لا تسألني رواء وأنا عطشان

والمعنى: قول الشيخ: عند ختام المنازل معراجي، عنى به: أنه طفق يقطع منازل السلوك إلى حضرة مالك الملوك، مترلة بعد أخرى، حتى أنهاها، وما أبقى منها شيئا، فلم يعد له نزول في أي واحدة منها؛ وقد عبر عن القطع والعبور بالمعراج، وليس في مذهبه علاقة بين معراج العارف في الوصول إلى الحق، وبين معراج رسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى، ليلة الإسراء والمعراج

قال الشيخ: وقد أخذنا على بعض العارفين، استعمال لفظ العروج والمعراج، كما هو في معراج رسول الله ﷺ، إذ ثمة معراج ومعراج

فمعراج رسول الله ﷺ، كان المراد منه، إظهار معجزته ﷺ، من أجل تثبيت الحق في قلوب المؤمنين، وزلزلة قلوب الذين في قلوبهم زيغ، فهو معراج الرسالة، وجزء من الأمانة والتبليغ، عرفنا منه بعض ما اختص به ﷺ، على سائر الرسل والأنبياء، وكشفنا علو مترلته عن غيره، وبلوغه من الحضرة الإلهية مبلغا قصر عنه كل ملاك مقرب أو نبي مرسل

وما رآه ﷺ وحكاه، كان موجها إلى الأمة المحمدية، وكأنه جزء من التشريع، فقد رافقه في رحلته إلى ربه سيد الملائكة جبريل عليه السلام، وفرضت الصلاة على الأمة، وتحدث ﷺ عمن لاقاه في السماوات من الأنبياء والمرسلين، وذكر البيت المعمور وزواره، وسدرة المنتهى وتلونها، وما إلى ذلك

ولعل النبي ﷺ، رآى أكثر مما حكاه، وما ذكر غير ما أمر بذكره، وعفا عن كثير

كما أن ما شاهده ﷺ، كان كما هو في حقيقته، إذ الرسول ﷺ، تميز بالصفاء والكمال، واتسم بالوسطية والاعتدال، فلم تشب ما رآه شائبة من توهم وتصور وتهيئ وخيال.

قلت: أما أولياء الله الصالحين، فما تبدى لهم ما تبدى في كشوفاتهم كما تبدى لرسول الله ﷺ، وما عرجوا عروجه، وإنما كشفوا عنه بواسطة الإمدادات المحمدية، فما رأوه ما هو إلا صورته، ولو ظنوها حقيقة، وكأنه حكاية سيدنا محمد ﷺ، ليس بالكلام، بل بالصورة والإيهام، وإلا فليزد من ادعى أنه أدركه إدراك النبوة، فليزد شيئا عما قاله ﷺ

وعلى هذا المنوال قول الشيخ: دعونا أيها الأولياء، يا أصحاب الذوق والإشارات، نكون بشرا، وزنوا مكاشفاتكم بميزان الشرع، حتى لا تضلوا، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولو كان ملكا مقربا أو نبيا مرسلا، فما بالكم بنا نحن الخطائين المذنبين؟

ومن ادعى اطلاعه على الغيب، فائتوني به أسأله عن اسمي وصفتي، فإنه يعجز عن الجواب؟ هذا الذي عجز عن معرفة أقل ما يمكن معرفته عن الحوادث، يدعي معرفة من يخالف جميع الحوادث؟

وقد بيض أناس من الصحائف قناطير، وسودوا من الأسفارا أطنانا، تنوء بحملها العشار، يدعون أنهم يخبرون فيها عن المغيبات، ويفشون الأسرار اللدنيات، فاقرؤوها رحمكم الله، واكشفوا لي فيها عن غيب واحد لم يخبر به الكتاب والسنة، وأطلعوني على سر لدني، مهما كان ضئيلا، في ثنايا كل هذا الركام

لقد هالني قوة نية الناس في أوليائهم، منذ قديم الزمان، وتوقيرهم إياهم، وتسليمهم لهم فيما يقولون وفيما يفعلون، حتى أن ما ذكروه من أقوال وأفعال في الصحف والأسفار، تناقله الناس منذ القدم، ولا زالوا يتناقلونه، حتى أدركوا به هذا الزمان، حيث قوي طبعه وإصداره وتوزيعه، في مختلف الربوع، أشد مما كان عليه من قبل.

هل تحتاج معرفة الباري عز وجل إلى كل هذا الإطناب؟ هل احتاج الصديق والفاروق رضي الله عنهما، إلى شيء من هذا لمعرفة الله تعالى؟ وهل عرف مصنفو هذا الركام وقارؤوه الله تعالى أكثر مما عرفه الصحابة المكرمون، أم أنهم لم يزدهم ما كتبوا، وما قرؤوا إلا جهلا والتباسا وبعدا؟

أما معراج الولي، فلا يؤخذ بالمعنى الاصطلاحي، ولكن يؤخذ بمعناه اللغوي، ولفظ المعراج كغيره من الألفاظ والمصطلحات، التي يخلط بين معانيها كثير من الجهابذة

فلفظ العصمة مثلا، في القرآن الكريم، معناه الاصطلاحي: التتره عن الذنوب

وقد وقع شيخ الإسلام، رحمه الله تعالى، في هذا الخلط، حين أخذ على الإمام أبي الحسن الشاذلي رحمة الله تعالى عليه، ما قاله في حزب البحر. وهو قوله: نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات، من الشكوك والظنون والأوهام، الساترة للقلوب عن مطالعة الغيوب

قال ابن تيمية: فإن العصمة من الذنوب مطلقا لا تحصل لغير الأنبياء، باتفاق أهل العلم المعتبرين. انتهى[829]

---

[829] الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق ابن تيمية

فظن رحمه الله تعالى، أن الشاذلي استعمل لفظ العصمة، بمعناه الاصطلاحي، أي سأل الله تعالى أن يرفع عنه الذنوب، فيصبح معصوما منها، لا يذنب بالمرة مثل الرسل والأنبياء عليهم السلام. وإنما أراد الشاذلي معناها اللغوي، كما يستعمله العرب قبل بعثة رسول الله ﷺ

ففي كتاب الله العزيز: "قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم".[830]

والمراد بيعصمني من الماء: يقيني

والمراد بلا عاصم اليوم: لا واقي

وهذا مادلت عليه كتب المعاجم:

قال الجرجاني في التعريفات: عصم يعصم: اكتسب، ومنع، ووقى. انتهى[831]

وفي القاموس المحيط: العصمة: ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها. انتهى

فمعراج الولي، بمعناه اللغوي، هو صعوده وارتقاؤه من مترلة أدنى إلى مترلة أعلى، أو من مقام إلى مقام

ومن ذلك، لفظ الرب:

قال الله تعالى على لسان يوسف عليه السلام: "وقال للذي ظن أنه ناج منهما اذكرني عند ربك، فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين".[832]

والمراد بربك: سيدك

وقال سبحانه على لسانه عليه السلام: "قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه".[833]

والمراد: ربه سبحانه وتعالى

فالأولى جاءت بمعناها اللغوي

قال في لسان العرب: ورب كل شيء: مالكه ومستحقه؛ وقيل: صاحبه. ويقال: فلان رب هذا الشيء، أي ملكه له. وكل من ملك شيئا فهو ربه.

يقال: هو رب الدابة ورب الدار، وفلان رب البيت، وهن ربات الحجال؛ ويقال: رب، مشدد؛ ورب، خفف؛ وأنشد المفضل:

وقد علم الأقوال أن ليس لا فوقه رب، غير من يعطي الحظوظ ويرزق. انتهى

---

[830] هود43

[831] التعريفات

[832] يوسف42

[833] يوسف33

والثانية وردت بمعناها الاصطلاحي:
قال في لسان العرب: الرب: هو الله عز وجل، هو رب كل شيء، أي مالكه، وله الربوبية على جميع الخلق، لا شريك له، وهو رب الأرباب، ومالك الملوك والأملاك. ولا يقال: الرب في غير الله، إلا بالإضافة، قال:
ويقال: الرب، بالألف واللام، لغير الله؛ وقد قالوه في الجاهلية للملك؛ قال الحارث ابن حلزة:
وهو الرب، والشهـــيد على يو م الـــحـــيارين، والبلاء بلاء. انتهى
وأمثلة ذلك كثير، ومن لم يفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في الألفاظ، كثر اعتراضه، واخطأ فهم كثير من الآيات والأحاديث، فما بالك بأقوال الأولياء وأدعيتهم
وفيما قلناه كفاية لمن ألقى السمع وهو شهيد
وقد بنى أكثر المشايخ طريقهم على المجاهدة، ومن بناها على التوكل، ومن بناها على الجود، ومن بناها على التسليم، أما نحن، فبنيناها على المحبة، فمتى تحققت محبتك لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا بإذنه، أوتيت كل شيء.
جناحاتي عبارة شديدة العبور، تطير فوق القبة، وأعني بالقبة: السماء الدنيا، بما فيها من الكواكب والنجوم، لاستدارتها كالقبة، وكأنها سقف للأرض، علق فيه الثريات ضياء ونورا
أقطع الأفلاك الدوارة، فكل ما في السماء الدنيا يدور، ومتى توقف عن الدوران، اختفى الكون وتلاشى، وكأنه حلم فتان، تبدد كأن لم يكن من قبل، ألا ترى أن جسم الإنسان، يقوم هو الأخر على الدوران، فإذا توقف دمه مثلا عن الدوران، هلك؟
فدعني أجاوز ساحة الأفلاك والدوران، فمن لا زال يتردد عليها ويجول، ويظن نفسه يجول في الملكوت، فهو واهم. أيها الطيار في جميع الأقطار، لن تجاوز عالم الملك والشهادة، سوى إذا قطعت الفلك الدوار
ولم يذكر الشيخ، مروره على السماوات واحدة تلو الأخرى، ولم يشر إلى لقاء الأنبياء فيهن، لم يفعل ذلك كتمانا وصونا للسر عن الإخفاء، وإنما لم يذكر ذلك، لأنه لم يحظ بالكشف عنه، وقد قال: ذلك معراج رسول الله ﷺ، ولا أرى لأحد أهلية مزاحمته والمرور حيث مر، ورؤية ما رأى. انتهى كلام الشيخ
ويقول الشيخ: وقد أعجبني صدق بعض أولياء الله الصالحين، وتأدبهم مع رسول العالمين ﷺ، إذ فعلوا ما فعلنا، ووقفوا حيث وقفنا، فلم يخبروا يوما بأنهم عرجو إلى السماوات، ولقوا آدم عليه السلام في السماء الأولى، ويحيى وعيسى عليهما السلام في الثانية، ويوسف عليه السلام في الثالثة ... إلى السماء السابعة
فإن قيل: فما بالهم ذكروا السدرة والبيت المعمور؟ وأدركوا العرش في منتهى العبور؟
قلت: جبلت النفوس على تصوير ما تشتهي لأصحابها، وكأنه حق لا لبس فيه

ألا ترى إلى أضغاث الأحلام، كيف يرى فيها النائم ما يتمناه مما عز عليه نيله وإدراكه؟ فإن كان فقيرا معدما، رأى فيما يرى النائم، أنه ثري يرفل في رغد من العيش، ويسكن قصرا مشيدا، وله أعوان وخدم وعبيد

وإذا كان عقيما، رأى أن له حفنة أولاد؛ وإذا عنست المرأة العزباء، رأت أنها خطبت وتزوجت، وقس على هذا القبيل

كذلك حال المتطلع إلى ما وراء السماء، قد يترائى له ما تطلع إليه، خاصة إذا قرأ في الآثار ما يوجد هناك، مما أخبر به الكتاب والسنة، مما يسهل على النفس تصويره وتهييئه؛ فإن لم ير ما تمناه في المنام، تجلى له وهو بين اليقظة والنوم، فظنه حق وهو ليس من الحق بقريب

ما نا بادي ما نا خاتم، أنا مول الخاتم، نشرت بساط المحبة بعد ما كان في كفوفي، ولي ابغى يصبا ما يجذب غير على دفوفي، مثل رجايا مثل خوفي، لأيني عرفتو رحيم، معروفو سبق معروفي، لأينو جبار، ما أمنت في ظروفي على صروفي، في ليل ولا نهار، لما ياذن يواريني، على خلايفو الموت ما يداريني، وخا نموت ما نفارفو، مازال يوريني مانسيت من شفايفو في حدايفو، الشفايف ما هي مرامي، مرامي حبيب التهامي، من ارسلو به خابر، جعلو صابر، وإلا افنى الثقلين ما جرى من مناكر، في واحد من الكونين ظاهر

ما زال راحم بمن عتا رحمن

يقول: ما أنا ببادئ وما أنا بخاتم، الخاتم أنا مولاه، نشرت بساط المحبة بعد ما كان في أكفي، ومن أراد أن يصب، أي: من أراد أن يعشق مولاه، من الصبابة، وهي شدة العشق، وليس يصبأ من الصبإ والصبوء، وهو الخروج من دين إلى غيره. قال: من أراد أن يتوله بعشق مولاه، لا يجذب سوى على إيقاع دفوفي، رجائي مثل خوفي، لأني عرفته رحيما. معروفه سبق معروفي. لأنه جبار، ما أمنت على ظروفي في صروفي في ليل ولا نهار. عندما يأذن يواريني عن خلائقه، فحتى الموت لا يداريني، ولو مت لا أفارقه، لا زال سيطلعني على ما نسيت من شقائقه في حدائقه، ولكن الشقائق ليست مبتغاي ومرامي، بل مرامي حبيب محمد نبي الله التهامي، والمراد: الله تعالى، من أرسله، يعني أرسل محمدا ﷺ، عالم به، جعله صابرا، ولو لم يكن صابرا، لأفنى الثقلين ما جرى من مناكر، في واحد من الكونين ظاهر

ما زال سبحانه رحيما بمن عتا[834] رحمانا

والمعنى: قول الشيخ: ما نا بادي ما نا خاتم، أنا مول الخاتم: يشير إلى ما اختلف فيه أرباب الذوق وفقهاء التحقيق، في معنى ختم الأولياء، وصفته، وقد سبق الحديث عنه فيما تقدم كفاية، فلينظر في محله.

فبين الشيخ رؤيته للأمر، فقال: لست ببادئ للولاية ولست بخاتم لها، ولكنني للخاتم بمثابة مولاه، أي صاحبه الذي عنده خبره، وكيف يكون ومتى يكون، هو مولاه بمعنى مميزه عن كل ماوصفه به غيره؛[835] ولا يقصد بمولاه، أنه سيده، أو أنه خير منه عند الله تعالى، فلا يعلم الخير والأخير سوى علام الغيوب، بل إن للشيخ نظرته الخاصة للخاتم، فهو يرى ان الخاتم، ليس آخر الأولياء موتا، إذ ليس في الآخرية في الموت فضل، ولا

---

[834] عتا يعتو عتوا وعتيا: استكبر وجاوز حده

[835] قال الأزهري: وللموالاة معنى ثالث، سمعت العرب تقول: والوا حواشي نعمكم عن جلتها، أي: اعزلوا صغارها عن كبارها، وقد واليناها فتوالت، إذا تميزت. انتهى من لسان العرب

تميز، بل يرى أن الختم هو من ختم الولاية بأن صحح منهجها، ونقاها مما شابها من تفريط ومغالاة وبدع وزيادات، فبقيت على منهجه إلى أن تقوم الساعة

وما زاد الختم شيئا، بل أزال ونقص ما زيد وأضيف، مما ليس من هدي رسول الله ﷺ.

فإن شئت، فالختم مصلح مجدد، يرد شريعة التحقيق إلى الأصل، ومصحح مطهر، يزيح عنها ما لحقها من عقد وحل

قلت في تائيتي:

وفي الختم أقوال أراها تضاربت ومن عد عيسى خاتما في النهاية
وقد أخطأوا لما رأوا في ختامها كمالا كختم الرسل خير البرية
فما ختمها بالدهر من كان آخرا ولكن بمن أبقت عليه وتمت
وعد الحكيم الختم آخر من قضى وزاعم ختم مات من بعد أمة
على قلب خير الخلق إن رمت خاتما يرد جموح الأولياء بهشة
يهون ما شقت ويبني انهيارها حنيفية بيضاء من غير شية
فتشرق في قوم كأول مرة وتيسر في التكليف من بعد عسرة
وما زاد فيها إنما أحبط الذي أتيناه فيها من حوادث رثة
حماها حفيظ من بداية بثها وجدد ما يبلى بختم فجدت
ومن شرط يوم البعث ختم إذا أتى فلا تنتظر واهرع لشعف وشعبة
سيختمها قطب الزمان بوقته بقوم تناسوا في ضلال وغفلة

قال الشيخ: وقد كان أول من ألان الصلب في طريق القوم، وكشف العيب، ووازى بين الشهادة والغيب، وجعلها محمدية على سنن النبي ﷺ، سيدي وشيخي أبو الحسن علي الشاذلي: بما رفع المجاهدة، ووضع المكابدة، وقرب المشاهدة، لم يدع إلى انقطاع واختلاء، ولا إلى ترك أسباب وانزواء، وخلع عنها لبس الخشن، وطوى خوان النخالة والشعير، وعرف الله تعالى بتوفيقه، ووصل إليه بالمحبة والمناجاة، بعد محبة رسوله ﷺ وتصديقه

فلم يكن دينه بالشاق على تابعيه، ولم يكن مذهبه بالغريب عن مصاحبيه، ولا كلامه بالصعب الممتنع على حاضريه ومستمعيه

شهد له من هم أفضل منا شاكلة وشكلا، ورضيه من العلماء أعلاهم منزلة وفضلا.

سار على نهج رسول الله ﷺ، لم يخالف دينه عقلا ونقلا، ويسر على الناس ما عسروه، وقرب ما أبعدوه، وحسن ما قبحوه، وقبح كثيرا مما زينوه

فتلقى الناس منهجه بالقبول، وبلغت شهرته في الأنام اللامعقول، وترك من الحكم والدرر، ما تحيرت فيه الأفئدة والعقول

فلم نر منهجا أرق ولا أعذب ولا أصوب من منهجه، ولا دعوة أصدق وأحق من دعوته، ولا قولا أفصح وأبلغ من قولته

حاز السبق في ميادين المساجلة، وأجاد النطق في أساطين المداولة، ولزم الصدق في مواطن المعاملة

لم يظهر بعلو شانه على من والاه، و لم يتخذ لنفسه معتزلا عمن أتاه، و لم يفتخر بفضل الله عليه على ذويه ومن حاباه

هو المشرق في الراغبين بلا حر، الزهر الفواح في أنوف المزكومين في القر، صاحب الصولات والجولات في ميادين المناظرات، بلا كر ولا فر

الساهم الهاني، المشيد الباني، القطب الرباني والمدد الروحاني، والمحب الفاني، الموله في المحاسن والمغاني، بصدق وإخلاص وتفان

الأوحد في توحيده وتقاه، الأمجد في رباطه وخلواه، الأجود بين أقرانه ومن حاكاه

عرف المريد بمولاه، و لم يعرفه بنفسه كما فعل سواه، وأراح القاصد الله، مما حمل عليه شيوخه من قبل أن يلقاه، فإذا المريد متيم عاشق، يعبد الله بغير عائق، وإذا الشقي القالي محب وامق، بما أفتى عليه من معان ورقائق، وما أقبل به عليه من حكم ودقائق، وما أبلغه مما قصر عنه من حقائق

يحس الآبقين إلى مولاهم دون جهد، ويحبب الراغبين للواحد الأحد الفرد، ويجلسهم مجالس القرب من بعد الاستواء والرشد، ويطلعهم على مشاهد الملكوت دون حد

وقد سرنا عل دربه، وزدناه توضيحا، ووقفنا عل نهجه، وزدناه تصحيحا، وقمنا بأمره، كما قام به مسلما حنيفا

فرددنا عن الطريق من اتخذها مطية الفخار، وأزحنا عن الفريق من تنطع في غلو واستهثار، وكذبنا، بعد التحقيق، من جاء بما غرب وشذ من حكايات وأخبار

وما رددنا ما رددناه إلا بحجة وبرهان، أن حاد عن المحجة بغير سلطان، وما أزحنا ما أزحناه، إلا بدليل وبيان، أن خرج عن السبيل، وما كذبنا ما كذبناه من خرافات وأباطيل، سوى بما سقناه من شواهد وتفاصيل واضحة للأذهان

أما قول الشيخ: ولي بغى يصبا ما يجذب غير على دفوفي، فيقصد أن من رغب في معرفة مولاه، وتاقت نفسه إلى نجواه، فليتبع ما دل عليه وفصله من أسباب التقرب إلى الله تعالى، ونيل رضاه

والجذب الحسي: السماع عند الصوفية، وقد واتى المقام الكلام على أحكامه وآدابه قبل الانتقال إلى غيره

الكلام على السماع

يقول الكلاباذي: فالسماع إذا: قرع الأسماع آثار كوامن أسرارها، فمن بين مضطرب لعجز الصفة عن حمل الوارد، ومن بين متمكن بقوة الحال.

قال أبو محمد رويم: إن القوم سمعوا الذكر الأول حين خاطبهم بقوله: "**ألست بربكم**"،[836] فكمن ذلك في أسرارهم، كما كمن كون ذلك في عقولهم، فلما سمعوا كوامن أسرارهم انزعجوا، كما ظهرت كوامن عقولهم، عند إخبار الحق لهم عن ذلك، فصدقوا.

سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: السماع على ضربين: فطائفة: سمعت الكلام فاستخرجت منه عبرة، وهذا لا يسمع إلا بالتمييز، وحضور القلب.

وطائفة: سمعت النغمة (وهي: قوت الروح)، فإذا ظفر الروح بقوته أشرف على مقامه، وأعرض عن تدبير الجسم، فظهر عند ذلك من المستمع الاضطراب والحركة.

قال أبو عبد الله النباجي: السماع: ما أثار فكرة، واكتسب عبرة. وما سواه فتنة.

قال الجنيد: الرحمة تترل على الفقير في ثلاثة مواضع:

عند الأكل: فإنه لا يأكل إلا عند الحاجة

وعند الكلام: فإنه لا يتكلم إلا للضرورة

وعند السماع: فإنه لا يسمع إلا عند الوجد. انتهى[837]

قال أبو الفتح الجعفي، عفا الله عنه، وتقبل منه: أنكر كثير من المتصدرين للفتوى السماع على المتصوفة والفقراء، وحرموه تحريما، بل نسبوه إلى اللهو والغفلة عن الله

يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: واعلم أنه تحتم هاهنا ذكر السماع، وما هو منه محظور وما هو مباح، وما هو مستحب مستحسن، فإن كثيرا من المتعمقين والمتقشفين كرهوه، وأنكروه أصلا وفرعا، وحقيقة وشرعا، وهذا غلط منهم، لأن ذلك يفضي إلى تخطئة كثير من أولياء الله وتفسيق كثير من العلماء، إذ لا خلاف أنهم سمعوا الغناء وتواجدوا، وأفضى إلى الصرخ والغشية والضعف، فكيف ينسب إليهم نقص وهم سالكون أتم الأحوال؟

---

[836] قال الله تعالى: "وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين". الأعراف172

[837] التعرف إلى مذهب أهل التصوف

وإنما يحتاج ذلك إلى تفصيل ونظر في أهل السماع واختلاف طبقاتهم، فمن صح فهمه وحسن قصده، وصقلت الرياضة مرآة قلبه، وحلت نسمات العزيمة فضاء سره، وصفا من تصاعد أكدار أرض طبعه وبخار بشريته، وخيالات مقابلة وسواسه، وعرى عن حظوظ الشهوات، وتطهر عن دنس الشبهات، فلا نقول أن سماعه حرام، وفعله ذلك خطأ. انتهى[838]

ويقول العز كذلك: فمن ظن أن السماع يرجع إلى دف المغني وطيب النغمة، فهو بعيد من السماع، وإنما السماع حقيقة ربانية ولطيفة روحانية، تسري من السميع المستمع إلى الأسرار بلطائف التحف والأنوار، فتمحق من القلوب ما لم يكن، وتبقي فيه ما لم يزل، فهو سماع حق بحق من حق، وأما الانزعاج الذي يلحق المتواجد، فمن ضعف حاله عن تحمل الوارد، وذلك لازدحام أنوار اللطائف في دخول باب القلب، فيلحقه دهش فيغيب بجوارحه، ويستريح إلى الصعقة والصرخة والشهقة، لغلبة وجده قهر وارده، وأكثر ما يكون ذلك لأهل البدايات، وأما أهل النهايات فالغالب عليهم السكون والثبوت لانشراح صدورهم، واتساع سرائرهم للوارد عليهم، فهم في سكونهم متحركون، وفي ثبوتهم متقلقلون

كما قيل لأبي القاسم الجنيد: ما لنا لا نراك تتحرك عند السماع؟ فقال: "**وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب**".[839] فقيل له: وما معنى السماع؟ وما بال الرجل يكون سكانا قبل السماع، فإذا سمع اضطرب وتحرك؟ فقال: السماع تذكار خطاب الروح من الميثاق الأول، حين قال ربنا سبحانه: "**ألست بربكم قالوا بلى شهدنا**".[840] فسمع من سمع كلامه حين لا حد ولا رسم ولا صفة إلا المعنى الذي سمع، فبقيت حلاوة ذلك السماع فيهم، فلما أخرجهم وردهم على الدنيا ظهر ذلك فيهم، فإذا سمعوا نغمة طيبة وقولا حسنا، طارت هممهم إلى ذلك الأصل، فسمعوا من الأصل، وأشاروا إلى الأصل. انتهى[841]

قلت: وكل منكر للسماع منكر للغناء عامة، ولست بصدد مساجلة المنكرين ومناظرتهم في صحة ما ينكرونه أو خطئه، حليته وحرمته، فقد تصدى للرد عليهم وأفاض وأجاد، وسرد أوجه الأدلة وعيون الاستشهاد، من هم خير منا فضلا وعلما.

قال الإمام الشوكاني في نيل الوطار في الغناء بمصاحبة الآلة: قال ابن النحوي في العمدة: قال ابن طاهر: هو إجماع أهل المدينة. قال ابن طاهر: وإليه ذهبت الظاهرية قاطبة. قال الأدفوي: لم يختلف النقلة في نسبة الضرب إلى إبراهيم بن سعد المتقدم الذكر، وهو ممن أخرج له الجماعة كلهم. وحكى الماوردي إباحة

---

[838] زبد خلاصة التصوف المسمى: حل رموز ومفاتيح الكنوز

[839] النمل90

[840] الأعراف172

[841] حل الرموز

العود عن بعض الشافعية. وحكاه أبو الفضل بن طاهر عن أبي إسحاق الشيرازي، وحكاه الإسنوي في المهمات عن الروياني والماوردي، ورواه ابن النحوي عن الأستاذ أبي منصور، وحكاه ابن الملقن في العمدة عن ابن طاهر، وحكاه الأدفوي عن الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وحكاه صاحب الإمتاع عن أبي بكر بن العربي، وجزم بالإباحة الأدفوي. هؤلاء جميعا قالوا بتحليل السماع مع آلة من الآلات المعروفة. انتهى[842]

وما أحسب نفسي سوى مع من أقر بجواز الغناء، ما لم يكن بمعصية الله تعالى، وخلا مما تلزمه آداب الشريعة وأخلاقها. وقد حضرت في يفاعتي بمدينة الرباط في دار الإخوة السلفية، درسا للعلامة الشيخ تقي الدين الهلالي، وكان رحمه الله تعالى قد بلغ من الكبر عتيا، وكان من المتشددين في تحريم الغناء، وسمعته يتبرأ من إفتائه بتحريمه، ويشهد الحاضرين على تبرئه، ويقول: ماثبت في تحريم الغناء حديث صحيح صريح، وإني اليوم أقول: الغناء جائز

هذا أمر الغناء، فما بالك بالتغني بالثناء على الله تعالى، وبمدح رسول الله ﷺ؟

---

[842] نيل الأوطار

تتمة ما ساقه الشوكاني عن ابن النحوي: وأما مجرد الغناء من غير آلة، فقال الأدفوي في الإمتاع: إن الغزالي في بعض تآليفه الفقهية: نقل الاتفاق على حله. ونقل ابن طاهر، إجماع الصحابة والتابعين عليه. ونقل التاج الفزاري وابن قتيبة إجماع أهل الحرمين عليه. ونقل ابن طاهر وابن قتيبة أيضا، إجماع أهل المدينة عليه. وقال الماوردي: لم يزل أهل الحجاز يرخصون فيه في أفضل أيام السنة، المأمور فيه بالعبادة والذكر.

قال ابن النحوي في العمدة: وقد روي الغناء وسماعه عن جماعة من الصحابة والتابعين، فمن الصحابة عمر، كما رواه ابن عبد البر وغيره. وعثمان، كما نقله الماوردي وصاحب البيان والرافعيُ. وعبد الرحمن بن عوف، كما رواه ابن أبي شيبة. وأبو عبيدة ابن الجراح، كما أخرجه البيهقي. وسعد بن أبي وقاص، كما أخرجه ابن قتيبة. وأبو مسعود الأنصاري، كما أخرجه البيهقي. وبلال وعبد الله بن الأرقم وأسامة بن زيد، كما أخرجه البيهقي أيضا. وحمزة، كما في الصحيح. وابن عمر، كما أخرجه ابن طاهر. والبراء بن مالك، كما أخرجه أبو نعيم. وعبد الله بن جعفر، كما رواه ابن عبد البر. وعبد الله بن الزبير، كما نقله أبو طالب المكي. وحسان، كما رواه أبو الفرج الأصبهانيُ. وعبد الله بن عمر، كما رواه الزبير بن بكار. وقرظة بن بكار، كما رواه ابن قتيبة. وخوات بن جبير ورباح المعترف، كما أخرجه صاحب الأغاني. والمغيرة بن شعبة، كما حكاه أبو طالب المكي. وعمرو بن العاص، كما حكاه الماوردي. وعائشة والربيع، كما في صحيح البخاري وغيره

وأما التابعون: فسعيد بن المسيب وسالم بن عمر وابن حسان وخارجة بن زيد وشريح القاضي وسعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الله بن أبي عتيق وعطاء بن أبي رباح ومحمد بن شهاب الزهري وعمر بن عبد العزيز وسعد بن إبراهيم الزهري. وأما تابعوهم فخلق لا يحصون، منهم الأئمة الأربعة وابن عيينة وجمهور الشافعية. انتهى كلام ابن النحوي

ألم تر إلى داود عليه السلام، كيف كان يرفع صوته ويتغنى بتسبيح الواحد الأحد، وكيف كانت الجبال والطير يرددن معه؟ قال الباري عز وجل: "ولقد آتينا داوود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير، وألنا له الحديد".[843]

قال الزمخشري في تفسيره، في قوله تعالى أوبي: وقرئ: أوبي، وأوبي: من التأويب والأوب: أي رجعي معه التسبيح.

أو ارجعي معه في التسبيح، كلما رجع فيه، لأنه إذا رجعه، فقد رجع فيه. انتهى[844]

إنها سمفونية مقدسة، يرأسها نبي الله داود عليه السلام، بصوت كالمزمار، جوقتها الجبال والطير، موسيقاها الصدى والتغريد. فاسترسلوا رعاكم الله تعالى، وأرسلوا أصواتكم ورددوا في تغن وترجيع، ذاكرين الرب الجميل، بجمالية تليق بجماله، ولا تقبعوا تحت جلابيبكم وعمائمكم، وتحظرون على الناس ما أباح لهم مولاهم من ضروب الفن والجمال، والانسياب والاسترسال، أنظروا إلى الكون: هذه الطيور تتغنى بذكر ربها، وهذه الريح همس بما دق عن الفهم وعذب في السمع بخفيفها، وهذا الرعد يسبح بقصفه، والصواعق تشهد بقوته وجبروته بانفجارها، وهذه الحيتان تسبح في ظلمة البحر، تعبر عن حسن إبداع المبدع بروعة ألوانها.

فما لكم وحدكم تتقوقعون وتندبون وتطفؤون كل براق، وتمسحون كل لون جميل إلا الأبيض والأسود، ما بال ألوانكم لا توجد في قوس قزح؟ ابتسموا.. ابتسموا أيها الواجمون!

قلت: ولم يحضر شيخنا أبو الحسن رحمه الله تعالى، مجالس السماع، ولكنه لم ينه أصحابه عنه، وإنما ذكر سبب امتناعه، ولعله لوم أستاذه ابن بشيش رحمه الله تعالى، له في منامه، لما هم بالذهاب لكي يسمع: يقول رحمه الله تعالى: استأذنني بعض الفقراء في الحضور والسماع، فهممت بذلك، فرأيت أستاذي، وفي يده اليمنى كتاب فيه القرآن العظيم، وحديث رسول الله ﷺ، وفي يده اليسرى أوراق فيها مرجز، وهو يقول لي كالمنتهر: تعدلون عن العلوم الزكية، إلى علوم ذوي الأهواء الردية؟ فمن أكثر من هذا، فهو عبد مرقوق هواه، وأسير لشهواته ومناه، يستفزون بها قلوب ذوي الغفلة والنسيان، وأهل الضلالة والعميان، ولا إرادة لهم في عمل الخير واكتساب الغفران، يتمايلون عند سماعها تمايل الصبيان، لئن لم ينته الظالم ليقلبن الله أرضه سماء وسماءه أرضا. قال: فأخذني منه حال بوجد، وأنا أقول له: نعم يا أستاذي، إلا أن النفس أرضية والروح سماوية. فقال لي: نعم يا علي، إذا كانت الروح بأمطار العلوم دائرة، والنفس بالأعمال الصالحة ثابتة، فقد حصل الخير كله، وإذا كانت النفس غالبة، والروح مغلوبة، فقد حصل القحط والجدب، وانقلب الأمر، وجاء الشر كله.

---

[843] سبأ10

[844] الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل

فعليك بكتاب الله الهادي، وبكلام رسوله الشافي، فلن تزال بخير ما آثرتهما، وقد أصاب الشر من عدل عنهما، وأهل الحق إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه، وإذا سمعوا الحق أقبلوا عليه: "ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسنا".[845] . انتهى[846]

قلت: وقد نهى الصوفية كل من لم تكمل معرفته عن السماع، وقالوا بأن حضوره فيه، يميل قلبه إلى الدنيا، ويعزز هواه؛ وأجازوه للكامل الذي يذكره بربه، ويقربه إلى مولاه

وقال ابن هوازن: وسئل عالمنا رحمه الله، فقيل له: بلغنا أنك تنكر السماع، وقد كان الجنيد وسري السقطي وذو النون يسمعون، فقال: كيف أنكر السماع وقد سمعه عبد الله بن جعفر الطيار، يعني ابن أبي طالب؟ وإنما أنكر اللهو وأنكر اللعب في السماع، ولعمري، إن هؤلاء الأشياخ الذين ذكروا، قد كانوا يسمعون، ولكن كان منهم من سمع السر دون العلانية، ومنهم من كان يسمع مع إخوانه ونظرائه دون الأتباع والأصحاب، وكانوا يقولون: لا يصح السماع إلا لعارف مكين، ولا يصلح لمريد مبتدئ. وكان بعض العلماء قد ترك السماع، فقيل له، فقال: ممن؟ فقيل له: فأنت، فقال: مع من كانوا لا يسمعون إلا من أهله ومع أهله. انتهى[847]

آداب السماع

قال القشيري: وأما آداب المريد في السماع، فالمريد لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار ألبتة، فإن ورد عليه وارد حركة ولم يكن فيه فضل قوة، فبمقدار الغلبة يعذر، فإذا زالت الغلبة، يجب عليه القعود والسكون، فإن استدام الحركة مستجلبا للوجد من غير غلبة وضرورة، لم يصح، فإن تعود ذلك، يبقى متخلفا لا يكاشف بشيء من الحقائق، فغاية أحواله حينئذ، أن يطيب قلبه. وفي الجملة، أن الحركة تأخذ من كل متحرك، وتنقص من حاله، مريدا كان أو شيخا، إلا أن يكون بإشارة من الوقت، أو غلبة تأخذ عن التمييز. فإن كان مريدا، أشار عليه الشيخ بالحركة، فتحرك على إشارته، فلا بأس إذا كان الشيخ ممن له حكم على أمثاله، وأما إذا أشار عليه الفقراء بالمساعدة في الحركة، فيساعدهم في القيام، وفي أداء مالا يجد منه بدا، مما يراعى عن الاستيحاش لقلوبهم، ثم إن صدقه في حاله، يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم عند المساعدة معهم. انتهى[848]

---

[845] الشورى21

[846] درة الأسرار

[847] قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد

[848] الرسالة القشيرية

قلت: ولا أرى للمبتدئ ولا للكامل إلا خيرا في حضور السماع، كيف والأول يحضر التغني بالله تعالى، ألا يقربه ذلك إليه؟

والثاني يزيده معرفة على معرفة، ويلهب شوقه بذكر الحبيب

وفرق أرباب الذوق بين الوجد والتواجد، فمنهم من حبذ الأول وكره الثاني، مع العلم أن الوجد والتواجد يؤديان في الغالب إلى الجذب

الوجد والتواجد

قال أبو الفتح: فأما الواجد الجاذب، فلا حرج عليه، كيف وأن الناس من طبعهم الجذب عند الفرح والترح؟

فمن منا لم يبشر يوما بفوز أونجاح، في شأن من الشؤون، وما صاح وقفز ومشى ونط؟

ومن منا ما جاءه خبر محزن أو نعي حبيب، وما تاه وصاح، وتمتم بما لا يفهم؟

فما على العارف إذا طرب لذكر الحبيب، وهزه الشوق والمحبة فاضطرب، إن لم يستطع أن يتحمل هذه الأفراح، فتمايل وصاح؟

قال القشيري: فالتواجد بداية، والوجد نهاية، والوجود واسطة بين البداية والنهاية.

سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: التواجد يوجب استيعاب العبد، والوجد يوجب استغراق العبد، والوجود يوجب استهلاك العبد. فهو كمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق في البحر. وترتيب هذا الأمر: قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود. وبمقدار الوجود يحصل الخمود، وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوه بقاؤه بالحق، وحال محوه فناؤه بالحق. وهاتان الحالتان أبدا متعاقبتان عليه، فإذا غلب عليه الصحو بالحق، فبه يصول وبه يقول: قال عليه السلام فيما أخبر عن الحق: "فبي يسمع وبي يبصر".

سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: وقف رجل على حلقة الشبلي، فسأله: هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين؟ فقال: نعم، نور يزهر مقارنا لنيران الاشتياق، فتلوح على الهياكل آثارها، كما قال ابن المعتز:

وأمطر الكأس ماء من أبارقها فأنبت الدر في أرض من الذهب
وسبح القوم لما رأوا عجبا نورا من الماء في نار من العنب
سلافة ورثتها عاد عن إرم كانت ذخيرة كسرى عن أب فأب.[849]

---

[849] المرجع نفسه

الجن لو ما وجدوا من جودي حيث نجود ؤ نمن وما نتمنن، ما يشدوا في عودي حتى نحن ؤ نتحنن، ولا نخافيهم حيث هما ساقهين، ولا نجافيهم ما دامو جاثمين عند اقدامي خايفين حسامي، مهما أمنتهم ما أمنوا من سناني في سهامي، الجن علينا عقال، خفوا ما عادو ثقال، اخف من نار على علام في الاكمام، ما تزي فيهم اقوال، التنزيل به شقاوا وبكاوا، ما شقى الانس ما شقاهم، ولا بكاوا بما بكاهم، الانس قساوا لما نساوا، آش جا ما اصلح الطين إلى يبس؟ ابنادم فلس من سنين

حتى مسو الجان في الابدان

يقول: لو ما وجد الجن من جودي لما أجود عليهم منا دون أن أمن وأتمنن، لو ما وجدوا مني ذلك، ما أمسكوا بعودي حتى أحن وأزيد في حنوي عليهم، ولست أجافيهم ماداموا جاثمين عند أقدامي خائفين من حسامي، مهما أمنتهم لم يأمنوا من سنان في سهامي

أليس الجن أعقل منا؟ فقد خفوا وما عادوا ثقالا، هم أخف من نار على علم في الأكمام، والعلم: الجبل، كما يقول المثل: أشهر من نار على علم، وقد مثل خفتهم بخفة النار على الجبل حيث تتموج مع الريح ولا يحجزها عنها حاجز، لأنها في أعلى الجبل، وقد مثل للجن من عنصره، وهو النار، وما دام مثال النار على العلم، تكون بادية واضحة للجميع، والجن محجوب عنا لا نراه، تدارك الأمر، وجعله في الأكمام؛ والأكمام غلاف تمر النخل، كناية على خفاء الجن وانحجابه، ثم قال: لا تجدي في الجن أقوال، أما الإنس، فقد قست قلوبهم لما نسوا. من يصلح الطين متى جف وييس؟ أصيب بنو آدم بالإفلاس منذ سنين

حتى مسهم الجن في الأبدان

والمعنى: يقول الله تعالى: "**ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمإ مسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم**". [850]

فلا يقبل قول من أنكر وجود الجن، بل إن إنكار وجودهم، إنكار لآيات القرآن العظيم

وثبت تمثل الجن وخروجه لرسول الله ﷺ، ولبعض الصحابة الكرام، كما هو في الصحيح:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: "إن عفريتا من الجن تفلت البارحة ليقطع علي صلاتي، فأمكنني الله منه فأخذته، فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: "**رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي**"، [851] فرددته خاسئا".

"عفريت": متمرد من إنس أو جان، مثل زبنية، جماعتها الزبانية. رواه البخاري

---

[850] الحجر 26-27

[851] ص 34

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: "يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟" قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال: "أما إنه قد كذبك، وسيعود"؛ فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله ﷺ: "إنه سيعود". فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: "يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك؟" قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا، فرحمته فخليت سبيله، قال: "أما إنه كذبك، وسيعود"؛ فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم".[852] حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح؛ فخليت سبيله فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: "ما فعل أسيرك البارحة؟" قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: "ما هي؟" قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم: "الله لا إله إلا هو الحي القيوم". وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح؛ وكانوا أحرص شيء على الخير، فقال النبي ﷺ: "أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟" قال: لا، قال: "ذاك شيطان". رواه البخاري

ونعتقد أن الجن في أرض غير هذه، إذ عدة الأرضين سبع، كما هو معروف، وقد خلق الله تعالى الإنسان ليعيش وبينه وبين الجن حجاب، قال سبحانه: "إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يومنون".[853]

والأحرى بالإنسان أن لا يتبع ما تدوول من طرق حلالها وحرامها، من أجل تسخير الجن، إذ بذلك يزيغ عن سنة رسول الله ﷺ، ويسعى لنفسه في الهلاك بخروجه عما فطره الله تعالى عليه

فحسبنا دليلا على ذلك، ترفع رسول الله ﷺ، عن إمساك العفريت من الجن، وقوله فيما سبق في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: "فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان: "رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي"،[854] فرددته خاسئا".

---

[852] البقرة253

[853] الأعراف26

[854] ص34

وقد اختص نبي الله سليمان عليه السلام، بتسخير الجن والشياطين، كما هو في قوله تعالى: "فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب والشياطين كل بناء وغواص وآخرين مقرنين في الاصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أو امسك بغير حساب".[855]

وقد ظن قوم أن الجن ينفعهم، فاستغاثوا بهم وقربوا لهم القرابين من دون الواحد الأحد، وأرضوهم بلبس ما يستهويهم من ألوان، ودخنوا لهم بما يعجبهم من دخن، قال تعالى: "وإنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا".[856]

فتخلى الباري عز وجل عن نصرتهم، فغلبت عليهم الشياطين، واستعمرت أجسامهم، وأبطلت أعضاءهم، أن لم يدخلوا في عباد الله المخلصين

"قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين".[857]

وقوم سلكوا علوما روحانية، لا أساس لها في شريعتنا السمحة، ابتغوا من وراء سلوكها، استخدام الجن في قضاء مآربهم وأغراضهم، فضلوا وحصدوا الذلة والمهانة والهوان، وباؤوا بغضب من الله، إلا الذين فعلوه عن جهل، فعسى الله تعالى، أن يغفر لهم ويتوب عليهم، إنه هو التواب الرحيم

قال الشيخ في كتابه: أبواب الشيطان: إذ لا ننسى، أن نذكر أن أعلام علم الحرف والروحاني، أغلبهم ينقصه التفقه في الدين، ولذلك لا يمكنه أن يحكم ميزان الشريعة ليتبين الصواب من الخطأ، فاستعملوا من العزائم والأقسام والطلاسم والجداول ما لم يترل الله به من سلطان، وقرأوا أسماء سريانية وعبرانية، لا يعرفون معناها، وتصرفوا بأبواب شيطانية التبس عليهم أمرها، فأوذوا وآذوا دون قصد، فضلوا وأضلوا، عسى الله أن يهديهم ويغفر لهم، إنه هو الغفور الرحيم

"وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم، إن الله غفور رحيم".[858] انتهى[859]

وتتضمن هذه العلوم الروحانية، ما أخذ أصلا عن فلاسفة اليونان، وعن بعض المشتغلين بالسحر، ومنه أقسام وعزائم وأسماء سريانية وجداول وطلاسم، منها ما يتلى وما يكتب، وفق أوقات وطوالع فلكية معينة.

---

[855] ص36-38

[856] الجن6

[857] الحجر39-40

[858] التوبة103

[859] أبواب الشيطان

ولو عقل هؤلاء، لعلموا بالبديهة، أن كلام الله تعالى كما نزل من السماء، أفضل وأعظم نفعا وأجدى من الرموز والجداول.

فكيف يستصغرون تأثير ما أنزل الله، ويستعيضون عنه بترهات من وضع البشر؟

"ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الارض أو كلم به الموتى".[860]

قال فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى: اعلم أنه روي أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة، فأتاهم الرسول ﷺ وعرض الإسلام عليهم، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي: سير لنا جبال مكة حتى ينفسح المكان علينا، واجعل لنا فيها أنهارا نزرع فيها، أو أحي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أنت أو باطل، فقد كان عيسى يحيي الموتى، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد، فقد كانت الريح مسخرة لسليمان، فلست بأهون على ربك من سليمان. فنزل قوله: "ولو أن قرآنا سيرت به الجبال"، أي من أماكنها، "أو قطعت به الارض"، أي شققت فجعلت أنهارا وعيونا، "أو كلم به الموتى"، لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك. وحذف جواب: "لو"، لكونه معلوما. وقال الزجاج: المحذوف هو أنه "لو أن قرآنا سيرت به الجبال" وكذا وكذا، لما آمنوا به كقوله: "ولو أننا نزلنا إليهم الملايكة وكلمهم الموتى".[861] انتهى[862]

وقد عرض الشيخ للحديث عن الجن، ووضع نفسه منهم موضع قوة وبأس، لكي يظهر ضعفهم ويبرز خوفهم للقارئ، وذلك لما رأى من إقبال الأنام على تعظيمهم، والخوف منهم، فإن الشيخ من شدة تمسكه بالله تعالى، يعتبر الجن مخلوقات لله، تستحب فيهم الصدقة والإطعام، لأن سوادهم يعاني من الفاقة والجوع، وأعدادهم لا يحصيها غير المحصي المعيد

كما باشرهم بالعفو والصفح، ولم يؤاخذهم على كثير من أخطائهم وهفواتهم، فأحبوه من أجل ذلك واجتمعوا عليه

ووصف الجن بأنهم يعبدون الله لا كما نعبده، فقد قال في كتابه السوانح: أما مؤمنو الجن، فمهما بلغ إيمانهم يبقى ناقصا، ولو أنهم خاشعون باكون، يعبدون الله رهبة منه، لاطلاعهم على ما لا سبيل لاطلاع الإنسان عليه، إلا بهداية من الرحمن.

فهم يجوبون السماء ما لم نجب، فيلمسون فيها ما لم نلمس، ويوقنون بوجود الملائكة ما لم نوقن، إلا أنهم لا يتلقون اللدنيات، إذ محل تلقيها الروح، وهم حياة لا روح فيها، فالحمد لله الذي فضلنا، بأن نفخ فينا من روحه، على كثير ممن خلقه تفضيلا.

---

[860] الرعد32

[861] الأنعام112

[862] مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير

"وإنا لمسنا السماء فوجدناها مليت حرسا شديدا وشهبا، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا". [863] [864]

بل إن الشيخ يضع الجن من تحت التكليف وليس تحت التكليف كالإنسان

وقوله: الجن علينا عقال خفوا ما عادوا ثقال، أراد به أن الجن رغم سفاهة عقولهم، فقد أصبحوا أعقل منا في هذا الزمان الذي طاشت فيه أحلام البشر، فلم يعد الجن ثقيلي الفهم بمقابلتهم بفهم الناس، بل أصبح فهمهم الثقيل أخف من فهمنا، إذ لم يعد لنا تدبير ولا فهم، بسبب ما نأتيه من حماقات في هذا الزمان

---

[863] الجن08-09

[864] سوانح الخواطر في كوامن السرائر

إلى تحقرني أنا مانطمع في أقداري، ولى تنصفني تعرف مقداري، أنا نجم في الاجوا ساري، يتيم في الدراري، مايهمني تعرف من نكون، خليني خامل ؤكون اللي تكون، لا تكون علي سايل، إلى تسول فيّ تفتنك فنوني بلا بليه، ولى تقرب لي يسحرك جنوني بلا رقيه، ما يزيدني ثناك إلى اثنيتي علي؟ إلى ما عرفتيني عرفتني الاملاك قبل لا تزاد، ما حاجتي للعباد؟ العباد عبادو، اثني على مولاك

لح فيه سوالو يا المغنان

يقول: إذا احتقرتني فأنا لا أطمع في أقدار، وإذا أنصفتني عرفت مقداري، أنا نجم سار في الأجواء، يتيم بين الدراري. لا يهمني أن تعرف من أكون، دعني خاملا وكن ما تشاء أن تكون، لا تكن سائلا عني، إذا سألت عني تفتنك فنوني دون بلية، وإذا اقتربت مني يسحرك جنوني بلا رقية، ما يزيدني ثناءك إذا أثنيت علي؟ إذا لم تعرفني عرفتني الأملاك قبل أن تزداد أنت، ما حاجتي للعباد؟ العباد عباده سبحانه، اثن على مولاك
ألح في سؤاله أيها العنيد

والمعنى: الدعوة إلى الخمول والابتعاد عن الشهرة:

يقول الشيخ أبو المحاسن رحمه الله تعالى: أساس الإرادة خمول الذكر، وليس على المريد أضر من الشهرة، إلا أنه في البداية مقصود، وفي النهاية ملحوظ، فكيف يليق التعرض للمناصب والمراتب وفيهما شرف وظهور، وهو مفسد للدين كما ورد؟ ولو ذكرنا ما نزل بنا، واختبار الحق لنا بمثل ذلك، لبهر عقلك، فخلصنا الله سبحانه وأعاننا، والحمد لله. والآن أقول لك: الزم بيتك وخالف جنسك واجمع قلبك، وما يحول بينك وبين قلبك اقطعه قبل أن يقطعك، ولو كان فيه حتف نفسك، واعلم أن البصيرة كالبصر: أدنى شيء يغير النظر، وما نزل بك قد سبقك به الشيخ العارف المحقق أبو الحسن الششتري، حين نزل طرابلس وظهرت عليه علوم، فأعجب الناس، فأرادوا أن يولوه القضاء، فامتنع، فلاموه واستحمقوه، فاعتذر بأبيات قالها، وهي:

رضي المتيم في الهوى بجنونه خلوه يفني عمره بفنونه
لا تعذلوه فليس ينفع عذلكم ليس السلو عن الهوى من دينه
قسما بمن ذكر العقيق من أجله قسم المحب بحبه ويمينه
ما لي سواكم غير أني تائب عن مفترات الحب أو تلوينه.[865]

قال في الحكم: ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

[865] مرآة المحاسن

أي: ادفن، أيها المريد، نفسك؛ أي شهرتها، في الخمول الذي هو كالأرض للميت في التغطية التامة؛ بأن لا تتعاطى أسباب الشهرة. فإن الخمول مما يعين على الإخلاص، بخلاف حب الظهور، فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور. فما نبت من الحب مما لم يدفن في الأرض لا يتم نتاجه، بل يخرج مصفرا. وكذلك أنت، أيها المريد، إذا تعاطيت أسباب الشهرة في بدايتك، قل أن تفلح في نهايتك. ومن ثم، قال رجل لبشر بن الحارث: أوصني، فقال: اخمل ذكرك وأطب مطعمك. وقال بعضهم: لا تصلح طريقتنا هذه إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل. وقال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة. ولله در القائل: العزلة تنفع القلب، فكرة وعدة. انتهى[866]

ما حاجتي لأن تعرفني؟ أنا لا أرتجي منك معروفا، ما أنت إلا عبد مثلي، لا تملك لي ولا لنفسك ضرا ولا نفعا.

لا أطمع في أن تعرفني، فأنا لا أعرف، كيف تعرفني وأنا لا أعرف نفسي بنفسي؟

كيف تعرفني وأنت لا ترى مني إلا الهيكل؟ كيف تجاورني وأنت لا تحادي مني غير المنزل؟ وأما الساكن فلا زال فيه عندك لم ينزل

قرأت مني العبارة، و لم تفهم عني الإشارة

أواه يا صاح، ألهتك زينة المباني عن بهجة المعاني، واشتغلت بالصدف والقشور، وقصرت عن الدر المنثور

تخوض الحواشي حيث التلاشي، وتغفل ما استقر وثبت في المقر

كيف تبصرني، وقد واراني الباري وراء ألف حجاب؟ كيف تعرفني وأنت عني حجاب؟

ما عليك سوى التسليم

أنا لغز أبدعه الحكيم، في تحول والتواء، وتلاه على العالمين فتنة وبلاء

إذا جاوزت الحجب، وكشفت الستائر، بهرتك بهويتي، وأهويتك في أعلى عليين، حيث ترتجي الرجوع فلا تجد.

إذا عرفتني نسيت من تكون، ولن تعرفني وأنت كائن، ستعرفني عندما لا تكون، ستنصفني آنذاك، وتعرف قدري ومقداري، ولن تقدر بعدها على تكذيبي، ولن تجرؤ على تصديقي، لا هذه ولا تلك، ستبقى بين بين، حيث لا حيث ولا أين

ستجد نفسك، ما زدت سوى جهل بي، من حيث ظننت أنك عرفتني.

ما اقتربت مني إلا أبعدتني عنك، وما ابتعدت إلا قربتك من بعدك. أنا زارع الهباء في تلابيب الغباء، فإذا أسبل أضل، وإذا لم يسبل شغل

---

[866] شرح الحكم العطائية الشرنوبي

إذا احتقرتني من أول نظرة، دعوت لك بالفردوس الأعلى، مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، لأنك باحتقاري ستظاهر الذين يدنون من شأني، وما أكثرهم، ستكون خيطا رفيعا في نسيج حجاب من حجاباتي، أوهى حجاباتي الناس، أحبهم أن يكونوا حجابا لي، يعجبني هذا الحجاب، حجاب ناطق لا يسكت: يغري بي قوما ويؤلب علي آخرين

اتبعني إن شئت، فسيرهقك اتباعي، ويعييك اقتفائي

قد طرت بأجنحة عراض متينة، المحبةجناحاي، ومن أحب مولاه، طار أبلغ من البرق، إذ لاشيء في الملكوت جارى المحبين وما سبقوه

احجبني رعاك الله، فإنني لا أحب أن يراني سوى الله تعالى، أكره الظهور، ولولا بعض المبصرين، لم تر صحائفي النور، ولولا أن يقول: هل بلغت؟ ما أنفقت عمري أحبب الخلق للخالق، يتمزعون حولي، وهو الغني عني وعنهم أجمعين، وكأنني أدعوهم إلى السعير

حتى إذا ما استيأست، وظننت بعضهم صار مني، تولوا كالحمر المستنفرة، فرت من قسورة

يقول الشيخ: اعلم أنني في السماء مشهور عند الأملاك، وما عدة الناس في الأملاك إلا كقطرة من بحر، فدعني من القطرة وقد غصت في البحر، وتكسرت أمواجه على سواحلي المترامية

حتى إذا فرحت باشتهاري في الملإ الأعلى، لا مني مولاي

قلت في مخاطباتي: حسبت حب الخمول، يكون بترك الظهور عند الناس، وطلبه لدى الملائكة، فما زدت بذلك إلا ظهورا. انتهى

فادفني يا مولاي، في مقبرة النسيان، لا يذكرني ملك ولا إنس ولا جان، وامح اسمي ما دمت حيا، من سجل الباقين في ذاكرة المكلفين المتشرعين، ولا تزيني في عين أحد، ولا ترفعني عند عال ولا دان. حسبي أن تستخلصني لنفسك، وثبتني على رضاي بأن كنت عبدك، وارض عني عندك، فإني بك في غنى عن سواك، وبمعرفتك إياي في غنى عن كل عارف

لا تكول: حيث كان، ربي ما يحدو مكان، لا تكول: حين كان، ربي ما يحكمو زمان، لا تكول: هو غايب، لا تكول: أنا، وتعود واحد في الربايب، ما بينك ؤ بينو حجايب،. محال يحجب الباري حجاب، كيف يحجبو ؤ هو رب الأرباب؟ الله لظاهر ما حجبو غير انت بالذات، زول به عنك ؤ ذوب، تشوفو كامل الصفات، شفتو تهد الجبال والطوب، لا تعجل الهلاك بالنظره، يكفي إلى راك مول القدره، قل: يا من تراني ؤ ما نراك، ثبتني حتى نراك، ما نشرك حد معاك حتى نلقاك

محال تغيب على العيان

يقول: لا تقل: حيث كان، فربي لا يحده مكان، ولا تقل: حين كان، فربي لا يحكمه زمان، لا تقل: أنا، وتصبح ربا في الأرباب، ما بينك وبينه أي حجاب. محال أن يحجب الباري حجاب، كيف يحجبه وهو رب الأرباب؟ إن الله ظاهر ما حجبه غيرك أنت بالذات، زل به عنك، ثم ذب تراه كامل الصفات، رؤيته تهد الجبال والطوب، لا تستعجل الهلاك بالنظرة، يكفيك إذا رآك صاحب القدرة. قل: يا من تراني ولا أراك ثبتني حتى أراك، لا أشرك أحدا معك حتى ألقاك

محال أن تغيب عن العيان

والمعنى: قال في الحكم: كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر لكل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء؟

كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء؟ كيف يتصور أن يحجبه شيء، ولولاه ما كان وجود كل شيء؟ يا عجبا كيف يظهر الوجود في العدم؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم؟

قال أبو الفتح: **كيف تتوب من التوحيد إلى الوحدة؟**

أفرغ جوفك أيها الطالب من مصطلحات العقيدة ومن تعاريف دقيقة، ولا تلتفت لاختلاف علماء الكلام فيما هو ظاهر ولا داعي للاختلاف فيه، ارجع إلى فطرتك وما سطر الباري عز وجل في باطنك، دون قلم ولا مداد، ودون حد وموضوع، واقرأ ما فيه دون تهجٍ وتعتعة، وافهم معناه ببصيرتك، وتخلص مما يفتيه عليك عقلك، فحاشا أن يعرف الله تعالى بالعقل.

سأل ذعلب اليماني الإمام علي كرم الله وجهه: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال كرم الله وجهه: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟ فقال: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان. انتهى[867]

وفي رواية أحمد، قال رسول الله ﷺ لوابصة: "جئت تسألني عن البر والإثم؟" فقال: نعم، فجمع أنامله، فجعل ينكت بهن في صدري، ويقول: "يا وابصة، استفت قلبك، واستفت نفسك (ثلاث مرات)، البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك".

فإذا عملت بكل ما قلت، عرفت أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد، لا إله غيره، فتكون بما عرفت الموحد الأوحد، الذي يستحضر خصوصية وحدة مولاه بكليته، ويشهد عليها في روعه وبواطنه

ومتى وحدت مولاك، عرفت كيف تتأدب بما تقتضيه العبودية من آداب الطاعة ومراسيم الابتهال، وحققت مبتغاه من الوحي والتشريع

فإن قلت: وما الفرق بين من وحد الله توحيدا، ومن أوحده وحدة؟

قلت: الموحد، برفع الميم وفتح الواو وتشديد الحاء المهملة وكسرها، من التوحيد، وهو جعل المتعدد واحدا، والموحد مؤمن لا شك في إيمانه، إلا أنه يعرف الله تعالى بفكره، ويعبده بجوارحه، وأغلب عبادته عوضية: ترغبه الحسنات في أعمال الخير فيأتيها، وتزجره السيئات إذا هم بالمخالفات فلا يأتيها، يبيت يحلم بالنعم والحور، وما أعد الله من غرف وقصور، فيصبح مطمئنا، وإذا حلم بالساعة قامت ونقر في الناقور، وجيئ بالنار والسعير، أصبح مترعجا مستغفرا، طالبا النجاة والسلامة، فهو لا يكاد يناجي ربه ويتوله في محبته شوقا واحتراقا

والتوحيدي، وهو الموحد، بفتح الواو، مؤمن، معرفته بالله يشدها وتدان: الأول الطمع فيما عند الله، والثاني الخوف مما أعد الله

الأول: فردوس والثاني جحيم

الأول جزاء، والثاني عقاب

الأول شكر والثاني زجر

هو تاجر يعبد الله تعالى من أجل الأجرة ويطمع في الجنة

وهو عبد يطيع مولاه خوفا من تعزيره وعقابه

وفي هذه الطائفة من المؤمنين، قال الله تعالى:

"إن الله اشترى من المومنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة".[868]

---

[867] نهج البلاغة

[868] التوبة112

"من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله أجر كريم".[869]

"إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله، إنه غفور شكور".[870]

وقد رفع الشرع من منزلة هذه الطائفة، لأنها ما فرطت في طاعته سبحانه من شيء، ولا شك سيكرمها يوم القيامة، ويسكنها الفردوس الأعلى، خاصة وأن أصحابها يحبون الله تعالى ورسوله ﷺ، وما نزلت الشرعة إلا من أجلهم، فلا حرج عليهم عند الله، عسى الله تعالى أن يبعثهم مقاما محمودا

وأما الموحد، بميم مرفوعة وواو مهملة وحاء مهملة مكسورة دون تشديد، من الوحدة، وهي إفراد الله تعالى، لأنه سبحانه وحد، بفتح الواو والحاء المهملة والدال المهملة، وحدة، بمعنى انفرد بنفسه، فليس فوق هؤلاء، إذ لا يعلم بالأتقى سوى الواحد الأبقى

وليس الوحدوي، وهو الموحد بإهمال الواو، هو من يعد نفسه أكيس الناس، ويقول: إنما نزلت الشريعة من أجل عامة الناس، وما أنا إلا من خاصته تعالى، فلا حرج علي إذا تركت الصلاة، وشربت الخمر، وأجزت لنفسي ما حرم عليهم، إذ المقصود من الفرائض والمحرمات معرفة الله تعالى واتقاؤه، وأنا أعرفه وأتقيه دون ما حاجة إلى كل ذلك، ففيم فعل ما لا فائدة من فعله؟

بل الوحدوي هو الذي يحقر نفسه دون سائر العالمين، ويقوم بكل أوامر الله تعالى، ويجتنب كل نواهيه، ويحفظ أصل الشرع، ولكن محبته لله تكون أرقى من محبة غيره، فهو لا يفعل ما يفعله من أجل الجزاء، ولا يجتنب ما يجتنبه خوف العقاب، بل يطيع الله تعالى من شدة حبه له، لا يقوى أن يفعل أو يترك ما يغضب حبيبه منه وإنما يطلب الرضا، وإنما يطلب القربى والنجاة

قالت رابعة:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه؟ هذا لعمري في القياس شنيع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

هؤلاء الوحدويون هم مخترعوا المناجاة، وعرائس البث والإفضاء، وأقطاب النجوى، إذا دعوا الله لم يدعوه بما يحفظون، فيقعدون على الزرابي والنمارق يستظهرون على الله ما حفظوا، بل هؤلاء يخاطبون ربهم ارتجالا، ولا يتصنعون في خطابهم، ولا يتنمقون في دعائهم، يخاطرهم فيصغون، ويبثون إليه شكواهم والناس نيام بكلام رقيق، يعلوه الشجون، فيبكون ويبكون

---

[869] الحديد11

[870] فاطر29-30

يباهي بهم الله ملائكته، ويقول: أنظروا إلى زمرة من عبادي، يعبدونني لا يطمعون في شيء عندي، أشهدكم أنني أحبهم أشد مما أحبوني، وأشتاق إليهم أشد مما اشتاقوا إلي، ويوم يأتونني أنزلهم مترلا يليق بهم، لا يترله سواهم

"فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون". [871]

ولا شك أن على رأس طائفة الوحدويين الرسل والأنبياء والصديقون، على رأسهم سيدنا وحبيبنا، إمام الأمة وكاشف الغمة ومجلي الظلمة، سيدنا محمد ﷺ

تأدب الرسل والأنبياء عليهم السلام في دعائهم الله تعالى

وقد تأدب الرسل والأنبياء مع الله تعالى في الدعاء، وكيف لا يتأدبون مع الملك وهم أعرف الناس به، فبقدر المعرفة يترقى الدعاء وتكون الاستجابة

فانظر إلى نوح عليه السلام، لما حال الموج بينه وبين ابنه وفلذة كبده فكان من المغرقين، كيف طلب له العتق في الآخرة من النار، أن لم يفلح عليه السلام من عتقه في الدنيا من الغرق، بعد أن دعاه للركوب في الفلك وأبى.

فإنه عليه السلام، لم يخاطب الله عز وجل خطابا مباشرا، أي بأسلوب إنشائي، بأن قال: رب اغفر لابني ونجه من عذاب النار

بل خاطبه بأسلوب خبري، وقال: "رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق، وأنت أحكم الحاكمين". [872]

ألا ترى لو قصد محتاج غنيا يسأله عونا على نوائب الزمان، ويشكوه حاجته، كيف يتلطف معه في السؤال والطلب، فلا يقول: أعطني مما عندك. إذ قد يرى في سؤاله جرأة وظلفا فيمنعه

ولكنه يقول: انقلب الحال وجاع العيال، وأنت أهل الجود والكرم

فيكون كلامه غير المباشر أبلغ في نفس الغني، رغم أنه يحمل في سياقه معنى السؤال والطلب

وانظر إلى أيوب عليه السلام، لما أصابه الضر، لم يقل اللهم اشف ضري، بل قال: "أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين". [873]

---

[871] السجدة17

[872] هود45

[873] الأنبياء82

وانظر إلى يونس عليه السلام، وهو في بطن الحوت، في ظلمات ثلاث، كان يقول: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين". [874]

و لم يقل: رب اغفر لي وأخرجني من بطن الحوت

وثبت من تسبيح يونس عليه السلام وقول الله تعالى: "فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون". [875]

ثبت أن التسبيح يرد غضب الرب وسخطه

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما طلب رؤية الله تعالى، وخر الجبل وصعق موسى، لما أفاق شعر بجبروت الإله وخاف غضبه، وأول ما قال: "سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين". [876] فابتدأ بالتسبيح ثم التوبة

وفيه أن المخطئ في حق الله تعالى، الأولى له أن يكثر من التسبيح، فقد يتجاوز الباري عز وجل، على خطئه، أسوة بالأنبياء الكرام

وانظر إلى عيسى عليه السلام، لما سأله الواحد الأحد، وقال: "أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله". [877]

لما سأله ذلك، أول ما قال: سبحانك، متبرئا منه، ولما تبرأ، مال إلى طلب الغفران لقومه من شدة رأفته بهم، وقال: "إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم". [878]

ونلمس في كلامه دعوة الله تعالى، إلى التجاوز عن قومه

قال أبو الفتح: سبحانك ما أتيت ذنوبا عظاما، ورتعت في حماك و لم أحفظ حرمة و لم أرع ذماما، سبحانك ما أتاني داعي الموت فجأة زؤاما، وما وقفت في الحساب خالي الوفاض، وكان لزاما

وانظر إلى زكرياء عليه السلام، حين دعا الله تعالى أن يرزقه الولد

كيف قال: "رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين". [879]

و لم يقل: رب ارزقني ولدا

أولئك المقربون، أحباب الله تعالى وأصفياؤه، من أجلهم خلق السماوات والأرض

---

[874] الأنبياء86

[875] الصافات143-144

[876] الأعراف143

[877] المائدة118

[878] المائدة120

[879] الأنبياء88

ما يعبأ الله بخلق لا يحبونه، ولا يبثون إليه الشكوى ولا يفضون؟

ما حاجة ربي بخلق لا يعبدونه إلا إذا وعدهم بالعوض والأجرة، وإلا إذا توعدهم وخوفهم من نار السعير؟

وإنما حاجته لمن يقدر قدره، ويتزهه عما سواه، ولا يعبده سوى لوجهه

ألا نعبدك يا منان شكرا على ما خولتنا من آلاء ونعم، ألا نعبدك شكرا؟

"اعملوا آل داوود شكرا، وقليل من عبادي الشكور".[880]

غريب أمر الإنسان الذي لا يعبد الله تعالى سوى إذا ضمن له قصرا في الجنة فيه سبعون حورية

ومع ذلك، فالله تعالى لم يؤاخذ أحدا، فرغم أنه الغني المتعال، القائم بنفسه، لا زال يرغب الناس كي يعبدوه، ولو أنه مستغن عن عبادتهم، يتحبب إليهم بالنعم وهو غني عنهم، ويتبغضون إليه بالمعاصي،[881] وهم الفقراء إليه.

لا زال هذا الإله العظيم، يفرح إذا رضي الناس عنه، وهو لا حاجة له برضا العبيد، كيف وهو المولى؟

انظروا ماذا قال الله سبحانه، قال: "رضي الله عنهم ورضوا عنه".[882]

عن سعد بن أبي وقاص عن رسول الله ﷺ، أنه قال: "من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا وبمحمد رسولا وبالإسلام دينا، غفر له ذنبه". رواه مسلم

من أنت إلهي؟ ما أنت إلا إلهي كما أعرفه، الجواد الشكور، الحليم الغفور

يكفيني أنني عبدك وأنت مولاي

ومن كان مولاه مكون الأكوان كلها، مالك الملك ورازق العالمين أجمعين ومعيلهم، الأول والآخر والظاهر والباطن، ذو العزة والجبروت، الحي الذي لا يموت، من كان هكذا ربه، فمن مثله؟ وكيف لا يرضى ويفرح ومولاه لا مثيل له ولا ند ولا شبيه

ما أسألك وقد جعلتني عبدك؟ حسبي ما جعلتني عزة وشرفا واكتفاء

---

[880] سبأ13

[881] قال ابن القيم: وفي أثر حسن: "ابن آدم ما أنصفتني، خيري إليك نازل وشرك إلي صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي، ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح". انتهى من شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل

[882] المجادلة21

فصل في الصحبة وذكر زمرة من أصحاب الشيخ وفضلهم عليه في معرفة الطريق

يقول الله تعالى: "قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا".[883]

"واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا".[884]

إخواني الأعزاء، اعلموا رحمكم الله تعالى، أن الصحبة ركن أساسي في طريق القوم، وشرط لا بد منه لقطع عقبات النفس وفهم مقاصد السلوك، وما من نبي ولا رسول، إلا وكانت له صحبة

وما من ولي سالك، إلا وهذبت الصحبة سلوكه

وبالنظر إلى من يصحب والمصاحب، الصحبة صحبتان:

صحبة المريد للشيخ: قصد دلالته على الطريق، وقد تقدم الكلام عن شروطها وآدابها

صحبة الشيخ للمريد: وفيها تقوية للشيخ المربي، وزيادة معرفته بالناس وما يصلح لهم، فلا يتأتى للشيخ أن يبرع في أمور التربية، وهو لم يمارسها مع أتباعه، ويتعلمها منهم، فيكتسب الجنوح للحكمة، واختيار الأنسب لكل تابع، حسب ما يصلح له ويصلحه، فلا يكلفه بما لا يحتمل

أما الشيخ غير المصاحب، فمن المحال أن يكون كفءا لتربية المريدين، كيف وهو لا عهد له من قبل بتربية أحد؟

كما أن الشيخ، يمكن أن يصاحب شيوخا غيره، ويتداول معهم أمور الحقائق، وشؤون الرقائق

وفي صحبته لمريديه خير، فهم بسؤالهم لشيخهم، وجوابه عن أسئلتهم، وبمحاورتهم له، واستفساراتهم، في كل ما يهم السلوك، يكسبونه معرفة واسعة، ويطلقون لسانه، ويستفزون فكره، فيفيض عليهم بالعلوم والحقائق

وقيل: إن العالم مثل الغربال، فمهما وضعت فيه من طحين، لا يغربل شيئا، سوى إن حركه إنسان

فكذلك الشيخ العارف، يكون كلامه حسب السالكين وما يحتاجون إليه، وما يوافقهم في الوقت والساعة

وقد أكرمنا الله تعالى، بأصحاب صلحاء، لقينا بعضهم، وعاشرنا بعضهم الآخر، وتداولنا معهم أمور الطريق، وأفدناهم واستفدنا منهم، وأمددناهم واستمددنا منهم، ولولاهم لما اكتملت معارفنا

فقد أعانونا بأفكارهم وأمدونا بأحوالهم، ووقفوا معنا في الشدائد بأموالهم وأنفسهم، ولولاهم لما كان هذا الكتاب

---

[883] الكهف65

[884] طه28-34

فنحن وإياهم شركاء في الأجر، فمن دعا لنا فليدع لهم، ومن ترحم علينا بعد مماتنا فليترحم عليهم
وقد رأينا أن نذكرهم ونعرف بهم، حتى لا ينساهم أحد
ولولا ذلك، لما ذكرنا منهم أحدا، لأنهم من الذين يحبون الخفاء على الظهور، ويحتسبون الأجر عند الله تعالى

فمنهم حمزة بو الاعراف، الجيلاني، الملقب بالعبار

ولد في رباط الفتح، سنة: أربعة وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية، أصله من قبيلة السراغنة بالعطاوي في سطات، من أعمال المغرب الأقصى

لقيناه وهو من أتباع الزاوية البودشيشية، على نهج الشيخ مولاي عبد القادر الجيلاني رحمه الله، وتوجد الزاوية البودشيشية بقرية مداغ من إقليم بركان، يتولاها الشيخ حمزة بن العباس بن المختار القادري بودشيش، أبقاه الله تعالى.

شاركنا ما نحن فيه، وشاركناه ما هو فيه، فلمسنا فيه سيمى الصالحين، وتواضع الإخوة القادريين وتسليمهم، فكان لنا نعم الأخ المعين، على الدنيا والدين، وكان معنا مثال المؤتمن الأمين

توفي أبوه في صغره، فبر بأمه حفظها الله تعالى

كان من أهل البلاء، ابتلاه الله تعالى في جسده فصبر، وفي كسبه فما ضجر، وتغرب عن بلاده فوقر، تعب ونصب، فما انتقر، ومن سمعه وقرت محبة الله تعالى في قلبه

قل طعامه، وطالت فكرته، ورضي بما بسط في المأكل والملبس

تبيت روحه في السماء، ويطير بأجنحة الشوق في الأرجاء، ويزاول مقام الفناء

نفسه لله، وماله لله، بل كله لله

حسبناه في أهل الرضا، الراضين بما قدر الله وصرف، المخبتين الخاشعين السائحين، الظانين بالله خيرا

نشر له الباري عز وجل المحبة في السماء والأرض، فمن رآه أحبه، ولا يكرهه إلا من انطمست بصيرته

وقرنا، وجاور، وأفدناه واستفدنا منه

عددناه في الثابتين

أيها المتفاني في عشق من أفناني، واقف على أغصاني يرتقب ثمارا جناها دان، ترى غويت بما أغواني؟ فكيف الخلاص منك وقد أبقاك وأفناني؟

عرفتك اكتويت لما آويت، تسألني قبسا من نار، حتى التهبت في أحشائك الملفوحة، واحترقت بالمعاني والأسرار، وما أحسست بناري، وما أدركت معاني وأفكاري

الراضي فيما أقامه مولاه، أيان اغترب ونصب، وما عتب ولا اضطرب، طوبى لك ما صبرت على الأضرار، قريبا وبعيدا عن الدار

لا تلمني مهما اشتقت إلي و لم أولك أي اهتمام، شغلني الشوق إليه عن كل من اشتاق إلي وهام

أنا ألاقيك في متاهات متى تحيرت، أدلك على المخارج، ولا تأبه للخروج، أطوحك في المعارج وتأبى العروج، أثقلتك المباهج

استأذنا شيخك في أن نمدك من جذبنا، فأذن لنا على مضض، شيخك منا ونحن منه، فانزل في قرانا ولا تحد

يا صاحب المشربين، ذقت الأمرين: فالأول جرى بالإجحاف سما زعافا، والثاني سرى بالإنصاف كأسا دهاقا.

فاقتل بالأول ربة الأوهام والشكاوى، واحي بالثاني ميتة الأحكام والفتاوى

خذ عني روعي وروائعي، وانتش في ابتداعي وسوابعي، ولا تترل من تداني طوالعي

بما وجدناك عند الحاجة، وما أشعلناك في الأعتام شمعة وهاجة، وخاصمناك مع نفسك اللجلاجة، وصالحناك مع قلبك بعد الجدال والمحاجة

وبما أدركناك وقد أمسكت الحبل و لم تلقه على الغارب، وأرسلناك في فياف، تصول فيها وتحارب، توازي وتقارب

ما علمناك ما نسيت، حتى نسيت ما علمت، وما أنطقناك بما علمت، حتى سكتت عما فهمت، وما صناك عما خبرت، حتى ندمت على ما أخبرت

أمددناك وما زلنا نمدك بألطاف، تتلقاها ما ألقيت عنك حظوظك، وأقبلت كليلا

أما أن تجمع بين الحظوظ والأمداد في قلب واحد، فذاك ما لا تلقى إليه سبيلا

لك مني هذا الهيام، فاحتمل نارا وحرا واصطلاء، واصطبر على احتراقه ونواه، ولا ترجو به بديلا

نحن يا أخي في هذا الأمر نتقلب على الجمر، ونسبح في القر، ونأنف من الصبر، لا نفرق بين العز والقهر

فلا تنتظر منا هوادة، ولا تكتم عنا شهادة، ولا تنعتنا بنعوت السيادة، تكن في عداد بعض السادة، دون حكم وقيادة

ما تظن بالله فاعلا بك أيها المتمايل، وقد علقت في هذه المسائل، وسألت ما لا يسأله سائل، ولما أجيب سؤلك صدقت من غير حجة ولا دلائل

على هضبة التسليم واقف تتردد على هوة الفناء، عرفتها وخانك التصميم والانزواء، قال رضيع أصحاب الأخدود: يا أمة اصبري، فإنك على الحق

عافاك الله تعالى في بدنك، ورفع عنك مشاق الرزق، وثبتك على الحق الذي أنت عليه حتى تلقاه راضيا

"فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم، التايبون العابدون الحامدون السايحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشر المومنين" .[885]

[885] التوبة112-113

ومنهم حسن بو شعيب الجنوي، الملقب بمول البلاد

ولد سنة: سبعة وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية، في سيدي بنور بالجديدة في المغرب الأقصى، أصله من قبيلة أمغارات، التي استقرت بسيدي بنور، ونشأ وترعرع بالجديدة

وجدناه مجتهدا في أمور دنياه، فاهما قضايا عصره، مسايرا لأهل زمانه، ارتقى فهمه، ورجح عقله، وحدت فطنته، فلا يكاد ينخدع

فلما أتانا وسمع منا ومن غيرنا، تبدلت حاله واستقرت أحواله، فاستغنى بالله، ونذر نفسه لخدمة الطريق

يحب أولياء الله الصالحين، ويستهويه كلام المجاذيب منهم على الخصوص

يعيش في الحضر، عيش البادين والغجر، تراه قادما وكأنه يمشي في العراء، لا يلوي على شيء، يشع من وجهه نور البهجة والسرور

راضيا مسلما، شاكرا لآلاء الله وأنعمه، إذا جالسك، لا يكثر عليك الشكوى، فلا تعرف حاله، شبعان أو جائعا، غنيا أو مفلسا، الأمور عنده سواء

أدى واجبه، فوفى تجاه والديه وإخوته، لا يسأم من سماع الكلام عن الله

ازدانت به مجالسنا، واكتملت طريقتنا، وخف حملنا

أعاننا على دوائر الزمان، وخدمنا كواحد من الإخوان، لم يرج بذلك جزاء ولا شكورا

لقب بمول البلاد، لأنه شغوف بالبوادي، لا يعيش في الحواضر إلا كرها

حسبناه في المتوكلين، وقد جمع بين السلوك والجذب، في قلب غمرته محبة الرب

محال أن يخيبه الله، ويرد سؤاله

فانعم برضا الله، إنك من الآمنين

"وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج".[886]

كذلك الجنوي صاحبي، أرض معطاء، لا يغرنك جدبها، وتستكثر منها العطاء، فسرعان مايبللها المطر حتى الرواء

جدب وخصب، سدر وبقل، يترددان على هذي البقاع، يتعاهدان على الصراع، فالجدب يغري العطاشى بالسراب، والخصب يزين المناكب للماشين، ويفرش السهول ويسجي الهضاب

أيها المبتهج وقد خلا ما يبهج، أيها المرتعش وقد خلا ما يرعش، أيها المستبشر وقد خلت البشائر، أيها المستكثر للصغائر

[886] الحج5

يخالجك خصاص، وتوقن بالخلاص، وتربكك النفقات والديون والتبعات، فترات وفترات، وتقول: إن النصر آت

حتى إذا احتوشتك الأحداث والأكدار، لذت بالفرار ولزمت الدار، وضحكت في صبر واصطبار، وسرت ضد التيار، ساخرا من كل الأخبار

لا تحسب الله عن فضلك غافلا، أيها الأبر، هو الذي كان لك ناقلا، من بر إلى بر، حتى ينصبك للقانطين من رحمته رجاء، وحتى يجعلك للجازعين لما يقدر رزقه رثاء، وحتى يصفك للسقامى من هول الفتن والبلاء دواء.

ها هنا حولي تطير، وتملأ خواء بعض فضاآتي، وتقف على بعض تصاريفي التي لا تنتهي

تشغل نفسك ببلائي، تضحك مما يضحكني، وتبكي فيما لا يبكيني

ألم تعلم أن البلاء طبعي، ففيم البكاء على الطبع؟

متى تستريح مما ينتابني من فتن؟ متى يكفيك الله شر المحن والمؤن؟ متى تأمن أيها المؤتمن؟

يا صاحب الجلباب والأقدام حافية، تتفقد أحواضك، وترويها في البادية

مول البلاد هامل بالبكمه فى الواد، سارح بلا زاد، العزيمة صمه، واحد من الاجواد، لاقاني ثمه، عرفته رداد، ربيب النعمة، وشديد الهمة، ما يهمو عديان ولا حساد

كيف ما قرا فى الواحي عاد سايح، جذب ؤ ماعاد ساحي، شم نفاحي واشرب من تسفاحي، هجر اوطانو ونزل في الجوايح

عمر ؤ زيد فى اقداحي عنابه، راني مازلت صاحي ؤ ليلتي عزابة، إلى يطلع صباحي شموسي غرابة، راني نخوض فى بحور الهموم ونداري بعناقد الكروم، تجري ونجاري، ماها دوا لمثلي يفيد، الهم إلى هم محال يدوم بداري، وسراب البوم تحوم فى ليلتي وتزيدني تنكيد

مول البحاير فى شريعتي غراس، مالو حاير من دون الناس، فى همومي صابر، ما يهز الراس، الروح في زعير، والكسدة في أرض فاس

فتحوا لي ببيان زرايبي، انوارها جلات نظاري

هلوا لي إلى بت فى المحاربي، اقمارها طلعات فى ابصاري

كولوا لي إلى ابقات مكاتبي، اسرارها مشات باقدار

لو لقيناك في أوطانك شردناك، وسترناك بأكفانك، وما أوردناك ما أوردناك، حتى تتبرأ من عنانك

"ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا، وقال يا أبت هذا تاويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي، إن ربي لطيف لما يشاء، إنه هو العليم الحكيم".[887]

[887] يوسف100

ومنهم **محمد بوهيجة بركامة، الملقب بالهزمير**

ولد سنة: ثمانية وخمسين وتسعمائة وألف ميلادية، في قبيلة السلامنة من أحواز الرباط آنذاك، هذه القبيلة التي استقرت بناحية بنسليمان بزعير، وأصله من أولاد يعلى بسجلماسة تافيلالت

لقيناه في رباط الفتح، وقد فرقت الأقدار بينه وبين زوجه وبنتيه، حتى لم يعد يدري أين ارتحلن ونزلن، فحرم من فلذتي كبده، وعانى الأمرين، و لم يترك سبيلا في العثور على أهله إلا وسلكه

فلما لم يجده البحث والتنقيب، لجأ إلى المولى عز وجل، وتعبد إليه بالفرض والنفل، وداوم على الذكر وقراءة القرآن والصلاة والتسليم على خير الأنام، حتى سخر له الله تعالى من يدله على مطلوبه، ويمكنه من مرغوبه

فكان ذلك سبب دخوله الطريق، فانكب على كتب القوم يقرأها، وفرغ لنفسه يؤدبها، ولخصاله يهذبها، حتى أصبح له حال مع الله

تفرغ لخدمة الناس وسعى في حاجياتهم، حتى أنه لا يكاد يرد سائلا: فأطعم السائل، وآوى ابن السبيل، وداوى السقيم، وعاد المريض، وحمل العاجز، وشيع الميت

وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، جريئا، عنيف الطبع، يصيح في وجه المخالفين أمر الله، ويزجر الخاطئين، لا يستحيي من الحق، ولا يخاف في الله لومة لائم

صحبناه فوجدناه كثير النقلة والسفر، ولذلك لقب بالهزمير

عانى من الجوع وقلة اليد، وصبر حتى رزقه الله من حيث لا يحتسب، وصار يعيش ويعيل أهله بغير سبب

إذا نظرت إليه، حسبته غنيا، عزيز النفس، لا يسأل الناس إلحافا

حسبناه في المتوكلين، الذين اكتفوا بما عند الله عما في أيدي سواه

مستجاب الدعوة، قريب الدمعة، إذا غضب سرعان ما يرضى، وإذا ظلم سرعان ما يغفر، عددناه في المجاذيب.

من لا يعرف الطريق أخطأه، و لم يقدر قدره، وفاته خير كثير

نفعنا الله ببركته، وأدامنا على صحبته، ومتعنا بحسن عشرته

كوامن الأحوال أثرتها و لم تستقر على حال، زوبعة تعصف بما فضل من أشجاري، في فصل الخريف، تحتحتها وتشتت أوراقها اليابسة في البراري، وعلى الرصيف

ستورق أشجاري من جديد، لما تشتو، وترتوي، وإذا ما أورقت وأزهرت ستستظل في وارفات الظلال، تتوسد الحق وتتغطى بالضلال، متقلدا سيفك الخشبي، وتفزع رعاء الرجال، وتطرد ربات الحجال

بترت عقالك فتهت بين صفوف أتباعي، إذا ما أممتهم في انخلاعي

لا تخش الخروج، فقد غلقت أبواب الدير، وأنزلت شراعي

معصوف بك، تطوحك الريح دون أن تدري، لا تقعد ولا تستريح في قصري، تستهين بإيواني وتعبث بين الصروح، لا تجلسني على كرسي يواتيني، وتجلس في السطوح

ما أبالي وقد أقعدتني في قلبك سنينا، وأجريتني في دمك حنينا، وفديتني بنفسك مخلصا أمينا؟

ما أبالي، وقد حاججتني بالله في اعتراض؟ أربكت حاجياتي وفتنت أغراضي، إذا كنت راضيا فإني راض

أكون معك حين تخلو إلى مولاك أيها العنيد، وتفيض عيناك، ويلين قلب الحديد، وتطفئ ما أشعلت من نار، وتمسخ رياحك العتيدة صبا، وتستغفر الواحد القهار

ما أسرع ما تذنب وما أسرع ما تتوب، ما أسرع ما تسخط وما أسرع ما ترضى، ما أسرع ما تبكي وما أسرع ما تضحك، وما أسرع ما تدعو وما أسرع ما يستجيب

رفرف أبا ياسر جسورا في رياض الله، ولا تخش العتاب، وابن قصورا في الخلاء، فوق السحاب، واركب صحوات ما علا من جيادك، واركض في السراب

أنا في خيالاتك وهم عابر، متى عبرت لا أعود، أنا في أفكارك هم ساحر، في ليالي التسهيد، أنا في روعك هدأة لا تنقص ولا تزيد، وفتنة أرغمتك على أن تبرق في الرعود

"ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم".[888]

---

[888] فصلت33-35

ومنهم عبد الإله بوذراع العيسوي، الملقب بعرفات

ولد في مكناسة الزيتون بالمغرب، بحي سيدي عمرو، سنة سبعة وستين وتسعمائة وألف ميلادية، وأصله من قبيلة أيت عقا، التي استقرت بكروان الشمالية ناحية مكناس، عيسوي المشرب دون اتباع، نسبة إلى سيدي الهادي بنعيسى دفين مكناس، رحمه الله تعالى، أتانا محبا لأولياء الله الصالحين، وصاحبنا على الله تعالى، فزاد بنا وزدنا به تقربا إلى المولى

حسبناه في الصابرين

مسلما لأقوال المشايخ، شغوفا بأخبار السماء، متأنيا في كلامه، متزنا في أفكاره، يسمع أكثر مما يقول، متواضعا لخلق الله، لا يحقر أحدا من العالمين

مكرما لذوي الحاجة، مفرجا للكربات، برا بوالدته وإخوته، وأهله وأصهاره، وأحبابه وأصحابه، موقنا رغم ما هو فيه، بأن الفرج من عند الله

لقب بعرفات لشدة ثباته ووقاره، ووضوح حرمته وخصوصيته

محب لله تعالى ولرسوله ﷺ، قل كلامه، واشتد هيامه، يصغي إلى القول فيتبع أحسنه

أبو الرضا، رضي من الحلال بالقليل، وقنع من متاع الدنيا باليسير

التحق بنا من حيث كان يشتغل، ورضي بأقل منه، ودعي إلى الرجوع وبه خصاصة، فأبى، حتى يجاورنا ويعيننا على الطريق

يأسى لأسى المحتاجين، ويجري في حاجياتهم، رباني النزعة، مكي الوجه، محمدي المشرب والمنهل

أرضاه المولى بما أرضى الناس، وكشف عنه بمنه وفضله عوالم العناية والألطاف، إنه لما يشاء قدير

لا تتزحزح من أعلى الصفاة، حتى لا تنزلق، وارتقب عرض البحر يأتيك الدر سابحا على صفحة الماء، وإذا أتاك لا تسبت

قبعت على الصخرة أيها الغريب، حتى صرت جزءا منها، فلم أعد أفرق بينكما

لا تهم بالقيام، ولا ترج النزول، ولا تنتظر فلكا يقلك، فأنت حيث أنت، وأنت كما أنت، فيك ما به هممت، ومنك ما له رجوت

أي حال أفضل من حالك؟ إذا كفيناك ما تريد لم تعد سائلا، فكففت عنا السؤال، ونحن المجيبون

أي حال أفضل من حالك؟ إذا داوينا جميع أسقامك، لم تعد إلينا شاكيا، وحبست عنا شكواك، ونحن الراحمون

أي حال أفضل من حالك؟ إذا أسكناك في منزل يرضيك، لم تعد شاردا، فانتهت الأملاك عن الاشتغال بك، وصرت آويا، ونحن المنزلون

العيسوي في ربعنا، يرعى النجوم ويجوس خلال الرسوم، رسوم كالنجوم، لم يعد يدر أيهما في الأرض وأيهما في السماء

يسائلني من خلف خيمتي عن الأرواح والأشباح، فأجيب من غير إفصاح، ويسألني عن السماوات والأرض، عن الدواوين والألواح، فكيف أجيب ولست أبين؟

خلقت عالقا في مدارج لا تدري ما هي، متنصلا عن ماهيات الأوامر والنواهي، مصرا على عوارف اللامتناهي.

فكيف ألبي كل هذه الرغبات، وقد جاوزت عالم الشهادة، وتمردت على الكلمات، وخرجت عن العادة؟

فزل عنك واظهر في امحائي، أثبتك في عواصفي وأنوائي، وأبلغك عواطفي وأنفحك بأنسامي، ما سألت عن أنبائي

ولا تسمعني بمسمعيك، ولكن طر في فضاآتي بجناحيك، تجدني منك وإليك، فافهم ما أشرت به عليك

في هذا الرهط رجل غير مسافر، سرح ركبه قبل أن يغادر، وطاف يحكي أساطير الزمن الغابر، ويحاكي البحر، مرة هادئ، ومرة ثائر

يا راض بنا مهما استشكلنا على فكرتك، قد رضينا بصحبتك وقنعنا بعشرتك

يا مسلما لنا ما كسبنا واجترحنا في حضرتك، أي الناس في عثرتك؟

يا ناظرا إلينا، قد صدقت في نظرتك، وصدقت لغونا بحسن نيتك

"واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا، وسبح بحمد ربك حين تقوم، ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم". [889]

---

[889] الطور46

ومنهم رضوان بوجلايل الفخار، الملقب بالمصدق

ازداد بمدينة سلا بالمغرب، سنة: ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية، أصله من قبيلة أولاد رحو، التي تفرعت عنها أيت حمادي أحمد بمنطقة تادلة

كان أبوه فخارا، يكسب رزقه بعرق جبينه، مؤمنا ورعا راضيا بما قسم الله تعالى له، وما صرفه فيه، مات وقد أورث ابنه من خصاله

فكان مبسوط اليد، سخي النفس، لا يحقر أحدا، ولا يرضى أن يحقره أحد، أعطى لكل شيء حقه فوفى

أبو أويس، سمى ابنه باسم سيدنا أويس القرني الزاهد المعروف، تيمنا به، محبوب لدى الأهل والأقارب والأصحاب، خفيف الظل حلو الحديث مبسوط الخاطر، سخر نفسه لخدمة طريق الله تعالى، وحرص على أن يلقى الله تعالى وهو راض عنه

حفظه الله وأهله، وآتاه بما آتى من فضله، ما يكون به في غنى عن الناس، اللهم اكفنا مؤونة العيش واغننا بفضلك عمن سواك

لما فصلت في الركب عرفت أنك من حي ليلى، سكان حيها صحبي، قريبو الدمع، يكفكفونه نهارا ويسدلونه ليلا، رفقاء الشجون في الدرب، أهلا وسهلا، دققتم الأطناب حيث حل سربي، وسألتم حمانا كي تجاورونا في السلم والحرب، وترفعوا عنا من أحمالنا حملا

متفكهين في نوادينا، ساهمين في بوادينا، مستغربين من عوادينا، متطلعين في خوافينا

أيها الأشعث الأغبر، ذو طمرين، أتيت فاسبح في بحرين، والطم جواريا تمخر في فصلين

وعيت كلامي و لم تدرك أنك كلمة في سياقي على التمام، أدسها في التعبير، إذا ما أشرت بالإبهام، في بكائي واشتياقي

بكيت وما علمت أنك دمعة في انتحابي، جرت دون تدبير

أيها الشاكر الممتن، من أدبك؟ تشكو ولا تئن، من عذبك؟ تشفق وتحن، من ذوبك؟

أحبك المولى قبل ازديادك، هلا أمنت هلا؟ قبل استعدادك، فلا تحتقر منك ما يملى، في تصويبك وارتدادك

أنت جار الله، يا عبد الله، هنيئا لك من جاورت، أنت بالله في الله، مهما حاولت، أنت ممن دبرنا لأجله رب كريم، وارتقبناك حتى عاقرت

حسبناك فيمن أخبرنا به في الوافدين، قبل وفوده بسنين، سلام عليك في الأولين، وسلام عليك في الآخرين

في عرسات الجنان أبو أيمن راض مع الإخوان، زهر وأقحوان، حور وولدان، وحنان منان، يبادلنا ما ابتلانا به من أشواق وأشجان، يسامرنا بما يجعل ما أولانا في طي النسيان

أعيدوا وافدا علي، من عندي، أزده مما لدي، في قربي وبعدي، أبلوه بأحلى بلية، وأتلفه ببرقي ورعدي

تثلثت زواياك في قرانا، في ثلاثة ممن تربع، واكتملت دوراتك مستقيمات على قوام المجمع، وخضنا بك بعض الشؤون في تعفف ومجون، فلا تستفق ولا تهجع

رضوان، هذا المترامي قبالتك دائب في أنفاسي، غداة ضللت عن عنواني، وهذا الكون جرى على مقاسي، وعاد في أزيائي وأكفاني

فسرت بالراسيات في عوالم موحشات، بإذن من كفاك وكفاني. هذا الناموس لما رجعت، انضوى في ترديدي وألحاني

وصلت قبل أن نسير، ففيم المسير، أيها الأسير؟

وصلت قبل أن نطفئ الشموع، ففيم الرجوع، أيها المفجوع؟

وصلت قبل أن نخلع النعال، ففيم الاستعجال، ولما يستوي الرجال؟

ما حال دوني ودونك غير الزمان، وإلا سحت بك في جميع الأركان، في تراب كالتبر، وأحجار كالمرجان، وأصعدت الذرى، وطرت مع العقبان، في سماء الأحباء والخلان

أجرى الله تعالى ينابيع الحكمة من قلبك على لسانك، حتى تشجي من القلوب وتحدو قوافل السائرين إلى معرفة علام الغيوب

عافاك الله تعالى في بدنك، وكفاك رزقك، وثبتك على الحق الذي أنت عليه حتى تلقاه راضيا، وأبلغك من المنازل أعلاها

"قل أؤنبيكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار". [890]

---

[890] آل عمران15-16

ومنهم رشيد بوغابة البكاي، الملقب بأكرام

ولد سنة ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف ميلادية، في تازة، وأصله من قبيلة الركيبات بتايناست من أعمال تازة.

جاءنا يافعا، ارتسمت على وجهه مخايل الرشد، حسن النية سليم القصد، شم فينا شذى الجلال، وشرب منا بعض كؤوس المحبة والوصال، فشب على التوحيد والصلاح، ورفل في جنانات الفوز والفلاح

فلما كبر، أورث كلام الله في قلبه الحنين إلى الديار، وتطبع بالاشتياق إلى الواحد القهار

لم ينسنا حاضرا وغائبا، ورق لحالنا مقيما وظاعنا، وزارنا على التوالي وقضى حاجاتنا، زيارة المشتاق للحبيب، مولها مواظبا

أشفق من حال والديه وبر بهما، وسلم للمشايخ ما هم فيه، وأحب عباد الله الصالحين، وبكى من كلامهم، ولذلك لقب بالبكاي

واحد من الأفراد، له علامات وأبعاد، بما جد وأفاد

أصغر من لقينا سنا، وأكبر من عرفناه في سنه شانا

رأى في منامه من الرؤى ما فيه بشارة خير

يستمع الأقوال ويرجي الأفعال، له ذكر في السماء، وعليه سمت الرؤفاء

خفيف الظل، ثقيل الحمل، يتحلل في الحرم، ويحرم في الحل

رزقه الله من عنده من حيث لا يحتسب، وعفا عنه من النوى والاغتراب، وثبته على الطريق حتى يلقاه بقلب سليم، إنه هو الحكيم الوهاب

طارق شب على رفوف أسفارنا، ودب في بعض أسفارنا، ما له عنا محيد

ينثر على قبورنا الزهر والياسمين، ويمسح عنا الغبار لما نعود

لما علق في طيات أسمالنا ونحن نتهيأ للصلاة، قبلناه، لما عقل بعض أقوالنا، تبنيناه، لما أشفق من حالنا، أمناه.

أكرام والعيد زاه، يزهو في أفراحه، في غدوه ورواحه، لاه يلهو، في انقباضه وانشراحه

ليس بخاف عنا ما أنزلتنا فيه من قلبك، أيها الحبيب

ليس بخاف عنا ما ذكرتنا به في نفسك، أيها القريب

ليس بخاف عنا ما اشتقت إلينا في نفيك، أيها الغريب

أنبعنا لك عينين نضاختين في وكرك، تجريان من أصلك، شربا معينا، بر بوالديك وأرضهما ترضنا، فلا تعي من الشرب حتى ترتوي، فإنك متى ارتويت ارتوينا

واخلع عنك هواجس الآتي، حتى تمعن في الثبات، وأيقن بالنجاة، ولا تيأس من النصر في غزاتي، وظن بالله خيرا، وأبشر بانفلات

"وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما، وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا". [891]

[891] الإسراء23-24

ومنهم خالد بوضياف الساخي، الملقب بسيحون

ولد في مكناسة الزيتون بالمغرب، بحي سيدي عمرو، سنة: خمسة وسبعين وتسعمائة وألف، وأصله من أولاد سيدي الغازي بتافيلالت، سبق أن خالط بعض أهل الله بمكناسة، و لم يثبت معهم، لعدم استحسان ما هم فيه وعليه

أتى به أخونا بوذراع العيسوي، بعد أن دعاه إلى الطريق، فأحبها ودخل فيها، فلما أتانا زاد بنا وبمن معنا ثباتا لم يأل جهدا في نصرة الطريق، لايبغي بذاك جزاء ولا شكورا، وإنما مراده رضا الله

عرف بالبذل والعطاء، والإطعام والإيواء، ولذلك كني ببو ضياف

صفا قلبه حتى كان يخرج من ذاته ليلا ويسيح في الآفاق، سياحة الوامق المشتاق، ولذلك لقب بسيحون

تكاد الشياطين تكون عليه لبدا، بسبب قيامه على الحق، فيدافعهم ويجاهدهم معولا على نصرة الله تعالى

وقف معنا على الطريق، رغم كثرة أشغاله ومشاغله، وقف الله معه في تحقيق مطالبه وأمانيه

يسأل عنا قريبا وبعيدا، ويتفقد أحوالنا خاليا ومنشغلا، ويرفع من قدرنا أكثر ما نستحق، رفع الله قدره وأعلى شانه ونصره على من عاداه

أعزه الله، وكان في عونه، ووقاه شر الشياطين وكيدهم

وإن جندنا لهم الغالبون

سيحون والفضا كدرته الظنون حين يسيح، والورى أنظار ترقب المسيح

متفلتا مقاوما، كالطير الجريح، في شرك صياد، إذا غدا لا يروح

هذه الخرجات شلها الولوج، أمعنت في المساجلات، وتحصنت في البروج، تكون للحظات، ينتابها التهريج، وكأنها سنوات، تتمنى فيها الخروج

هائج رائج بين الأمنيات، يقفو ظله في ظلال الوارفات، ويختفي عنه في المباهج، ساعات وساعات

حلم تلاشى، وحقيقة تموهت في أفكار أولي الألباب، هدهم الحساب، و لم يتنكروا للعتاب

بشراك قد أخلصت القصد والإتباع، فكنت في زمرة الأتباع، لك ما لنا وعليك بعض ما علينا، فلا يشغلك حاد عن الاستماع

بما وقر في الفؤاد، لما وقرت أحد العباد، وما رفعت شانه متأدبا حتى ساد، سألنا لك العز والسلامة، وكفيناك العجز في تمامة، وأمددناك بالحزم والاستقامة

أنت عندنا في قطيع الخارجين، حيثما خرجت، فاجتهد أن تكون في سرب العارجين، حيثما صعدت

ستشرق لك الشموس في الظلام، وتفرش المبثوثة حيث تدوس بالأقدام، وينهزم إبليس وتتكسر الأصنام

سنقوي جناحيك حتى تطير، ونغسل ريحانتيك بماء الغدير، ونمسح حواليك كل شر مستطير

فانعم أبا الندى، في عز مولاك، ولا تتجاوز الأفلاك والدراري، كما أنت دار، واصطبر على ما ابتلاك، وزد في اصطبار

.بما وقفت في الأرزاء، وبما استضفت من أسماء، وما عمرت من خواء في العراء، لا تخف ظلما ولا هضما، ولا تراعي هما ولا غما

سيطلع نهار عيدك بعد الحداد، وتفرح برضا رب العباد، ويكفيك الله تعالى بفضله، ويزيد فتزداد

"للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة، أولئك أصحاب الجنة، هم فيها خالدون". [892]

---

[892] يونس26

ومنهم الحاج سليمان بوالمواسم، الملقب بالطواف

ازداد سنة سبع وسبعين وتسعمائة وألف ميلادية بالرباط، أصله من قبيلة الرحاحلة التي دخلت في قبيلة المعاضيد من نواحي أرفود

حج بيت الله الحرام بصحبة أبيه وهو غلام صغير، فانطبع في قلبه جلال الله

يقوم بفرائضه، ويتردد على بيوت الله تعالى، ويشارك أهل الدنيا في دنياهم، وكأنه واحد منهم، يوقر الكبير ويرحم الصغير

حسن النية، سليم القلب، نقي السريرة، حلال المكسب، لا يتراخى عن طلب رزقه بعرق جبينه

مثال التاجر الصادق، وقليل ما هم، لا يرد سائلا، ينظر المتعسر، ويعذر المتعذر، يكرم الفقير ويعز الحقير

بار بوالديه، محسن إلى أهله وذويه، يحبه كل من رآه، ويهابه كل من لاقاه

جواد معطاء، حيي صدوق، رفيق حليم، لا يشكو الله لخلقه، صابر مصطبر، خفيف الظل قوي العزم

خدم الطريق، وظاهر أهل الحق والتحقيق

جمع بين الظاهر والباطن فأصاب، ووازى بين الكفتين لما بلغ النصاب، هو عندنا من المخبتين

أصبت كما أنت فيما أنت، و لم يفتك ما نحن فيه من شهود في الغيبة، ولا ما أنت فيه من غيبة في الشهود

أنت شاهد هذا الزمان، وناشد ذاك الزمان، أيها الإنسان

أنت خبر من أخبار كان، انبعث في الحاضر والآن، جمع بين موطنين في واحد من الأوطان، يا سليمان

أنت مجرد عنوان لنص هؤلاء الإخوان، من قرأك فهم معناهم، ومن فهمهم قرأ مبناك

ستسندك الأركان، حتى تشد ما مال من سدادها، ويمدك الفهم والعرفان، بتسيبها وانسيابها، فتتسدد وتتسيب وتنساب

الأبطحي المهاجر بين الطور والمدائن، المحرم بلا ميقات، يهرول بين السطور ويستفز العبارات، حجه مبرور وسعيه مشكور، في جميع الأعراف والشرائع والديانات

قد وقفت على ما اصطنعنا من فلك في الرمال، و لم تسخر منا، لما شط البحر واستحال، بل ظاهرتنا على ما نصنع، وأمددتنا بالألواح والحبال

حتى إذا انتهينا، أركبناك في زمرة الرجال، وجرت بنا الرياح في موج كالجبال، إلى أن استوت على الجودي

سليم القلب نقي السريرة، سليمان حين يكابد، أبي النفس يداري هديره، يجاري ولا يعاند

ما نقول فيك والناس تشهد بحسن سجيتك؟

ما نقول فيك، وقد استحييت من خصوصيتك؟

ما نقول فيك، وقد عدلت في رعيتك؟

لك الله ناصرا ما استنصرت الله، لك الله رازقا ما استرزقت الله، لك الله معزا ما تعززت بالله، لك الله مجيبا ما سألت الله، لك الله يا عبد الله

تبوأ من هذي الجزيرة حيث تشاء، جزيرتنا تهون فيها الخطوب والأرزاء، وتنكسر على صخورها العواصف والأنواء

ولا تسأل عن البحر تركبه إلى المراسي، بحاراتنا بلا سواحل، جزيرتنا سكانها يركبون في الأنفاس، ويرسون على البلابل

بارك الله في عمرك، ويسر أسباب رزقك، وأعطاك من خزائنه التي لا تنفد، كفافا عفافا، وعرفك به حق المعرفة

"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا، إنك أنت التواب الرحيم".[893]

---

[893] البقرة126-127

خاتمة

وفي ختامه، نحمده تعالى على إتمامه واختتامه، ونبوء له بفضله وإكرامه، على ما هدانا لشرح **الزنار**، بما تيسر من آثار وندر من أخبار، شرحا كان من أغلى أمانينا، استصعبناه بما كابدنا ولقينا، فقد ضاق الوقت وتكالبت الخطوب، وقلت اليد في تحقيق المرغوب، فكيف نفرغ للتأليف، وقد شغلتنا الحياة ببعض التكاليف؟ فبين عيال نقتلع قوهم بالأظافر، وعمل يكاد لا يفرغ ولا يغادر، وجسم أثقلته العلل وانتابته المخاطر

فلا يحسب القارئ ما في صحائفنا فارغين انكتب، فلو اطلع على صفائحنا منذ حين لاستغرب، وإنما زاد الله قوته في ضعف الكاتب، وحبب إلينا الكتابة عند المصاعب، فكان اليراع لنا خير مؤنس ومصاحب، إذا جرى طربنا لإعرابه، وإذا ألهم انتشينا لانسيابه

وسخر لنا سبحانه، من الأصحاب رفقة صالحين، وجدناهم عند الرزايا والأوصاب، ردا واقفين، ألحوا علينا في الكتابة والتقييد، وحرضونا على الجد والتجديد، سدوا خصاصنا وقضوا حوائجنا، وكانوا مناصنا، وصوبوا ارتجاجنا، وأدركوا سمو ما قصدنا إليه، وحملوا معنا هما دللناهم عليه، فكانوا لنا إخوة صادقين، وكنا لهم فتنة في الدنيا والدين، فاللهم ارحمنا بهم وارحمهم بنا أجمعين، واغفر لنا وإياهم ما اجترحته أيدينا غافلين، واقبل منا ومنهم حسنات وفقتنا إليها يوم البعث، واكتبنا في الناجين، إليك توجهنا، ووجهك قصدنا، وعليك عولنا، فكن لنا خير ناصر ومعين

وما خضنا فيه في هذا المؤلف مع الخائضين، وجاريناهم في أحزابهم وصلواتهم ومخاطباتهم وتائياتهم، ونادمناهم في أذواقهم، وسامرناهم في مواجيدهم وإشاراتهم، وما أدلينا في الكلام بدلونا عن الأحوال والمقامات، وما صلنا مع الصائلين وجلنا مع الجائلين، سوى تأدبا مع الأعراف التي أجمع عليها علماء الذوق والسلوك، وأرباب التأدب في حضرات مالك الملوك

وإلا فلا تحتاج معرفة الواحد الأحد لكل هذه المتاهات، ولا يحتاج مريد طريق القوم لأن يصول في رحاب هذه الميادين، ويكابد جل هذه المنازلات، ويقرأ الدواوين، وإنما هي المحجة البيضاء، أوضح من نار على علم، لو استفتيت قلبك، لأغناك عن مطالعة صحائفي، ولو رجعت إلى نفسك، لاستغنيت عن معاقرة سوافحي

ولو كتبنا ما نراه أحق بالكتابة، ما جاوزنا بضع صحائف، ولكن دأب الناس، بما ألفوا من عادات العارفين في كتبهم، وما حفظوا من أصول الطريق، على ألا يقبلوا كلاما لا يخوض فيما خاضوا، وألا يأتوا ما لم يأت ما أتوا، ففعلنا ما أرادوا حتى يفعلوا ما أردنا، وما أردنا، أن يكون ما خضنا وما أتينا، داعيا للقراءة، ومعينا على الفهم. ففي ثنايا ما خضنا، بثثنا من بضع صحائف سطورا، وفي خشاش ما أتينا زرعنا زهورا، وهي لب الكتاب وروحه، وإلا فلا روح بغير جسد، ولو أن أحياء دبت على غير هدى، وغابت أرواحها سدى، فما

قرأته في كتابنا وفهمته بعقلك، إنما هو من خوضنا وإتياننا، وما قرأته وضاعت أنسامه الفياحة بنور الرحمة والسلوان على قلبك، فذاك من روحنا

فاعقل من الأحكام ما كتب، وافهم من الأمثال ما عذب، واشرب من الأنسام ما هب

ولعل آخر الزمان ما نحن في آخره، وقد أصاب الأمة ما جرت في أن يصيبها

فتفرقت في الدين، وجعلته شيعا، كل فرقة اتخذت نصيبها

وفلت شوكة المسلمين، وتداعت عليها الأمم تنتهك خصبها وخصيبها

ونسيت عهود العنفوان والتمكين، يوم أعزها الله، وأذلت من الأمم ندها وضريبها

وفقدت النخوة، ولم تعد تحس بالذل والمهانة، مهما استباح الأعادي حبيبها وقريبها

فالله الله في قوم تشتتوا شيعا، ودينهم يدعوا إلى التوحد والتوحيد

والله الله في قوم تقاعسوا عن نصرة أنفسهم، وهم أهل البأس الشديد

والله الله في علماء تملقوا على أبواب العطاء، يبيعون دينهم بأبخس الأثمان، على موائد البغاة في مأدبات البهتان، باسم الاجتهاد والتجديد

فأنى لنا بيقين قوم مضى زمانهم، وأنى لنا بحكمة وأخلاق قوم فات أوانهم؟

نديم الأنخاب في ليل بلا قمر

كيف يحلو السهر؟

نديمي

وقد غاب زرياب

وانتحب الوتر.[894]

أفحسبتم أيها الناس أنه بتحقيق رغباتكم وتطبيق مبادئكم دون رجوع إلى دستور القرآن، تبلغون المقصود وتحيون حياة طيبة؟ لا والله لا يكون ذلك، كيف والحبيب محمد ﷺ يقول: "لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم؟"

أفحسبتم إذا ما نزعتم حاكمية الله تعالى في الأرض، وحكمتم بأهوائكم أنكم تفلحون؟

لا، والله لا يستقر لكم قرار، في أرض اغتصبتموها وحاكمية ربانية أحبطتموها

فاللهم اقبضنا إليك قبل الفضيحة، ولا تشهدنا قوما لا يتناصحون ولا يقبلون النصيحة، ولا تزد في أعمارنا ما نعيشه في الفتن القبيحة، وإذا أبقيتنا مليا، فليكن في بقائنا خير لنا وللناس أجمعين

---

[894] من قصيدة: زرياب ديوان لأويس هذه المزامير للمؤلف

حزب الحضرة

لأبي الفتح الجعفي

يقول أبو الفتح عفا الله عنه: من قرأ حزب الحضرة لم يبق فيه من الإصرار بقية

وقال: ونرى قراءته ولو مرة واحدة في العمر ، والله الموفق

بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله وفي الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

"وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم". [895]

"وماقدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون". [896]

"سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون". [897]

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الحمد لله الحمد لله الحمد لله.

"وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا". [898]

سبحانك لا أحصي صلاة على سيدنا محمد، كما صليت أنت وملائكتك عليه، اللهم صل على النبي كما تشاء بما تشاء، صلاة ترضيك وترضى بها عنا يوم البعث والجزاء، وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ملك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. آمين

اللهم إني أعوذ بمعافاتك من عقوبتك وبرضاك من سخطك، وبك منك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

---

[895] هود41

[896] الزمر64

[897] الزخرف12-13

[898] الإسراء80

رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا و بمحمد نبيا ورسولا.

لا إله إلا الله الله، لا إله إلا الله الواحد، لا إله إلا الله الأحد، لا إله إلا الله الفرد، لا إله إلا الله الصمد، لا إله إلا الله خلق كل شيء وما مسه من لغوب، لا إله إلا الله علم كل شيء علام الغيوب، لا إله إلا الله يجيب دعوة المضطر إذا دعاه، لا إله إلا الله رب كل شيء ومولاه، لا إله إلا الله الجميل، لا إله إلا الله الحليم، لا إله إلا الله أرسل الرسل، لا إله إلا الله فصل الآيات وأوضح السبل، لا إله إلا الله أنزل الكتب، لا إله إلا الله كشف الحجب، لا إله إلا الله الواحد القهار، لا إله إلا الله يكور الليل على النهار، لا إله إلا الله رب جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، لا إله إلا الله رب إبراهيم الخليل، لا إله إلا الله رب الروح الأكبر، لا إله إلا الله فتح و نصر وخذل من كفر، لا إله إلا الله رب محمد، لا إله إلا الله توحد وتفرد، لا إله إلا الله رب أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، لا إله إلا الله المنان العلي.

"محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ذلك مثلهم في التوراة، ومثلهم في الانجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة و أجرا عظيما". [899]

إلهي لولا إلهي ما عرفت إلهي، إلهي لولا إلهي ما دعوت إلهي، إلهي لولا إلهي ما عبدت إلهي، إلهي لولا إلهي ما أسلمت إلهي، إلهي لولا إلهي ما ذكرت إلهي، إلهي لولا إلهي ما خلقت إلهي.

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الآبق سيدي الكريم بين يديك، اقبله إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الضعيف يا قوي بين يديك، قوه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الفقير يا غني بين يديك، أغنه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الجاني ياتواب بين يديك، تب عنه إلهي

---

[899] الفتح29

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الحقير يا عزيز بين يديك، أعزه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الضال يا هاد بين يديك، اهده إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الحاير يا مدبر بين يديك، دله إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك المريض يا شاف بين يديك، داوه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الخايف يا قهار بين يديك، أجره إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك السايل يا سميع بين يديك، أجبه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الجايع يا رازق بين يديك، أطعمه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك العاري يا كاس بين يديك، اكسه إلهي

إلهي إلهي إلهي

ها عبدك الظلوم الجهول بين يديك، ارحمه إلهي

العبد ببابك يبكي على أعتابك، الضعيف ببابك يبكي على أعتابك، الفقير ببابك يبكي على أعتابك، الجاني ببابك يبكي على أعتابك، الحقير ببابك يبكي على أعتابك، الضال ببابك يبكي على أعتابك، الحاير ببابك يبكي على أعتابك، المريض ببابك يبكي على أعتابك، الخايف ببابك يبكي على أعتابك، السايل ببابك يبكي على أعتابك، الجايع ببابك يبكي على أعتابك، العاري ببابك يبكي على أعتابك، الظلوم الجهول ببابك يبكي على أعتابك.

أنا العبد وأنت السيد، أنا الضعيف وأنت القوي، أنا الفقير وأنت الغني، أنا الجاني وأنت التواب، أنا الحقير وأنت العزيز، أنا الضال وأنت الهادي، أنا الحاير وأنت الدليل، أنا المريض وأنت المداوي، أنا الخايف وأنت المجير، أنا السايل وأنت المجيب، أنا الجائع وأنت المطعم، أنا العاري وأنت الكاسي، أنا الظلوم الجهول وأنت الرحمن الرحيم.

كيف أطرد وأنت السيد؟ كيف أضعف وأنت القوي؟ كيف أفتقر وأنت الغني؟ كيف أقنط وأنت التواب؟ كيف أحقر وأنت العزيز؟ كيف أضل وأنت الهادي؟ كيف أحار وأنت الدليل؟ كيف أمرض وأنت المداوي؟ كيف أخاف وأنت المجير؟ كيف أيأس وأنت المجيب؟ كيف أجوع وأنت الرزاق؟ كيف أعرى وأنت الكاسي؟ كيف أعذب وأنت الرحمن الرحيم؟

ما تضرك صفاتي؟ وما تنفعني غير صفاتك. قابلت صفاتك بصفاتي، فمحت صفاتي صفاتك، فررت منك إليك وتعوذت بك منك، وتوليت عنك وأقبلت عليك، فقابلني برحمتك ولا تعاملني بعدلك، لئن قابلتني برحمتك سعدت وبقيت، ولئن عاملتني بعدلك هلكت وشقيت.

مولاي، هذا جسدي وجهته إليك، فما كان من ذنب أذنبته في حقك اغفره لي، وما كان من ذنب أذنبته في حق عبيدك تحمله عني.

وهذا قلبي وضعته بين يديك، وبرئت مما زاد فيه عليك، أشرق بوجهك الجميل عليه، وامحق بأنوارك ماسكن إليه وانطبع من الصور والأغيار والحوادث والأكدار.

وفقتني للجلوس بين يديك، فأذن لي بمناجاتك والتملي في طلعتك في حضرتك.

أقامونا بحضرتهم وراحوا فلم يحجبهمو عنا رواح
همو في القلب قد سكنوا دهورا متى نادى منادي الشوق لاحوا
بكيناهم وهم فينا حضور وأبكيناهم وهم سياح
نبوح لديهم بالحب بوحا وبوح الصب بالشكوى مباح
شربنا كاس نجوى أسكرتنا وما كاس بمسكرنا وراح.[900]

نجني من الشيطان والدنيا ومن النفس والهوى، ولا تجعل لهم علي من سلطان، واحفظني من طوارق الليل والنهار، من الإنس والجان والهموم والأحزان، والرجال والنساء والولدان، بما حفظت به آي القرءان من التلف والنسيان، واجعلني من عبادك المخلصين بفتح اللام يا منان.

"وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين". [901]

أترضى أن تكدر الأغيار صفو بث حبيبك وشكواه يا قهار؟

---

[900] من نظم المؤلف

[901] يوسف33

غارت النجوم وهدأت العيون، وأنت حي قيوم لا تاخذك سنة ولا نوم، يا حي يا قيوم أنزل علي سكينتك في خلوتي، وأيدني بروح منك في وحدتي، واحفظني في جلوتي، أعتقني من نفسي وهواي في فقري وغناي، وأنزلني مترلا عليا يا مولاي، أوقفتني على أعتابك فافتح لي جميع أبوابك، واكتبني في ديوان أحبابك.

اذكرني مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين، ارحمني وارحم بي جميع العالمين.

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.

ارحم بي النور والنار والهواء والماء والتراب، وكل ما خلقته منها ومن غيرها يا وهاب، الملائكة والجن والإنس والدواب، اللهب والفضاء والبحار والشعاب، ارحم بي المسلمين والكفار وأهل الكتاب، من أول النشأة إلى أن يقوم الحساب، وإلى ما بعد الحساب.

بحق سر الوجود، محمد المحمود ﷺ، الرحمة المهداة والنعمة المسداة، شفيع العباد يوم المعاد. اللهم آت محمدا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، إنك لا تخلف الميعاد.

وبحق أستاذي أبي الحسن الشاذلي، من هديته إليك، وأقمته دالا عليك.

اللهم زد ما وفقتني إليه من طاعتك في صحيفة رسول الله ﷺ،كما بلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة وكشف الغمة، وأزال الظلمة، وجاهد في الله حق جهاده، وفي صحيفة أستاذي كما أمرني بحبك، ودلني على دربك، واكتبني في أتباعه وشيعته، واكتبني وإياه في أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وشيعته "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم". [902]

اللهم بحق اسمك العظيم الأعظم، وبحق نبيك الكريم الأكرم، وبحق ملائكتك وكتبك ورسلك وأنبيائك، وبحق الصالحين أجمعين، تولني ومن معي من أصحاب وأرشدنا إلى الصواب.

"إذ اوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا". [903]

غفرت لمن ظلمني، وصفحت عمن أهانني، و لم أطالب من سلبني، وحبست ذنوبي عمن اغتابني، ودعوت بالخير لكل من قابلني بالأذى والشر، وبرئت من تظلمي إليك في أحد من خلقك، ورجوت الهداية لمن سار في طريق الغواية، واكتفيت بك عن غيرك، وبعطائك عن سلب سواك، "حسبي الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم". [904]

---

[902] الشعراء88-89

[903] الكهف10

[904] التوبة130

"الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويومنون به ويستغفرون للذين ءامنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من ءابائهم وأزواجهم وذرياتهم، انك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم".[905]

"فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط، ان إبراهيم لحليم أواه منيب".[906]

يا من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، يا من قال للسموات والارض ايتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين.

يالطيف يالطيف يالطيف.

أخرجني من الظلمات إلى النور، يا نورا على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.

اجعلني من خاصتك، وعلمني علما لدنيا من ذاتك، وأفض علي من فيوضاتك، وانفحني بنفحاتك، واسقني بكاسات محبتك شربة لا أظمأ بعدها أبدا.

لا تكلني إلى أحد من خلقك، ولا تفقرني إلى غير رزقك، واكفني بك عمن سواك، وأغنني بحلالك عن حرامك، وبوجهك عن دنياك وآخرتك.

اللهم إن كان ماسلف من عمري خيرا مما خلف، فاقبضني إليك في الحال، يا عليم يا ذا الجلال.

وإن كان الخير في ما خلف، فزدني من كاسات الوصال، واجعل خير أعمالي خواتيمها وخير أيامي يوم لقائك، يا ذا العزة والكمال.

آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون.

"ربنا لا تواخذنا إن نسينا أو اخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا، واغفر لنا، وارحمنا، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين".[907]

اللهم اغفر لنا، ولوالدينا، ولأشياخنا، ولمن اتبعنا، ولمن علمنا أو أحسن إلينا، واهد أزواجنا لما هديتنا إليه، واجعلهن أزرا لنا، ولا تجعلهن وزرا علينا، واجعلهن معنا على قدم واحدة في طريق معرفتك، وولهن ما وليتنا، وتولهن بما توليتنا، وخصهن بما خصصتنا، واكتب لهن ما كتبت لنا، واكتبهن رفيقات لنا في الغيب والشهادة،

[905] غافر6-8

[906] هود73-74

[907] البقرة285

والملك والملكوت، والدنيا والآخرة، وأصلح أهلنا وقربانا، واحفظ ذرياتنا وارزقهم من حيث لا يحتسبون، وثبتهم فلا ينقلبون.

"رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي، ربنا وتقبل دعاء، ربنا اغفر لي ولوالدي وللمومنين يوم يقوم الحساب". [908]

والحمد لله رب العالمين

سبحانك لا أحصي صلاة على سيدنا محمد كما صليت أنت وملائكتك عليه، اللهم صل على النبي كما تشاء بما تشاء، صلاة ترضيك وترضى بها عنا يوم البعث والجزاء، وعلى ءاله وصحبه وسلم تسليما.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

[908] إبراهيم42-43

متن رباعية زنار

ابديت بسم الله مولايا الرحمن الرحيم فى ابدايا
الصلا والسلام فى الثاني على نبينا العدناني
لال والاصحاب الأبرار مهاجرين ؤ لا أنصار
يا القاصد ما احنا فيه افهم القصيد ؤ قوافيه
كلامي رموز لمواليه فيما يجوز نوافيه
الشريعه ما هي مرامي مجمع الاحكام احكامي
وثاق الدين الدامي شلا رسوم وارقام
آ الخايض فى الظاهر آ الغادي فى المخاطر
شرع الفقيه فى المحاضر شرع الله فى الخواطر
سرح الروح يا ابنادم وياك تروح بندايم
الورد يفوح بنسايم والشوك دامي فى البهايم
جندوك بالشرع والتنزيل حرفوك بالكفر والتقتيل
تكفر الناس بلا تاويل تفضح العيوب آ الويل
صلاة الخمس فى اوقاتها صوم النوافل ؤ صلاتها
ما ينفع قومان احصاتها من حر النار ؤ صلاتها
اخرج من الشريعه عبدي ندلك على ما عندي
ولا ابقى فيها تعدي نجازيك بالباكور الهندي
ولى خفتي من ناري واشراري مثل العبيد والدراري
لما تروح لداري نحطك تحت اشجاري
الشريعه مكتوبه فى وريقه ضيقة من لا لو ضيقه
الشريعه سياج الحقيقه الحقيقه فى الرقايق رقيقه
أواه أواه آ الموساوي داك ما هو مداوي

دواك عند الهداوي والهداوي خضراوي
خمس احكام اوثانك الحرام ؤ الحلال ديدانك
اشركت بالله فى إيمانك ابدعت البدعه فى زمانك
من أمرك تحكم على عبادوا حتى كفرت قومان بادوا؟
العبد لي جرا على اسيادو كيتو من سوط جلادو
غمض عينيك يا الناظر النظر عمى فى البصاير
اتبع خبير بالسراير لا تسال على مصاير
إلى تبغي تفهم احكامي بالجهل ما شي بالفهامي
علمك زاد فى خصامي انساه واحفظ كلامي
لا تقول: قال فلان كلها يخطا غير العدنان
قل: قال الرحمن فلان كيفك إنسان
ما تقول: أنا هو أنا فى الشرع هوه
تهوي باصحاب الفتوه ؤ هي فى اللسان حلوه
شكون انت حتى تكون غير ذره تايهه فى الكون؟
هو اللي يقول كن للشي حتى يكون
أنا وانت يا القاري غرايب في هاذ الدار
الدار دار الباري شرعو عليها ساري
واش ما زدت عريان من كساك خرقة الاكفان؟
الرحمن علم الإنسان مالك والو فى الحسبان
مازلت تعارض المجاذب صادقهم لا تكون عاتب
كلامهم بضمير الغايب ولا واحد فيهم كاذب
لما تحكم الاصول ؤ الفرايض اعبد الله بلا غرايض
اخرج من مراجي ركايض لبحر بالمحبه فايض

نقب على شيخ واصل بلا شيخ ما تكون مواصل
الشيخ قنديل شاعل فى ظلام مالو أصل
الشيخ كيف تكشفو سوى إلى لمحك بطرفو؟
الشيوخ فى زمانا ما خرفوا لكن خفاوا ؤ ما تعرفوا
الشيوخ عافوا العمايم كشفوا على روس الحكايم
لبسو لباس النعايم عادو كيف الحمايم
الشيخ وقت ما نظرتيه ذكرت الله وعرفتيه
وياك إلى لقيتيه عنو فى يوم تيه
ما يفضل نفسو على غاشي ما يتبختر ؤ هو ماشي
ما يحب الزواق والتواشي حايز نفسو للحواشي
الشيخ بحر طمطام خاضوه الناس بالعرام
منهم خواص وعوام ما نجا غير العوام
سلم ليه يا الطالب لا تروح عنو سالب
اخدمو وكن ليه صاحب لا تسال حتى يجاوب
اسكت عند كلامو وياك تمشي قدامو
اربض عند سلهامو واقفز عند قيامو
لا ترفع صوتك فى حضورو وقف عند سطورو
لا تضحك فى اكدورو ولا تحزن فى سرورو
لا تذكر دون شوارو شحال من ذاكر خلا دارو
لو شاور شيخو فى اذكارو لو عرف مقدارو
اخبار الشوق يا العاشق محال تروق فى الحلايق
والشيخ لو ما كان ذايق ما يذوق ساير الخلايق
نظره فى الشيخ تبري مريض القلب من بكري

ولي باقي دري يرشد بلا ما يدري
ما اتبعو حتى توب بدل ثوب غير الثوب
ثوب الحيي والذيوب فسخو مع الذنوب
ولى ما قبلك الوالي جدد توبتك على التوالي
قبل تراب النعال إلى طمحت للمعالي
إلى دعا معاك بالغفران محال يخيبو الرحمن
يغسلك بالما والريحان يغطيك بشقايق النعمان
لو تستغفر سبعين مره ما يغفر ليك بمره
الغفور مول القدره قادر يحمل الجره
الاسباط تابوا قبل ما يذنبوا نية العمى في قبو
ولي صفى نيتو مع ربو غلبهم بعد ما تغربوا
لو ما عرفتو غفار قمت الليل ؤ صمت النهار
الراعي ما هو حكار حتى يكوي عبادو بالنار
من عرف الله احتار من لا يعرفو حار
محارم العوام كثار منها حلايل الاحرار
احن علي من والدي نعايمو ما هي محصيه
شلا من ذنب غفر لي خلا سريرتي نقيه
ابدا بالتوحيد فى اذكارك الهيلله تغسل اكدارك
تزيح الشرك من دارك اذكر حتى يطلع نهارك
صل على النبي المختار محمد منو شرقت الانوار
توسع صدور الاغيار تزيد فى الرزق مقدار
زيد التوبه الحبيبه سبعين مره فى الحسيبه
ترد الباس ؤ المصيبه تشرع باب البوبيه

من اوراد الشيخ كلام جيب التبعه فى الروام
كلام الشيخ احكام تسكر الروح بلا مدام
لا تزيغ على هاذ الورد لا تكحل بلا مرود
مرود العين السيد إلى ما حبسك زيد جبد
ما دمت تخاف غير الله ما زلت تشرك معاه
ما دمت تحب سواه كلها يغني على ليلاه
ما دمت تطمع فى الناس لا زلت فى طريق الافلاس
يحوجك لموسى وعباس حتى يخذلوك بلا قياس
الولايه سلوك ؤ جذبه والي سالك والي مجذوب
كلها يودي للقربه بها تصفا القلوب
طريقنا سالكه مهذبه كالحجر كالطوب
على المجاهده ما هي مدربه لما يكويها الشوق تذوب
كيف النحل مع الازهار يرشف بالرغبه رحيقو
كيف الليل مع النهار كلها ساير فى طريقو
شوق العاشق بلا شوار لما يخطر عشيقو
قايم الليل بلا اخبار والنهار ناشف ريقو
أجيني يا المغرور أجيني نداويك أنا من الغرور
نوضعك لما توافيني تعود فى الخلايق محكور
وانت يا الباخل لا تواليني حتى تجود جود الميسور
أنا عند الجود تلاقيني باسط كفوفي بلا فشور
ابتر حبال الاعراض تسبح فى بحور الاجواد
طر بجناحات عراض ما تبقى مع الكراد
فى الدنيا ديما عاض حتى ياتي يوم المعاد

يا الخامل بادر بالنواض محال يفيدك رقاد
نوصيك يا المفتون بعيون ناعسه فتانا
النسا عبيدات المجون عاشق النسا ما جانا
صابوا عقال بالجنون ورطوا قومان فطانا
ما يصرفهم غير مول الكون لا تكول: أنا نصرف أنا
قدم التوبه فى الاول سبع مقامات فى التعداد
التوبه عليها تعول من قبل ما تزاد
على مقامها ما تحول حتى تخبر البلاد
إلى ما تبت ما تسول على مقامات الامجاد
لما توب توكل على مولاك يا التايب
إلى بغيتي تتعقل عش فى الدنيا سايب
مريم مهما تتبتل رزقها ياتي بلا سبايب
صحح المقام ؤ تحصل ولا سبب يا العايب
التوكل عندنا توحيد الموكل وحده موحد
من يتوكل على العبيد اشرك بالله شي حد
على العبيد كن تحيد كل ما عندهم ينفد
ما عند الله ما يبيد خزاينو ما ليها حد
العبد مهما تسولو يشردك تلح على سوالو يغضب
سول الله ما يردك التسوال يهواه الرب
من تكسيه يجردك لا زلت عليه تعتب
العبد إلى زردك يوم عليك ينصب
وكلت عليك الله يا نفسي ذليتني مع الهوى
مازلت بيا توسوسي حتى ورطتيني فى الهوا

كل ليله تعرسي هبالك ما عندو دوا
كل عزايمي تهرسي تمنيني بالخوا
اصرف عني كيد الملعون بلاني بحب الدنيا
الدنيا خضيره فى العيون تتقلب كيف الحيه
عمر راسي بالشطون بلاني بألف بليه
ما زلت بالدنيا مفتون كلهم تحاماوا علي
لما تتوكل سلم لابد من التجريب
المتوكل ما يسلم من صهد المكاتيب
ما تعارض ولا تتكلم قابل اقدارو بالترحيب
فين ما وضعك الزم اثبت فى الشده لا تريب
وياك يا ولدي تختار مولاك يعرف صوابك
إلى اخترت تختار تشكي من لي صابك
اصبر على الاضرار ؤ ارضى بمكتابك
الجوع يكون ليك شعار ؤ الفقر اجعلو فى احبابك
لما تستوي بالهداوي يطليك بهموم عظام
إلى ما كان عودك مساوي تعزف مقاطع سقام
إلى تساوت الانعام ؤ البلاوي تجيب النغمه فى التمام
تطرب الناس فى الزواوي ما عاد عليك حكام
اغبط من بردو مولاه بالشده والجوع فى الليالي
لو ما محنو نساه لو نعمو تاه فى الضلال
وقت ما كال: مالي بلاه حتى ما عاد يكول: مالي
ندمو على كل ما عصاه حبب لو طريق المعالي
إلى استوى ما عاد يشعر الميت ما تدميه اشواك

ميت ؤ باقي بالعمر روحو فى كسده بلا حراك
كفنو ؤ وضعو فى القبر قبل لا يموت موتة الهلاك
ساوى الشكر مع الصبر ما عاد يكتب عليه ملاك
حاز مقام الفنا بلا فخر عباد الرحمن فانيين
عصمو من الشيطان إلى خطر تخافوا ساير الشياطين
القلب مع مولاه يحضر ؤ الكسده بين العالمين
كيف ذكر كيف ما ذكر مكتوب فى الذاكرين
إلى ما شفتي مولاك هنا زيد حقق فناك
إلى ما شفتيه ما تتهنى حتى يكون معاك
تنال كل ما تتمنى لما تنسى مناك
ما عدت تطمع فى الجنه بعد ما نلت رجاك
زول زول يا الحاضر امحي نفسك من الوجود
إلى بغيت تكون ناظر لما تزول ما تعود
لو ما كانت الحصاير ما يحلى ليك سجود
شلا حصاير شلا هيادر ولا شي مشهود
ما هو انت ولا انت هو ما ثم غير واحد
النظره هي العدوه لا تنظر ؤ كون شاهد
ابحث عليه كوا ؤ احض مع المصايد
هو موجود بالقوه ما تركب على حصايد
تعال جنبي لا تتخلف اجلس على يميني
لما زلت تصرف فى كوني وتكويني
كيف عرفت زيد عرف لا تتصرف من دوني
إلى قذفت نقذف ولى عفيتي العفو ديني

تعالى نشهدك الخليقه سموات وارضين من العدام
باثقين بالفتيقه شلا دخان ؤ غيام
راطمين بروايح زعيقة نثبتك فى الصدام
نطلعك على الحقيقه أنا الحكيم العلام
واش الي بنى ما يهدم؟ محال تشهد القيامه
صداع البني يدمدم اعتى من صواعق الغمامه
الكون لما يتحطم ما تنفع معاه كمامه
تذهل على رضيعها الام ؤ ياذن الكون بظلامه
لو عرفوا علام البلاد فين ابقاوا لما طاروا
ولا خرجوا من الاجساد ما زادوا غير غاروا
الارنب لو ماخاف الصياد ما يلزم غارو
مالي نبني بالعماد كل ما تفنى احجارو؟
انت الكون يا الخليفه فيك نكون ؤ تكون
إلى تبحث على تليفه اللوح فيها مكنون
علوم ؤ احكايم لطيفه اسرار الكاف والنون
طويت الاكوان كالمليفه ؤ لبست اثواب الكفون

كان مول القدره كان ؤ لازال كاين ويكون، لا احد غيرو كاين في هاذ الكون، الألف فى كان قايمه بلا تقويم، تستر ساكن فى البديا والتقديم، تمد حروف ناصبه وتقيم، محذوفة أو ثابته، حاضره فى التكليم، فى الجلاله مفتاح

دلالتها على المولى

ما بداني غير بالخاطر، مولايا، خاطبني كينو حاضر، عالم بسقامي ودوايا، لما اوحى لي ما اوحى، بث بروعي وحشايا، ثبت ما شا ومحا، من كل ما فى اللوح من اسرار، ؤ بديت نبوح بالافكار، نطقت بلسان القهار، نقهر شي بعضين من اعباد عادوا على العالمين، بعد ما سادو، نبرق بلا شعا فى عيون اعبادو، زبرجده يتيمه فى اعقادو، منظومه بلا نظام، ضاويه موقده فى الاعتام

تمد اكوان واكوان مما كان

كيتي مما عرفت، ليتني ما عرفتو، أنا فى الغيب اسرفت، حتى عدفتو، آش حاجتي بالآتي؟ حسبي اذكاري وصلاتي، مازادني سرايا فى الليالي والو من حالي، ولا معراجي فى الاعلالي عندي غالي، ولا ما تلقيت من خطاب الملاك حلا لي، على خطاب الوالي، مالي نرضى بغير ذي الجلالي، وانا الفقير لما اوحى لي، لما زاد شوقي وهبالي؟

لازلت فى جمالو ولهان

عند ختام المنازل معراجي، ما عدت فى أي مقام نازل، بعد ما جرى فى مهاجي ؤ زاد تهياجي، ريش جناحي المحبه، جناحي عبار، يطير فوق القبه، يقطع الفلك الدوار، عند المليك بمره، فى الملايك مشهور، يتمسح بالسدره، ويطوف بالمعمور، والعرش قوامو قوامي، زاد فى هياجي وتهيامي، موالي الله هو مواليني، ما نعبد حد معاه

لا تسالني على روا وانا عطشان

مانا بادي مانا خاتم، أنا مول الخاتم، نشرت بساط المحبه بعد ما كان فى كفوفي، ولي بغى يصبا ما يجذب غير على دفوفي، مثل رجايا مثل خوفي، لأيني عرفتو رحيم، معروفو سبق معروفي، لأينو جبار، ما أمنت فى ظروفي على صروفي، فى ليل ولا نهار، لما ياذن يواريني، على خلايقو الموت ما يداريني، وخا نموت ما نفارقو، مازال يوربي مانسيت من شقايقو في حدايقو، الشقايق ما هي

مرامي، مرامي حبيب التهامي، من ارسلو به خابر، جعلو صابر، و إلا افنى الـــثـــقلين ما جرى من مناكر، فى واحد من الكونين ظاهر

ما زال راحم بمن عتا رحمن

الجن لو ما وجدو من جودي حيث نجود ؤ نمن وما نتمنن، ما يشدو فى عودي حتى نحن ؤ نتحنن، ولا نحافيهم حيت هما سافهين، ولا نجافيهم ما دامو جاثمين عند اقدامي خايفين حسامي، مهما أمـــنتهم ما أمنوا من سناني فى سهامي، الجن علينا عقال، خفوا ما عادو ثقال، اخف من نار على علام فى الاكمام، ما تزي فيهم اقوال، التتزيل به اشقاوا وابكاو، ما شقى الانس ما شقاهم ولا بكاوا بما بكاهم، الانس قساوا لما نساوا، آش جا ما اصلح الطين إلى يبس؟ ابنادم فلس من سنين

حتى مسو الجان فى الابدان

إلى تحكرني أنا مانطمع فى اقداري، ولى تنصفني تعرف مقداري، أنا نجم فى الاجوا ساري، يتيم فى الدراري، مايهمني تعرف من نكون، خليني خامل ؤ كون اللي تكون، لا تكون علي سايل، إلى تسول في تفتنك فنوني بلا بليه، ولى تقرب لي يسحرك جنوني بلا رقيه، ما يزيدني ثناك إلى اثنيتي علي؟ إلى ما عرفتيني عرفتي الاملاك قبل لا تزاد، ما حاجتي للعباد؟ العباد عبادو، اثني على مولاك

لح في سوالو يا المغنان

لا تكول: حيث كان، ربي ما يحدو مكان، لا تكول: حين كان، ربي ما يحكمو زمان، لا تكول: هو غايب، لا تكول: أنا، وتعود واحد في الربايب، ما بينك ؤ بينو حجايب، محال يحجب الباري حجاب،كيف يحجبو ؤ هو رب الأرباب؟ الله ظاهر ما حجبو غير انت بالذات، زول به عنك ؤ ذوب، تشوفو كامل الصفات، شفتو تهد الجبال والطوب، لا تعجل الهلاك بالنظره، يكفي إلى راك مول القدره، قل: يا من تراني ؤ ما نراك، ثبتني حتى نراك، ما نشرك حد معاك حتى نلقاك

محال تغيب على العيان

فهرس مراجع كتاب: **الاستبشار بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار**

الرقم	المرجع	المؤلف
01	القرآن الكريم برواية الإمام ورش دار المصحف بيروت	
02	المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم دار الجيل بيروت 1408هجرية 1988ميلادية	وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي
03	الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ المطبعة العلمية دمشق طبعة أولى 1404هجرية	سيدي أحمد بن المبارك
04	أبواب الشيطان مطبعة طوب بريس الرباط طبعة أولى 2012ميلادية 1433هجرية	الجعفي أبو الفتح
05	الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1407هجرية 1987ميلادية	محمد بن حبان بن أحمد، أبو حاتم التميمي البستي ترتيب: الأمير علاء الدين، علي بن بلبان الفارسي قدم له وضبط نصه: كمال يوسف الحوت
06	إحياء علوم الدين وبذيله: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار دار الكتب العلمية بيروت 1417هجرية 1996ميلادية	الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي توفي سنة: 505هجرية للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي توفي 806هجرية
07	أخلاق النبي ﷺ وآدابه دار المسلم الرياض طبعة أولى 1418هجرية	أبو الشيخ الأصبهاني محمد بن عبد الله تحقيق: الدكتور صالح الونيان
08	آداب العلماء والمتعلمين جامع التراث	الحسين بن المنصور بالله اليمني توفي سنة: 1050هجرية
09	الأسماء والصفات	أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي
10	أصناف المغرورين جامع التراث	حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، توفي سنة: 505هجرية
11	الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين دار العلم للملايين بيروت لبنان طبعة خامسة 2002ميلادية	خير الدين الزركلي
12	أعلام المغرب العربي	عبد الوهاب بن منصور

المطبعة الملكية طبعة أولى 1979ميلادية

13 أعلام الموقعين عن رب العالمين — ابن قيم الجوزية
مطابع الإسلام القاهرة 1388هجرية

14 اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم — أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني
تحقيق: ناصر بن عبد الكريم العقل
مكتبة الرشيد الرياض طبعة ثانية 1425هجرية 2000ميلادية

15 ألف ليلة وليلة
مطبعة مصطفى البابلي الحلبي
مصر 1960ميلادية

16 الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر — عبد الكريم بن إبراهيم الجيلي
مطبعة مصطفى البابلي وأولاده

17 الأنوار القدسية في شرح أسماء الله الحسنى وأسرارها الخفية — الشيخ: أحمد سعد العقاد
تحقيق: بسام محمد بارود
تقديم: الشيخ عبد الحليم محمود
إشراف: د. محمد سليمان فرج حفيد المؤلف

18 الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية — عبد الوهاب الشعراني
حققه وقدم له: طه عبد الباقي سرور السيد محمد عبد الشافعي
المكتبة العلمية بيروت لبنان طبعة أولى 1410هجرية 1992ميلادية

19 الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف — أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر توفي سنة: 318هجرية
تحقيق ياسر بن كمال
راجعه وعلق عليه: أحمد بن سليمان بن أيوب
قرأه ونقحه: د. عبد الله بن محمد الفقيه
دار الفلاح 1430هجرية

20 الأولياء في المغرب — محمد جنبوبي
مطبعة دار القرويين المغرب طبعة أولى 2008ميلادية

21 إيقاظ الهمم في شرح الحكم — أحمد بن عجيبة الحسني
مطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده
طبعة أولى 1321هجرية 1961ميلادية

22 الإيمان — ابن تيمية
المكتب الإسلامي طبعة ثانية 1392هجرية

23 بداية الخلق في القرآن الكريم — د. محمد العبادي

	دار الفلاح للنشر والتوزيع عمان الأردن طبعة 2006ميلادية	
24	بدع الاعتقاد وأخطارها على المجتمعات الإسلامية أو المعاصرة مكتبة السوادي طبعة أولى 1416هجرية	محمد بن حامد الناصري
25	البيان والتبيين دار مصعب بيروت الطبعة الأولى 1968ميلادية	أبو عثمان، عمرو بن بحر تحقيق: المحامي فوزي عطوي
26	تاريخ بغداد دار الكتب العلمية بيروت	أحمد بن علي، أبو بكر الخطيب البغدادي
27	التاريخ الكبير دائرة المعارف العثمانية	محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري تحقيق: هاشم الندوي وآخرون
28	تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي دار الفكر للطباعة والنشر	محمد بن عبدالرحمن المباركفوري
29	تذكرة الحفاظ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1419هجرية 1998ميلادية	محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي دراسة وتحقيق: زكريا عميرات
30	ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1418هجرية 1998ميلادية	القاضي عياض اليحصبي ضبط وتصحيح: محمد سالم هاشم
31	الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا دار نشر المعرفة الرباط طبعة ثانية 1412هجرية 1991ميلادية	أبو القاسم بن أحمد بن علي بن إبراهيم الزياني تحقيق: عبد الكريم الفيلالي
32	التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط نصوص ووثائق 1404هجرية 1984ميلادية	أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي، عرف بابن الزيات تحقيق: أحمد التوفيق
33	التعرف إلى مذهب أهل التصوف دار الكتب العلمية بيروت 1980ميلادية	الكلاباذي
34	التعريفات	علي الجرجاني الحنفي

مطبعة البابلي الحلبي وأبنائه 1357هجرية 1938ميلادية
تحقيق: أسعد محمد الطيب

35 تفسير القرآن العظيم
دار إحياء التراث العربي بيروت 1388هجرية 1969ميلادية مكتبة الثقافة الدينية طبعة أولى 2005ميلادية
الحافظ عماد الدين أبو الفداء، إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي

36 تفسير القرآن العظيم مسندا عن الرسول ﷺ والصحابة والتابعين
المكتبة العصرية صيدا
أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي
تحقيق: أسعد محمد الطيب

37 تقريب التهذيب
دار الرشيد سوريا حلب 1416هجرية 1992ميلادية
طبعة رابعة منقحة
الإمام الحافظ شهاب الدين، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي
قدم له دراسة وافية وقابله بأصل مؤلفه مقابلة دقيقة: محمد عوامة

38 التنوير في إسقاط التدبير
مكتبة الثقافة الدينية طبعة أولى 2005ميلادية
أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري

39 التوابون
المكتب الإسلامي طبعة ثالثة 1399هجرية 1979ميلادية
عبد الله بن أحمد بن قدامة

40 جامع البيان عن تاويل آي القرآن
القاهرة
ابن جرير أبو جعفر، محمد بن جرير
تحقيق: محمود محمد شاكر وأحمد محمد شاكر

41 الجامع الصحيح سنن الترمذي
دار الفكر بيروت 1400هجرية 1980ميلادية
أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي

42 الجامع لأحكام القرآن
الناشر: دار عالم الكتب الرياض المملكة العربية السعودية
الطبعة: 1423هجرية 2003ميلادية
موقع مكتبة المدينة الرقمية
أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى سنة: 671هجرية)
حققه: هشام سمير البخاري

43 الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه
مطبعة محمد صبيح القاهرة
الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري

44 الجرح والتعديل
مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية
حيدرأباد الدكن الهند 1373هجرية 1953ميلادية
أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر، التيمي الحنظلي

45	جواهر المعاني وبلوغ الأماني من فيض سيدي أبي العباس التجاني وبهامشه كتاب: رماح حرب الرحيم	سيدي علي حرازم ابن العربي برادة المغربي
46	حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة دار إحياء الكتب العلمية بيروت طبعة أولى 1997ميلادية	أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
47	الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال دار الفكر 1424هجرية 2004ميلادية	جلال الدين السيوطي
	كتاب ختم الأولياء المطبعة الكاثوليكية بيروت	الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الترمذي، الملقب بالحكيم الترمذي تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى
48	الخطر اليهودي بروتوكولات حكماء صهيون	محمد خليفة التونسي
49	درة الأسرار وتحفة الأبرار دار آل رافع حجازة قبلي قوص قنا	جمع: الشيخ الحميري المعروف بابن الصباغ قدم له: إبراهيم الرفاعي
50	الدر الثمين والمرشد المعين طبعة البابلي الحلبي مصر 1954ميلادية	الشيخ محمد بن أحمد ميارة الفاسي
51	الدر المنثور دار الفكر بيروت 1993ميلادية	عبد الرحمن بن الكمال، جلال الدين السيوطي
52	دروس تربوية من الأحاديث النبوية نشر: مركز الفجر للإعلام 1431هجرية 2010ميلادية	أبو عبد الله الملك خالد بن عبد الرحمن الحسينان
53	ديوان أطلال مطبعة العاصمة الرباط	الجعفي أبو الفتح
54	ديوان لأويس هذه المزامير	الجعفي أبو الفتح
55	رابعة العدوية دار غريب للطباعة والنشر طبعة أولى 2000ميلادية	مأمون غريب
56	الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق دار عالم الفوائد	أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية توفي سنة: 728هجرية تحقيق: علي بن محمد العمران إشراف: بكر بن عبد الله بوزيد
57	رسالة ابن أبي زيد القيرواني	
58	الرسالة القشيرية	أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري

دار الجيل بيروت طبعة ثانية 1410هجرية 1990ميلادية — تحقيق: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطجي

59 الرعاية لحقوق الله
دار الكتب العلمية بيروت
طبعة رابعة مزيدة ومنقحة مخرجة أحاديثها
أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي توفي سنة: 243هجرية
تحقيق: عبد القادر أحمد عطا

60 روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني
دار إحياء التراث العربي بيروت 1270هجرية
محمود، أبو الفضل، شهاب الدين، الألوسي

61 زاد المعاد في هدي خير العباد
مؤسسة الرسالة الطبعة الثالثة عشر 1406هجرية 1986ميلادية
ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
حقق نصوصه، وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط عبد القادر الأرنؤوط

62 زبد خلاصة التصوف وهو المسمى: حل الرموز ومفاتيح الكنوز
المكتبة الأزهرية للتراث
سلطان العلماء الإمام العز بن عبد السلام توفي سنة: 660هجرية
تحقيق: محمد عبد الرحمن الشاغول

63 سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بمدينة فاس
أبو عبد الله محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني
حققها ووضع فهارسها: حفيد المؤلف الدكتور الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

64 السنن
دار الفكر بيروت
الإمام أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني

65 سنن ابن ماجه
المطبعة العلمية الطبعة الأولى 1313هجرية 1895ميلادية
أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني المعروف بابن ماجه

66 السنن الكبرى
دار الكتب العلمية بيروت طبعة ثالثة 1424هجرية 2003ميلادية
أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي

67 السنن الكبرى
مؤسسة الرسالة
أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي
حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي
قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي
أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط

68 سوانح الخواطر
مطبعة بني يزناسن المغرب 2011ميلادية
أبو الفتح الجعفي

69 السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية
الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة
تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي

	والإرشاد السعودية 1418هجرية	
70	السيرة النبوية دار الفكر القاهرة	أبو محمد عبد الملك بن هشام راجع أصوله وعلق على حواشيه: نخبة من العلماء
71	شذرات الذهب في أخبار من ذهب دار إحياء التراث العربي بيروت	ابن العماد
72	شرح تائية البوزيدي الخمرة الأزلية دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء طبعة أولى 1418هجرية 1998ميلادية	أبو العباس أحمد ابن عجيبة تحقيق: الثابت بنسليمان عبد الباري
73	شرح الحكم العطائية دار ابن كثير دمشق بيروت طبعة أولى 1417هجرية 1997ميلادية	عبد المجيد الشرنوبي تعليق: عبد الفتاح البرم
74	شرح العقيدة الطحاوية الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء الرياض	ابن أبي العز الحنفي مراجعة: أحمد شاكر
75	شعب الإيمان مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند الطبعة الأولى 1423هجرية 2003ميلادية	أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي الخراساني، أبو بكر البيهقي حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي الهند
76	شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل دار التراث القاهرة	أبو عبد الله محمد بن أيوب بن قيم الجوزية تحقيق: حسن عبد الله الحساني
77	صحيح ابن خزيمة المكتب الإسلامي الطبعة الثالثة 1424هجرية 2003ميلادية	محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي محمد ناصر الدين الألباني
78	صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر مركز التراث الثقافي المغربي طبعة أولى 1425هجرية 2004ميلادية	محمد بن الحاج بن محمد بن عبد الله الصغير الإفراني تقديم وتحقيق: د. عبد المجيد خيالي
79	الصوارم والأسنة في الذب عن السنة مطبعة فضالة الطبعة الثانية 1395هجرية 1975ميلادية	محمد بن أبي مدين بن أحمد بن سليمان الشنجيطي
80	طبقات الشاذلية الكبرى المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية	أبو علي الحسن بن محمد بن قاسم الكوهن الفاسي المغربي وضع حواشيه: مرسي محمد علي

	دار الكتب العلمية بيروت لبنان طبعة أولى 1422هجرية 2001ميلادية	
81	الطبقات الكبرى لواقح الأنوار في طبقات الأخيار المطبعة العامرة الشرقية مكتبة: ملتزميه المليجي مصر 1315هجرية	عبد الوهاب الشعراني
82	عمل اليوم والليلة مؤسسة الرسالة بيروت طبعة ثانية 1406هجرية	أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني النسائي تحقيق: الدكتور فاروق حمدان
83	عنوان التوفيق في آداب الطريق دار الكتب العلمية بيروت 2004ميلادية	ابن عطاء الله السكندري
84	عوارف المعارف طبع مع كتاب: إحياء علوم الدين مطبعة الحلبي وشركائه 1968ميلادية	أبو حفص عمر السهروردي
85	العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ مكتبة: أسامة بن زيد بيروت لبنان 1399هجرية 1979ميلادية	القاضي أبو بكر بن العربي حققه وعلق حواشيه: محب الدين الخطيب
86	فتح الباري في شرح صحيح البخاري المطبعة السلفية القاهرة 1380هجرية	أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل شهاب الدين، العسقلاني الشافعي
87	الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية دار الكتب العلمية بيروت 2000ميلادية	أحمد بن محمد ابن عجيبة التطواني تحقيق: عبد الوارث محمد علي
88	الفتوحات المكية دار صادر بيروت	أبو عبد الله محمد بن علي، المعروف بابن عربي الحاتمي الطائي
89	فضل أهل البيت وعلو مكانتهم عند أهل السنة والجماعة الجامعة العربية المملكة العربية السعودية 1422هجرية	عبد المحسن بن حمد العباد
90	فضل أهل العلم وعلو مكانتهم الجامعة الإسلامية السعودية 1422هجرية	عبد المجيد بن حمد العباد البدر
91	الفهرسة دار الغد العربية العباسية القاهرة طبعة أولى 1410هجرية 1990ميلادية	أحمد بن عجيبة حققها وقدم لها وعلق عليها: دكتور عبد الحميد صالح حمدان
92	القاموس المحيط مطبعة السعادة مصر 1332هجرية 1913ميلادية	مجد الدين الفيروزبادي

93 قواعد التصوف — ابن زروق
مكتبة الكليات الأزهرية القاهرة طبعة ثانية 1396هجرية

94 قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد — محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي توفي سنة: 386هجرية
المطبعة المصرية طبعة أولى 1351هجرية

95 الكامل في ضعفاء الرجال — أبو أحمد عبد الله بن عدي الجرجاني
دار الفكر الطبعة الأولى 1404هجرية 1984ميلادية

96 كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى — العلامة القاضي أبو الفضل، عياض اليحصبي
مذيل: بالحاشية اللطيفة المسماة: مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء. للعلامة: أحمد بن محمد بن محمد الشمني، المتوفى سنة: 872هجرية — اعتنى به وراجعه: هيثم الطعيمي نجيب ماجدي
دار الرشاد الحديثة البيضاء المغرب
الطبعة الأولى 1422هجرية 2001ميلادية

97 الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التاويل — جار الله أبو القاسم، محمود بن عمر، الزمخشري
مذيل بحاشية الإمام العلامة: أحمد بن محمد المعروف بابن المنير، وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي
دار الكتاب العربي بيروت 1407هجرية

98 اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية — محمد سعيد رمضان البوطي
دار الفارابي دمشق 1426هجرية 2005ميلادية

99 لسان العرب — أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم بن علي بن أحمد، الأنصاري الخزرجي الإفريقي، ثم المصري، المعروف بابن منظور

100 لسان الميزان — ابن حجر العسقلاني
دار الفكر بيروت لبنان طبعة أولى 1988ميلادية

101 لطائف المنن في مناقب علم المهتدين وقدوة السالكين سيدي أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي وشيخه قطب الأقطاب ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدي أبي الحسن الشاذلي — أحمد ابن عطاء الله السكندري
تحقيق د. عبد الحليم محمود
مجلة كتاب الشعب
دارالشعب 1402هجرية 1986ميلادية

102 اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي — أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي
دار الكتب العلمية بيروت لبنان طبعة أولى 1421هجرية — ضبطه وصححه: كامل مصطفى الهنداوي

	2001ميلادية	
103	اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان دار السلام الرياض طبعة أولى	محمد فؤاد عبد الباقي
104	المأثورات المكتب الإسلامي بيروت 1977ميلادية	الشيخ حسن البنا
105	مجابو الدعوة دار الكتب العلمية بيروت	أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا توفي سنة: 281هجرية
106	مجموع فتاوى ابن تيمية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف المدينة النبوية المملكة العربية السعودية 1416هجرية 1995ميلادية	تقي الدين، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني دراسة وتحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم
107	المحاضرات في الأدب واللغة دار الغرب الإسلامي الرباط 1982ميلادية	الحسن اليوسي تحقيق وشرح: محمد حجي أحمد الشرقاوي إقبال
108	المحكم في نقط المصاحف دار الفكر طبعة ثانية 1418هجرية 1997ميلادية	أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني تحقيق: الدكتور عزة حسن
109	مخاطبات الجعفي	الجعفي أبو الفتح
110	مدونة اليزيد الراضي	www.chtoukapress.com
111	مذكرات الدعوة والداعية المكتب الإسلامي للنشر لبنان 1983ميلادية	حسن البنا
112	مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن منشورات أبي المحاسن ابن الجد	أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري توفي سنة: 1052هجرية دراسة وتحقيق: الشريف محمد حمزة بن علي
113	المستدرك على الصحيحين دائرة المعارف النظامية حيدر آباد الدكن الهند 1335هجرية	أبو عبد الله، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري
114	مسند أبي يعلى دار المأمون للتراث بيروت طبعة ثانية 1410هجرية 1989ميلادية	أحمد بن علي بن المثنى التميمي توفي سنة: 307هجرية حققه وخرج أحاديثه: حسين سليم أسد
115	مسند أحمد	أحمد بن حنبل حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: سعيد الأرنؤوط عادل مرشد
116	المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل	الإمام أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري

عن رسول الله ﷺ

دار الفكر بيروت 1398هجرية

117 مصنف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار
الحافظ عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، إبراهيم بن عثمان بن أبي بسكر بن أبي شيبة، الكوفي العبسي
ضبطه وعلق عليه: الأستاذ سعيد اللحام
الإشراف الفني والمراجعة والتصحيح: مكتب الدراسات والبحوث في دار الفكر

118 المطرب بمشاهير أولياء المغرب
دار الأمان الرباط
الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

119 معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد
المطبعة السلفية القاهرة
حافظ بن أحمد بن علي حكمي

120 معالم في الطريق
دار الشروق
سيد قطب

121 معالم من تاريخ التصوف بالمغرب
أحمد التوفيق موقع: www.habous.gov.ma

122 المعجم الأوسط
طبع في دار الحرمين القاهرة 1995ميلادية
أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني توفي سنة: 360هجرية
تحقيق: طارق عوض الله محمد وعبد المحسن ابراهيم الحسيني

123 معجم البلدان
مطبعة السعادة على نفقة أحمد ناجي الجمالي
أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي توفي سنة: 622هجرية

124 المعجم الصغير
دار الفكر بيروت لبنان طبعة أولى 1997ميلادية
سليمان بن أحمد الطبراني
تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان

125 المعجم الكبير
إحياء التراث العربي بيروت الطبعة الثانية 1406هجرية 1985ميلادية
أبو القاسم، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني
تحقيق: عبد المجيد السلفي

126 معجم المؤلفين
مكتبة المثنى دار إحياء التراث العربي لبنان
عمر رضا كحالة

127 المعجم الوسيط
مطابع دار المعارف القاهرة مصر طبعة ثانية 1972ميلادية
أخرجه للطبع: إبراهيم أنيس، عطية الصوالحي، عبد الحليم منتصر، محمد خلف الله أحمد

128 معراج التشوف لحقائق التصوف
مطبعة الاعتدال دمشق طبعة أولى 1938ميلادية
أحمد بن محمد بن عجيبة
تصحيح: محمد بن أحمد الهاشمي

129 معرفة الصحابة — أبو نعيم الأصبهاني
دار الوطن للنشر الرياض — تحقيق: عادل بن يوسف العزازي
طبعة أولى 1419هجرية 1998ميلادية

130 مفاتيح الغيب، المعروف بالتفسير الكبير — محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، التيمي البكري، فخر الدين الرازي
المطبعة البهية المصرية بالقاهرة الطبعة الأولى

131 المفاخر العلية — أحمد بن محمد بن عياد الشافعي الشاذلي
دار الكتب العلمية طبعة أولى 2004ميلادية — تحقيق: عاصم الكيالي

132 مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة — محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية
دار ابن عفان طبعة أولى 1416هجرية 1996ميلادية — تحقيق: علي حسن عبد الحميد الحلبي

133 مقدمة ابن خلدون — عبد الرحمن بن خلدون
المطبعة الشرقية 1327هجرية

134 مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب — حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي
حقق نصوصه وخرج أحاديثه: أبو عبد الرحمن صلاح محمد محمد عويضة

135 منازل السائرين — للإمام أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن علي بن جعفر بن منصور الأنصاري الهروي 396-483هجرية
وهو الكتاب الذي شرحه ابن قيم الجوزية في (مدارج السالكين)

136 المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال — حجة الاسلام أبو حامد الغزالي
دار الأندلس بيروت طبعة سابعة 1967ميلادية — حققه وقدم له: الدكتور جميل صليبا الدكتور كامل عياد

137 الموطأ رواية يحيى بن يحيى الليثي — مالك بن أنس الأصبحي
دار الغرب الإسلامي بيروت — تحقيق: الدكتور بشار معروف

138 موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان — محمد الكسنزان الحسيني رئيس الطريقة العلية القادرية الكسنزانية
دار آية بيروت طبعة أولى 1426هجرية 2005ميلادية

139 نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد المقري القرشي الملقب بشهاب الدين توفي سنة: 1041هجرية
المطبعة الأزهرية طبعة أولى 1884ميلادية

140 نهج البلاغة — الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
طبعة مصر — تحقيق: محمد عبده

141 نور التحقيق في صحة أعمال الطريق — حامد إبراهيم محمد صقر
ملحق في آخره برسالة: القول الحق في الصحة والنطق باسم الصدر عند السادة الشاذلية تأليف: محمد الحسيني

الظواهري
دار التأليف مصر 1970ميلادية

142 نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار
دار ابن القيم الرياض دار ابن عفان القاهرة طبعة أولى 1426هجرية 2005ميلادية
محمد بن علي بن محمد الشوكاني توفي سنة: 1250هجرية
حققه وعلق عليه: أبو معاذ طارق بن عوض الله محمد

143 وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان
دار صادر بيروت
أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، توفي سنة: 681هجرية
حققه: إحسان عباس

145 ويكيبيديا الموسوعة الحرة

فهرس مراجع ما استشهدنا به من موسوعة الكسنزان

المؤلف	المرجع
ابن عربي	الفتوحات المكية
	شجون المسجون وفنون المفتون
	مخطوطة نبذة لطيفة وكلمات طريفة
ابن عباد الرندي	الرسائل الصغرى
	غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية
	مخطوطة الموارد الجلية في أمور الشاذلية
أبو عبد الرحمن السلمي	طبقات الصوفية
أحمد بن عجيبة	الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية
أحمد كاظم البهادلي	من هدي النبي والعترة في تهذيب النفس وآداب العشرة (القسم الأول)
إسماعيل حقي البروسوي	تفسير روح البيان
بولس نويا	الرسائل الصغرى للشيخ ابن عباد الرندي
تاج الدين بن زكريا العثماني	مخطوطة كوكب الشاهق الكاشف للسالك
حجازي الموصلي	مخطوطة كوكب الشاهق الكاشف للسالك
سعيد النورسي	أنوار الحقيقة
طه عبد الباقي سرور	الشعراني والتصوف الإسلامي
عبد الكريم الجيلي	الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل
	مخطوطة شرح مشكلات الفتوحات المكية وفتح الأبواب المغلقات من العلوم اللدنية
عبد الله الدهلوي	التفهيمات الإلهية
عبد الوهاب الشعراني	لطائف المنن والأخلاق في بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق
الدكتور عبد الوهاب عزام	التصوف وفريد الدين العطار
علي بن يوسف الشطنوفي	مخطوطة بهجة الأسرار ومعدن الأنوار
علي فهمي خشيم	أحمد زروق والزروقية
عماد الدين الأموي	حياة القلوب (بهامش قوت القلوب لأبي طالب المكي)
الإمام الغزالي	مخطوطة الأربعين في أصول الدين
	سر العالمين وكشف ما في الدارين
د. قاسم السامرائي	أربع رسائل في التصوف لأبي القاسم القشيري

د. قاسم غني تاريخ	التصوف في الإسلام
قطب الدين البكري الدمشقي	مخطوطة شرح ورد السحر الكبير
كريم الدين البرموني	كتاب تنقيح روضة الأزهار ومنية السادة الأبرار في مناقب سيدي عبد السلام الأسمر
محمد أبو المواهب الشاذلي	قوانين حكم الإشراق
محمد عبده	نهج البلاغة

إبراهيم بن إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي 78
مولاي إبراهيم المغاري، حفيد الولي عبد الله بن حسين، دفين تامصلوحت بضواحي مراكش 165
أبو بكر محيي الدين، محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي 206
أبو الحسن الشاذلي: شيخ الطائفة الشاذلية 164
أبو شعيب، أيوب بن سعيد الصنهاجي 181
أبو العباس أحمد التجاني 272
أبو العباس المرسي: أحمد بن عمر الأنصاري 159
أبو الفتح الواسطي 174
أبو مدين شعيب بن حسين الأنصاري 139
أبو المواهب شرف الدين، علي الشعراني الأنصاري الشافعي 142
أبو يعزى بلنور بن ميمون 180
أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الشريف الحسني 143
إسماعيل بن يحيى بن سلمة بن كهيل الحضرمي الكوفي 78
جرير بن الخطفي 302
حفص بن غياث بن طلق بن معاوية النخعي، أبو عمر الكوفي القاضي 80
أم الخير رابعة ابنة إسماعيل، العدوية البصرية مولاة آل عتيك 191
شريك بن عبد الله أبو عبد الله النخعي الكوفي القاضي 74
عبد الرحمن المجذوب 149
عبد العزيز الدباغ 229
عبد الكريم بن عطاء الله، أبو محمد الإسكندراني 192
عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري 77
عز الدين بن عبد السلام، بن عبد العزيز بن أبي القاسم بن حسن بن محمد بن مهذب، السلمي أبو محمد 192
العلاء بن إسماعيل العطار 80
علي بن أحمد الدوار الصنهاجي 150
علي الخواص البرلسي 142
محمد بن أحمد البوزيدي، الشريف الحسني السلماني الغماري 142
محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، يكنى أبا عبد الله 76
محمد بن علي بن الحسن بن بشير، الحكيم الترمذي، أبو عبد الله 206
الحاج محمد الحبيب بن الحاج إبراهيم بن الحاج عبد الله بن الحاج محمد بن أحمد البوشواري الميلكي 151

محمد الحمداوي 119
محمد العربي بن أحمد، الدرقاوي الزروالي الشريف الحسني 179
محمد فتحا بن عبد الرحمن بن سليمان الجزولي 256
محمد متولي الشعراوي 117

فهرس مواضيع كتاب: الاستبشار بشرح ما خفي في زنار من لطائف المعاني والأفكار ورقائق الحكم والأسرار

اهداء

بين يدي نجواك 01

توطئة 05

موضوع الكتاب 11

تمهيد 14

نشأة التصوف

تعريف التصوف 15

حاجتنا إلى التكامل من أجل تحقيق التوازن 22

ماذا عن المغرب الأقصى؟ 26

خاصية التصوف المغربي 30

ابديت باسم الله مولايا استفتاح شرح رباعية زنار 33

فضل الاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم

معنى اسميه تعالى: الرحمن الرحيم 35

فصل في فضل الصلاة على النبي ﷺ 38

نسب النبي ﷺ 39

ذكر سرد النسب الزكي من محمد ﷺ إلى آدم عليه السلام

صفة الحبيب محمد عليه الصلاة والسلام

فضل الإحسان إلى آله ﷺ 41

الكلام على صحابته ﷺ 45

فرية التحكيم 46

الرد على فرية التحكيم 47

فصل في ذم التشدد في الدين 53

حكم الفتوى وشروط المفتي 54

جواز التقليد لمن قصر عن الاجتهاد 55

ترجيح مذهب مالك على غيره من المذاهب 58

في ترجيحه من طريق النقل
قال أبو الفتح الجعفي: فصل في من ذم التقليد 62
ما قاله ابن القيم في ذمه للتقليد عامة 63
القول الفصل: في جواز التقليد وأحكامه 64
ما يقدم في السجود المتضمن لما رآه ابن القيم والرد عليه 69
رد صاحب تحفة الأحوذي ما ذهب إليه ابن القيم 73
بيان العبرة مما ساقه الباري عز وجل من قصة عبد الله الخضر مع موسى عليهما السلام 84
أويس بن عامر القرني خير التابعين 91
تعريف البدعة لغة واصطلاحا 95
البدعة حقيقية وإضافية
موقع المصالح المرسلة والاستحسان من البدعة 96
جواز البدعة المستحسنة في الدين 99
يبعث الباري عز وجل من يجدد للأمة دينها على رأس كل مائة سنة 104
حكم سيد قطب على المجتمعات الحالية بالجاهلية 105
إخباره ﷺ بالفتن التي تكون في آخر الزمان 107
كيف الأمر إذا لم تكن جماعة؟ 108
ما يجب على الراعي تجاه الرعية 109
الأمر بالسمع والطاعة في المنشط والمكره 110
باب من شاق شق الله عليه 111
بروتوكولات حكماء صهيون 112
ولاتكم أعمالكم 115
كلمة الشيخ محمد متولي شعراوي إلى الرئيس المصري السابق 117
وجوب النصح للراعي 121
تحريم قتال المسلم للمسلم 122
خروج سيد قطب عن الكتاب والسنة بحكمه على المجتمعات الحالية بالجاهلية 123
حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين و الصوفي الزاهد 125

لقاؤه رحمه الله تعالى بشيخ الطريقة الحصافية	
تصويب الفهم الخاطئ لبعض مصطلحات الدين ومفاهيمه	127
موقف أهل السنة من غلو الخوارج	129
رعب في البيضاء	134
تعريف الجذب وذكر أحوال بعض المجاذيب	148
سيدي عبد الرحمن المجذوب	149
سيدي علي بن أحمد الدوار الصنهاجي (شيخ سيدي عبد الرحمن المجذوب)	150
الكلام على الشيخ	156
ليس من السهل معرفة العارف	158
مبدأ أبي الفتح، وكيف هداه مولاه إلى الحق بمنه وكرمه	162
قصيدة في زيارة أبي الفتح لضريح مولاي إبراهيم الأمغاري	168
فصل في الكلام على لبس الصوف، وهديه ﷺ في الكسوة واللباس	171
رحلة أبي الحسن الشاذلي في طلب القطب	174
علامات الشيخ الواصل	176
آداب المريد مع شيخه	180
فضل الذكر والذاكرين	189
الكلام على الشوق	191
ومن نظم أبي الفتح في فن الملحون	194
حكم لبس الخرقة	201
أصل لبس الخرقة	
الخرقة خرقتان	202
حقوق لبس الخرقة	
بحسب الآفاق تنكشف الأوراق	205
علامات القطب عند الشيخ أبي الحسن الشاذلي	
ما اخترناه من أسئلة الحكيم الترمذي وما رد به ابن عربي ثم تعليقنا عليه	206
الكلام على الهيئة وما يتعلق بها	218

منزلة القطب عند ابن عربي	221
صفات القطب عند ابن عربي	224
التعليق على كلام ابن عربي	226
سفينة الحقيقة	228
كلام سيدي عبد العزيز الدباغ في الهيئة واجتماعها	229
تعليق أبي الفتح على ما قاله الدباغ	231
أسئلة أبي الفتح الجعفي عن القطب والهيئة	232
الكلام عن التوبة والاستغفار	234
الكلام عن حال الحيرة	239
تضارب فتاوى العوام والخواص لاختلاف نظرهم إلى النصوص	242
فضائل الذكر	246
فضل لا إله إلا الله	247
فضل الصلاة على رسول الله ﷺ	249
كيف يكون الذكر؟	250
مقام التوبة	253
كيف يضع الشيخ حزبه؟	255
لا ذكر بغير مشاورة الشيخ	258
لا تخش غير الواحد الأحد	259
النهي عن كثرة السؤال والطمع فيما في أيدي الناس	267
الحكمة من تسليط الناس على عباده الصالحين	269
سيدي أبو العباس أحمد التجاني وما افتراه عليه صاحب الترجمانة الكبرى	272
تعريف الولاية وشروطها	276
الولاية سلوك وجذب	277
الكلام على مبدإ المجاهدة عند الصوفية	278
منهج شيخنا أبي الحسن الشاذلي في السلوك	279
تربية الشيخ للمريد	281

ما اختلقه الصوفية من غرائب في الطريق، لا تمت إلى سنة رسول الله ﷺ بصلة 283
الكلام على الغرور والمغرورين 287
ذم البخل والبخلاء 289
الكلام على الجود باليمين 291
بالجود ينفعل الوجود 292
وصية الشيخ أبي الفتح الجعفي لإخوانه في الله تعالى 295
النهي عن التثاقل إلى الأرض 298
المقام والحال والفرق بينهما 304
الكلام على مقام التوبة 305
يقول الجعفي عفا الله عنه: نفرق بيت التوبة والاستغفار 306
في رحاب التوابين 310
الكلام على التوكل 316
تعريف مقام التوكل
حكمة الأخذ بالأسباب 318
الكلام على النفس الأمارة بالسوء 322
الكلام على إبليس لعنه الله تعالى 326
استعاذة أبي الفتح الجعفي 329
ما قاله الإمام أبو حامد في الدنيا وتقلبها 331
الكلام على مقام التسليم 332
الكلام على التسليم ومجانبة الاختيار 334
حديث ثعلبة بن حاطب وإخلافه وعده 335
الكلام على الصبر عند البلاء 337
الكلام على الرضا 338
الكلام على مقام الاستواء 341
الكلام على مقام الفناء 344
باب البقاء 345

أنواع التلقي 348
باب المشاهدة 354
باب المعاينة
الكلام على مقام التصريف 356
الكلام على الخلق 360
ابتداء الخلق في القرآن الكريم 362
ابتداء الخلق في السنة النبوية 365
قال الجعفي: حكمة الله تعالى في خلق الزمان والمكان في الوقت ذاته 377
فصل فيما أول به الشيخ قوله تعالى: وعلم آدم الاسماء كلها 380
باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات 389
قال أبو الفتح: نفرق بين التوحيد والوحدة 391
متى يكون الفتح، وكيف يكون؟ 399
الكلام على السماع 409
آداب السماع 413
الوجد والتواجد 414
الدعوة إلى الخمول والابتعاد عن الشهرة 420
كيف تتوب من التوحيد إلى الوحدة؟ 423
تأدب الرسل والأنبياء عليهم السلام في دعائهم الله تعالى 426
فصل في الصحبة وذكر زمرة من أصحاب الشيخ وفضلهم عليه في معرفة الطريق 429
فمنهم: حمزة بو الاعراف الجيلاني، الملقب بالعبار 431
ومنهم: حسن بوشعيب الجنوي، الملقب بمول البلاد 433
ومنهم: محمد بوهيجة بركامة، الملقب بالهزمير 436
ومنهم: عبد الإله بوذراع العيسوي، الملقب بعرفات 438
ومنهم: رضوان بوجلايل الفخار، الملقب بالمصدق 440
ومنهم: رشيد بوغابة البكاي، الملقب بأكرام 442
ومنهم: خالد بوضياف الساخي، الملقب بسيحون 444

ومنهم: الحاج سليمان بو المواسم، الملقب بالطواف	446
خاتمة	448
حزب الحضرة	450
متن رباعية زنار	457
فهرس مراجع كتاب الاستبشار	469
فهرس مراجع ما استشهدنا به من موسوعة الكستران	482
فهرس الأعلام الواردة تراجمهم في الكتاب	484
فهرس مواضيع كتاب الاستبشار	487

هذا الكتاب لا ينتصر للباطنية والصوفية، ولا للظاهرية والسلفية، بل ينتصر للإسلام

فهو موجه لكل من يقول لا إله إلا الله، كيفما كان مذهبه، وكيفما كان مشربه.. موجه للأمة

وموضوعه: حفظ ميزان الاعتدال، الذي أقام الحق سبحانه وتعالى عليه شريعة الإسلام

"وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ". الرحمن5-7

هذا الميزان الذي مال به المتطرفون إلى التشدد والغلو والمغالاة، ومال به المتساهلون إلى الدعة والخمول واللامبالاة

نحن في كتابنا هذا، نحاول ما استطعنا، أن نرد الأمور إلى نصابها، بالحجة والدليل والبرهان

نحاول أن نوحد كلمة المسلمين ونجمع شتاتهم، نبشرهم حيث أنذرهم غيرنا، وننهاهم عن الشقاق والتكفير والتقتيل فيما بينهم

كتاب الاستبشار.. بشرى للمسلمين كافة، تنشرح له القلوب المغمومة، وتفرح له النفوس المهزومة، وتطمئن بمعرفة مولاها الحنان المنان

نحاول في هذا الكتاب، ألا نكون مجرد ناقلين لما كتبه غيرنا ممن سلف من العلماء والأخيار

فهذه كتبهم، رحمهم الله تعالى، لا زالت قائمة بين ظهرانينا، تزخر بها خزاناتنا ومكتباتنا، فلا داعي لتحصيل الحاصل، وما كتبوه يغني عن نقله

كما حاولنا، ألا يأتي هذا الكتاب عبارة عن كلام الكاتب وحده، وآرائه ومواقفه الخاصة

فبذلك تكون هذه الآراء والمواقف، مجرد وجهات نظر واختيارات شخصية، لا دليل عليها ولا برهان، فلا تؤخذ بعين الاعتبار. إننا نورد الأقوال والاستشهادات من مراجعها، ونقابل فيما بينها ونحققها، ونختار ما هو صحيح على حسب اجتهادنا، ونؤيده بما تيسر من آيات وأحاديث

نساجل الفقهاء والمحدثين، كفقهاء ومحدثين، ونحاجج الزهاد والصوفية، كزهاد وصوفية، ونجادل المفكرين والمنظرين، كمفكرين ومنظرين

الثمن: 70 درهما